

شَرْحُ

القَضِيَّةِ الْوَسْطِيَّةِ

المُسَمَّاةُ

الْكَافِيَّةِ الشَّافِيَّةِ فِي الْإِنْصَارِ لِلْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ

لِلْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ

الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧٥١ هـ

تَأَلَّفُ

الْعَلَّامَةُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ

وَالْعَلَّامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ

وَمَعَهُ تَعْلِيقاتُ مُهِمَّةٌ وَمُفِيدَةٌ

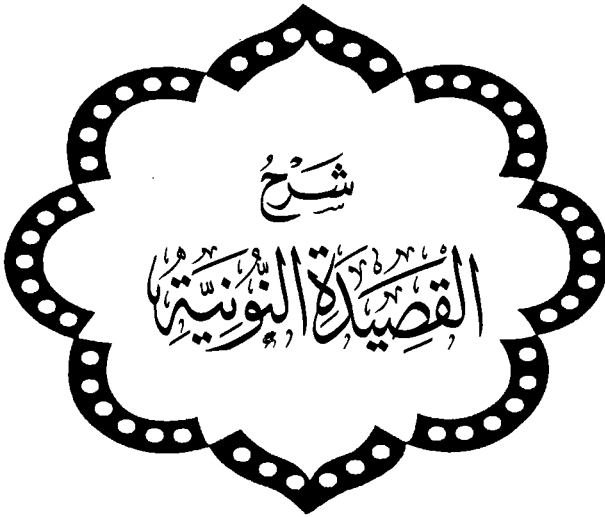
لِلْعَلَّامَةِ مُحَمَّدِ بْنِ خَلِيلِ هَرَّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ

اعْتَمَدَ بِهِ وَعَلَيْتَ عَلَيْهِ

فضيلة الشيخ الدكتور أبو حاتم عبد المنعم أبو بكر

المجلد الثالث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



شَرَحُ

القصة الأولى التوتية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رَبِّنا اِنَّا اِنزَلنا الكتابَ بِالحِكمةِ
وَلِتُذَكِّرنا بِالْعِلْمِ
حقوق الطبع محفوظة للناسخ



ALTABARI'S LIBRARY

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

: سَنَةُ الطَّبْعِ

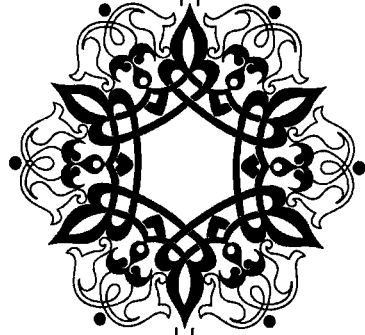
٢٠٠٨ / ٧٦٩٧

: رَقْمُ الْإِيدَاعِ

الأولى

: رَقْمُ الطَّبْعَةِ

مكتبة طبري
للنشر والتوزيع



جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس
١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سينترال النزهة

الجوال: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ - ٠١٠٦٦٨١٠٧٩

فاكس: ٠٢٢٢٩٩٩٣٦٠ - ٠٢٢٢٩٩٩٣٨٠

tabari24@gmail.com





فصل

في ذكر فرق لهم آخر وبيان بطلانه



- ٢١٥٢- فَلِذَاكَ قَالَ زَعِيمُهُمْ فِي نَفْسِهِ
فَرَقًا سِوَى هَذَا الَّذِي تَرِيَانِ
- ٢١٥٣- هَذِي الصِّفَاتُ عَقُولُنَا دَلَّتْ عَلَيَّ
إِبْتَاتَهَا مَعَ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ
- ٢١٥٤- فَلِذَاكَ صُنَّاهَا عَنِ التَّأْوِيلِ فَاعِدِ
جَبَّ يَا أَخَا التَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ
- ٢١٥٥- كَيْفَ اعْتِرَافُ الْقَوْمِ أَنْ عَقُولَهُمْ
دَلَّتْ عَلَيَّ التَّجْسِيمِ بِالْبُرْهَانِ
- ٢١٥٦- فَيُقَالُ هَلْ فِي الْعَقْلِ تَجْسِيمٌ أَمْ أَلِ
مَعْقُولٌ يَنْفِيهِ ذَلِكَ لِلتَّقْضَانِ
- ٢١٥٧- إِنْ قُلْتُمْ يَنْفِيهِ فَاَنْفُوا هَذِهِ أَلِ
أَوْصَافٍ وَأَنْسَلِحُوا مِنْ الْقُرْآنِ
- ٢١٥٨- أَوْ قُلْتُمْ يَقْضِي بِإِبْتَاتٍ لَهُ
فَفَرَارُكُمْ مِنْهَا لِأَيِّ مَعَانِ
- ٢١٥٩- أَوْ قُلْتُمْ نَنْفِيهِ فِي وَصْفٍ وَلَا
نَنْفِيهِ فِي وَصْفٍ بِلَا بُرْهَانِ
- ٢١٦٠- فَيُقَالُ مَا الْفُرْقَانُ بَيْنَهُمَا وَمَا أَلِ

بُرْهَانُ فَأْتُوا الْآنَ بِالْفُرْقَانِ
الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هذا الفصل عقده المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لبيان شبهة أخرى للمعطلة، يقول:

فَلِذَاكَ قَالَ زَعِيمُهُمْ فِي نَفْسِهِ فَرَقًا سِوَى هَذَا الَّذِي تَرِيَانِ

الأول زعموا أن بعض الصفات يستلزم التجسيم فنفوه وبعضها لا يستلزم التجسيم فأثبتوه؛ وهذا في الفصل السابق، أما هذا الفصل جاءوا بدليل آخر قالوا: ما أثبتناه دل عليه العقل وما نفيناها لم يدل عليه العقل، فجعلوا عمدتهم في إثبات الصفات أو نفيها عن الله العقل. وقوله: (تريان) يتخيل المؤلف في مثل هذه العبارة أنه يخاطب خليلين له كما تجدون ذلك في القصائد الجاهلية حيث يقول الشاعر: (خليلي) فيخاطب خليليه، فهنا كأن المؤلف يتخيل أن له خليلين يخاطبهما.

هَذِي الصِّفَاتُ عَقُولُنَا ذَلَّتْ عَلَى إِثْبَاتِهَا مَعَ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ

يعني فاجتمع لنا في الدلالة عليها العقل والسمع.

من يقول: (فلذاك صنائها عن التأويل) لما كانت العقول تدل عليها وظاهر القرآن يدل عليها صنائها عن التأويل مع أنها على طريقتهم الأولى تقتضي التجسيم على المعنى الأول الذي في الفصل السابق تقتضي التجسيم ولهذا قال المؤلف: (فاعجب يا أخوا التحقيق والعرفان).

كَيْفَ اعْتَرَفَ الْقَوْمُ أَنَّ عَقُولَهُمْ ذَلَّتْ عَلَى التَّجْسِيمِ بِالْبُرْهَانِ

ومن العجيب لديهم أنهم قالوا: إننا نمنع الصفات؛ لأنها تقتضي التجسيم ثم الآن يقولون: نثبت الصفات التي دل عليها العقل وإن اقتضت التجسيم.

فَيُقَالُ هَلْ فِي الْعَقْلِ تَجْسِيمٌ أَمْ أَلْ مَعْقُولٌ يَنْفِيهِ ذَلِكَ لِلتَّقْصَانِ

إِنْ قُلْتُمْ نَفِيهِ فَاَنْفُوا هَذِهِ أَلْ أَوْصَافٍ وَأَنْسَلِحُوا مِنَ الْقُرْآنِ

أي: إن قلتُم يعني نفي التقصان ونفي التجسيم فانفوا هذه الأوصاف يعني الأوصاف التي أثبتوها وزعموا أن العقل دل عليها مع ظاهر القرآن فانفوا هذه الأوصاف وانسلخوا من القرآن. أو قُلْتُمْ يَقْضِي بِإِثْبَاتِ لَهْ فَفَرَارُكُمْ مِنْهَا لِأَيِّ مَعَانِ

هؤلاء قالوا: نقضي بإثبات التجسيم فراركم من هذه الصفات التي نفيتموها ولأي معنى نفيتموها؟ ما دمتم قضيتم بالتجسيم وإن كان ملزوما لما أثبتتم من الصفات، فراركم منها: أي من هذه الصفات التي نفيتم لأي معانٍ؛ هذا الثالث.

أَوْ قُلْتُمْ يَنْفِيهِ فِي وَصْفٍ وَلَا نَنْفِيهِ فِي وَصْفٍ بِلَا بُرْهَانَ

وهذا هو الذي يقولونه: ننفي التجسيم في وصف ولا ننفيه في وصف؛ ففي الصفات التي نثبتها وإن كانت تقتضي التجسيم فإننا نثبتها وفي الصفات التي ننفيها فإننا ننفي التجسيم فصارت الآن الاحتمالات ثلاثة:

إما أن يثبتوا التجسيم في الصفات كلها ويلتزموا بإثبات الصفات، وإما أن ينفوا التجسيم ويلتزموا بنفي الصفات كلها، وإما أن يقولوا ننفي التجسيم في صفات ولا ننفيه في صفات ففي الصفات التي أثبتناها لا ننفي التجسيم وفي الصفات التي ننفيها ننفي التجسيم فيقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

فَيُقَالُ مَا الْفُرْقَانُ بَيْنَهُمَا وَمَا الـ بُرْهَانُ فَأَتُوا الْآنَ بِالْفُرْقَانِ

فأتوا الآن بالفرقان فما الذي يفرقون؟ لا فرق فيما أن يثبتوا التجسيم بناءً على ثبوت الصفات التي أثبتوها ويطردوا ذلك في جميع الصفات وإما أن ينفوا التجسيم ويطردوها أيضا في جميع الصفات فينفوا ما أثبتوه ولكن مع الأسف أنهم يتناقضون فيقولون: هذه الصفة تقتضي التجسيم فيجب نفيها وهذه الصفة لا تقتضي التجسيم فيجب إثباتها.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٢١٦١- وَيُقَالُ قَدْ شَهِدَ الْعِيَانُ بِأَنَّهُ

ذُو حِكْمَةٍ وَعِنَايَةٍ وَخَنَانَ

٢١٦٢- مَعَ رَأْفَةٍ وَمَحَبَّةٍ لِعِبَادِهِ

أَهْلَ الْوَفَاءِ وَتَابِعِي الْقُرْآنِ

٢١٦٣- وَلِذَلِكَ خُصُّوا بِالْكَرَامَةِ دُونَ أَع



— داء الإله وشيعة الكفران

٢١٦٤- وهو الدليل لنا على غضب وبع

ض منه مع مقت لذي العصيان

٢١٦٥- والنص جاء بهذه الأوصاف مث

ل السبع أيضاً ذاك في القرآن

٢١٦٦- ويقال سلمنا بأن العقل لا

يقضي إليها فهي في الفرقان

٢١٦٧- أفنفي آحاد الدليل يكون لل

مدلول نفيًا يا أولي العرفان

٢١٦٨- أو نفي مطلقه يدل على انتفا ال

مدلول في عقل وفي قرآن

٢١٦٩- أبعادًا الإنصاف ويحكم سوى

محض العناد ونخوة الشيطان

٢١٧٠- وتحيز منكم إليهم لا إلى ال

— قرآن والآثار والإيمان^(١)

الشرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

قوله:

وَيُقَالُ قَدْ شَهِدَ الْعِيَانُ بَأْنَهُ ذُو حِكْمَةٍ وَعِنَايَةٍ وَحَنَانِ

(١) [٢١٦٩، ٢١٧٠] قال العلامة محمد خليل هراس:

وهكذا ينهج المؤلف رحمه الله مع هؤلاء الخصوم خطة القصد والإنصاف بلا شطط ولا اعتساف، ولهذا يقول لهم: ليس وراء رفضكم هذه الخطة إلا محض المكابرة والعناد وحميتكم لمذاهبكم الباطلة حمية الجاهلية وانضمامكم إلى فئة الشياطين دون معسكر القرآن والآثار والإيمان.

مَعَ رَأْفَةٍ وَمَحَبَّةٍ لِعِبَادِهِ أَهْلِ الْوَفَاءِ وَتَابِعِي الْقُرْآنِ
وَلِذَلِكَ خُضُّوا بِالْكَرَامَةِ دُونَ أَعْدَائِهِ سَاءَ الْإِلَهِ وَشِيعَةِ الْكُفْرَانِ

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: (ويقال قد شهد العيان بأنه ذو حكمة) بأنه أي الله عز وجل ذو حكمة فأراد أن يثبت حكمة الله بالدليل العقلي؛ ونحن نشهد ما في المخلوقات من الحِكم العظيمة والغايات الحميدة، ونشهد كذلك ما في المشروعات التي شرعها الله من الحِكم العظيمة والغايات الحميدة، وهذا يدلنا على ثبوت الحكمة لله مع أنهم ينكرونها، كذلك أيضًا شهد العيان بأنه ذو عناية وحنان؛ ذو عناية بخلقه وحنان عليهم وذلك بما يجلب لهم من الخير والمنفعة ويدفع عنهم من الشر والمضرة.

يقول أيضًا (مع رَأْفَةٍ وَمَحَبَّةٍ لِعِبَادِهِ) فالشاهد يدلنا على رَأْفَةِ اللهِ وَذَلِكَ بِمَا نَشَاهِدُهُ مِنْ أَلطافِهِ فِي مَوَاضِعِ الشَّدَةِ فَإِنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى رَأْفَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَحَبَّتِهِ، لِعِبَادِهِ (أَهْلِ الْوَفَاءِ) مِنْ أَيْنَ نَعْرِفُ أَنَّهُ يَجِبُ مِنَ الْعِبَادِ أَهْلُ الْوَفَاءِ؟ بِإِثَابَتِهِمْ وَتَيْسِيرِ أُمُورِهِمْ وَنَصْرِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَلِذَلِكَ خُضُّوا بِالْكَرَامَةِ دُونَ أَعْدَائِهِ سَاءَ الْإِلَهِ وَشِيعَةِ الْكُفْرَانِ
وَهُوَ الدَّلِيلُ لَنَا عَلَى غَضَبِهِ وَبُغْضِهِ ضِمْ مِنْهُ مَعَ مَقْتٍ لِذِي الْعِصْيَانِ

يعني: ونستدل على غضب الإله وبغضه ومقته بعقوبة أهل العصيان، فإن العقوبة دليل على الغضب وعلى بُغْضِ الْعَمَلِ الَّذِي أَوْجَبَ الْعُقُوبَةَ وَالْإِنْتِقَامَ.

وَالنَّصُّ جَاءَ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ مِثْلَ السَّبْعِ ذَاكَ أَيْضًا فِي الْقُرْآنِ

يشير إلى ما ذكره من الحكمة والعناية والرأفة والمحبة والغضب والبغض والمقت وهو أشد البغض.

والصفات السبع: هي التي أثبتتها الأشاعرة وهي الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام أثبتوها وهذه لا شك أنها ثابتة لله فقد جاء به السمع وكذلك الحكمة والمحبة والرأفة والغضب كلها جاء بها السمع.

وَيُقَالُ سَلَّمْنَا بِأَنَّ الْعَقْلَ لِأَنَّ يَفْضِي إِلَيْهَا فَهِيَ فِي الْفُرْقَانِ

يعني: لو سلمنا أن العقل لا يدل على هذه الصفات؛ فهي في الفرقان أي: في القرآن

فقد دل عليها.

أَفْتَفِي أَحَادِ الدَّلِيلِ يَكُونُ لِدِّ مَدْلُولٍ نَفِيًّا يَا أُولِي العِرْفَانِ

يستفهم استفهام إنكار يقول: هل إذا انتفى الدليل أو الواحد من الأدلة يقتضي أن ينتفى المدلول؟ الجواب لا؛ إذا انتفى دليل واحد فإنه يجوز أن يثبت المدلول بدليل آخر، فانتفاء الدليل المعين لا يقتضي انتفاء المدلول، وقوله: (يا أولي العرفان) هذا من باب التهكم بهم يعني: أين معرفتكم؟! فإن انتفاء الدليل الواحد لا يدل على انتفاء المدلول.

أَوْ نَفِي مُطْلَقِهِ يَدُلُّ عَلَى انْتِفَاءِ الـ مَدْلُولٍ فِي عَقْلِ وَفِي قُرْآنِ

يعني: انتفاء مطلق الدليل لا يدل على أنه لا يثبت المدلول فقد يثبت بغير دليل معلوم لنا، فلهذا متى وجد الشيء وثبت فإننا لا نحتاج إلى طلب دليله ما دام واقعا.

أَفْبَعْدَ ذَا الإِنصَافِ وَيَحْكُمُ سِوَى مَحْضِ العِنَادِ وَنَخْوَةِ الشَّيْطَانِ

يعني: ليس بعد هذا الإنصاف معكم إلا العناد فهؤلاء يعاندون ويتنخون بنخوة الشيطان ويعتزون بذلك.

وَتَحْيِيزٍ مِنْكُمْ إِلَيْهِمْ لَا إِلَى الـ قُرْآنِ وَالْآثَارِ وَالْإِيمَانِ

يعني: يتحيزون إلى شيوخهم ويدعون القرآن والآثار والإيمان.





مهيد بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في مخالفة طريقة المعطلين

لطريقة أهل الاستقامة عقلاً ونقلاً

اعلم أن طريق أهل الكلام الباطل مخالف لطريق أهل الاستقامة من جهة التأصيل والتفريع، وذلك أن أصل طريقهم الذي بنوا عليه قواعدهم وأقوالهم وأعمالهم أن رأي متبوعهم وشيوخهم وعقولهم هو الأصل الأصيل، وهو النص الواضح الذي توزن به المقالات، فإذا جاءهم كلام الله وكلام رسوله مخالفاً لهذا الأصل قالوا هذا متشابه يحتمل عدة معانٍ، وكلام متبوعنا نص لا احتمال فيه فإن أمكنهم التأويل والتحريف فعلوا ذلك، وإلا قالوا: متشابه لا يعلمه إلا الله. وإذا قيل لهم: بيان الله ورسوله ما فيه اشتباه ولا إشكال أجابوا بأننا مقلدون ومتبوعنا أعلم منا بمراد الله ومراد رسوله، فهذا من أعجب العجب، كيف اهتمدوا مع اعترافهم أنهم مقلدون عن الاستدلال أن يعينوا أولوية ذلك المتبوع على غيره، بل اهتمدوا لوجوب اتباعه وإهدار أقوال من سواه؟ كيف نهض بهم الاستدلال إلى هذا الحد وهو من أصعب الأشياء وعجزوا عن الأخذ عن الله ورسوله مع استيلاء الوحيين على غاية البيان والبلاغة؟ ولا ريب أن هذا غاية الحرمان، والمقصود أن طريقة هؤلاء المتكلمين أخبث الطرق، إذ جعلوا أصولهم هي الأصول وكلام الله ورسوله تبعاً لها، فما وافقها قبلوه وإلا حرقوه أو فوضوه.

أما طريقة أهل الاستقامة فإنها بالعكس من هذا الطريق، بل سلكوا الصراط المستقيم وتبعوا بذلك سيد المرسلين وأتباعه من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، حيث كان أصلهم الذي عليه يعتمدون وفي أصولهم وفروعهم إليه يرجعون كتاب الله وسنة رسوله إذ فيها

المهدى التام والكفاية والشفاف والغنى عما سواهما، فصدقوا أخبارهما وحققوا أوامرهما بالامتثال والنواهي بالاجتناب، وعلموا أن الحق ما اشتمل عليه الكتاب والسنة وليس بعد الحق إلا الضلال، وعرضوا جميع المقالات والعقائد عليها فما وافق ذلك قبلوه وما خالفه ردوه على من قاله، وعلموا أن كل أحد من الخلق يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وما أشكل عليهم هل هو موافق أو مخالف من المقالات الغامضة والألفاظ المجملة توقفوا فيه ولم يحكموا له بقبول ولا رد حتى يتبين حاله.

فهذه الطريق هي المنجية العاصمة من المهالك، الكفيلة ببيان الحقائق وتعدي الخلائق، التي من استمسك بها فقد استمسك بالعروة الوثقى والسبب الأقوى فإن النقل نقل مصدق والقائل معصوم، وأما غير الرسول من النقلة والقائلين فالنقل غير مصدق بل يعتره من الكذب والتغيير شيء كثير، ثم القائل غير معصوم لا وثوق لأحد بقوله في فرع من فروع الدين فضلاً عن أصوله فضلاً عن تقديمه على الأصول الكبار، فهذا تحقيق الفرق، ولا يخفى الأمر على أولي الأبواب.



فصل



في بيان مخالفة طريقهم
لطريق أهل الاستقامة عقلاً ونقلاً



- ٢١٧١- وَعَلِمَ بَأَنَّ طَرِيقَهُمْ عَكْسُ الطَّرِيدِ
سِقِ الْمُسْتَقِيمِ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ
- ٢١٧٢- جَعَلُوا كَلَامَ شُيُوخِهِمْ نَصًّا لَهُ الـ
إِحْكَامَ مَوْزُونًا بِهِ النَّصَّانِ
- ٢١٧٣- وَكَلَامَ رَبِّهِمْ وَقَوْلَ رَسُولِهِ
مُتَشَابِهًا مُخَوَّلًا لِمَعَانِ
- ٢١٧٤- فَتَوَلَّدَتْ مِنْ ذِينِكَ الْأَصْلِينَ أَوْ
لَاذَاتِ اللَّغِي وَالْبُهْتَانِ
- ٢١٧٥- إِذْ مِنْ سِفَاحِ نِكَاحِ كَوْنِهَا
بِئْسَ الْوَلِيدُ وَبِئْسَتِ الْأَبْوَانِ
- ٢١٧٦- عَرَّضُوا التُّصُوصَ عَلَى كَلَامِ شُيُوخِهِمْ
فَكَأَنَّهَا جَيْشٌ لِسَيِّدِ سُلْطَانِ
- ٢١٧٧- وَالْعَزْلُ وَالْإِبْقَاءُ مَرَجِعُهُ إِلَى السُّـ
سُلْطَانِ دُونَ رَعِيَّةِ السُّلْطَانِ
- ٢١٧٨- وَكَذَلِكَ أَقْوَالُ الشُّيُوخِ فَإِنَّهَا الـ
مِيزَانُ دُونَ النَّصِّ وَالْقُرْآنِ
- ٢١٧٩- إِنْ وَافَقَا قَوْلَ الشُّيُوخِ فَمَرْحَبًا

- أَوْ خَالَفَا فَالْدَّفَعُ بِالْإِحْسَانِ
 ٢١٨٠- إِمَّا بِنَاوِيلٍ فَإِنْ أَعْيَا فَتَفَّ
 — وَيُضُّ وَنَتْرُكَهَا لِقَوْلِ فَلَانَ
 ٢١٨١- إِذْ قَوْلُهُ نَضُّ لَدَيْنَا مُحْكَمٌ
 وَظَوَاهِرُ الْمَنْقُولِ ذَاتُ مَعَانٍ
 ٢١٨٢- وَالنُّضُّ فَهُوَ بِهِ عَلِيمٌ دُونَنَا
 وَبِخَالِهِ مَا حِيلَةَ الْعُمَيَّانِ
 ٢١٨٣- إِلَّا تَمَشُّكُهُمْ بِأَيْدِي مُبْصِرٍ
 حَتَّى يَتُودَهُمْ كَذِي الْأَرْسَانِ
 ٢١٨٤- فَاعْجَبَ لِعُمَيَّانِ الْبَصَائِرِ أَبْصَرُوا
 كَوْنِ الْمُقْلِيدِ صَاحِبِ الْبُرْهَانِ
 ٢١٨٥- وَرَأَوْهُ بِالتَّقْلِيدِ أَوْلَى مِنْ سَوَا
 هُ بِغَيْرِ مَا هَدِي وَلَا بُرْهَانِ
 ٢١٨٦- وَعَمُّوا عَنِ الْوَحْيَيْنِ إِذْ لَمْ يَفْهَمُوا
 مَعْنَاهُمَا عَجَبًا لِذِي الْحِرْمَانِ
 ٢١٨٧- قَوْلُ الشُّيُوخِ أَتُمْ تَبَيَّنَا مِنْ الـ
 — وَوَحْيَيْنِ لِأَنَّ الْوَاحِدَ الرَّحْمَنَ
 ٢١٨٨- النَّقْلُ نَقْلٌ صَادِقٌ وَالْقَوْلُ مِنْ
 ذِي عِصْمَةٍ فِي غَايَةِ التَّبَيَّنِ
 ٢١٨٩- وَسِوَاهُ إِمَّا كَاذِبٌ أَوْ صَحَّحَ لَمْ
 يَكُ قَوْلٌ مَعْضُومٌ وَذِي تَبَيَّنِ

٢١٩٠- أَفَيْسَتَوِي النَّقْلَانِ يَا أَهْلَ النَّهْيِ

وَاللَّهُ لَا يَتَمَثَّلُ النَّقْلَانِ

٢١٩١- هَذَا الَّذِي أَلْقَى الْعَدَاوَةَ بَيْنَنَا

فِي اللَّهِ نَحْنُ لِأَجْلِهِ خَصَمَانِ

٢١٩٢- نَصَرُوا الضَّلَالََةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِمْ

لَكِنْ نَصَرْنَا مُوجِبَ الْقُرْآنِ

٢١٩٣- وَلَنَا سُلوُكٌ ضِدَّ مَسْلِكِهِمْ فَمَا

رَجُلَانِ مِّنَّا قَطُّ يَلْتَقِيَانِ

٢١٩٤- إِنَّا أُبِينَا أَنْ نَدِينَنَّ بِمَا بِهِ

دَانُوا مِنِ الْآرَاءِ وَالْبَهْتَانِ

٢١٩٥- إِنَّا عَزَلْنَاهَا وَلَمْ نَعْبَأْ بِهَا

يَكْفِي الرُّسُولُ وَمُحَكَّمُ الْقُرْآنِ

٢١٩٦- مَنْ لَمْ يَكُنْ يَكْفِيهِ ذَانِ فَلَا كُفَا

هُ اللَّهُ شَرُّ حَوَادِثِ الْأَزْمَانِ

٢١٩٧- مَنْ لَمْ يَكُنْ يَشْفِيهِ ذَانِ فَلَا شَفَا

هُ اللَّهُ فِي قَلْبِ وَلَا أَبْدَانِ

٢١٩٨- مَنْ لَمْ يَكُنْ يُغْنِيهِ ذَانِ رَمَاهُ رَبِّ

بُ الْعَرْشِ بِالْإِعْدَامِ وَالْحِرْمَانِ

٢١٩٩- مَنْ لَمْ يَكُنْ يَهْدِيهِ ذَانِ فَلَا هَدَا

هُ اللَّهُ سُبُلَ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ

٢٢٠٠- إِنَّ الْكَلَامَ مَعَ الْكِبَارِ وَلَيْسَ مَعَ

تِلْكَ الْأَصَاغِرِ سِفْلَةَ الْحَيَوَانِ

٢٢٠١- أَوْسَاخِ هَذَا الْخَلْقِ بَلْ أَنْتَانِيهِ

جَيْفِ الْوُجُودِ وَأَخْبَثِ الْأَتَانِ

٢٢٠٢- الطَّالِبِينَ دِمَاءَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالـ

كُفْرَانِ وَالْبُهْتَانِ وَالْعُدْوَانِ

٢٢٠٣- الشَّائِمِي أَهْلَ الْحَدِيثِ عِدَاوَةً

لِللُّسَنَةِ الْعُلْيَا مَعَ الْقُرْآنِ

٢٢٠٤- جَعَلُوا مَسَبَّتَهُمْ طَعَامَ حُلُوقِهِمْ

فَاللَّهُ يَقَطِّعُهَا مِنْ الْأَذْقَانِ

٢٢٠٥- كِبْرًا وَإِعْجَابًا وَتِيهَا زَائِدًا

وَتَجَاوُزًا لِمَرَاتِبِ الْإِنْسَانِ

٢٢٠٦- لَوْ كَانَ هَذَا مِنْ وَرَاءِ كِفَايَةٍ

كُنَّا حَمَلْنَا زَايَةَ الشُّكْرَانِ

٢٢٠٧- لَكِنَّهُ مِنْ خَلْفِ كُلِّ مُتَخَلِّفٍ

عَنْ رُتْبَةِ الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ

٢٢٠٨- مَنْ لِي بِشِبْهِ خَوَارِجٍ قَدْ كَفَرُوا

بِالذَّنْبِ تَأْوِيلًا بِإِلَّا إِحْسَانِ

٢٢٠٩- وَلَهُمْ نُضُوضٌ قَصُرُوا فِي فَهْمِهَا

فَاتُوا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْعِرْفَانِ

٢٢١٠- وَخُضُومُنَا قَدْ كَفَرُونَا بِالَّذِي

هُوَ غَايَةُ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ



الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

قوله:

وَالْعَزْلُ وَالْإِبْقَاءُ مَرْجِعُهُ إِلَى الشُّرْطَانِ دُونَ رَعِيَّةِ السُّلْطَانِ

فما هو السلطان؟ إنه كلام الشيوخ دون الرعية: وهي نصوص الكتاب والسنة. وَكَذَلِكَ أَقْوَالُ الشُّيُوخِ فَإِنَّهَا الـ سِمِيزَانُ دُونَ النَّصِّ وَالْقُرْآنِ

هذا هو وجه الشبه.

إِنْ وَافَقَا قَوْلَ الشُّيُوخِ فَمَرْحَبًا أَوْ خَالَفَتْ فَالِدَّفْعُ بِالْإِحْسَانِ

إن وافقت نصوص الكتاب والسنة قول الشيوخ فمرحبًا بها فمثلًا الكتاب والسنة دلاً على وصف الله بالسمع فماذا قال هؤلاء؟ قالوا: مرحبًا لله سمع؛ لأن كلام الشيوخ وافق الكتاب والسنة وإذا دلاً على أن الله تعالى رحمة، ماذا قالوا؟ قالوا: لا مرحبًا لا مرحبًا لأن كلام الشيوخ يقول ليس لله رحمة؛ لأن الرحمة هي الإحسان أو إرادة الإحسان وأما رحمة سوى ذلك فلا.

والدفع عاد ينقسم عندهم إلى قسمين مبينين في قوله:

إِمَّا بِتَأْوِيلٍ فَإِنْ أَعْيَا فَتَفَّ - وَيُضُّ وَنَتْرَكَهَا لِقَوْلِ فَلَانِ

إذا دفعهم للنصوص إما بتأويل فإن عجزوا فتفويض، ولكن الشيخ ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ اقتصر على بعض الطرق، فالطرق عندهم أولاً ردُّ النصوص، ورد النصوص هذا قبل كل شيء، لأنهم إذا ردوها ما بقي الكلام في معناها فينتهي أمرها؛ ولهذا قالوا: إنه لا يحتاج بالأحاد في مسائل العقيدة فإذا لم يمكن ردها بأن تكون من القرآن أو من السنة المتواترة لجأوا إلى التأويل فإذا لم يمكن رجوعوا إلى التفويض وقالوا الله أعلم بمراده بها.

إِذْ قَوْلُهُ نَصٌّ لَدَيْنَا مُحَكَّمٌ وَظَوَاهِرُ الْمَنْقُولِ ذَاتُ مَعَانٍ

قوله: (وظواهر المنقول ذات معان) هذا هو السبب في أنهم يرجعون إلى قول شيوخهم؛ لأنه نص لديهم، أما المنقول وهو الكتاب والسنة فظواهره تحمل معانٍ متعددة.

وَالنَّصُّ فَهُوَ بِهِ عَلِيمٌ دُونَنَا وَبِحَالِهِ مَا حِيلَةُ الْعُمَيَّانِ

يقولون: إن الشيخ أعلم بالنص منا وأعلم بحاله وما حيلتنا ونحن بالنسبة للشيخ عميان؟!

إِلَّا تَمْسُكُهُمْ بِأَيْدِي مُبْصِرٍ حَتَّى يَقُودَهُمْ كَذِي الْأَرْسَانِ

هذا صحيح فالأعمى ما له حيلة إلا أن يمسك بيد مبصر.

وما هي ذى الأرسان؟ هي البعير والحيل والحمر؛ لأن كلها تقاد بالأرسان والبغال، يقولون: نحن مقلدة ما لنا حيلة إلا التمسك بأقوال شيوخنا فشبهم ابن القيم بذوات الأرسان، والأرسان جمع رسن وهو تقاد به البهيمة.

فَاعْجَبْ لِعُمَيَانَ الْبَصَائِرِ أَبْصَرُوا كَوْنَ الْمُقَلِّدِ صَاحِبِ الْبُرْهَانِ

وَرَأَوْهُ بِالتَّقْلِيدِ أَوْلَى مِنْ سِوَا هُ بِغَيْرِ مَا هَدَى وَلَا بُرْهَانَ

فأعجب كيف عرفوا أن مقلدهم هو صاحب البرهان ولم يعرفوا أن محمدا ﷺ هو صاحب البرهان، فهم قالوا: إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فليس برهانا؛ لأنه يحتمل معاني متعددة وإذا جاءت أقوال شيوخهم فهي البرهان.

وَعَمُوا عَنِ الْوَحِيِّنِ إِذْ لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَاهُمَا عَجَبًا لِذِي الْجِرْمَانِ

نسأل الله العافية، عموا عن الوحيين إذ لم يفهموا معناهما: وهذا من عقوبة الله سبحانه وتعالى لمن تعصب لهواه وترك الكتاب والسنة كما قال الله تعالى: ﴿وَنَقَلِبٌ أَفِئْتُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] ولهذا يجب عليك الحذر إذا مر بك الدليل ألا تحاول معارضته قل: سمعنا وأطعنا؛ لأنك لو حاولت معارضته فإنه ربما تحرم الهداية في المستقبل.

قَوْلُ الشُّيُوخِ أَتَمُّ تَبَيَانًا مِنْ أَلِ الْوَحِيِّنِ لَا وَالْوَّاحِدِ الرَّحْمَنِ

يعني: ليست أقوال الشيوخ أتم بيانًا من الوحيين.

النَّقْلُ نَقْلٌ صَادِقٌ وَالْقَوْلُ مِنْ ذِي عِصْمَةٍ فِي غَايَةِ التَّبَيُّانِ

فالنقل والقول كلاهما من رسول الله ﷺ بخلاف شيوخهم.

وَسِوَاهُ إِمَّا كَاذِبٌ أَوْ صَحَّ لَمْ يَكُ قَوْلٌ مَعْصُومٌ وَذِي تَبَيُّانٍ

سوى من؟ سوى قول الرسول عليه الصلاة والسلام إما كاذب يعني: أنه منقول عن



القاتل كذباً وإما صحيح لكنه ليس قولاً معصوماً من الخطأ.

أفيسْتَوِي النَّقْلَانِ يَا أَهْلَ النَّهْيِ وَاللَّهِ لَا يَتَمَثَّلُ النَّقْلَانِ
هَذَا الَّذِي أَلْقَى الْعَدَاوَةَ بَيْنَنَا فِي اللَّهِ نَحْنُ لِأَجْلِهِ خَصْمَانِ

وفي هذا دليل على: أن ابن القيم رحمته الله يدين الله عز وجل بعداوة أهل البدع - وهو حق - فإنه يجب على الإنسان المسلم أن يبغض أهل البدع ويعاديهم بحسب ما معهم من البدعة، خلافاً لمن قال: إن الأمة الإسلامية أمة واحدة فيجب أن يكون بينها مودة ومحبة حتى مع أهل البدع المكفرة تجب المحبة ولكن هذا خطأ، بل يجب علينا أن نبغض المبتدع على بدعته ولكن إذا كان فيه خير وشر أي فيه بدعة وسنة وهدى وضلالة؛ فالعدل أن نحبه على ما معه من الهدى والسنة ونبغضه على ما معه من البدعة والضلالة.

نَصَرُوا الضَّلَالََةَ مِنْ سَفَاهَةِ زَائِهِمْ لَكِنْ نَصَرْنَا مُوجِبَ الْقُرْآنِ
وَلَنَا سُلوُكٌ ضِدَّ مَسْلِكِهِمْ فَمَا رَجُلَانِ مَنَّا قَطُّ يَلْتَقِيَانِ
إِنَّا أَبِينَا أَنْ نَدِينَ بِمَا بِهِ دَانُوا مِنَ الْآرَاءِ وَالْبُهْتَانِ

يعني: أيينا أن ندين لله ونعمل له ونعبده بما دانوا به من الآراء والبهتان.

إِنَّا عَزَلْنَاهَا وَلَمْ نَعْبَأْ بِهَا يَكْفِي الرُّسُولُ وَمُحَكَّمُ الْقُرْآنِ
يعني: عزلنا الآراء التي دانوا بها.

مَنْ لَمْ يَكُنْ يَكْفِيهِ ذَانِ فَلَا كَفَا هُ اللَّهُ شَرُّ حَوَادِثِ الْأَزْمَانِ
بدأ رحمه الله يدعو عليهم فقال ذلك داعياً عليه، ألا يكفيه الله شر حوادث الزمن.
مَنْ لَمْ يَكُنْ يَشْفِيهِ ذَانِ فَلَا شَفَا هُ اللَّهُ فِي قَلْبٍ وَلَا أَبْدَانِ

الذي ما يشفيه القرآن والسنة فالله لا يشفي قلبه ولا بدنه، ولكننا قد لا نوافق ابن القيم رحمته الله على هذا ونقول: من لم يشفه هذان إذا عاندوا فإننا نسأل الله أن يشفيه من علته لا سيما شفاء القلب فهو المهم أما شفاء المرض فأمر سهل لكن المشكل شفاء القلب، يعني: هل لنا إذا رأينا شخصاً مبتدعاً وعرضنا عليه الكتاب والسنة ولكنه أبى إلا أن يبقى على بدعته هل نقول له لا شفاك الله من مرض قلبك؟ ابن القيم رحمته الله يقول: لا شفاه الله، ولكن أرى أن نقول: نسأل الله لك الهداية، ولكن ابن القيم نظر لما حصل منهم من أذية على أهل السنة

وأهم ظالمون ويجوز للمظلوم أن يدعو على ظالمه.

مَنْ لَمْ يَكُنْ يُغْنِيهِ ذَانِ رَمَاهُ رَبُّ الْعَرْشِ بِالْإِعْدَامِ وَالْحِرْمَانِ

إذا كان لا يغنيه الكتاب والسنة فإن الله يرميه بالإعدام والحرمان.

مَنْ لَمْ يَكُنْ يَهْدِيهِ ذَانِ فَلَا هَذَا هُوَ اللَّهُ سُبُلَ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ

كل شيء يأتي له بضده، رَحِمَهُ اللهُ .

إِنَّ الْكَلَامَ مَعَ الْكِبَارِ وَلَيْسَ مَعَ تِلْكَ الْأَصَاغِرِ سِفْلَةِ الْحَيَوَانِ

يكون مع الكبار العقلاء الذين يطلبون الحق بصدق أما هؤلاء فهم أراذل سفلة الحيوان.

أَوْسَاخِ هَذَا الْخَلْقِ بَلْ أَتَانِهِ جَيْفِ الْوُجُودِ وَأَخْبَثِ الْأَتَانِ

ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ يعني شدد جدًا وأنه يجب أن يُعذبوا بالقتل والحبس والضرب وغير

ذلك فلهذا كان ابن القيم شديدًا عليهم؛ لأنهم هم أيضًا أشداء على أهل السنة.

الطَّالِبِينَ دِمَاءَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْكَفْرَانِ وَالْعُدْوَانِ وَالْبُهْتَانِ

الشَّائِمِي أَهْلَ الْحَدِيثِ عِدَاوَةَ لِّلْسُنَةِ الْعُلِيَّا مَعَ الْقُرْآنِ

يشتمون أهل الحديث؛ معاداة للسنة لا لشخصياتهم لكن لاتباعهم السنة؛ ولهذا لو كان

هذا الشخص منهم لكان من أوليائهم لا من أعدائهم لكن يعادونه؛ لأنه متمسك بالسنة.

جَعَلُوا مَسَبَّتَهُمْ طَعَامَ حُلُوقِهِمْ فَاللَّهُ يَقْطَعُهَا مِنَ الْأَذْقَانِ

يعني: جعلوا مسبة أهل السنة طعام حلوقهم أي يتمتعون بالكلام في أهل السنة

ويتلذذون به يقول: (فالله يقطعها من الأذقان) فإذا قطعت ما يبقى شيء.

كِبْرًا وَإِعْجَابًا وَتِيهَا زَائِدًا وَتَجَاوُزًا لِمَرَاتِبِ الْإِنْسَانِ

يعني: أن لديهم كبرًا وإعجابًا وتيها بأنفسهم كأنهم هم الملائكة والناس هم الحيوان.

وكل ذلك يريدون به تجاوزًا لمراتب الإنسان إلى مراتب الربوبية أو الملائكية فهم يرون

أنهم فوق البشر.

لَوْ كَانَ هَذَا مِنْ وَرَاءِ كِفَايَةِ كُنَّا حَمَلْنَا رَايَةَ الشُّكْرَانِ

لَكِنَّهُ مِنْ خَلْفِ كُلِّ تَخَلَّفِ عَنِ رُتْبَةِ الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ

يعني: لو أن هذا من وراء الكفاية لكنا حملنا راية الشكران، ولكنه من خلف كل تخلف أي أن هذا القول ليس عن كفاية وجدارة فلو كان عن كفاية وجدارة لكنا نشكرهم لكنه ليس عن كفاية وجدارة بل عن عناد وإعجاب وكبر؛ ولهذا قال:

مَنْ لِي بِشِبهِ خَوَارِجٍ قَدْ كَفَرُوا بِالذَّنْبِ تَأْوِيلًا بِلَا إِحْسَانٍ

يعني: أن هؤلاء أشد من الخوارج؛ لأن الخوارج كفروا المسلمين بارتكاب الكبيرة، تأويلًا بلا إحسان؛ لأنهم لو أولوا بالإحسان لعلموا أن فاعل الكبيرة لا يكفر لكن هم تأولوا النصوص - نصوص التكفير - وغفلوا عن النصوص الأخرى المقابلة فكفروا المسلمين بالذنب.

وَلَهُمْ نُصُوصٌ قَصَرُوا فِي فَهْمِهَا فَأَثُوا مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الْعِرْفَانِ
وَحُصُومًا قَدْ كَفَرُونَا بِالذِّي هُوَ غَايَةُ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ

(ولهم نصوص): (لهم) أي للخوارج.

وخصومنا يعني: المعطلة فأيتها أشد الآن المعطلة أم الخوارج؟ المعطلة أشد من الخوارج، فالخوارج كفروا المسلمين بذنوب ومعاصي وهؤلاء كفروهم بالتزامهم بالكتاب والسنة، وذلك فرق عظيم فصار هؤلاء المبتدعة الذين كفروا أهل السنة ووشوا إلى السلطان بهم هم أشد على المسلمين من الخوارج وخاصة أهل السنة.





عهد بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في بيان كذبهم في رميهم أهل الحق بأنهم أشباه الخوارج وبيان شَبَههم المَحَقَّق بالخوارج

بدعة الخوارج معروفة، وهم الحرورية الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب والصحابة وكفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم وأسسوا لهم بدعة خبيثة وهي تكفير أهل الكبائر وتخليدهم في النار، وإنكار الشفاعة فيهم، فقدحوا في الصحابة ومن لم يدن بدينهم من فضلاء الأمة، بل قال قائلهم وهو ذو الخويصرة للنبي ﷺ: اعدل يا محمد وهذه قسمة ما أريد بها وجه الله فقدحوا في قصده وحكمه وروجوا مذهبهم الباطل بنصوص من الكتاب والسنة لم يفهموها وحملوها على مذهبهم. وقد اتفق السلف على بدعتهم وأنهم «مارقون من الدين» كما ثبت به الحديث.

فهؤلاء الجهمية شابهوا الخوارج مشابهة ظاهرة: سمو أنفسهم أهل الحق ومن قال بقول الصحابة والتابعين لهم بإحسان بأهل الباطل، والنصوص الثابتة في الكتاب والسنة الدالة على الإثبات ردُّوا منها ما تمكنوا من رده وحرفوا ما حرفوا وكفروا المثبتين، فانطبق عليهم الشبه المحقق بالخوارج من كل وجه، بل الخوارج أحسن حالاً منهم من وجوه كثيرة، منها: أن أدلتهم التي بنوا عليها مذهبهم نصوص فهموها من الكتاب والسنة غلطوا فيها، والجهمية إنما بنوا مذهبهم على آرائهم الفاسدة وعقولهم الكاسدة وعرضوا عليها الكتاب والسنة والخوارج أصدق منهم وأورع عن الكذب، ولكنهم مع هذا رموا أهل السنة والجماعة أنهم أشباه الخوارج تمويهاً وترويجاً، والخوارج جردوا سيوفهم وألستهم على من قالوا إنهم فعلوا الكبائر، وهؤلاء سلوا سيوفهم على سنن الرسول بالردِّ والتكذيب

والتحريف وعلى أئمة الهدى بالقتل والتضليل والتبديع، والخوارج مثبتون لصفات ربهم والجهمية نافون لها، وأهل السنة وإن كانوا برآء من الطائفتين ويدينون الله ببغضهم ومعاداتهم فالحق أحق أن يقال، والواجب معرفة مراتب الأقوال وتنزيل الأمور منازلها، وكل وصف نعت به الخوارج فالجهمية مثلهم أو أشر منهم، فإن الخارجي قال للرسول؛ «اعدل» والجهمية لما قال الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

قالوا: الصواب «استولى» فاستدركوا على الله وعلى رسوله. وكذلك لما تواترت النصوص في نزول الرب إلى سماء الدنيا قال الجهمي مستدركا على الرسول: الصواب ينزل أمره، لأن إخبار الرسول أنه ينزل يشوش عقائد الناس! وقالوا في معراجه: الصواب أنه عرج إلى كرامة الله لا إلى الله، وإن توجه العباد إلى العلو طالبين لربهم في أدعيتهم وتضرعاتهم قالوا: الصواب لا داخل العالم ولا خارجه.

ولما وصف المؤلف أحوال الجهمية أخبر أنه لم ينقل عنهم سوى ما قالوه. وأنه ممن جرب مقاتلهم ووقع فيها في أول أمره حتى هيا الله له شيخ الإسلام ابن تيمية فلازمه وتبين له بسببه الحق المبين من الباطل وحصلت له الهداية والنور التام، وبين أصول الدين ورد أقوال المبطلين. والحاصل أن أهل السنة والجماعة تبعوا ما قاله الله ورسوله وهم أعلم الناس بمراد الله ومراد رسوله ولم يزيدوا على ذلك شعرة ولم ينقصوا منه ذرة، وكلام الله ورسوله أجلُّ في صدورهم وأعظم في نفوسهم من كل شيء، وأسهل شيء عليهم رد كلام الناس كلهم إذا خالفوا نصًّا واحداً من الكتاب والسنة، فبالله عليك أيهم أشبه بالخوارج وأولاهم بهم؟ والجواب لا يحتاج إلى ذكر لوضوحه.



فصل

في بيان كذبهم

ورميههم أهل الحق بأنهم أشباه الخوارج،

وبيان شبههم المحقق بالخوارج

٢٢١١- وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمَنْ

قَدْ دَانَ بِالْأَثَارِ وَالْقُرْآنِ

٢٢١٢- أَنْتُمْ بِذَا مِثْلِ الْخَوَارِجِ إِنَّهُمْ

أَخَذُوا الظُّوَاهِرَ مَا اهْتَدَوْا لِمَعَانِ

٢٢١٣- فَانظُرْ إِلَى ذَا الْبَهْتِ هَذَا وَصِفُهُمْ

نَسَبُوا إِلَيْهِ شِيعَةَ الْإِيمَانِ

٢٢١٤- سَلُّوا عَلَى سُنَنِ الرُّسُولِ وَحِزْبِهِ

سَيْفَيْنِ سَيْفٍ يَدٍ وَسَيْفٍ لِسَانِ

٢٢١٥- خَرَجُوا عَلَيْهِمْ مِثْلَمَا خَرَجَ الْأَلَى

مِنْ قَبْلِهِمْ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ

٢٢١٦- وَاللَّهِ مَا كَانَ الْخَوَارِجُ هَكَذَا

وَهُمُ الْبَغَاةُ أُمَّةُ الطُّغْيَانِ

٢٢١٧- كَفَرْتُمْ أَصْحَابَ سُتَيْتِهِ وَهُمْ

فُسَّاقٌ مَلَّتِهِ فَمَنْ يَلْحَانِي

٢٢١٨- إِنْ قُلْتُ هُمْ خَيْرٌ وَأَهْدَى مِنْكُمْ

وَاللَّهِ مَا الْفِتْنَانِ تَسْتَوِيَانِ

٢٢١٩- شَتَّانَ بَيْنَ مُكْفِرٍ بِالسُّنَّةِ الـ

عُلْيَا وَبَيْنَ مُكْفِرِ الْعِصْيَانِ

٢٢٢٠- قُلْتُمْ تَأْوَلْنَا كَذَاكَ تَأْوَلُوا

وَكِلَاكُمَا فِتْنَانِ بَاغِيَتَانِ

٢٢٢١- وَلَكُمْ عَلَيْهِمْ مِيزَةُ التَّعْطِيلِ وَالتَّـ

تَحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالتَّبْهَتَانِ

٢٢٢٢- وَلَهُمْ عَلَيْكُمْ مِيزَةُ الْإِثْبَاتِ وَالتَّـ

تَصْدِيقِ مَعَ خَوْفٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

٢٢٢٣- أَلَكُمُ عَلَى تَأْوِيلِكُمْ أَجْرَانِ إِذْ

لَهُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِمْ وَزْرَانِ؟

٢٢٢٤- حَاشَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ ذَا الْحُكْمِ بَلْ

أَنْتُمْ وَهُمْ فِي حُكْمِهِ سَيِّانِ

٢٢٢٥- وَكِلَاكُمَا لِلنَّصِّ فَهُوَ مُخَالَفٌ

هَذَا وَبَيْنَكُمَا مِنَ الْفُرْقَانِ

٢٢٢٦- هُمْ خَالَفُوا نَصًّا لِنَصِّ مِثْلِهِ

لَمْ يَفْهَمُوا التَّوْفِيقَ بِالْإِحْسَانِ

٢٢٢٧- لَكِنَّكُمْ خَالَفْتُمُ الْمَنْضُوضَ بِالشَّـ

شُبِّهِ الَّتِي هِيَ فِكْرَةُ الْأَذْهَانِ

٢٢٢٨- فَلَأَيِّ شَيْءٍ أَنْتُمْ خَيْرٌ وَأَقـ

رَبُّ مِنْهُمْ لِلْحَقِّ وَالْإِيمَانِ؟

٢٢٢٩- هُمْ قَدَّمُوا الْمَفْهُومَ مِنْ لَفْظِ الْكِتَا

بِ عَلَى الْحَدِيثِ الْمَوْجِبِ التَّيَّانِ

٢٢٣٠- لَكِنَّكُمْ قَدَّمْتُمْ رَأْيَ الرَّجَا

لِ عَلَيْهِمَا أَفَأَنْتُمْ عِدْلَانِ؟

٢٢٣١- أَمْ هُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ أَقْرَبُ مِنْكُمْ

لَاخِ الصَّبَاحُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

٢٢٣٢- وَاللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْجَزَا

بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ وَالْمِيزَانِ

٢٢٣٣- هَذَا وَنَحْنُ فَمِنْهُمْ بَلْ مِنْكُمْ

بُرَاءٌ إِلَّا مِنْ هُدَى وَيَيَّانِ

٢٢٣٤- فَاسْمَعْ إِذَا قَوْلَ الْخَوَارِجِ ثُمَّ قَوْمِ

لِ خُصُومِنَا وَاحْكُمْ بِلَا مَيْلَانِ

٢٢٣٥- مَنْ ذَا الَّذِي مِنَّا إِذَا أَشْبَاهُهُمْ

إِنْ كُنْتَ ذَا عِلْمٍ وَذَا عِرْفَانِ؟

٢٢٣٦- قَالَ الْخَوَارِجُ لِلرُّسُولِ اعْدِلْ فَلَمْ

تَعْدِلْ وَمَا ذِي قِسْمَةِ الدِّيَانِ

٢٢٣٧- وَكَذَلِكَ الْجَهْمِيُّ قَالَ نَظِيرَ ذَا

لِكَيْتُهُ قَدْ زَادَ فِي الطَّغْيَانِ

٢٢٣٨- قَالَ الصَّوَابُ بَأَنَّهُ «اسْتَوْلَى» فَلِمَ

قُلْتَ «اسْتَوَى» وَعَدَلْتَ عَنِ تَبْيَانِ؟

٢٢٣٩- وَكَذَلِكَ يَنْزِلُ أَمْرُهُ سُبْحَانَهُ

لِمَ قُلْتَ يَنْزِلُ صَاحِبُ الْغُفْرَانِ؟

- ٢٢٤٠- مَاذَا بَعْدِلِ فِي الْعِبَارَةِ وَهِيَ مُو
 هِمَةُ التَّحْرُكِ وَانْتِقَالِ مَكَانِ
- ٢٢٤١- وَكَذَلِكَ قُلْتَ بِأَنَّ رَبَّكَ فِي السَّمَاءِ
 أَوْهَمْتَ حَيْزَ خَالِقِ الْأَكْوَانِ
- ٢٢٤٢- كَانَ الصَّوَابُ بِأَنَّ يُقَالَ بِأَنَّهُ
 فَوْقَ السَّمَاءِ سُلْطَانُ ذِي السُّلْطَانِ
- ٢٢٤٣- وَكَذَلِكَ قُلْتَ إِلَيْهِ يَعْرُجُ وَالصَّوَابُ
 بُ إِلَى كَرَامَةِ رَبِّنَا الْمَنَّانِ
- ٢٢٤٤- وَكَذَلِكَ قُلْتَ بِأَنَّ مِنْهُ يُنَزَّلُ الـ
 قُرْآنُ تَنْزِيلًا مِنْ الرَّحْمَنِ
- ٢٢٤٥- كَانَ الصَّوَابُ بِأَنَّ يُقَالَ نُزُولُهُ
 مِنْ لَوْجِهِ أَوْ مِنْ مَحَلِّ ثَانِ
- ٢٢٤٦- وَتَقُولُ أَيْنَ اللَّهُ؟ وَالْأَيْنُ مِمـ
 تَنَعَّ عَلَيْهِ وَلَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ
- ٢٢٤٧- لَوْ قُلْتَ مَنْ؟ كَانَ الصَّوَابُ كَمَا
 فِي الْقَبْرِ يَسْأَلُ ذَلِكَ الْمَلَكَانَ
- ٢٢٤٨- وَتَقُولُ اللَّهُمَّ أَنْتَ الشَّاهِدُ الـ
 أَعْلَى تُشِيرُ بِأَصْبِعِ وَبَتَّانِ
- ٢٢٤٩- نَحْوَ السَّمَاءِ وَمَا إِشَارَتُنَا لَهُ
 حِسِّيَّةٌ بَلْ تِلْكَ فِي الْأَذْهَانِ
- ٢٢٥٠- وَاللَّهُ مَا نَدْرِي الَّذِي تُبْدِيهِ فِي

هَذَا مَنْ التَّأْوِيلَ لِلإِخْوَانِ

٢٢٥١- قُلْنَا لَهُمْ إِنَّ السَّمَاءَ هِيَ قِبْلَةُ الدُّ

دَاعِي كَبَيْتِ اللَّهِ ذِي الأَرْكَانِ^(١)

٢٢٥٢- قَالُوا لَنَا هَذَا دَلِيلٌ أَنَّهُ

فَوْقَ السَّمَاءِ بِأَوْضَحِ البُرْهَانِ

٢٢٥٣- فَالنَّاسُ طُرًّا إِنَّمَا يَدْعُونَهُ

مِنْ فَوْقِ هَذِي فِطْرَةَ الرَّحْمَنِ

٢٢٥٤- لَا يَسْأَلُونَ القِبْلَةَ العُلْيَا وَلَـ

كِنْ يَسْأَلُونَ الرَّبَّ ذَا الإِحْسَانِ

٢٢٥٥- قَالُوا وَمَا كَانَتْ إِشَارَتُهُ إِلَى

غَيْرِ الشَّهِيدِ مُنْزَلِ الفُرْقَانِ

٢٢٥٦- أَتْرَاهُ أَمْسَى لِلسَّمَا مُسْتَشْهِدًا

حَاشَاهُ مِنْ تَحْرِيفِ ذِي البُهْتَانِ

(١) [٢٢٤٤:٢٢٥١] قال العلامة محمد خليل هراس:

والجهمي لا يرضى كذلك قول الرسول ﷺ أن القرآن منزل من عند الله؛ لأن من تقيده جهة الابتداء وهذا يقتضي أن الله في السماء، ويقول إن الصواب أن يقال إن نزوله من اللوح المحفوظ أو في محل آخر كأن يخلق الله كلامًا في الهواء فيسمعه جبريل عليه السلام وينزل به، كما قالوا مثل ذلك في تكليمه تعالى لموسى عليه السلام أنه خلق كلامًا في الشجرة سمعه موسى ونحو ذلك، وكذلك يغيظ الجهمي أشد الغيظ ويكوى قلبه بنار الحقد أن يسأل الرسول ﷺ عن ربه بلفظ الأين، كما وقع في سؤاله للجارية التي كان يمتحنها، ولما قالت: في السماء حكم بإيائها، ويقول الجهمي: إن الأين وهو سؤال عن المكان وهو ممتنع على الله وليس في الإمكان. فكيف يليق أن يسأل عنه رسوله بما هو ممتنع عليه، فالرسول في نظر الجهمي قد جار في هذه العبارة وما عدل، وكان الصواب عنده أن يقول لها من الله؟ كما يقع من الملكين عند السؤال في القبر ولا يستريح الجهمي كذلك إلى ما وردت به الأخبار الصحيحة من أن الرسول ﷺ في خطبته يوم عرفة في حجة الوداع وفي أعظم مجمع للمسلمين كان يشير بأصبعه إلى السماء يشهد الله عز وجل على البلاغ والأداء قائلًا (اللهم فاشهد) لأن تلك الإشارة الحسية عند ذلك الجهمي ممتنعة على الله لاقتضاها الجهة.

الشَّحْ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هذا الفصل عقده المؤلف رَحِمَهُ اللهُ؛ لأنهم قالوا: أنتم يا أهل السنة أشبهتم الخوارج في التمسك بالظاهر؛ لأن أهل السنة - فيما يتعلق بالأسماء والصفات - يتمسكون بالظاهر من النصوص و الخوارج - أيضًا - أخذوا بظاهر النصوص التي تفيد الكفر في بعض الكبائر؛ فابن القيم رَحِمَهُ اللهُ يقول: أنتم الذين أشبهتموهم، ثم ركَّز على نقطة واحدة وهي قول الخارجي للرسول - عليه الصلاة والسلام -: (اعدل فإنك لم تعدل) ^(١)، اعدل! إذا قسمتك خاطئة، والصواب أن تقسمها على غير هذا الوجه، قال: أنتم الآن قلتم في النصوص الدالة على الصفات: إنه لا يُراد بها كذا وأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يعدل حين عبر بها يفيد الصفات، والصواب أن يعبر بكذا وكذا، ثم ذكر عدة أمثلة رَحِمَهُ اللهُ يقول مثلاً.

فَانظُرْ إِلَى ذَا الْبُهْتِ هَذَا وَصَفُهُمْ نَسَبُوا إِلَيْهِ شِيعَةَ الْإِيمَانِ

يعني: هذا البهت الكذب.

سَلُّوا عَلَيَّ سُنَنَ الرَّسُولِ وَحِزْبِهِ سَيِّفِينَ سَيْفٍ يَدٍ وَسَيْفٍ لِسَانٍ

(سيف يد) بالضرب وربما بالقتل، وسيف لسان بالكلام والسب والقدح أنتم حشوية، أنتم نوابت أنتم ممثلة أنتم كذا وما أشبه ذلك.

خَرَجُوا عَلَيْهِمْ مِثْلَ مَا خَرَجَ الْأَكْبَى مِنْ قَبْلِهِمْ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ

(خرجوا:) الضمير يعود على أهل التعطيل، (عليهم) أي: على حزب الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

فكان خروجهم مثل من خرج من قبلهم بالبغي والعدوان، وهم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب وغيره من الصحابة وقتلوه.

وَاللَّهُ مَا كَانَ الْخَوَارِجُ هَكَذَا وَهُمْ الْبُعَاةُ أُمَّةُ الطُّغْيَانِ

يعني أقسم ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أن الخوارج أهون من هؤلاء - أهل التعطيل - وما كانوا

(١) سبق تخريجه.

هكذا، وهم: الضمير يعود على الخوارج (البعأة أئمة الطغيان) وجه ذلك: أنهم أقل من هؤلاء.

كَفَرْتُمْ أَصْحَابَ سُنتِهِ وَهُمْ فُسَّاقٌ مَلَّتِهِ فَمَنْ يَلْحَانِي

يعني: أنتم كفرتم أصحاب السنة كيف ذلك حين قالوا إنهم مجسمة؟، وإن التجسيم كفر فكفروهم بإثبات السنة، فالخوارج كفروا فساق الملة فأيهم أهون؟ الخوارج أهون؟ لأن الخوارج إنما فسقوا أصحاب الكبائر وهؤلاء كفروا أصحاب السنة.

قوله: (فمن يلحاني) يعني: من يلومني؟

إِنْ قُلْتُ هُمْ خَيْرٌ وَأَهْدَى مِنْكُمْ وَاللَّهُ مَا الْفِتْنَانِ مُسْتَوِيَانِ

شَتَانِ بَيْنَ مُكْفِرِ السُّنَّةِ الـ غُلِيًّا وَبَيْنَ مُكْفِرِ الْعِصِيَانِ

شتان بمعنى بُعد: يعني الفرق بعيد بين من كفر بالسنة ومن كفر بالعصيان أيهم أعظم؟ من كفر بالسنة أعظم فالذي يكفر الناس لاتباعهم السنة أشد من الذي يكفرهم لقيامهم بالمعصية.

قُلْتُمْ تَأْوَلْنَا كَذَاكَ تَأْوَلُوا وَكَلَاكُمْ فَتِنَانِ بَاغِيَّتَانِ

يعني: قلتكم مدافعين عن أنفسكم. إننا ذهبنا هذا المذهب متأولين فماذا نقول؟ قال: كذاك تأولوا هم أيضًا وأخذوا بالنصوص التي ظاهرها الوعيد. ولكن تأويلكم أنتم أشد.

هذه لكم عليهم ميزة وهي التعطيل أي تعطيل صفات الله عز وجل.

وقوله: (والتَّحْرِيفِ والتَّبْدِيلِ والبُهْتَانِ) والتحريف يكون للنصوص.

وَلَهُمْ عَلَيْكُمْ مِيزَةٌ الْإِثْبَاتِ وَالْتَّصَدِيقِ مَعَ خَوْفٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

فرق، الخوارج يمتازون عنهم بشدة التمسك بالظواهر، ويشبتون الصفات ويصدقون بها وعندهم من خوف الله ما ليس عند هؤلاء، ولهذا تجد الخوارج سرج الليالي يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا يصومون ويتلون الكتاب فلا يوجد أحد مثلهم في الظاهر لكن إيمانهم - والعباد بالله - لا يتجاوز حناجرهم، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(١) نسأل الله العافية.

أَلْكُمْ عَلَى تَأْوِيلِكُمْ أَجْرَانِ إِذْ لَهُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِمْ وَزَرَانِ؟

هذا الاستفهام للإنكار والتعجب يعني أنتم تؤولون وتقولون: إننا مؤولون مصييون، فلنا أجران أما هم فهم غير مؤولين بل معاندين فلهم وزران.

حَاشَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ ذَا الْحُكْمِ بَلْ أَنْتُمْ وَهُمْ فِي حُكْمِهِ سَيِّئَانِ
وَكِلَاكُمَا لِلنِّصِّ فَهَوَ مُخَالَفٌ هَذَا وَبَيْنَكُمَا مِنَ الْفُرْقَانِ
هُمْ خَالَفُوا نَصًّا لِنَصِّ مِثْلِهِ لَمْ يَفْهَمُوا التَّوْفِيقَ بِالْإِحْسَانِ
لَكِنَّكُمْ خَالَفْتُمُ الْمَنْصُوصَ لِلشِّبْهِ الَّتِي هِيَ فِكْرَةُ الْأَذْهَانِ

أيهم أعظم مخالفة الخوارج حيث خالفوا النصوص الدالة على أن المؤمن لا يكفر بالمعاصي والكبائر لكن خالفوهم لأي شيء؟ لنصوص أخرى اشتهت عليهم دلت على كفر بعض فاعلي الكبائر فإذن هم خالفوا النصوص لنصوص أخرى ولكنهم لم يوفقوا بينها أما أنتم فخالفتم النصوص للأراء والأفكار وما زعمتموه معقولاً ولهذا قال:

لَكِنَّكُمْ خَالَفْتُمُ الْمَنْصُوصَ لِلشِّبْهِ الَّتِي هِيَ فِكْرَةُ الْأَذْهَانِ
فَلَأَيِّ شَيْءٍ أَنْتُمْ خَيْرٌ وَأَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْحَقِّ وَالْإِيمَانِ

هذا الاستفهام للإنكار يعني: لا يمكن أن تكونوا أنتم أقرب منهم للحق والإيمان.

هُم قَدَّمُوا الْمَفْهُومَ مِنْ لَفْظِ الْكِتَابِ بِ عَلَى الْحَدِيثِ الْمَوْجِبِ التَّبَيُّانِ
الْخَوَارِجُ يَعْتَنُونَ بِالْقُرْآنِ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَأْخُذُونَ بِالْحَدِيثِ كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ هُنَا وَلَعَلَّ هَذَا
قَوْلٌ لَطَائِفَةٌ مِنْهُمْ وَأَنْ بَعْضَهُمْ يَأْخُذُ بِالْحَدِيثِ إِذَا صَحَّ سَنَدُهُ لَكِنَّهُمْ مُتَشَدِّدُونَ فِي
الْأَحَادِيثِ.

لَكِنَّكُمْ قَدَّمْتُمْ رَأْيَ الرَّجَا لِ عَلَيْهِمَا أَفَأَنْتُمْ عِدْلَانِ

يعني: على الكتاب وعلى الحديث.

الجواب؟ لا لستما عدلين؛ لأنه على تقدير أنهم أخذوا بالقرآن دون الأحاديث أما أنتم فلم تأخذوا بهذا ولا بذلك.

أَمْ هُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ أَقْرَبُ مِنْكُمْ لِأَخِ الصَّبَاحِ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

أم هم: في معنى بل هم.

لاح بمعنى: اتضح وبان.

وَاللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْحِزَابِ بِالْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ وَالْمِيزَانِ

الله يحكم يوم القيامة بين الخلائق بالعدل والميزان؛ لأن الخلائق يوم القيامة يختصمون، أهل الحق وأهل الباطل يعني مثلاً الآن نحن في عصرنا هذا يوجد أناس أهل باطل نقول لهم: هذا باطل فيقولون: لا. يوم القيامة هم خصومنا نخاصمهم ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [٣١] فالؤمن يخاصم الكافر يوم القيامة؛ لأجل أن يقيم الحجة عليه في يوم لا يستطيع أن يتهرب منه، ولهذا تجدون في آيات كثيرة: ﴿فَيُنزِّلُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ لا بد من المخاصمة وهذه تفرح الإنسان المؤمن الذي لا يؤخذ قوله في الدنيا، يفرح بأن هناك موقفاً آخر سوف يكون قوله هو المتبع وهو العالي، وربما يعلو في الدنيا، أي ربما يعجل الله النصر للإنسان في الدنيا كما ينصره في الآخرة أما في الآخرة فالنصر مضمون للمؤمنين.

هَذَا وَنَحْنُ فَمِنْهُمْ بَلْ مِنْكُمْ بُرَاءٌ إِلَّا مَنْ هُدِيَ وَبَيَّنَّ

ابن القيم هنا يتبرأ من كل مَنْ يخالف الحق سواء الخوارج أو غيرهم؛ لأنهم كلهم ليسوا على حق.

في قوله: (إلا من هدى وبيان) وهذا من إنصاف ابن القيم يعني: نتبرأ منكم إلا ما كان منكم على هدى وبيان فإننا نقبله، ولهذا لا يجوز للإنسان أن يحمل به بغض الشخص على ردِّ قوله مطلقاً كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، فالواجب على الإنسان أن يقبل الحق من أي إنسان جاء به ويرد الباطل من أي إنسان جاء به، أما أن يزن الحق بالرجال ويقول كل ما جاء به هذا الشخص، فهو الحق فهذا غلط ولهذا قال: هذا ونحن منهم بل منكم.

يعني: ومنكم أيضاً: برآء إلا ما كان هدى وبيان.

فَاسْمَعِ إِذَا قَوْلَ الْخَوَارِجِ ثُمَّ قَوِّ لْخُصُومِنَا وَاحْكُم بِلَا مِيلَانِ

مَنْ ذَا الَّذِي مَتَّأ إِذَا أَشْبَاهَهُمْ إِنْ كُنْتَ ذَا عِلْمٍ وَذَا عِرْفَانٍ؟

ثم بدأ المؤلف بالمقارنة بين الخوارج وبين أهل التعطيل فهل هم أولى أن يكونوا مشاهبين للخوارج أم نحن؟ يقول:

قَالَ الْخَوَارِجُ لِلرُّسُولِ اِعْدِلْ فَلَمْ تَعْدِلْ وَمَا ذِي قِسْمَةِ الدِّيَانِ

هذه خصلة من خصال من الخوارج، وهي الاعتراض على حكم الرسول ﷺ.

وَكَذَلِكَ الْجَهْمِيُّ قَالَ نَظِيرَ ذَا لِكِنَّهُ قَدْ زَادَ فِي الطُّغْيَانِ

قَالَ الصَّوَابُ بَأَنَّهُ اسْتَوْلَى فَلِمَ قُلْتَ اسْتَوَى وَعَدَلْتَ عَنِ تَبْيَانِ

يقول: إن الصواب أن تقول: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى﴾ ثمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴿ وأنت يا محمد قلت استوى فلم قلت استوى؟.

فالخوارج قالوا هذه القسمة خطأ والصواب القسمة التي يريدونها استولى، بدلاً من استوى.

وَكَذَلِكَ يَنْزِلُ أَمْرُهُ سُبْحَانَهُ لِمَ قُلْتَ يَنْزِلُ صَاحِبُ الْغُفْرَانِ

ومن ذلك أيضاً قوله ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا» والصواب ينزل أمره لكنك أنت يا محمد عدلت عن الصواب وقلت ينزل صاحب الغفران.

مَاذَا بَعْدِلُ فِي الْعِبَارَةِ وَهِيَ مُو هِمَّةُ التَّحْرُكِ وَانْتِقَالِ مَكَانِ

يقول إنك لم تعدل في العبارة وأتيت بعبارة تُوهمُ الانتقال والتحرك فقلت إن الله ينزل وهذا يوهم أنه انتقل من العرش إلى السماء وأنه تحرك وهذا ليس بعدل فما الذي ينزل على رأي الجهمي؟

الجواب: ينزل أمره، لماذا لم تقل يا محمد ينزل أمره حتى تعدل في العبارة وتُصِيبَ الصواب؟

وَكَذَلِكَ قُلْتَ بَأَنَّ رَبَّكَ فِي السَّمَاءِ أَوْهَمْتَ حَيْرَ خَالِقِ الْأَكْوَانِ

انظر الآن يخاطب الرسول لما قال: إن الله في السماء وهذا غلط؟

كَانَ الصَّوَابُ بِأَنَّ يُقَالُ بَأَنَّهُ فَوْقَ السَّمَاءِ سُلْطَانُ ذِي السُّلْطَانِ

فالذي في السماء هو سلطانه، أما الله - عز وجل - فلا تقول إنه في السماء، لكن نقول سلطانه في السماء إذن جُرَّتْ فِي التَّعْبِيرِ، وما أتيت بالعدل، وتلك المشابهة تماماً بالخوارج.

وَكَذَلِكَ قُلْتَ إِلَيْهِ يُعْرَجُ وَالصَّوَابُ بَ إِلسَى كَرَامَةِ رَبِّنَا الْمَنَّانِ

وهم يريدون قول الرسول بأن روح المؤمن تعرج إلى الله عز وجل ويقولون: ليس هذا

هو الصواب، والصواب: أنها لا تعرج إليه وإنما تعرج إلى كرامته لكنك لم تعدل وأتيت بلفظ موهم.

وَكَذَٰكَ قُلْتَ بَأَنَّ مِنْهُ يَنْزِلُ الـ قُرْآنَ تَنْزِيلًا مِّنَ الرَّحْمَنِ
كَانَ الصَّوَابُ بَأَنَّ يُقَالَ نَزُولُهُ مِّنَ لَوْحِهِ أَوْ مِّنَ مَحَلِّ ثَانٍ

- نسأل الله العافية - أنت يا محمد قلت: إن القرآن ينزل من الله، وهذا جور في العبارة، والصواب أنه ينزل من اللوح المحفوظ لا ينزل من الله (ينزل من لوحه أو من محل ثاني): يقدره الجهمي.

وَتَقُولُ أَيْنَ اللهُ؟ وَالتَّائِبِينَ مُمٌ - تَتَّبِعُ عَلَيْهِ وَلَيْسَ فِي الإِمْكَانِ
لَوْ قُلْتَ مَنْ؟ كَانَ الصَّوَابُ كَمَا تَرَى فِي الْقَبْرِ يَسْأَلُ ذَٰلِكَ الْمَلَكَانَ

- الله أكبر - يقول محمد الرسول - عليه الصلاة والسلام - لما قال للجارية: أين الله؟ أخطأ ولم يعدل كان الذي يجب عليه أن يقول: من الله؟ كما يقول الملكان في القبر للميت: من ربك؟ ولا يقولان أين ربك؟ فمحمد جائر وعدل عن الصواب وقال للجارية: أين الله؟ وكان الذي يجب عليه أن يقوله من الله؟ - نسأل الله العافية -.

وَتَقُولُ اللَّهُمَّ أَنْتَ الشَّاهِدُ الـ أَعْلَى تُشِيرُ بِأَصْبَعٍ وَبَنَانٍ
نَحْوَ السَّمَاءِ وَمَا إِشَارَتُنَا لَهُ حِسِّيَّةٌ بَلْ تِلْكَ فِي الأَذْهَانِ

متى قال هذا؟ قاله في حجة الوداع، لما قرر - صلوات الله وسلامه عليه - ما قرر من الأصول العظيمة قال: ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم قال: اللهم اشهد، يرفع أصبعه للسماء وينكثها للناس، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد ثلاث مرات وهو يُشْهَدُ اللهُ - عز وجل - على الصحابة أنهم أقرؤا بالبلاغ، أين يرفع أصبعه؟ للسماء، قال: هذا ما يجوز، هذا خطأ فإن الله تعالى لا يُشار إليه إشارة حسية، وإنما يشار إليه إشارة معنوية بالقلب أما حسًا فلا، ولهذا قال بعضهم: لو أن أحدًا من الناس أشار إليه بأصبعه لقطعت أصبعه - أعوذ بالله -؛ لأن هذا عندهم كفر - نسأل الله العافية -.

قال ابن القيم:

وَاللهَ مَا نَدْرِي الَّذِي نُبْدِيهِ فِي هَٰذَا مَنَ التَّأْوِيلِ لِلإِخْوَانِ

قُلْنَا لَهُمْ إِنَّ السَّمَاءَ هِيَ قِبْلَةُ الدِّ
عِيبِ كَيْبَتِ اللَّهِ ذِي الأَرْكَانِ
قَالُوا لَنَا هَذَا دَلِيلٌ أَنَّهُ
فَوْقَ السَّمَاءِ بِأَوْضَحِ البُرْهَانِ

يعني: أن الرسول لما أشار إلى السماء يُشهدُ الله - عز وجل - كان هذا نصًا قاطعًا في أن الله تعالى في السماء كذلك الداعي إذا دعى أين يرفع يديه؟ إلى السماء، وهذا نص قاطع؛ لأنه دليل فطرة.

ثم يقول: إن الداعي إذا رفع يديه إلى السماء إنما يرفع يديه إلى قبلة الدعاء، لا إلى الله كما أن المصلي إذا صلى يتجه إلى الكعبة التي هي قبلة المصلي، فإذا قلنا يا الله ليس معناه أننا نرفع أيدينا إلى الله، إنما نرفع أيدينا إلى قبلة الداعي، كما يتجه المصلي إلى الكعبة التي هي قبلة المصلي.

فَالنَّاسُ طُرًّا إِنَّمَا يَدْعُونَهُ
مِن فَوْقِ هَذِي فِطْرَةِ الرَّحْمَنِ
لَا يَسْأَلُونَ القِبْلَةَ العُلْيَا وَلا
كِن يَسْأَلُونَ الرَّبَّ ذَا الإِحْسَانِ

هذا صحيح لو أنك أتيت بعجوز ما قرأت العقيدة، ولا قرأت أي كتاب، وهي ترفع يديها تسأل الله، إلى أي شيء رفعت يديك؟ فهل تقول إلى السماء قبلة الداعي؟ أبدًا لا تقول هكذا ولا تعرف هذا، بل تقول رفعتها إلى الله، فكيف تقولون أنتم إنها رافعة اليدين إلى السماء؛ لأنها قبلة الداعي؟! من قال لكم هذا؟! إنما يرفع الدعاء أيديهم إلى السماء؛ لأنهم يعلمون أن ربهم في السماء.

لَا يَسْأَلُونَ القِبْلَةَ العُلْيَا وَلا
قَالُوا وَمَا كَانَتْ إِشَارَتُهُ إِلَى
كِن يَسْأَلُونَ الرَّبَّ ذَا الإِحْسَانِ
غَيْرِ الشَّهِيدِ مُنْزَلِ الفرقَانِ

الذين يقولون هذا هم أهل السنة والجماعة ردًا على القائلين بأنهم إنما يرفعون أيديهم إلى السماء التي هي قبلة الداعي على زعمهم.

قالوا وما كانت إشارته إلى غير الشهيد وهو الله سبحانه وتعالى منزل الفرقان.
يعني: أنظن الرسول ﷺ.

أَتْرَاهُ أَمْسَى لِلسَّمَاءِ مُسْتَشْهِدًا
حَاشَاهُ مِنْ تَحْرِيفِ ذِي البُهْتَانِ



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٢٢٥٧- وَكَذَلِكَ قُلْتُ بِأَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ

وَكَلَامُهُ الْمَسْمُوعُ بِالْأَذَانِ

٢٢٥٨- نَادَى الْكَلِيمَ بِنَفْسِهِ وَكَذَلِكَ قَدْ

سَمِعَ النَّدَا فِي الْجَنَّةِ الْأَبْوَانِ

٢٢٥٩- وَكَذَا يُنَادِي الْخَلْقَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ

بِالصَّوْتِ يَسْمَعُ صَوْتَهُ الثَّقْلَانِ

٢٢٦٠- إِنِّي أَنَا الدِّيَانُ أَخْذُ حَقُّ مَظْ

لُومٍ مِنَ الْعَبْدِ الظُّلُومِ الْجَانِي

٢٢٦١- وَتَقُولُ إِنَّ اللَّهَ قَالَ وَقَائِلٌ

وَكَذَا يَقُولُ وَلَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ

٢٢٦٢- قَوْلٌ بِلَا حَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ يُرَى

مِنْ غَيْرِ مَا شَفَفَةٍ وَغَيْرِ لِسَانِ

٢٢٦٣- أَوْقَعَتْ فِي التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ مَنْ

لَمْ يَنْفِ مَا قَدْ قُلْتَ فِي الرَّحْمَنِ (١)

٢٢٦٤- لَوْ لَمْ تَقُلْ فَوْقَ السَّمَاءِ وَلَمْ تُشِرْ

بِإِشَارَةٍ حَسِيَّةٍ بَيِّنَانِ

٢٢٦٥- وَسَكَتَ عَنْ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي

قَدْ صَرَّحْتَ بِالْفَوْقِ لِلدِّيَانِ

(١) [٢٢٦٥:٢٢٦٣] قال العلامة محمد خليل هراس:

فهذا كله مما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، يراه الجهمي جوراً في العبارة مجانبا للصواب في التنزيه، وموقعنا لمن لا علم له بنفيه عن الرحمن في التجسيم والتشبيه. والثقلان الإنس والجن، والديان صيغة مبالغة من دانه بمعنى: جازه.

٢٢٦٦- وَذَكَرْتَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِدَاخِلٍ

فِينَا وَلَا هُوَ خَارِجَ الْأَكْوَانِ

٢٢٦٧- كُنَّا انْتَصَفْنَا مِنْ أَوْلِي التَّجْسِيمِ بَلْ

كَانُوا لَنَا أَسْرَى عَبِيدَ هَوَانِ

٢٢٦٨- لَكِنْ مَنَحْتَهُمْ سِلَاحًا كُلَّمَا

شَاؤُوا لَنَا مِنْهُمْ أَشَدَّ طِعَانِ

٢٢٦٩- وَغَدَوْا بِأَسْهُمِكَ الَّتِي أُعْطِيَتْهُمْ

يَرْمُونَنَا غَرَضًا بِكُلِّ مَكَانِ

٢٢٧٠- لَوْ كُنْتَ تَعْدِلُ فِي الْعِبَارَةِ بَيْنَنَا

مَا كَانَ يُوجَدُ بَيْنَنَا زُجْفَانِ

٢٢٧١- هَذَا لِسَانُ الْحَالِ مِنْهُمْ وَهُوَ فِي

ذَاتِ الصُّدُورِ يُغْلُ بِالْكِتْمَانِ

٢٢٧٢- يَبْدُوا عَلَى فَلَاتٍ أَلْسِنِهِمْ وَفِي

صَفْحَاتِ أَوْجُهُهِمْ يُرَى بَعِيَانِ

٢٢٧٣- سَيِّمًا إِذَا قُرِئَ الْحَدِيثُ عَلَيْهِمْ

وَتَلَوْتَ شَاهِدَهُ مِنَ الْقُرْآنِ

٢٢٧٤- فَهَنَّاكَ بَيْنَ النَّازِعَاتِ وَكُوْرَتْ

تِلْكَ الْوُجُوهُ كَثِيرَةٌ الْأَلْوَانِ

٢٢٧٥- وَيَكَادُ قَائِلُهُمْ يُصْرِحُ لَوْ يَرَى

مِنْ قَابِلٍ فَتْرَاهُ ذَا كِتْمَانٍ^(١)

(١) [٢٢٧٥:٢٢٦٤] قال العلامة محمد خليل هراس:

اللغة: يقال انتصف من يخصمه إذا غلب عليه بالحجة وقهرة، والغرض هو الشيء الذي ينصب للرمي

- ٢٢٧٦- يَا قَوْمُ شَاهِدْنَا رُؤُوسَكُمْ عَلَى
هَذَا وَلَمْ نَشْهَدْهُ مِنْ إِنْسَانٍ
- ٢٢٧٧- إِلَّا وَحَشُوا فُؤَادِهِ غِلُّ عَلَى
سُنَنِ الرَّسُولِ وَشِيعَةِ الْقُرْآنِ
- ٢٢٧٨- وَهُوَ الَّذِي فِي كُتُبِهِمْ لَكِنْ بَلَطُ
فِي عِبَارَةٍ مِنْهُمْ وَحُسْنِ بَيَانٍ
- ٢٢٧٩- وَأَخُو الْجَهَالَةِ صَيْدُهُ لِلْفِظِّ وَال
مَعْنَى فَصَيْدُ الْعَالَمِ الرَّبَّانِيِّ
- ٢٢٨٠- يَأْمَنُ يَظُنُّ بِأَنَّنا حِفْنَا عَلَيْنَا
هَمُّ كُتُبُهُمْ تُنْبِئُكَ عَنِ ذَا الشَّانِ
- ٢٢٨١- فَانظُرْ تَرَى لَكِنْ نَرَى لَكَ تَرَكَهَا
حَذَرًا عَلَيْكَ مَصَايِدَ الشَّيْطَانِ
- ٢٢٨٢- فَشَبَّاكُهَا وَاللَّهِ لَمْ يَعْلَقْ بِهَا
مِنْ ذِي جَنَاحٍ قَاصِرِ الطَّيْرَانِ
- ٢٢٨٣- إِلَّا رَأَيْتَ الطَّيْرَ فِي قَفْصِ الرَّدَى
يَبْكِي لَهُ نُوحٌ عَلَى الْأَغْصَانِ
- ٢٢٨٤- وَيَظَلُّ يَخْبِطُ طَالِبًا لِخَلَاصِهِ
فَتَضَيِّقُ عَنْهُ فُرْجَةُ الْعِيْدَانِ
- ٢٢٨٥- وَالذَّنْبُ ذَنْبُ الطَّيْرِ خَلَى أَطْيَبَ الثَّدِّ

كالهدف، والرجفان من الرجفة والاضطراب، وهو الشديد الفزع والشاهد هو المطابق المؤيد به، وقوله: بين النازعات وكورت يعني به قوله تعالى في سورة عبس في وصف وجوه الكفار ﴿وَوُجُوهُ عَلَيْهَا عَرَبٌ رَهَقَهَا قَرَّةٌ﴾ [عبس: ٤٠- ٤١].

مَمَرَاتٍ فِي عَالٍ مِنَ الْأَفْتَانِ

٢٢٨٦- وَأَتَى إِلَى تِلْكَ الْمَزَابِلِ يَتَّبِعِي أَلْ

فَضَلَاتٍ كَالْحَشَرَاتِ وَالْدِيدَانِ^(١)

٢٢٨٧- يَا قَوْمُ وَاللَّهِ الْعَظِيمِ نَصِيحَةٌ

مِنْ مُشْفِقٍ وَأَخٍ لَكُمْ مِعْوَانٍ

٢٢٨٨- جَرِبْتُ هَذَا كُلَّهُ وَوَقَعْتُ فِي

تِلْكَ الشِّبَاكِ وَكُنْتُ ذَا طَيْرَانٍ

٢٢٨٩- حَتَّى أَتَاخَ لِي الْإِلَهَ بِلُطْفِهِ

مَنْ لَيْسَ تَجْزِيهِ يَدِي وَلِسَانِي

٢٢٩٠- حَبْرٌ أَتَى مِنْ أَرْضِ حَرَانٍ فَيَا

أَهْلًا بِمَنْ قَدْ جَاءَ مِنْ حَرَانٍ

٢٢٩١- فَاللَّهُ يَجْزِيهِ الَّذِي أَهْلُهُ

مِنْ جَنَّةِ الْمَأْوَى مَعَ الرِّضْوَانِ

٢٢٩٢- قَبِضْتُ يَدَاهُ يَدِي وَسَارَ فَلَمْ نَرِمَ

حَتَّى أَرَانِي مَطْلَعِ الْإِيمَانِ

٢٢٩٣- وَرَأَيْتُ أَعْلَامَ الْمَدِينَةِ حَوْلَهَا

يَزُكُّ الْهُدَى وَعَسَاكِرُ الْقُرْآنِ

٢٢٩٤- وَرَأَيْتُ آثَارًا عَظِيمًا شَأْنَهَا

(١) [٢٢٨٦:٢٢٧٦] قال العلامة محمد خليل هراس:

الرءوس: الزعماء والقادة - الغل: الحقد والغيط - الحيف: الجور - مصايد الشيطان: حباته ومكائده -
 علق الطائر بالشبكة: إذا أمسك الفخ برجليه فلم يستطع النهوض - الردى: الهلاك - النوح: جمع نائح،
 والمراد به الطير التي تنوح على الأغصان - يجبط: يضرب بجناحيه - فرجة العيدان: ما بينهما من اتساع -
 أخلى: ترك - الأفتان: جمع فنن وهو الغصن.

مَحْجُوبَةً عَنْ زُمْرَةِ الْعُمَيَّانِ

٢٢٩٥- وَوَرَدَتْ رَأْسَ الْمَاءِ أبيضَ صَافِيًا

حَصْبًا وَهُوَ كَلَالِيءُ التَّيْجَانِ

٢٢٩٦- وَرَأَيْتُ أَكْوَابًا هُنَاكَ كَثِيرَةً

مِثْلَ النُّجُومِ لَوَارِدِ ظَمَّانِ

٢٢٩٧- وَرَأَيْتُ حَوْضَ الْكَوْثَرِ الصَّافِي الَّذِي

لَا زَالَ يَشْحُبُ فِيهِ مِيزَابَانِ

٢٢٩٨- مِيزَابُ سُنَّتِهِ وَقَوْلُ إِلَهِهِ

وَهُمَا مَدَى الْأَيَّامِ لَا يَتَيَّانِ

٢٢٩٩- وَالنَّاسُ لَا يَرُدُّونَهُ إِلَّا مِنْ أَل-

آلِفٍ أَفْرَادٌ ذَوُو إِيمَانِ

٢٣٠٠- وَرَدُّوا عَذَابَ مَنَاهِلٍ أَكْرَمَ بِهَا

وَوَرَدْتُمْ أَنْتُمْ عَذَابَ هَوَانٍ^(١)

٢٣٠١- فَبِحَقِّ مَنْ أَعْطَاكُمْ ذَا الْعَدْلِ وَال-

إِنْصَافِ وَالتَّخْصِيسِ بِالْعِرْفَانِ

٢٣٠٢- مَنْ ذَا عَلَى دِينِ الْخَوَارِجِ بَعْدَ ذَا

أَنْتُمْ أُمَّ الْحَشَوِيِّ مِمَّا تَرَيَانِ؟

٢٣٠٣- وَاللَّهِ مَا أَنْتُمْ لَدَى الْحَشَوِيِّ أَهْ-

(١) [٢٣٨٧: ٢٣٠٠] قال العلامة محمد خليل هراس:

ومن المؤسف أن الناس لا يردون حوض علمه في الدنيا من الآلاف المؤلفة إلا انفراد بعد الفرد ممن هداهم الله ووقفهم وهم الذين وردوا أكرم المناهل وأعذبها، وأما أنتم أيها المعرضون المخذلون فقد وردتم موارد العذاب المهين تبقون فيها خزايا نادمين.

— لَا أَنْ يَقْدِمَكُمْ عَلَى عُثْمَانَ

٢٣٠٤- فَضلاً عَنِ الْفَارُوقِ وَالصِّدِّيقِ فَضْ

— لَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَالْقُرْآنِ

٢٣٠٥- وَاللَّهِ لَوْ أَبْصَرْتُمْ لَرَأَيْتُمْ الْ

— حَشَوِيَّ حَامِلَ رَايَةِ الْإِيْمَانِ

٢٣٠٦- وَكَلَامَ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَعَبْدِهِ

فِي قَلْبِهِ أَعْلَى وَأَكْبَرُ شَانِ

٢٣٠٧- مِنْ أَنْ يُحَرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَأَنْ

يُقْضَى لَهُ بِالْعَزْلِ عَنِ إِيقَانِ

٢٣٠٨- وَيَرَى الْوِلَايَةَ لِابْنِ سَيْنَا أَوْ أَبِي

نَصْرٍ أَوْ الْمَوْلُودِ مِنْ صَفْوَانِ

٢٣٠٩- أَوْ مَنْ يُتَابِعُهُمْ عَلَى كُفْرَانِهِمْ

أَوْ مَنْ يُقَلِّدُهُمْ مِنَ الْعَمِيَانِ

٢٣١٠- يَا قَوْمَنَا بِاللَّهِ قُومُوا وَانظُرُوا

وَتَفَكَّرُوا فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ

٢٣١١- نَظَرًا وَإِنْ شِئْتُمْ مُنَاطِرَةً فَمِنْ

مَثْنَى عَلَيَّ هَذَا وَمِنْ وَحْدَانِ

٢٣١٢- أَيُّ الطَّوَائِفِ بَعْدَ ذَا أَدْنَى إِلَى

قَوْلِ الرَّسُولِ وَمُحَكِّمِ الْقُرْآنِ

٢٣١٣- فَإِذَا تَبَيَّنَ ذَا فِيمَا تَتَّبِعُوا

أَوْ تَعَذَّرُوا أَوْ تُؤذِّنُوا بِطَعْنَانِ^(١)

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

سبق أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ذكر أن الجهمية، بل المعطلة عموماً هم الذين يُشبهون الخوارج حيث قالوا: إن الرسول ﷺ لم يعدل في ما وصف الله به حتى قالوا: إن قوله «أين الله؟» ليس بعدل والصواب أن يقول: من الله؟ أما أين الله؟ فلا قال:

وَكَذَلِكَ قُلْتُ بِأَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ وَكَلَامُهُ الْمَسْمُوعُ بِالْأَذَانِ

هذا القول على لسان الجهمي المعطل، ويخاطب النبي ﷺ فيقول:

نَادَى الْكَلِيمَ بِنَفْسِهِ وَكَذَلِكَ قَدْ سَمِعَ النَّدَا فِي الْجَنَّةِ الْأَبْوَانِ

(نادى الكليم بنفسه)، نادى يعني: الله - عز وجل -، (الكليم): موسى، (بنفسه وكذاك قد

(١) [٢٣٠١: ٢٣١٣] قال العلامة محمد خليل هراس:

يقسم عليهم بالله الذي أعطاهم ما يزعمون أنه عدل وإنصاف، وبحق من خصهم بتلك المعرفة أن يبينوا له بعد هذا الذي قدمه من الشرح والبيان أي الفريقين منهم ومن الحشوية هو على دين الخوارج وأقرب إليهم نسباً، ولن يجدوا محيصاً من الحكم على أنفسهم بأنهم أولى بشبه الخوارج من خصومهم فهم الذين يتهمون الرسول ﷺ بعدم العدل في العبارة كما اتهمه من قبلهم من الخوارج بعدم العدل في القسمة. ثم يقسم بالله مرة ثانية أنهم ليسوا عند الحشوي أهلاً لأنهم ليسوا عند الشحوي أهلاً لأن يقدمهم في فهم الدين على ثالث الخلفاء الراشدين عثمان ذي النورين رضي الله عنه، فضلاً عن أن يقدمهم على صديق الأمة أبي بكر أو فاروقها عمر رضي الله عنهما، فضلاً عن أن يقدمهم على سنة رسول الله ﷺ وعلى القرآن الكريم، ثم يقسم ثالثة بالله أنهم لو كانوا ذوي بصر وفطنة لأدركوا أن هذا الذي يسمونه الحشوي استهزاء وسخرية هو حامل راية الإيذان لأنه هو الذي وقف عند نصوص الكتاب والسنة فلم يسمها تأويلًا ولم يحرفها عن مواضعها تبديلاً، بل هي عنده أجل وأكبر من أن يتلاعب بها أو يحكم عليها بالقصور عن إفادة اليقين، أو يتركها ويهملها من أجل كلام هؤلاء المارقين من أمثال أبي علي بن سينا الذي يسمونه بالشيخ الرئيس أو أبي نصر الفارابي الملقب بالمعلم الثاني، أو الجهم بن صفوان الترمذي رأس الضلال والفتنة، أو من يشايهم على كفرهم وضلالهم ويقلدهم تقليدًا أعمى بلا نظر ولا معرفة. ثم يدعوهم الشيخ مرة أخرى إلى أن يقدموا مثني وفرادي، ثم يتفكروا وينظروا في السر والعلانية، وإن شاءوا مناظرة فليناظروا ليعرفوا أي الطواف منهم، ومن الحشوية هو أقرب إلى قول رسول الله ﷺ وإلى محكم القرآن، فإن ظهر لهم ذلك وتبينوه فإما أن يتبعوا الحق وإما أن يقدموا عذراً عن بقائهم على ما هم عليه، وإما أن يعلنوها حرباً بينهم وبين خصومهم تفصل بينهم إذ لم تجد الحجة ولم ينفع البرهان.

سمع النداء في الجنة الأبوان) وهما: آدم وحواء قال الله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْتَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٢٣) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴿[الأعراف: ٢٢-٢٣].

وَكَذَا يُنَادِي الْخَلْقَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ بِالصَّوْتِ يَسْمَعُ صَوْتَهُ الثَّقَلَانِ

كما جاء في الحديث الصحيح ينادي بصوت يقول الله تعالى: «يا آدم فيقول لبيك وسعديك فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار»^(١)

إِنِّي أَنَا الدَّيَّانُ أَخَذُ حَقَّ مَظْ

لُومٍ مِنَ الْعَبْدِ الظَّلُومِ الْجَانِي

وَتَقُولُ إِنَّ اللَّهَ قَالَ وَقَائِلٌ

قَوْلٌ بِلَا حَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ يُرَى

كل هذا كلام أهل التعطيل يخاطبون الرسول - عليه الصلاة والسلام -، ويرون أن هذا القول ليس بعدل، وأن العدل أن يأتي بما يدعون أنه التنزيل، وهو نفى الصفات.

أَوْقَعَتْ فِي التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ مَنْ لَمْ يَنْفِ مَا قَدْ قُلْتَ فِي الرَّحْمَنِ

(أوقعت) يعنون الرسول - عليه الصلاة والسلام -، في التشبيه والتجسيم (من لم ينف) مَنْ مفعول أوقعت، (من لم ينف ما قد قلت في الرحمن)، ومن يعنون به؟ هم يعنون أهل السنة الذين أثبتوا الصفات، فهذا الرجل المعطل يقول للرسول ﷺ: إنك أوقعت من لم ينف ما قلت في التشبيه والتجسيم.

لَوْ لَمْ تَقُلْ فَوْقَ السَّمَاءِ وَلَمْ تُشِرْ

بِإِشَارَةِ حِسِّيَّةٍ بَيِّنَةٍ

قَدْ صرَّحتْ بِالْفَوْقِ لِلدَّيَّانِ

(لو لم تقل:) كل الكلام الآن يحكيه ابن القيم على لسان أهل التعطيل، وهم يخاطبون بذلك الرسول ﷺ.

قوله: (ولم تشر بإشارة حسية بينان)، كما أشار في حال خطبة حجة الوداع.

وَذَكَرْتَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِدَاخِلٍ

فِينَا وَلَا هُوَ خَارِجُ الْأَكْوَانِ

يعني: لو فعلت هذا كان:

كُنَّا انْتَصَفْنَا مِنْ أَوْلِي التَّجْسِيمِ بَلْ

كَانُوا لَنَا أَسْرَى عَيْدَ هَوَانِ

يعني: لو أنك ما قلت الكلام هذا، ولا وصفت الله بما وصفت لكننا انتصفنا من أولى التجسيم، (انتصفنا) يعني: أخذنا بالنَّصْف منهم فغلبناهم، وكانت الحجة لنا؛ لكنك قلت ذلك، فصار الانتصاف لأهل التجسيم - على زعمه - ويعني بهم: الذين يثبتون الصفات.

لَكِنْ مَنَحْتَهُمْ سِلَاحًا كُلَّمَا شَاؤُوا لَنَا مِنْهُمْ أَشَدَّ طِعَانٍ

قوله: (لكن منحتهم) الخطاب للنبي ﷺ.

النبي أعطاهم سلاحًا كلما أرادوا أن يطعنونا بهذا السلاح وجدنا منهم أشد شيء.

وَعَدُوا بِأَسْهُمِكَ الَّتِي أُعْطِيَتْهُمْ يَرْمُونَنَا غَرَضًا بِكُلِّ مَكَانٍ

لَوْ كُنْتَ تَعْدِلُ فِي الْعِبَارَةِ بَيْنَنَا مَا كَانَ يُوجَدُ بَيْنَنَا زَحْفَانٍ

فهم - أعوذ بالله - يقولون للرسول: لو كنت عادلاً ما كان بيننا هذا الرَّجْفَان، وهذا الخوف من أن يسطوا علينا أهل الإثبات.

هَذَا لِسَانُ الْحَالِ مِنْهُمْ وَهُوَ فِي ذَاتِ الصُّدُورِ يُعَلُّ بِالْكِتْمَانِ

وقوله: (هذا لسان الحال منهم) ابن القيم رحمته الله احترز لما ذكر أنهم يقولون كذا ويقولون كذا قال: هذا لسان الحال منهم يعني: أنهم لم يقولوا ذلك بألسنتهم، لكن هذا لسان حالهم، والفرق بين لسان الحال، ولسان المقال أن المقال هو نطق اللسان، والحال هو: الاستدلال بالشواهد، والقرائن.

ويُقصد بالصدور: القلوب، (يغل بالكتان) يعني: يحبس ويمنع بالكتان، فلا يصرِّحون به.

يَبْدُوا عَلَى فَلَاتَاتِ أَلْسِنِهِمْ وَفِي صَفْحَاتٍ أَوْجُهُمْ يُرَى بِعِيَانٍ

يعني: هذا القول الذي قلناه عنهم بناء على لسان الحال، يبدو على فلاتات ألسنتهم: أي أنهم أحياناً يطلقونه فلتاً، (وفي صفحات أوجههم يرى بعيان) صحيح، فالإنسان قد تشعر بأنه ردُّ قولك من صفحات وجهه، فأنت إذا قلت قولاً يناسبه تجده وجهه يستنير، وينتشر وينبسط لكن إذا قلت قولاً يكرهه تجده بالعكس، وهذا لا يشعر به إلا من أعطاه الله فراسة وفتنة.

سَيَّمَا إِذَا قُرِئَ الْحَدِيثُ عَلَيْهِمْ وَتَلَوْتَ شَاهِدَهُ مِنَ الْقُرْآنِ

يعني: إذا قرأت الحديث، وأيدته بشاهده من القرآن انظر ماذا يكون على وجوههم من الانقباض والكراهة.

فَهَنَّاكَ بَيْنَ النَّازِعَاتِ وَكُوِّرَتْ تِلْكَ الْوُجُوهُ كَثِيرَةٌ الْأَلْوَانِ

النازعات وكوِّرت بينهما سورة عبس نعم تجد العبوس في قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ فتجد عليها عبوس وغبرة وقتره؛ إذا تلوت عليهم الحديث، وأتيت بشاهدٍ لهم من القرآن - نسأل الله العافية - .

وَيَكَادُ قَائِلُهُمْ يُصْرِحُ لَوْ يَرَى مِنْ قَابِلٍ قَتْرَاهُ ذَا كِتْمَانٍ

أي: يُصرح بكرأته لما سمع لو رأى قابلاً، ولكنه لا يرى أحداً يقبل قوله، وحيثُذِ يكتُم. ثم قال (يا قوم:) يجوز (يا قوم) ويجوز (يا قوم) فعلى لفظ قوم يكون على اعتبار أن الياء حذفت، وبقيت الكسرة دليلاً عليها، وعلى لفظ (يا قوم) باعتبار أنه مقطوع عن الإضافة ويكون نكرة مقصودة، والنكرة المقصودة: يُبنى فيها المنادى على الضم.

يَا قَوْمُ شَاهِدْنَا رُؤُوسَكُمْ عَلَى هَذَا وَلَمْ نَشْهَدْهُ مِنْ إِنْسَانٍ

(شاهدنا رؤوسكم) ليس المراد رأس الجسد، ولكن المراد رؤوسكم في العلم يعني: رؤساءكم شاهدناهم على هذا إذا تلي عليهم الحديث، وأيد بشاهد من القرآن تجد وجوهاً عليها غبرة ترهقها قتره عابسة - والعياذ بالله - .

إِلَّا وَحَشُو فُؤَادِهِ غَلٌّ عَلَى سُنَنِ الرَّسُولِ وَشِيعَةِ الْقُرْآنِ

وَهُوَ الَّذِي فِي كُتُبِهِمْ لَكِنْ بَلَطُ فِي عِبَارَةٍ مِنْهُمْ وَحُسْنِ بَيَانٍ

(إِلَّا وَحَشُو) يعني: لم يشاهد هذا الشيء من إنسان إلا وحشو فؤاده غلٌّ على سنن الرسول وحشو بمعنى: ملء يعني أن قلبه مملوءٌ من الغل على سنن الرسول، وشيعة القرآن، وهو الذي في كتبهم يعني: في كتب الرؤوس.

يعني: أنهم لا يصرحون ولكنهم يأتون بعبارات لا يفهمها إلا الخذاق؛ ولهذا قال بعض العلماء في تفسير الزمخشري إذا قرأته قلت: هذا التفسير هو الذي في القمة ثم هم يقولون: إنك تستخرج منه الاعتزال بالمناقيش و (بالمناقيش)، يعني: أنه خفي ما تستخرجه بالأصبع مثل الشوكة إذا دخلت في الجسم فإنك تستخرجها بالمناقش لا بالأصبع.

لكن لو كان مسأراً بين فاستخرجه بالأصبع.

الحاصل أن هذه الكتب يأتون فيها بعبارات موهمة مزخرفة يحسبها الجاهل حقاً، وهي

باطلة، ولهذا قال رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: لكن بلطف عبارة منهم وحسن بيان.

وَأُخُو الْجَهَالَةِ صَيْدُهُ لِلْفِظِّ وَالـ سَمَعَنِي فَتَسَبُّ الْعَالِمِ الرَّبَّانِي

يعني: أن العالم هو الذي ينظر للمعنى، ولا يغتر باللفظ، والجاهل يغتر باللفظ، والظاهر فهو صاحب اللفظ، أما العالم فهو صاحب المعاني.

يَأْمَنُ يَظُنُّ بِأَنَّهَا حِفْنَا عَلَيَّ هِمَّ كُتُبُهُمْ تُنْبِئُكَ عَنِ ذَا الشَّانِ

وهذا إنصاف من المؤلف يقول: الذي يظن أننا حفنا عليهم فلينظر إلى كتبهم تنبيك عن هذا الشأن.

فَانظُرْ تَرَى لَكِنْ نَرَى لَكَ تَرَكَهَا حَذَرًا عَلَيْكَ مَصَايِدَ الشَّيْطَانِ

(انظر): يعني: في كتبهم ترى أن ما قلنا حق؛ ولكنه رَحِمَهُ اللهُ بنصحه قال: نرى ألا تقرأها لماذا؟ خوفًا عليك من مصائد الشيطان؛ لأن الإنسان إذا قرأ في كتب أهل الزيف سواء في العقيدة أو في الأخلاق، أو في السلوك، أو في أي شيء إذا قرأ فيها وليس عنده حصيلة من العلم الصحيح فإنه يغتر، ولهذا يجب أن يحذر الشباب ويجب أن نحذرهم أيضًا من الكتب التي فيها الضلال حتى لو قالوا: إننا نعرف الحق ولن ننخدع، فإنهم على خطر، ولهذا حذر النبي - عليه الصلاة والسلام - «مَنْ سَمِعَ الدَّجَالَ بِأَنْ يَأْتِيَ عَنْهُ» يعني: يبعد عنه قال: «فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَأْتِيهِ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ مُؤْمِنٌ وَلَكِنَّهُ لَا يَزَالُ بِهِ حَتَّى يَتَّبِعَهُ» - والعياذ بالله - فلهذا يجب على الإنسان أن يتبعد عن الشر ولكنه إذا ابتلي فليصبر قال رسول الله ﷺ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»^(١)

فَشَبَاكُهَا وَاللَّهُ لَمْ يَعْلُقْ بِهَا مِنْ ذِي جَنَاحٍ قَاصِرِ الطَّيْرَانِ

إِلَّا رَأَيْتَ الطَّيْرَ فِي قَفْصِ الرَّدَى يَبْكِي لَهُ نُوحٌ عَلَى الْأَعْصَانِ

أي: شباك هذه الكتب لم يعلق بها، (من ذي جناح قاصر الطيران): من هو صاحب الجناح القاصر الطيران؟ المبتدئ الذي لم يكن عنده حصيلة من العلم يدفع بها ما يجد في هذه الكتب، وقفص الردى القفص معروف: وهو الذي يُجعل في الطير فهل يكون الطير في القفص طليقًا؟ لا، لكنه ينوح على الأغصان؛ يبكي عليها، ولهذا قال: (له نوح على الأغصان).

وَيَظَلُّ يَخْبِطُ طَالِبًا لِخَلَاصِهِ فَتَضَيُّقُ عَنْهُ فُرْجَةُ الْعِيدَانِ

رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ (يَظَلُّ) يَعْنِي: يَسْتَمِرُّ، (يَخْبِطُ بِجَنَاحِهِ) يَطِيرُ؛ لَكِنْ كَلِمًا أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ ضَاقَتْ عَلَيْهِ فُرْجَةُ الْعِيدَانِ، أَي: عِيدَانِ الْقَفْصِ، فَالْفَتْحَاتُ ضَيْقَةٌ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْرِجَ.

وَالذَّنْبُ ذَنْبُ الطَّيْرِ خَلَّى أَطْيَبَ الثَّدِّ مَرَاتٍ فِي عَالٍ مِنَ الْأَفْنَانِ

وَقَوْلُهُ: (وَالذَّنْبُ ذَنْبُ الطَّيْرِ) يَعْنِي: نَقُولُ لِهَذَا الطَّيْرِ الَّذِي وَقَعَ فِي الْقَفْصِ: الذَّنْبُ ذَنْبُكَ أَنْتَ.

يَقُولُ: (خَلَّى طَيْبَ الثَّمَرَاتِ فِي عَالٍ مِنَ الْأَفْنَانِ) (الْأَفْنَانِ): الْأَغْصَانُ، فَالذَّنْبُ ذَنْبُكُ أَيُّهَا الطَّيْرُ؛ لِأَنَّكَ تَتْرَكُ الثَّمَرَاتِ فِي أَعْلَى الْأَغْصَانِ، وَتَأْتِي إِلَى هَذَا الْقَفْصِ.

وَأَتَى إِلَى تِلْكَ الْمَزَائِلِ يَبْتَغِي الـ فَضَلَاتِ كَالْحَشْرَاتِ وَالذِّيدَانِ

فَأَتَى إِلَى هَذَا، وَخَلَّى الثَّمَرَاتِ عَلَى الْأَغْصَانِ الْعَالِيَةِ.

يَا قَوْمُ وَاللَّهِ الْعَظِيمِ نَصِيحَةٌ مِنْ مُشْفِقٍ وَأَخٍ لَكُمْ مِعْوَانٍ

- جَزَاهُ اللهُ خَيْرًا -، أَقْسَمُ ابْنَ الْقِيَمِ بِأَنَّهُ سَيَهْدِي إِلَيْنَا نَصِيحَةً مِنْ مُشْفِقٍ خَائِفٍ، وَأَخٍ مِعْوَانٍ يَعِينُ عَلَى الْحَقِّ.

جَرَّبْتُ هَذَا كُلَّهُ وَوَقَعْتُ فِي تِلْكَ الشِّبَاكِ وَكُنْتُ ذَا طَيْرَانٍ

فَابْنُ الْقِيَمِ كَانَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ صَوْفِي مُبْتَدِعٍ، وَقَدْ وَقَعَ فِي شِبَاكِ الْمُبْتَدِعَةِ؛ لَكِنْ مِنْ أَرَادَ اللهُ هِدَايَتَهُ يَسِّرُ لَهُ الْهَدَايَةَ، حَتَّى كَانَ يَعْمَدُ إِلَى الْخَلَوَاتِ بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ: وَيَتَعَبَّدُ بِعِبَادَاتٍ يَعْنِي مِنْ عِبَادَاتِ أَهْلِ التَّصَوُّفِ، نَعَمْ فَكَانَتْ هَذِهِ حَالَهُ رَحِمَهُ اللهُ.

حَتَّى أَتَاخَ لِي الْإِلَهُ بِلَطْفِهِ مَنْ لَيْسَ تَجْزِيهِ يَدِي وَلِسَانِي

هَيَّا اللهُ لَهُ مِنْ لَا تَجْزِيهِ يَدِهِ، وَلَا لِسَانِهِ يَعْنِي: لَوْ أُعْطِيْتَهُ مِنْ يَدِي مَا أُعْطِيْتَهُ، وَأَثْنَيْتَ عَلَيْهِ بِلِسَانِي مَا أَثْنَيْتَ عَلَيْهِ فَلَنْ أَكُافِئَهُ عَلَى مَعْرُوفِهِ فَمَنْ هُوَ؟

حَبْرٌ أَتَى مِنْ أَرْضِ حَرَانٍ فَيَا أَهْلًا بِمَنْ قَدْ جَاءَ مِنْ حَرَانٍ

وَهُوَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةِ الْحَرَانِيِّ رَحِمَهُ اللهُ، يَسَّرَهُ اللهُ لِابْنِ الْقِيَمِ، فَاهْتَدَى عَلَى يَدِهِ وَقَوْلُهُ: (أَهْلًا بِمَنْ قَدْ جَاءَ) هَذِهِ صَيْغَةٌ مِنْ صَيْغِ الْعُمُومِ؛ لَكِنَّهُ عَامٌّ أُرِيدُ بِهِ الْخَاصَّ أَي: أُرِيدُ بِهِ شَيْخَ الْإِسْلَامِ لَا كُلَّ مَنْ جَاءَ مِنْ حَرَانٍ، فَحَرَانُ فِيهَا الصَّابِئَةُ، وَفِيهَا الْفَسَاقُ؛ لَكِنْ

يريد بذلك شيخ الإسلام.

فَاللَّهُ يَجْزِيهِ الَّذِي هُوَ أَهْلُهُ مِنْ جَنَّةِ الْمَأْوَى مَعَ الرِّضْوَانِ
هذا من بعض حقوق المشايخ على تلاميذه، أن يدعوا الله له فهو دعا لشيخه - ونعم
الشيخ - ونحن نسأل الله تعالى بأن يجزي الجميع ما هو أهله من جنة المأوى مع الرضوان.

قَبَضْتُ يَدَاهُ يَدِي وَسَارَ فَلَمْ نَرَمْ
حَتَّى أَرَانِي مَطْلَعِ الْإِيمَانِ
يعني: أمسك بيدي.

وَرَأَيْتُ أَعْلَامَ الْمَدِينَةِ حَوْلَهَا
يَزُكُّ الْهُدَى وَعَسَاكِرُ الْقُرْآنِ
(أعلام المدينة) يعني: المدينة النبوية مدينة الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

وَرَأَيْتُ آثَارًا عَظِيمًا شَأْنُهَا
مَحْجُوبَةٌ عَنِ زُمْرَةِ الْعُمَيَّانِ
كان في الأول رَحِمَهُ اللهُ يتبع كلام المشايخ، لكن لما وافقه الله لشيخ الإسلام صار منهمكًا بالآثار.

وَرَأَيْتُ آثَارًا عَظِيمًا شَأْنُهَا
وَوَرَدَتْ رَأْسَ الْمَاءِ أبيضَ صَافِيَا
وَرَأَيْتُ أَكْوَابًا هُنَاكَ كَثِيرَةً
مِثْلَ التُّجُومِ لَوَارِدِ ظَمَّانِ
وَرَأَيْتُ حَوْضَ الْكَوْثَرِ الصَّافِي الَّذِي
لَا زَالَ يَشْحَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ

فما هما الميزابان؟

مِيزَابُ سُنَّتِهِ وَقَوْلِ إِلَهِهِ
وَهُمَا مَدَى الْأَزْمَانِ لَا يَتَيَّانِ

يعني: أنه رَحِمَهُ اللهُ أخذ بيده حتى أورده هذا الماء الصافي الذي يصب فيه ميزابان: الأول
كتاب الله، والثاني سنة رسول الله ﷺ.

وَالنَّاسُ لَا يَرُدُّونَهُ إِلَّا مِنْ أَلِ
آلِفِ أَفْرَادٍ ذُووِ إِيْمَانِ

يعني: لا يردون هذا الحوض الذي يصب فيه هذان ميزابان إلا أفراد ذوو إيمان.

وَرَدُّوْا عَذَابَ مَنْهَلٍ أَكْرَمَ بِهَا
وَوَرَدْتُمْ أَنْتُمْ عَذَابَ هَوَانِ

(عَذَابٌ وَعَذَابٌ) بينهما جناس غير تام؛ لأنه إذا اتفق اللفظان في الحركات،
والحروف فهو تام، وإن اختلفا في الحركات فهو ناقص وهنا اختلفت الحركات (عَذَابٌ

وَعِذَابٍ) قَالَ:

فَبِحَقِّ مَنْ أَعْطَاكُمْ ذَا الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ وَالتَّخْصِيسِ بِالْعِرْفَانِ
مَنْ ذَا عَلَى دِينَ الْخَوَارِجِ بَعْدَ ذَا أَنْتُمْ أُمَّ الْحَشَوِيِّ مَّا تَرَيَانِ؟

يعني: أنه ناشدهم بحق الله - عز وجل - وقوله: (من أعطاكم ذا العدل والإنصاف والتخصيص بالعرفان) هذا نوع من التهكم؛ لكن مع ذلك أنتم تدعون أنكم أهل العدل وأهل التخصيص، والتحقيق فمن الذي على دين الخوارج أنتم أم الحشوي؟ والحشوي من هو؟ أي: نعم أهل الإثبات؛ فكل أهل الإثبات يسمون حشوية عندهم.

وَاللَّهِ مَا أَنْتُمْ لَدَى الْحَشَوِيِّ أَهْلٌ أَنْ يُقَدِّمَكُمُ عَلَى عُثْمَانَ

يخاطب هؤلاء الذين يتبعون أشياخهم ورؤساءهم يقول: ما أنتم أهلاً بأن يقدمكم على عثمان.

فَضَلًّا عَنِ الْفَارُوقِ وَالصِّدِّيقِ فَضًّا لَّا عَن رَسُولِ اللَّهِ وَالْقُرْآنِ

فهؤلاء الثلاثة من الخلفاء: عثمان وعمر وأبو بكر - رضي الله عنهم - ما يمكن يقدمكم عليهم فضلا عن كلام الله، وكلام رسوله ﷺ.

وَاللَّهُ لَو أَبْصَرْتُمْ لَرَأَيْتُمُ اللَّهَ
وَكَلَامَ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَعَبْدَهُ
مَنْ أَنْ يُحَرِّفَ عَن مَوَاضِعِهِ وَأَنْ
حَشَوِيٍّ حَامِلٍ رَايَةَ الْإِيمَانِ
فِي قَلْبِهِ أَعْلَى وَأَكْبَرُ شَانِ
يُقْضَى لَهُ بِالْعَزْلِ عَنِ الْإِقَانِ

و طريق أهل النفي والتعطيل: أن القرآن والسنة محرفان عن مواضعهما فاستوى يعني: استولى، واليد يعني: القوة وهكذا، وأيضا يقولون: هي معزولة عن الإيقان لا تفيد إلا الظن فقط.

وَيَرَى الْوِلَايَةَ لِابْنِ سِينَا أَوْ أَبِي نَصْرٍ أَوْ الْمَوْلُودِ مِنْ صَفْوَانَ

يعني: يتولى ابن سينا وأتباعه ويترك ولاية الله ورسوله، ابن سينا أو أبي نصر الفارابي أو المولود من صفوان وهو الجهم بن صفوان.

أَوْ مَنْ يَتَابِعُهُمْ عَلَى كُفْرَانِهِمْ أَوْ مَنْ يُقَلِّدُهُمْ مِنَ الْعُمَيَّانِ

أو من يتابعهم على كفرانهم أو من يقلدوهم من العُمَيَّانِ

يَا قَوْمَنَا بِاللَّهِ قُومُوا وَانظُرُوا وَتَفَكَّرُوا فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ

يقول رَحِمَهُ اللهُ: قوموا وانظروا وفكروا أينما أولى بالخوارج هل هو الحشوي على زعمهم أو هؤلاء المكفرة؟ إن شئتم أن تنظروا بأنفسكم فانظروا، وإن شئتم مناظرة، ومنازلة فنحن مستعدون لمناظرتكم ومنازلتكم.

نَظَرًا وَإِنْ شِئْتُمْ مُنَازَرَةً فَمِنْ
أَيِّ الطَّوَائِفِ بَعْدَ ذَا أَدْنَى إِلَى
فَإِذَا تَبَيَّنَ ذَا فِيمَا تَتَّبَعُوا
مَثَى عَلَى هَذَا وَمِنْ وَحْدَانِ
قَوْلِ الرَّسُولِ وَمُحَكِّمِ الْقُرْآنِ
أَوْ تَعَذَّرَا أَوْ تُؤْذِنُوا بِطِعَانِ

يعني: إذا تبين فيما أن تتبعوا وهذا هو الخير، أو تعذروا وهذا وقت سلمي تعذرونا ولا تتكلموا فينا، أو تؤذنوا بطعان والواقع أنهم لا اتبعوا ولا عذروا، بل كانوا يسبون أهل الإثبات ويقولون: هم حشوية، هم نوابت، هم غثاء، وهكذا هم عامة وليس عندهم علم وحينئذ يكونون قد آذنوا بطعان، وإذا آذنوا بطعان فلا تلومونا إذا قلنا فيهم ما يستحقونه من أوصاف ذميمة.

مسألة: شيخ بالنسبة لأنه - أي: ابن القيم - حمل عليهم حملة بالكتاب والسنة قوية جدًا شيخ فكيف ننظر نحن إلى العلماء الذين لهم مكانة وقدم صدق في العلم مع تلبسهم بهذه الضلالات في العقيدة؟ وكيف يكون موقفنا منهم رحمهم الله، وهم خدموا السنة والكتاب؟

الجواب: موقفنا منهم: أننا نعظمهم ونكرمهم ونحبهم على ما قاموا به من نصر السنة، لكننا لا نحمدهم على ما فعلوه من مخالفة السلف فنعاملهم بالعدل، والعدل أن نعطي كل ذي حق حقه ومن مذهب أهل السنة والجماعة: أن الإنسان يكون فيه خصلة خير وخصلة شر، وكذلك خصلة طاعة، وخصلة معصية أيضًا خصلة إيمان، وخصلة كفر.





تهديد بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في تلقيبهم أهل السنَّة والجماعة بالحشوية،

وبيان: مَنْ أولى بهذا الوصف المذموم من الطائفتين..

سبب تلقيب الجهمية لأهل السنة بالحشوية أن الإيمان عندهم نفي الصفات، فمن لم يتصف بوصفهم فليس له من العلم والإيمان إلا اسمها ولا من الحقائق إلا رسمها، فأهل السنة لما كانوا يثبتون لله صفات الكمال سموهم «حشوية» يعني أنهم حشو وفضلة في الناس وغثاء كغثاء السيل. وجهال الجهمية يتوهمون أن أهل السنة يعتقدون أن الباري في جوف السماوات والأرض وأنه حشوها، وهذا غاية ما يكون من الجهل، إذ لم يقل بهذه المقالة أحد من الناس، وأبعد الناس عنها أهل السنة والجماعة، فإن من اعتقادهم أن السماوات وما فيها من العوالم والأرضين وما فيها في قبضة الرحمن أصغر من خردلة في كف ممسكها، وله من العظمة والكبرياء والقدس والجلال ما لا تدركه عقول العالمين ولا تحيط به عبارات المعبرين، فكيف ينسب إليهم هذا القول الذي يدل على أن من قاله لم يقع في قلبه من معرفة الرب وعظمته أدنى شيء ولا قدر الله حق قدره.

المقصود أن الجهمية اختلفوا في أهل السنة: هل المراد أنهم حشو الوجود وفضلة فيه أو كما قاله جهالهم من تلك المقالة التي لم تحظر بقلب إنسان ولأهل السنة أسوة بغيرهم؟ فقد ذكر أن أول من لقب هذا اللقب عمرو بن عبيد المعتزلي لعبد الله بن عمر بن الخطاب، وأهل السنة والجماعة لا يتركون السنة لأجل تشنيع المشنعين، فإن كان من يتبع الكتاب والسنة حشويًا فإنهم يشهدون كل أحد منهم حشوية بهذا المعنى، والمدار كله على المعاني لا

على الأسماء، فكم سمى أهل الباطل لأهل الحق بالأسماء المذمومة وسموا أنفسهم بالأسماء الممدوحة، وذلك لا يضر أهل الحق ولا يرفع أهل الباطل، وإنما هذا شبكة يصطاد بها الذين لا بصيرة لهم، أما الذين هم أحق بهذا اللقب المذموم فإنهم أهل الكلام الباطل الذين حشوا الأوراق من الهديان والقلوب من الشبه والافتراء وفرحوا بما عندهم من العلوم الباطلة المخالفة لعلوم الرسل، لا أهل السنة والذين حشوا القلوب علمًا وإيمانًا، وأناروا الوجود صدقًا ومعارف وإيقانًا، ووردوا عين الشريعة أعذب المناهل وأصفاها إذ ورد غيرهم زبالة الأفكار وتنن الآراء.



فصل

في تلقيبهم أهل السنة بالحشوية
وبيان من هو أولى بالوصف المذموم
من هذا اللقب من الطائفتين

٢٣١٤- وَمِنَ الْعَجَائِبِ قَوْلُهُمْ لِمَنْ اقْتَدَى

بِالْوَحْيِ مِنْ أَثَرٍ وَمَنْ قُرَّانٍ

٢٣١٥- حَشَوِيَّةٌ يَعْتُونَ حَشَوًا فِي الْوُجُو

دِ وَفَضْلَةً فِي أُمَّةِ الْإِنْسَانِ

٢٣١٦- وَيَظُنُّ جَاهِلُهُمْ بِأَنَّهُمْ حَشَوَا

رَبَّ الْعِبَادِ بِدَاخِلِ الْأَكْوَانِ

٢٣١٧- إِذْ قَوْلُهُمْ فَوْقَ الْعِبَادِ وَفِي السَّمَاءِ

ءِ الرَّبِّ ذُو الْمَلَكُوتِ وَالشُّلْطَانِ

٢٣١٨- ظَنَّ الْحَمِيرُ بِأَنَّ «فِي» لِلظَّرْفِ وَالرُّ

حَمَنُ مَحْوِيٌّ بِظَرْفِ مَكَانٍ

٢٣١٩- وَاللَّهُ لَمْ نَسْمَعْ بِذَا مِنْ فِرْقَةٍ

قَالَتْهُ فِي زَمَنِ مِنْ الْأَزْمَانِ

٢٣٢٠- لَا تَبَهَّتُوا أَهْلَ الْحَدِيثِ بِهِ فَمَا

ذَا قَوْلُهُمْ تَبَّالِ لِيذِي الْبُهْتَانِ

٢٣٢١- بَلْ قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَى

فِي كَيْفِ خَالِقِ هَذِهِ الْأَكْوَانِ

٢٣٢٢- حَقًّا كَخَرْدَلَةٍ تُرَى فِي كَفِّ مَم-

سِكِّهَا تَعَالَى اللَّهُ ذُو السُّلْطَانِ

٢٣٢٣- أَتَرَوْنَ الْمَحْضُورَ بَعْدُ أَمْ السَّمَاءُ؟

يَا قَوْمَنَا ارْتَدَعُوا عَنِ الْعُدْوَانِ

٢٣٢٤- كَمْ ذَا مُشَبَّهَةٌ وَكَمْ حَشَوِيَّةٌ

فَالْبَهْتُ لَا يَخْفَى عَلَى الرَّحْمَنِ^(١)

٢٣٢٥- يَا قَوْمُ إِنْ كَانَ الْكِتَابُ وَسْنَةً ال-

مُخْتَارِ حَشَوًا فَاشْهَدُوا بَيِّنَاتٍ

٢٣٢٦- أَنَا بِحَمْدِ إِيَّاهَا حَشَوِيَّةٌ

صِرْفٌ بِلَا جَحْدٍ وَلَا كِتْمَانِ

٢٣٢٧- تَدْرُونَ مَنْ سَمَّتْ سُيُوكُمْ بِهَا-

ذَا الْأَسْمِ فِي الْمَاضِي مِنَ الْأَزْمَانِ

٢٣٢٨- سَمَّى بِهِ ابْنُ عَمْرٍو بِعَبْدِ اللَّهِ ذَا

كَابْنِ الْخَلِيفَةِ طَارِدِ الشَّيْطَانِ

٢٣٢٩- فَوَرِثْتُمْ عَمْرًا كَمَا وَرِثُوا لِعَب-

دِ اللَّهِ أَنَّى يَسْتَوِي الْإِزْثَانِ

(١) [٢٣٢٤] قال العلامة محمد خليل هراس:

ولكنهم أرادوا بذلك بهت أهل الحديث بما ليس من قولهم، فتبأ لهم على سوء بهتهم وعظيم افتراءهم، بل قول أهل الحديث الذي يصرحون به دائماً أن الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه، وأنه لا يحصره ولا يحيط به شيء من مخلوقاته، وأن الكون كله بسمواته وأرضه في قبضة يده جل شأنه كخردلة في يد أحدنا، فتعالى الله عما يقوله الظالمون علواً كبيراً.

المضردات

الفضلة: الشيء الزائد الذي لا يؤبه له - والبهت رميك غيرك بما ليس فيه - قولهم: أي مذهبهم، وهو مبتدأ خبره الجملة بعده.

٢٣٣٠- تَدْرُونَ مَنْ أَوْلَىٰ بِهَذَا الْأِسْمِ وَهـ

— وَ مَنَاسِبُ أَحْوَالِهِ بِوِزَانِ؟

٢٣٣١- مَن قَدْ حَشَا الْأُورَاقَ وَالْأَذْهَانَ مِنْ

بِدَعِ تَخَالِفِ مُوجِبِ الْقُرْآنِ

٢٣٣٢- هَذَا هُوَ الْحَشْوِيُّ لِأَهْلِ الْحَدِيدِ

— أَيْمَةُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ

٢٣٣٣- وَرَدُّوا عِدَابَ مَنَاهِلِ السُّنَنِ الَّتِي

لَيْسَتْ زُبَالَةً هَذِهِ الْأَذْهَانَ

٢٣٣٤- وَوَرَدْتُمْ الْقَلُوطَ مَجْرَىٰ كُلِّ ذِي أَلِّ

أَوْسَاخٍ وَالْأَقْدَارِ وَالْأَنْثَانِ

٢٣٣٥- وَكَسَلْتُمْ أَنْ تَصْعَدُوا لِلْوَرْدِ مِنْ

رَأْسِ الشَّرِيعَةِ خَيْبَةَ الْكَسَلَانِ

الشَّحْ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

في هذا الفصل ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أَنْ أَهْلَ الْبِدْعِ لَقِبُوا أَهْلَ الْحَدِيثِ، وَهَمُ السَّلَفُ بِلِقَبِ سَمِئِ سَمُوهُمُ حَشْوِيَّةٌ، وَالْحَشْوُ مَعْنَاهُ: الشَّيْءُ الزَّائِدُ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ، هَذَا مَعْنَاهُ فَهَمُ يَقُولُونَ هُوَ لِأَهْلِ حَشْوِيَّةٍ يَعْنِي: أَنَّهُمْ مِنْ أَطْرَافِ النَّاسِ، وَليسُوا مِنْ رُؤُوسِهِمْ، وَلَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا هُمْ فَضْلَةٌ، فيقول رَحِمَهُ اللهُ لِنَنْظُرَ مَنْ هُوَ أَوْلَىٰ بِاللِّقَبِ مِنَّا أَوْ مِنْكُمْ فيقول رَحِمَهُ اللهُ:

وَمِنَ الْعَجَائِبِ قَوْلُهُمْ لِمَنْ أَقْتَدَىٰ بِالْوَحْيِ مِنْ أَثَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

حَشْوِيَّةٌ يَعْنُونَ حَشْوًا فِي الْوُجُوهِ دِ وَفَضْلَةٌ فِي أُمَّةِ الْإِنْسَانِ

إِذَنْ أَهْلَ الْحَدِيثِ عِنْدَهُمْ جُهَّالٌ مِنْ أَطْرَافِ النَّاسِ لَا يَأْبَهُ لَهُمْ، وَلَا يَرُدُّ لِقَوْلِهِمْ.

وَيَظُنُّ جَاهِلُهُمْ بِأَنَّهُمْ حَشَوُا رَبَّ الْعِبَادِ بِدَاخِلِ الْأَكْوَانِ

يظن بعض من يسمع تلقيب هؤلاء لأهل السنة بأنهم حشوية وبأنهم يريدون أنهم حشوا الإله في السماء بداخل الأكوان فجعلوا السماء حشوا له أي: محيطة به.

إِذ قَوْلُهُمْ فَوْقَ الْعِبَادِ وَفِي السَّمَاءِ ۚ الرُّبُّ ذُو الْمَلَكُوتِ وَالسُّلْطَانِ

أهل الحديث يقولون، إن الله في السماء فظن هؤلاء الجهال أن المتكلمين الذين أسموا أهل السنة حشوية أنهم سموهم حشوية؛ لأنهم قالوا إن الله حشو في السماء، يعني: أن السماء تحيط به.

ظَنَّ الْحَمِيرُ بِأَنَّ «فِي» لِلظَّرْفِ وَالرَّحْمَنِ مَحْوِيٌّ بِظَرْفِ مَكَانٍ

فوصفهم بأنهم حمير، ولا غرابة أن يوصف من لم يفهم النص بأنه حمار، لأن الله تعالى قال ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] وقال النبي عليه الصلاة والسلام «من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كالحمار يحمل أسفارا»^(١) فلا غرابة أن يسمى ابن القيم رحمه الله هؤلاء بأنهم حمير؛ لأنهم لم يفهموا قول الله تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ لم يفهموه على حقيقتها، بل حرفوها ثم أنكروا أن يكون الله في السماء.

ظَنَّ الْحَمِيرُ بِأَنَّ فِي لِلظَّرْفِ وَالرَّحْمَنِ مَحْوِيٌّ بِظَرْفِ مَكَانٍ

فصار هؤلاء الذين لقبوا أهل الحديث بالحشوية لهم طريقتان: الطريق الأول: أنهم فضلة من حشو الناس ليسوا من اللب، وليسوا من الأصل، والمعنى الثاني: أنهم حشوية، حشو الله في السماء يعني: جعلوا السماء محيطة بالله - عز وجل -.

وَاللَّهُ لَمْ نَسْمَعْ بِذَا مِنْ فِرْقَةٍ قَالَتْهُ فِي زَمَنِ مِنَ الْأَرْمَانِ

يعني: ما سمعنا أن فرقة من أهل الحديث قالوا: بأن السماء تحيط بالله أبدا.

لَا تَبْهَتُوا أَهْلَ الْحَدِيثِ بِهِ فَمَا ذَا قَوْلُهُمْ تَبَّأ لِيذِي الْبُهْتَانِ

هل أهل الحديث يقولون: إن الله في السماء أي: في جوف السماء؟ أبدا. يقولون: إن الله في السماء يعني: في العلو أو إن الله في السماء يعني: على السماء، ولم يقل أحد منهم إن الله في السماء أي: تحيط به، كما تحيط الحجرة بمن فيها فأنت تقول إن فلانا في الحجرة - عرفنا أنه

(١) ضعيف: رواه أحد (٢٠٣٤)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٤٤٠).

حشوها وأنه داخلها وأنها محيطة به - لكن ليس هذا كما إذا قلت إن الله في السماء بينها فرق عظيم، و(في) يختلف معناها باختلاف متعلقها، كأن تقول مثلاً: الماء في الكوز أو في الكأس الماء، الرجل في الحجرة... هذا واضح أن الماء كان حشواً في الكأس والرجل كان حشواً في الحجرة، أما الوجه في المرآة فيختلف هذا عن هذا، أليس كذلك؟ فالكتابة في الورقة وتختلف الروح في الجسد، فتختلف معاني مدخول في باختلاف المتعلق أي: ما تعلق به.

بَلْ قَوْلُهُمْ إِنَّ السَّمَوَاتِ الْعُلَى فِي كَيْفِ خَالِقِ هَذِهِ الْأَكْوَانِ
حَقًّا كَخَرْدَلَةٍ تُرَى فِي كَيْفِ مُدِّ سِكِّهَا تَعَالَى اللَّهُ ذُو السُّلْطَانِ

فالمقصود بـ (قولهم): أي: قول أهل الحديث بأن السماوات السبع والأراضين كلها في كف الله - سبحانه وتعالى - مثل: الخردلة في كف أحدنا، وهذا أيضاً على سبيل التقريب، وإلا فالأمر أعظم من هذا، الخردلة: حبة صغيرة جدا يضرب بها المثل في الصغر كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ كَثَلِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَنْتَنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، مع ذلك هي في كف الرحمن كخردلة يقول تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧]، كلها ﴿ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾، وقوله: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] مثل ما يطوي صاحب السجل الكتاب، فإنه يطويه هكذا وكان في الأول ما عندهم ظروف، إذا خلصوا من الكتاب طووه بقدر ما يمكن من الطي ثم شمعه، يقول تعالى: ﴿ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾. فهل يعقل أن أهل السنة يقولون: إن السماء تحيط بالله، وأن الله حشوها أبداً، ولا قاله أحد لكن هؤلاء يبهتون أهل السنة.

أَتَرَوْنَهُ الْمَحْضُورَ بَعْدُ أَمْ السَّمَا؟ يَا قَوْمَنَا ارْتَدُّعُوا عَنِ الْعُدْوَانِ

أيهم المحضور؟ السماء، والسماء يحيط الله بها من كل جانب، والأرض كذلك يقول تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ [النساء: ١٢٦].

كَمْ ذَا مُشْبِهَةٌ وَكَمْ حَشْوِيَّةٌ فَالْبَهْتُ لَا يَخْفَى عَلَى الرَّحْمَنِ

يعني: كم من مرة تقولون أنتم عن أهل الحديث: إنهم مشبهة وتقولون: إنهم حشوية مجسمة نوابت غشاء وهلم جرا من ألقاب السوء، وكلها لا تخفى على الله - عز وجل -.

يَا قَوْمُ إِنْ كَانَ الْكِتَابُ وَسْئَةً أَلِ
أَنَا بِحَمْدِ إِلَهِنَا حَشْوِيَّةٌ
مُخْتَارٍ حَشْوًا فَاشْهَدُوا بِبَيَانِ
صِرْفٍ بِلَا جَحْدٍ وَلَا كِتْمَانِ

يقول رحمه الله: إن كان ما دل عليه الكتاب والسنة حشوا فنحن بحمد الله حشوية اشهدوا على ذلك أننا حشوية.

وهذا كقول الشافعي رحمه الله:

إِنْ كَانَ رُفْضًا حَبَّ آلِ مُحَمَّدٍ
فَلْيَشْهَدْ الثَّقَلَانِ أُنَى رَافِضِي

أبن القيم رحمه الله يقول: إن كان حشوا القول بما دل عليه الكتاب والسنة فإننا بحمد الله حشوية.

تَدْرُونَ مَنْ سَمَّتْ شُيُوخُكُمْ بِهِـ
سَمَّى بِهِ عَمْرُو لِعَبْدِ اللَّهِ ذَا
ذَا الْإِسْمِ فِي الْمَاضِي مِنَ الْأَزْمَانِ
كَأَبْنِ الْخَلِيفَةِ طَارِدِ الشَّيْطَانِ

ابن عبيد هو: عمرو بن عبيد إمام أهل الاعتزال سمي به عبد الله ابن الخليفة أي: الخليفة طارد الشيطان وهو عمر يعني: أن عمرو بن عبيد سمي عبد الله بن عمر حشواً أي: سموه حشواً، فإذاً هذا اللقب من هؤلاء المتكلمين المعطلة كان قديماً من عهد الصحابة.

(فَوَرِثْتُمْ عَمْرًا) ورثتم عمرو فقلتم: إن أهل الحديث حشوية:

(كَمَا وَرِثُوا لِعَبْدِ اللَّهِ): ورثوا لعبد الله فالتزموا بالكتاب والسنة

(أَنِّي يَسْتَوِي الْإِرْثَانِ): الاستفهام هنا للنفي والإنكار، لا يستوي الإرثان، لا يستوي

من ورث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ومن ورث عمرو بن عبيد المعتزلي.

تَدْرُونَ مَنْ أَوْلَى بِهِذَا وَهُوَ
وَمُنَاسِبٌ أَحْوَالُهُ بِوِزَانِ؟

من؟ يقول: الأولى به.

مَنْ قَدْ حَشَا الْأُورَاقَ وَالْأُذْهَانَ مِنْ
بَدَعٍ تُخَالِفُ مُوجِبَ الْقُرْآنِ

صحيح، والله هذا هو الحشوى، حشو الأوراق والأذهان من البدع، والكلام الفارغ:

كلام طويل عريض تقرأ وتتل، ولا تحصل على فائدة، هؤلاء هم الحشوية حقاً.

هَذَا هُوَ الْحَشْوِيُّ لَا أَهْلَ الْحَدِيدِ
سِثْ أَثْمَةُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ

وَرَدُّوا عَذَابَ مَنْاهِلِ السُّنَنِ الَّتِي
لَيْسَتْ زُبَالَةَ هَذِهِ الْأُذْهَانِ

و نِعْمَ المورد مناهل السنن، وليست زبالة هذه الأذهان، أما هم يعني بهم: المعطلة، وأهل الكلام.

وَوَرَدَتْهُمُ الْقُلُوطُ مَجْرَى كُلِّ ذِي الِ أَوْسَاخٍ وَالْأَقْدَارِ وَالْأَنْتَانِ

القلُوط: سبق الكلام عليه، وهو مجاز في الشام معروفة تسمى القلوط لكل الأوساخ من الأبوال والعذرات وكلها تدب فيه وتمشى وأهل السنة وردوا المناهل العذبة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما هؤلاء فوردوا: القلوط مجرى كل ذي الأوساخ، والأقدار، والأنتان.

وَكَسَلْتُمْ أَنْ تَصْعَدُوا لِلرَّوْدِ مِنْ رَأْسِ الشَّرِيعَةِ خَيْبَةَ الْكَسْلَانِ

يعني: يا خيبة الكسلان، وصدق رَحِمَهُ اللهُ هذا هو الواقع، إذن فمن أحق بالوصف؟ هم أحق بلا شك حشوا الأوراق، والأذهان من الكلام الفارغ، أما نحن والله الحمد فلم نقل إلا بما دل عليه كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.





مَهْدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ الْفَصْلُ



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في تلقيبهم لأهل السنّة والجماعة بالمجسمات، والمُشَبَّهات، ونحوها من الأسماء

وذلك لأن أهل السنة أثبتوا لله صفات الكمال كلها، فزعم الجهمية أن إثباتها يقتضي التشبيه والتجسيم، فسموا المثبتين بذلك، فأهل السنة يجيبونهم بجواب يفهمهم ويخصمهم أن إثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبتته له رسوله من الأوصاف إما أن لا يقتضي التشبيه والتجسيم لأن الله ليس كمثل شيء فيكون رميكم لنا من باب البهت والافتراء، وإما أن يقتضي ذلك، فإن اقتضاه لم نترك ما دل عليه الكتاب والسنة لأي لازم يقوله أهل الباطل ولا لأجل شناعة المشنعين، فالمبطل في الحقيقة إنما يوجه الإلزامات التي يذكرها على كلام الله ورسوله، وحسبك فحشًا وقبحًا مقالة تصل إلى هذا الحد.

فَيِنَّ أهل السنة وأهل الباطل فروق عظيمة، أهل السنة يقولون: ما دلت عليه النصوص فهو حق على حقيقته مبين غاية البيان، فلا بعد بيان الله ورسوله بيان، وما خالف هذا الحق فهو باطل، والمتكلمون جعلوا ظواهر النصوص غير مرادة وهي مجاز مع أن المجاز يجوز نفيه وفي نفيه من الكفر ما لا يخفى، ومن قولهم أيضًا أن حقائق الألفاظ منتفية عقلاً، فإذا انتفت الألفاظ والمعاني فما الذي بقي من الدين ومن كلام رب العالمين ونصوص سيد المرسلين، فالنفي والتعطيل للحق والحقائق الثابتة سيما هذه الطائفة والذم نعت لهؤلاء المتبدعين.



فصل

في بيان عدوانهم في تلقيب
أهل القرآن والحديث بالمجسمة
وبيان أنهم أولى بكل لقب خبيث

٢٣٣٦- كَمْ ذَا مُشَبَّهٍ مُجَسِّمَةٍ نَوَا

بِتَّةٍ مَسْبُوءَةٍ جَاهِلٍ فَتَّانٍ

٢٣٣٧- أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمْ بِهَا أَهْلَ الْحَدِيثِ

ثِ وَنَاصِرِي الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ

٢٣٣٨- سَمَّيْتُمُوهُمْ أَنْتُمْ وَشُيُوكُمْ

بِهْتًا بِهَا مِنْ غَيْرِ مَا سُلْطَانِ

٢٣٣٩- وَجَعَلْتُمُوهَا سُبَّةً لِنُفُورُوا

عَنْهُمْ كَفَعَلَ السَّاحِرِ الشَّيْطَانِ

٢٣٤٠- مَا ذَنْبُهُمْ وَاللَّهُ إِلَّا أَنَّهُمْ

أَخَذُوا بِوَحْيِ اللَّهِ وَالْفُرْقَانِ

٢٣٤١- وَأَبَوْا بِأَنْ يَتَحَيَّرُوا لِمَقَالَةٍ

غَيْرِ الْحَدِيثِ وَمُقْتَضَى الْقُرْآنِ

٢٣٤٢- وَأَبَوْا يَدِينُوا بِالَّذِي دِينْتُمْ بِهِ

مِنْ هَذِهِ الْأَرْءِ وَالْهَذْيَانِ

٢٣٤٣- وَصَفُوهُ بِالْأَوْصَافِ فِي النَّصِّينِ مِنْ

مِنْ خَبَرٍ صَحِيحٍ ثُمَّ مِنْ قُرْآنِ

٢٣٤٤- إِنْ كَانَ ذَا التَّجْسِيمِ عِنْدَكُمْ فَيَا

أَهْلًا بِهِ مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ

٢٣٤٥- إِنَّا مُجَسِّمَةٌ بِحَمْدِ اللَّهِ لَمْ

نَجْحَدَ صِفَاتِ الْخَالِقِ الرَّحْمَنِ

٢٣٤٦- وَاللَّهُ مَا قَالَ أَمْرٌؤُ مِنَّا بِأَنَّ

نَ اللَّهُ جِسْمٌ يَا أَوْلِي الْبَهْتَانِ

٢٣٤٧- وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّنَا فِي وَضْفِهِ

لَمْ نَعُدْ مَا قَدْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ

٢٣٤٨- أَوْ قَالَهُ أَيضًا رَسُولُ اللَّهِ فَهْ-

وَالصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ بِالْبُرْهَانِ

٢٣٤٩- أَوْ قَالَهُ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ

فَهُمُ التُّجُومُ مَطَالِحُ الْإِيمَانِ

٢٣٥٠- سَمُوهُ تَجْسِيمًا وَتَشْبِيهًا فَلَسْ-

نَا جَاحِدِيهِ لِذَلِكَ الْهَذْيَانِ

٢٣٥١- بَلْ بَيْنَنَا فَرْقٌ لَطِيفٌ بَلْ هُوَ الْ-

فَرْقُ الْعَظِيمِ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

٢٣٥٢- إِنَّ الْحَقِيقَةَ عِنْدَنَا مَقْضُودَةٌ

بِالنَّصِّ وَهِيَ مُرَادَةُ التَّبْيَانِ

٢٣٥٣- لَكِنْ لَدَيْكُمْ فَهِيَ غَيْرُ مُرَادَةٍ

أَنْى يُرَادُ مُحَقَّقُ الْبُطْلَانِ

٢٣٥٤- فَكَلَامُهُ فِيمَا لَدَيْكُمْ لَا حَقِي-

قَةَ تَحْتَهُ تَبْدُو إِلَى الْأَذْهَانِ

٢٣٥٥- فِي ذِكْرِ آيَاتِ الْعُلُوِّ وَسَائِرِ الـ

أَوْصَافِ وَهِيَ الْقَلْبُ لِلْقُرْآنِ

٢٣٥٦- بَلْ قَوْلِ رَبِّ النَّاسِ لَيْسَ حَقِيقَةً

فِيمَا لَدَيْكُمْ يَا أَوْلِي الْعِرْفَانِ

٢٣٥٧- [وَكَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى حَقِي-

قَتِهِ لَدَيْنَا وَهُوَ ذُو بُرْهَانَ]

٢٣٥٨- وَإِذَا جَعَلْتُمْ ذَا مَجَازًا صَحَّ أَنْ

يُنْفَى عَلَى الْإِطْلَاقِ وَالْإِمْكَانِ

٢٣٥٩- وَحَقَائِقُ الْأَلْفَاظِ بِالْعَقْلِ انْتَفَتْ

فِيمَا زَعَمْتُمْ فَاسْتَوَى النَّفْيَانِ

٢٣٦٠- نَفْيِ الْحَقِيقَةِ وَانْتِفَاءِ اللَّفْظِ إِنْ

دَلَّتْ عَلَيْهِ فَحَظُّكُمْ نَفْيَانِ

٢٣٦١- وَنَصِيبِنَا إِثْبَاتِ ذَاكَ جَمِيعِهِ

لَفْظًا وَمَعْنَى ذَاكَ إِثْبَاتَانِ

٢٣٦٢- فَمَنْ الْمَعْطَلُ فِي الْحَقِيقَةِ غَيْرُكُمْ

لَقَبْتُ بِلَا كَذِبٍ وَلَا عُذْوَانِ

٢٣٦٣- وَإِذَا سَبَبْتُمْ بِالْمُحَالِ فَسَبَبْنَا

بِأَدْلَةٍ وَجَجَاجِ ذِي بُرْهَانَ

٢٣٦٤- تُبْدِي فَضَائِحَكُمْ وَتَهْتِكُ سِتْرَكُمْ

وَتُبِينُ جَهْلَكُمْ مَعَ الْعُدْوَانِ

- ٢٣٦٥- يَا بَعْدَ مَا بَيْنَ السَّبَابِ بِذَاكُمْ
وَسَبَابِكُمْ بِالْكَذْبِ وَالطُّغْيَانِ
- ٢٣٦٦- مَنْ سَبَّ بِالْبُرْهَانِ لَيْسَ بِظَالِمٍ
وَالظُّلْمُ سَبُّ الْعَبْدِ بِالْبُهْتَانِ^(١)
- ٢٣٦٧- فَحَقِيقَةُ التَّجْسِيمِ إِنْ تَكُ عِنْدَكُمْ
وَصَفَ الْإِلَهَ الْخَالِقِ الدِّيَانَ
- ٢٣٦٨- بِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا الَّتِي شَهِدَتْ بِهَا
آيَاتُهُ وَرَسُولُهُ الْعَدْلَانَ
- ٢٣٦٩- فَتَحَمَّلُوا عَنَّا الشَّهَادَةَ وَاشْهَدُوا
فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ وَكُلِّ مَكَانٍ
- ٢٣٧٠- أَنَا مُجَسِّمَةٌ بِفَضْلِ اللَّهِ وَلِـ
يَشْهَدُ بِذَلِكَ مَعَكُمْ الثَّقَلَانِ
- ٢٣٧١- اللَّهُ أَكْبَرُ كَثُرَتْ عَن نَابِهَا أَلِـ
حَزْبُ الْعَوَانِ وَصِيْحَ بِالْأَقْرَانِ
- ٢٣٧٢- وَتَقَابَلَ الصَّفَانِ وَانْقَسَمَ الْوَرَى
قِسْمَيْنِ وَاتَّضَحَّتْ لَنَا الْقِسْمَانِ^(٢)

(١) [٢٣٦٦] قال العلامة محمد خليل هراس:

وأما نحن فنصيبنا إثبات ذلك كله لفظاً ومعنى وعدم إنكار شيء منه، فأنتم الأحقَاء وحكمكم بوصف التعطيل وهو لقب لائق بكم لا كذب فيه ولا عدوان وإذا أنتم شتمتمونا بما ليس فينا شتماً قائماً على الزور والبهتان فسبنا لكم لا يكون إلا عن حجة وبرهان يكشف ستركم ويفضح جهلكم وعدوانكم فما أبعد الفرق بين سبائنا وسبابكم، فإن من سب خصماً بالدليل لا يكون ظالماً ولا واضعاً للشيء في غير موضعه، ولكن الظلم هو سب العبد بالزور والبهتان.

(٢) [٢٣٧٢] قال العلامة محمد خليل هراس:

ونحن ندين بالكتاب والسنة في الإثبات والنفي، وأنتم لا ترجعون في ذلك إلا إلى قضية عقولكم

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

فصلٌ في بيان عداوتهم في تلقيب أهل القرآن والحديث بالمجسمة، وبيان أنهم أولى بكل لقب خيب.

كَمْ ذَا مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ نَوَا بِتَّةٌ مَسْبُةٌ جَاهِلٍ فَتَّانٍ

يعني: كم ذا يقولون: لأهل السنة والجماعة إنهم مشبهة، ومجسمة، ونوابت النوابت، قال العلماء: إنها هي الزرع الذي ينبت في وسط الزرع المحصود، وهو الزرع الذي لا قيمة له، والذي يضر الزرع المحصود، وليس به فائدة.

أَسْمَاءٌ سَمِيَتْ بِهَا أَهْلُ الْحَدِيدِ سِ وَنَاصِرِي الْقُرْآنِ وَالْإِيْمَانِ
سَمِيْتُمْوَهُمْ أَنْتُمْ وَشِيُوخُكُمْ بَهْتًا بِهَا مِنْ غَيْرِ مَا سُلْطَانِ

(مَسْبَةٌ) يعني: قذح وعيب يعني: أنكم سميتم أهل السنة بهذه الألقاب كذبًا، وبهتانًا عليهم.

وَجَعَلْتُمْوَهَا سُبَّةً لِتَنْفَرُوا عَنْهُمْ كَفَعَلِ السَّاحِرِ الشَّيْطَانِ

أى: وصفتموهم بهذه الأوصاف المنفرة من أجل أن ينفر الناس عنهم، كفعل الساحر الذي يسحر الناس، فيصرفهم؛ لأن السحر أنواع منه الصرف، ومنه العطف، الصرف: أن يصرف الشخص عن محبه، كما قال تعالى:

﴿فَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ومن أشد العلاقات محبة ما يكون بين الزوجين، كما قال تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] فهم يأتون بهذه الكلمات لتنفر الناس عن أهل السنة والجماعة ويبغضوهم.

مَا ذَنْبُهُمْ وَاللَّهُ إِلَّا أَنَّهُمْ أَخَذُوا بِوَحْيِ اللَّهِ وَالْفُرْقَانِ

الخاسرة، وما وضعه لكم شيوخكم في الضلال من قواعد وأصول جعلتموها دينًا لكم واستعظمت بها عن الحق الذي جاء به الرسول ﷺ فوقعتم في الضلال البعيد والخسران المين.

(ما ذنبهم إلا أنهم أخذوا بوحى الله والقرآن)، وهذا الإسلوب أسلوب مدح، ومثل هذه الصيغة تسمى عند أهل البلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] وكقول الشاعر:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ شِئَوْفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوقٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَائِبِ

هذا مدح أم ذم؟ هذا مدح بالشجاعة، والإقدام.

مَا ذَنْبُهُمْ وَاللَّهِ إِلَّا أَنْتَهُمْ أَخَذُوا بِوَحْيِ اللَّهِ وَالْفُرْقَانِ

وهذا كفعل من سبق ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

وَأَبُوا بَأْنَ يَتَحَيَّرُوا لِمَقَالَةٍ غَيْرِ الْحَدِيثِ وَمُقْتَضَى الْقُرْآنِ

من الذين أبوا؟ هم أهل السنة، أبوا أن يتحيزوا لكل مقالة إلا ما جاء به الحديث ومقتضى القرآن.

وَأَبُوا يَدِينُوا بِالَّذِي دِنْتُمْ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَرَآءِ وَالْهَدْيَانِ

أبوا يدينوا: يدينوا هذه منصوبة بـ (أن) محذوفة من أجل استقامة الوزن، والأصل: وأبوا أن يدينوا بالذي دنتم به من هذه الآراء والهديان.

وَصَفُّوهُ بِالْأَوْصَافِ فِي النَّصِّينِ مِنْ خَبَرٍ صَحِيحٍ ثُمَّ مِنْ قُرْآنِ

يعني: أن أهل الحديث وصفوا الله - عز وجل - بالأوصاف الواردة في النصين، من الأخبار الصحيحة، والقرآن الكريم.

إِنْ كَانَ ذَا التَّجْسِيمِ عِنْدَكُمْ فَيَا أَهْلًا بِهِ مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ

(إن كان ذا): الإشارة تعود إلى وصف الله تعالى بما جاء في القرآن والسنة إن كان هذا هو التجسيم: فيا أهلا به ما فيه من نكران، بل إن الواجب قبوله، وعدم إنكاره.

إِنَّا مُجَسِّمَةٌ بِحَمْدِ اللَّهِ لَمْ نَجْعَدْ صِفَاتِ الْخَالِقِ الرَّحْمَنِ

وَاللَّهُ مَا قَالَ امْرُؤٌ مِمَّا بَأْنَ نَ اللَّهُ جِسْمٌ يَا أُولِي الْبُهْتَانِ

كيف يقول إنا مجسمة ثم يقول والله ما قال امرؤ منا بأن الله جسم؟ قال: بأنا مجسمة على حد تعبيرهم، حيث قالوا: كل من أثبت لله صفة فهو مجسم ونحن نثبت لله كل صفة وصف الله بها نفسه، ونحن على قاعدتهم مجسمة؛ أما أننا قلنا: بأن الله جسم، فما من أحد من أهل



السنة قال: إن الله جسم أبدا ولا قال: إن الله ليس بجسم، أيضا، بل هم يتوقفون في هذا اللفظ، فلو قال لهم قائل: أتقول إن الله جسم؟ قال: لا أقول، أتقول إن الله ليس بجسم؟ قال: لا أقول؛ لأن الله ما قال عن نفسه إنه جسم، ولا قال عن نفسه إنه ليس بجسم، لكني أقول: إن الله - سبحانه وتعالى - بائن من خلقه موصوف بصفاته هذا ما أقول.

وَاللّٰهُ مَا قَالَ امْرُؤٌ مِّنَّا بِأَنَّ
نَ الْاَللهِ جِسْمٌ يَا اَوْلِي الْبُهْتَانِ
وَاللّٰهُ يَعْلَمُ اَنَّنَا فِي وَصْفِهِ
لَمْ نَعُدْ مَا قَدْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ
اَوْ قَالَهُ اَيْضًا رَسُوْلُ اللّٰهِ فَهِيَ
وَالصّٰدِقُ الْمَصْدُوْقُ بِالْبُرْهَانِ

يعني: لم تتجاوز ما قاله الله في القرآن، أو قاله الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فهو الصادق في ما أخبر المصدوق فيما أخبر، يقال صادق فيما أخبر هو به، مصدوق فيما أخبر به، والكهان كاذبون مكذبون، كاذبون فيما أخبروا به، ومكذبون فيما أخبروا به إذ أخبرتهم الشياطين بالكذب، فالرسول - عليه الصلاة والسلام - صادق مصدوق - صلوات الله وسلامه عليه -.

اَوْ قَالَهُ اَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ
فَهُمُ التُّجُوْمُ مَطَالِعُ الْاِيْمَانِ

إذن عمدتنا فيما ثبتته لله كلام الله، وكلام رسوله، وكلام الصحابة - رضى الله عنهم -:
سَمُوهُ تَجْسِيْمًا وَتَشْبِيْهًا فَلَسْنَا
بِنَا جَاوِدِيهِ لِذَلِكَ الْهَدْيَانِ

الحمد لله، سموه: يخاطب هؤلاء المعتدين، هذا من تثبیت الله لنا أن هؤلاء الذين يرموننا بهذه الألقاب السيئة يريدون منا، أن نتحول عن رأينا، ولكننا لن نتحول، ولن نخضع لهذا الهديان.
بَلْ بَيْنَنَا فَرْقٌ لَطِيْفٌ بَلْ هُوَ الْفَرْقُ الْعَظِيْمُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

(بيننا وبينكم) يعني: فرق لطيف لكنه عظيم ما هو؟

إِنَّ الْحَقِيْقَةَ عِنْدَنَا مَقْصُوْدَةٌ
بِالنَّصِّ وَهِيَ مُرَادَةُ التَّبْيَانِ
لَكِن لَدَيْكُمْ فَهِيَ غَيْرُ مُرَادَةٍ
أَنَّى يُرَادُ مُحَقِّقُ الْبُطْلَانِ

نحن نقول: إن الحقيقة مقصودة بالنص، ومرادة بالنص أيضًا، أما أنتم فتقولون أنها غير مرادة، وهذا الفرق لطيف لكنه عظيم جدًا فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ عندنا مرادًا بها: حقيقتها وهو حقًا، عندكم هذا غير مراد، ولا يمكن أن يراد؛ لأنه عندكم محقق البطلان،

وما كان محقق البطلان فإنه لا يمكن أن يراد بكلام الله، وكلام رسوله، فهذا هو الفرق بيننا وبينكم أننا نجري النصوص على حقيقتها، وأنتم لا تجرونها.

فَكَلَامُهُ فِيمَا لَدَيْكُمْ لَا حَقِيْبَةً تَحْتَهُ تَبْدُو إِلَى الْأَذْهَانِ

كلام الله عندكم ليس فيه حقيقة تبدو لأحد.

فِي ذِكْرِ آيَاتِ الْعُلُوِّ وَسَائِرِ الْأَوْصَافِ وَهِيَ الْقَلْبُ لِلْقُرْآنِ

فهؤلاء القوم عمدوا إلى قلب القرآن ويزعمون أن ما تحدث الله به عن نفسه من العلو وغيره من الصفات لا يُراد بها حقيقتها وليست حقيقة كلها مجاز، ولهذا سُمي ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ سُمي المجاز بالطاغوت لأنهم طغوا بها، وتجاوزوا به الحد، وسلطوه على آيات الصفات، وأحاديثها، وقالوا إنه لا يراد بها حقيقتها لا في العلو ولا في غيره.

بَلْ قَوْلُ رَبِّ النَّاسِ لَيْسَ حَقِيْقَةً فِيمَا لَدَيْكُمْ يَا أَوْلِي الْعِرْفَانِ

قول رب الناس يعني: في القرآن ليس حقيقة؛ لأن الجهمية يقولون: إن القرآن مخلوق بائن من الله، والأشاعرة يقولون: إن القرآن مخلوق، وكلام الله هو المعنى القائم بنفسه، فالجميع اتفقوا على أن ما بين دفتي القرآن مخلوق، لكن الجهمية قالوا: هو كلام الله، والأشاعرة قالوا: هو عبارة عن كلام الله.

وَإِذَا جَعَلْتُمْ ذَا مَجَازًا صَحَّ أَنْ يُنْفَى عَلَى الْإِطْلَاقِ وَالْإِمْكَانِ

فإذا جعلتم هذا مجازاً فإن من علامات المجاز صحة نفيه، فالمجاز له علامات كثيرة من أبرزها شيئان أولاً: تبادل غيره لولا القرينة، والثاني: صحة نفيه، فإذا قلت: رأيت أسداً ما الذي يتبادر إلى ذهنك؟ الأسد الحقيقي المفترس، فإذا قلت: رأيت أسداً يحمل كتاباً أو يقرأ كتاباً فالمراد بالأسد هنا الرجل الشجاع، وبالقرينة هل يصح أن أقول هذا ليس بأسد؟ يصح أن أنفيه، فالمجاز يصح نفيه، ولهذا عندهم وعلى القاعدة التي اتفقوا عليها يصح أن يقول القائل: ما جاء ربك؛ لأن جاء ربك عندهم مجازاً عن المجيء أي: أمره، وبناءً عليه يصح أن أقول ما جاء ربك، وقوله تعالى: ﴿أَسْتَوِي عَلَى الْعَرْشِ﴾ عندهم بمعنى: استولى مجاز عن الاستيلاء فيصح على زعمهم أن ينفي فيقول: إن الله لم يستو على العرش، وهذا هو الذي جعل بعض العلماء يقول: إن المجاز موجود في اللغة ممنوع في القرآن، قال: لأن القرآن لا

يمكن أن يصح نفى شيء منه أبدأ بخلاف اللغة فإنه يصح أن ننفي المجاز وغيره؛ لكن كلام الله لا يصلح أن ننفي منه شيئاً.

وَإِذَا جَعَلْتُمْ ذَا مَجَازًا صَحَّ أَنْ يُنْفَى عَلَى الْإِطْلَاقِ وَالْإِمْكَانِ

يعني: صح أن نقول لم يستو على العرش، ليس له يد، لا يجيء، لا يأتي، لا يعجب، وما أشبه ذلك.

وَحَقَائِقُ الْأَلْفَافِ بِالْعَقْلِ انْتَفَتْ فِيمَا زَعَمْتُمْ فَاسْتَوَى النِّفْيَانِ

فحقائق الألفاظ بالعقل انتفت؛ لأنهم يدعون أن العقل ينفي حقائق اللفظ كيف، فهم يعتمدون في إثبات الصفات، ونفيها على العقل، فيقولون انتفت حقيقة المجيء بدلالة العقل، انتفت حقيقة الاستواء بدلالة العقل، انتفت حقيقة اليد بدلالة العقل، وحقائق الألفاظ بالعقل انتفت: فبالعقل جار ومجرور متعلق بانتفت يعني: انتفت بالعقل عندكم فيما زعمتم فاستوى النفيان؟ نفى الحقيقة باعتبار الصفة، ونفى أن يكون القرآن كلام الله - عز وجل -.

نَفْيُ الْحَقِيقَةِ وَإِنْتِفَاءُ اللَّفْظِ إِنْ دَلَّتْ عَلَيْهِ فَحَظُّكُمْ نَفْيَانِ

فنفي الحقيقة؛ لأنهم يقولون: إن كل ما ورد من آيات الصفات كله مجاز لا حقيقة له، وانتفاء اللفظ: حيث قالوا: إن القرآن ليس كلام الله فصار عندهم نفيان، النفي الأول: أن القرآن ليس كلام الله، النفي الثاني: أن ما فيه من الصفات ليس حقيقة.

وَنَصَبِينَا إِثْبَاتُ ذَلِكَ جَمِيعِهِ لَفْظًا وَمَعْنَى ذَلِكَ إِثْبَاتَانِ

فنصبينا نحن - والحمد لله - ثبت اللفظ، والمعنى ونقول إنه كله كلام الله. ونحن لا نقول ذلك كذباً، ولا اعتداءً عليهم، وإنما نقول ذلك بدلالة حالهم التي تشهد لهم بذلك.

وَإِذَا سَبَبْتُمْ بِالْمُحَالِ فَسَبَبْنَا بِأَدْلَةٍ وَحِجَاجِ ذِي بُرْهَانَ

(إذا سببتم بالمحال فسببنا بأدلة) يعني: إذا سببتمونا بأن هذا محال، وأن إثباته تجسيم، فنحن نسببكم بأدلة؛ ولأنكم لم تثبتوا ما أثبت الله لنفسه؛ وفرق بين الإثباتين.

تُبْدِي فَضَائِحَكُمْ وَتَهْتِكُ سِتْرَكُمْ وَتُبِينُ جَهْلَكُمْ مَعَ الْعُدْوَانِ

يَا بُعْدَ مَا بَيَّنَّ السَّبَابَ بِذَاكُمْ وَسَبَابِكُمْ بِالْكَذِبِ وَالطُّغْيَانِ



مَنْ سَبَّ بِالْبُرْهَانِ لَيْسَ بِظَالِمٍ وَالظُّلْمُ سَبُّ الْعَبْدِ بِالْبُهْتَانِ

فهذا بيت ينبغي أن يكون قاعدة، من سب بالبرهان فليس بظالم؛ لأن لديه برهانا، ولكن الظلم: هو سب العبد بالبهتان. صدق رَحْمَتُهُ فَمَنْ سَبَّ غَيْرَهُ بِدَلِيلٍ لَيْسَ بِظَالِمٍ، وَمَنْ سَبَّ غَيْرَهُ بِلا دليل فهو ظالم.

فَحَقِيقَةُ التَّجْسِيمِ إِنْ تَكُ عِنْدَكُمْ وَصْفُ الْإِلَهِ الْخَالِقِ الدِّيَانِ

بِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا الَّتِي شَهِدَتْ بِهَا آيَاتُهُ وَرَسُولُهُ الْعَدْلَانِ

فحقيقة التجسيم إن كان هناك حقيقة: فهي وصف الإله الخالق الديان، بماذا؟

بِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا الَّتِي شَهِدَتْ بِهَا آيَاتُهُ وَرَسُولُهُ الْعَدْلَانِ

فالتجسيم إذن عند هؤلاء: هو إثبات أو وصف الإله بما جاء في الكتاب، والسنة هذا هو التجسيم عندهم؛ لكنهم يلبسون، ويقولون مجسمة وجسموا الله، وجعلوه جسما من أجل التنفير.

فَتَحَمَّلُوا عَنَّا الشَّهَادَةَ وَاشْهَدُوا فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ وَكُلِّ مَكَانٍ

أَنَا مُجَسِّمَةٌ بِفَضْلِ اللَّهِ وَلَمْ يَشْهَدْ بِذَلِكَ مَعَكُمْ الثَّقَلَانِ

فالحمد لله - أنا مجسمة بناءً على ماذا؟ على كلامهم أما نحن في حقيقة الأمر لم يقل أحد من أهل السنة إن الله جسم أبداً؛ لكن على زعمهم أن إثبات الصفات تجسيم، فنحن نثبت الصفات، وإن يكن ذلك تجسيماً.

اللَّهُ أَكْبَرُ كَثُرَتْ عَنْ نَابِهَا الـ حَزْبُ الْعَوَانِ وَصِيحَ بِالْأَقْرَانِ

(كثرت عن نابها) يعني: أبانته وكثرت عنه حتى بانث الحرب العوان: الشديدة المستمرة بيننا وبينكم.

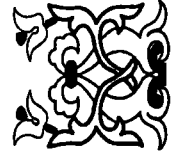
وَتَقَابَلِ الصَّفَانِ وَأَنْقَسَمَ الْوَرَى قِسْمَيْنِ وَأَنْصَحَتْ لَنَا الْقِسْمَانِ

إذا فالانقسام واضح إثبات ونفي، ولا شيء أوضح من الفرق بين الإثبات والنفي. ثانياً: رمي بسب برهان، ورمي بسب بعدوان أيضاً فرق بينهم فهم رمونا بالسب بالعدوان، ونحن رميناهم بالسب بالبرهان وفرق بين هذا وهذا.





تمهيد بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في بيان موارد أهل التعطيل

وأنهم تعوضوا بالقلوط عن مورد السلسبيل

أطيب الموارد وألذها وأصفاها وأنفعها مورد الشريعة المحمدية سهلة التناول واضحة الألفاظ حسنة المعاني تملأ القلوب أمناً وإيماناً وتصديقاً وتعظيماً وعلومًا ومعارف، فإن فهم أصول الدين وفروعه من الوحيين متيسر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وأثارها في القلب واللسان والجوارح والهدى والسمت أحسن الآثار وأجملها، نصلح القلوب فتصلح لها الجوارح، وعكس ذلك موارد المبطلين، وخصوصًا الذين بنوا أصول دينهم على جهليات يسمونها عقليات وعلى قواعد الفلسفة، فنفوا لذلك صفات المولى التي هي التوحيد وهي أصل جميع الأصول وبها تستقيم الأمور، ففسد بذلك موردهم وخبثت بواطنهم وظواهرهم، وتعوضوا عن مورد الشرع والسلسبيل موارد الأخبث والأنجاس التي هي أصل التعطيل، فيا بنس ما أصلوا وما فرعوا.



فصل

في بيان مورد أهل التعطيل
وأنهم تعوضوا بالقلوط عن مورد السلسبيل

٢٣٧٣- يَا وَارِدَ الْقَلُوطِ وَيَحَكَ لَوْ تَرَى

مَاذَا عَلَى شَفْتِكَ وَالْأَسْنَانِ

٢٣٧٤- أَوْ مَا تَرَى آثَارَهَا فِي الْقَلْبِ وَاللِّدِّ

سَيِّاتِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَرْكَانِ

٢٣٧٥- لَوْ طَابَ مِنْكَ الْوَرْدُ طَابَتْ كُلُّهَا

أَنْتَى تَطِيبُ مَوَارِدُ الْأَنْثَانِ

٢٣٧٦- يَا وَارِدَ الْقَلُوطِ طَهَّرْ فَاكَ مِنْ

خَبَثٍ بِهِ وَاعْسِلْهُ مِنْ أَنْثَانِ

٢٣٧٧- ثُمَّ اشْتَمِ الْحَشَوِيَّ حَشَوَ الدِّينِ وَالِ

قُرْآنِ وَالْآثَارِ وَالْإِيمَانِ

٢٣٧٨- أَهْلًا بِهِمْ حَشَوَ الْهُدَى وَسِوَاهُمْ

حَشَوُ الضَّلَالِ فَمَا هُمَا سَيِّئَانِ

٢٣٧٩- أَهْلًا بِهِمْ حَشَوَ الْيَقِينِ وَغَيْرُهُمْ

حَشَوُ الشُّكُوكِ فَمَا هُمَا صِنَوَانِ

٢٣٨٠- أَهْلًا بِهِمْ حَشَوَ الْمَسَاجِدِ وَالسُّوَى

حَشَوُ الْكِنِيفِ فَمَا هُمَا عِدْلَانِ

٢٣٨١- أهلاً بهم حشوا الجنان وغيرهم

حشوا الجحيم أيستوي الحشوان؟^(١)

٢٣٨٢- يا وارد القلوط ويحك لو ترى

حشوي وارد منه هل الفرقان

٢٣٨٣- وتراه من رأس الشريعة شارباً

من كف من قد جاء بالقرآن

٢٣٨٤- وتراه يسقي الناس فضلة كأسه

وختامها مسك على ريحان

٢٣٨٥- لعذرتة إن بال في القلوط لم

يشرب به مع جملة العميان

٢٣٨٦- يا وارد القلوط لا تكسل فرأ

س الماء فاقصده قريب دان

٢٣٨٧- هو منهل سهل قريب واسع

كاف إذا نزلت به الثقلان

٢٣٨٨- والله ليس بأصعب الوردين بل

هو أسهل الوردين للظمان^(٢)

(١) [٢٣٧٧ - ٢٣٨١] قال العلامة محمد خليل هراس:

ثم التفت إلى من يسمونهم حشوية فجعل هذه النسبة التي قصد بها الأعداء إلى ذمهم موضع مدح وفخار لهم فهم حشوية قد حشوا من الدين والقرآن والسنة والإيمان، وهم حشوية حشوهم الهدى واليقين على حين حشى أعداؤهم من الضلال والشكوك والشبهات، وهم حشوية لأنهم حشوا بيوت الله يعمرونها بذكره ومدارسة كتابه وسنة رسوله ﷺ وأعداؤهم حشو الأماكن القدرة من الغائط والقلوط. وهم أخيراً حشو الجنة دار الخلد التي أعدها الله للمتقين، وأما أعداؤهم فحشو الجحيم يصلونها بما عرضوا عن سبل الله المستقيمة، وبما اتبعوا من سبل الضلال والكفران.

(٢) [٢٣٨٢ - ٢٣٨٨] قال العلامة محمد خليل هراس: ولعلك أيها القارئ قد فهمت ما قصد إليه المؤلف

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

في هذا الفصل بيّن ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ مورد أهل التعطيل وأنهم استعاضوا بالقلوط عن السلسيل، القلوط سبق لنا أنه مجارى المياه والأنتان والأبوال والعذرة وهو يجرى في دمشق كالنهر يقول:

يَا وَارِدَ الْقُلُوطِ وَيَحْكُ لَوْ تَرَى مَادَا عَلَى شَفْتَيْكَ وَالْأَسْنَانَ

لو رآه لرأى أنتانا وأوساخاً؛ لأنه من العادة أن الأنتان والأوساخ تطفو على سطح الماء فإذا شرب منه لصقت بشفاهه.

أَوْ مَا تَرَى آثَارَهَا فِي الْقَلْبِ وَالنَّيَّاتِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَرْكَانِ

فصحيح؛ آثار البدع تظهر على القلب وعلى النيات يعني الإيرادات، وعلى الأعمال والأركان أي: الجوارح، فالبدعة لها آثار سيئة عظيمة على القلب واللسان والجوارح والأعمال وآثار سيئة على المجتمع كله، لأنه ينقلب من اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الابتداع في دين الله.

وقوله: (لَوْ طَابَ مِنْكَ الْوَرْدُ طَابَتْ كُلُّهَا)

يعني: الآثار التي على القلب والنيات والأعمال والأركان، (أَتَى تَطِيبُ مَوَارِدُ الْأَنْتَانِ) الاستفهام هنا للنفي يعني: لا يمكن أن يطيب موارد الأنتان.

يَا وَارِدَ الْقُلُوطِ طَهَّرْ فَأَكْ مِنْ خَبَثٍ بِهِ وَاغْسِلْهُ مِنْ أَنْتَانِ

ثُمَّ اشْتَمِ الْحَشَوِيَّ حَشَوِ الدِّينِ وَالْقُرْآنِ وَالْآثَارِ وَالْإِيمَانِ

لأن هذا هو دأبه - والعياذ بالله - أن يشتم أهل العلم والإيمان.

قوله: (أَهْلًا بِهِمْ حَشَوِ الْهُدَى) ويجوز (أهلاً بهم حشو) بالضم فعلى قراءة الضم يكون حشو خبر مبتدأ محذوف أي: هم حشو، وعلى الفتح يكون حالاً من الضمير في قوله (أهلاً بهم) يعني: حال كونهم حشو الهدى، (وَسِوَاهُمْ حَشَوِ الضَّلَالِ فَمَا هُمَا سَيِّئَانِ).

من المقابلة بين هذين الوردتين، وما أَرَادَهُ بِكُلِّ مِنْهُمَا، فَهُوَ يَكْنَى بِأَكْرَمِهَا عَنِ الْمَوَادِّ الْأُولَى لِلشَّرِيعَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ سَلَفِ الْأُمَّةِ الَّتِي سَلِمَتْ مِنَ الزَّيْغِ وَالانْحِرَافِ، وَيَكْنَى بِأَخْبَثِهَا الْمَعْبُورِ عَنْهُ بِالْقُلُوطِ عَنِ تِلْكَ الْأَرَاءِ وَقَادُورَاتِ الْأَفْهَامِ، وَهِيَ تَفْضِي سَالِكِيهَا إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ حِظِيرَةِ الْإِسْلَامِ.

أَهْلًا بِهِمْ حَشَوَ الْيَقِينِ وَغَيْرُهُمْ حَشَوَ الشُّكُوكِ فَمَا هُمَا صِنَوَانِ

فرق بين من من الله عليه باليقين في قلبه والثبات ومن من الله عليه بالشك والحيرة، ولهذا قال العلماء أكثر الناس شكًا وحيرة عند الموت أهل الكلام - والعياذ بالله - ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتوى الحموية»، وهذا صحيح؛ ولهذا من وفق منهم أقر عند موته بأنه على دين العجائز، لأن دين العجائز دين فطرة لم يعرفن ما قال هؤلاء المتكلمون من الشك والجدل لكن هؤلاء المتكلمون أخذوا يقولون ولكنهم لم يستفيدوا من القول إلا أن جمعوا قيل وقال وآل أمرهم إلى الحيرة والشك والعياذ بالله.

أَهْلًا بِهِمْ حَشَوَ الْمَسَاجِدِ وَالسَّوَى حَشَوَ الْكَيْفِ فَمَا هُمَا عِدْلَانِ

وأظن بينهما فرق الذين يملئون المساجد والذين يملئون الكيف.

أَهْلًا بِهِمْ حَشَوَ الْجَنَانِ وَغَيْرُهُمْ حَشَوَ الْجَحِيمِ أَيْسَوِي الْحَشَوَانِ؟

الجواب: لا والله، لا يستويان ﴿لَا يَسْتَوِي أَحْمَبُ النَّارِ وَأَحْمَبُ الْجَنَّةِ أَصْحَبُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

يَا وَارِدَ الْقَلُوطِ وَيَحَكَ لَوْ تَرَى الـ حَشَوِيَّ وَارِدَ مَنْهَلِ الْقُرْآنِ

وَتَرَاهُ مِنْ رَأْسِ الشَّرِيعَةِ شَارِبًا مِنْ كَفِّ مَنْ قَدْ جَاءَ بِالْفُرْقَانِ

يعني من كف النبي ﷺ.

وَتَرَاهُ يَسْقِي النَّاسَ فَضْلَةَ كَأْسِهِ وَخِتَامُهَا مِسْكٌ عَلَى رِيحَانِ

يعني يفيض علمه على الناس.

لِعَدْرَتِهِ إِنْ بَالَ فِي الْقَلُوطِ يَشْرَبُ بِهِ مَعَ جُمْلَةِ الْعُمَيَّانِ

هذا جواب لو، والمعنى: لو ترى الحشو وارد منهل الفرقان فالجواب: لعذرتة إلخ. وفرق بين الحشوي الذي يشرب من هذا المورد العذب من يد النبي ﷺ ويأتي إلى القلوط فيبول فيه، وبين الإنسان الذي يشرب من القلوط فيبينها فرق عظيم.

يَا وَارِدَ الْقَلُوطِ لَا تَكْسَلْ فَرَأُ سِ الْمَاءِ فَاقْصِدْهُ قَرِيبٌ دَانِ

يعني: إن رأس الماء قريب دان وهو الكتاب والسنة أقرب من كتب هؤلاء المتبوعين.

هُوَ مَنْهَلٌ سَهْلٌ قَرِيبٌ وَاسِعٌ كَافٍ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ الثَّقَلَانِ



وَاللَّهِ لَيْسَ بِأَصْعَبِ الْوَرْدَيْنِ بَلْ هُوَ أَسْهَلُ الْوَرْدَيْنِ لِلظَّمَانِ

فَإِذَا جِئْتَ لِلْقُرْآنِ وَقَرَأْتَهُ وَجَدْتَهُ سَهْلًا قَرِيبَ الْمَأْخُذِ، وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَى كِتَابِ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَجَدْتَهَا مِنْ أَصْعَبِ مَا يَكُونُ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ انْتَفَعْتَ بِهِ وَازْدَدْتَ يَقِينًا وَإِذَا قَرَأْتَ كَلَامَ الْمُتَكَلِّمِينَ اازْدَدْتَ شَكًّا وَحَيْرَةً نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.





مَهْد بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في بيان هدمهم لقواعد الإسلام والإيمان بعزلهم نصوص السنة والقرآن

أعاد المؤلف هذه المباحث المهمة بتعبيرات متنوعة، لأنه بذلك تتضح الحقائق وتبين الطرائق. فهؤلاء الجهمية ومن تبعهم من أهل الكلام الباطل سعوا في هدمهم قواعد الإسلام والقرآن، بما أصّلوه من الأصول الباطلة، وبما نفوه من الأصول الصحيحة. فمن المعلوم أن قواعد الإسلام والإيمان إنما ثبتت وتأسست وانبنت على نصوص الكتاب والسنة، والجهمية عزلوا هذا الأساس العظيم بما أصّلوه من الأصول الفاسدة فرعموا أن كلام الفلاسفة وعقولهم الفاسدة تفيد اليقين والقطع، وأن كلام الله ورسوله يفيد غلبة الظن، وإذا تعارضت القواطع العقلية مع الظواهر السمعية قدمت قواطع العقل، فهذا أخبث أصل أصّلوه وأفسدوا به العقائد الصحيحة، وعزلوا لأجله النصوص الصحيحة الصريحة، وتمموا هذا الأصل الخبيث بأن جعلوا عقولهم الفاسدة هي الميزان دون عقول أولي الألباب الذين ينقحون الحقائق الخالصة، ويميزون بين العقلية والجهليات وبين البراهين والشبه، فهؤلاء هم الذين يتعين الرجوع إلى أقوالهم وآرائهم الصائبة.

وقد تتبع المحققون جميع الأصول الدينية فوجدوها مطابقة للمعقول الصريح، وحققوا كل ما قالوه هؤلاء الحيارى الضالون من عقلياتهم التي عارضوا بها الحق فوجدوها جهليات هي على جهل أصحابها وانسلاخهم من زمرة أولي الألباب من أوضح الأدلة. ومن أراد تفصيل هذه الجملة فليطالع كتاب «العقل والنقل» وكتاب «التأسيس» لشيخ الإسلام ابن تيمية وكيف نقل أكبر براهينهم التي سموها براهين، ووضح ما فيها من

الفساد والتناقض، وشهادة بعضهم على بعض بفسادها، وربما كان بعض رؤسائهم يذكرها في موضع من كتبه وينصرها ويذكرها في موضع آخر ويبطلها، وقد تصدى في هذين الكتابين لبيان مخالفتها للعقل الصريح كما ناقضت النص الصحيح، فأدلة الكتاب والسنة وأدلة العقول الصحيحة لا تتناقض لأنها من عند الله ﷻ **﴿لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾** [النساء: ٨٢].

واعلم أن العقل مع النقل له ثلاث مقامات: إمّا أن يشهد بما دل عليه الشرع، بما يراه من محاسن الدين وبناء أحكامه على تحصيل المصالح وتكميلها، وعلى دفع المفاسد وتقليلها حسب الإمكان، وبيان أن هداية الدين وإرشاداته تجري مع الوقت والزمان لا تتغير ولا يحصل الرشد بغيرها. وإما أن لا يهتدي العقل لمعرفة تفاصيلها كأمر الغيب والبرزخ والجنة والنار وأحوال يوم القيامة مما لا تهتدي العقول إليه لا إجمالاً ولا تفصيلاً إلا بالوحي السماوي، والعقل فيها يخضع ويسلم للسمع لتيقنه صدق الشارع وأنه لا يقول إلا الحق. وإمّا أن يأتي الشرع بما تحار فيه العقول ولا تعرف وجهه ولا حكمته، وهذا النوع سماه الفقهاء تعبدًا، فهذه الأمور الثلاثة هي التي ترد الشرائع بها.

وأما ورودها بأمر يشهد العقل الصريح ببطلانه وإحالاته فهذا من المحال الممتنع لأن الحق لا يتعارض، والأمور اليقينية لا تتناقض، فحيث ظن في شيء من أمور الشرع تناقض ومناقضة للعقل فهو لأحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن العقل فاسد يظنه صاحبه معقولاً وحقيقة وهو خيال لا حقيقة له، وإما أن النقل غير صحيح. فالنقل غير الصحيح ليس من الشرع فلا تتصور المعارضة. وإذا بنى العبد إيمانه على هذا الأصل العظيم فقد استقام إيمانه وتم يقينه واهتدى للحقائق الصحيحة وسلك أحسن الطرائق المريجة، ومتى سلك الطريق المخالف لهذا فهو ضال زائع، ونسأل الله أن يهدينا وإخواننا المسلمين لمعرفة الحق واتباعه آمين.



فصل

في بيان هدمهم لقواعد الإسلام
والإيمان بعزلهم نصوص السنة والقرآن

٢٣٨٩- يَا قَوْمِ بِاللَّهِ انظُرُوا وَتَفَكَّرُوا

فِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

٢٣٩٠- مِثْلَ التَّدْبِيرِ وَالتَّفَكُّرِ لِلَّذِي

قَدْ قَالَهُ ذُو الرَّأْيِ وَالْحُسْبَانِ

٢٣٩١- فَأَقْلُ شَيْءٍ أَنْ يَكُونَا عِنْدَكُمْ

حَدًّا سَوَاءً يَا أَوْلِي الْعُدْوَانِ

٢٣٩٢- وَاللَّهِ مَا اسْتَوَيْتَا لَدَى زُعَمَائِكُمْ

فِي الْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ وَالْعِرْفَانِ

٢٣٩٣- عَزَلُوهُمَا بَلْ صَرَّحُوا بِالْعَزْلِ عَنِ

نَيْلِ الْيَقِينِ وَرُتْبَةِ الْبُرْهَانِ

٢٣٩٤- قَالُوا وَتِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفِظِيَّةٌ

لَسْنَا نُحْكِمُهَا عَلَى الْإِيقَانِ

٢٣٩٥- مَا أَنْزَلْتَ لِيُنَالَ مِنْهَا الْعِلْمُ بِالِ

إثْبَاتِ لِلأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ

٢٣٩٦- بَلْ بِالْعُقُولِ يُنَالَ ذَاكَ وَهَذِهِ

عَنْهُ بِمَعَزْلِ غَيْرِ ذِي سُلْطَانِ

٢٣٩٧- فَبِجْهَدِنَا تَأْوِيلُهَا وَالدَّفْعِ فِي

أَكْتَفَيْهَا دَفْعًا كَذِي الصَّوْلَانِ

٢٣٩٨- كَكَبِيرِ قَوْمٍ جَاءَ يَشْهَدُ عِنْدَ ذِي

حُكْمٍ يُرِيدُ دِفَاعَهُ بِلِيَانِ

٢٣٩٩- فَيَقُولُ قَدْرَكَ فَوْقَ ذَا وَشَهَادَةَ

لِسَوَاكَ تَصْلُحُ فَاذْهَبْنَ بِأَمَانِ

٢٤٠٠- وَيُودِّهِ لَوْ كَانَ شَيْءٌ غَيْرَ ذَا

لَكِنَّ مَخَافَةَ صَاحِبِ السُّلْطَانِ

٢٤٠١- فَلَقَدْ أَتَانَا عَنْ كَبِيرٍ فِيهِمْ

وَهُوَ الْحَقِيرُ مَقَالَةُ الْكُفْرَانِ

٢٤٠٢- لَوْ كَانَ يُمَكِّنُنِي وَلَيْسَ بِمُمْكِنِ

لَحَكَّكَتْ مِنْ ذَا الْمِصْحَفِ الْعُثْمَانِي

٢٤٠٣- ذَكَرَ اسْتَوَاءَ الرَّبِّ فَوْقَ الْعَرْشِ لَ

كِنَّ ذَاكَ مُمْتَنِعٌ عَلَى الْإِنْسَانِ

٢٤٠٤- وَاللَّهُ لَوْلَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ وَال

قُرْآنِ وَالْأَمْرَاءِ وَالسُّلْطَانِ

٢٤٠٥- لَأَتَوْا بِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَلَدَكْدَكُوا ال

إِسْلَامَ فَوْقَ قَوَاعِدِ الْأَرْكَانِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

في هذه الأبيات يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ منادياً هؤلاء القوم الذين قدموا نصوص أئمتهم وشيوخهم على الكتاب والسنة.

يَاقَوْمُ وَاللَّهِ انظُرُوا وَتَفَكَّرُوا فِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

مِثْلَ التَّدْبِيرِ وَالتَّفَكُّرِ لِلَّذِي قَدْ قَالَهُ ذُو الرَّأْيِ وَالْحُسْبَانِ

يعني: أقل ما نطلبه منكم العدل بأن تنظروا في نصوص الكتاب والسنة كما تنظرون في مقالات شيوخكم، والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ في عدة مواضع يذكر السنة قبل القرآن من أجل مناسبة الوزن القافية كما أن الله سبحانه وتعالى قدم ذكر هارون على موسى من أجل تناسب رؤوس الآيات في سورة طه حيث قال السحرة ﴿بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ فقدم هارون من أجل تتناسب رؤوس الآيات قال:

وقوله: (فَأَقْلُّ شَيْءٍ)، أي: أقل شيء نطلبكم به، (أَنْ يَكُونَا عِنْدَكُمْ حَدًّا يَا أُولِي الْعُدْوَانِ)، و ما هو أعلى شيء؟ تقديم الكتاب والسنة بهذا أعلى شيء، أقل شيء أن يكون الكتاب والسنة عندكم مثل كلام شيوخكم.

وَاللَّهُ مَا اسْتَوَى لَدَى زُعْمَائِكُمْ فِي الْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ وَالعِرْفَانِ

قوله: (مَا اسْتَوَى): يعني: نصوص الكتاب والسنة وكلام الشيوخ، ما استويا لدى زعمائكم، (في العلم والتحقق والعرفان)، لأن نصوص الكتاب والسنة عندهم لا تفيد العلم ولا العرفان والتحقق؛ لأنهم يقولون: إن كان النص من كتاب الله، فالدلالة لفظية ودلالة اللفظ ظنية وليست قطعية، وإن كانت من السنة فإن كانت أخبار آحاد فأخبار الآحاد لا تفيد اليقين والقطع بل تفيد الظن، وإن كانت متواترة فهي لفظية والدلالة اللفظية لا تفيد اليقين، إذن ما هو الذي يفيد اليقين؟ كلام شيوخهم؛ ولهذا قال:

عَزَلُوهُمَا بَلْ صَرَّحُوا بِالْعَزْلِ عَنِ نَيْلِ الْيَقِينِ وَرُتَبَةِ الْبُرْهَانِ

قوله: (عزلوهما) الضمير يعود على الكتاب والسنة.

قَالُوا وَتِلْكَ أَدَلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ لَسْنَا نُحَكِّمُهَا عَلَى الْإِيقَانِ

قوله: (تلك) المشار إليه نصوص الكتاب والسنة، أدلة لفظية: لا تفيد اليقين ولا يصل الحكم بها إلى اليقين.

مَا أَنْزَلْتَ لِنَيْالٍ مِنْهَا الْعِلْمُ بِالْإِثْبَاتِ لِلأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ

يعني: ما أنزلها الله لننال بها علم أوصاف ربنا عز وجل، لماذا نزلت؟ قالوا: للتعبد بلفظها وتسليم معناها لله هذه فرقة منهم، وفرقة أخرى قالوا: نزلت للتعبد بلفظها ونيل



الأجور بحمل معانيها على مجازها؛ لأن حمل اللفظ على مجازه يحتاج إلى شواهد وأدلة وتعبٍ بخلاف الظاهر، قالوا فتحمل على المجازات، وعلى المعاني الغريبة وكون الإنسان يتعب لتخريجها على هذه المجاز ينال بذلك أجرًا لقول النبي ﷺ لعائشة في عمرتها وحجّها «أجرك على قدر نصبك»^(١).

فصار هذا الذي يراده بالكتاب والسنة عندهم إما التعب باللفظ وتسليم المعنى لله، وهؤلاء هم المفوضة، أو التعب باللفظ ونيل الأجر بالتعب في تخريج الكلام على مجازاته وشواذ اللغة العربية، أما أن يراد بذلك العلم فلا، لا يراد بهذا إثبات العلم بإثبات أوصاف الله عز وجل.

وقوله: (بَلِ بِالْعُقُولِ يُنَالُ ذَاكَ)، يُنال: نائب الفاعل يعود على العلم أي: ينال العلم بدلالة العقل، (وهذه): يعني: نصوص الكتاب والسنة.

وقوله: (عَنهُ بِمَعَزَلٍ غَيْرِ ذِي سُلْطَانٍ)، يعني: ليس لها سلطان وقدرة وقوة توصل إلى العلم.

فَبِجْهِدِنَا تَأْوِيلُهَا وَالدَّفْعُ فِي أَكْتَاغِهَا دَفْعًا لِدِي الصُّوْلَانِ

يعني: معناه أننا نبذل الجهد في تأويلها ونتعب لأجل أن ننال الأجر لما قيل لهم: إذا كان ليس المراد الظاهر لماذا لم يأت الله بالمراد وأتى بظاهر خلاف المراد؟ قالوا لأجل أن نتعب في حمل هذا الظاهر على مجازه وتتبع شواذ اللغة حتى ننال بذلك أجرًا طيبًا، وضرب مثالًا لذلك فقال:

ككبير قومٍ جاء يشهدُ عندَ ذي حُكْمٍ يُريدُ دِفَاعَهُ بِلِيَانِ

فيقول الحاكم:

فَيَقُولُ قَدْرَكَ فَوْقَ ذَا وَشَهَادَةَ لِسَوَاكَ تَصْلُحُ فَاذْهَبِي بِأَمَانِ

هذا رجل شيخ كبير جاء يشهد عند القاضي، والقاضي ما هو قابل شهادته قال له يا سيدي قدرك عندي أكبر من أن تأتي تشهد الشهادة لغيرك أنت شيخ كبير موقر محترم ما تأتي تشهد عندي الشهادة لغيرك لكن اذهب، ما عندي لك اعتبار، هؤلاء نزلوا نصوص الكتاب والسنة، كذلك قالوا القرآن عندنا محترم وعظيم، والسنة كذلك، لكن الشهادة

(١) صحيح: انظر صحيح الجامع (٢١٦٠).

غيرها، أي للعقول، وهذا مثل غريب قل أن يتفطن الإنسان لمثل هذا المثل، أحياناً يأتي الإنسان بمثال يكون أبعد ما يكون عن الذهن في تصوره ومن ذلك قول الشاعر:

بليتُ بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوفٍ شحيحٍ ضاعَ في التُّربِ خاتمُه

الأطلال يعني: المساكن المهدامة لمعشوقته، (إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في التراب خاتمها)، شحيح: بخيل ضاع خاتمها في التراب.

على كل حال أقول: بعض الناس يكون عنده خيال واسع فمن يتخيل أن هؤلاء جعلوا نصوص الكتاب والسنة بمنزلة هذا الشيخ الكبير المعظم عند الحاكم الذي جاء يشهد قال له: والله يا سيدي أنت رجل كريم عندنا وعظيم ومحترم وأنت أكبر من أن تشهد عندنا لكن اذهب بأمان ونطلب الشهادة عند غيرك.

وَبُودُوهُ لَوْ كَانَ شَيْءٌ غَيْرُ ذَا لَكِنَّ مَخَافَةَ صَاحِبِ السُّلْطَانِ

بوده أي: أن يكون الأمر فوق ذلك، وهذا محتمل أن يكون بوده يعني: الحاكم الذي طرد هذا الشيخ أو بوده هذا المحرف الذي حرف نصوص الكتاب والسنة لو كان شيء غير ذا، يقول:

فَلَقَدْ أَتَانَا عَنْ كَبِيرٍ فِيهِمْ وَهُوَ الْحَقِيرُ مَقَالَةَ الْكُفْرَانِ

هذا رجل من المعطلة الذين ينكرون الصفات يقول: لو كان يمكنني أن أحك قول الله تعالى في القرآن ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ لفعلت، أعوذ بالله، لماذا؟ لأنه لا يريد أن يسمع أحداً يقول: إن الله استوى على العرش لكن المسلمون يقرأونها في كل يوم وليلة، كما أتمنى أن أتمكن من أن أحك قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ نسأل الله العافية ولكن هل يمكن هذا؟ لا ولهذا قال:

لَوْ كَانَ يُمَكِّنُنِي وَلَيْسَ بِمُكْمِنٍ لَحَكَّكَتُ مِنْ ذَا الْمِصْحَفِ الْعُثْمَانِي

ذَكَرَ اسْتَوَاءَ الرَّبِّ فَوْقَ الْعَرْشِ لَكِنَّ ذَاكَ مُمْتَنِعٌ عَلَى الْإِنْسَانِ

فيؤكد المؤلف على حقيقة ثابتة ويقول:

وَاللَّهُ لَوْلَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ وَالْإِسْلَامُ لَأَتُوا بِكُلِّ مِصْبِيَةٍ وَلَدَكَدُّوا

إِسْلَامٌ فَوْقَ قَوَاعِدِ الْأَرْكَانِ

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يَعْرِفُ هَذَا مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُ ابْتَدَى فِي زَمَانِهِ فِي عَهْدِ الشَّيْخِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللهُ بِهِمْ وَابْتَدَى النَّاسُ مِنْ قَبْلِ مَاذَا فَعَلَ هَؤُلَاءِ الْمَعْطَلَةُ بِالْأُتَمَّةِ؟ وَشَوَّاهُمْ إِلَى الْحُكَامِ حَتَّى حَبَسُوهُمْ وَضَرَبُوهُمْ وَقَتَلُوهُمْ، هَؤُلَاءِ لَوْ تَمَكَّنُوا مِنْ أَنْ يَهْدِمُوا الْإِسْلَامَ كُلَّهُ لَفَعَلُوا لَكِنَّهُمْ يَخَافُونَ هَيْبَةَ الْأَمْرَاءِ وَالسُّلْطَانَ وَالْإِسْلَامَ وَإِلَّا لَفَعَلُوا.



* قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٤٠٦- فَلَقَدْ رَأَيْتُمْ مَا جَرَى لِأُتَمَّةِ الْ-

إِسْلَامِ مِنْ مَحَنٍ عَلَى الْأَزْمَانِ

٢٤٠٧- لَا سِيَّامًا لَمَّا اسْتَمَالُوا جَاهِلًا

ذَا قُدْرَةٍ فِي النَّاسِ مَعَ سُلْطَانِ

٢٤٠٨- وَسَعَوْا إِلَيْهِ بِكُلِّ إِفْكٍ بَيْنِ

بَلْ قَاسَمُوهُ بِأَغْلَظِ الْأَيْمَانِ

٢٤٠٩- أَنَّ النَّصِيحَةَ قَصْدُهُمْ كَنَصِيحَةِ الشَّ-

يْطَانِ حِينَ خَلَا بِهِ الْأَبْوَانِ

٢٤١٠- فَيَرَى عَمَائِمَ ذَاتِ أذْنَابٍ عَلَى

تِلْكَ الْقُشُورِ طَوِيلَةِ الْأَرْدَانِ

٢٤١١- وَيَرَى هَيْوَلِي لَا تَهْوُلُ لِمَبْصَرِ

وَتَهْوُلُ أَعْمَى فِي ثِيَابِ جَبَانِ

٢٤١٢- فَإِذَا أَصَاخَ بِسَمْعِهِ مَلْؤُوهُ مِنْ

كَذِبٍ وَتَلْبِيسٍ وَمِنْ بُهْتَانِ

٢٤١٣- فَيَرَى وَيَسْمَعُ فَشَرَّهُمْ وَفُشَارَهُمْ

يَا مَحَنَةَ الْعَيْنَيْنِ وَالْأَذْنَانِ

٢٤١٤- فَتَحُوا جِرَابَ الْجَهْلِ مَعَ كَذِبٍ فَخُذْ

وَاحْمِلْ بِلَا كَيْلٍ وَلَا مِيزَانَ

٢٤١٥- وَأَتُوا إِلَى قَلْبِ الْمُطَاعِ فَفَشُّوا

عَمَّا هُنَاكَ لِيَدْخُلُوا بِأَمَانِ

٢٤١٦- فَإِذَا بَدَأَ غَرَضٌ لَهُمْ دَخَلُوا بِهِ

مِنْهُ إِلَيْهِ كَحِيلَةِ الشَّيْطَانِ

٢٤١٧- فَإِذَا رَأَوْهُ هَشَّ نَحْوَ حَدِيثِهِمْ

ظَفِرُوا وَقَالُوا وَيْحَ آلِ فُلَانِ

٢٤١٨- هُوَ فِي الطَّرِيقِ يَعُوقُ مَوْلَانَا عَنِ الـ

مَمْقُودِ وَهُوَ عَدُوُّ هَذَا الشَّانِ

٢٤١٩- فَإِذَا هُمْ غَرَسُوا الْعَدَاوَةَ وَاطْبُؤا

سَقِي الْغَرَّاسِ كَفَعَلِ ذِي الْبُسْتَانِ

٢٤٢٠- حَتَّى إِذَا مَا أَثْمَرَتْ وَدَنَا لَهُمْ

وَقَتُّ الْجَذَاذِ وَصَارَ ذَا إِمْكَانِ

٢٤٢١- رَكَبُوا عَلَى جُرْدٍ لَهُمْ وَحَمِيَّةٍ

وَاسْتَنْجَدُوا بِعَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ

٢٤٢٢- فَهَنَالِكَ ابْتَلَيْتَ جُنُودَ اللَّهِ مِنْ

جُنْدِ اللَّعِينِ بِسَائِرِ الْأَلْوَانِ

٢٤٢٣- ضَرْبًا وَحَبْسًا ثُمَّ تَكْفِيرًا وَتَبْ-

دِيْعًا وَشَتْمًا ظَاهِرَ الْبُهْتَانِ

٢٤٢٤- فَلَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ فَرِيقٍ مِنْهُمْ

أَمْرًا تُهْدِي لَهُ قُوَى الْإِيْمَانِ

٢٤٢٥- مِنْ سَبِّهِمْ أَهْلَ الْحَدِيثِ وَذَنْبُهُمْ

أَخَذَ الْحَدِيثَ وَتَرَكَ قَوْلَ فُلَانٍ

الشَّحْ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هذه الأبيات يقول المؤلف فيها رَحِمَهُ اللهُ مبيِّناً ما جرى لأئمة الإسلام من محن من هؤلاء المعطلة يقول:

فَلَقَدْ رَأَيْتُمْ مَا جَرَى لِأَيْمَةِ الْإِسْلَامِ مِنْ مِحْنٍ عَلَى الْأَزْمَانِ

ولا سيما إمام أهل السنة الإمام أحمد ابن حنبل رَحِمَهُ اللهُ.

لَا سِيَّماً لَمَّا اسْتَمَالُوا جَاهِلًا ذَا قُدْرَةٍ فِي النَّاسِ مَعَ سُلْطَانِ

يعني بذلك الخلفاء الجاهل الذين لهم قدرة وسلطان على الناس استهلمهم هؤلاء المعتزلة أو المعطلة.

وَسَعَوْا إِلَيْهِ بِكُلِّ إِفْكٍ بَيِّنٍ بَلْ قَاسَمُوهُ بِأَغْلَظِ الْإِيْمَانِ

قوله: (قاسموه) يعني: حلفوا له كما قال تعالى عن الشيطان ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ ﴾ [الأعراف: ٢١].

وقوله: (النَّصِيحَةَ قَصَدُهُمْ)، يعني: يأتون للملك أو للخليفة ويقولون الأمر كذا وكذا وكذا والله ما قصدنا إلا النصيحة.

وقوله: (كَنْصِيحَةِ الشَّيْطَانِ حِينَ خَلَا بِهِ الْأَبْوَانِ) ماذا قال لهما؟ ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ ﴾.

والجاهل هو الخليفة الذي له السلطان يغتر.

فَيَرَى عَمَائِمَ ذَاتِ أَذْنَابٍ عَلَى تِلْكَ الْقُشُورِ طَوِيلَةَ الْأُرْدَانِ

هؤلاء المشايخ جاءوا وعليهم عمائم طويلة الأردن يعني: لها رदन طويل يصل إلى الفخذين لكنها على قشور من الناس ولكن الخليفة الجاهل يظن أن هؤلاء مشايخ كبار

فياخذ بقولهم:

وَيَرَى هَيُولَى لَا تَهُولُ لِمَبْصِرٍ وَتَهُولُ أَعْمَى فِي ثِيَابِ جَبَانٍ

الهيولى يعني: الهيئة أي: يرى هيئة عظيمة - مشايخ كبار -، جاءوا بهذه الأبهة لكنها لا تهول لمبصر؛ لأنه يعرف أنه ليس تحت الثياب إلا الخراب وإنما تهول من الأعمى الجبان.

فَإِذَا أَصَاحَ بِسَمْعِهِ مَلُؤُوهُ مِنْ كَذِبٍ وَتَلْبِيسٍ وَمِنْ بُهْتَانٍ

أعوذ بالله، أصاخ بسمعه يعني: استمع إليهم وانصت.

فَيَرَى وَيَسْمَعُ فَشَرَّهُمْ وَفَشَارَهُمْ يَا مِحْنَةَ الْعَيْنَيْنِ وَالْأَذْنَانِ

الشر والفشار هو: الحديث الطويل المنمق، ولكنه ليس تحته فائدة إذا سمعه الإنسان ظنه حسنًا صوابًا ولكنه بالعكس.

فَتَفْتَحُوا جِرَابَ الْجَهْلِ مَعَ كَذِبٍ فَخُذْ وَاحِمِلْ بِلَا كَيْلٍ وَلَا مِيزَانٍ

يعني: من كثرة الكذب والبهتان والجهل.

وَأَتُوا إِلَى قَلْبِ الْمُطَاعِ فَفَتَّشُوا عَمَّا هُنَاكَ لِيَدْخُلُوا بِأَمَانٍ

من المطاع؟ الخليفة أتوا إلى قلبه ففتشوا عما هناك ليدخلوا بأمان.

فَإِذَا بَدَأَ غَرَضٌ لَهُمْ دَخَلُوا بِهِ مِنْهُ إِلَيْهِ كَحِيلَةِ الشَّيْطَانِ

يعني: أنهم ينتهزون الفرصة كلما بدا غرض والغرض، فيما يظهر لي أنه الذي يرمى إليه وليس الغرض الحاجة، بل الغرض الذي يرمى إليه بالسهم كلما بدا غرض دخلوا به منه إليه، ويحتمل أن المراد بالغرض هنا الحاجة يعني: كلما بدا لهم حاجة دخلوا منها إلى هذا الملك أو الخليفة.

قوله: (فَإِذَا رَأَوْهُ هَشَّ نَحْوَ حَدِيثِهِمْ) يعني: إذا رأوه قد هش نحو حديثهم وأصاخ إليه، (ظَفَرُوا وَقَالُوا وَيَحَ آلِ فُلَانٍ)، أي: ظفروا بمطلوبهم وقالوا فيما بينهم ويح آل فلان، من يعنون بآل فلان؟ أهل الحديث ويجهم؛ لأن الخليفة هش.

هُوَ فِي الطَّرِيقِ يَعُوقُ مَوْلَانَا عَنِ الْمَقْضُودِ وَهُوَ عَدُوُّ هَذَا الشَّانِ

أيضًا يقولون: هؤلاء الجماعة يعوقون أمرك ويؤلبون الناس عليك ويفعلون ويفعلون.

فَإِذَا هُمْ غَرَسُوا الْعَدَاوَةَ وَاطَّابُوا سَقْيَ الْغِرَاسِ كَفِعْلِ ذِي الْبُسْتَانِ



إذا غرسوا العداوة على أهل الحديث من السلطان لم يتركوه بل يتابعونه كما يتابع الرجل شجرته إذا غرسها.

حَتَّى إِذَا مَا أَثْمَرَتْ وَدَنَا لَهُمْ وَقْتُ الْجِذَاذِ وَصَارَ ذَا إِمْكَانٍ

وقوله: (رَكِبُوا عَلَى جُرْدِهِمْ وَحَمِيَّةً)، ويجوز على حرد يعني على حنق وحمية، وعلى جُرد يعني الخيل الجرد، (وَاسْتَجَدُّوا بِعَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ).

فَهَذَا لِكَ ابْتَلَيْتَ جُودَ اللَّهِ مِنْ جُنْدِ اللَّعِينِ بِسَائِرِ الْأَسْوَانِ
لأن السلطان صار معهم وآذى أهل الحديث.

ضَرْبًا وَحَبْسًا ثُمَّ تَكْفِيرًا وَتَبْ سِدِيْعًا وَشَتْمًا ظَاهِرَ الْبُهْتَانِ
يعني: يأتون بكل مسبةٍ لأهل الحديث إلى أن يقولوا هم كفار والعياذ بالله.

فَلَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ فَرِيقٍ مِنْهُمْ أَمْرًا تَهْدُلُهُ قُوَى الْإِيْمَانِ
وقوله: (مِنْ سَبِّهِمْ أَهْلَ الْحَدِيثِ وَدِينُهُمْ)، أي دين أهل الحديث.

وقوله: (أَحْذُ الْحَدِيثَ وَتَرَكُ قَوْلَ فُلَانٍ)؛ يعني: أنهم يسبون أهل الحديث؛ لأن دينهم أخذ الحديث وترك رأى فلان وفلان ومع ذلك يسبونه، فابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كما مر علينا كثيرًا يظهر من كلامه أن في قلبه عليهم من الحنق والعداوة ما هم السبب فيه؛ لأنهم آذوا أهل الحديث وصاحوا بهم ظاهرًا وباطنًا وفي كل مكان وهذا هو الذي جعل التعطيل منتشرًا في العالم الإسلامي أنهم كانوا - والعياذ بالله - يضيقون الخناق على أهل الحديث وأهل السنة نسأل الله السلامة.

وهذه نراها سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه بأن يختلف الناس وتختلف العقائد.

وفي يوم القيامة لا بد من صراع بين الحق والباطل، وأهل الحق قد يؤذون من هؤلاء لكن لحكمة يريد الله عز وجل من أجل أن ينالوا درجة الصابرين؛ لأن الصبر درجة عالية، ما هي سهلة ولا تُنال إلا بشيء يصبر عليه كما قال الشاعر:

الصَبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقُهُ لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ



* قوله ﷺ:

٢٤٢٦- يَا أُمَّةَ غَضِبَ إِلَهُ عَلَيْهِمْ

الْأَجَلَ هَذَا تَشْتُمُوا بِهِوَانِ؟

٢٤٢٧- تَبَّ لَكُمْ إِذْ تَشْتُمُونَ زَوَامِلَ الـ

إِسْلَامٍ حِزْبِ اللَّهِ وَالْقُرْآنِ

٢٤٢٨- وَسَبَبْتُمُوهُمْ ثُمَّ لَسْتُمْ كُفَاهُمْ

فَرَأَوْا مَسَبَّتَكُمْ مِنَ التَّقْصَانِ

٢٤٢٩- هَذَا وَهُمْ قَبِلُوا وَصِيَّةَ رَبِّهِمْ

فِي تَرْكِهِمْ لِمَسَبَّةِ الْأَوْثَانِ

٢٤٣٠- حَذَرَ الْمُقَابَلَةَ الْقَبِيحَةَ مِنْهُمْ

بِمَسَبَّةِ الْقُرْآنِ وَالرَّحْمَنِ

٢٤٣١- وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ فَإِنَّهُمْ

ضُرِبَتْ لَهُمْ وَلَكُمْ بِذَا مَثَلَانِ

٢٤٣٢- سَبُّوكُمْ جَهَّالُهُمْ فَسَبَبْتُمْ

سُنَنَ الرَّسُولِ وَعَسَاكَرَ الْإِيمَانِ

٢٤٣٣- وَصَدَدْتُمْ سَفَهَاءَكُمْ عَنْهُمْ وَعَنْ

قَوْلِ الرَّسُولِ وَذَا مِنَ الطُّغْيَانِ

٢٤٣٤- وَدَعَوْتُمُوهُمْ لِلَّذِي قَالَتْهُ أَشـ

يَاخُ لَكُمْ بِالْخَرْصِ وَالْحُسْبَانِ

٢٤٣٥- فَأَبَوْا إِجَابَتَكُمْ وَلَمْ يَتَحَيَّرُوا

إِلَّا إِلَى الْأَثَارِ وَالْقُرْآنِ

٢٤٣٦- وَإِلَى أَوْلِي الْعِرْفَانِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيدِ

ثِ خُلَاصَةَ الْأَكْوَانِ وَالْإِنْسَانِ

٢٤٣٧- قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الْإِلَهُ لِحِفْظِ هـ

ذَا الدِّينِ مِنْ ذِي بَدْعَةِ شَيْطَانِ

٢٤٣٨- وَأَقَامَهُمْ حَرَسًا مِنَ التَّبْدِيلِ وَالْتِ

حَرِيفِ وَالتَّثْمِيمِ وَالتَّقْصَانِ

٢٤٣٩- يَزُكُّ عَلَى الْإِسْلَامِ بَلِ حِصْنٌ لَهُ

يَأْوِي إِلَيْهِ عَسَاكِرُ الْفُرْقَانِ

٢٤٤٠- فَهُمْ الْمِحْكُ فَمَنْ يُرَى مُتَّقِصًا

لَهُمْ فَرَنْدِيقٌ خَيْبَتْ جَنَانِ

٢٤٤١- إِنْ تَتَّهَمُهُ فَقَبْلَكَ السَّلْفُ الْأَلَى

وَالْعِلْمُ وَالْآثَارُ وَالْقُرْآنُ^(١)

٢٤٤٢- أَيْضًا قَدْ اتَّهَمُوا الْخَيْبَتْ عَلَى

كَانُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِجْسَانِ

٢٤٤٣- وَهُوَ الْحَقِيقُ بِذَاكَ إِذْ عَادَى رُؤَا

ةَ الدِّينِ وَهِيَ عَدَاوَةُ الدُّيَانِ

٢٤٤٤- فَإِذَا ذَكَرْتَ النَّاصِحِينَ لِرَبِّهِمْ

وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ بِلِسَانِ

٢٤٤٥- فَاغْسِلْهُ وَبِلَيْكَ مِنْ دَمِ التَّعْطِيلِ وَالْتِ

كُذِيبِ وَالْكَفْرَانِ وَالْبُهْتَانِ

(١) [٢٤٤١:٢٤٤٣] قال العلامة محمد خليل هراس:

وهم الميزان الذي يعرف به صحيح الأقوال من سقيمها، فما أنكروه فهو المنكر، وما أقروه فهو الحق فمن عمد إلى تنقصهم والتهوين من شأنهم فهو خبيث القلب مغموض في دينه.

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

يقول المؤلف رحمه الله تعالى: (يَا أُمَّةَ غَضِبَ إِلَهُ عَلَيْهِمْ) يخاطب أهل التعطيل الذين عطلوا صفات الله عز وجل ومنعوا كمال الله سبحانه وتعالى، وهذا الغضب بسبب مجانبتهم لهدي النبي ﷺ وأصحابه وأهل الحديث من بعدهم.

وقوله: (الْأَجَلِ هَذَا تَشْتُمُوا بِهِوَانٍ؟) يعني: لأجل أن خالفتم أهل السنة تشتمونهم.

تَبَّأَ لَكُمْ إِذْ تَشْتُمُونَ زَوَامِلَ الْإِسْلَامِ حِزْبَ اللَّهِ وَالْقُرْآنِ

زوامل جمع زاملة وهي: الناقة التي تحمل المتاع، أو الجمل الذي يحمل المتاع، والمراد إن هؤلاء هم أهل الحديث الذين يحملون السنة كما تحمل الإبل زوامل أمتعة المسافرين.

وقوله: (وَسَبَبْتُمُوهُمْ ثُمَّ لَسْتُمْ كُفَّاهُمْ) يعني: لستم مكافئين لهم بل أنتم أحقر منهم وأدنى وأذل ومع ذلك تسبونهم ولكن العقلاء منهم أعرضوا عن سبكم ولهذا قال: (فَرَأَوْا مَسَبَّتَكُمْ مِنَ النُّقُصَانِ)، أي: أنهم لم ينتزلوا وإن ينزلوا بأنفسهم حتى يسبوكم بل جانبوكم وتركوكم.

هَذَا وَهُمْ قَبِلُوا وَصِيَّةَ رَبِّهِمْ فِي تَرْكِهِمْ لِمَسَبَّةِ الْأَوْثَانِ

حَذَرَ الْمُقَابَلَةِ الْقَبِيحَةِ مِنْهُمْ بِمَسَبَّةِ الْقُرْآنِ وَالرَّحْمَنِ

يعني: تركوا سبكم، لأنهم لو سبوكم لسببتم القرآن والحديث كما أن الله سبحانه وتعالى نهى عن سب الآلهة التي تعبد من دونه خوفاً من أن يسب الله عز وجل فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، أما أنتم إذا سببتم الذين يدعون من دون الله فإنكم تسبونهم بحق ويعلم، لكن هم إذا سبوا الله فإنما يسبون الله عدواً بغير علم.

وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ فَإِنَّهُمْ ضَرَبَتْ لَهُمْ وَلَكُمْ بَدَأَ مَثَلَانِ

(بدا) أي: بالنهي عن سب آلهة المشركين لثلاث أسباب الله فكذلك أهل السنة وأهل الحديث تركوا مسبتكم لثلاث أسباب منهاجهم وتسبوا أدلتهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

سَبُّوكُمْ جَهْلًا لَهُمْ فَسَبَبْتُمْ سُنَنَ الرَّسُولِ وَعَسَاكَرَ الْإِيمَانِ

يعني: أن الجهال من أهل السنة صاروا يسبون أئمة أهل البدعة سباً قبيحاً أدى ذلك إلى أي



شيء؟ قال: فسببتم سنن الرسول وعسكر الإيوان أي: سببتم السنن وأصحاب السنن.

وَصَدَدْتُمْ سَفَهَاءَكُمْ عَنْهُمْ وَعَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ وَذَا مِنَ الطُّغْيَانِ

قوله: (صددتم سفهاءكم عنهم) أي: عن أهل الحديث وعن قول الرسول ﷺ وذا من الطغيان أي: بلا شك من الطغيان وتجاوز الحد.

وَدَعَوْتُمْوَهُمْ لِلَّذِي قَالَتْهُ أَشْءٌ يَأْخُ لَكُمْ بِالْحَرْصِ وَالْحُسْبَانِ

دعوتهم من؟ سفهاءكم وصددتموهم عن الحق ودعوتموهم للباطل لقول الشيوخ.

و يحتتمل أن قول المؤلف: (ودعوتموهم) أي: دعوتهم جهال أهل السنة إلى ما أنتم عليه.

فَأَبَوْا إِجَابَتَكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا إِلَّا إِلَى الْأَثَارِ وَالْقُرْآنِ

هذا هو الظاهر؛ لأن قوله: (فأبوا إجابتكم) لا يعني به سفهاءهم إذ أن سفهاءهم قد أجابوهم.

قَوْمٌ أَقَامَهُمُ الْإِلَهَ لِحِفْظِ هَذَا الدِّينِ مِنْ ذِي بَدْعَةٍ شَيْطَانِ

يعني: أهل الحديث - اللهم اجعلنا منهم - أقامهم الله حتى قاموا بحفظ هذا الدين من كل ذي بدعة شيطان.

وَأَقَامَهُمْ حَرَسًا مِنَ التَّبْدِيلِ وَالتَّحْرِيفِ وَالتَّحْمِيمِ وَالتَّقْصَانِ

قوله: (حرسًا من التبديل والتحريف والتحميم): هو تغيير المعنى، والتبديل: هو تغيير اللفظ، وإذا أفردت التحريف صار شاملاً لتحريف اللفظ وتحريف المعنى، كذلك أيضًا من التتميم والنقصان فإن التتميم: يعني الزيادة، والنقصان: يعني النقص والحذف، ومن

المعلوم أن القرآن لا يحتاج إلى تتميم لكن على قاعدة هؤلاء أن فيه مجازًا فإنه يحتاج إلى تتميم

فقول الله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢] يحتاج عندهم إلى أن يقال جاء أمر ربك فالكلام

لم يتم قول الرسول ﷺ: ﴿ يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ ﴾ هذا عندهم يحتاج إلى تتميم فيقال: ينزل أمر

ربنا، لكن أهل الحديث وقاهم الله الشرف فهم الذين أقامهم الله لحفظ هذا الدين ودفع شبه

الضالين سواء كان ذلك عن طريقة التتميم أو عن طريقة النقصان.

يَزُكُّ عَلَى الْإِسْلَامِ بَلْ حِصْنٌ لَهُ يَأْوِي إِلَيْهِ عَسَاكِرُ الْفُرْقَانِ

يقول ابن عيسى: زك يزك زكًا وزكًا وزكًا وزكًا مَرَّةً يقارب خطوه ضعيفًا، ومشى

زكيًا، وزكة بالكسر، السباح، وبالضم الغيظ والغم.

أما الهراس فيقول: اليزك الشهب التي يرمى بها الله شياطين الإنس حمايةً لدينه منهم كما يرمى بالشهب السماوية من يحاول استراق السمع من شياطين الجن.

ظن الشيخ محمد خليل الهراس أن اليزك يعني النيازك التي يُرمى بها، ولكن ليس هذا هو الظاهر؛ لأن النيازك اسم حادث لكن الظاهر أن اليزك هو السهام أو اليزك هو المشي الضعيف يعني: أنهم بالنسبة للإسلام لا يعدون عليه عدوًا أما على المعنى الأول أنهم يرك عليه بمعنى أنهم سهام للإسلام.

يَرْكُ عَلَى الْإِسْلَامِ بَلْ حِصْنٌ لَهُ يَاوِي إِلَيْهِ عَسَاكِرُ الْفُرْقَانِ

فَهُمُ الْمَحْكُ فَمَنْ يُرَى مُتَنَقِّصًا لَهُمْ فَرَنْدِيقٌ خَيْثُ جَنَانِ

من هؤلاء؟ هم أهل الحديث هم المحك والمحك يعني به الذين يختبر بهم الإنسان من أحبهم فهو من أهل السنة ومن أبغضهم أو تنقصهم فهو من أهل البدعة؛ ولهذا يقال مثلًا إذا رأيت الإنسان يحب الإمام أحمد فهو سُنيٌّ وإذا رأيت يبيغضه فهو بدعيٌّ.

وهذه حقيقة لا يبيغض أولياء الله إلا أعداء الله لا شك في هذا، فأولياء الله وأعداء الله الحرب بينهم عوان دائمًا وأبدًا قال الله تعالى في الحديث القدسي «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ»^(١) فأهل الحديث هم المحك من تنقصهم فهو (زنديق خبيث جنان): أي: خبيث قلب.

إِنْ تَتَّهَمُهُ فَقَبْلَكَ السَّلْفُ الْأَلَى كَانُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ

قوله: (إن تتهمه) يعني: تتهم البدعي في زمنك فإن من قبلك من اتهم جنسه، ولهذا قال: مثل اتهام ابن عمر رضي الله عنهما للقدرية واتهام التابعين الذين أدركوا جهم بن صفوان بجهم، فالهمم أن الرجل إذا اتهم الرجل بكراهة أهل السنة؛ لأنه بدعي فإن هذا حق؛ لأن السلف الصالح اتهموا من كان على شاكلته اتهموه بذلك قال:

وَهُوَ الْحَقِيقُ بِذَلِكَ إِذْ عَادَى رُؤَا ةَ الدِّينِ وَهِيَ عَدَاوَةُ الدِّيَانِ

قوله: (الحقيق بذاك): بأي شيء؟ بالخبث حقيق بأن يكون خبيثًا؛ لأنه عادى رواة الدين

ومعاداة رواة دين الله معاداة الله عز وجل.

فَإِذَا ذَكَرْتَ النَّاصِحِينَ لِرَبِّهِمْ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ بِلِسَانِ
فَاغْسِلْهُ وَبِلَيْكَ مِنْ دَمِ التَّعْطِيلِ وَالْثَمِّ تَكْذِيبِ وَالْكَفْرَانِ وَالْبُهْتَانِ

يعني: إذا ذكرت الناصحين لله وكتابه ورسوله بلسانك فاغسل لسانك من دم التعطيل والتكذيب، أي سر على منواهم لتغسل لسانك من هذه الأوصاف القبيحة وهي التعطيل والتكذيب والكفران والبهتان.

مسألة: كيف أننا مأمورون بعدم سب أهل الابتداع وابن القيم يسبهم كثيرًا جدًا؟
الجواب: مراده بالسب عدم المواجهة وهو الذي تحصل فيه الفتنة أما السب غير المواجه من أجل التحذير منهم فلا بأس به؛ ولهذا لما استأذن رجل على النبي عليه الصلاة والسلام فسأله النبي ﷺ مَنْ؟ فقال: فلان، قال: «بئس أخو العشيرة» فسبه ولما دخل أعطاه سباحة في الوجه^(١) ففرق بين المقابلة وبين المدابرة، والمعني: أنك تسب الرجل تحذيرًا من طريقته لكن أمامه إذا سببته ربما تثير حفيظته فيسب ما أنت عليه من الدين.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٢٤٤٦- أَتَسُبُّهُمْ عَدَوًا وَلَسْتَ بِكُفَيْهِمْ

فَاللهُ يَفْئِدِي حَزْبَهُ بِالْجَانِي

٢٤٤٧- قَوْمٌ هُمْ بِاللّهِ ثُمَّ رَسُولِهِ

أَوْلَى وَأَقْرَبُ مِنْكَ لِلْإِيمَانِ

٢٤٤٨- شَتَّانَ بَيْنَ الثَّارِكِينَ نُضُوصُهُ

حَقًّا لِأَجْلِ زَبَالَةِ الْأَذْهَانِ

٢٤٤٩- وَالثَّارِكِينَ لِأَجْلِهَا آرَاءَ مَنْ

آرَأُوهُمْ ضَرَبَ مِنَ الْبُهْتَانِ

(١) رواه البخاري (٦٠٣٢) ومسلم (٢٥٩١).

٢٤٥٠- لَمَّا فَسَا الشَّيْطَانُ فِي آذَانِهِمْ

ثَقُلْتُ رُءُوسَهُمْ عَنِ الْقُرْآنِ

٢٤٥١- فَلَذَاكَ نَامُوا عَنْهُ حَتَّى أَصْبَحُوا

يَتَلَاغِبُونَ تَلَاغِبَ الصَّبِيَانِ

٢٤٥٢- وَالرَّكْبُ قَدْ وَصَلَ الْعُلَى وَتَيَمَّمُوا

مِنْ أَرْضٍ طَيِّبَةٍ مَطْلَعِ الْإِيمَانِ

٢٤٥٣- وَأَتَوْا إِلَى رَوْضَاتِهَا وَتَيَمَّمُوا

مِنْ أَرْضٍ مَكَّةَ مَطْلَعِ الْقُرْآنِ^(١)

٢٤٥٤- قَوْمٌ إِذَا مَا نَاجِدًا نَصَّ بَدَا

طَارُوا لَهُ بِالْجَمْعِ وَالْوَحْدَانِ

٢٤٥٥- وَإِذَا بَدَا عِلْمُ الْهُدَى اسْتَبَقُوا لَهُ

كَتَسَابِقِ الْفَرَسَانِ يَوْمَ رِهَانِ

٢٤٥٦- وَإِذَا هُمْ سَمِعُوا بِمُبْتَدِعِ هَذَى

صَاحُوا بِهِ طُرًّا بِكُلِّ مَكَانِ

٢٤٥٧- وَرِثُوا رَسُولَ اللَّهِ لِكِنْ غَيْرُهُمْ

قَدْ رَاحَ بِالتَّقْصَانِ وَالْحِرْمَانِ

٢٤٥٨- وَإِذَا اسْتَهَانَ سِوَاهُمْ بِالنِّصِّ لَمْ

يَرْفَعَ بِهِ رَأْسًا مِنَ الْخُسْرَانِ

(١) [٢٤٥٣: ٢٤٥٠] قال العلامة محمد خليل هراس:

وكيف يستوي من هو بليد غافل قد بال الشيطان في أذنه فأثقل رأسه وأطال نومه حتى أصبح، وقد استحوز عليه يقوده من خطامه، ويلعب به لعب الصبيان بالكرة كيف يلحق هذا المتخلف المفتون بركب الله على الطائر الميمون وهم قد حلقوا في سماء الرفعة قاصدين مطلع الإيوان من أرض طيبة ليستمتعوا برياضها الأنف وأزهارها الناضرة، وقاصدين كذلك مهابط القرآن من أرض مكة.

٢٤٥٩- عَضُوا عَلَيْهِ بِالنَّوْاجِدِ رَغْبَةً

فِيهِ وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ بِمَهَانِ

٢٤٦٠- لَيْسُوا كَمَنْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَقِيقَةً

وَتِلَاوَةَ قَصْدًا بِتَرْكِ فُلَانِ

٢٤٦١- عَزَلُوهُ فِي الْمَعْنَى وَوَلَّوْا غَيْرَهُ

كَأَبِي الرَّبِيعِ خَلِيفَةَ السُّلْطَانِ

٢٤٦٢- ذَكَرُوهُ فَوْقَ مَنَابِرٍ وَبِسِكَّةٍ

رَقَمُوا اسْمَهُ فِي ظَاهِرِ الْأَثْمَانِ

٢٤٦٣- وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الْمُطَاعُ لِغَيْرِهِ

وَلِمُهْتَدٍ ضُرِبَتْ بِذَا مَثَلَانِ

٢٤٦٤- يَا لِلْعُقُولِ أَيْسْتَوِي مَنْ قَالَ بِأَلِ

قُرْآنٍ وَالْآثَارِ وَالْبُرْهَانِ

٢٤٦٥- وَمُخَالِفِ هَذَا وَفِطْرَةَ رَبِّهِ

اللَّهُ أَكْبَرُ كَيْفَ يَسْتَوِيَانِ^(١)

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

في هذه الأبيات يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

أَتَسُبُّهُمْ عَدْوًا وَلَسْتَ بِكُفْتِهِمْ فَاللهُ يَفْصِدِي حَزْبَهُ بِالْجَانِي

تسب أهل الحديث عدوًا: يعني اعتداءً وطغيانًا عليهم، ولست بكفتهم؛ لأنهم خير

(١) [٢٤٦٤، ٢٤٦٥] قال العلامة محمد خليل هراس:

فيا عجبًا لعقول هؤلاء، كيف ضلَّتْ حتى استوى عندها من دان بالكتاب والسنة وبرهان العقل والفترة، ومن خالف ذلك جملة، الله أكبر كيف استوى عندهم الأعمى والبصير، أم كيف است الظلمات والنور؟ إن هذا هو الضلال الكبير.



منك، (فالله يفدي حزبه بالجاني): يعني: سأل الله أن يجعل الجاني فداءً لحزب الله، وهذا لا بأس به، وفداء الجاني لحزب الله إما أن يكون فداءً حسيًّا بأن يهلكه الله على يده أو فداءً معنويًّا بأن يظهر أهل الحديث على هؤلاء الجناة.

قَوْمٌ هُمْ بِاللَّهِ ثُمَّ رَسُولِهِ أَوْلَى وَأَقْرَبُ مِنْكَ لِلْإِيمَانِ

قوم: يعني أهل الحديث.

(هُم بِاللَّهِ ثُمَّ رَسُولِهِ أَوْلَى وَأَقْرَبُ مِنْكَ لِلْإِيمَانِ) يعني: هم أولى بالله ورسوله منك وأقرب للإيمان منك.

شَتَانٌ بَيْنَ التَّارِكِينَ نُصُوصُهُ حَقًّا لِأَجْلِ زَبَالَةِ الْأَذْهَانِ

أو زبالة الأذهان أي: بعد ما بين هؤلاء وهؤلاء، التاركين نصوصه لأجل زبالة الأذهان.

والتَّارِكِينَ لِأَجْلِهَا آرَاءَ مَنْ آرَأْتَهُمْ ضَرَبَ مِنَ الْهَذْيَانِ

فستان بين هؤلاء التاركين لنصوصه وبين الآخذين بنصوصه، وهم أهل الحديث أي: بين الذين تركوا لأجلها آراء من آرائهم ضرب من الهذيان ومن الذين أخذوا بهذه الآراء.

لَمَّا فَسَا الشَّيْطَانُ فِي آذَانِهِمْ تَقَلَّتْ رُؤُوسُهُمْ عَنِ الْقُرْآنِ فَلِذَلِكَ نَامُوا عَنْهُ حَتَّى أَصْبَحُوا يَتَلَاعَبُونَ تَلَاعُبَ الصَّيَّانِ

هذان البيتان مأخوذان من قول النبي ﷺ حين قيل له: إن فلانًا نام عن صلاة الصبح قال: «ذَلِكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ»، بال الشيطان في أذنه فانسدت ببول الشيطان عن سماع الأذان، وهؤلاء أيضًا تल्प بهم ابن القيم وجعل بدل البول فسوا.

وَالرَّكْبُ قَدْ وَصَلُوا الْعُلَى وَتَيَمَّمُوا مِنْ أَرْضِ طَبِيبَةٍ مَطَّلَعَ الْإِيمَانَ

وَأَتَوْا إِلَى رَوْضَاتِهَا وَتَيَمَّمُوا مِنْ أَرْضِ مَكَّةَ مَطَّلَعَ الْقُرْآنِ

وفرق بين هؤلاء وهؤلاء، فهؤلاء قصدوا المدينة لأجل الإيمان ومكة لأجل القرآن، واختلف التعبيران في كلام المؤلف؛ لأن مكة بها نزل القرآن وأكثر ما نزل من السور في مكة، والمدينة هي مقر الإيمان كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩] يعني: الأنصار الذين في المدينة فجعل المؤلف المدينة مطلع الإيمان ومكة مطلع القرآن؛ لأنه ابتدأ نزوله

فيها.

قَوْمٌ إِذَا مَا نَاجِذَا نَصٌّ بَدَا طَارُوا لَهُ بِالْجَمْعِ وَالْوَحْدَانِ

إذا بدا ناجذ النص طاروا له جمعاً ومتفردين.

وَإِذَا بَدَا عَلَمٌ الْهُدَى اسْتَبَقُوا لَهُ كَتَسَابِقِ الْفَرَسَانِ يَوْمَ رِهَانِ

هؤلاء هم الذين لهم الفخر في الحقيقة.

وَإِذَا هُمْ سَمِعُوا بِمُبْتَدِعِ هَدَى صَاحُوا بِهِ طُرًّا بِكُلِّ مَكَانِ

صاحوا به: يبينون بدعته ويحذرون منها.

وَرِثُوا رَسُولَ اللَّهِ لَكِنْ غَيْرُهُمْ قَد رَاحَ بِالنَّقْصَانِ وَالْحَرْمَانِ

يعني بهم أهل الحديث، (لكن غيرهم قد راح بالنقصان والحرمان) وهم أهل التعطيل.

وَإِذَا اسْتَهَانَ سِوَاهُمْ بِالنِّصِّ لَمْ يَرْفَعْ بِهِ رَأْسًا مِنَ الْخُسْرَانِ

عَضُّوا عَلَيْهِ بِالنَّوْاجِذِ رَغْبَةً فِيهِ وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ بِمُهَانَ

هذا وإن أهل الحديث إذا استهان سواهم بالنص ولم يرفع به رأساً تلقوه بالقبول وعضوا عليه بالنواجذ، وقالوا نحن بحمد الله أهله، وهذا يدل على أنهم ليسوا إمعة يتبعون الناس على كل شيء، ولكن يأخذون بالحق أينما كان.

لَيْسُوا كَمَنْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَقِيقَةً وَتَلَاوَةً قَصْدًا يَتْرِكُ فُلَانِ

يعني: ليس أهل الحديث كمن نبذ الكتاب حقيقة وتلاوة «حقيقة» يعني: لم يأخذوا بمعانيه وما دل عليه، و«تلاوة» يعني: اشتغلوا بغيره حتى عن تلاوة القرآن، بماذا؟ بكتب هؤلاء المتبوعين والأشياخ وتركوا القرآن حقيقة وتلاوة.

عَزَلُوهُ فِي الْمَعْنَى وَوَلَّوْا غَيْرَهُ كَأَبِي الرَّبِيعِ خَلِيفَةَ السُّلْطَانِ

عزلوه في المعنى لكن نصبوه إماماً في اللفظ وولَّوا غيره القيادة، هؤلاء مثلاً قالوا: القرآن أشرف الأشياء وكلام الله إن كانوا يقولون بأنه كلام الله لكنهم لا يتبعونه فهذا عزل له في المعنى (كأبي الربيع خليفة السلطان) أبو الربيع يبدو أنه خليفة لسلطان سابق تولى الخلافة، لكنه تولى الخلافة اسماً والتدبير لغيره فهذا لو سمي خليفة وسلطاناً هل هو سلطان؟ لا لكن له شيء خاص به.

ذَكَرُوهُ فَوْقَ مَنَابِرٍ وَبِسِكَّةٍ رَقَمُوا اسْمَهُ فِي ظَاهِرِ الْأَثْمَانِ

قوله: (ذَكَرُوهُ فَوْقَ مَنَابِرٍ)، فقالوا: اللهم أيد سلطاننا فلان ابن فلان اللهم أيد خليفتنا فلان ابن فلان وهو في الحقيقة ليس بسultan ولا خليفة لهم والأمر لغيره.

وقوله: (وَبِسِكَّةٍ رَقَمُوا اسْمَهُ فِي ظَاهِرِ الْأَثْمَانِ)، كان الخلفاء فيما سبق وإلى الآن يكتبون أسماءهم على الدنانير والدراهم تعظيماً لهم، فأبو الربيع هذا كتب اسمه على الدنانير والدراهم ويُدعى له فوق المنابر ولكن لا سلطة له، والسلطة لغيره.

المهم: أن ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ضَرَبَ مَثَلًا لِلْقُرْآنِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ بِخَلِيفَةٍ لَيْسَ لَهُ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ إِنَّمَا يُذَكِّرُ اسْمَهُ فَوْقَ الْمَنَابِرِ وَيُدْعَى لَهُ وَيَكْتُبُ اسْمَهُ عَلَى النُّقُودِ الذَّهَبِيَّةِ وَالْفِضْيَةِ.

وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الْمُطَاعُ لِغَيْرِهِ وَلِمَهْتَدٍ ضَرَبَتْ بَدَأًا مَثَلَانِ

قوله: (الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ الْمُطَاعُ لِغَيْرِهِ) أي: لغير هذا الحاكم، (ولمهدت ضربت بدأ مثلان): يعني: مثلنا ومثلكم بالنسبة للقرآن كمثل حاكم خليفة ليس له أمر ولا نهي عند أهل التعطيل، لكن عند أهل الحديث الأمر والنهي كله للقرآن والسنة.

يَا لِلْعُقُولِ أَيْسَتَوِي مَنْ قَالَ بِأَلِ الْقُرْآنِ وَالْآثَارِ وَالْبُرْهَانِ

الجواب لا يستويان؛ يعني: لا يستويان وصدق رَحِمَهُ اللهُ.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٢٤٦٦- بَلْ فِطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرُوا عَلَيَّ

مَضْمُونِهَا وَالْعَقْلُ مَقْبُولَانِ

٢٤٦٧- وَالْوَحْيُ جَاءَ مُصَدِّقًا لِهَمَّا فَلَا

تَلِقَ الْعَدَاوَةَ مَا هُمَا حَرْبَانِ

٢٤٦٨- سِلْمَانِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ وَمُصَدِّقٍ

وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمَا سِلْمَانِ

٢٤٦٩- فَإِذَا تَعَارَضَ نَصٌّ لَفْظٍ وَارِدٍ

وَالْعَقْلُ حَتَّى لَيْسَ يَلْتَقِيَانِ

٢٤٧٠- فَالْعَقْلُ إِمَّا فَايِسٌ وَيَظُنُّهُ الرَّأ

ئِي صَحِيحًا وَهُوَ ذُو بَطْلَانٍ

٢٤٧١- أَوْ أَنَّ ذَاكَ النَّصَّ لَيْسَ بِثَابِتٍ

مَا قَالَهُ الْمَعْصُومُ بِالْبَرْهَانِ

٢٤٧٢- وَنُصُوصُهُ لَيْسَتْ تُعَارِضُ بَعْضَهَا

بَعْضًا فَسَلِّ عَنْهَا عَلِيمَ زَمَانٍ

٢٤٧٣- وَإِذَا ظَنَنْتَ تُعَارِضًا فِيهَا فَدَا

مِنْ آفَةِ الْأَفْهَامِ وَالْأَذْهَانِ

٢٤٧٤- أَوْ أَنَّ يَكُونُ الْبَعْضُ لَيْسَ بِثَابِتٍ

مَا قَالَهُ الْمَبْعُوثُ بِالْقُرْآنِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: إن الفطرة التي فُطِرَ الناس عليها والعقل لا يمكن أن يتعارضوا.

بَلْ فِطْرَةُ اللهِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَى مَضْمُونِهَا وَالْعَقْلُ مَقْبُولَانِ

وَالْوَحْيُ جَاءَ مُصَدِّقًا لَهُمَا فَلَا تُلْقِ الْعِدَاوَةَ مَا هُمَا حَرْبَانِ

يعني: عندنا ثلاثة أشياء الفطرة والعقل الصريح والنقل الصحيح، هذه الثلاثة أشياء لا يمكن أن تتعارض إلا لآفة؛ فالفطرة ربما تعارض العقل الصريح؛ لأنها فسدت كما قال النبي عليه الصلاة والسلام «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسِنَانِهِ»^(١) فالفطرة السليمة لا يمكن أن تعارض العقل، بقي سؤال وهو هل العقل يعارض النقل؟ لا، لا يمكن أبدًا أن يعارض العقل الصريح - يعني السليم من الشبهات والشهوات - النقل الصحيح ولشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب سماه «درء تعارض العقل والنقل» واشتهر بين العلماء باسم العقل والنقل، وابن القيم مر علينا الشاء منه على هذا

(١) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

الكتاب حتى قال فيه:

وَاقْرَأْ كِتَابَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ الَّذِي مَا فِي الْوُجُودِ لَهُ نَظِيرٌ ثَانٍ

إذا لا يمكن أن يتعارض العقل والنقل، ولكن كيف نعمل إذا تعارضا؟ يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

وَالْوَحْيِ جَاءَ مُصَدِّقًا لَهُمَا فَلَا تُلْقِ الْعَدَاوَةَ مَا هُمَا حَرْبَانِ

سَلْمَانَ عِنْدَ مُوَفَّقٍ وَمُصَدِّقٍ وَاللَّهِ يَشْهَدُ إِنَّهُمَا سَلْمَانِ

أي: هما سلمان عند الموفق المصدق، أما المنكر فهو يدعى أن العقل يعارض النقل والذي لن يوفق للجمع بينهما يظن أيضًا تعارض العقل والنقل.

فَإِذَا تَعَارَضَ نَصٌّ لَفْظٍ وَارِدٍ وَالْعَقْلُ حَتَّى لَيْسَ يَلْتَقِيَانِ

يعني: تعارض النص والعقل.

فَالْعَقْلُ إِمَّا فَايِسٌ وَيَظُنُّهُ الرَّأْيِي صَحِيحًا وَهُوَ ذُو بَطْلَانِ

أَوْ أَنَّ ذَلِكَ النَّصَّ لَيْسَ بِثَابِتٍ مَا قَالَهُ الْمَعْصُومُ بِالْبَرْهَانِ

يعني: يقول إذا تعارض عقل ونقل في نظر الرائي فلا يخلو من حالين: إما أن العقل فاسد أفسدته الشبهة أو الشهوة، ولست أريد بالشهوة هنا شهوة الجنس والجماع، بل الشهوة: سوء القصد أو أن النص ليس بثابتٍ عن المعصوم، فأما أن يكون النص ثابتًا والعقل صحيحًا فإن التعارض لا يمكن أبدًا، إذن إذا وجدت من نفسك أن النص معارض لعقلك فاتهم عقلك أو النص، والنص ليس يعني إتهامه بأنه صادق أو كاذب، لكن فاتهم هل هو ثابت أو غير ثابت؟، فإذا ثبت عن المعصوم فإنه لن يعارض العقل أبدًا ثم انتقل المؤلف رَحِمَهُ اللهُ إلى تعارض النصوص بعضها مع بعض فقال:

وَأُصُوصُهُ لَيْسَتْ تُعَارِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَسَلَّ عَنْهَا عَلِيمٌ زَمَانِ

أي: النصوص أيضًا لا يمكن أن تتعارض أبدًا، ولا حظوا أن المراد بالتعارض هنا ليس التعارض بين النصوص في العموم والخصوص فإن هذا وارد، لكن التعارض أن تتقابل من كل وجه بحيث لا يمكن أن يجتمع بعضها مع بعض، فالتعارض هو التقابل من كل وجه وهذا لا يمكن أن يوجد في النصوص أبدًا.

فإن قال قائل: أليس قد ثبت النسخ فعارض الناسخ المنسوخ؟

الجواب: بلى لكن إذا ثبت النسخ فلا تعارض؛ لأن المنسوخ غير قائم فالمنسوخ نُسخ

وذهب فهو غير قائم لكن كلامنا على النصوص التي ليست بمنسوخة لا يمكن أن تتعارض أبداً.

وَنُصُوذُهُ لَيْسَتْ تُعَارِضُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَسَلَّ عَنْهَا عَلِيمَ زَمَانِ
وَإِذَا ظَنَنْتَ تَعَارُضًا فِيهَا فَذَا مِنْ آفَةِ الْأَفْهَامِ وَالْأَذْهَانِ
أَوْ أَنْ يَكُونَ الْبَعْضُ لَيْسَ بِثَابِتٍ مَا قَالَهُ الْمَبْعُوثُ بِالْقُرْآنِ

أي: إذا رأيت تعارضاً بين نصين سواء كان ذلك من نصوص القرآن أو من السنة فاعلم أن ذلك من قصور فهمك وذهنك وإلا فلا يمكن أن تتعارض، أو أن النص ليس بثابت وهذا لا يكون إلا في تعارض السنة بعضها مع بعض التي تنسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

مسألة: الإنسان الذي يجامع زوجته يشرع أن يقول: «اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا» فإذا كان الحمل من هذا الجماع فإن الله يجنب الشيطان هذا الولد فلو تم الحمل فهل يشرع ذلك؟ وهل لجماع الرجل المرأة في أثناء حملها تأثير، وهل هذا الدعاء لم يخص فترة معينة من الجماع؟

الجواب: إذا كان قد تم الحمل ونشأ فإن لجماع الرجل المرأة تأثير وهو أن يزيد في قوة سمع الحمل وبصره، وقد استدلل الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ذلك بما ورد عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَسْتَقِ مَاءَهُ زَرْعَ غَيْرِهِ»، ونحن مأمورون بهذا قبل نشأ الحمل وبعده، فنحن نتعبد لله بالشرع أما القدر فأمره إلى الله عز وجل، والله أعلى وأعلم.



* قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

٢٤٧٥- لَكِنَّ قَوْلَ مُحَمَّدٍ وَالْجَهْمِ فِي

قَلْبِ الْمُوَحِّدِ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

٢٤٧٦- إِلَّا وَيَطْرُدُ كُلُّ قَوْلٍ ضِدَّهُ

فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا فَمُقْتَلَانِ

٢٤٧٧- وَالنَّاسُ بَعْدَ عَلَى ثَلَاثِ حِزْبُهُ

أَوْ حَرْبُهُ أَوْ فَارِغٌ مَتَّوَانِ

٢٤٧٨- فَاخْتَرِ لِنَفْسِكَ أَيْنَ تَجْعَلُهَا فَلَا

وَاللَّهُ لَسَتْ بِرَابِعِ الْأَعْيَانِ

٢٤٧٩- مَنْ قَالَ بِالتَّعْطِيلِ فَهُوَ مَكْذِبٌ

لِجَمِيعِ رُسُلِ اللَّهِ وَالْفَرْقَانِ

٢٤٨٠- إِنَّ الْمُعْطَّلَ لَا إِلَهَ لَهُ سِوَى الْ

مَنْحُوتِ بِالْأَفْكَارِ فِي الْأَذْهَانِ

٢٤٨١- وَكَذًا إِلَهَ الْمُشْرِكِينَ نَحِيَّةُ الْ

أَيْدِي هُمَا فِي نَحْتِهِمْ سَيِّانِ

٢٤٨٢- لَكِنَّ إِلَهَ الْمُرْسَلِينَ هُوَ الَّذِي

فَوْقَ السَّمَاءِ مُكُونُ الْأَكْوَانِ^(١)

٢٤٨٣- وَاللَّهُ قَدْ نَسَبَ الْمُعْطَّلُ كُلَّ مَنْ

بِالْبَيِّنَاتِ أَتَى إِلَى الْكِتْمَانِ

٢٤٨٤- وَاللَّهُ مَا فِي الْمُرْسَلِينَ مُعْطَّلٌ

نَافٍ صِفَاتِ الْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

٢٤٨٥- كَلًّا وَلَا فِي الْمُرْسَلِينَ مُشَبَّهٌ

حَاشَاهُمْ مِنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ

٢٤٨٦- فَخُذِ الْهُدَى مِنْ عَبْدِهِ وَكِتَابِهِ

فَهُمَا إِلَى سُبُلِ الْهُدَى سَيِّانِ

(١) [٢٤٨٢] قال العلامة محمد خليل هراس:

وأما إله الرسل الذين جاءوا للتبليغ عنه والدعوة إلى توحيده، فهو الذي فوق السماء مستويًا على عرشه، وهو الموجد لجميع الكائنات.

الشَّحْ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لما ذكر أن العقل والفطرة والشرع لا يتناقضان أبداً ولا يتعارضان
ذكر أن الذي يتعارض هو عقل جهم وأتباعه يتعارض مع قول الرسول ﷺ ولهذا قال:

لَكِنَّ قَوْلَ مُحَمَّدٍ وَالْجَهْمِ فِي قَلْبِ الْمُؤَحِّدِ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

قوله: (قول محمد): يعني رسول الله ﷺ.

إِلَّا وَيَطْرُدُ كُلُّ قَوْلٍ ضِدَّهُ فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا فَمُقْتَلَانِ

وَالنَّاسُ بَعْدَ عَلَى ثَلَاثِ حِزْبِهِ أَوْ حَرْبُهُ أَوْ فَارِغٌ مُتَوَانٍ

يعني: بعد هذا التقسيم على ثلاثة طوائف حزب و حرب و فارغ متوان، فحزب الله هم
أتباع رسله و حرب الله هم أعداء رسله و الثالث فارغ لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء؛ لأنه لا
ينظر إلى الحياة بجد وإنما ينظر إلى الحياة وكأنه بهيمة يقول:

(فَاخْتَرْتُ نَفْسِيكَ أَيْنَ تَجْعَلُهَا)

أي: أين تجعلها من الحزب أو من الحرب أو من الفارغ المتوان.

(فَلَا وَاللَّهِ لَسْتَ بِرَابِعِ الْأَعْيَانِ)

ما هناك قسم رابع فالناس ثلاثة طوائف.

مَنْ قَالَ بِالتَّعْطِيلِ فَهُوَ مَكْذِبٌ لِجَمِيعِ رُسُلِ اللَّهِ وَالتَّفْرِيقَانِ

أي: الذي يقول بالتعطيل مكذب لجميع الرسل؛ لأن جميع الرسل يثبتون لله تعالى ما
أثبتته لنفسه من صفات الكمال وكذلك أتباعهم لا تجرد في كلام الرسل نفيًا لأي صفة كمال
من صفات الله.

إِنَّ الْمُعْطَلَ لَا إِلَهَ لَهُ سِوَى الْـ مَنُحَوِّتِ بِالْأَفْكَارِ فِي الْأَذْهَانِ

يعني: أراد رَحِمَهُ اللهُ أن يجعل المعطلة كالمشركين، فالمشركين نحتوا أصنامًا يعبدونها من دون
الله والمعطل نحت شيئًا يعبده من دون الله؛ لأن حقيقة قول المعطل أنه لا إله لا سيما الذين
يعطلون الأسماء والصفات الذين يقولون: لا تقل إن الله موجود ولا تقل إن الله غير
موجود؛ لأنك إن قلت إن الله موجود شبهته بالموجودات وإن قلت إن الله غير موجود
شبهته بالمعدومات، نقول لهم سبحانه الله أنتم إذا قلتم لا موجود ولا معدوم شبهتموه



بالممتنعات المستحيلات؛ لأنه لا يمكن أن يكون شيء لا موجودًا ولا معدومًا أبدًا لا يمكن، فهم نحتوا لها وقالوا هذا الإله، نحتوه بالأفكار والأذهان الفاسدة الباطلة والمشركون نحتوا الأصنام أيضًا.

وَكَذًا إِلَهُ الْمُشْرِكِينَ فَنَحْتُهُ أَلْ
أَيْدِي هُمَا فِي نَحْتِهِمْ سِيَانِ

هؤلاء إلههم نحيتة الأفكار وهؤلاء إلههم نحيتة الأيدي.

لَكِنَّ إِلَهُ الْمُرْسَلِينَ هُوَ الَّذِي
فَوْقَ السَّمَاءِ مُكُونُ الْأَكْوَانِ

سبحانه وتعالى هذا إله المرسلين.

وَاللَّهُ قَدْ نَسَبَ الْمَعْطَلُ كُلَّ مَنْ
بِالْبَيِّنَاتِ أَتَى إِلَى الْكِتْمَانِ

أي: المعطل يقول الحق عندي، نقول له: إذا كان الحق عندك فهل أتت به الرسل الذين جاءوا بالبينات؟ يقول لا إذن كتموا الحق وأتوا بالباطل فكل إنسان يعطل صفات الله فقد اتهم الرسل كلهم بالكتمان.

وَاللَّهُ مَا فِي الْمُرْسَلِينَ مُعْطَلٌ
نَافٍ صِفَاتِ الْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

كَأَلَّا وَلَا فِي الْمُرْسَلِينَ مُشَبَّهٌ
حَاشَاهُمْ مِنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانِ

و كذلك والله الحمد أتباع المرسلين ليس فيهم معطل وليس فيهم مشبه بل يقولون آمنا بالله كما أراد الله عز وجل، ولهذا قال الرازي وهو من زعماء المعطلة قال: أقرأ في الإثبات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] وأقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] يعني فأثبت ما أثبتته الله وأنفى ما نفاه الله ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، وهذا كلام حق، وإن كل كلام أهل الكلام والفلسفة كله هراء فلم يستفيدوا من بحثهم طول أعمارهم إلا قيل وقال:

فَخُذِ الْهُدَى مِنْ عِبْدِهِ وَكِتَابِهِ
فَهُمَا إِلَى سُبُلِ الْهُدَى سَبَبَانِ

قوله: (خذ الهدى): يعني العلم والحق.

وقوله: (من عبده): وهو محمد صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: (وكتابه): القرآن العظيم فهما إلى سبل الهدى سببان.





مَهْد بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في بطلان قول المُلجدين
القائلين: إن الاستدلال بكلام الله
وكلام رسوله لا يفيده العلم واليقين

وهذا من جنس ما قبله، فهؤلاء الملحدون زعموا أن أدلة الكتاب والسنة ظنية، وعللوا هذا بأنها ألفاظ تحتمل عدة معان لا اشتراكها وإجمالها ولما فيها من الحذف والإضمار والمجاز ونحوه، وهذا يوجب التوقف في مدلولها. والسنة عندهم أغلبها آحاد كذبوا منه وحرّفوا ما لم يتمكنوا من ردّه. وقد تقدم إبطال هذا الأصل الخبيث.

أما أهل السنة والجماعة وجميع أئمة الهدى ومصابيح الدجى فهم يقولون صدق الله العظيم وصدق رسوله النبي الكريم ومن أصدق من الله قيلاً وحديثاً.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

الوحيان قد اشتملا على أجمل المسائل وأوضح البراهين، عبارات وألفاظ واضحة متصادقة، يصرف الله المعنى الجليل من أصول الدين في أساليب متنوعة وألفاظ متغايرة وكلها في غاية الوضوح والبيان والتبيين. ويؤيد المعاني النافعة بضرب الأمثال وتنبية العقول والألباب على صحتها وعلى الطرق الموصلة إليها، فهي أدلة نقلية عقلية فطرية، وكل ما قرره أساطين العقلاء وأذكىاء الحكماء من الحقائق الصحيحة فهو جزء مما دل عليه القرآن، وأدلة الوحيين تثبت الإيمان في القلوب حتى يكون أرسخ وأقوى من الجبال الرواسي، لوضوحها وقوتها وجلاء براهينها وشهادة العقول بصحتها. لا تحصى الأدلة

والبراهين التي يبديها الله ورسوله للأصول الكبار، وكلما كان الأصل أعظم كانت براهينه أكثر وأعظم وأوضح، قد نوعها الله من جميع الوجوه وصرفها.

والنبي ﷺ أعطي جوامع الكلم وأيده الله بقوة البيان وبلاغة التعبير، وقد اجتمع فيه ثلاثة أمور لم يصل ولن يصل إليها أحد من الأولين والآخرين: النصح الكامل، والعلم الواسع القوي التام، والبلاغة التامة. فمن اجتمعت فيه هذه الأمور الثلاثة هل تظن أن في كلامه نقصاً أو في تعبيره قصوراً أو يمكن أحداً أن يستدرك على كلامه أو يحمله على خلاف ما يبين ويتضح منه؟ أم تقول والحق تقول إن كلامه هو الغاية التي لا غاية فوقها في البيان والإرشاد والهدى والهداية إلى كل علم نافع ويقين، وكلامه هو الدليل والمدلول، فياويح من زعم أن اليقين لا يستفاد من كلام الله ولا من كلام الرسول:

﴿فَأَيَّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيُّنَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].



فصل

في إبطال قول الملحدين إن الاستدلال
بكلام الله ورسوله لا يفيد العلم واليقين

٢٤٨٧- وَاحْذَرِ مَقَالَاتِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا

شَيْعًا وَكَانُوا شَيْعَةَ الشَّيْطَانِ

٢٤٨٨- وَأَسْأَلُ خَيْرًا عَنْهُمْ يُنَبِّئُكَ عَنْ

أَسْرَارِهِمْ بِبَصِيحَةٍ وَبَيِّنَاتٍ

٢٤٨٩- قَالُوا الْهُدَى لَا يُسْتَفَادُ بِسُنَّةِ

كَلًّا وَلَا أَثَرٍ وَلَا قُرْآنٍ

٢٤٩٠- إِذْ كُلُّ ذَاكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ

لَمْ تُبَدِّعْ عَنِ عِلْمٍ وَلَا إِيقَانٍ

٢٤٩١- فِيهَا اشْتِرَاكَ ثُمَّ إِجْمَالٌ يُرَى

وَتَجَاوُزٌ بِالزَّيْدِ وَالنَّقْصَانِ

٢٤٩٢- وَكَذَلِكَ الْإِضْمَارُ وَالتَّخْصِيصُ وَالـ

حَذْفُ الَّذِي لَمْ يُبَدِّعْ عَنِ تَبْيَانِ

٢٤٩٣- وَالتَّقْلُّ أَحَادٌ فَمَوْقُوفٌ عَلَى

صِدْقِ الرُّوَاةِ وَلَيْسَ ذَا بُرْهَانِ

٢٤٩٤- إِذْ بَعْضُهُمْ فِي الْبَعْضِ يَقْدَحُ دَائِمًا

وَالْقَدْحُ فِيهِمْ فَهُوَ ذُو إِمْكَانِ

٢٤٩٥- وَتَوَاتُرٌ وَهُوَ الْقَلِيلُ وَنَادِرٌ

جِدًّا فَأَيْنَ الْقَطْعُ بِالْبُرْهَانِ؟

٢٤٩٦- هَذَا وَيَحْتَاجُ السَّلَامَةَ بَعْدَ مِنْ

ذَاكَ الْمُعَارِضِ صَاحِبِ السُّلْطَانِ

٢٤٩٧- وَهُوَ الَّذِي بِالْعَقْلِ يُعْرِفُ صِدْقَهُ

وَالنَّفْيِ مَظْنُونٌ لَدَى الْإِنْسَانِ

٢٤٩٨- فَلَأَجْلِ هَذَا قَدْ عَزَلْنَاهَا وَوَلَّيْنَا

نَا الْعُقُولَ وَمَنْطِقَ الْيُونَانِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

يُبين المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في هذه الأبيات طريقة هؤلاء المعطلة بأنهم يقولون: إن نصوص الكتاب والسنة لا تفيد اليقين، وإن العقل هو الذي يفيد اليقين والقاعدة المتفق عليها أنه إذا تعارض اليقين والظن قُدِّم اليقين فإذا تعارضت دلالة الكتاب والسنة ودلالة العقل وجب أن تقدم دلالة العقل؛ لأن القاعدة المتفق عليها بين جميع الفرق هو أنه إذا تعارض الظن واليقين قُدِّم اليقين، ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

وَاحْذَرِ مَقَالَاتِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا شَيْعًا وَكَانُوا شَيْعَةَ الشَّيْطَانِ

أي: احذر هذه المقالات؛ لأن الذين تفرقوا شيعًا ليسوا على حق بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وإذا كان النبي ﷺ ليس منهم في شيء فهم ليسوا على حق:

وَأَسْأَلُ خَيْرًا عَنْهُمْ يُنَبِّئُكَ عَنْ أَسْرَارِهِمْ بِتَصِيحَةٍ وَبَيَانِ

قوله: (أسأل خيرًا) يريد بذلك نفسه؛ لأنه رَحِمَهُ اللهُ يعرف من أقوالهم الشيء الكثير

قَالُوا الْهُدَى لَا يُسْتَفَادُ بِسُنَّةٍ كَلًّا وَلَا أَثَرٍ وَلَا فُرْآنِ

يعني: أنهم يقولون: إنه الهدى لا يستفاد لا بالسنة ولا بالأثر عن الصحابة ولا

بالقرآن لماذا؟

إِذْ كُلُّ ذَلِكَ أَدْلَةٌ لَفْظِيَّةٌ لَمْ تُبَدِّ عَنْ عِلْمٍ وَلَا إِيقَانٍ

يعني أنها أدلة لفظية لا تفيد العلم واليقين لماذا؟ لأن فيها اشتراك يعني: ألفاظ مشتركة بين معنيين فأكثر واللفظ المشترك عند العلماء هو اللفظ الصالح لمعنيين فأكثر مثل كلمة عين لفظ مشترك بين الشمس والذهب والعين الجارية الماء ففي القرآن والسنة ألفاظ مشتركة واللفظ المشترك محتتمل لكل معانيه إذن فلا يفيد اليقين، فيها أيضًا إجمال والإجمال يقتضي الإبهام؛ لأن المجمل ضد المبين، فيها تجوز: يعني مجازًا، بالزيادة والنقصان: يعني تارة يكون هناك مجاز بالحذف وهو النقص، وتارة يكون مجاز بالزيادة فمثلًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] قالوا: الكاف زائدة هذا مجاز زيادة ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] قالوا: التقدير وجاء أمر ربك فهذا مجاز بالنقص وكذلك الإضمار، الإضمار يعني فيها والإضمار، إضمار يقتضي الإبهام أحيانًا، يحتمل عود الضمير إلى كذا، وأحيانًا يحتمل عوده إلى كذا، وفيها التخصيص بمعنى: أن اللفظ العام يدخله التخصيص ومعلوم أن اللفظ العام إذا دخله التخصيص انتفت دلالة على العموم وهذا نقص وفيها كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ عنهم:

وَكَذَلِكَ الْإِضْمَارُ وَالتَّخْصِصُ وَالْحَذْفُ الَّذِي لَمْ يُبَدِّ عَنْ تَبْيَانٍ

فيها حذف، ولا يعرف ما هو المحذوف ولم يتبين، كل هذه - كما يرونها - يرون أنها عيوب تمنع من العلم والإيقان كذلك فيها أيضًا عيوب أخرى من نوع ثاني.

وَالنَّقْلُ أَحَادٌ فَمَوْقُوفٌ عَلَى صِدْقِ الرُّوَاةِ وَلَيْسَ ذَا بُرْهَانٍ

قوله: (والنقل آحاد) النقل إما آحاد وإما متواتر نقل الآحاد موقوف، (على صديق الرواة وليس ذا برهان) أي: موقوف على صديق الرواة، وصدق الرواة ليس متيقنًا إذ كل أحد يمكن أن يكذب، وكل أحد يمكن أن ينسى، وكل أحد يمكن أن يتوهم ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

إِذْ بَعْضُهُمْ فِي الْبَعْضِ يَفْدَحُ دَائِمًا وَالْقَدْحُ فِيهِمْ فَهَوَ ذُو إِمْكَانٍ

يعني: أننا إذا طالعنا كتب الرجال وجدنا أن الرواة يقال فيهم هذا ضعيف الحفظ، هذا سيء الحفظ، هذا فيه بدعة هذا فيه كذا فيقدح بعضهم بعضًا.

وقوله: (وَالْقَدْحُ فِيهِمْ فَهَوَ ذُو إِمْكَانٍ) يعني: أن القدح في الرواة ليس ممنوعًا عقلاً بل هو ممكن وذو إمكان.

وَتَوَاتُرٌ وَهُوَ الْقَلِيلُ وَنَادِرٌ جِدًّا فَأَيْنَ الْقَطْعُ بِالْبُرْهَانِ؟

قوله: (وَتَوَاتَرٌ وَهُوَ الْقَلِيلُ) يعني: النقل آحاد وتواتر فهي معطوفة على آحاد يعني: والنقل أيضًا تواتر.

قوله: (وَهُوَ الْقَلِيلُ وَنَادِرٌ جِدًّا فَأَيْنَ الْقَطْعُ بِالْبُرْهَانِ): هنا عابوا النصوص أيضًا من وجه آخر وهو السند، فقالوا: إنها تأتي عن طريق الآحاد، وطريق الآحاد غير مقطوع بصدقه؛ لأن الرواة يحصل فيهم الوهم والسيان والكذب وما أشبه ذلك ثم أورد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ العلة الثالثة لهم وهي من نوع ثالث:

هَذَا وَيَحْتَاجُ السَّلَامَةَ بَعْدَ مِنْ ذَاكَ الْمُعَارِضِ صَاحِبِ السُّلْطَانِ
وَهُوَ الَّذِي بِالْعَقْلِ يُفْرَضُ صِدْقُهُ وَالنَّفْسِ مَظْنُونٌ لَدَى الْإِنْسَانِ

قوله (يعرف صدقه) توجد في نسخة أخرى يُعرض في نسخة ثانية يُفرض. إذن ثلاث نسخ في قوله (يعرف صدقه) وهم: (يعرض، يُعرف، يُفرض) وأقربهم والله أعلم يُعرف.

والمعنى: أنهم يقولون: إن هذه النقول تحتاج إلى أن تكون سالمة من المعارض الذي له السلطة وهو العقل؛ لأنهم يرون أن العقل مقدم على النقل فإذا عارضها العقل وجب الرجوع إليه.

فَلَأَجْلِ هَذَا قَدْ عَزَلْنَاهَا وَوَلَّيْنَا الْعُقُولَ وَمَنْطَقَ الْيُونَانِ

ولكن سيأتي رد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ على هذه الشبه على وجه التفصيل إن شاء الله. قوله (فلأجل هذا) المشار إليه الجواب أي قوله: (هذا ويحتاج السلامة)، وهو إشارة إلى التواتر، يعني: إشارة إلى القدح في النقل الذي يحتاج أيضًا إلى السلامة من المعارض.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٢٤٩٩- فَاَنْظُرْ إِلَى الْإِسْلَامِ كَيْفَ بَقَاؤُهُ

مِنْ بَعْدِ هَذَا الْقَوْلِ ذِي الْبُطْلَانِ

٢٥٠٠- وَانظُرْ إِلَى الْقُرْآنِ مَعَزُولًا لَدَيَّ

هَمْ عِضْنُ نُفُودٍ وَلَايَةِ الْإِيقَانِ

٢٥٠١- وَانظُرْ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ كَذَلِكَ مَع

زُولا لَدَيْهِمْ لَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

٢٥٠٢- وَاللَّهِ مَا عَزَلُوهُ تَعْظِيمًا لَهُ

أَيُّظُنُّ ذَلِكَ قَطُّ ذُو عِرْفَانِ

٢٥٠٣- يَا لَيْتَهُمْ إِذِ يَحْكُمُونَ بِعَزْلِهِ

لَمْ يَرْفَعُوا رَايَاتِ جَنكِسْخَانِ

٢٥٠٤- يَا وَيْلَهُمْ وَلَوْ نَتَّاجَ فِكْرِهِمْ

وَقَضُوا بِهَا قَطْعًا عَلَى الْقُرْآنِ^(١)

٢٥٠٥- وَرِدَالُهُمْ وَلَوْ إِشَارَاتِ ابْنِ سِي

نَا حِينَ وَلَوْ مَنْطِقَ الْيُونَانِ

٢٥٠٦- وَانظُرْ إِلَى نَصِّ الْكِتَابِ مُجَدِّدًا

وَسَطَ الْعَرِينَ مُمَزَّقَ اللَّحْمَانِ

٢٥٠٧- بِالطَّعْنِ بِالْإِجْمَالِ وَالْإِضْمَارِ وَالتَّ

خْصِيصِ وَالتَّأْوِيلِ بِالْبُهْتَانِ

٢٥٠٨- وَالْإِشْتِرَاكَ وَبِالْمَجَازِ وَحَذْفِ مَا

شَاؤُوا بِدَعْوَاهُمْ بِلا بُرْهَانِ

(١) [٢٤٩٩: ٢٥٠٤] قال العلامة محمد خليل هراس:

فانظر يا أخوا الإسلام كيف هدم هؤلاء بمقاتلتهم الجائرة بناء الإسلام وانظر كيف عزلوا القرآن الذي أخبر الله عنه أنه أنزله بيانا للناس وبلاغاً لهم. وسماه هدى ورحمة وموعظة وشفاء وروحاً ونوراً، وسماه بينة وبرهاناً وبصائر إلى غير ذلك من الأسماء الواردة في القرآن، كيف عزلوه عن سلطته في إفادة العلم والإيقان، وكيف عزلوا الأحاديث الصحيحة كذلك عن إفادة البرهان، فأبي هو ان لها وراء هذا الهوان؟ ومهما تصنع هؤلاء التوقير للكتاب والسنة بصيانتها عن تناول العقول والأفهام، فلن يجوز ذلك على أحد من أهل المعرفة، فإنهم في الوقت الذي يعزلون فيه النصوص الشرعية يقيمون شرائع المغول والتتار فويل لهم حيث حكّموا نتائج عقولهم وقدموا حكمها على القرآن، وجعلوها قاضية عليه.

٢٥٠٩- وَانظُرْ إِلَيْهِ لَيْسَ يَنْفِذُ حُكْمَهُ

بَيْنَ الْخُضُومِ وَمَا لَهُ مِنْ شَانٍ

٢٥١٠- وَانظُرْ إِلَيْهِ لَيْسَ يَقْبَلُ قَوْلَهُ

فِي الْعِلْمِ بِالْأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ

٢٥١١- لَكِنَّمَا الْمَقْبُولُ حُكْمُ الْعَقْلِ لَا

أَحْكَامُهُ لَا يَسْتَوِي الْحُكْمَانِ

٢٥١٢- يَبْكِي عَلَيْهِ أَهْلُهُ وَجُودُهُ

بِدَمَائِهِمْ وَمَدَامِعِ الْأَجْفَانِ

٢٥١٣- عَهْدُوهُ قَدَمًا لَيْسَ يَحْكُمُ غَيْرُهُ

وَسِوَاهُ مَعْرُوزٌ عَنِ السُّلْطَانِ

٢٥١٤- إِنْ غَابَ نَابَتْ عَنْهُ أَقْوَالُ الرُّسُو

لِ هُمَا لَهُمْ دُونَ الْوَرَى حَكْمَانِ

٢٥١٥- فَأَتَاهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ فِي ظَنِّهِمْ

فِي حُكْمِ جَنْكِسَخَانَ ذِي الطَّغْيَانِ

٢٥١٦- بِجُنُودِ تَعْطِيلٍ وَكُفْرَانٍ مِنَ الْ

مَنْغُولِ ثُمَّ الْوَالِصِ وَالْعَلَانِ

٢٥١٧- فَعَلُوا بِمِلَّتِهِ وَسُنَّتِهِ كَمَا

فَعَلُوا بِأُمَّتِهِمْ مِنَ الْعُدْوَانِ

٢٥١٨- وَاللَّهِ مَا انْقَادُوا لِجَنْكِسَخَانَ حَتَّى

سِى أَعْرَضُوا عَنِ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ

٢٥١٩- وَاللَّهِ مَا وُلَّوهُ إِلَّا بَعْدَ عَزْ

لِ الْوَحْيِ عَنِ عِلْمٍ وَعَنِ إِقْبَانٍ
٢٥٢٠- عَزَلُوهُ عَنِ سُلْطَانِهِ وَهُوَ الْيَقِينُ

مَنْ الْمُسْتَفَادُ لَنَا مِنَ السُّلْطَانِ
٢٥٢١- هَذَا وَلَمْ يَكْفِ الَّذِي فَعَلُوهُ حَتَّى

سَى تَمَّمُوا الْكُفْرَانَ بِالْبُهْتَانِ
٢٥٢٢- جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ إِذْ عَضُّوهُ أَنْ

وَاعْمَا مُعَدَّةٌ مِنَ النُّقْصَانِ
٢٥٢٣- مِنْهَا انْتِفَاءُ خُرُوجِهِ مِنْ رَبَّنَا

لَمْ يَيْدُ مِنْ رَبِّ وَلَا رَحْمَنٍ
٢٥٢٤- لَكِنَّهُ خَلَقَ مِنَ اللَّوْحِ ابْتَدَاءً

أَوْ جَبْرِيئِيلَ أَوْ الرَّسُولِ الثَّانِي
٢٥٢٥- مَا قَالَهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ الْعُلَى

لَيْسَ الْكَلَامُ بِوَصْفِ ذِي الْعُفْرَانِ
٢٥٢٦- تَبَا لَهُمْ سَلْبُوهُ أَكْمَلَ وَصَفِهِ

عَضُّهُوَ عَضَّةَ الرَّيْبِ وَالْكَفْرَانِ
٢٥٢٧- هَلْ يَسْتَوِي بِاللَّهِ نِسْبَتُهُ إِلَى

بَشَرٍ وَنِسْبَتُهُ إِلَى الرَّحْمَنِ
٢٥٢٨- مِنْ أَيْنَ لِلْمَخْلُوقِ عَيْنُ صِفَاتِهِ

اللَّهُ أَكْبَرُ لَيْسَ يَسْتَوِيَانِ

الشرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

سبق لنا أن أهل التعطيل والإلحاد عزلوا القرآن عن إفادة العلم واليقين، وجعلوا الذي

يفيد العلم واليقين هو العقل، وتعللوا بتعاليل كلها علية، وكلها إن صدقوا في دعواها فإنما لبست عليهم، لأن قلوبهم مغمورة بمعاصيهم وسوء قصدهم كما قال تعالى ﴿ إِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالِ أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٣، ١٤] فالذي لا يعرف للقرآن حرمة وللسنة حرمتها ففيه البلاء في قلبه ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يقول رَحْمَةُ اللَّهِ:

فانظر إلى الإسلام كيف بقاؤه من بعد هذا القول ذي البطلان

كيف يبقى الإسلام ونحن نقول: إن الأصليين العظمين الذين يركز عليها أحكامه لا يفيدان العلم واليقين بل لا يفيدان شيئاً على زعمهم إذا قالوا إنها تحتل كذا وتحتل كذا وهي جملة وبحاجة إلى البيان وما أشبه ذلك معناه أنها رفعت الدلالة فيها إطلاقاً فأين يبقى الإسلام؟ لا يبقى شيء نسأل الله العافية.

وانظر إلى القرآن معزولاً لذي هم عَضَن نَفُودَ وَلايَةِ الإِيقَانِ

يعني: معزول عن اليقين، ما يمكن يدل على اليقين أبداً.

وانظر إلى قول الرسول كذلك مع زولاً لذيهم ليس ذا سلطان

والله ما عزلوه تعظيماً له أَيْظُنُّ ذَلِكَ قَطُّ ذُو عِرْفَانِ

يعني: ما عزلوا القرآن والسنة تعظيماً لها عن دلالة اليقين ولكن استهانة بهما؛ لأنهم لو عظموا القرآن والسنة حق التعظيم لأخذوا بما دلَّ عليه وعلموا أن فيها من اليقين والعلوم ما ليس في عقولهم.

يَا لَيْتَهُمْ إِذْ يَحْكُمُونَ بِعَزْلِهِ لَم يَرْفَعُوا رَايَاتِ جَنكِسَخَانِ

يعني: أنهم جمعوا والعياذ بالله بين التفريط والتنقيص للكتاب والسنة، وبين رفع راية الكفر والطغيان، فصاروا ينادون بما قاله جنكسخان وغيره من أئمة الملاحدة ويدعون ما جاء به الكتاب والسنة.

يعني: أنهم رجعوا إلى الأفكار وتركوا القرآن وجعلوها هي الحاكمة عليه.

وَرَدَّالَهُمْ وَلُوا إِشَارَاتِ ابْنِ سِيَدٍ — نَا حِينَ وَلُوا مَنْطِقَ الْيُونَانِ

يعني: الأراذل منهم صاروا مقلدين لابن سينا في إشاراتهِ وتابعين للمنطق اليوناني وإنما نسبه إلى اليونان؛ لأن هذا البلاء الذي أصاب الأمة الإسلامية إنما جاء حين عُربت الكتب



اليونانية والرومانية كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

وَانظُرْ إِلَى نَصِّ الْكِتَابِ مُجَدِّلاً وَسَطَ الْعَرِينِ مُمَزَّقَ اللَّحْمَانِ

يعني: أن القرآن مجدل كما تجدل الميتات عند عرين الأسد ممزقة اللحمان أي: أنهم لم يرفعوا به رأساً ولم يبالوا به ولم يرجعوا إليه.

بِالطَّعْنِ بِالْإِجْمَالِ وَالْإِضْمَارِ وَالتَّدْ

وَالإِشْتِرَاكَ وَبِالْمَجَازِ وَحَذَفِ مَا شَاؤُوا بِدَعْوَاهُمْ بِأَلْبُرْهَانِ

كل هذه عيوب في الكلام يرمون بها القرآن والسنة مرة يقول مجمل، ومرة يقول يحتاج إلى إضمار، مرة يقول: هذا خاص أو عامٌ مخصوص، مرة يقول بالتأويل وليس بتأويل حق ولكن تأويل بهتان وكذب، ومرة يقول هذا مشترك يحتمل معنيين هذا مجاز لا يراد به الحقيقة وهكذا.

وَانظُرْ إِلَيْهِ لَيْسَ يَنْفُذُ حُكْمُهُ بَيْنَ الْخُصُومِ وَمَا لَهُ مِنْ شَأْنِ

(وانظر إليه:) يعني إلى القرآن، ليس ينفذ حكمه بين الخصوم؛ لأن الحكم لمن؟ الحكم للعقل عندهم؛ والقرآن ليس بحاكم معزول عن الحكم يقول:

وَانظُرْ إِلَيْهِ لَيْسَ يَقْبَلُ قَوْلُهُ فِي الْعِلْمِ بِالْأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ

يعني: لا يقبل ما جاء به القرآن من أوصاف الله عز وجل قال: (لَكِنَّمَا الْمَقْبُولُ حُكْمُ الْعَقْلِ لَا أَحْكَامُهُ) يعني: لا أحكام القرآن.

وقوله: (لَا يَسْتَوِي الْحُكْمَانِ).

قرئت الحكمان والحكمان وكلاهما صحيح؛ لأن الحكم حاكم وإذا كانا حكمان صار الحكم حكمين.

يَبْكِي عَلَيْهِ أَهْلُهُ وَجُودُهُ بِدَمَائِهِمْ وَمَدَامِعِ الْأَجْفَانِ

والبكاء هنا يعود على القرآن، أو على الإسلام الذي مصدره القرآن.

.....أَهْلُهُ وَجُودُهُ بِدَمَائِهِمْ وَمَدَامِعِ الْأَجْفَانِ

عَهْدُوهُ قَدَمًا لَيْسَ يَحْكُمُ غَيْرُهُ وَسِوَاهُ مَعزُورٌ عَنِ السُّلْطَانِ

متى هذا الزمن؟ في زمن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين؛ لأن الكتب الرومية

واليونانية إنما عربت بعد انقضاء تابعي التابعين وكان الناس في الأول على النهج المستقيم لا يفرعون إلا إلى القرآن والسنة.

إِنْ غَابَ نَابَتَ عَنْهُ أَقْوَالُ الرَّسُولِ لِي هُمَا لَهُمْ دُونَ الْوَرَى حَكَمَانِ
يعني القرآن، يعني إذا لم يجدوا في كتاب الله رجعوا إلى سنة رسول الله ﷺ.

فَأَتَاهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ فِي ظَنِّهِمْ فِي حُكْمِ جَنْكِسَخَانَ ذِي الطُّغْيَانِ
أَتَاهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ فِي ظَنِّهِمْ وَحِسَابِهِمْ مَعَ مَنْ؟ مَعَ جُنُودِ جَنْكِسَخَانَ وَأَحْكَامِهِ.
بِجُنُودِ تَعْطِيلٍ وَكُفْرَانٍ مِنَ الْـ مَنُغُولِ ثُمَّ اللَّاصِ وَالْعَلَّانِ

المنغول: هم المغول الذين خرجوا على الأمة الإسلامية وهم التتار وحصل منهم شر عظيم تحدث عنه ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «النهاية في علم التاريخ» وذكر أشياء موجعة، ويسمى أيضًا الكامل، وذكر أشياء نسأل الله العافية عظيمة جدًا.

وقوله: اللاص والعَلَّان، العَلَّان: يقال فلان وعَلَّان لكن ما أدري هل أراد المؤلف هذا أو أراد طائفة من أهل البدع تسمى بهذا الوصف.

فَعَلُّوا بِمِلَّتِهِ وَسُنَّتِهِ كَمَا فَعَلُّوا بِأَمَّتِهِ مِنَ الْعُدْوَانِ

يعني: هؤلاء الطوائف الثلاث المنغول واللاص والعَلَّان فعلوا بملة الرسول ﷺ وسنته كما فعلوا بأتمته من العدوان.

وَاللَّهُ مَا انْقَادُوا لِجَنْكِسَخَانَ حَتَّى سِيَ أَعْرَضُوا عَنْ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ

صدق رَحِمَهُ اللهُ مَا انْقَادُوا هَؤُلَاءِ لِمَتَابَعَةِ جَنْكِسَخَانَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْقُرْآنِ وَذَلِكَ؛ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ لَوْ كَانَتْ مَشْغُولَةً بِالْقُرْآنِ مَا انشغلت بغيره، لكن إذا كان القلب فارغًا والعياذ بالله صارت الأهواء تتقاذفه حتى يضل.

وَاللَّهُ مَا وَلَّوْهُ إِلَّا بَعْدَ عَزْلِ الْوَحْيِ عَنِ عِلْمٍ وَعَنْ إِيقَانِ

ما ولوه: يعني ما جعلوا الولاية له والاتباع له إلا بعد عزل الوحي عن علم وعن إيقان.

عَزَلُوهُ عَنِ سُلْطَانِهِ وَهُوَ الْيَقِينُ نُنُ الْمُسْتَفَادُ لَنَا مِنَ السُّلْطَانِ

هَذَا وَلَمْ يَكْفِ الَّذِي فَعَلُوهُ حَتَّى سِيَ تَمَّمُوا الْكُفْرَانَ بِالْبُهْتَانِ

عزلوا من؟ الوحي.

يعني: أنهم نفوا أن يكون القرآن حكماً في باب الصفات وجعلوا الحكم هو العقل وعلّلوا ذلك بأن النصوص لا يستفاد منها اليقين كما سبق؛ لأن الدلالة تختلف؛ ولأن الإسناد قد يكون ضعيفاً؛ ولأنه قد يعارض بالعقل كما مر ثلاث احتمالات هنا يقول إنهم:

جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ إِذْ عَضُّهُ أَنْ وَأَعَا مُعَدَّدَةً مِنَ التَّقْصَانِ
أَوْ إِذْ عَضُّهُ، عَضُّهُ: يعني جعلوه أعضاء، وعضهوه بمعناها أيضاً.

مِنْهَا انْتِفَاءً خُرُوجِهِ مِنْ رَبِّنَا لَمْ يَبْدُ مِنْ رَبِّ وَلَا رَحْمَنِ
لَكِنَّهُ خَلَقَ مِنَ اللَّوْحِ ابْتَدَاءً أَوْ جَبْرِيئِيلَ أَوْ الرَّسُولَ الثَّانِي

هذا نقص إذا قالوا: إن القرآن ليس كلام الله إنما هو مأخوذ من اللوح المحفوظ، أو إن جبريل تكلم به، أو إن محمداً تكلم به، فهذا لا شك تنقص للقرآن، وجهه ذكره المؤلف قال:

مَا قَالَهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ الْعُلَى لَيْسَ الْكَلَامُ بِوَصْفِ ذِي الْغُفْرَانِ
تَبَّأَ لَهُمْ سَلْبُوهُ أَكْمَلَ وَصْفِهِ عَضَّهُوهُ عَضَّةَ الرَّيْبِ وَالْكَفْرَانِ
هَلْ يَسْتَوِي بِاللَّهِ نِسْبَتُهُ إِلَى بَشَرٍ وَنِسْبَتُهُ إِلَى الرَّحْمَنِ

الجواب؟ لا إذا قالوا القرآن كلام جبريل، القرآن كلام الرسول الثاني وهو محمد عليه الصلاة والسلام، القرآن أُخِذَ من اللوح المحفوظ وليس كلام الله، لا شك أن هذا نقص لله لا يستوي كلام الرب عز وجل وكلام الخلق مهما كانوا.

مِنْ أَيْنَ لِلْمَخْلُوقِ عَيْنُ صِفَاتِهِ اللَّهُ أَكْبَرُ لَيْسَ يَسْتَوِيَانِ
أَوْ عَيْنَ صِفَاتِهِ يَعْنِي كَيْفَ يَنَالُ الْمَخْلُوقُ عَيْنَ صِفَةِ الْخَالِقِ وَهُوَ هُنَا كَلَامُهُ.

(اللَّهُ أَكْبَرُ لَيْسَ يَسْتَوِيَانِ)

ولهذا قال الله تعالى للذي قال إنه لقول البشر ماذا قال الله له: ﴿سَأُصَلِّيهِ سَقَرًا﴾ ﴿٦٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرًا ﴿٧٧﴾ لَا يُبْقِي وَلَا يَنْذَرُ ﴿[المدرثر: ٢٦-٢٨].﴾

خلاصة هذا البحث كله أن ابن القيم رحمه الله بين أن هؤلاء عزلوا دلالة الكتاب والسنة عن اليقين، وقالوا اليقين ما دل عليه العقل، أيضاً نفوا أن يكون القرآن كلام الله، وقالوا إنما أخذه جبريل من اللوح المحفوظ، أو أن جبريل تكلم به تعبيراً عن كلام الله، أو أن محمداً



تكلم به؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿التكوير: ١٩، ٢٠﴾ وهو جبريل ويقول: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴿الحاقة: ٤٠، ٤١﴾ والرسول الكريم هنا محمد .

وإذا عزلوا القرآن والسنة عن الحكم فيما يتعلق بصفات الله سهل أن يعزله عن الأحكام الأخرى لكن ابن القيم يريد هنا عزلهم إياه فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته.
قال:

فأتاهم ما لم يكن في ظنهم في حكم جنكسخان ذي الطغيان هل حكم جنكسخان يُراد به أحكام الدولة فقط يعني: أنها ليست أحكام القرآن؟ أو يُراد به ما يختص بالصفات؟ أو كلاهما معاً؟
الجواب: هو إن كان للعموم فهو للعموم وإن كان لما يتعلق بالأسماء والصفات فهو كذلك لأن الذين تابعوا قول جنكسخان لم يتابعوه في الأحكام الفقهية مثلاً إنما تابعوه في أصول العقائد كالصفات وغيرها.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٢٥٢٧- هَلْ يَسْتَوِي بِاللَّهِ نَسْبُهُ إِلَى

بَشَرٍ وَنَسْبُهُ إِلَى الرَّحْمَنِ

٢٥٢٨- مِنْ أَيْنَ لِلْمَخْلُوقِ عَيْنُ صِفَاتِهِ

اللَّهُ أَكْبَرُ لَيْسَ يَسْتَوِيَانِ

٢٥٢٩- بَيْنَ الصِّفَاتِ وَبَيْنَ مَخْلُوقٍ كَمَا

بَيْنَ الْإِلَهِ وَهَذِهِ الْأَكْوَانِ

٢٥٣٠- هَذَا وَقَدْ عَضُّهُ أَنْ نُصَوِّصَهُ

مَعْرُوزَةً عَنِ إِمْرَةِ الْإِيقَانِ

٢٥٣١- لَكِنَّ غَايَتَهَا الظُّنُونُ وَلَيْتَهُ

- ظَنًّا يَكُونُ مُطَابِقًا بَيِّنًا
 ٢٥٣٢- لَكِنْ ظَوَاهِرُ مَا يُطَابِقُ ظَنِّهَا
 مَا فِي الْحَقِيقَةِ عِنْدَنَا بِوِزَانِ
 ٢٥٣٣- إِلَّا إِذَا مَا أَوْلَتْ فَمَجَّازُهَا
 بِزِيَادَةٍ فِيهَا أَوْ النَّقْصَانِ
 ٢٥٣٤- أَوْ بِالْكِنَايَةِ وَاسْتِعَارَاتٍ وَتَشْبِ
 هِ وَنُوعِ الْمَجَّازِ الثَّانِي
 ٢٥٣٥- فَالْقَطْعُ لَيْسَ يُفِيدُهُ وَالظَّنُّ مَنْ
 فِي كَيْفِ كَذَلِكَ فَانْتَقَى الْأَمْرَانَ
 ٢٥٣٦- فَلِمَ الْمَلَامَةُ إِذْ عَزَلْنَاهَا وَوَلَّ
 سَيْنَا الْعُقُولَ وَفِكْرَةَ الْأَذْهَانَ
 ٢٥٣٧- فَاللَّهُ يُعْظِمُ فِي التَّضْوِصِ أَجْوَرَ كُمْ
 يَا أُمَّةَ الْأَنْبَارِ وَالْقُرْآنِ
 ٢٥٣٨- مَاتَتْ لَدَى الْأَقْوَامِ لَا يُحْيُونَهَا
 أَبَدًا وَلَا تُحْيِيهِمْ لَهُمْ إِنْ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لما بيَّن أن الذين ينسبون القرآن إلى كلام البشر أو الملك أن هذا تنقص للقرآن؛ لأنه لا يستوي أن ينسب القرآن لله وأن ينسب للبشر، إذا نسب للبشر وهو من الله فهذا تنقص له وقال:

مِنْ أَيْنَ لِلْمَخْلُوقِ عَيْنُ صِفَاتِهِ اللهُ أَكْبَرُ لَيْسَ يَسْتَوِيَانِ

فعر صفات الله وعظمة صفات الله لا يمكن أن تكون لكلام المخلوق قال:

بَيْنَ الصِّفَاتِ وَبَيْنَ مَخْلُوقٍ كَمَا بَيْنَ الْإِلَهِ وَهَذِهِ الْأَكْوَانِ

يعني: بين صفات البشر وصفات الخالق كما بين الخالق والمخلوق ولهذا كان من القواعد المقررة عند أهل السُّنة أن الصفات يجذي بها حذو الذات يعني أن صفات الخالق تليق به وتختص به وصفات المخلوق تليق به وتختص به:

هَذَا وَقَدْ عَضَّهُوهُ أَنَّ نُصُوصَهُ مَعزُولَةٌ عَنِ إمْرَةِ الْإِيقَانِ

كل هذا في الحقيقة كرهه المؤلف لأهميته أي: أنها لا تدل على اليقين.

لَكِنَّ غَايَتَهَا الظُّنُونُ وَلَيْتَهُ ظَنًّا يَكُونُ مُطَابِقًا بَيِّنًا

يعني: هي دلالتها ظنية، ومع ذلك ليتها تكون مطابقة.

لَكِنَّ ظَوَاهِرُ مَا يُطَابِقُ ظَنَّهُا مَا فِي الْحَقِيقَةِ عِنْدَنَا بِوِرَانِ

فمثلاً يقولون في قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ ظاهره أن الله هو الذي يجيء وهذا ليس بمراد بل المراد جاء أمر ربك، هذه هي الحقيقة.

إِلَّا إِذَا مَا أَوْلَتْ فَمَجَازُهَا بِزِيَادَةٍ فِيهَا أَوْ النُّقْصَانِ

أَوْ بِالْكِنَايَةِ وَاسْتِعَارَاتٍ وَتَشْبِيهِ وَأَنْوَاعِ الْمَجَازِ الثَّانِي

هذه هي أنواع المجاز ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ مجازها بزيادة أو نقصان أي: أن المجاز يكون بالزيادة أحياناً ويكون بالنقصان أحياناً، فقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ على زعمهم فيه مجاز بالنقص ومثل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فيه مجاز بالزيادة وهي الكاف قالوا: إن التقدير ليس مثله، يقول: أو بالكناية يعني الكناية عن كذا، اليد عندهم كناية عن القدرة أو النعمة، أو استعارات: وهذا أيضاً نوع من أنواع المجاز باب الاستعارة أن يجعل المشبه عين المشبه به فتقول مثلاً: رأيت بحراً لا تنقضي نقوده، يعني: كريماً هذا يسمونه الاستعارة، أو التشبيه: يعني وليس على سبيل الحقيقة، وأنواع المجاز الثاني: المجاز الثاني هل هناك مجاز أول وثاني؟ لا لكن المجاز هو الثاني بالنسبة للحقيقة، فالثاني في قوله المجاز الثاني صفة كاشفة؛ لأن المجاز في المرتبة الثانية في الدلالة.

فَالْقَطْعُ لَيْسَ يُفِيدُهُ وَالظَّنُّ مَنْ فِي كَذَلِكَ فَاتْتَفَأُ الْأَمْرَانَ

إذن القطع ليس يفيده، والظن ليس يفيده أيضاً، فإذا كانت الدلالة الآن ليست قطعية ولا ظنية، فلا يفيد شيئاً إطلاقاً وليس فيه دلالة على أي شيء:

فَلِمَ الْمَلَامَةُ إِذْ عَزَلْنَاهَا وَوَلَّ سِينَا الْعُقُولَ وَفِكْرَةَ الْأَذْهَانَ

يعني: إذا كانت لا تدل على شيء فلماذا تلومونا إذا قلنا إذا كانت النصوص لا تدل على شيء فالواجب الرجوع إلى العقل.

فَاللَّهُ يُعْظِمُ فِي التُّصُوصِ أَجُورَكُمْ يَا أُمَّةَ الْأَثَارِ وَالْقُرْآنِ

يعني: يعزّي أمة القرآن والآثار يقول: والله يعظم أجركم ماتت النصوص، ماتت يعني إذا كان لا يستدل بها على شيء وهي لا تدل على شيء في نفس الوقت فهذا موتها.

مَاتَتْ لَدَى الْأَقْوَامِ لَا يُحْيُونَهَا أَبَدًا وَلَا تُحْيِيهِمْ لَهُوَ

نعم هم لا يحيونها ولا يرفعونها وهي أيضًا لا تحييهم بل تهينهم؛ لأن من لم يرفع رأسًا بالقرآن لم يرفعه الله.



* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٥٣٩- هَذَا وَقَوْلُهُمْ خِلَافَ الْحِسِّ وَال

مَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

٢٥٤٠- مَعَ كَوْنِهِ أَيْضًا خِلَافَ الْفِطْرَةِ ال

أُولَى وَسُنَّةِ رَبِّبَا الرَّحْمَنِ

٢٥٤١- فَاللَّهُ قَدْ فَطَرَ الْعِبَادَ عَلَى التَّقَا

هُم بِالْخِطَابِ لِمَقْصِدِ التَّبَيُّانِ

٢٥٤٢- كُلٌّ يَدُلُّ عَلَى الَّذِي فِي نَفْسِهِ

بِكَلَامِهِ مِنْ أَهْلِ كُلِّ لِسَانِ

٢٥٤٣- فَتَرَى الْمُحَاطِبَ قَاطِعًا بِمُرَادِهِ

هَذَا مَعَ التَّقْصِيرِ فِي الْإِنْسَانِ

٢٥٤٤- إِذْ كُلُّ لَفْظٍ غَيْرِ لَفْظِ نَبِينِنَا

هُوَ دُونُهُ فِي ذَا بِلَا نُكْرَانِ

- ٢٥٤٥- حَاشَا كَلَامَ اللَّهِ فَهُوَ الْغَايَةُ الـ
 قُصْوَى لَهُ أَعْلَى ذُرَى التِّيَّانِ
- ٢٥٤٦- لَمْ يَفْهَمِ الثَّقَلَانِ مِنْ لَفْظِ كَمَا
 فَهَمُّوا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
- ٢٥٤٧- فَهُوَ الَّذِي اسْتَوْلَى عَلَى التِّيَّانِ كَاسِ
 تِيْلَانِهِ حَقًّا عَلَى الْإِحْسَانِ
- ٢٥٤٨- مَا بَعَدَ تَبْيَانِ الرَّسُولِ لِنَاطِرِ
 إِلَّا الْعَمَى وَالْعَيْبُ فِي الْعُمَيَّانِ
- ٢٥٤٩- فَانظُرْ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ لِسَائِلِ
 مِنْ صَاحِبِهِ عَنِ رُؤْيَا الرَّحْمَنِ
- ٢٥٥٠- حَقًّا تَرَوْنَ إِلَهُكُمْ يَوْمَ الْلِقَاءِ
 رُؤْيَا الْعِيَانِ كَمَا يُرَى الْقَمَرَانِ
- ٢٥٥١- كَالْبَدْرِ لَيْلَ تَمَامِهِ وَالشَّمْسِ فِي
 نَحْرِ الظَّهِيرَةِ مَا هُمَا مِثْلَانِ
- ٢٥٥٢- بَلْ قَصْدُهُ تَحْقِيقُ رُؤْيَيْنَا لَهُ
 فَآتَى بِأَظْهَرِ مَا يُرَى بِعِيَانِ
- ٢٥٥٣- وَنَفَى السَّحَابَ وَذَاكَ أَمْرٌ مَانِعٌ
 مِنْ رُؤْيَا الْقَمَرَيْنِ فِي ذَا الْآنِ
- ٢٥٥٤- فَإِذَا أَتَى بِالْمُقْتَضَى وَنَفَى الْمَوَا
 نِعَ خَشْيَةَ التَّقْصِيرِ فِي التَّبْيَانِ
- ٢٥٥٥- صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا هَذَا الَّذِي

يَأْتِي بِهِ مِنْ بَعْدِ ذَا التِّيَّانِ^(١)

٢٥٥٦- مَاذَا يَقُولُ الْقَاصِدُ التِّيَّانَ يَا

أَهْلَ الْعَمَى مِنْ بَعْدِ ذَا التِّيَّانِ

٢٥٥٧- فَبِأَيِّ لَفْظٍ جَاءَكُمْ قُلْتُمْ لَهُ

ذَا اللَّفْظِ مَعزُولٌ عَنِ الْإِيْقَانِ

٢٥٥٨- وَضَرَبْتُمْ فِي وَجْهِهِ بِعَسَاكِرِ التِّ

أُوَيْلٍ دَفَعًا مِنْكُمْ بِلِيَّانِ

٢٥٥٩- لَوْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ عَامَلْتُمْ بِذَا

أَهْلَ الْعُلُومِ وَكُتِبَ لَهُمْ بِوِزَانِ

٢٥٦٠- فَسَدَّتْ تَصَانِيفُ الْوُجُودِ بِأَسْرِهَا

وَعَدَّتْ عُلُومُ النَّاسِ ذَاتَ هَوَانِ

٢٥٦١- هَذَا وَلَيْسُوا فِي بَيَّانِ عُلُومِهِمْ

مِثْلَ الرَّسُولِ وَمَنْزِلِ الْقُرْآنِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هَذَا وَقَوْلُهُمْ خِلَافُ الْحِسِّ وَالْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ وَالْبُرْهَانِ

(١) [٢٥٥٠: ٢٥٥٥] قال العلامة محمد خليل هراس:

ولم يرد الرسول ﷺ بذلك تشبيه المرئي بالمرئي، فإن الله عز وجل لا يشبهه شيء من خلقه، وإنما قصد إلى تحقيق الرؤية وتأكيدها، فشبّه رؤيتنا له برؤية الشمس والقمر وهما في أتم أحوالهما من حيث الجلاء والظهور، وهو أن يكون القمر بدرًا، وأن تكون الشمس في نحر الظهيرة. وقد انتفى عنهما كل ما يحول دون رؤيتهما من سحاب وقر، فجمع ﷺ في كلامه بين وجود المقتضي للرؤية وانتفاء المانع منها خشية أن يقع في كلامه نقص أو قصور، فإذا كان يمكن أن يأتي به ﷺ من زيادة على هذا البيان، وماذا عسى أن يقوله القاصد للبيان من بعد هذا التبيان؟ اللهم إنه العمى والخذلان وغرور الإنسان، يحول بينه وبين رؤية الحق الظاهر للبيان.



قولهم: يعني أن أدلة الكتاب والسنة ظنية وهي أيضًا ظواهر لا تفيد اليقين يقول إن قولهم هذا.

هَذَا وَقَوْلُهُمْ خِلَافَ الْحِسِّ وَالْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ وَالْبُرْهَانِ
مَعَ كَوْنِهِ أَيْضًا خِلَافَ الْفِطْرَةِ الَّتِي
فَهُوَ خِلَافُ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ وَالْفِطْرَةِ.

فَاللَّهُ قَدْ فَطَرَ الْعِبَادَ عَلَى التَّقَاةِ هُمْ بِالْخِطَابِ لِمَقْصِدِ التَّيْبَانِ
الناس مفظورون على التفاهم ليعبروا عما في نفوسهم بطريق التفاهم والخطاب.

فَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي إِلَّا بِمَا عَبَّرَ بِهِ، وَأَنَا لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِلَّا بِمَا تَعَبَّرَ بِهِ، فَالْمَعْبَرُ
يريد أن يدل الناس على ما في قلبه.

كُلُّ يَدُلُّ عَلَى الَّذِي فِي نَفْسِهِ بِكَلَامِهِ مِنْ أَهْلِ كُلِّ لِسَانٍ
فَتَرَى الْمُخَاطَبَ قَاطِعًا بِمُرَادِهِ هَذَا مَعَ التَّقْصِيرِ فِي الْإِنْسَانِ

المخاطب: المتكلم حينما يتكلم قاطعٌ بمراده يعني يعلم ما أراد ويقطع به وليس عنده شك في ذلك، ويجوز أن يكون المراد فترى المخاطب قاطعًا بمراد المتكلم هذا مع التقصير في الإنسان، والمعنيان كلاهما صحيح، فالتكلم يقطع بمراده ويريد الذي يقوله إذا كان عاقلًا، والمخاطب كذلك يقطع أحيانًا بمراد المتكلم، مع أن الإنسان قاصر في الفهم هذا إذا قلنا المخاطب، قاصرٌ في التعبير هذا إذا قلنا المخاطب، فالتكلم قاصر في التعبير قد لا يستطيع أن يعبر عما في نفسه والمخاطب قاصرٌ في الفهم قد لا يستطيع فهم كلام المتكلم ومع ذلك يقطع المخاطب والمخاطب بمراد المتكلم.

إِذْ كُلُّ لَفْظٍ غَيْرِ لَفْظِ نَبِيِّنَا هُوَ دُونَهُ فِي ذَا بِلَا نَكْرَانٍ

المعني: جميع كلام الوري دون كلام رسول الله ﷺ؛ لأن النبي ﷺ أفصح الخلق بلا منازع.

حَاشَا كَلَامَ اللَّهِ فَهُوَ الْغَايَةُ الَّتِي تَقْصُو لَهَا أَعْلَى ذُرَى التَّيْبَانِ

يعني: إلا كلام الله، فإنه أبين من كلام الرسول ﷺ؛ لأن كلام الله أبين الكلام وأفصح الكلام وأوضح الكلام لكن أفهامنا قاصرة ضعيفة لا نفهم هذا الكلام العظيم حق الفهم ولذلك قد يظن بعض الناس أن كلام الله عز وجل ليس أبين الكلام وهذا لا شك أنه قد يكون

صادقا وذلك من قصوره أو تقصيره أما حقيقة الأمر فوالله إن كلام الله أبين الكلام بل إن الله تعالى قال في كتابه مخبراً ملتزماً قال: ﴿وَلَقَدْ سَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧] لكن مع الأسف أننا ولا سيما في هذا العصر نتلو القرآن للتبرك به ونيل الثواب في قراءته، لا للتدبر وتفهم المعنى، ولذلك حجب عنا معناه العظيم وصار صعباً علينا، يقول:

حَاشَا كَلَامَ اللَّهِ فَهَوَ الْعَايَةُ الـ قُصُوى لَهُ أَعلى ذُرَى التَّبَيَانِ

لَمْ يَفْهَمِ الثَّقَلَانِ مِنْ لَفْظٍ كَمَا فَهَمُوا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

يعني لم يفهم الوري الثقلان الجن والإنس من لفظ كما فهموا من القرآن والأخبار، واضح؟ وذلك فيمن فهمه صحيح ولغته صحيحة، أما العامي فإنه يأتيه عامي متعجرف ويفهم من كلامه أكثر من كلام الله ورسوله؛ لأنه عامي ما يعرف، لكن المراد هنا بالناس الذين أعطاهم الله تعالى صحة الفهم ومعرفة اللغة قال:

فَهُوَ الَّذِي اسْتَوَلَى عَلَى التَّبَيَانِ كَاسِ سَيِّلَاتِهِ حَقًّا عَلَى الْإِحْسَانِ

استولى على التبيان أي التوضيح كما استولى على الإحسان، أي الفصاحة والكمال، فالقرآن كامل في تبيانه وفي فصاحته وبلاغته.

مَا بَعْدَ تَبَيَانِ الرَّسُولِ لِنَاطِرٍ إِلَّا الْعَمَى وَالْعَيْبُ فِي الْعُمَيَانِ

يعني: هل بعد بيان الرسول بيان؟ لا، لكن الأعمى لا يحس به، والعيب في العميان: يعني عميان البصائر لا عميان البصر قال:

فَانظُرْ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ لِسَائِلٍ مِنْ صَحْبِهِ عَنِ رُؤْيَةِ الرَّحْمَنِ

قوله: (انظر) يعني: أيها الإنسان نظرة تأمل انظر إلى قول الرسول لسائل من الصحابة، عن رؤية الرحمن: عن رؤية متعلق بسائل، رجل سأل النبي ﷺ قال: يا رسول الله هل نرى ربنا؟ قال: «نعم» قال: (١)

حَقًّا تَرَوْنَ إِلَهُكُمْ يَوْمَ الْلِقَاءِ رُؤْيَا الْعِيَانِ كَمَا يُرَى الْقَمَرَانِ

هل هناك شيء أبين من هذا؟ لما «قال: هل نرى ربنا؟ قال: نعم إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس صحواً ليس دونها سحب» يقول:

كَالْبَدْرِ لَيْلِ تَمَامِهِ وَالشَّمْسِ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ مَا هُمَا مِثْلَانِ

يعني: وكالشمس، ما هما: يعني المرثيان يعني إنكم سترون ربكم كالقمر والشمس لا على أن الله مثل الشمس أو مثل القمر.

قوله: (بَلْ قَصْدُهُ تَحْقِيقُ رُؤْيَيْنَا لَهُ)، قصد من؟ قصد النبي ﷺ حين قال: «ترون ربكم كما ترون القمر» قصده بذلك تحقيق الرؤية ولهذا دخلت الكاف على المصدر المؤول من الفعل «ترون ربكم كما ترون» أي كرؤيتكم ولم تدخل على المشبه به يعني ما قال: إنكم ترون ربكم كالقمر بل قال: كما ترون: فالتشبيه إذا للرؤية بالرؤية لا للمرئي بالمرئي.

بَلْ قَصْدُهُ تَحْقِيقُ رُؤْيَيْنَا لَهُ فَآتَى بِأَظْهَرِ مَا يُرَى بِعِيَانِ

وَنَفَى السَّحَابَ وَذَلِكَ أَمْرٌ مَانِعٌ مِنْ رُؤْيَةِ الْقَمَرَيْنِ فِي ذَا الْآنِ

نفى السحاب وذلك في قوله «صحواً ليس دونها سحاب» وقوله: (في ذا الآن) أي في حال وجود السحاب فإن السحاب يمنع من رؤية الشمس ومن رؤية القمر قال:

فَإِذَا أَتَى بِالْمُقْتَضِي وَنَفَى الْمَوَا نَعَ خَشِيَةَ التَّقْصِيرِ فِي التَّبْيَانِ

أتى بالمتقضي وهو قول الصحو.

فأتى بالمتقضي للرؤية: وما هو؟ الصحو، ونفى الموانع: وهو قوله: (ليس دونها سحاب) ومعلوم أنه إذا وجد المتقضي وانتفى المانع ثبت الحكم فيقول: (خشية التقصير في التبيان) يعني: لئلا يكون هناك تقصير في البيان.

صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا هَذَا الَّذِي يَأْتِي بِهِ مِنْ بَعْدِ ذَا التَّبْيَانِ

قوله: (من بعد ذا) فيه نسختان التبيان وبيان يعني. هل أحد يمكن أن يأتي ببيان أحسن من هذا البيان؟ لا يمكن.

مَادَا يَقُولُ الْقَاصِدُ التَّبْيَانَ يَا أَهْلَ الْعَمَى مِنْ بَعْدِ ذَا التَّبْيَانِ

لا يقول شيئاً فليس هناك أبين من هذا.

فَبِأَيِّ لَفْظٍ جَاءَكُمْ قَلْتُمْ لَهُ ذَا اللَّفْظِ مَعْرُوْلٌ عَنِ الْإِيقَانِ

قوله: (فبأي لفظ جاءكم) يعني: محمد ﷺ.

وقوله: (قلت له ذا اللفظ معزول عن الإيقان) حتى لو قاله النبي ﷺ مباشرة وجهاً لوجه قالوا هذا الكلام معزول عن اليقين بل هذا يفيد الظن ولا يفيد اليقين.

وَضَرَبْتُمْ فِي وَجْهِهِ بِعَسَاكِرِ التِّبِّ — أَوَّلِ دَفْعًا مِنْكُمْ بِلِيَانِ

يعني: تسهلاً للأمر لأنهم لا يستطيعون أن يقولوا: لا، بل هم يقولون: نعم لكن المراد كذا، «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ أَوْ كَمَا تَرُونَ القَمَرَ كَيْلَةَ البَدْرِ» لا يستطيعون أن يقولوا لا نرى ربنا يقولون: نعم نرى ربنا لكن رؤية بصيرة لا رؤية بصر، وإنما ضرب النبي ﷺ هذا المثل من أجل تحقيق هذه الرؤية - رؤية البصيرة - لا رؤية البصر، ولا شك أن هذا قلب للحقائق ولهذا يدفعونها بالتأويل تلييناً للرد؛ لأنهم لو كذبوا ما قبلت أقوالهم ولكفرهم الناس لكن يأتون بالتأويلات المستكرهة من أجل لين الرد؛ ولهذا قال: دفعاً منكم بليان.

لَوْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ عَامَلْتُمْ بِذَا — أَهْلَ العُلُومِ وَكُتِبَهُمْ بِوِزَانِ
فَسَدَّتْ تَصَانِيفُ الوجودِ بِأَسْرِهَا — وَعَدَّتْ عُلُومُ النَّاسِ ذَاتَ هَوَانِ

يعني: لو أنكم قلتم في جميع كلام الناس هذا لا يفيد اليقين، هذا ليس على ظاهره، هذا مؤول، وبقية الكتب؟ فسدت صار كل كتاب ما يمكن منه العلم واليقين.

هَذَا وَلَيْسُوا فِي بَيَانِ عُلُومِهِمْ — مِثْلَ الرُّسُولِ وَمَنْزِلِ القُرْآنِ

يعني: ليس كلامهم مثل كلام الرسول ولا كلام الله ومع ذلك يحترمون كلام شيوخهم ويأخذون بظاهره ولا يأخذون بظاهر القرآن والسنة.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٢٥٦٢- وَاللَّهِ لَوْ صَحَّ الَّذِي قَدْ قُلْتُمْ

قُطِعَتْ سَبِيلُ العِلْمِ وَالإِيمَانِ

٢٥٦٣- فَالعقلُ لَا يَهْدِي إِلَى تَفْصِيلِهَا

لَكِنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ الوَحْيَانِ

٢٥٦٤- فَإِذَا غَدَا التَّفْصِيلُ لَفْظِيًّا وَمَعَ

زُؤْلًا عَنِ الإِيقَانِ وَالرُّجْحَانِ

٢٥٦٥- فَهَنَّاكَ لَا عِلْمًا أَفَادَتْ لَا وَلَا

ظَنًّا وَهَذَا غَايَةُ الْحَرَمَانِ

٢٥٦٦- لَوْ صَحَّ ذَلِكَ الْقَوْلُ لَمْ يَحْضُلْ لَنَا

قَطْعٌ بِقَوْلٍ قَطٌّ مِنْ إِنْسَانٍ

٢٥٦٧- وَغَدَا التَّخَاطُبُ فَاسِدًا وَفَسَادُهُ

أَصْلُ الْفَسَادِ لِنَوْعِ ذَا الْإِنْسَانِ

٢٥٦٨- مَا كَانَ يَحْضُلُ عِلْمُنَا بِشَهَادَةٍ

وَوَصِيَّةٍ كَلًّا وَلَا أَيْمَانٍ

٢٥٦٩- وَكَذَلِكَ الْإِقْرَارُ يُصْبِحُ فَاسِدًا

إِذَا كَانَ مُحْتَمَلًا لِسَبْعِ مَعَانٍ

٢٥٧٠- وَكَذَا عُقُودُ الْعَالَمِينَ بِأَسْرِهَا

بِاللَّفْظِ إِذِ يَتَخَاطَبُ الرَّجُلَانِ

٢٥٧١- أَيْسُوغٌ لِلشَّهَادَةِ شَهَادَتُهُمْ بِهَا

مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُمْ بَيِّنَاتٍ

٢٥٧٢- إِذَا تَلَكُمُ الْأَلْفَاظُ غَيْرُ مُفِيدَةٍ

لِلْعِلْمِ بَلْ لِلظَّنِّ ذِي الرَّجْحَانِ

٢٥٧٣- بَلْ لَا يَسُوغُ لِشَاهِدٍ أَبَدًا شَهَا

دَتُهُ عَلَى مَدْلُولٍ تُطِيقُ لِسَانٍ

٢٥٧٤- بَلْ لَا يُرَاقُ دَمٌ بِلَفْظِ الْكُفْرِ مِنْ

مُسْتَكَلِّمٍ بِالظَّنِّ وَالْحُسْبَانِ

٢٥٧٥- بَلْ لَا يُبَاحُ الْفَرْجُ بِالْإِذْنِ الَّذِي

هُوَ شَرْطٌ صِحَّتِهِ مِنَ النَّسْوَانِ

٢٥٧٦- أَيْسُوغٌ لِلشَّهْدَاءِ جَزْمُهُمْ بِأَنْ

رَضِيَتْ بِلَفْظٍ قَابِلٍ لِمَعَانِ

٢٥٧٧- هَذَا وَجُمْلَةٌ مَا يُقَالُ بِأَنَّهُ

فِي ذَا فَسَادِ الْعَقْلِ وَالْأَدْيَانِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

وَاللهُ لَوْ صَحَّ الَّذِي قَدْ قُلْتُمْ قُطِعَتْ سَبِيلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ

ما الذي قالوا: إن ألفاظ الكتاب والسنة ظنية لا تفيد اليقين.

وَاللهُ لَوْ صَحَّ الَّذِي قَدْ قُلْتُمْ قُطِعَتْ سَبِيلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ

فَالْعَقْلُ لَا يَهْدِي إِلَى تَفْصِيلِهَا لَكِنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ الْوَحْيَانِ

العقل لا يهدي إلى تفصيل صفات الله عز وجل وأسمائه وإنما الذي يهدي إلى ذلك ما جاء به الوحيان فإذا قلنا: إن العقل لا يهدي إلى تفصيلها وأن ما جاء به الوحيان ظني إذن أين العقيدة؟ كيف نبني عقيدتنا على ظن ووهم ولهذا قال ليفسد كل شيء:

فَهُنَاكَ لَا عِلْمًا أَفَادَتْ لَا وَلَا ظَنًّا وَهَذَا غَايَةُ الْجِرْمَانِ

إذا قلنا بما قال هؤلاء: إن العقل لا يهدي للتفصيل والقرآن والسنة لا يدلان على اليقين؛ إذن ليس عندنا علم بل ولا ظن؛ لأن ما كان على خلاف الظاهر مرجوح والمرجوح لا يدل على ظن فضلاً عن أن يُعتقد.

فَإِذَا غَدَا التَّفْصِيلُ لَفْظِيًّا وَمَعَ زُؤْلًا عَنِ الْإِيقَانِ وَالرُّجْحَانِ

فَهُنَاكَ لَا عِلْمًا أَفَادَتْ لَا وَلَا ظَنًّا وَهَذَا غَايَةُ الْجِرْمَانِ

إذا غدا التفصيل لفظياً: التفصيل يعني في أسماء الله وصفاته؛ لأن العقل لا يهدي إلى التفصيل إنما يعرف الإجمال، والتفصيل جاء في الكتاب والسنة فإذا غدا لفظياً معزولاً عن الإيقان فهناك لا نستفيد لا علماً ولا ظناً.

لَوْ صَحَّ ذَلِكَ الْقَوْلُ لَمْ يَحْضَلْ لَنَا قَطْعٌ بِقَوْلٍ قَطُّ مِنْ إِنْسَانٍ

المراد بهذا القول: أن دلالة الألفاظ ظنية لا تفيد اليقين لو صح هذا لم يحصل لنا قطع بقول قط من إنسان.

(وَعَدَا التَّخَاطُبُ فَاسِدًا)

التخاطب بين الناس؛ لأنهم يقولون دلالة الألفاظ ظنية يصبح التخاطب بين الناس ظنيّ فيكون فاسدًا، وفساده: أي فساد التخاطب، أصل الفساد لنوع ذا الإنسان: إذا كان التخاطب بين الناس فاسدًا ولا يفيد اليقين ولا العلم فكيف يثق الناس بعضهم ببعض؟ كيف يتعاملون؟ كيف تعقد البيوع والإقرارات والشهادات والأنكحة والوقوف وغيرها والمسألة كلها مبنية على الظن؟ ولهذا قال: (ما كان يحصل علمنا بشهادة).

إذن شهد شاهدان والله شهادتهم ظنية ما نعرف فيها احتمالًا ألف فيها ألف احتمال وكذلك الوصية، فإنسان أوصى يقول كلامه ظنيّ ما يفيد اليقين فيه احتمال يحتمل أنه أراد أن يوصي بالثلث أي ثلث الثلث، وهكذا ما يبقى للناس ثقة بأي كلام وكذلك أيضًا (ووصية كلا ولا إيمان).

حتى الأيمان وهي الحلف بالله فيها احتمالات أليس كذلك؟ فيها احتمالات إذا قال: والله لا أتعدى إلا على وتد سبحان الله هو عصفور يقف على الوتد يأكل لا يقول: إن الجبال جعلها الله أوتادًا.

على كل حال لو أننا جعلنا دلالة اللفظ ظنية وقلنا هذا يحتمل ما بقي أن نثق بشيء إطلاقًا.

وَكَذَلِكَ الْإِقْرَارُ يُصْبِحُ فَاسِدًا إِذْ كَانَ مُحْتَمَلًا لِسَبْعِ مَعَانٍ

أقر له عدة معانٍ أقر: بمعنى نطق بالإقرار، وأقر: الشيء أبقاه مستقرًا وهكذا سبع معانٍ للإقرار إذا لا نحكم بأن الرجل إذا قال أقررت بكذا وكذا بأنه مقر لأن اللفظ محتمل.

يقول رَحِمَهُ اللهُ:

وَكَذَا عُقُودُ الْعَالَمِينَ بِأَسْرِهَا بِاللَّفْظِ إِذْ يَتَخَاطَبُ الرَّجُلَانِ

كل العقود مبنية على أن الدلالة ظنية على كلامهم؛ إذا ما نثق بأي عقد كان؛ لأن دلالة ظنية.

أَيْسُوعُ لِلشَّهَادَةِ شَهَادَتُهُمْ بِهَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُمْ بَيَّانٍ؟

الجواب: لا ومع ذلك إذا شهد الشاهدان على الرجلين بأنها تبايعا نحكم بالشهادة مع

أن الشهادة لا تكون إلا عن علم ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] ويُذكر أن النبي ﷺ قال لرجل: «تَرَى الشَّمْسَ» قال: نعم، قال: «عَلَى مِثْلِهَا فَاشْهَدْ أَوْ دَعْ» (١) إذن الشهادة مبنية على علم وأنتم تقولون: إن الألفاظ دلالتها ظنية، كيف يمكن أن نشهد على ظن إذا تعاقد رجلان في عقد بيع أو عقد إيجار أو عقد رهن.

إِذ تَلَكُمُ الْأَلْفَاظُ غَيْرُ مُفِيدَةٍ لِلْعِلْمِ بَلْ لِلظَّنِّ ذِي الرُّجْحَانِ
بَلْ لَا يَسُوغُ لِشَاهِدٍ أَبَدًا شَهَا دَتُهُ عَلَى مَدْلُولٍ نُطِقَ لِسَانِ

لماذا؟ لأن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين فإذا جعلنا الألفاظ ظنية صار كل ما ثبت بالنطق ظني لا تجوز الشهادة عليه يقول:

بَلْ لَا يُرَاقُ دَمٌ بِلَفْظِ الْكُفْرِ مِنَ مُتَكَلِّمٍ بِالظَّنِّ وَالْحُسْبَانِ

يعني: على زعمكم أن دلالة الأثار ظنية لو أن رجلاً نطق بكلمة الكفر، فإنه لا يجوز أن يُراق دمه؛ لأن دم المسلم حرام لا تجوز استباحته إلا بعلم، ونحن الآن نقول: إن دلالة الألفاظ ظنية فكيف نستبيح دمه بلفظ دلالته ظنية؟ على هذا نقول هنيئاً للمرتدين لأن كلامهم ظني لا يجوز أن نريق دماءهم به بناءً على كلام هؤلاء أن الألفاظ دلالتها ظنية.

بَلْ لَا يُرَاقُ دَمٌ بِلَفْظِ الْكُفْرِ مِنَ مُتَكَلِّمٍ بِالظَّنِّ وَالْحُسْبَانِ

بَلْ لَا يَبَاحُ الْفَرْجُ بِالِإِذْنِ الَّذِي هُوَ شَرْطُ صِحَّتِهِ مِنَ التَّسْوَانِ

هذا بعد ذلك مشكلة رجل تم له العقد على امرأة بشهادة الشهود على إذن المرأة وعلى العقد هل يجوز أن نستبيح الفرج بأمر ظني؟ لا يجوز، هم يقولون دلالة الألفاظ ظنية إذا إذن المرأة لوليها في العقد دلالته ظنية وقول الولي للزوج: زوجتك بنتي فيقول قبلت ظني أيضاً كيف نستبيح به الفرج الذي تحريمه قطعي بأمر دلالته ظنية؛ لأنه معروف أن القطعي لا يزيله إلا ما كان قطعياً فانظر إلى أن هذا القول والعياذ بالله يترتب عليه فساد الدين والدنيا.

أَيْسُوغُ لِلشُّهَدَاءِ جَزْمُهُمْ بِأَنْ رَضِيَتْ بِلَفْظِ قَابِلٍ لِمَعَانِ

الجواب: لا يحتمل؛ إنه لما قيل: أترضين أن نزوجك فلاناً؟ فقالت: نعم أرضى يعني أرضى بسواه على تقدير شيء محذوف، أليس كذلك؟ فيه احتمال إذا جعلنا الاحتمالات العقلية داخلية في الدلالات اللفظية ما بقي كلام يؤثق به إطلاقاً.

هَذَا وَجُمْلَةٌ مَا يُقَالُ بِأَنَّهُ فِي ذَا فَسَادِ الْعَقْلِ وَالْأَدْيَانِ
 مَا هُنَاكَ شَكٌّ أَنَّ الْكَلَامَ قَدْ يَكُونُ دَلَالَتُهُ ظَنِيَّةً وَقَدْ تَكُونُ دَلَالَتُهُ قَطْعِيَّةً، لَكِنْ مَا تَجِدُ
 كَلَامًا ظَنِيًّا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ وَلَا كَلَامَ رَسُولِهِ إِلَّا لِقُصُورِ فِي الْإِنْسَانِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْوُجُوهَ
 الَّتِي يَحْصِلُ بِهَا الْقَصْدُ.



* قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٥٧٨- هَذَا وَمِنْ بُهْتَانِهِمْ أَنَّ اللَّغَا

تِ أَتَتْ بِتَقْلِ الْفَرْدِ وَالْوَحْدَانِ

٢٥٧٩- فَانظُرْ إِلَى الْأَلْفَاظِ فِي جَرَيَانِهَا

فِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

٢٥٨٠- أَتَظُنُّهَا تَحْتَاجُ نَقْلًا مُسْنَدًا

مُتَوَاتِرًا أَوْ نَقْلًا ذِي وَحْدَانِ

٢٥٨١- أَمْ قَدْ جَرَتْ مَجْرَى الضَّرُورِيَّاتِ لَا

تَحْتَاجُ نَقْلًا وَهِيَ ذَاتُ بَيَانِ

٢٥٨٢- إِلَّا الْأَقْلُ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ لِلنَّ

قْلِ الصَّحِيحِ وَذَلِكَ ذُو تَبْيَانِ

٢٥٨٣- وَمِنَ الْمَصَائِبِ قَوْلُ قَائِلِهِمْ بِأَنَّ

اللَّهَ أَظْهَرَ لَفْظَةَ بِلِسَانِ

٢٥٨٤- وَخِلَافَهُمْ فِيهِ كَثِيرٌ ظَاهِرٌ

عَرَبِيٌّ وَضَعُ ذَلِكَ أَمْ سِرِّيَانِي

٢٥٨٥- وَكَذَا اخْتِلَافُهُمْ أَمَشْتَقًا يُرَى

أَمْ جَامِدًا قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ

- ٢٥٨٦- وَالْأَصْلُ مَاذَا فِيهِ خُلْفٌ ثَابِتٌ
عِنْدَ النَّحَاةِ وَذَاكَ ذُو أَلْوَانِ
- ٢٥٨٧- هَذَا وَلَفْظُ اللَّهِ أَظْهَرَ لَفْظِ
نَطَقَ اللِّسَانَ بِهَا مَدَى الْأَزْمَانِ
- ٢٥٨٨- فَاَنْظُرْ بِحَقِّ اللَّهِ مَاذَا فِي الَّذِي
قَالُوهُ مِنْ لَبِيسٍ وَمِنْ بُهْتَانِ
- ٢٥٨٩- هَلْ خَالَفَ الْعُقَلَاءُ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ
الْعَالَمِينَ مُدَبِّرُ الْأَكْوَانِ
- ٢٥٩٠- مَا فِيهِ إِجْمَالٌ وَلَا هُوَ مُوْهِمٌ
نَقَلَ الْمَجَازَ وَلَا لَهُ وَضْعَانِ^(١)
- ٢٥٩١- وَالْخَلْفُ فِي أَحْوَالِ ذَلِكَ اللَّفْظِ لَا
فِي وَضْعِهِ لَمْ يَخْتَلِفْ رَجُلَانِ
- ٢٥٩٢- وَإِذَا هُمْ اخْتَلَفُوا بِلَفْظَةِ مَكَّةَ
فِيهِ لَهُمْ قَوْلَانِ مَعْرُوفَانِ
- ٢٥٩٣- أَقْبَيْنَهُمْ خُلْفٌ بِأَنْ مُرَادَهُمْ
حَرَمُ الْإِلَهِ وَقِبْلَةُ الْبُلْدَانِ
- ٢٥٩٤- وَإِذَا هُمْ اخْتَلَفُوا بِلَفْظَةِ أَحْمَدَ
فِيهِ لَهُمْ قَوْلَانِ مَذْكُورَانِ

(١) [٢٥٨٨ : ٢٥٩٠] قال العلامة محمد خليل هراس:

وهذا منهم تلبيس مكشوف وبهتان مفصوح فإن أحداً من العقلاء لم يختلف في مدلول هذه اللفظة، وأنها علم على رب العالمين مدبر الخلائق أجمعين ليس فيها إجمال يحتاج إلى تفصيل، ولا هي موهمة معنى آخر بطريق النقل المجازي ولا لها وضعان، بل لم توضع إلا لهذا المعنى وحده، يعرف ذلك كله من له علم بالوضع اللغوي لها، فأين إذا ما ادعوه من خلاف على معناه؟ اللهم إن القوم في ضلال مبين.

٢٥٩٥- أَفْتَيْنَهُمْ خُلْفٌ بِأَنَّ مُرَادَهُمْ

مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ذُو الْبُرْهَانِ

٢٥٩٦- وَنَظِيرُ هَذَا لَيْسَ يُحْصَرُ كَثْرَةً

يَا قَوْمُ فَاسْتَحْيُوا مِنْ الرَّحْمَنِ

٢٥٩٧- أَيْمِثْلِ ذَا الْهَدْيَانِ قَدْ عَزَلْتَ نُصْرُو

ضُ الْوَحْيِ عَنِ عِلْمٍ وَعَنْ إِيْقَانٍ؟

٢٥٩٨- فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُعَافِي عَبْدُهُ

مِمَّا بَلَائِكُمْ يَا ذَوِي الْعِرْفَانِ

٢٥٩٩- فَلْأَجَلِ ذَاكَ تَبَدُّوا الْكِتَابَ وَرَاءَهُمْ

وَمَضَوْا عَلَى آثَارِ كُلِّ مُهْتَانِ

٢٦٠٠- وَلْأَجَلِ ذَاكَ غَدَّوْا عَلَى السُّنَنِ الَّتِي

جَاءَتْ وَأَهْلِيهَا ذَوِي أَضْغَانِ

٢٦٠١- يَرْمُونَهُمْ كَذِبًا بِكُلِّ عَظِيمَةٍ

حَاشَاهُمْ مِنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانٍ^(١)

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هَذَا وَمِنْ بُهْتَانِهِمْ أَنَّ اللَّغَا تِ أَتَتْ بِتَنْقِيلِ الْفَرْدِ وَالْوُحْدَانَ

قوله: (هذا ومن بهتانهم) أي: من كذب هؤلاء القوم الذين قالوا إن دلالة القرآن والسنة

(١) [٢٥٩٨: ٢٦٠١] قال العلامة محمد خليل هراس:

فالحمد لله الذي عفانا مما ابتلى به هؤلاء الأعداء للمعرفة وهم في الغاية القصوى من الجهل والغباء، الذين نبذوا كتاب ربهم وراء الظهور وصاروا أعداء للسنة وأهلها يرمونهم بكل قبيح من الألقاب، وبكل فاحش من السباب من أجل قاعدة موهومة يحسبونها شيئاً وهي سراباً، ولكن هؤلاء مبرؤون مما يبته به هؤلاء الأفاكون، وهم عند الله أولوا الألباب.

دلالة لفظية في سندها؛ لأنها آحاد وفي مدلولها؛ لأنها ظواهر، (أن اللغات أتت بنقل الفرد والوحدان) أي: أن اللغات نُقلت إلينا عن طريق الأفراد وهذا من أكبر البهتان بلا شك فهل اللغات نُقلت إلينا بالأفراد؟ لا اللغات نقلت بالتواتر الذي ليس بعده تواتر، فاللغة العربية الآن بين الأمة منذ نشأت إلى اليوم والناس ينقلونها أمة بعد أمة ليس فردًا ينقلها إلى فرد بل أمة تنقلها إلى أمة أليس كذلك؟ لكن هذا من بهتانهم أن اللغات تنقل عن طريق الآحاد فهذا من البهتان العظيم.

فَانظُرْ إِلَى الْأَلْفَاظِ فِي جَرَيَانِهَا فِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
أَتَنْظُنُّهَا تَحْتَاجُ نَقْلًا مُسْنَدًا مُتَوَاتِرًا أَوْ نَقْلًا ذِي وَحْدَانٍ؟

الجواب: لا الألفاظ في جريانها بين الأمم سواء كان في خبر أو في القرآن المنقول بالتواتر كلها لا تحتاج نقلاً مسنداً يعني مثلاً لو قالوا معنى (أكل) تناول الطعام فأدخله في فمه هل نحتاج أن نقول من الذي نقل (أكل) وأن هذا معناها في اللغة أو ما نحتاج؟ لا لأنها معروفة وهي من الضروريات، ولهذا قال في البيت الثالث:

أَمْ قَدْ جَرَتْ مَجْرَى الضَّرُورِيَّاتِ لَا تَحْتَاجُ نَقْلًا وَهِيَ ذَاتُ بَيَانٍ

لا نحتاج أن نقول: إن اللغات التي هي منقولة بخبر الآحاد تحتاج إلى إسناد ثم يُنظر في رجال السند هل هم ثقات أو غير ثقات، لا هذا شيء يجري في الألفاظ جريان الهواء والريح ولا يحتاج إلى نص، هي جارية مجرى الضروريات يقول:

إِلَّا الْأَقْلُ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ لِلنَّ قَلِ الصَّحِيحِ وَذَلِكَ ذُو تَبَيَانٍ

يعني صحيح أنه يوجد كلمات غريبة في اللغة العربية لا تُستعمل إلا نادراً وهذه الكلمات الغريبة تحتاج إلى نقل بحيث ينقلها إمام من أئمة العربية كسيبويه أو غيره فيقول: هذه نطق بها العرب أما عامة اللغة العربية فإنها لا تحتاج إلى سند؛ لأنها جرت بين الناس مجرى الأمور الضرورية تنقلها الأمة بكاملها أمة عن أمة قرناً عن قرن.

وَمِنَ الْمَصَائِبِ قَوْلُ قَائِلِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ لَفْظَةً بِلِسَانٍ

قوله: (الله) يعني لفظة الله يقول: هذه أظهر لفظة في القرآن تدل على مدلولها فكلُّ يعرف من المراد بها فالمراد بها ربُّ العالمين فيقولون: هم يحتجون علينا فيقولون: أظهر لفظة هي الله ومع ذلك فيها خلاف فإذا كان أظهر لفظة في القرآن وهي الله فيها خلاف فما بالك



بالكلمات الأخرى التي لا توازيها في الظهور؟ وهذا قصدهم بذلك: أن جميع القرآن مشكوك في دلالة - نسأل الله العافية -.

وخلافهم فيه كثير ظاهر يعني أن الناس مختلفون في كلمة الله، كيف الاختلاف؟ عربي وضع ذلك أم سرياني.

الاختلاف هل اللفظ هذا عربي أو باللغة السريانية لغة الإنجيل.

وَكَذَا اخْتِلَافُهُمْ أَمَشْتَقًا يُرَى أَمْ جَامِدًا قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ

إذن عندنا خلاف، الأول هل هو عربي أو سرياني، الثاني إذا قلنا إنه عربي هل هو مشتق أو جامد مع أن الله الكلمة هذه أظهر لفظة في القرآن، ومع ذلك الخلاف فيها موجود، فما بالك بما دونها في الظهور، يكون الخلاف فيه من باب أولى، والنتيجة بعد هذا أن مدلولات ألفاظ القرآن غير معلومة ولا متيقنة؛ لأن الخلاف فيها كثير، والكلام يشكك الواحد، كلام يشكك إذا جاءنا إنسان ذكي في المناظرة وقام يتكلم بمثل هذا الكلام تقول: والله صحيح كلمة الله الذي أوضح شيء في القرآن يختلف فيه الناس هل هي عربية أم سريانية، ثم إذا كانت عربية هل هي مشتقة أو جامدة، إذن ما سواها من الكلمات من باب أولى، فيبقى القرآن كله غير معتمد على دلالة - نسأل الله العافية - إجرام - والعياذ بالله - إذا كان القرآن غير معتمد على دلالة فالأحاديث من باب أولى، فالأحاديث فيها آفة أخرى وهي أنه لعل الرواة نقلوها بالمعنى فأخطأوا بخلاف القرآن فإنه متواتر ما يمكن خطأ في النقل فيه.

فالخاص: أن هؤلاء - والعياذ بالله - شياطين الإنس يأتون بمثل هذا الكلام ليلبسوا على الناس دينهم، ولولا أن الله حفظ دينه بما قيض من العلماء الربانيين لضاع الدين وضاع كل شيء.

• وَالْأَهْلُ مَاذَا فِيهِ خُلِفَ ثَابِتٌ عِنْدَ النَّحَاةِ وَذَلِكَ ذُو أَلْوَانِ

نعم، الأصل ماذا فيه: يعني ما أصل الله هل هو الإله أو هي كلمة مرتجلة أو ماذا؟ هذا أيضًا فيه خلاف بعضهم يقول: الله أصله الإله فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال كما حذفت الهمزة من الناس وأصله أناس وحذفت من شر وخير، تقول هذا خير من هذا وهذا شر من هذا، والأصل أخير وأشر هذا فيه أيضًا خلاف.

هَذَا وَلَفْظُ اللَّهِ أَظْهَرَ لَفْظٍ نَطَقَ اللِّسَانُ بِهَا مَدَى الْأَزْمَانِ

يعني: أظهر لفظة في الوجود لفظة الله ما من إنسان تقول أمامه الله إلا وينصرف ذهنه

إلى رب العالمين عز وجل لا ينصرف يمينا ولا شمالا لا إلى صنم ولا إلى ملك ولا إلى رسول ولا إلى ولي إنما ينصرف إلى الله ولهذا كانت لفظة الله من الأشياء الخاصة بالله عز وجل.

فَانظُرْ بِحَقِّ اللَّهِ مَاذَا فِي الَّذِي قَالُوهُ مِنْ لَبْسٍ وَمِنْ بُهْتَانٍ

انظر نظر تعجب وإنكار ماذا قالوه من لبس ومن بهتان وما اللبس الذي قالوه؟ قالوا: كلمة الله الآن مختلف في مدلولها ما ندري ولكن هل هي عربية أو سريانية وهل هي مشتقة أو جامدة وهل هي مرتجلة أو منحوتة ما ندري.

هَلْ خَالَفَ الْعُقَلَاءُ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ الْعَالَمِينَ مُدَبَّرُ الْأَكْوَانِ

قوله: (الله) يعني: أن لفظة الله يُراد بها رب العالمين مع اختلافهم في الكلمة هل اختلفوا في المراد؟ لكن هؤلاء يلبسون ليجعلوا اختلاف الكلمة سببا لاختلاف المراد لكن يقول بِحَقِّ اللَّهِ أن المراد من الله هنا مدلول الكلمة.

مَا فِيهِ إِجْمَالٌ وَلَا هُوَ مُوَهِّمٌ نَقَلَ الْمَجَازَ وَلَا لَهُ وَضْعَانِ

هذا متفق عليه فأنتم حين تلبسون على العامة وتقولون الله مختلف فيه أعربي أو سرياني هل هو مشتق أو جامد هل هو منقول أو مرتجل إنما تريدون بهذا التمويه، أما المراد منه فإن العقلاء متفقون على أن المراد رب العالمين.

وَالْخَلْفُ فِي أَحْوَالِ ذَلِكَ اللَّفْظِ لَا فِي وَضْعِهِ لَمْ يَخْتَلِفْ رَجُلَانِ

قوله: (الخلف) اختلفوا أنهم قالوا: يعود إلى اللفظ يعني في أحوال اللفظ هل سرياني عربي أم لمن وضعه؟ فيه اختلاف أو لا؟ ما فيه اختلاف ولهذا قال: (لا في وضعه لم يختلف رجلان).

وَإِذَا هُمْ اخْتَلَفُوا بِلَفْظَةِ مَكَّةَ فِيهِ لَهُمْ قَوْلَانِ مَعْرُوفَانِ

أَقْبَيْنَهُمْ خُلْفٌ بِأَنَّ مُرَادَهُمْ حَرَمَ الْإِلَهِ وَقَبِيلَةَ الْبُلْدَانِ

يعني: الناس اختلفوا أيضا في لفظ مكة لماذا سميت مكة؟ وأحيانا تسمى بكة وقد سماها الله في القرآن بالاسمين بكة ومكة، لكن هذا الخلاف الذي وقع هل اختلف الناس في المراد به؟

وَإِذَا هُمْ اخْتَلَفُوا بِلَفْظَةِ أَحْمَدَ فِيهِ لَهُمْ قَوْلَانِ مَذْكُورَانِ

أَقْبَيْنَهُمْ خُلْفٌ بِأَنَّ مُرَادَهُمْ مِنْهُ رَسُولَ اللَّهِ ذُو الْبُرْهَانِ

فهم اختلفوا في لفظة أحمد، لماذا سمي أحمد؟ هل لأنه أحمد الناس لله أو لأنه أحق الناس



أن يُحمد؟ فهؤلاء الذين اختلفوا هل اختلفوا في أن المراد به رسول الله؟ لا إذا اختلف في اللفظ لا فيمن وضع له ولا في الواضع له، فاختلف الناس في كلمة الله عز وجل هل اختلفوا في أن المراد الله أو في مراد آخر؟ لا إنما اختلفوا في الاسم أما الله فلم يختلفوا في أن المراد به أنه رب العالمين وهذه ثلاثة أمثلة، يختلف الناس في اللفظ يختلفون في المراد، الله ومكة وأحمد يعني الرسول عليه الصلاة والسلام يختلفون في اللفظ ولا يختلفون في المراد. يقول:

أَفَيَيْنَهُمْ خُلْفٌ بِأَنَّ مُرَادَهُمْ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ذُو الْبُرْهَانِ
وَنَظِيرُهُ هَذَا لَيْسَ يُحْصَرُ كَثْرَةً يَا قَوْمُ فَاسْتَحْيُوا مِنَ الرَّحْمَنِ

يعني: نظير هذا يختلفون في اللفظ واشتقاقه لكن لا يختلفون في المراد منه، وكثير هذا، لكن أحياناً أيضاً يتفقون على اللفظ ويختلفون في المراد مثل: القرء في قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] جمع قرء ما المراد بها هو الحيض أو الطهر؟ خلاف مع أنهم متفقون على اللفظ أحياناً يختلفون في اللفظ ويتفقون في المراد.

أَبِمِثْلِ ذَا الْهَدْيَانِ قَدْ عَزَلْتِ نُصُو صُ الْوَحْيِ عَنِ عِلْمٍ وَعَنِ إِيقَانٍ؟

الجواب: لا والله لا تعزل وهذا هديان وكونهم يلبسون على الناس ويقولون الله هل هو عربي أو سرياني؟ هل هو مشتق أو جامد؟ هل هو مرتجل أو منقول؟ هذا لا يؤثر؛ لأن المدلول متفق عليه.

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُعَافِي عَبْدَهُ مِمَّا بَلَائِكُمْ يَا ذَوِي الْعِرْفَانِ

يعني: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به، وفي قوله (يا ذوى العرفان) تهكم واضح؛ لأنهم هم أبعد الناس عن المعرفة وعن العرفان لكن هذا من باب التهكم.

فَلَأَجْلِ ذَلِكَ نَبَذُوا الْكِتَابَ وَرَاءَهُمْ وَمَضَوْا عَلَى آثَارِ كُلِّ مُهَانَ

نبدوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولكنهم ساروا على آثار كل مهان يعني: من مشائخهم الذين يعظمونهم ويقدمون أقوالهم على قول الله ورسوله.

وَلَأَجْلِ ذَلِكَ غَدَاوَا عَلَى السُّنَنِ النَّبِيِّ جَاءَتْ وَأَهْلِيهَا ذَوِي أَضْغَانٍ

غدوا ذوي، غدوا تعمل عمل كان الواو اسمها وذوى أضغان خبرها يعني صاروا ذوى الأضغان على السنن.



يَرْمُونَهُمْ كَذِبًا بِكُلِّ عَظِيمَةٍ حَاشَاهُمْ مِنْ إِفْكِ ذِي بُهْتَانٍ

هؤلاء يرمون أهل الحديث كذباً بكل عظيمة، قالوا: مجسمة مشبهة حشوية نوابت غشاء عامة وهكذا.

مسألة: ما معنى المرتجل والمنقول؟

الجواب: المرتجل معناه الذي وضع ابتداءً والمنقول الذي نقل عن غيره.

فائدة: هذا الفصل كله وضعه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ للرد عليهم في دعواهم بأن دلالة الكتاب والسنة غير يقينية بل ظنية لأن كل لفظة في القرآن يحتمل معاني - على كلامهم - فيلبسون على الناس فيأتون بهذا اللفظ الذي اختلفوا فيه في أصل الكلمة لأجل أن يلبسوا على الناس، يقول: أنتم انظروا أيها الناس مع كون لفظة الله أظهر لفظة إلا أنهم يختلفون في لفظها لا في معناها، فهم أشد من المنافقين؛ لأن المنافقين ما يحرفون بل يوافقون ظاهراً لكن الباطن خرب.



فصل

في تنزيه أهل الحديث والشريعة
عن الألقاب القبيحة الشنيعة

- ٢٦٠٢- فَرَمَوْهُمُ بَغِيًّا بِمَا الرَّمِي بِهِ
أُولَى لِيُدْفَعَ عَنْهُ فِعْلُ الْجَانِي
- ٢٦٠٣- يَرْمِي الْبَرِيءَ بِمَا جَنَأَهُ مُبَاهِتًا
وَلِذَلِكَ عِنْدَ الْغَرِّ يَشْتَبِهَانِ
- ٢٦٠٤- سَمُّوهُمْ حَشَوِيَّةً وَنَوَابِتًا
وَمُجَسِّمِينَ وَعَابِدِي أَوْثَانِ
- ٢٦٠٥- وَكَذَلِكَ أَعْدَاءُ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ
وَهُمُ الرَّوَافِضُ أَحْبَبُ الْحَيَوَانِ
- ٢٦٠٦- نَضَبُوا الْعَدَاوَةَ لِلصَّحَابَةِ ثُمَّ سَمَّ
وَالنَّوَابِطِ شَيْعَةَ الرَّحْمَنِ
- ٢٦٠٧- وَكَذَا الْمُعْطَلُ شَبَّهَ الرَّحْمَنَ بِالِ
مَعْدُومٍ فَاجْتَمَعَتْ لَهُ الْوَصْفَانِ
- ٢٦٠٨- وَكَذَلِكَ شَبَّهَ قَوْلَهُ بِكَلَامِنَا
حَتَّى نَقَّاهُ وَذَانِ تَشْبِيهَانِ
- ٢٦٠٩- وَأَتَى إِلَى وَصِفِ الرَّسُولِ لِرَبِّهِ
سَمَاءَهُ تَشْبِيهًا فَيَا إِخْوَانَ
- ٢٦١٠- بِاللَّهِ مَنْ أُولَى بِهَذَا الْإِسْمِ مِنْ

هَذَا الْخَيْثِ الْمُخْبِثِ الشَّيْطَانِ

٢٦١١- إِنْ كَانَ تَشْبِيهَا ثُبُوتُ صِفَاتِهِ

سُبْحَانَهُ فَيَاكْمَلْ ذِي شَانِ

٢٦١٢- لَكِنَّ نَفْسِي صِفَاتِهِ تَشْبِيهُهُ

بِالْجَامِدَاتِ وَكُلِّ ذِي نَقْصَانِ

٢٦١٣- بَلْ بِالذِّي هُوَ غَيْرُ شَيْءٍ وَهُوَ مَعَ

ذُوْمٍ وَإِنْ يَفْرَضُ فِي الْأَذْهَانِ

٢٦١٤- فَمِنْ الْمُشَبَّهِ بِالْحَقِيقَةِ أَنْتُمْ

أَمْ مُثَبِّتِ الْأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

فَرَمَوْهُمْ بَغِيًّا بِمَا الرَّامِي بِهِ أَوْلَى لِيَدْفَعَ عَنْهُ فِعْلَ الْجَانِي

قوله: (فرمؤهم بغياً بما الرامي به أولى)، (رمؤهم) يعني أن هؤلاء المعطلة رموا أهل الحديث بما هم أولى به من الألفاظ القبيحة الشنيعة كما رمى المنافقون رسول الله ﷺ وأصحابه بما هم أولى به قال المنافقون: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء» من يعنون؟ الرسول ﷺ وأصحابه وفي الحقيقة أن هذه الأوصاف تنطبق عليهم فما رأينا أكذب ألسناً من المنافقين، ولهذا من علامات المنافق الكذب، ولا رأينا أجبن منهم حتى في غير اللقاء قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] لا يصيح واحد من الناس لأولاده أو طفله في السوق إلا ظنوا أنه يصيح عليهم، ولا أرغب بطوناً يعني: أوسع بكثرة الأكل وأنه ليس لهم همٌّ إلا ملء هذه البطون، ونحن نعلم أن الذين ليس لهم هم إلا ملء البطون هم المنافقون، ما نافقوا إلا ليقنوا حتى لا يقتلهم المؤمنون؛ إذن هؤلاء المعطلة رموا أهل السنة بما هم أولى به قال: (ليدفع عنه فعل الجاني) يعني: ليدفع عن نفسه السوء برمي غيره ومن أمثال العامية: ضربني وبكى وسبقني وشكى.

يَرْمِي الْبَرِيءَ بِمَا جَنَاهُ مُبَاهِتًا وَلِذَلِكَ عِنْدَ الْغَيْرِ يَشْتَبِهَانِ

يعني: أنه يرمي الأبرياء بما جناه هو بنفسه فالغُرُّ الذي لا يدري يشتهبه عليه الأمر يقول: لعل الصواب مع أهل التعطيل.

سَمُّوهُمْ حَشْوِيَّةً وَنَوَابِتًا وَمُجَسِّمِينَ وَعَابِدِي أَوْثَانِ

يعني: سموا أهل الحديث بهذه الألقاب حشوية وسبق لنا معنى الحشوية؛ أما النوابت فيعونون بها: نوابت الزروع التي ما فيها فائدة فهي نوابت تنبت في الزرع ليس لها فائدة ومجسمين يعني يقولون: إن الله جسم وقد سبق في هذه القصيدة أنه لم يقل أحد من أهل الحديث: إن الله جسم، كذلك أيضًا عابدي أوثان قالوا أنتم تقولون: إن الله موصوف بهذه الصفات وهذا يقتضي أن يكون جسمًا وحينئذ تكونون عابدي أوثان جعلتم الله وثنا.

وَكَذَلِكَ أَعْدَاءُ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ وَهُمْ الرَّوَافِضُ أَحْبَبُ الْحَيَوَانِ

قوله: (أعداء الرسول وصحبه هم الروافض) يقول: (أحببت الحيوان) وهذا كقول القحطاني رَضِيَ اللَّهُ فِي نُونِيته: إن الروافض شرٌّ من وطئ الحصى (شر من وطئ الحصى) والذي يطأ الحصى بنو آدم والحيوانات وغيرها فكل شيء يطأ الحصى هم شر منه.

نَصَبُوا الْعِدَاةَ لِلصَّحَابَةِ ثُمَّ سَمَّ وَابِلِ النَّوَاصِبِ شِيعَةَ الرَّحْمَنِ

المعنى: نصبوا العداوة للصحابة؛ لأنهم يكفرون الصحابة إلا آل البيت ونفراً قليلاً من غيرهم يكفرون أبا بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وبقية الصحابة إلا آل البيت ونفراً قليلاً من غيرهم كسلمان الفارسي وما أشبهه ويسمون أهل الحديث - وهم شيعة الرحمن - نواصب يحبون هؤلاء الصحابة، ومن القواعد المقررة عندهم كل من أحب أبا بكر وعمر فقد أبغض علياً وكذبوا - ورب العرش - بل إننا نحب علياً وأبا بكر وعمر وعثمان ولا ينافي هذا هذا، لكن هم يقولون: مَنْ أَحَبَّ الصَّحَابَةَ فَقَدْ نَصَبَ الْعِدَاةَ لِآلِ الْبَيْتِ.

وَكَذَا الْمُعْطَلُ شَبَّهَ الرَّحْمَانَ بِالِ مَعْدُومٍ فَاجْتَمَعَتْ لَهُ الْوَصْفَانِ

قوله: (الوصفان): شبه الخالق بالمعدوم ولهذا عطله عن صفاته، فاجتمعت له الوصفان: أي وصف العدوان ووصف التشبيه واعتدى على أهل الحديث ووصفهم بهذه الأوصاف الشيعة.

وَكَذَلِكَ شَبَّهَ قَوْلَهُ بِكَلَامِنَا حَتَّى نَفَاهُ وَذَانِ تَشْبِيهَانِ

شبه قوله بكلامنا، يعني: قال: لو أثبتنا لله كلامًا لزم أن يكون مشابهًا للمخلوق فنفي الكلام

فصار عنده تشبيهان: تشبيه كلام الله لكلامنا ثم تشبيه الله بالأخرس الذي لا يتكلم.

وكذاك شبه وصفه بصفاتنا حتى نفاه عنه بالبهتان

أتدرون لماذا أنكر هؤلاء المعطلة لصفات الله؟ لأنهم تصوروا أن إثباتها يستلزم التشبيه فلما تصوروا هذا قالوا: إذن يجب أن نفيها؛ لئلا نقع في التشبيه فشبها أولاً وعطلوا ثانياً ولهذا قال شيخ الإسلام رحمته الله في «الفتوى الحموية» كل معطل ممثل وكل ممثل معطل، وصدق رحمته الله، فالمعطل ممثل؛ لأنه إنما عطل لاعتقاده أن إثبات الصفات يستلزم التمثيل فمثل أولاً في تصوره ثم عطل ثانياً، ثم نقول هو أيضاً في تعطيله ممثل؛ لأنه إذا أنكر الصفات شبه الله بالمعدومات فمثل بالمعدوم وكل ممثل معطل؛ لأن الممثل عطل كل نص يدل على نفى المماثلة فالممثل عطل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الممثل عطل الله من كماله الواجب؛ لأن تمثيل الخالق بالمخلوق يجعله ناقصاً فيكون في هذا الحال معطلاً لكمال صفات الله عز وجل.

فالحاصل: أن المؤلف رحمته الله يقول: إن هؤلاء الذين شبها وصفه بصفاتنا حتى نفوا ذلك بالبهتان هم في الحقيقة لم يسلموا من التمثيل.

وَأَتَى إِلَى وَصِفِ الرَّسُولِ لِرَبِّهِ سَمَاءُ تَشْبِيهَا فَيَا إِخْوَانَ

يعني: أتى إلى وصف الرسول ربّه فقال: إنه مشبه - يعني الرسول صلى الله عليه وسلم - الله بخلقه وهذا قد يقوله بعضهم، وقد لا يقوله ولكن يكون هذا من لازم مذهبهم.

بِاللَّهِ مَنْ أَوْلَىٰ بِهَذَا الْإِسْمِ مِنْ هَذَا الْحَبِيثِ الْمُخْبِثِ الشَّيْطَانِ؟ مَنْ أَوْلَىٰ؟ هُمْ أَوْلَىٰ بِذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ.

إِنْ كَانَ تَشْبِيهَا ثُبُوتُ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ فَيَأْكَمِلُ ذِي شَانٍ

وفي نسخة ثانية (أكمل به ذي شان) وهي تصلح على كل حال إذا كان ثبوت صفات الله تشبيهاً فإنها تشبيهه بالأكمل يعني إثباتها إنما تثبت على أن الله المثل الأعلى.

لَكِنَّ نَفْيَ صِفَاتِهِ تَشْبِيهُهُ بِالْجَامِدَاتِ وَكُلِّ ذِي نُقْصَانٍ

معنى آخر يتبين لي إن كان إثبات الصفات تشبيهاً فقد مثلناه بالأكمل؛ لأن المتصف بصفات الكمال أولى ممن لم يتصف بها.

وإذا نفينا صفاته فقد شبهناه بالأنقص أو بالأكمل؟ بالأنقص ولهذا يقول: وكل ذي نقصان.

بَلْ بِالَّذِي هُوَ غَيْرُ شَيْءٍ وَهُوَ مَعَ دُومٍ وَإِنْ يُفْرَضُ فِيهِ الْأَذْهَانِ

قوله: (بل بالذي هو غير شيء) كيف غير شيء؛ لأنك إذا نفيت الصفات عن الله مطلقاً فهذا هو العدم إذا كان هو العدم فقد وصفت الله بالعدم بأنه لا موجود نعم ولهذا يبين ذلك بأنه. إن فرض وجود ذات لا تتصف بالصفات فإن هذا يقدر في الذهن أما في الواقع فلا يوجد ذات خالية من الصفات.

فَمَنْ الْمُشَبَّهِ بِالْحَقِيقَةِ أَنْتُمْ أَمْ مُشَبَّاتُ الْأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ

الجواب؟ هم إذا قدر أن المثبتين شبهوه فقد شبهوه بالأكمل؛ لأن من يتصف بصفات الكمال أكمل، وأما هؤلاء فقد شبهوه بالأنقص بما لا صفة له، بل إنهم في الحقيقة شبهوه بالعدم.

مسألة: إذا سئل المعطل: هل الله سبحانه الآن يشاهدنا أو يسمعنا فماذا يجيب؟

الجواب: على كلامهم يقولون: إن الله سبحانه وتعالى لا يسمع بسمع ولا يعلم بعلم ولا يبصر ببصر، فنقول هذا كلام غير معقول وإنما هو بالحقيقة مصانع ومجاهل وإلا في الحقيقة قولكم أنه لا يسمع لكن تخشون من ثورة العامة وتقولون يسمع بلا سمع ويبصر بلا بصر ويتكلم بلا كلام وهكذا.





مَهْد بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في نكتة بديعة تبين ميراث الملقبين والملقبين من المشركين والموحدين

النكتة هي الفائدة اللطيفة التي لا تكاد تدرك إلا بدقة فهم ولطف عبارة. وذلك أن أعداء الرسول ﷺ من الكفار والمنافقين رموه بألقاب هم أهلها وأحق بها، ورسول الله ﷺ أبعد الخلق عنها، رموه بالكذب والافتراء والقول على الله وأنه أبت وأبتر وأنه الذي قطع الأرحام وأتاهم بما لم يأت به أحد. وقد برأه الله من ذلك وأخبر أن هذه الأوصاف الشنيعة وصف أعدائه.

كذلك حالة من ورث هؤلاء المشركين من جهمية وملاحدة لقبوا ورثة الرسول بالألقاب القبيحة وهم أبعد الناس عنها ومن رماهم أحق بها.

ومن بديع ذلك وعجيبه أن المشركين كانوا يسمون محمداً ﷺ مذمماً بدل محمد فيشتمون مذمماً ويقول النبي ﷺ: «أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَشْتَمُونَ مُذْمَماً وَأَنَا مُحَمَّدٌ» فصرف الله عن نبيه شتمهم لفظاً ومعنى، وكذلك أتباع محمد يسميهم أعداؤهم مجسمة مشبهة حشوية نواصب، فيرمون هذه الأسماء ويشتمونها، ويصرف الله شتمهم عنهم لفظاً ومعنى، فهذا تحقيق لهذا الميراث من الوارثين والوارثين، والله أطف وأسرار لا تبلغها الأفهام.



فصل

في نكتة بديعة تبين ميراث الملقبين
والملقبين من المشركين والموحدين

٢٦١٦- هَذَا وَتَمَّ لَطِيفَةٌ عَجَبٌ سَابَ

لِيَدِيهَا لَكُمْ يَا مَعْشَرَ الْإِخْوَانِ

٢٦١٧- فَاسْمَعْ فَذَلِكَ مُعْطَلٌ وَمُشَبَّهٌ

وَاعْقِلْ فَذَلِكَ حَقِيقَةُ الْإِنْسَانِ

٢٦١٨- لَا بُدَّ أَنْ يَرِثَ الرَّسُولُ وَضِدَّهُ

فِي النَّاسِ طَائِفَتَانِ مُخْتَلِفَانِ

٢٦١٩- فَالْوَارِثُونَ لَهُ عَلَى مِنْهَاجِهِ

وَالْوَارِثُونَ لِضِدِّهِ فِتْنَانِ

٢٦٢٠- إِحْدَاهُمَا حَرَبٌ لَهُ وَلِحِزْبِهِ

مَا عِنْدَهُمْ فِي ذَاكَ مِنْ كِتْمَانِ

٢٦٢١- فَرَمَوْهُ مِنَ الْقَابِهِمْ بِعِظَائِمِ

هُمُ أَهْلُهَا لَا خَيْرَ الرَّحْمَنِ^(١)

(١) [٢٦١٦: ٢٦٢١] قال العلامة محمد خليل هراس:

بعد أن بين المؤلف ما وقع فيه هؤلاء المعطلة من التشبيه الذي رموا به أهل الإثبات كذباً وبهتاناً أراد أن يوقفنا على لطيفة من اللطائف الخفية التي تدل على عجيب صنع الله في خلقه، فقال إن الناس منذ كانوا: ثلاثة أقسام:

معطل يمحذ الخالق جل وعلا وينكر وجوده أو ينكر ما ينبغي له من الصفات.

ومشبه يؤمن بوجود الله سبحانه ولكنه يثبت له مثل صفات المخلوقين.

ومؤمن موحد يثبت لله ما يليق به من الأسماء والصفات مع تنزيهه عن مشابهة المخلوقات.

- ٢٦٢٢- فَاتَى الْأَلَى وَرِثُوهُمْ فَرَمُوا بِهَا
وَرَأَاهُ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ
- ٢٦٢٣- هَذَا يُحَقِّقُ إِرْثَ كُلِّ مِنْهُمَا
فَاسْمَعْ وَعِهْ يَا مَنْ لَهُ أُذُنَانِ
- ٢٦٢٤- وَالْآخِرُونَ أَوْلُو التَّفَاقُقِ فَأَضْمَرُوا
شَيْئًا وَقَالُوا غَيْرَهُ بِلِسَانِ
- ٢٦٢٥- وَكَذَا الْمُعْطَلُ مُضْمَرٌ تَعْطِيلُهُ
قَدْ أَظْهَرَ التَّنْزِيهَ لِلرَّحْمَنِ
- ٢٦٢٦- هَذِي مَوَارِيثُ الْعِبَادِ تَقَسَّمَتْ
بَيْنَ الطَّوَائِفِ قِسْمَةَ الْمَنَانِ
- ٢٦٢٧- هَذَا وَتَمَّ لَطِيفَةٌ أُخْرَى بِهَا
سُلُوَانٌ مِّنْ قَدْ سُبِّ بِالْبُهْتَانِ
- ٢٦٢٨- تَجِدُ الْمُعْطَلَ لِأَعْنَاءِ لِمُجَسِّمِ
وَمُشْتَبِهٍ لِلَّهِ بِالْإِنْسَانِ
- ٢٦٢٩- وَاللَّهُ يَصْرِفُ ذَاكَ عَنِ أَهْلِ الْهُدَى
كَمُحَمَّدٍ وَمُذَمِّمِ إِسْمَانِ
- ٢٦٣٠- هُمْ يَشْتُمُونَ مُذَمِّمًا وَمُحَمَّدًا
عَنْ شَتْمِهِمْ فِي مَعَزِلٍ وَصِيَانِ
- ٢٦٣١- صَانَ الْإِلَهَ مُحَمَّدًا عَنْ شَتْمِهِمْ
فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى هَمَا صِنَوَانِ

٢٦٣٢- كَصِيَانَةِ الْاِتِّبَاعِ عَنِ شْتَمِ الْمُعْطَلِ

سَلِّ لِلْمُشَبِّهِ هَكَذَا الْاِرْتِثَانِ

٢٦٣٣- وَالسَّبُّ مَرِجَعُهُ اِلَيْهِمْ اِذْ هُمْ

اَهْلٌ لِكُلِّ مَذْمُومَةٍ وَهَوَانِ

٢٦٣٤- وَكَذَا الْمُعْطَلُ يَلْعَنُ اسْمَ مُشَبِّهِ

وَاسْمُ الْمُوَحِّدِ فِي حِمَى الرَّحْمَنِ (١)

٢٦٣٥- هَذِي حِسَانُ عَرَائِيں زُقَّتْ لَكُمْ

وَلَدَى الْمُعْطَلِ هُنَّ غَيْرُ حِسَانِ

٢٦٣٦- وَالْعِلْمُ يَدْخُلُ قَلْبَ كُلِّ مُوَفَّقٍ

مِنْ غَيْرِ بَوَابٍ وَلَا اسْتِثْنَانِ

٢٦٣٧- وَيَرُدُّهُ الْمَحْرُومُ مِنْ خُدْلَانِهِ

لَا تُشْقِنَا اللّٰهُمَّ بِالْحِرْمَانِ

٢٦٣٨- يَا فِرْقَةً نَفَتْ الْاِلهَ وَقَوْلُهُ

وَعُلُوُّهُ بِالْجَحْدِ وَالْكُفْرَانِ

٢٦٣٩- مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ فَرِي عَالَمٍ

بِسَرَائِرِ مِنْكُمْ وَخُبَيْثِ جَنَانِ

٢٦٤٠- فَالله نَاصِرُ دِينِهِ وَكِتَابِهِ

وَرَسُوْلُهُ بِالْعِلْمِ وَالسَّلْطَانِ

(١) [٢٦٣١ : ٢٦٣٤] قال العلامة محمد خليل هراس:

وكما صان الله عز وجل نبيه عن شتم الكفار وتنقيصهم، فقد صان أتباعه عن شتم المعطل للمشبه، فلا يلحقهم من معرته شيء، بل هو في الحقيقة راجع إلى هؤلاء الشائتين، فإنهم هم أحق بكل مذمة وتنقيص، فالمعطل يلعن اسم المشبه، فلا يلحق لعنه إلا كل من صدق عليه هذا الاسم وهو غير صادق على أحد من أهل الحق، بل الذي يصدق عليه أنه موحد، فهو في حمي الله من كل ما يتلاعن به المبطلون.

٢٦٤١- وَالْحَقُّ رُكْنٌ لَا يَقُومُ لَهُدَى

أَحَدٌ وَلَوْ جُمِعَتْ لَهُ الثَّقَلَانِ

٢٦٤٢- تُوبُوا إِلَى الرَّحْمَنِ مِنْ تَعْطِيلِكُمْ

فَالرَّبُّ يَقْبَلُ تَوْبَةَ التَّادِمَانِ

٢٦٤٣- مَنْ تَابَ مِنْكُمْ فَالْجَنَانُ مَصِيرُهُ

أَوْ مَاتَ جَهْمِيًّا فِي التِّيْرَانِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هذه نكتة بديعة ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ وهي بديعة الوصف يقول:

هَذَا وَتَمَّ لَطِيفَةٌ عَجَبٌ سَأَبُ دِيهَا لَكُمْ يَا مَعْشَرَ الْإِخْوَانِ

يعني: ألفاظه مشوقة رَحِمَهُ اللهُ، الإنسان إذا سمع هذا البيت يتعجب ويقول: هات هات ما عندك.

فَأَسْمَعُ فَذَلِكَ مُعْطَلٌ وَمُشَبَّهٌ وَأَعْقِلُ فَذَلِكَ حَقِيقَةُ الْإِنْسَانِ

قوله: (اعقل فذاك) يعني العقل حقيقة الإنسان، ولهذا لا يتميز الإنسان عن الحيوان إلا بالعقل فإذا فقد العقل - والمراد بالعقل -: عقل الرشد صار أخبث من الحيوان كما قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

لَا بُدَّ أَنْ يَرِثَ الرَّسُولَ وَضِدَّهُ فِي النَّاسِ طَائِفَتَانِ مُخْتَلِفَانِ

يعني: الرسول ﷺ له أعداء وكذلك وارثو الرسول لا بد أن يكون لهم أعداء؛ لأن النبي ﷺ لم يعاد لشخصه وإنما عودي لشرعه فمن تمسك بشرعه فسيجد له أعداء كما وجد النبي ﷺ له أعداء يقول:

فَالْوَارِثُونَ لَهُ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَالْوَارِثُونَ لِضِدِّهِ فِتْنَانِ

الوارثون للرسول ﷺ - وأسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم - على منهاجه لا يحددونه والوارثون لضده فتنان:

إِحْدَاهُمَا حَرَبٌ لَهُ وَلِجِزْبِهِ مَا عِنْدَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ كِتْمَانِ

وهم الكفار الخُلص الذين يعلنون الكفر وهؤلاء حرب للرسول وحزبه يعلنونها إعلانًا صريحًا ما عندهم في ذلك من كتمان.

فَرَمَوْهُ مِنَ الْقَابِهِمِ بِعِظَائِمٍ هُمُ أَهْلُهَا لَا خَيْرَ الرَّحْمَنِ

قوله: (رموه) يعني: رموا النبي ﷺ من ألقابهم بالعظائم قالوا: ساحر ومجنون وشاعر وكاهن وكذاب.

فَأَتَى الْأَلَى وَرِثُوهُمْ فَرَمُوا بِهَا وَرَائَهُ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ

الذين ورثوا الكفار رموا بهذه العظائم وارثي النبي ﷺ وهم أتباعه.

هَذَا يُحَقِّقُ إِرْثَ كُلِّ مِنْهُمَا فَاسْمَعْ وَعِهِ يَا مَنْ لَهُ أَدْنَانِ

الفريق الثالث وهو الثاني من ضد الرسول عليه الصلاة والسلام.

وَالْآخَرُونَ أَوْلُو التِّفَاقِ فَأَضْمَرُوا شَيْئًا وَقَالُوا غَيْرَهُ بِلِسَانِ

ماذا أضمروا؟ الكفر وقالوا غيره بلسان أي: الإسلام فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر.

وَكَذَا الْمُعْطَلُ مُضْمَرٌ تَعْطِيلُهُ قَدْ أَظْهَرَ التَّنْزِيهَ لِلرَّحْمَنِ

المعطل ينكر الصفات ويكفر بها مدع أن ذلك تنزيه لله عز وجل وتوحيد له ويقول: إن أهل الإثبات مشركون - كما سبق - عابدو أوثان مجسمة.

هَذِي مَوَارِيثُ الْعِبَادِ تَقَسَّمَتْ بَيْنَ الطَّوَائِفِ قِسْمَةَ الْمَثَانِ

والله سبحانه وتعالى يؤتي فضله من يشاء ومن الناس من حُرِمَ ومن الناس من أُعْطِيَ ومُنْح.

هَذَا وَتَمَّ لَطِيفَةٌ أُخْرَى بِهَا سُلْوَانٌ مِّنْ قَدْ سُبَّ بِالْبُهْتَانِ

قوله: (سلوان) يعني: تسل وما هذه اللطيفة؟

تَجِدُ الْمُعْطَلُ لَأَعْنًا لِمُجَسِّمٍ وَمُشْبِهٍ لِّلَّهِ بِالْإِنْسَانِ

المعطل يلعن المجسم والمشبه لله بالإنسان والحقيقة أن لعنه يعود عليه؛ لأنه هو مشبه فالمعطل مشبه كما مر علينا الآن، فإذا لعن الممثل قال: اللهم العن الممثل والمشبه فقد لعن نفسه؛ لأن أهل الحديث ينكرون هذا لا يشبهون الله بخلقه ويقول: ليس كمثله شيء ولا

يجسمون ما قالوا: إنه جسم.

وَاللَّهُ يَصْرِفُ ذَلِكَ عَنِ أَهْلِ الْهُدَى

يصرف ذلك: أي: اللعن عن أهل الهدى، لفظًا أو لفظًا ومعنى؟ لفظًا ومعنى؛ لأنهم ليسوا - والله الحمد - مجسمة وليسوا مشبهة، مثاله: كمحمد ومذمم إسمان. هذا يجوز قطع الهزمة للضرورة، (كمحمد ومذمم إسمان) يشير إلى أن المشركين سموا النبي ﷺ مذممًا وقالوا: هو مذمم لا محمد؛ لأن محمدًا من الحمد ومذمم من الذم فيشتمون مذممًا ويقولون مذممًا لا حياه الله وبياه، انظر هم يشتمون مذممًا ولكن لا يشتمون محمدًا الذي هو رسول الله ﷺ.

إذن إلى أين ينصب الشتم؟ إليهم؛ لأنهم هم أهل الذم لذلك هو رَجَلَهُ قَالَ:

هُم يَشْتُمُونَ مُذَمَّمًا وَمُحَمَّدٌ عَنْ شَتْمِهِمْ فِي مَعَزِلٍ وَصِيَانِ
صَانَ إِلَهَهُ مُحَمَّدًا عَنْ شَتْمِهِمْ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى هَمَّا صِنَوَانِ

فرسول الله عليه الصلاة والسلام في اللفظ اسمه محمد في المعنى كذلك محمد ليس مذممًا لا باللفظ ولا بالمعنى.

كَصِيَانَةِ الْأَتْبَاعِ عَنْ شَتْمِ الْمُعْطَلِ لِلْمُشَبَّهِ هَكَذَا الْإِرْتَانِ
وَالسَّبُّ مَرْجِعُهُ إِلَيْهِمْ إِذْ هُمْ أَهْلٌ لِكُلِّ مَذْمُومَةٍ وَهَوَانِ

المعنى: هذا الإرث متفق تمامًا، المشركون يسبون الرسول عليه الصلاة والسلام ويلعنون مذممًا فتعود اللعنة - في الحقيقة - إليهم وهؤلاء - أهل التعطيل - يسبون أهل الإثبات ويلعنونهم وفي الحقيقة أن الأمر يعود إليهم.

وَكَذَا الْمُعْطَلُ يَلْعَنُ اسْمَ مُشَبَّهِهِ وَاسْمُ الْمُؤَخَّذِ فِي حِمَى الرَّحْمَنِ

يقول لعن الله المشبه، فيقال: من المشبه؟ هو، وأهل الحديث الذين يثبتون هل هم مشبهون؟ لا ولكن هم أهل التوحيد الذين قالوا: إن الله ليس كمثلته شيء.

هَذِي حِسَانُ عَرَائِيهِ رُفَّتْ لَكُمْ وَلَدَى الْمُعْطَلِ هُنَّ غَيْرُ حِسَانِ

لا يوجد شك أن الحسان عند أهل الإثبات غير الحسان عند أهل التعطيل.

وَالْعِلْمُ يَدْخُلُ قَلْبَ كُلِّ مُوَفَّقٍ مِنْ غَيْرِ بَوَابٍ وَلَا اسْتِئْذَانِ

صدق رَجَلَهُ الْمُوَفَّقُ يَدْخُلُ الْعِلْمَ قَلْبَهُ مِنْ غَيْرِ بَوَابٍ وَلَا اسْتِئْذَانٍ؛ لأن القلب هو الذي يطلب العلم فبمجرد ما يرد إليه العلم يقبله فلا يحتاج إلى بواب ولا إلى استئذان واستمع إلى قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ

أَنْفَأَ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿ [محمد: ١٦]] يحضرون مجلس الرسول ﷺ يعلمهم ولكنهم لا يعون ولا يفهمون إذا خرجوا قالوا: ماذا قال أنفأ؟ يحتمل أنهم يقولون ذلك على سبيل التحقير أي: أننا لم نبال به ويحتمل أنهم يقولون على سبيل الاستخبار لكن لم يصل العلم إلى قلوبهم؛ لأنهم ليسوا أهلاً للعلم قال الله تعالى: ﴿ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦] نعوذ بالله، وابن القيم رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: إن العلم (يدخل قلب كل موفق من غير بواب ولا استئذان).

في الحقيقة مشكلة دخول العلم هذه واحدة، وتوجد مشكلات أخرى؛ مثلاً: إذا دخل العلم من باب مفتوح فإنه سيخرج من ذلك الباب المفتوح؛ لأنه لن ينغلق عليه الباب حتى يحفظه؛ ولهذا تجدنا نقرأ كثيراً ونحفظ ولكن لا يثبت؛ لأنه يجد الباب مفتوحاً، ففي الحقيقة أن العلم يحتاج إلى أمرين: إلى باب مفتوح لقبوله، وإلى باب مغلق لمنعه من الخروج، نسأل الله أن يوفقنا لهذا.

وَيَرُدُّهُ الْمَحْرُومُ مِنْ خُدْلَانِهِ لَا تُشَقِّقْنَا اللَّهُمَّ بِالْجِرْمَانِ
اللهم آمين، والمحروم - نسأل الله العافية - يرد العلم؛ لأنه مخذول.

يَا فِرْقَةً نَفَتِ الْإِلَٰهَ وَقَوْلُهُ وَعُلُوُّهُ بِالْجَحْدِ وَالْكَفْرَانِ
قوله: (يا فرقة) لأنه ينادي نكرة غير مقصودة.

ثم قال: (موتوا بغيظكم) أي: اغتاظوا غيظاً يقتلكم ويهلككم، وقد أمر الله نبيه بذلك فقال: ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١١٩].

مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ فَرِي عَالِمٍ بِسَرَائِرِ مِنْكُمْ وَخَبَثِ جَنَانٍ
فَاللَّهُ نَاصِرُ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ بِالْعِلْمِ وَالسَّلْطَانِ

قوله: (بالعلم والسلطان) لأن الدين يقوم بالعلم وبث الدين، وبالسلطان بالقوة بالجهد بالسنان والسلاح.

وَالْحَقُّ رُكْنٌ لَا يَقُومُ لَهُدِيهِ أَحَدٌ وَلَوْ جُمِعَتْ لَهُ الثَّقَلَانِ

يعني: الحق ركن لا يمكن أن يهده أحد مهما كان ولهذا تجد على كثرة المبتدعة وكثرة الأعداء هل غابت شمس الهدى أبداً لم تغب - والله الحمد - شمس الهدى؛ لأنه ﷺ قال «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ

السَّاعَةُ» فلا يمكن أن يَهْدَ الحق أبداً.

تُوبُوا إِلَى الرَّحْمَنِ مِنْ تَعْطِيلِكُمْ فَالرَّبُّ يَقْبَلُ تَوْبَةَ النَّدْمَانِ

جزاه الله خيراً ابن القيم لما ذكر ما هم عليه من العدوان والبغي لم يُؤنِّسهم من رحمة الله بل دعاهم إلى التوبة وأن من تاب تاب الله عليه، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨] ضد هذا الشرك ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ هذا اعتداء على الأنفس ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ فأكبر اعتداء على الأعراس الزنا، وأكبر اعتداء على الأنفس القتل، وأكبر عدوان على حق الله الشرك، ولذا قال تعالى: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿١٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠] فالله عز وجل يقبل التوبة؛ ولهذا قال:

تُوبُوا إِلَى الرَّحْمَنِ مِنْ تَعْطِيلِكُمْ فَالرَّبُّ يَقْبَلُ تَوْبَةَ النَّدْمَانِ

والتوبة المبنية على الندم: هي التوبة الحقيقية، أما التوبة المبنية على غير ذلك فهي توبة ناقصة، بل إن العلماء جعلوا من شروط قبول التوبة الندم.

مَنْ تَابَ مِنْكُمْ فَالْجَنَانُ مَصِيرُهُ أَوْ مَاتَ جَهْمِيًّا فِي النَّيِّرَانِ

وإن كان بالأول كافراً؛ ولهذا نحن نعلم حسب التاريخ ما حصل من عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أول الدعوة الإسلامية من المنابذة والمضادة فلو مات على هذه الحال لكان من أهل النار، لكن مَنْ الله عليه بالتوبة فصار من أهل الجنة وصار هو الثالث من القبور التي دُفِنَتْ في بيت الرسول ﷺ.

وقوله: (أو مات جهميًّا ففي النيران) أي: أن من مات على مذهب الجهم بن صفوان فإنه في النار؛ لأن أكثر السلف كفروا الجهمية، والكافر مصيره إلى النار نعوذ بالله من ذلك، والله أعلم.





مهيد بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في اقتضاء التَّجَهُّم والجبر والإرجاء الخروج عن جميع ديانات الأنبياء

وهذا من المناسبات العجبية اللفظية أن كل واحدة من هذه الجيئات في هذه الأسماء الثلاثة تقتضي الخروج عن بعض الدين، فإذا استجمعت بواحد خرج من الدين بالكلية. وذلك أن الدين مبني على ثلاثة أصول: التوحيد، والإيمان، وإثبات أفعال العباد حقيقة. فالتجهم يخلُّ بالتوحيد لأن التوحيد مبناه على إثبات تفرد الرب بصفات الكمال، والجهمية ينفون ذلك كما تقدم من نفيتهم لصفاته الذاتية والمعنوية والفعلية، وأما الجبر فإن مذهب الجبرية كما تقدم يقتضي أن العبد مجبور مقهور على أفعاله وأقواله. وهذا يبطل الشرع والحكمة، ويثبت للعصاة العذر العظيم في كفرهم ومعاصيهم، وأنهم إذا عذبوا عليها فهم مظلومون لأنهم عذبوا على ما لم يكن لهم فيه أثر. ويرتقي هذا المذهب الخبيث ببعض غلاتهم إلى أن يشهد أن معاصيه طاعات ومخالفاته عبادات، لأنه وإن عصى الأمر بغير اختياره فقد أطاع القدر الذي لا بد له منه. وحسبك بهذا المذهب شرّاً وضلالاً. وأما جيم الإرجاء فالمرجئة يرون أن الإيمان هو إقرار العبد واعترافه بأن الله هو الخلاق وحده وما عدا هذا فلا يدخل في الإيمان.

ومن المعلوم أن الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة دل على أن الإيمان شامل لعقائد القلوب كلها وأعماله وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، وأن نقص شيء من ذلك نقص في الإيمان. ولا يخفى أن من جمع هذه الجيئات فقد اجتمع فيه الشر كله وفاته الخير كله، وهذا مذهب الجهمية المحضة الذين لا نصيب لهم من الدين، وقد يوجد في اتباعهم بعض هذه الأصول الخبيثة دون بعض، والشر دركات كما أن الخير درجات، ولم ينبج من هذه الأقوال

الباطلة إلا أهل السنة والجماعة الذين وصفوا ربهم بكل صفة كمال، ونزهوه عن كل عيب ونقص، وحققوا الإيـمان فأدخلوا فيه الاعتقادات والأعمال الباطنة والظاهرة وقالوا إن «الإيمان» اسم لذلك كله، وهو يزيد بتكميل هذه الأمور وينقص بنقصها، والناس في الإيمان درجات، وعرفوا مع ذلك أن الله تعالى قدير مرید لكل شيء، ومع ذلك فأعمال العباد خيرها وشرها مع دخولها في قضاء الله وقدره هم الذين فعلوها بقدرتهم واختيارهم لم يجبروا عليها، وقد قامت الحجة على العباد فليس لأحد على الله حجة، وحاشا لله أن يجبر العباد على ما لا يريدون. والله أعلم.



فصل

في بيان اقتضاء التجهر والجبر

والإرجاء للخروج عن جميع ديانات الأنبياء

٢٦٤٤- وَاسْمَعْ وَعِهِ سِرًّا عَجِيْبًا كَانَ مَكَ

ثُوْمًا مِّنَ الْأَقْوَامِ مُنْذُ زَمَانٍ

٢٦٤٥- فَأَذَعْتُهُ بَعْدَ اللَّتْيَا وَالتِّي

نُصْحًا وَخَوْفَ مَعْرَةَ الْكِتْمَانِ

٢٦٤٦- جِيْمٌ وَجِيْمٌ ثُمَّ جِيْمٌ مَعَهُمَا

مَقْرُونَةٌ مَعَ أَحْرَفِ بِوِزَانِ

٢٦٤٧- فِيهَا لَدَى الْأَقْوَامِ طَلَسْمٌ مَتَى

تَحَ اللهُ تَحَلُّلِ ذِرْوَةِ الْعِرْفَانِ

٢٦٤٨- فَإِذَا رَأَيْتَ الثُّورَ فِيهِ تَقَارَنَ الـ

جِيْمَاتٍ بِالثَّلَايِثِ شَرِّ قِرَانِ

٢٦٤٩- ذَلَّتْ عَلَى أَنْ النُّحُوسَ جَمِيعَهَا

سَهُمُ الَّذِي قَدْ فَازَ بِالْخُذْلَانِ

٢٦٥٠- جَبْرٌ وَإِرْجَاءٌ ثُمَّ جِيْمٌ تَجْهَمُ

فَتَأْمَلُ الْمَجْمُوعَ فِي الْمِيْزَانِ

٢٦٥١- فَاحْكُمْ بِطَالِعِهَا لِمَنْ حَصَلَتْ لَهُ

بِخُلَاصِهِ مِنْ رِبْقَةِ الْإِيْمَانِ

٢٦٥٢- فَاحْمِلْ عَلَى الْأَقْدَارِ ذَنْبَكَ كُلَّهُ

- حَمَلَ الْجُدُوعَ عَلَى قُوَى الْجُدْرَانِ
 ٢٦٥٣- وَافْتَحَ لِنَفْسِكَ بَابَ عُذْرِكَ إِذْ تَرَى الـ
 أَعْمَالَ فِعْلَ الْخَالِقِ الدِّيَانِ
 ٢٦٥٤- فَالْجَبْرُ يُشْهِدُكَ الذُّنُوبَ جَمِيعَهَا
 مِثْلَ ارْتِعَاشِ الشَّيْخِ ذِي الرَّجْفَانِ
 ٢٦٥٥- لَا فَاعِلٌ أَبَدًا وَلَا هُوَ قَادِرٌ
 كَالْمَيْتِ أُدْرِجُ دَاخِلَ الْأَكْفَانِ
 ٢٦٥٦- وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ اللَّذَانِ تَوَجَّهَا
 فَهُمَا كَأَمْرِ الْعَبْدِ بِالطَّيْرَانِ
 ٢٦٥٧- وَكَأَمْرِ الْأَعْمَى بِتَقْطِ مَصَاحِفِ
 أَوْ شَكْلِهَا حَذْرًا مِنَ الْأَلْحَانِ
 ٢٦٥٨- وَإِذَا ارْتَفَعَتْ دُرَيْجَةٌ أُخْرَى رَأَى
 سَتَ الْكُلِّ طَاعَاتٍ بِلَاءِ عَصِيَانِ
 ٢٦٥٩- إِنْ قِيلَ قَدْ خَالَفتَ أَمْرَ الشَّرْعِ قُلْ
 لَكِنْ أَطَعْتُ إِزَادَةَ الرَّحْمَنِ
 ٢٦٦٠- وَمُطِيعُ أَمْرِ اللَّهِ مِثْلُ مُطِيعِ مَا
 يَقْضِي بِهِ وَكِلَاهُمَا عَبْدَانِ
 ٢٦٦١- عَبْدُ الْأَمْرِ مِثْلُ عَبْدِ مَشِيئَةٍ
 عِنْدَ الْمُحَقِّقِ لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ
 ٢٦٦٢- فَانظُرْ إِلَى مَا قَادَتِ الْجِيمُ الَّتِي

- لِلْجَبْرِ مِنْ كُفْرٍ وَمِنْ بُهْتَانٍ^(١)
 ٢٦٦٣- وَكَذَلِكَ الْإِرْجَاءُ حِينَ تُقْرَأُ بِالْ
 مَعْبُودِ تُصْبِحُ كَامِلَ الْإِيمَانِ
 ٢٦٦٤- فَارْمِ الْمَصَاحِفَ فِي الْحُشُوشِ وَخَرَبِ
 الْبَيْتَ الْعَتِيقَ وَجَدَّ فِي الْعِصْيَانِ
 ٢٦٦٥- وَاقْتُلْ إِذَا مَا اسْطَعْتَ كُلَّ مُوَجِّدٍ
 وَتَمَسَّحَنْ بِالْقَيْسِ وَالضُّلْبَانِ
 ٢٦٦٦- وَاشْتَمِ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ أَتَوْا
 مِنْ عِنْدِهِ جَهْرًا بِأَلَا كِتْمَانِ
 ٢٦٦٧- وَإِذَا رَأَيْتَ حِجَارَةً فَاسْجُدْ لَهَا
 بَلْ خُرٌّ لِلْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ
 ٢٦٦٨- وَأَقْرَأْ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ
 هُوَ وَحْدَهُ الْبَارِي لِذِي الْأَكْوَانِ
 ٢٦٦٩- وَأَقْرَأْ أَنَّ رَسُولَهُ حَقًّا أَتَى
 مِنْ عِنْدِهِ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ
 ٢٦٧٠- فَتَكُونُ حَقًّا مُؤْمِنًا وَجَمِيعُ ذَا
 وَزَرَ عَلَيْكَ وَلَيْسَ بِالْكَفْرَانِ

(١) [٢٦٦٢] قال العلامة محمد خليل هراس:

فانظر يا أبا العقل والدين إلى ما انتهت جيم الجبر إليه، وكيف قادت صاحبها إلى شر أنواع الكفر والبهتان، فجعلته يسوي في النهاية بين الإيمان والكفر والطاعة والمعصية وينفض يده من أحكام الشريعة كلها ولا يفرق بين أمر ونهي ولا يرى ذلك لازماً لأحد بل يرى ارتكاب المنهيات عبادة يتقرب بها إلى الله ما دامت موافقة للإرادة، فأى كفر أقبح من هذا، نعوذ بالله من الضلال والخذلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٢٦٧١- هَذَا هُوَ الْإِرْجَاءُ عِنْدَ غُلَاتِهِمْ

مِنْ كُلِّ جَهْمِيٍّ أَحْيَى الشَّيْطَانِ^(١)

٢٦٧٢- فَأَضِيفَ إِلَى الْجِيمَيْنِ جِيمٌ تَجَهُمٌ

وَأَنْفِ الصِّفَاتِ وَأَلْقِ بِالْأَرْسَانِ^(٢)

٢٦٧٣- فُلْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ عَالِمٍ

بِسَّرَائِرٍ مِّنَّا وَلَا إِعْلَانٍ

٢٦٧٤- بَلْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ ذُو سَمْعٍ وَلَا

بَصَرٍ وَلَا عَدْلٍ وَلَا إِحْسَانٍ

٢٦٧٥- بَلْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ مَعْبُودٌ سِوَى الْ

عَدَمِ الَّذِي لَا شَيْءَ فِي الْأَعْيَانِ

٢٦٧٦- بَلْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ مِنْ مُتَكَلِّمٍ

بِأَوْامِرٍ وَزَوَاجِرٍ وَقُرَّانٍ

٢٦٧٧- كَلًّا وَلَا كَلِمٍ إِلَيْهِ صَاعِدٌ

أَبَدًا وَلَا عَمَلٌ لِيَذِي شُكْرَانٍ

٢٦٧٨- أُنَى وَحَظَّ الْعَرْشِ مِنْهُ كَحَظِّ مَا

تَحْتَ الثَّرَى عِنْدَ الْحَضِيضِ الدَّانِي

(١) [٢٦٧١] قال العلامة محمد خليل هراس:

هذا هو معنى الإرجاء عند غلاة المرجئة الجهمية إخوان الشيطان، وأهل البهت والكفران، وأما الإرجاء الذي ينسب إلى بعض السلف كالحسن البصري وغيره، فمعناه التفويض في أمر الكبيرة إذا مات ولم يتب منها بمعنى عدم القطع له بشيء، بل إن شاء الله عذبه عليها وإن شاء عفا عنه، فهذا الإرجاء لا يضر بل هو مذهب أهل الحق قابلوا به قول الخوارج إن مرتكب الكبيرة إذا مات ولم يتب منها فهو كافر مخلد في النار.

(٢) [٢٦٧٢] قال العلامة محمد خليل هراس:

وألق بالأرسان: فإن الأرسان جمع رسن وهو الحبل الذي تقاد به الدابة ليمنعها من الجري والجموح. فقوله: وألق بالأرسان: كناية على الانطلاق في النفي والإيغال فيه.



- ٢٦٧٩- بَلْ نِسْبَةُ الرَّحْمَنِ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ
لِلْعَرْشِ نَسْبَتُهُ إِلَى الْبَيْتَانِ
- ٢٦٨٠- فَعَلَيْهِمَا اسْتَوَى جَمِيعًا قُدْرَةً
وَكَلاهُمَا مِنْ ذَاتِهِ خِلْوَانِ
- ٢٦٨١- هَذَا الَّذِي أَعْطَتْهُ جِيْمٌ تَجَهُمُ
حَشَوًا بِلاَ كَيْلٍ وَلَا مِيزَانَ
- ٢٦٨٢- تَاللَّهِ مَا اسْتَجْمَعْنَ عِنْدَ مُعْطَلٍ
جِيْمَاتُهَا وَلَدَيْهِ مِنْ إِيْمَانِ
- ٢٦٨٣- وَالْجَهْمُ أَصْلُهَا جَمِيعًا فَاعْتَدَتْ
مَقْسُومَةً فِي النَّاسِ بِالْمِيزَانِ
- ٢٦٨٤- وَالْوَارِثُونَ لَهُ عَلَى التَّحْقِيقِ هُمْ
أَصْحَابُهَا لَا شَيْعَةَ الْإِيْمَانِ
- ٢٦٨٥- لَكِنْ تَقَسَّمَتِ الطَّوَائِفُ قَوْلَهُ
ذُو السَّهْمِ وَالسَّهْمِينَ وَالسَّهْمَانِ
- ٢٦٨٦- لَكِنْ نَجَا أَهْلُ الْحَدِيثِ الْمَحْضِ أَتِ
بِبَاغِ الرَّسُولِ وَتَابِعُوا الْقُرْآنِ
- ٢٦٨٧- عَرَفُوا الَّذِي قَدْ قَالَ مَعَ عِلْمٍ بِمَا
قَالَ الرَّسُولُ فَهُمْ أَوْلُوا الْعِرْفَانَ
- ٢٦٨٨- وَسِوَاهُمْ فِي الْجَهْلِ وَالِدَّعْوَى مَعَ الـ
كَبِيرِ الْعَظِيمِ وَكَثْرَةِ الْهَدْيَانِ^(١)

(١) [٢٦٨٣: ٢٦٨٨] قال العلامة محمد خليل هراس:

والجهم بن صفوان الترمذي قبحه الله هو الذي أسس قواعد هذه الضلالات الثلاث، فعدت من بعده

٢٦٨٩- مَدُّوا يَدًا نَحْوَ الْعُلَى بِتَكْلُفٍ

وَتَحْلُفٍ وَتَكْبِيرٍ وَتَوَانٍ

٢٦٩٠- أَتَرَى يَنَالُوهَا وَهَذَا شَأْنُهُمْ

حَاشَا الْعُلَى مِنْ ذَا الزُّبُونِ الْفَانِي

الشرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هذا الفصل عجيب غريب ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن التجهم والجبر والإرجاء يقتضي الخروج من جميع ديانات الأنبياء فالتجهم الجبر الإرجاء ثلاثة جيمات تقتضي الخروج عن جميع ديانات الأنبياء.

وَاسْمَعْ وَعِهِ سِرًّا عَجِيْبًا كَانَ ثُمًّا مِنْ الْأَقْوَامِ مُنْذُ زَمَانٍ

قوله: (سِرًّا عَجِيْبًا) فهو مكتوم ما أحد أبداه ولا أظهره وإن كان عند التأمل معلومًا لكنه لم يظهر هذا السر يقول:

فَأَدْعُهُ بَعْدَ اللَّتْيَا وَالْتِي نَصْحًا وَخَوْفَ مَعَرَّةِ الْكَيْمَانِ

هذا التركيب يأتي به العرب للدلالة على معاناة الشيء وأنه لم يحصل بسهولة يقول: إنه أذاعه رَحِمَهُ اللهُ بعد اللتيا والتي وأذاعه لماذا؟

جِيْمٌ وَجِيْمٌ ثُمَّ جِيْمٌ مَعَهُمَا مَقْرُونَةٌ مَعَ أَحْرَفٍ بِوِزَانٍ

ثلاثة جيمات مقرونة مع حروف تكملها جيم الجبر يكملها الباء والراء والتجهم تكملها الهاء والميم، الإرجاء يكملها الهمزتان إذاً هذه ثلاث جيمات.

قسمة بين أصحاب المذاهب والمقاتلات، كل منهم يأخذ منها بنصيب مقدور، وهؤلاء الذين شايعوا جهماً في ضلالاته هم وراءه على الحقيقة وإن كان نصيب كل منهم من هذه التركيبة الوبئة يختلف عن الآخر، فمنهم صاحب السهم الواحد، ومنهم صاحب السهمين، ومنهم صاحب السهمان الكثيرة. وأما أهل الحديث الصرف من أتباع الرسول وجند القرآن فقد نجوا من التلبس بشيء منها، لأنهم عرفوا ما قاله القرآن وما جاء به الرسول ﷺ، فاستمسكوا بنصوص الوحيين، واستضاءوا بدينك النورين، ولم يكثرثوا لما خالفهما، وأما سواهم فهو يرتع في جهله ودعاواه العريضة، مع ما فيه من الصلف والتكبر وكثرة الخلط والهديان.

فِيهَا لَدَى الْأَقْوَامِ طَلَّسَمٌ مَتَى تَحَلُّهُ تَحُلُّ ذِرْوَةَ الْعِرْفَانِ

قوله: (الطلسم) وهو عبارة عن قراءات معينة تقرأ على المرضى تكون سبباً للشفاء وتسمى طلاسمة وهي جمع وتجمع على طلاسمة.

فَإِذَا رَأَيْتَ الثَّورَ فِيهِ تَقَارَنَ الـ حِيمَاتُ بِالثَّلَاثِ شَرَّ قِرَانِ

قوله: (الثور) وهو أحد البروج الاثني عشر، والذين يقولون بعلم النجوم يتكهنون في مثل هذه الأمور باقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني وما أشبه ذلك، وهو علم باطل لا شك لكن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أراد أن يضرب مثلاً فقط.

ذَلَّتْ عَلَيَّ أَنَّ التُّحُوسَ جَمِيعَهَا سَهُمُ الَّذِي قَدْ فَازَ بِالْحُذْلَانِ

جَبْرٌ وَإِرْجَاءٌ ثُمَّ جِيمٌ تَجَهُمٌ فَتَأْمَلِ الْمَجْمُوعَ فِي الْمِيزَانِ

قوله: (جبر) فيها جيم و(إرجاء) فيها جيم أيضاً مع جيم التجهم، فهذه الثلاث مجموعة إذا اجتمعت خرج الإنسان من الإسلام.

فَاحْكُمِ بِطَالِعِهَا لِمَنْ حَصَلَتْ لَهُ بِخَلَاصِهِ مِنْ رِبْقَةِ الْإِيمَانِ

يعني: تخلص من ربقة الإيمان وفسرها ودخل في الكفر والعياذ بالله.

فَاحْمِلْ عَلَيَّ الْأَقْدَارِ ذَنْبَكَ كُلَّهُ حَمَلُ الْجُدُوعِ عَلَيَّ قُوَى

وَافْتَحْ لِنَفْسِكَ بَابَ عُذْرِكَ إِذْ تَرَى أَفْعَالَ فِعْلِ الْخَالِقِ الدِّيَانِ

بدأ المؤلف بالجبر، والجبرية هم: الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله وليس له حول ولا قوة فإذا الجبر معناه: حمل جميع الذنوب على الأقدار، فإذا أحد عاتبك على ذنب فقل: هذا قدر الله فكل ذنوبك احملها على القدر.

وقوله: (حمل الجدوع على قوى الجدران) والجدوع إذا أسندته إلى الجدار اتكأ عليه؛ لأنه لا يقوم بنفسه.

وَافْتَحْ لِنَفْسِكَ بَابَ عُذْرِكَ إِذْ تَرَى أَفْعَالَ فِعْلِ الْخَالِقِ الدِّيَانِ

هؤلاء الغلاة من الجبرية يقولون: إن فعل العبد فعل الله، ولا شك أن هذا الباب يفتح علينا باب أهل وحدة الوجود الذين يقولون: إن الخلق عين الخالق، فإذا فعل الخلق هو فعل الخالق.

فَالجَبْرُ يُشْهَدُكَ الذُّنُوبَ جَمِيعَهَا مِثْلُ ارْتِعَاشِ الشَّيْخِ ذِي الرَّجْفَانِ

رجل ذهب إلى مجمع بغايا وفعل الفاحشة ورجع، فحركاته وخطواته وأفعاله كلها بغير اختيار كرجل شيخ فانٍ كبير قد ذهبت قواه فهو يرتعش هكذا، فهذا الفعل - الارتعاش - اضطراري، فهو يقول: هذا الرجل الذي ذهب إلى سوق البغايا وقضى حاجته ورجع كل فعله هذا اضطراري وليس له فيه حول ولا قوة كارتعاش الشيخ الفاني.

لَا فَاعِلٌ أَبَدًا وَلَا هُوَ قَادِرٌ كَالْمَيْتِ أَدْرَجَ دَاخِلَ الْأَكْفَانِ

الإنسان ليس بفاعل - سبحانه الله - وليس بقادر على الفعل؛ لأنه مجبر كالميت يحمل من سرير الغسل ويوضع على الكفن وهذا ليس باختياره ولو اختار ما اختار أن يُعَسَّلَ ولا أن يدرج في الأكفان ولا يختار الحياة أبدًا.

وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ اللَّذَانِ تَوَجَّهَا فَهَمَّا كَأَمْرِ الْعَبْدِ بِالطَّيْرَانِ

وَكَأَمْرِهِ الْأَعْمَى بِنَقْطِ مَصَاحِفٍ أَوْ شَكْلِهَا حَذْرًا مِنَ الْأَلْحَانِ

يعني: لما قيل لهم كيف تقولون هذا والله تعالى يوجه الأمر إلى العباد افعلوا: أقيموا الصلاة أتوا الزكاة؟ قالوا: هذا أمر عادٍ كما يؤمر الإنسان الذي ليس عنده جناح بالطيران توجيه الأمر بالطيران إلى من لا جناح له هذا غير ممكن أي: لو أن أحدًا وجه الأمر بالطيران إلى شخص لا جناح قيل: هذا جنون وسفه.

وَكَأَمْرِهِ الْأَعْمَى بِنَقْطِ مَصَاحِفٍ أَوْ شَكْلِهَا حَذْرًا مِنَ الْأَلْحَانِ

لو أعطينا أعمى مصحفًا مكتوبًا بالحروف وقلنا له: انقطه وبعد النقط شكله، وهو أعمى أيمن هذا؟ ما يمكن إلا على طريقة برايل، لكن هذا ليس التشكيل المعهود المعروف فعلى كل حال هم يقولون - والعياذ بالله: إن أوامر الله، وأوامر رسوله الموجهة إلى الناس كأوامر العبد الذي ليس له جناح بالطيران أو أمر الأعمى أن ينقط المصحف ويشكِّله.

وَإِذَا ارْتَفَعَتْ دُرَيْجَةٌ أُخْرَى رَأَى تَتَّكُلُّ طَاعَاتٍ بِلَا عِصْيَانِ

يعني: ارتفع دريجة في قول أهل الجبر وإذا ارتفعت رأيت كل شيء طاعات، فالمعاصي طاعات وليست معاصي، والزنا طاعة وشرب الخمر طاعة والسرقة طاعة.

إِنْ قِيلَ قَدْ خَالَفتَ أَمْرَ الشَّرْعِ قُلْ لَكِنْ أَطَعْتُ إِزَادَةَ الرَّحْمَنِ

يعني: إن قيل: أنت يا من شربت الخمر خالفت أمر الشرع قال لكن وافقت الإرادة،

أليس الله قد أراد أن أشرب الخمر؟ الجواب: بلى، إذا أنا مطيع لأنّي وافقت إرادة الله. وقوله: (ومطيع أمر الله) أي: أمر الله الكوني. (مثل مطيع ما يقضي به وكلاهما عبدان) فالذي يطيع أمر الله الكوني كالمطيع أمره فيما يقضي به من الشرع فكلاهما - مطيع الأمر ومطيع الشرع - عبدان وهذا صحيح، لكن الكافر عَبْدٌ بِالْعِبُودِيَةِ الْقَدْرِيَّةِ، والمؤمن عَبْدٌ بِالْعِبُودِيَةِ الْقَدْرِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ.

عَبْدُ الْأَوْامِرِ مِثْلُ عَبِدِ مَشِيئَةٍ عِنْدَ الْمُحَقِّقِ لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ

قوله: (عبد الأوامر) أي: المؤمن الذي يطيع أمر الله، والمشية تنقسم إلى: شرعية وكونية فكلاهما كونية، ثم يقول: أمر الشرع طاعته واضحة: أنها طاعة لله، وأيضاً مشيئة الله طاعتها طاعة ولذا قال: (ليس يفترقان).

فَانظُرْ إِلَيَّ مَا قَادَتِ الْجِيمُ الَّذِي لِلْجَبْرِ مِنْ كُفْرٍ وَمِنْ بُهْتَانِ

يعني: فقد أدت إلى: أن الإنسان مجبر على العمل، وهذه واحدة، كما أدت إلى: أن أمر الله الخلق بالعبادة والطاعة عبث فهي أمرٌ بما لا يطاق كأمر العبد بالطيران والأمر بنقط المصاحف للأعمى، كما أدت إلى: أن موافقة الأمر الكوني كموافقة الأمر الشرعي فقبلوا المعاصي طاعات؛ أي دين لشخص يقول: إن الزنا والخمر والسرقه وقتل النفس يكون طاعة بل والشرك يكون طاعة؛ لأنه إن خالف الأمر الشرعي فقد وافق الأمر الكوني؟! إذا أدت إلى فظائع عظيمة كبيرة وهي ثلاث فظائع.

وَكَذَلِكَ الْإِرْجَاءُ حِينَ تُقْرَأُ بِالْمَعْبُودِ تُصْبِحُ كَامِلَ الْإِيمَانِ

انظر ماذا يؤدي إليه؟ فالمرجئة هؤلاء يقولون: إن الإيمان هو: الإقرار بالمعبود فإذا أقررت بالله فأنت مؤمن كامل الإيمان إيمانك مثل إيمان رسول الله ومثل إيمان جبريل. ثم قال:

فَارْمِ الْمَصَاحِفَ فِي الْحُشُوشِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَجَدَّ فِي الْعِصْيَانِ

المعنى: أنه طالما أنك تقر بأن الله موجود فلا عليك أن تأخذ المصحف وترميه في الحش الذي هو أخبث مكان.

قوله: (وخرّب البيت العتيق) أي: أذهب إلى الكعبة واهدمها.

وقوله: (وجد في العصيان) أي: أي معصية تُذَكِّرُ لك فاجتهد في الحصول عليها.

وَأَقْتُلْ إِذَا مَا اسْطَعْتَ كُلَّ وَتَمَسَّحَنَ بِالْقَيْسِ وَالصُّلْبَانِ

أي: لا تقتل أي نفس، بل انظر للموحدين واقتلهم.

وقوله: (القس) والقسيس هو: عالم النصارى.

وقوله: (الصلبان) الصليب هو: الذي يعبده النصارى.

وَاشْتَمَ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ مِنْ عِنْدِهِ جَهْرًا بِأَلَا كِتْمَانِ

أي: اشتتم الرسل، واشتم من أرسلهم بالرسالة وهو الله - والعياذ بالله.

وَإِذَا رَأَيْتَ حِجَارَةً فَاسْجُدْ لَهَا بَلْ خُرٌّ لِلْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ

أي: إذا رأيت حجرًا ملقى في السوق فاسجد له بل إذا رأيت معبودًا من دون الله من الأوثان وغيرها فاسجد له.

وَأَقْسَرَّ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ وَحْدَهُ الْبَارِي لِذِي الْأَكْوَانِ

قوله: (الباري) أي: الخالق، وهذا هو الصواب أي: أحسن من البادئ.

وَأَقْرَأَنَّ رَسُولُهُ حَقًّا أَتَى مِنْ عِنْدِهِ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

فَتَكُونُ حَقًّا مُؤْمِنًا وَجَمِيعُ ذَا وَزَرَ عَلَيْكَ وَلَيْسَ بِالْكَفْرَانِ

الخلاصة فيما ذكره ابن القيم في مذهب الإرجاء: أن تؤمن بوجود الله فقط، وتفعل ما شئت، فإذا قلت: أنا مؤمن بالله وبأنه الرب خالق المخلوقات وأنه الباري ثم فعلت ما ذكره المؤلف بأن أخذت المصاحف ورميت بها في الحشوش أو تذهب إلى الكعبة وتدمرها أو تذهب إلى كل موحد وتقتله أو تمسح بالقس والصلبان إلى آخر ما ذكره المؤلف فأنت عندهم مؤمن كامل الإيمان، فهذا هو إرجاء الجهمية؛ فالإيمان: أن تقر بوجود الله فقط، والباقي: تفعل فيه ما شئت، ولو أنك سببت الله فليس في ذلك مانع عندهم، أي: لك أن تسب الله لكن المهم: أن تؤمن بأنه موجود، وكذا الرسل لك أن تسبهم وأن تقل فيهم ما شئت، ولكن آمن بأنهم رسل من عند الله فقط؛ ولذا قال: (وأقر أن رسوله حقا أتى من عنده بالوحي والقرآن) وقال: (فتكون حقا مؤمنا وجميع ذا وزر عليك).

قوله: (وجميع ذا وزر عليك وليس بالكفران) أي: أن كل هذه الأفعال وزر وليست بكفر؛ لأنك مؤمن كامل الإيمان.

هَذَا هُوَ الْإِرْجَاءُ عِنْدَ غُلَاظِهِمْ مِنْ كُلِّ جَهْمِيٍّ أُخِي الشَّيْطَانِ

فَأُضِفَ إِلَى الْجِيمِينَ جِيمٌ وَأَنْفِ الصِّفَاتِ وَأَلْقِ بِالْأَرْسَانِ

فجيم التجهم: عبارة عن تعطيل البارئ عز وجل من أوصافه ونفي الصفات عنه سبحانه فهذه هي جيم التجهم والتي هي نفي الصفات.

قُلْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ رَبٌّ عَالِمٌ بِسَرَائِرِ مِنَّا وَلَا إِعْلَانِ

تعالى الله عن هذا علوًّا كبيرًا إذ لو كان لا يعلم سرائرنا ولا إعلاننا إذا فهو جاهل وليس في هذا مانع عندهم؛ لأنه يقول: اشتهم الله ولا تبالي ما دمت مؤمنًا بوجوده.

بَلْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ ذُو سَمْعٍ بَصَرٍ وَلَا عَدْلٍ وَلَا إِحْسَانِ

وهم إنما قالوا هذا؛ لأنهم ينفون الصفات كلها.

بَلْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ مَعْبُودٌ سِوَى عَدَمِ الَّذِي لَا شَيْءَ فِي الْأَعْيَانِ

لأنهم إذا قالوا: إن الله ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته ولا يمينه ولا شماله ولا متصل به ولا منفصل عنه، فلا شك أنه بذلك صار عدمًا.

بَلْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ مِنْ مُتَكَلِّمٍ بِأَوْامِرٍ وَزَوَاجِرٍ وَقُرَّانِ

لأنهم يقولون: أن الكلام مخلوق، وأن الله لا يتكلم - نعوذ بالله من هذا.

كَلًّا وَلَا كَلِيمٍ إِلَيْهِ صَاعِدٌ أَبَدًا وَلَا عَمَلٌ لِذِي شُكْرَانِ

لأنهم لو أثبتوا: أن العمل يصعد إلى الله؛ لأثبتوا أن الله فوق وهم لا يقولون بهذا.

أَتَى وَحَظَّ الْعَرْشَ مِنْهُ كَحَظِّ مَا تَحَتَّ الثَّرَى عِنْدَ الْحَضِيضِ

يعني كيف يكون ذلك؟ كيف يقولون: إن الذي عند العرش والذي في أسفل السافلين هما عند الله في القرب سواء - سبحانه الله - هل يمكن هذا؟ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأنبياء: ١٩]

﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] لو كانوا سواء لكان الذي في الأرض السفلى عند العرش وكان الذي في الأرض السفلى عند الله فلا يفرقون؛ لأنهم لا يرون العلو.

بَلْ نِسْبَةُ الرَّحْمَنِ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ لِلْعَرْشِ نِسْبَتُهُ إِلَى الْبِنْيَانِ

يقولون: إن الله استوى على العرش أي: استولى عليه، وأن البنيان الذي في الأرض استولى عليه؛ إذ أن نسبة البنيان إلى الله كنسبة العرش إلى الله فكلاهما قد استولى الله عز وجل عليهما.

فَعَلَيْهِمَا اسْتَوْلَى جَمِيعًا قُدْرَةً وَكِلَاهُمَا مِنْ ذَاتِهِ خِلْوَانِ

هَذَا الَّذِي أَعْطَتْهُ جِيْمٌ تَجْهَمُ حَشَوًا بِلاَ كَيْلٍ وَلَا مِيزَانَ

إذا فجيم التجهم أعطت تعطيل الله حقيقة، إذا فأياها أشد؟ جيم الجبر أم جيم الإرجاء أم جيم التجهم؟ كلها ظلمات بعضها فوق بعض؛ فكل واحدة يكون الكفر عندها، نسأل الله لنا ولكم السلامة، والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به.

تَاللَّهِ مَا اسْتَجَمَعْنَ عِنْدَ مُعْطَلٍ جِيْمَاتُهَا وَلَدَيْهِ مِنْ إِيْمَانٍ

نحن نقسم كما أقسم بِحَمْدِ اللَّهِ: أنه ما من إنسان يعتقد هذا الاعتقاد إلا وهو كافر بالله بلا شك ولا أحد منا يشك في هذا.

وَالْجَهْمُ أَصْلُهَا جَمِيعًا فَاعْتَدَتْ مَقْسُومَةً فِي النَّاسِ بِالْمِيزَانِ

فابن القيم أصل هذه الأصول الثلاثة ومع ذلك انقسمت بين الناس؛ فمثلاً: التعطيل، هل اختص به الجهمية؟ لا، وكذا الإرجاء والجبر. ولكن هناك أناس أخذوا من الجبر شيئاً وأناس أخذوا من الإرجاء شيئاً وأناس أخذوا من التجهم شيئاً فتقاسمها الناس، ولكن أصلها - أي: الثلاثة - من عند الجهم - نسأل الله العافية - فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

وَالْوَارِثُونَ لَهُ عَلَى التَّحْقِيقِ هُمُ أَصْحَابُهَا لَا شَيْعَةَ الْإِيْمَانِ

وهذا صحيح، والحمد لله شيعه الإيمان سالمون منها.

لَكِنْ تَقَسَّمَتِ الطَّوَائِفُ قَوْلُهُ ذُو السَّهْمِ وَالسَّهْمَيْنِ وَالسُّهْمَانِ

قوله: (الطوائف) أي: طوائف أهل البدع تقسموا؛ فالناس أخذوا من هذا التعطيل؛ فمنهم من عطلَّ سهماً وآخر سهمين وثلاثة وأكثر، لكن أصل البلاء من الجهم.

لَكِنْ نَجَا أَهْلَ الْحَدِيثِ الْمُحْضِ أَتِ بَاعُ الرَّسُولِ وَتَابِعُو الْقُرْآنَ

عَرَفُوا الَّذِي قَدْ قَالَ مَعَ عِلْمٍ بِمَا قَالَ الرَّسُولُ فَهُمْ أَوْلُوا الْعِرْفَانَ

وَسِوَاهُمْ فِي الْجَهْلِ وَالِدَّعْوَى مَعَ الْكَبِيرِ الْعَظِيمِ وَكَثْرَةِ الْهَدْيَانِ

قوله: (وسواهم) أي: سوى أهل الحديث.

وقوله: (في الجهل والدعوى) وهاتان خصلتان ذميتان: الجهل ودعوى الكمال؛ فأهل التعطيل بل أهل البدع كلهم عندهم الجهل العظيم وعندهم دعوى الكمال؛ فالصوفي مثلاً -

ولا أجهل من الصوفي - يدعي أنه هو العالم وصاحب الكمال وهو العابد لله وأن من سواه ليس عنده رقة قلب ولا لين قلب ولا توجه إلى الله، وهكذا أهل البدع كلهم جهال وأصحاب دعوى كمال. ولذا قال: (مع الكبر العظيم) وهذا هي الخصلة الثالثة وبئسها خصلة.

وقوله: (و كثرة الهذيان) وهذه هي الرابعة؛ أي: أنك تجد كلام طويل مزخرف وليس فيه شيء، فهذه أربعة أوصاف: الجهل، الدعاوى الباطلة، الكبر، الهذيان، فهذه سمات أهل البدع، نسأل الله أن يسلمنا وإياكم منهم.

مَدُّوا يَدًا نَحْوَ الْعُلَى بِتَكْلِيفٍ وَتَخَلَّفَ وَتَكَبَّرَ وَتَوَانٍ

أي: أنهم يدعون أنهم هم أصحاب العلا ويمدون أيديهم إليه، لكن مع هذه الأوصاف لا يمكن أن ينالوها؛ ولهذا قال:

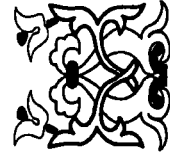
أُتْرَى يَنَالُوهَا وَهَذَا شَأْنُهُمْ حَاشَا الْعُلَى مِنْ دَا الزَّبُونِ الْفَاقِي

أي: أن درجة العلا لا ينالها مثل هؤلاء الزبائن، إذ لا ينال العلا إلا أصحاب العلا، أما هؤلاء فلن ينالوها، والحقيقة: أن هذا الكتاب - سبحان الله - بين لنا أحوالاً كثيرة من أحوال أهل البدع ما كنا نظن أنها تصل إلى هذا الحد خصوصاً في هذا الفصل؛ ولهذا نقول: جزاه الله خيرًا هو أذاعها بعد اللتيا والتي والحمد لله إنه أذاعها وصار فيها عبر وتعجب كيف تصل الحال بهؤلاء القوم إلى ما وصف ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، والله الموفق.





عهد بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في جواب المثبت والمُعطل للرب إذا سأله عن قوله

قصد المؤلف تنويع الأدلة وتصريفها بوجوه متعددة وطرق كثيرة على بطلان مذهب المعطلين، لأن الحق والباطل متى حُرِّفاً بأساليب متنوعة ظهر واتضح وبانت حالهما. وهذا الفصل في بيان نتيجة المقاتلين وثمره العقيدتين، في المقام الذي لا تنفع فيه مجرد الدعاوى، ولا تروج فيه البهجة. فالمعطل النافي إذا سأله ربه عما يقوله ويعتقده فيه صار حاصل جوابه الحقيقي: يا رب إني قد نفيت عنك صفات الكمال، ونفيت ما لك من الحكمة وبديع الأفعال، وما أخبر به عنك نبيك من الاستواء والنزول، وكل ما ورد به الكتاب والسنة من هذا الباب فقد نفيته مقتدياً في ذلك بآراء المتهوكين الذين قدموا آراءهم الفاسدة وعقولهم المنحرفة على كتابك وسنة نبيك.

أما المثبت فإن حاصل جوابه أن يقول: يا رب قد قلت ما قلت في كتابك، وقاله عنك رسولك محمد ﷺ من الصفات الذاتية والمعنوية والفعلية، لم أعد ذلك شعرة، ولم أسلط عليها الآراء بالتأويل والتحريف، وكيف أقدم عليها قولاً أو عقيدة أو رأياً وهي في غاية الوضوح والبيان، تملأ القلوب معرفة وإيماناً وأنواراً، ويشهد لها كل ذي عقل سليم ورأي صحيح مستقيم.

فبالله عليك أي الجواب أصح وأولى وأنجى من عذاب الله وأقرب إلى رضى الله. والله المستول بفضلته أن يخيينا على سنة رسوله، ويميتنا عليها، ويعثنا عليها. إنه جواد كريم.



فصل

في جواب الرب تبارك وتعالى
يوم القيامة إذا سأل المعطل والمشبه
عن قول كل واحد منهما

٢٦٩١- وَسَلِ الْمُعْطَلُ مَا تَقُولُ إِذَا أَتَى

فَتَّانٍ عِنْدَ اللَّهِ يَخْتَصِمَانِ

٢٦٩٢- إِحْدَاهُمَا حَكَمَتْ عَلَى مَعْبُودِهَا

بِعُقُولِهَا وَبِفِكْرَةِ الْأَذْهَانِ

٢٦٩٣- سَمَّتُهُ مَعْقُولًا وَقَالَتْ إِنَّهُ

أَوْلَى مِنَ الْمَنْضُوصِ بِالْبُرْهَانِ

٢٦٩٤- وَالنَّصُّ قَطْعًا لَا يُفِيدُ فَنَحْنُ أَوْ

لَنَا وَفَوَّضْنَا لَنَا قَوْلَانِ

٢٦٩٥- قَالَتْ وَقُلْنَا فِيكَ لَسْتَ بِدَاخِلٍ

فِينَا وَلَسْتَ بِخَارِجِ الْأَكْوَانِ

٢٦٩٦- وَالْعَرْشُ أَخْلَيْنَاهُ مِنْكَ فَلَسْتَ قَوْ

قَ الْعَرْشِ لَسْتَ بِقَابِلٍ لِمَكَانِ

٢٦٩٧- وَكَذَلِكَ لَسْتَ بِقَائِلِ الْقُرْآنِ بَلِ

قَدْ قَالَهُ بِشَرِّ عَظِيمِ الشَّانِ

٢٦٩٨- وَنَسَبَهُ حَقًّا إِلَيْكَ بِنِسْبَةِ التَّ

شَرِيفِ تَعْظِيمًا لِذِي الْقُرْآنِ

- ٢٦٩٩- وَكَذَٰكَ قُلْنَا لَسْتَ تَنْزِلُ فِي الدُّجَى
 إِنَّ النَّزُولَ صِفَاتُ ذِي الْجُثْمَانِ
- ٢٧٠٠- وَكَذَٰكَ قُلْنَا لَسْتَ ذَا وَجْهِ وَلَا
 سَمْعٍ وَلَا بَصَرٍ فَكَيْفَ يَدَانِ
- ٢٧٠١- وَكَذَٰكَ قُلْنَا لَا تُرَى فِي هَذِهِ الدُّ
 نْيَا وَلَا يَوْمَ الْمَعَادِ الثَّانِي
- ٢٧٠٢- وَكَذَٰكَ قُلْنَا مَا لِفِعْلِكَ حِكْمَةٌ
 مِنْ أَجْلِهَا خَصَّصْتَهُ بِزَمَانِ
- ٢٧٠٣- مَا تَمَّ غَيْرُ مَشِيئَةٍ قَدْ رَجَّحْتَ
 مِثْلًا عَلَى مِثْلِ بِلَا رُجْحَانِ
- ٢٧٠٤- لَكِنَّ مِمَّا مَنْ يَقُولُ بِحِكْمَةٍ
 لَيْسَتْ بِوَصْفِ قَامٍ بِالرَّحْمَنِ
- ٢٧٠٥- هَذَا وَقُلْنَا مَا اقْتَضَتْهُ عُقُولُنَا
 وَعُقُولُ أَشْيَاخِ ذَوِي عِرْفَانِ
- ٢٧٠٦- قَالُوا لَنَا لَا تَأْخُذُوا بِظَوَاهِرِ الـ
 وَوَحْيِينَ تَنْسَلِحُوا مِنَ الْإِيمَانِ
- ٢٧٠٧- بَلْ فَكِّرُوا بِعُقُولِكُمْ إِنْ شِئْتُمْ
 أَوْ فَاقْبَلُوا آرَاءَ عَقْلِ فَلَانِ
- ٢٧٠٨- فَلْأَجْلِ هَذَا لَمْ نُحَكِّمْ لَفْظَ آ
 ثَارٍ وَلَا خَبْرٍ وَلَا قُرْآنِ
- ٢٧٠٩- إِذْ كُلُّ تِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ

مَعزُولَةٌ عَنِ مُقْتَضَى الْبُرْهَانِ^(١)

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

قوله: (فصل في جواب الرب تبارك وتعالى يوم القيامة إذا سأل المعطل والمشبه عن قول كل واحد منهما) أي: إنه سيجتمع عند الله يوم القيامة فئتان تختصمان في الله، فئة معطلة وفئة مثبتة؛ ففئة المعطلة (حكمت على معبودها بعقولها وبفكرة الأذهان).

سَمَّتُهُ مَعْقُولًا وَقَالَتْ إِنَّهُ أَوْلَى مِنَ الْمَنْصُوصِ بِالْبُرْهَانِ

قوله: (سمته معقول) أي: موصوفًا بمقتضى العقل.

وقوله: (وقالت إنه أولى من المنصوص بالبرهان) أي: أن ما دلت عليه العقول أولى مما دلت عليه النصوص. فالمعقول عندهم أولى من المنقول؛ ولهذا حكّموا العقل وتركوا النقل.

وَالنُّصُّ قَطْعًا لَا يُفِيدُ فَتَحْنُ أَوْ لَنَا وَفَوَّضْنَا لَنَا قَوْلَانِ

معناه: أن النص لا يفيد قطعًا بل هو ظني.

قوله: (فتحن أولنا وفوضنا) أي: أننا اختلفنا في هذه النصوص إما بالتأويل وإما بالتفويض، مع أن ما يسمونه تأويلًا هو في الحقيقة تحريف؛ لأنه لا يدل عليه اللفظ.

قَالَتْ وَقُلْنَا فِيكَ لَسْتَ بِدَاخِلٍ فِينَا وَلَسْتَ بِخَارِجِ الْأَكْوَانِ

وَالْعَرْشُ أَخْلَيْنَاهُ مِنْكَ فَلَسْتَ فَوْقَ الْعَرْشِ لَسْتَ بِقَابِلٍ لِمَكَانٍ

وَكَذَلِكَ لَسْتَ بِقَابِلِ الْقُرْآنِ بَلْ قَدْ قَالَهُ بَشَرٌ عَظِيمُ الشَّانِ

قوله: (بل قد قاله بشر عظيم الشأن) هو محمد ﷺ وهذا كقول إمامهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ

الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥].

وَنَسَبْتُهُ حَقًّا إِلَيْكَ بِنَسَبَةِ اللَّهِ شَرِيفٌ تَعْظِيمًا لِذِي الْقُرْآنِ

أي: نسبت القرآن إليك نسبة تشريف فقط لا على أنه صفة من صفاتك، فقولنا: إن

(١) [٢٧٠٨، ٢٧٠٩] قال العلامة محمد خليل هراس:

فلأجل هذا الذي قالوه لنا لم نحكم في عقيدتنا لفظ آثار ولا أخبار ولا قرآن، وإنما جربنا معهم فيما أسسوه لنا من إفك ومن بهتان.

القرآن كلام الله كقولنا: ناقة صالح ناقة الله.

وَكَذَلِكَ قُلْنَا لَسْتَ تَنْزِلُ فِي الدُّجَى
وَكَذَلِكَ قُلْنَا لَسْتَ ذَا وَجْهِ وَلَا
وَكَذَلِكَ قُلْنَا لَا تُرَى فِي هَذِهِ الدُّ
إِنَّ التُّرُولَ صِفَاتُ ذِي الْجُثْمَانِ
سَمِعَ وَلَا بَصَرَ فَكَيْفَ يَدَانِ
نِيَا وَلَا يَوْمَ الْمَعَادِ الثَّانِي

وهنا مسألتان:

المسألة الأولى: قولهم: (لَا تُرَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا) وهذه المسألة اختلف فيها علماء السلف، هل يُرَى الله في الدنيا أو لا؟ واختلفا فهم ليس لكل أحد بل للنبي ﷺ هل رأى ربه أو لا؟ والراجح: أنه لم ير الله سبحانه وتعالى، وقد سُئِلَ هو نفسه ﷺ عليه؛ هل رأيت ربك؟، قال: «رَأَيْتُ نُورًا» وفي لفظ قال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»^(١) لأن بيننا وبين الله حُجْبٌ عَظِيمَةٌ مِنَ النُّورِ لَا يَرَى مِنْ وِرَائِهَا الرَّبَّ جَلَّ وَعَلَا؛ ولهذا لما قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴿[الأعراف: ١٤٣]﴾ أُنْذِكَ الْجَبَلُ لِعَظْمَةِ اللَّهِ، ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ صَعِقًا: أَي: غُشِيَ عَلَيْهِ، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ففي الدنيا لا أحد يقوى لرؤية الله أبدًا ولا يستطيع، وأما قوله تعالى في «سورة النجم»: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٨، ٩] فالمراد به جبريل عليه السلام على القول الراجح. وعندهم أيضًا أنه لا يرى في الآخرة. ومثل هذا الكلام لم يقل به أحد من أهل السنة: أنه لا يرى بل اتفق أهل السنة على أن الله تعالى يُرَى يوم القيامة عيانًا بالبصر كما تُرَى الشمس.

وَكَذَلِكَ قُلْنَا مَا لِفِعْلِكَ حِكْمَةٌ مِنْ أَجْلِهَا خَصَّصْتَهُ بِزَمَانٍ

أي: ليس لفعل الله حكمة التي من أجلها خص الفعل بهذا الزمان المعين. فأفعال الله عز وجل تتجدد فيفعل هذا في يوم ولا يفعله في يوم آخر؛ وإنما فعله في هذا اليوم لحكمة ارتضت تخصيصه في هذا اليوم، وكذا رَضِيَ عن هذا الرجل دون ذلك لحكمة اقتضت الرضا؛ ولهذا قال: (ما لفعلك حكمة من أجلها) أي: من أجل هذه الحكمة.

وقوله: (خصصته بزمان) هم يقولون ذلك أما نحن - نحن نؤمن - نقول: إن الله خص هذا الزمن بهذا الفعل لحكمة، فالنزول إلى السماء الدنيا - مثلاً - يكون في ثلث الليل الآخر،

ولكن لماذا خصه الله في هذا الوقت؟ نقول: لحكمة؛ لأن هذا الجزء من الليل أطيب ما يكون الإنسان فيه نومًا ولذة نوم، فإذا هجر الإنسان فراشه وقام يناجي الله في صلاته كان هذا دليلًا على كمال إيمانه.

مَا تَمَّ غَيْرُ مَشِيئَةٍ قَدْ رَجَحَتْ مِثْلًا عَلَى مِثْلِ بِلَا رُجْحَانِ

فهم يقولون: إن الله عز وجل يفعل الشيء بمشيئته لمجرد المشيئة؛ فهو قد شاء أن يكون هذا فكان، كما أنه شاء ألا يكون الثاني فلم يكن، ولكن ليس هناك حكمة.

لَكِنَّ مِمَّا مَنْ يَقُولُ بِحِكْمَةٍ لَيْسَتْ بِوَصْفِ قَامٍ بِالرَّحْمَنِ

قوله: (بحكمة ليست بوصف قام بالرحمن) وهذا قول آخر لهم: أن الله يفعل لحكمة لكن ليست الحكمة وصفًا له، لأنه الصفات إنما تقوم به، فهي شيء منفصل بائن يتعلق بالمفعول لا بالفعل، فمثلًا: الأنعام قد خلقها الله عز وجل وجعل فيها كما قال سبحانه: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]؛ لذا فيقولون: الحكمة ليست صفة لله، ولكنها في نفس المفعول لا في فعل الفاعل.

هَذَا وَقُلْنَا مَا اقْتَضَتْهُ عُقُولُنَا وَعُقُولُ أَشْيَاحِ ذَوِي عِرْفَانِ

قَالُوا لَنَا لَا تَأْخُذُوا بظَوَاهِرِ الـ وَحَيِّينَ تَنْسَلِحُوا مِنَ الْإِيمَانِ

أي: الأشياخ يقولون: إن أخذتم بظواهر الوحيين وقلتم لله يد والله وجه والله عين والله نزول انسلختم من الإيمان؛ لأنهم يدعون أن هذا القول يستلزم تمثيل الله بالخلق ومن مثل الله بخلقه فهو كافر.

بَلْ فَكِّرُوا بِعُقُولِكُمْ إِنْ شِئْتُمْ أَوْ فَاقْبَلُوا آراءَ عَقْلِ فُلَانِ

يعني: لا ترجعوا إلى القرآن والسنة في إثبات الصفات لله أو نفيها عنه ولكن فكروا بعقولكم وإذا لم تقدر قلد عقل فلان.

فَلْأَجْلِ هَذَا لَمْ نُحَكِّمْ لَفْظَ آ ثَارٍ وَلَا خَبْرٍ وَلَا قُرْآنِ

إِذْ كُلُّ تِلْكَ أدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ مَعْرُوءَةٌ عَنِ مُقْتَضَى الْبِرْهَانِ

ومن الخصم هنا؟ المعطلة.





٢٧١٠- وَالْآخِرُونَ أَتُوا بِمَا قَد قَالَهُ

مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا كِتْمَانٍ

٢٧١١- قَالُوا تَلَقَيْنَا عَقِيدَتَنَا عَنِ الْ

— وَوَحْيَيْنِ بِالْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

٢٧١٢- فَالْحُكْمُ مَا حَكَمَّا بِهِ لَا رَأْيَ أَه

لِ الْإِخْتِلَافِ وَظَنَّ ذِي الْحُسْبَانِ

٢٧١٣- آرَأَوْهُمْ أَحَدًا هَذَا الدِّينَ نَا

قِضَّةً لِأَصْلِ طَهَارَةِ الْإِيمَانِ

٢٧١٤- آرَأَوْهُمْ رِيحَ الْمَقَاعِدِ أَيْنَ تِل

كَ الرِّيحِ مِنْ رَوْحٍ وَمِنْ رِيحَانِ

٢٧١٥- قَالُوا وَأَنْتَ رَقِيبُنَا وَشَهِيدُنَا

مِنْ فَوْقِ عَرْشِكَ يَا عَظِيمَ الشَّانِ

٢٧١٦- إِنَّا أَيْبِنَا أَنْ نَدِينَ بِبِدْعَةٍ

وَضَلَالَةٍ أَوْ إِفْكَ ذِي بُهْتَانِ

٢٧١٧- لَكِنْ بِمَا قَد قُلْتَهُ أَوْ قَالَهُ

مَنْ قَد أَتَانَا عَنْكَ بِالْفُرْقَانِ

٢٧١٨- وَلِذَلِكَ فَارَقْنَاهُمْ حِينَ احْتِيَا

ج النَّاسِ لِلْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ

٢٧١٩- كَيْلَا نَصِيرَ مَصِيرَهُمْ فِي يَوْمِنَا

هَذَا وَنَطْمَعُ مِنْكَ بِالْغَفْرَانِ

٢٧٢٠- فَمَنْ الَّذِي مِنَّا أَحَقُّ بِأَمْنِهِ

فَاخْتَرِ لِنَفْسِكَ يَا أَخَا الْعِرْفَانِ^(١)

٢٧٢١- لَا بُدَّ أَنْ نَلْقَاهُ نَحْنُ وَأَنْتُمْ

فِي مَوْقِفِ الْعَرْضِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

٢٧٢٢- وَهَنَّاكَ يَسْأَلُنَا جَمِيعًا رَبُّنَا

وَلَدَيْهِ قَطْعًا نَحْنُ مُخْتَصِمَانِ

٢٧٢٣- فَتَقُولُ قُلْتَ كَذَا وَقَالَ نَبِيُّنَا

أَيْضًا كَذَا فِيمَا مَنَّا الْوَحْيَانِ

٢٧٢٤- فَافْعَلِ بِنَا مَا أَنْتَ أَهْلٌ بَعْدَ ذَا

نَحْنُ الْعَيْدُ وَأَنْتَ ذُو الْإِحْسَانِ

٢٧٢٥- أَفْتَقْدِرُونَ عَلَيَّ جَوَابٍ مِثْلَ ذَا

أَمْ تَعْدِلُونَ إِلَيَّ جَوَابٍ ثَانِ

٢٧٢٦- مَا فِيهِ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ

بَلْ فِيهِ قُلْنَا مِثْلَ قَوْلِ فُلَانِ

(١) [٢٧١٠: ٢٧١٣] قال العلامة محمد خليل هراس:

وأما الآخرون وهم أهل الحق، فقد أتوا إلى ربهم سليمة عقائدهم من أدران التعطيل والإلحاد، لم يتبعوا فيها إلا ما قاله هو سبحانه، من غير تحريف له عن أصل وضعه، ولا صرف له عن ظاهره، ومن غير ما جحد له ولا كتبان، قالوا لربهم حين سألمهم: إنما تلقينا عقيدتنا عن الوحيين من القرآن والأخبار، فهما مصدر ديننا كله، فلا حكم عندنا إلا لهما، ولا مرجع إلا إليهما فلا نقدم عليهما قول أحد ولا رأيه ولا نعارض حكمهما بقضية عقل ولا غيره ولا نعدل عنها إلى رأي هؤلاء المختلفين المضطربين الذين يحسبون أنهم على شيء وهم ضلال عن الحق المبين، آراؤهم مفسدة للدين إفساد الحدث لطهارة المتطهرين.

٢٧٢٧- وَهُوَ الَّذِي أَدَّتْ إِلَيْهِ عُقُولَنَا

لَمَّا وَزَّنَّا الْوَحْيَ بِالْمِيزَانِ

٢٧٢٨- إِنْ كَانَ ذَلِكَ الْجَوَابُ مُخْلِصًا

فَامْضُوا عَلَيْهِ يَا ذَوِي الْعِرْفَانِ

٢٧٢٩- تَاللَّهِ مَا بَعَدَ الْبَيَانَ لِمُنْصِفٍ

إِلَّا الْعِنَادُ وَمَرَكَبُ الْخِذْلَانِ

الشرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

الضمير في: (قاله) يعود على الله عز وجل.

قَالُوا تَلَقَيْنَا عَقِيدَتَنَا عَنِ الْوَحْيَيْنِ بِالْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

فهذا هو مصدر تلقي العقيدة عندهم من الكتاب والسنة ليس هناك مصدر تلتق سواهما.

فَالْحُكْمُ مَا حَكَمَّا بِهِ لَا رَأْيَ أَهْلِ الْإِخْتِلَافِ وَظَنَّ ذِي

(الحكم ما حكما به) أي: الكتاب والسنة.

أَرَأَوْهُمْ أَحْدَاثَ هَذَا الدِّينِ نَا قِصَّةً لِأَصْلِ طَهَارَةِ الْإِيمَانِ

قوله: (أرأؤهم أحداث) يعني: أحداث جمع حدث، والحدث ينقض الوضوء وآراء هؤلاء تنقض أصل طهارة الإيمان؛ إذا أحداث جمع حدث وهو البول والغائط، البول والغائط ينقض الوضوء وهذه الأحداث التي أتوا بها تنقض أصل طهارة الإيمان.

أَرَأَوْهُمْ رِيحَ الْمَقَاعِدِ أَيْنَ تِلْكَ الرِّيحُ مِنْ رَوْحٍ وَمِنْ رِيحَانٍ

فريح المقاعد معلوم أنها خبيثة، وبينها وبين الروح والريحان كما بين السماء والأرض.

قَالُوا وَأَنْتَ رَقِيبُنَا وَشَهِيدُنَا مِنْ فَوْقِ عَرْشِكَ يَا عَظِيمَ الشَّانِ

يخاطبون الله سبحانه وتعالى، وفي قوله: (من فوق عرشك) إثبات الاستواء على العرش، وأولئك القوم السابقون في الفصل الأول لا يقرؤون بهذا.

إِنَّا أَيْبُنَا أَنْ نَدِينَ بِنِدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ أَوْ إِنْكَ ذِي بُهْتَانِ

لَكِنْ بِمَا قَدْ قُلْتَهُ أَوْ قَالَهُ مَنْ قَدْ أَتَانَا عَنْكَ بِالْفِرْقَانِ

يعني: نحن ندين بما قد قلته، أو قاله الرسول عليه الصلاة والسلام.

وَلِذَلِكَ فَارْقَانَهُمْ حِينَ احْتِيَا جِ النَّاسِ لِلْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ

أي: فارقنا أهل التعطيل، يعني: مع حاجتنا إليهم فارقناهم لأننا فارقناهم لله فنحن مستغنون بالله عنهم.

كَيْلًا نَصِيرَ مَصِيرَهُمْ فِي يَوْمِنَا هَذَا وَنَطْمَعُ مِنْكَ بِالْغَفْرَانِ

يعني: فارقناهم مع الحاجة إليهم، كي لا يصير مصيرنا كمصيرهم في هذا اليوم فنحن نطمع منك بالغفران، ثم قال يخاطب الفريق السابق ذكره:

فَمَنْ الَّذِي مِنَّا أَحَقُّ بِأَمْنِهِ فَاخْتَرِ لِنَفْسِكَ يَا أَخَا الْعِرْفَانِ

هؤلاء هم: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

لَا بُدَّ أَنْ نَلْقَاهُ نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِي مَوْقِفِ الْعَرْضِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

نعم، والله لا بد أن نلقى خصومنا يوم العرض العظيم الشأن، قال الله تعالى ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وَهُنَاكَ يَسْأَلُنَا جَمِيعًا رَبُّنَا وَلَدَيْهِ قَطْعًا نَحْنُ مُخْتَصِمَانِ

فَنَقُولُ قُلْتِ كَذَا وَقَالَ نَبِيُّنَا أَيْضًا كَذَا فِيمَا مَنَّا الْوَحْيَانِ

فَافْعَلِ بِنَا مَا أَنْتَ أَهْلٌ بَعْدَ ذَا نَحْنُ الْعَبِيدُ وَأَنْتَ ذُو الْإِحْسَانِ

يعني: نحن حَكَمْنَا الكتاب والسنة فافعل بنا ما أنت أهل بعد هذا، وما هو الذي أهله؟ ﴿هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾ [المدرثر: ٥٦] وأهل الفضل والإحسان.

أَفْتَقْدِرُونَ عَلَيَّ جَوَابٍ مِثْلَ ذَا أَمْ تَعْدِلُونَ إِلَيَّ جَوَابٍ ثَانِ

مَا فِيهِ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ بَلْ فِيهِ قُلْنَا مِثْلَ قَوْلِ فَلَانِ

وَهُوَ الَّذِي أَدَّتْ إِلَيْهِ عُقُولُنَا لَمَّا وَزَّنَّا الْوَحْيَ بِالْمِيزَانِ

يعني: وازنا بين الوحي وبين العقل فرجحنا العقل. إن كَانَ ذَلِكُمْ الْجَوَابُ مُحْضًا فَامْضُوا عَلَيْهِ يَا ذَوِي الْعِرْفَانِ

والجواب هنا ليس بمخلص، لكن ابن القيم رحمه الله يتهمكم بهم يقول: (يا ذوي العرفان) وما أبعدهم عن العرفان.

تَاللَّهِ مَا بَعَدَ الْبَيَانَ لِمُنْصِفٍ إِلَّا الْعِنَادُ وَمَرَكَبُ الْخِذْلَانِ

إذن هذان الخصمان حسب ما تقتضيه الأدلة الشرعية الرابع منهم الخصم الثاني ذكرًا السابق مرتبة، والخاسر الأول ذكرًا الثاني أو الآخر مرتبة، فأنت الآن اختر لنفسك أن تكون مثل هؤلاء أو مثل هؤلاء، وكل عاقل سوف يختار أن يكون ممن حَكَّمُوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.





تهدية بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في تحمیل أهل الإثبات للمُعْظِلين شهادة تُؤدَّى عند رب العالمين

أهل الإثبات لصفات المولى من أهل السنة والجماعة يعلنون جهازًا بعقيدتهم، ويحمدون الله عليها، ويشهدون الله وملائكته وجميع خلقه عليها، ويحملونها للمعطلين لها من الجهمية ونحوهم جازمين بها مطمئنة بها قلوبهم قائمين بها ممثلين قوله تعالى: ﴿إِن تَوَلَّوْا فَعُوقُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فمن أصولهم العظيمة أنهم يعتقدون بقلوبهم ويقولون بألسنتهم أن الله هو العليُّ الأعلى، وأنه فوق سواواته على عرشه بائن عن خلقه، تنزل من عنده الأحكام والأوامر القدرية والشرعية، وترفع إليه وتصعد إليه الأملاك والأرواح والأعمال وقد صعد إليه رسوله محمد ﷺ ليلة المعراج وعيسى ابن مريم. ويعتقدون أنه متكلم ولم يزل ولا يزال يتكلم بها شاء إذا شاء، وأن القرآن كلامه حقًا تكلم به وسمعه جبريل وأداه إلى محمد ﷺ وبلغه محمد أمته. ويثبتون جميع ما ورد به الكتاب والسنة من أنواع كلامه لمن شاء من خلقه، والقرآن جميعه ألفاظه ومعانيه كلام الله منزل غير مخلوق.

ومن كليات أصولهم أن كل ما وصف الله به نفسه من صفات الكمال ونعوت العظمة والكبرياء والجلال أو وصفه به رسوله فهو حق ثابت على حقيقته، لا ينفون شيئًا من ذلك، ولا يحرفون، ولا يمثلون. وعندهم أعلى مراتب العلم واليقين مدلول كلام الله وكلام رسوله، وأنه مشتمل على البراهين القاطعة والمسائل النافعة، ويرأون إلى الله من تقديم غيرها عليها، وهي أعظم في صدورهم وأجل في نفوسهم من أن يقدم عليها معقول أو رأي أو قياس أو قول أحد من الناس كائنًا من كان.

ومن أصولهم العظيمة أنه لا يتم الإيمان بالله حتى يؤمن العبد بجميع أسماء الله الحسنى، وجميع ما دلت عليه من الصفات، وما صدر عنها من الأفعال والمتعلقات والأحكام. وهذه الأصول الثلاثة هي أركان الإيمان بالأسماء والصفات، فيقولون: إنه عليم، وذو علم عظيم، ويعلم كل شيء. قدير، ذو قدرة، ويقدر على كل شيء. وهكذا بقية الأسماء الحسنى على هذه الطريقة. وهذه الأمور الثلاثة متلازمة: الأسماء تدل على الصفات وهي مشتقة منها، وصفاته تدل على أسمائه، فما سمي بالعليم القدير الحي السميع البصير ونحوها إلا لما اتصف به من كمال العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر، والفعل مرتبطة به الأسماء والصفات، فإن إثبات أفعال بدون أوصاف تصدر عنها غير معقول، فآثار الرحمة والنعم تدل على أنه موصوف بالرحمة العظيمة، وآثار الحكمة وانتظام الخلق والأمر تدل على كمال حكمته، وهكذا. وقد تطلق الصفة ويراد بها آثارها كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَيَّضَتْ

وَجُوهُهُمْ فَنَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

وفي الحديث الصحيح: «لَمَّا احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ قَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءٍ مِنْ عِبَادِي». فأطلق على الجنة الرحمة، لأنها ناشئة عنها ومملوءة بها. ومن الممتنع المستحيل إثبات فعل من دون أن يعود إلى فاعله وصف منه. والفعل له شروط ثلاثة: نفوذ الإرادة، وتمام القدرة، وإمكان الفعل. والرب تعالى تام القدرة، نافذ الإرادة، وليس عليه شيء ممتنع. ومن أصولهم الكلية أنهم يبرأون إلى الله من كل تأويل يخالف مراد الله ومراد رسوله من تحريفات المبتدعين واختراعات المتكلفين، وإنما تأويلهم يعود إلى الجدل في معرفة مراد الله ومراد رسوله، وإذا ورد في الكتاب والسنة لفظ مشتبه ردُّوا التشابه إلى المحكم ليصير الجميع محكمًا، وهذا عند الضرورة، وإلا فلا يعدلون عن ظاهر الكتاب والسنة ما وجدوا إليه سبيلًا.

ومن مبادئ أهل السنة أنهم يجتهدون في معرفة الحق بكل طريق يوصل إليه، ويرحمون الخلق فهم أرحم خلق الله للخلق يقصدون هدايتهم مهما أمكنهم. ومن خالف الكتاب والسنة من كل مبتدع فهم يبدعون وينكرون عليه بدعته ويزجرون عنها بكل وسيلة، ولكنهم لا يكفرون المبتدعين المتأولين الذين ضلوا عن الحق وظنوا أن ما قالوه واعتقدوه هو مراد الله ومراد رسوله جهلاً وضلالاً، فالبدعة وإن كانت منافية للإيمان قد يمنع من تكفير قائلها جهله وضلاله وتأويله إذا كان مؤمنًا بالرسول معظماً له ملتزماً لطاعته



وتصديق خبره، وأما من عرف منهم مخالفة بدعته لما قاله الرسول وعاند وشاق الله ورسوله من بعد ماتبين له الهدى فإنه كافر، لأن الكفر جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه.

ويؤمنون بالقدر خيره وشره، فيعلمون أن الله على كل شيء قدير، وقد أحاط علمه بكل شيء وكتب في اللوح المحفوظ كل شيء، وأن مشيئة الله نافذة وإرادته عامة لكل ما وجد من الأعيان والأوصاف والأفعال، وأنه خالق أفعال العباد والطاعات والمعاصي، ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم وجعلهم لأفعالهم مختارين غير مجبورين عليها، بل هي واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.

ومن أصولهم أن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأن الناس يتفاضلون في عقائد الإيمان وفي أعماله القلبية والبدنية وأقوال اللسان قوة وضعفاً وحسناً وضده وقلة وكثرة، ويرأون من مذهب المرجئة الذين يرون الإيمان مجرد إقرار القلب وأن الناس في الإيمان متساوون.

ومن مذهب الخوارج المخلدين أهل الكبائر في النار، ومن مذهب المعتزلة الموافقين لهم في الحكم، بل عند أهل السنة أن أهل الكبائر لا يسلب عنهم اسم الإيمان ولا يخلدون في النار بل لا بد من خروجهم منها بشفاعة أو غير شفاعة برحمة من أرحم الراحمين، ومع ذلك فهم ناقصو الإيمان.

ويعتقدون ما ثبت في الكتاب والسنة المتواترة من أن المؤمنين يرون ربهم تبارك وتعالى كما يرى القمر ليلة البدر، يرونه في عرصات القيامة ثم يرونه في الجنة كما يشاء الله سبحانه في أوقات قدرها الرب الرحيم لأوليائه المطيعين لتقرض أعينهم وتبتهج قلوبهم ويزدادوا من معرفته ومحبته وتوابع ذلك الذي هو أكبر النعيم وأجل الفوز العظيم.

ويعتقدون أن خير الخلق بعد النبيين والمرسلين أصحاب نبيهم، لما ثبتت به وبفضائلهم نصوص الكتاب والسنة، ولما من الله به عليهم من السوابق والفضائل والخصائص التي لا يشاركون فيها أحد من الأمة، وأفضلهم أبو بكر الصديق ثم عمر ثم عثمان ثم علي ثم باقي العشرة المشهود لهم بالجنة ثم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ممن أسلم قبل صلح الحديبية وهم على مراتبهم من السابق بحسب مقاماتهم رضي الله عنهم.



فصل

في تحمیل أهل الإثبات للمعتلين
شهادة تؤدی عند رب العالمین

- ٢٧٣٠- يَا أَيُّهَا الْبَاغِي عَلَى أَتْبَاعِهِ
بِالظُّلْمِ وَالْبُهْتَانِ وَالْعُدْوَانِ
٢٧٣١- قَدْ حَمَلُوكَ شَهَادَةً فَاشْهَدْ بِهَا
إِنْ كُنْتَ مَقْبُولًا لَدَى الرَّحْمَنِ
٢٧٣٢- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ إِنْ سُئِلْتَ بِأَنَّهُمْ
قَالُوا إِلَهُ الْعَرْشِ وَالْأَكْوَانِ
٢٧٣٣- فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى حَقًّا عَلَى الْ
عَرْشِ اسْتَوَى سُبْحَانَ ذِي السُّلْطَانِ
٢٧٣٤- وَالْأَمْرُ يَنْزِلُ مِنْهُ ثُمَّ يَنْسِرُ فِي الْ
أَقْطَارِ سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّانِ
٢٧٣٥- وَإِلَيْهِ يَصْعَدُ مَا يَشَاءُ بِأَمْرِهِ
مِنْ طَيِّبَاتِ الْقَوْلِ وَالشُّكْرِ
٢٧٣٦- وَإِلَيْهِ قَدْ صَعِدَ الرَّسُولُ وَقَبْلَهُ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ كَاسِرُ الصُّلْبَانِ
٢٧٣٧- وَكَذَلِكَ الْأَمْلاَكُ تَصْعَدُ دَائِمًا
مِنْ هَهُنَا حَقًّا إِلَى الدِّيَانِ
٢٧٣٨- وَكَذَلِكَ رُوحُ الْعَبْدِ بَعْدَ مَمَاتِهَا

تَرَقَى إِلَيْهِ وَهُوَ ذُو إِيْمَانٍ

٢٧٣٩- وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ

مُتَكَلِّمٌ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

٢٧٤٠- سَمِعَ الْأَمِينُ كَلَامَهُ مِنْهُ وَأَدَا

هُ إِلَى الْمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَانِ

٢٧٤١- هُوَ قَوْلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقَةً

لَفْظًا وَمَعْنَى لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ

٢٧٤٢- وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ

قَدْ كَلَّمَ الْمَوْلُودَ مِنْ عِمْرَانَ

٢٧٤٣- سَمِعَ ابْنُ عِمْرَانَ الرَّسُولُ كَلَامَهُ

مِنْهُ إِلَيْهِ مَسْمَعِ الْأَذَانِ

٢٧٤٤- [وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنَّ

نَ اللَّهُ نَادَاهُ بِلَا كِتْمَانَ

٢٧٤٥- وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنَّ

نَ اللَّهُ نَادَى قَبْلَهُ الْأَبْوَانَ

٢٧٤٦- وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنَّ

نَ اللَّهُ يَسْمَعُ صَوْتَهُ التَّمْلَانَ]

٢٧٤٧- وَاللَّهُ قَالَ بِنَفْسِهِ لِرَسُولِهِ

إِنِّي أَنَا اللَّهُ الْعَظِيمُ الشَّانِ

٢٧٤٨- وَاللَّهُ قَالَ بِنَفْسِهِ لِرَسُولِهِ

أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ ذِي الطُّغْيَانِ

٢٧٤٩- وَاللَّهُ قَالَ بِنَفْسِهِ حَمَّ مَعَ

طَهَ وَمَعَ يَسَ قَوْلَ يَيَّانِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

إن أهل السنة حملوا أهل البدعة إن كانت تقبل شهادتهم هذا الحمل، حملوهم الشهادة يقول:

يَا أَيُّهَا الْبَاغِي عَلَى أَتْبَاعِهِ بِالظُّلْمِ وَالْبُهْتَانِ وَالْعُدْوَانِ

الباغي على أتباع الرسول عليه الصلاة والسلام بالظلم والبهتان والعدوان هذا وصف أهل البدع بالنسبة لأهل السنة.

قَدْ حَمَلُوكَ شَهَادَةً فَاشْهَدْ بِهَا إِنْ كُنْتَ مَقْبُولًا لَدَى الرَّحْمَنِ

(إن كنت مقبولاً): وهو غير مقبول، وجاءت الفاء هنا: (فاشهد) للتفريق.

وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ إِنْ سُئِلْتَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِلَهُ الْعَرْشِ وَالْأَكْوَانِ

يعني: اشهد عليهم أنهم وصفوا الله بالعلو بأنه:

فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى حَقًّا عَلَى الِ عَرْشِ اسْتَوَى سُبْحَانَ ذِي السُّلْطَانِ

فهذا إثبات العلو وإثبات الاستواء فهو فوق السماوات؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] وهو استوى على العرش لقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

وَالْأَمْرُ يَنْزِلُ مِنْهُ ثُمَّ يَنْزِلُ فِي الِ أَقْطَارِ سُبْحَانَ الْعَظِيمِ الشَّانِ

فالأمر ينزل منه ولا نزول إلا من أعلى قال عز وجل: ﴿يُنزِّلُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ نُزُوجًا﴾ [السجدة: ٥].

وَالِيهِ يَصْعَدُ مَا يَشَاءُ بِأَمْرِهِ مِنْ طَيِّبَاتِ الْقَوْلِ وَالشُّكْرَانِ

قال الله تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

وَالِيهِ قَدْ صَعِدَ الرَّسُولُ وَقَبْلَهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ كَاسِرُ الصُّلْبَانِ

الرسول محمد عليه الصلاة والسلام قد صعد الله به إليه ليلة المعراج إلى السماوات

السبع^(١) إلى موضع سمع فيه صريف الأقلام - مكان لم يصله أحد من البشر فيما نعلم.
وقوله: (كاسر الصلبان) وهذا يكون إذا نزل في آخر الزمان فإنه يكسر الصليب ويقتل
الخنزير ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام.
وَكَذَلِكَ الْأَمَلُكَ تَصْعَدُ دَائِمًا مِنْ هَهُنَا حَقًّا إِلَى الدِّيَانِ

وكذلك الملائكة تصعد إلى الله عز وجل من الأرض في كل آن وحين إلى الله سبحانه وتعالى
بالأعمال وبالأرواح وبغير ذلك من أوامره ﴿تَنْزُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ هنا دائماً وأبداً.
وَكَذَلِكَ رُوحُ الْعَبْدِ بَعْدَ مَمَاتِهَا تَرْقَى إِلَيْهِ وَهُوَ ذُو إِيْمَانٍ

فإذا قبض ملك الموت الروح أخذتها الملائكة فصعدوا بها إلى السماء فإن كان من المؤمنين
- أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم - فتحت لها أبواب السماء حتى تصعد إلى الله عز وجل،
وإن كان من الكافرين لا تُفتح لهم أبواب السماء وتطرح روحه طرحاً، تُرمى على
الأرض^(٢) رمياً وقرأ النبي عليه الصلاة والسلام ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ
أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُتَكَلِّمٌ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

فهذا القرآن الذي بين أيدينا كلام ربنا عز وجل تكلم به حقيقة لفظاً ومعنى.

سَمِعَ الْأَمِينَ كَلَامَهُ مِنْهُ وَأَدَا هُوَ إِلَى الْمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَانِ

والأمين هو جبريل عليه السلام، وهذا يدل على أن: نزول القرآن من الله إلى جبريل إلى
محمد وليس من اللوح المحفوظ كما هو مشهور عند كثير من العلماء بل إن الله عز وجل
يتكلم بالقرآن حين إنزاله فيسمعه جبريل ثم ينزل به إلى محمد ﷺ.

هُوَ قَوْلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقَةً لَفْظًا وَمَعْنَى لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ

و قد مر علينا هذا كثيراً وبيننا اختلاف الناس في كلام الله.

وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ كَلَّمَ الْمَوْلُودَ مِنْ عِمْرَانَ

وهو موسى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

سَمِعَ ابْنُ عِمْرَانَ الرَّسُولَ كَلَامَهُ مِنْهُ إِلَيْهِ مَسْمَعُ الْأَذَانِ

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

يعني: سمعه بأذنيه وهذا يدل على أنه صوت.

وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنَّ اللَّهَ نَادَاهُ بِلَا كِتْمَانٍ

قال الله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنَّ اللَّهَ نَادَى قَبْلَهُ الْأَبْوَانَ

أي: آدم وحواء، ﴿وَنَادَيْنَاهُمَا رَجِيمًا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ والتزم المؤلف رَجَّاهُ فِي هَذَا الْبَيْتِ لُغَةً مِنْ يَلْزِمُ الْمَثْنَى الْأَلْفَ مُطْلَقًا لِأَنَّهُ قَالَ: (نادى قبله الأبوان) ولو جرى على اللغة المشهورة لقال: الأبوين.

وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ الثَّقْلَانَ

فيوم القيامة يتكلم عز وجل بكلام يسمعه الثقلان من بعد كما يسمعه من قرب «فيقول أنا الديان»^(١).

وَاللَّهُ قَالَ بِنَفْسِهِ لِرَسُولِهِ إِنِّي أَنَا اللَّهُ الْعَظِيمُ الشَّانِ

و هو موسى قال الله تعالى له: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: ١٤] فهل يمكن أن تقول الشجرة - كما يزعم القائلون بأن موسى سمع الصوت من الشجرة - : ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ؟ لا يمكن.

وَاللَّهُ قَالَ بِنَفْسِهِ لِرَسُولِهِ إِنِّي أَنَا اللَّهُ الْعَظِيمُ الشَّانِ

وذاك في قوله: ﴿أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [النازعات: ١٧].

وَاللَّهُ قَالَ بِنَفْسِهِ حَمَّ مَعَ طَةً وَمَعَ يَسَ قَوْلَ بَيَانَ

يقول المؤلف: حتى الحروف الهجائية قالها الله عز وجل مع أن الحروف الهجائية ليس لها معنى ومع ذلك قالها الرب عز وجل.



* قَوْلُهُ رَجَّاهُ:

٢٧٥٠ - وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ وَصَفُوا الْإِلَهَ

بِكُلِّ مَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

٢٧٥١- وَبِكُلِّ مَا قَالَ الرَّسُولُ حَقِيقَةً

مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا غُدْوَانٍ

٢٧٥٢- وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنْ قَوْلَ نَبِيِّهِمْ

وَكَلامَ رَبِّ العَرْشِ ذَا التَّيَّانِ

٢٧٥٣- نَصْرٌ يُفِيدُ لَدَيْهِمْ عِلْمَ اليَقِينِ

مِنْ إِفَادَةِ المَعْلُومِ بِالبُرْهَانِ

٢٧٥٤- وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ قَابَلُوا التَّ

عَطِيلَ وَالتَّمثِيلَ بِالتَّكْرَانِ

٢٧٥٥- إِنَّ المَعْطِيلَ وَالمُمَثِّلَ مَا هُمَا

مُتَيَقِّنِينَ عِبَادَةَ الرَّحْمَنِ

٢٧٥٦- ذَا عَابِدِ المَعْدُومِ لَا سُبْحَانَهُ

أَبَدًا وَهَذَا عَابِدُ الأَوْثَانِ

٢٧٥٧- وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أُثْبِتُوا الـ

أَسْمَاءَ وَالأَوْصَافَ لِلدِّيَانِ

٢٧٥٨- وَكَذَلِكَ الأَحْكَامَ أَحْكَامَ الصِّفَا

تِ وَهَذِهِ الأَزْكَانُ لِلإِيْمَانِ

٢٧٥٩- قَالُوا عَلِيمٌ وَهُوَ ذُو عِلْمٍ وَيُعـ

لِمُ غَايَةَ الإِسْرَارِ وَالإِعْلَانِ

٢٧٦٠- وَكَذَا بَصِيرٌ وَهُوَ ذُو بَصَرٍ وَيُبـ

صِرُ كُلِّ مَرئِي وَذِي الأَلْوَانِ

٢٧٦١- وَكَذَا سَمِيعٌ وَهُوَ ذُو سَمْعٍ وَيَسـ

مَعَ كُلِّ مَسْمُوعٍ مِنَ الْأَكْوَانِ
 ٢٧٦٢- مُتَكَلِّمٌ وَلَهُ كَلَامٌ وَصَفُهُ
 وَيُكَلِّمُ الْمَخْضُوصَ بِالرِّضْوَانِ
 ٢٧٦٣- وَهُوَ الْقَوِيُّ بِقُوَّةِ هِيٍّ وَصَفُهُ
 وَعَلَيْكَ يَقْدِرُ يَا أَحَا السُّلْطَانَ
 ٢٧٦٤- وَهُوَ الْمُرِيدُ لَهُ الْإِرَادَةُ هَكَذَا
 أَبَدًا يُرِيدُ صَنَائِعَ الْإِحْسَانِ
 ٢٧٦٥- وَالْوَصْفُ مَعْنَى قَامَ بِالمَصُوفِ وَال
 أَسْمَاءُ أَعْلَامٌ لَهُ بِوَرَانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ من جملة ما حمل أهل الإثبات أهل التعطيل ليشهدوا به عند الله عز وجل قال:

وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ وَصَفُوا الْإِلَهَ بِكُلِّ مَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

وهذه - والله الحمد - هي عقيدتنا أننا نصف الله بكل ما جاء في القرآن من وصف ولا نجبن عن وصف نصف لله به إذا كان الله قد وصف نفسه بذلك، وكذلك أيضاً:

وَبِكُلِّ مَا قَالَ الرَّسُولُ حَقِيقَةً مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا عُدْوَانٍ

أيضاً كل ما قاله النبي ﷺ في وصف الله فإننا نصف الله به ولا نتوقف ولا نجبن بل نقوله صريحاً علناً ونحن مطمئنون والله الحمد.

وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ قَوْلَ نَبِيِّهِمْ وَكَلَامَ رَبِّ الْعَرْشِ ذَا التَّبَيُّانِ

نَصٌّ يُفِيدُ لَدَيْهِمْ عِلْمَ الْيَقِينِ مِنْ إِفَادَةِ الْمَعْلُومِ بِالْبُرْهَانِ

وعند أولئك المعطلة أنه لا يفيد القطع ولا اليقين ولا يفيد إلا الظن وقد عرفنا شبهاتهم السابقة ورد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ عليهم حيث قالوا: إن قول الرسول يحتمل معاني كثيرة، وقالوا:

إن العرش يحتمل معاني كثيرة، وكذلك الاستواء، ورد عليهم رَحْمَةً برد مقنع سبق يقول:

وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ قَابَلُوا التَّعْطِيلَ وَالتَّمْثِيلَ بِالتَّكْرَانِ

التعطيل والتمثيل طرفان: فالتعطيل نفي الصفات والتمثيل إثباتها مع التمثيل فهما ضدان، وأهل الإثبات أنكروا التعطيل والتمثيل.

إِنَّ الْمُعْطِلَ وَالتَّمْثِيلَ مَا هُمَا مُتَيَقِّنِينَ عِبَادَةَ الرَّحْمَنِ

صدق فيما قال، فالمعطل لم يعبد الله يقيناً والممثل لم يعبد الله يقيناً فكلاهما لم يعبد الله يقيناً لماذا؟ قال:

ذَا عَابَدُ الْمُعْذُومِ لَا تُسَبِّحَانَهُ أَبَدًا وَهَذَا عَابِدُ الْأَوْثَانِ

فعابد المعذوم هو المعطل، وعابد الأوثان هو الممثل.

وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَتَبَتُوا الـأَسْمَاءَ وَالْأَوْصَافَ لِلدِّيَانِ

يعني: أن أهل الإثبات - أهل الحديث - أتبتوا الأسماء والأوصاف لكي يثبتوا الاسم وما دل عليه من صفة.

وَكَذَلِكَ الْأَحْكَامُ أَحْكَامُ الصِّفَا تِ وَهَذِهِ الْأَرْكَانُ لِلإِيمَانِ

فأتبتوا الأسماء وما تضمنته من الأوصاف وما تضمنته هذه الأوصاف من الأحكام وأركان الإيمان أي الإيمان بالاسم، والإيمان باسم الله لا بد فيه من ثلاثة أركان: أن تؤمن به اسماً لله وأن تؤمن بما تضمنه من الصفة وأن تؤمن بالحكم الذي يترتب على هذه الصفة، وضرب لنا أمثلة رَحْمَةً:

قَالُوا عَلَيْهِمْ وَهُوَ ذُو عِلْمٍ وَيُعَلِّمُ غَايَةَ الْإِسْرَارِ وَالْإِعْلَانِ

فهو عليهم اسماً، وذو علم صفة ويعلم غاية الأسرار والإعلان، وهذا هو الحكم.

وَكَذَا بَصِيرٌ وَهُوَ ذُو بَصَرٍ وَيُبْصِرُ كُلَّ مَرِيٍّ وَيَذِي الْأَكْوَانِ

فهو بصير اسماً، وذو بصر صفة، ويبصر وهذا الحكم، والحكم والأثر معناهما واحد لكن الحكم أحسن.

وَكَذَا سَمِيعٌ وَهُوَ ذُو سَمْعٍ وَيَسْمَعُ كُلَّ مَسْمُوعٍ مِنَ الْأَكْوَانِ

أيضًا: يتضمن الثلاثة أركان المشتركة.

مُتَكَلِّمٌ وَلَهُ كَلَامٌ وَصَفُهُ وَيُكَلِّمُ الْمَخْضُوصَ بِالرِّضْوَانِ

قوله: (متكلم) هذا اسم لكنه في الحقيقة ليس اسمًا بل هذا خبر يعنى: يخبر بأنه متكلم، ولهذا ليس من أسماء الله المتكلم؛ لأن الكلام ينقسم إلى: محمود ومذموم، وأسماء الله كلها حسنى ما فيها ما يقبل الذم إطلاقًا لكن يخبر به أي: يخبر عن الله بأنه متكلم ولا يسمى بأنه متكلم. يقول: (وله كلام وصفه) الكلام هو الوصف والحكم.

وقوله: (ويكلم المخصوص بالرضوان) والذي لم يرض عنه هل يكلمه؟ نعم يكلمه كلام توبيخ فإن الله أخبر عن أهل النار أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] فيقول الله عز وجل ﴿أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكْمُنُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. وَهُوَ الْقَوِيُّ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصَفُهُ وَعَلَيْكَ يَقْدِرُ يَا أَخَا السُّلْطَانِ

القوي اسم، والوصف القوة، لكن القوة ليس لها حكم إلا إذا كانت قوة قدرة ولهذا قال: (وعليك يقدر يا أخا السلطان).

فالمؤلف رَحِمَهُ اللهُ ما أتى بحكم القوة؛ لأن القوة من الأوصاف التي لا تتعدى، والحياة كذلك من الأوصاف التي لا تتعدى، لكن العزة تتعدى فهو يعز. على كل حال هناك أوصاف لا تتعدى الموصوف، فالقوة من الأوصاف التي لا تتعدى الموصوف فإن تعدته صارت بمعنى القدرة فنقول: يقوى عليك فهذا قال المؤلف: (وعليك يقدر يا أخا السلطان).

لماذا قال يا أخا السلطان؟ لأنه سبحانه إذا قدير على صاحب السلطان فمن ليس له سلطان من باب أولى، فيقدر على الملك ويقدر على الرئيس ويقدر على الوزير فهؤلاء هم ذوو سلطان فمن دونهم من باب أولى.

وَهُوَ الْمُرِيدُ لَهُ الْإِرَادَةُ هَكَذَا أَبَدًا يُرِيدُ صَنَائِعَ الْإِحْسَانِ

والمريد ليس من أسمائه عز وجل لكنه مما يخبر به عن الله فيقال: إن الله مريد لكن لا يُسمى به، واعلم أن الأسماء ثلاثة أقسام: قسم لا يحمل إلا معنى حسنًا فهذا يكون من أسمائه، وقسم لا يحمل إلا معنى قبيحًا فهذا لا يكون من أسمائه ولا يخبر به عنه، وقسم يكون منقسمًا لا يحمل لا هذا ولا هذا فهذا يُخبر به عنه ولا يسمى به؛ فمريد ومتكلم وصانع وما أشبهه هذا يخبر به عن الله ولا يُسمى به فهنا نقول: هو المريد له الإرادة هكذا

أبدأ يريد صنائع الإحسان فالإرادة وصف ويريد حكم.

وَالْوَصْفُ مَعْنَى قَامَ بِالْمَوْصُوفِ وَالْأَسْمَاءُ أَعْلَامٌ لَهُ بِوَرَانٍ

يقول رَحِمَهُ اللهُ: إن أسماء الله من جهة أعلام ومن جهة أوصاف، فمن حيث دلالتها على ذات الله أعلام، ومن حيث دلالتها على الوصف القائم به أوصاف، فالقدير مثلاً من حيث دلالتها على الله عَلمٌ ومن حيث دلالتها على القدرة وصف، ولهذا نقول: أسماء الله أعلام وأوصاف، فباعتبار دلالتها على الذات أعلام، وباعتبار دلالتها على الوصف أوصاف ينبني على ذلك هل هي مترادفة أو متباينة؟ نقول من حيث دلالتها على الذات مترادفة، ومن حيث دلالتها على المعنى متباينة، فالحي والعليم والقدير والسميع والبصير تدل على ذات واحدة لكن من حيث الأوصاف كل واحد يدل على وصف غير ما دل عليه الآخر.

على الذات متباينة من حيث دلالتها على الوصف والمعنى، أيضاً أسماء غير الله يعني: أسماء الناس قد تكون أعلاماً محضة فيسمى هذا الرجل بعبد الله وتجده يعبد الشيطان ولا يعبد الله أليس كذلك؟ إذا هل دل الاسم على ما اشتق منه؟ لا، فقد يسمى الشخص محمد وتجده مذمم لا خير فيه وليس فيه خصلة تحمد أليس كذلك؟ ويسمى الرجل خالد وهو سيموت، فلا يمكن أن يكون خالدًا وهكذا، لكن أسماء الله كلها أعلام وأوصاف ولهذا قال: أسماؤه دلت على أوصافه.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٢٧٦٦- أَسْمَاؤُهُ دَلَّتْ عَلَى أَوْصَافِهِ

مُشْتَقَّةٌ مِنْهَا اشْتِقَاقٌ مَعَانٍ

٢٧٦٧- وَصِفَاتُهُ دَلَّتْ عَلَى أَسْمَائِهِ

وَالْفِعْلُ مُرْتَبِطٌ بِهِ الْأَمْرَانِ

٢٧٦٨- وَالْحُكْمُ نَسَبْتُهَا إِلَى مُتَعَلِّقَا

بِ تَقْتَضِي آثَارَهَا بَيِّنَانِ

٢٧٦٩- وَلَزُبْنَا يُعْنَى بِهِ الْإِخْبَارُ عَن

آثارها يُعنى به أمران

٢٧٧٠- والفِعْلُ إعطاء الإرادة حُكْمَهَا

مَعَ قُدْرَةِ الفَعَّالِ وَالإِمْكَانِ

٢٧٧١- فَإِذَا انتَفَت أَوْصَافُهُ سُبْحَانَهُ

فَجَمِيعُ هَذَا بَيْنَ البُطْلَانِ^(١)

٢٧٧٢- وَاشْهَد عَلَيْهِم أَنَّهُمْ قَالُوا بِهِ-

ذَا كَلَّمَهُ جَهْرًا بِلا كِتْمَانِ

٢٧٧٣- وَاشْهَد عَلَيْهِم أَنَّهُمْ بُرَأءُ مِنْ

تَأْوِيلِ كُلِّ مُحَرِّفِ شَيْطَانِ

٢٧٧٤- وَاشْهَد عَلَيْهِم أَنَّهُمْ يَتَأَوَّلُو

نَ حَقِيقَةَ التَّأْوِيلِ فِي القُرْآنِ

٢٧٧٥- هُمْ فِي الحَقِيقَةِ أَهْلُ تَأْوِيلِ الَّذِي

يُعنى بِهِ لَأَقَائِلِ الهَذْيَانِ

٢٧٧٦- وَاشْهَد عَلَيْهِم أَنَّ تَأْوِيلَاتِهِمْ

صَرَفَ عَنِ المَرْجُوحِ للرُّجْحَانِ

٢٧٧٧- وَاشْهَد عَلَيْهِم أَنَّهُمْ حَمَلُوا النُّصُو

صَ عَلَى الحَقِيقَةِ لَأَ المَجَازِ الثَّانِي

٢٧٧٨- إِلَّا إِذَا مَا اضْطَرَّ هُمْ لِمَجَازِهَا

مُضْطَرُّ مِنْ حِسِّ وَمِنْ بُرْهَانِ

(١) [٢٧٧١] قال العلامة محمد خليل هراس:

فإذا قيل بانتفاء صفاته تعالى كما تقول المعتزلة لم يكن إثبات الأسماء والصفات والأحكام وكان ذلك كله ظاهر البطلان.

٢٧٧٩- فَهَنَّاكَ عِصْمَتُهَا إِبَاحَتُهُ بِغِيءِ

رِ تَجَانِفِ لِلْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ

٢٧٨٠- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَ

نَكُومِ بِمَا قُلْتُمْ مِنَ الْكُفْرَانِ

٢٧٨١- إِذْ أَنْتُمْ أَهْلُ الْجَهَالَةِ عِنْدَهُمْ

لَسْتُمْ أَوْلِيَاءَ كُفْرٍ وَلَا إِيمَانِ

٢٧٨٢- لَا تَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ الْكُفْرَانِ بَلْ

لَا تَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ

٢٧٨٣- إِلَّا إِذَا عَانَدْتُمْ وَرَدَدْتُمْ

قَوْلَ الرَّسُولِ لِأَجْلِ قَوْلِ فُلَانٍ

٢٧٨٤- فَهَنَّاكَ أَنْتُمْ أَكْفَرُ الثَّقَلَيْنِ مِنْ

إِنْسٍ وَجِنٍّ سَاكِنِي التِّيَرَانِ

٢٧٨٥- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أُبْتُؤُوا الـ

أَقْدَارَ وَارِدَةً مِنَ الرَّحْمَنِ

٢٧٨٦- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ حُجَّةَ رَبِّهِمْ

قَامَتْ عَلَيْهِمْ وَهُوَ ذُو غُفْرَانٍ

٢٧٨٧- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ هُمْ فَاعِلُو

نَ حَقِيقَةِ الطَّاعَاتِ وَالْعِصْيَانِ

٢٧٨٨- وَالْجَبْرِ عِنْدَهُمْ مُحَالٌ هَكَذَا

نَفِي الْقِضَاءِ فَبَسَّتِ الرَّأْيَانَ

٢٧٨٩- وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ إِيمَانَ الْوَرَى

قَوْلٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ عَقْدٌ جَنَانٍ

٢٧٩٠- وَيَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ قَطْعًا هَكَذَا

بِالضِّدِّ يُمَسِّي وَهُوَ ذُو نُقْصَانٍ

٢٧٩١- وَاللَّهُ مَا إِيْمَانٌ عَاصِينَا كَيْ-

سَمَانَ الْأَمِينِ مُنْزَلِ الْقُرْآنِ

٢٧٩٢- كَلًّا وَلَا إِيْمَانٌ مُؤْمِنِنَا كَيْ-

سَمَانَ الرَّسُولِ مُعَلِّمِ الْإِيْمَانِ^(١)

٢٧٩٣- وَأَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلِدُوا

أَهْلَ الْكِبَائِرِ فِي حَمِيمٍ أَنْ

٢٧٩٤- بَلْ يَخْرُجُونَ بِإِذْنِهِ بِشَفَاعَةٍ

وَبِذُنُوبِهَا لِمَسَاكِينِ بِجَنَانٍ

٢٧٩٥- وَأَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّ رَبَّهُمْ يُرَى

يَوْمَ الْمَعَادِ كَمَا يُرَى الْقَمْرَانِ

٢٧٩٦- وَأَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّ أَصْحَابَ الرَّسُولِ

لِخِيَارِ خَلْقِ اللَّهِ مِنْ إِنْسَانٍ

٢٧٩٧- حَاشَا النَّبِيِّينَ الْكِرَامَ فَإِنَّهُمْ

خَيْرُ الْبَرِيَّةِ خَيْرَةُ الرَّحْمَنِ

(١) [٢٧٨٩: ٢٧٩٢] قال العلامة محمد خليل هراس:

وأشهد عليهم بأنهم يرون أن الإيمان تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان وأنه يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث الكثيرة، بل هو قابل للزيادة والنقص باعتبار ركنه الأول الذي هو التصديق فإنه لا يعقل أن يكون إيمان أحد العصاة من هذه الأمة كإيمان جبريل الأمين عليه السلام، ولا أن يكون إيمان أحد المؤمنين منا كإيمان النبي الذي هو معلم الإيمان عليه السلام.

٢٧٩٨- وَخِيَارُهُمْ خُلَفَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ

وَخِيَارُهُمْ حَقًّا هُمَا الْعُمَرَانِ

٢٧٩٩- وَالسَّابِقُونَ الْأَوْلُونَ أَحَقُّ بِالذِّ

قَدِيمٍ مِمَّنْ بَعَدَهُمْ بَيِّنَانِ

٢٨٠٠- كُلُّ بِحَسَبِ السَّبْقِ أَفْضَلُ رُتْبَةً

مِنْ لِأَحَقِّ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَانِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

سبق لنا أن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يقول: إن أساء الله تعالى متضمنة للأوصاف وأحكامها وضرب أمثلة لذلك .

وَصِفَاتُهُ ذَلَّتْ عَلَى أَسْمَائِهِ وَالْفِعْلُ مُرْتَبِطٌ بِهِ الْأَمْرَانِ

أي: الأسماء والصفات فمثلاً السميع اسم دل على السمع وهو صفة والفعل يسمع ويسمى الحكم ويسمى الأثر، كذلك الخلاق دل على الصفة وهي الخلق وعلى الفعل وهو أنه يخلق.

وَالْحُكْمُ نَسَبْتُهَا إِلَى مُتَعَلِّقًا تِ تَقْضِي آثَارَهَا بَيِّنَانِ

الحكم: هو أن تُنسب إلى متعلقاتها التي تقتضيها الآثار، وعلى هذا فلنا أن نعبر بالأحكام ولنا أن نعبر بالآثار.

وَلَزُبْنَا يُعْنَى بِهِ الْإِخْبَارُ عَنِ آثَارِهَا يُعْنَى بِهِ أَمْرَانِ

قوله: (ولربما يعني به) أي: بالحكم، إذا الحكم أحياناً يعني به: ما يدل على متعلقاتٍ تقتضي آثارها وأحياناً يعني به الآثار نفسها، فكلام المؤلف يقول لابد لكل اسم من صفة ثم هذه الصفة قد تقتضي الآثار أي: تقتضي أن يكون لها أثر وحينئذٍ يكون لها حكم وقد لا تقتضي ذلك وحينئذٍ لا يكون لها حكم فما كان لازماً فإنه لا حكم له وما كان متعدياً فله حكم هذا الضابط، فالحي لازم لا يتعدى إلى الغير فليس له حكم، ولهذا نقول اسمه الحي ووصفه الحياة ولا نقول الحكم يحيي؛ لأن يحيي فعل للمحيي المحيي المميت وليست فعل للحي، فالحي وصف لازم، أما البصير متعدٍ؛ فالبصير متضمن لصفة تتعدى وهو أنه

يبصر، والعظيم لازم فإذا يدل على الاسم وعلى الصفة وليس له حكم وهلم جرا قال:
وَالْفِعْلُ إِعْطَاءُ الْإِرَادَةِ حُكْمَهَا مَعَ قُدْرَةِ الْفَعَالِ وَالْإِمْكَانِ

الفعل ناتج عن إرادة وقدرة فلا يمكن أن يكون فعل بلا إرادة ولا فعل بلا قدرة ولهذا لو أردت أن تسافر إلى بلد ولكن ليس عندك راحلة ما استطعت السفر وذلك لعدم القدرة ولو كان عندك راحلة، لكن الطريق مخيف فلن تريد السفر فإن السفر لا يكون لعدم الإرادة ولو وجدت الإرادة والقدرة حينئذ يتحقق الفعل ولهذا قال:

وَالْفِعْلُ إِعْطَاءُ الْإِرَادَةِ حُكْمَهَا مَعَ قُدْرَةِ الْفَعَالِ وَالْإِمْكَانِ
فَإِذَا انْتَفَتِ أَوْصَافُهُ سُبْحَانَهُ فَجَمِيعُهُ هَذَا بَيِّنُ الْبُطْلَانِ

إذا لم يكن لله أوصاف فأين أحكام هذه الأوصاف؟ إذا لا يكون له خلق ولا سمع ولا بصر وحتى المخلوقات ليست خلقاً لله؛ لأننا نعلم أن الخلاق متضمن لوصف وهو الخلق ومتضمن لحكم وهو يخلق وأن يخلق لا يمكن أن تكون إلا بإرادة وقدرة فإذا انتفت الإرادة والقدرة والخلق والحكم انتفى كل شيء عن الله فنسأل الله العافية.

وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا بِهِ - ذَا كُلِّهِ جَهْرًا بِأَلَا كَيْتَمَانَ

المشار إليه بهذا إثبات الأسماء والأوصاف والأحكام.

وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنْ تَأْوِيلِ كُلِّ مُحَرِّفِ شَيْطَانٍ

قوله: (من تأويل كل محرف) لم يقل كل مؤول؛ لأن التأويل قد يكون حقاً، أما التحريف فهو باطل.

وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَتَأَوَّلُونَ نَحْوَ حَقِيقَةِ التَّأْوِيلِ فِي الْقُرْآنِ

المراد بالتأويل هنا ليس تأويل التحريف إنما المراد به التفسير المطابق لمراد الله ورسوله.

هُم فِي الْحَقِيقَةِ أَهْلُ تَأْوِيلِ الَّذِي يُعْنَى بِهِ لِأَقَائِلِ الْهَدْيَانِ

قوله: (قائل الهديان) هو الذي يتأول تأويل التحريف، أما هم فيتأولون التأويل الذي يعني به الكلام أي: التفسير.

وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّ تَأْوِيلَاتِهِمْ صَرَفٌ عَنِ الْمَرْجُوحِ لِلرُّجْحَانِ

أي: تأويل المحرف بالعكس صرف عن الراجح للمرجوح.

وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ حَمَلُوا صَ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا الْمَجَازِ

خِلَافًا لِأَهْلِ التَّحْرِيفِ حَمَلُوهَا عَلَى الْمَجَازِ، أَمَا أَهْلُ الْحَدِيثِ فَحَمَلُوهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا عَلَى الْمَجَازِ.

إِلَّا مَا اضْطَرَّ لَهُمْ لِمَجَازِهَا الـ مُضْطَرُّ مِنْ حَيْسٍ وَمِنْ بُرْهَانِ

فَهُنَاكَ عِصْمَتُهَا بِإِبَاحَتِهِ بَغْيِ رِ تَجَانِفِ لِلإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ

نقول: إذا وجدت ضرورة توجب أن يؤولوا أولوا؛ لأن النصوص معصومة من مخالفة المحسوس والمعقول، فإذا كانت معصومة من مخالفة المحسوس والمعقول وجاء فيها ما ظاهره مخالفة المحسوس والمعقول حينئذ يتأولونها، مثلاً قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ [النحل: ٩٨] يتأولون ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ﴾ أي: إذا أردت أن تقرأ، وليس المعنى إذا أتممت القراءة، يصرфон اللفظ عن ظاهره لأن هدي النبي ﷺ الاستعاذة قبل القراءة، وقوله: ﴿ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ربح عاد يقولون نؤول هذا عن ظاهره، فالمراد تدمر كل شيء يمكن تدميره بالريح، ولهذا قال ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴾ فالمساكن لم تدمر والأرض لم تدمر والسماء لم تدمر والنجوم لم تدمر، إذا فالعموم هنا يراد به الخاص هم يتأولون هذا لكن بحق بلا شك.

فَهُنَاكَ عِصْمَتُهَا بِإِبَاحَتِهِ بَغْيِ رِ تَجَانِفِ لِلإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ

وَاشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَكْفِرُوا نَكُمُ بِمَا قُلْتُمْ مِنَ الْكُفْرَانِ

يعني: لا يقولون أنتم كفار بما قلتم من الكفران وإن كان قولكم كفراً لكن لا يكفرونكم.

إِذْ أَنْتُمْ أَهْلُ الْجَهَالَةِ عِنْدَهُمْ لَسْتُمْ أَوْلِي كُفْرٍ وَلَا إِيمَانِ

أي: أنتم جهال لا تعرفون الكفر والإيمان، لذلك لا يقال عليكم كفار وإن كان ما قلتم كفراً.

لَا تَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ الْكُفْرَانِ بَلْ لَا تَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ

إِلَّا إِذَا عَانَدْتُمْ وَرَدَدْتُمْ قَوْلَ الرُّسُولِ لِأَجْلِ قَوْلِ فُلَانٍ

فَهُنَاكَ أَنْتُمْ أَكْفَرُ الثَّقَلَيْنِ مِنْ إِنْسٍ وَجِنِّ سَاكِنِي النَّيِّرَانِ

وهذه المسألة أي: مسألة العذر بالجهل هل يعذر الإنسان بالجهل في أصول الدين أو لا

يعذر؟ الصواب أنه يعذر بالجهل في أصول الدين وفروعه؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] حتى يبعث الله عز وجل رسولاً لكي يعلم الناس، فإذا كان الإنسان جاهلاً ولا يعرف شيئاً فإننا لا نكفره بذنبه إلا إذا كان يتسبب إلى الكفر فهو كافر وحسابه في الآخرة على الله، يعني مثلاً: إنسان لم تبلغه الدعوة الإسلامية لكنه عاش على النصرانية مثلاً ولا يعرف عن الإسلام شيئاً فهذا وإن كان جاهلاً نعامله في الدنيا معاملة الكافر النصراني، وفي الآخرة حسابه على الله كأهل الفترة، أما إذا كان يتسبب للإسلام ويقول إنه مسلم لكن يفعل ما يفعله الكافر جاهلاً أنه كفر ولم يخبره أحد بأنه كفر فهذا لا نكفره للجهل، لكن إذا عاند ورد قول الرسول لقول فلان، حينئذٍ قد قامت عليه الحجة، فلو أخبرناه وقلنا له هذا كفر؛ لأنه سجد لغير الله والسجود لغير الله كفر فقال: لا أقبل هذا؛ لأن الشيخ الفلاني يشاهدني أفعل هذا ولا يقول لي شيئاً فأنا أتبع شيخي، قلنا له إن سب أبي بكر وعمر كفر قال: لا ما أقبل؛ لأن شيخي الفلاني يقول سب أبو بكر وعمر قربة، هذا يكفر؛ لأنه بلغه الحق.

وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَتَّبَعُوا الْا
أَقْدَارَ وَارِدَةً مِنَ الرَّحْمَنِ

خِلَافًا لِلْقُدْرَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْدِرُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ.

وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّ حُجَّةَ رَبِّهِمْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ وَهُوَ ذُو غُفْرَانٍ

قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل، فالجبر غير وارد، ولا يمكن أن يحتاج الإنسان بالجبر؛ لأن الحجة قامت عليه.

وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ هُمْ فَاعِلُو
نَ حَقِيقَةِ الطَّاعَاتِ وَالْعِصْيَانِ

وَالْجِبْرِ عِنْدَهُمْ مُحَالٌ هَكَذَا
نَفْسِي الْقَضَاءِ فَبُئِستِ الرَّأْيَانِ

المؤلف يقول: اشهد بأن أهل الحديث بريئون من أهل القدر أي: القدرية ومن أهل الجبر أي: الجبرية ويذم رَحِمَهُ اللهُ هذين الرأيين بقوله: فبئست الرأيان.

وَاشْهَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّ إِيمَانَ الْوَرَى
قَوْلٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ عَقْدُ جَنَانٍ

خِلَافًا لِلْمُرْجِئَةِ وَالْخَوَارِجِ أَيضًا؛ لأن الخوارج يرون أن الإيمان قول وفعل واعتقاد لكن يفارقون أهل الحديث بأنهم يكفرون أهل المعاصي.

وَيَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ قَطْعًا هَكَذَا
بِالضِّدِّ يَمْسِي وَهُوَ ذُو نُقْصَانٍ

يزيد بالطاعات قطعاً ولكن النقص لم يقل قطعاً لأن الزيادة جاءت في القرآن صريحة ﴿وَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] أما النقص فلم يرد صريحاً في القرآن إنما جاء في السنة «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبُّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»^(١) ولكن نقول إذا ثبتت الزيادة فلا زيادة إلا بنقص فيقابلها النقص قطعاً فإذا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] يقول: هم قبل ذلك أنقص منهم الآن، فما دامت الزيادة ثبتت بالقرآن فالنقص قد ثبت ولهذا نقول: إن من فرّق بين الزيادة وبين النقص فقله مرجوح، فالصواب: أن الإيمان يزيد وينقص.

وَاللَّهُ مَا إِيْمَانٌ عَاصِيْنَا كَيْبِ — مَآنِ الْإِيْمَانِ مُنَزَّلِ الْقُرْآنِ

كَلَّا وَلَا إِيْمَانٌ مُؤْمِنِيْنَا كَيْبِ — مَآنِ الرَّسُولِ مُعَلِّمِ الْإِيْمَانِ

الأول خلافاً للمرجئة الذين قالوا: إن الإيمان هو المعرفة وهم الجهمية كما مر، وأن إيمان أفسق عباد الله وأتقى عباد الله على حدٍ سواء وأن إيماننا كإيمان جبريل والمؤمن منا كإيمان محمد عليه الصلاة والسلام.

وَإَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلِدُوا — أَهْلَ الْكِبَائِرِ فِي حَمِيمِ آنِ

خِلَافًا لِلْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ.

بَلْ يَخْرُجُونَ بِإِذْنِهِ بِشَفَاعَةٍ — وَيَسُدُّونَهَا لِمَسَاكِينِ بَجْنَانِ

المعتزلة وكذلك الخوارج كلهم يقولون: إن فاعل الكبيرة مخلد في النار.

وَإَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّ رَبَّهُمْ يُرَى — يَوْمَ الْمَعَادِ كَمَا يُرَى الْقَمَرَانِ

خِلَافًا لِلْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَكَذَلِكَ الْأَشَاعِرَةُ.

وَإَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّ أَصْحَابَ الرَّسُولِ — لِي خِيَارُ خَلْقِ اللَّهِ مِنْ إِنْسَانِ

خِلَافًا لِلرُّوَافِضِ.

حَاشَا النَّبِيِّينَ الْكِرَامَ فَإِنَّهُمْ — خَيْرُ الْبَرِيَّةِ خَيْرُهُ الرَّحْمَنِ

وَخِيَارُهُمْ خُلَفَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ — وَخِيَارُهُمْ حَقًّا هُمَا الْعَمْرَانِ

أي: خير أصحاب الرسول خلفاؤه وخير الخلفاء العمران.

إذا أفضل الأمة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي وهذا هو الذي أجمع عليه أهل السنة وإن كان بينهم خلاف في التفاضل بين عثمان وعلي ولكن استقر أمرهم على أن ترتيبهم في الفضيلة كترتيبهم في الخلافة.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوْلَى أَوْ لَا أَحَقُّ بَالْتِ
قَدِيمٍ مِّنْ بَعْدِهِمْ بَيِّنَاتٍ

لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيَّكَ أَكْبَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنَ﴾ [الحديد: ١٠].

كُلٌّ بِحَسَبِ السَّبْقِ أَفْضَلُ رُتْبَةً
مِنْ لِأَحَقِّ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَانِ

اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم.





عهود بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في عهود المُثَبِّتِينَ مع رب العالمين

توسل المصنف إلى الله بالحق الذي وصفه ووصف دينه ووعدته ووعدته أن ينصر دينه ويشرح له صدر كل مؤمن موحد لينال أعلى المقامات، فإن الله إذا أراد هداية عبده شرح صدره للإسلام والإيمان، فتلقى ما جاء به الرسول بقوة، وأقبل على تفهم معانيه والعمل بما يدل عليه ويقتضيه هاديًا مهديًا، وعاهد ربه بما التزمه من السمع والطاعة على نصر دينه ووحيه، وعلى مجاهدة المبطلين وأصناف المبتدعين بالطرق النقلية والعقلية.



فصل

فى عهدى المثلبتين مع رب العالمين

٢٨٠١- يَا نَاصِرَ الْإِسْلَامِ وَالسُّنَنِ الَّتِي

جَاءَتْ عَنِ الْمَبْعُوثِ بِالْفُرْقَانِ

٢٨٠٢- يَا مَنْ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ وَقَوْلُهُ

وَلَقَاؤُهُ وَرَشْوَلُهُ بَيِّنَانِ

٢٨٠٣- اشْرَحْ لِدِينِكَ صَدْرَ كُلِّ مُوَحِّدٍ

شَرْحًا يَنَالُ بِهِ ذُرَا الْإِحْسَانِ

٢٨٠٤- وَاجْعَلْهُ مُؤْتَمًّا بِوَحْيِكَ لَا بِمَا

قَدْ قَالَهُ ذُو الْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ

٢٨٠٥- وَانضُرْ بِهِ حِزْبَ الْهُدَى وَاكْبِتْ بِهِ

حِزْبَ الضَّلَالِ وَشَيْعَةَ الشَّيْطَانِ

٢٨٠٦- وَانْعَشْ بِهِ مَنْ قَصَدَهُ إِحْيَاؤُهُ

وَاعْصِمَهُ مِنْ كَيْدِ امْرِئٍ فَتَّانِ

٢٨٠٧- وَاضْرِفْ بِحَقِّكَ عَنْهُ أَهْلَ الزَّيْعِ [وَالثَّ

بِدِيلِ] وَالتَّكْذِيبِ وَالطَّغْيَانِ

٢٨٠٨- فَوَحِّتِي نِعْمَتِكَ الَّتِي أَوْلَيْتَنِي

فَجَعَلْتَ قَلْبِي وَاعِي الْقُرْآنِ

٢٨٠٩- وَكَتَبْتَ فِي قَلْبِي مُتَابَعَةَ الْهُدَى

- فَقَرَأْتُ فِيهِ أَسْطُرَ الْإِيمَانِ
 ٢٨١٠- وَنَشَلْتَنِي مِنْ بُئْرِ أَصْحَابِ الْهَوَى
 بِحَبَائِلٍ مِنْ مُحَكَّمِ الْقُرْآنِ
 ٢٨١١- وَجَعَلْتَ شُرْبِي الْمَنْهَلَ الْعَذْبَ الَّذِي
 هُوَ رَأْسُ مَاءِ الْوَارِدِ الظَّمَانِ
 ٢٨١٢- وَعَصَمْتَنِي مِنْ شَرْبِ سِفْلِ الْمَاءِ تح
 سَتَ نَجَاسَةِ الْأَرَاءِ وَالْأَذْهَانِ
 ٢٨١٣- وَحَفِظْتَنِي مِمَّا ابْتَلَيْتَ بِهِ الْأَلَى
 حَكَمُوا عَلَيْكَ بِشُرْعَةِ الْبُهْتَانِ
 ٢٨١٤- نَبَذُوا كِتَابَكَ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ
 وَتَمَسَّكُوا بِزُخَارِفِ الْهَذْيَانِ
 ٢٨١٥- وَأَرَيْتَنِي الْبِدْعَ الْمُضِلَّةَ كَيْفَ يُلْ
 قِيهَا مُزْخَرَفَةً إِلَى الْإِنْسَانِ
 ٢٨١٦- شَيْطَانُهُ فَيَظَلُّ يَنْقُشُهَا لَهُ
 نَقَشَ الْمُشَبِّهِ صُورَةً بِدِهَانِ
 ٢٨١٧- فَيَظُنُّهَا الْمَغْرُورُ حَقًّا وَهِيَ فِي التُّ
 حَقِيقِ مِثْلُ الْآلِ فِي الْقِيَعَانِ
 ٢٨١٨- لِأَجَاهِدَنَّ عِدَاكَ مَا أَبْقَيْتَنِي
 وَلَا أَجْعَلَنَّ قِتَالَهُمْ دِيْدَانِي
 ٢٨١٩- وَلَا أَفْضَحَنَّهْمُ عَلَى رَأْسِ الْمَلَا
 وَلَا أَفْرِينَ أَدِيمَهُمْ بِلِسَانِي

٢٨٢٠- وَلَا كَشْفَنَّ سَرَائِرًا خَفِيَتْ عَلَيَّ

ضَعَفَاءَ خَلَقِكَ مِنْهُمْ بَيِّنَاتٍ

٢٨٢١- وَلَا تَبِعْتَهُمْ إِلَىٰ حَيْثُ انْتَهَوْا

حَتَّىٰ يُقَالَ أَبْعَدَ عَبَادَانِ

٢٨٢٢- وَلَا رُجِمَتْهُمْ بِأَعْلَامِ الْهُدَىٰ

رَجَمَ الْمَرِيدِ بِثَاقِبِ الشُّهْبَانِ

٢٨٢٣- وَلَا قُعْدَنَ لَهُمْ مَرَاصِدَ كَيْدِهِمْ

وَلَا حُضِرَتْهُمْ بِكُلِّ مَكَانِ

٢٨٢٤- وَلَا جَعَلَنَّ لِحُومَتِهِمْ وَدِمَاءَهُمْ

فِي يَوْمِ نَصْرِكَ أَعْظَمَ الْقُرْبَانِ

٢٨٢٥- وَلَا حَمِلَنَّ عَلَيْهِمْ بَعْسَاكِرِ

لَيْسَتْ تَفِرُّ إِذَا التَّقَى الرَّحْفَانِ

٢٨٢٦- بَعْسَاكِرِ الْوَحِيِّينَ وَالْفِطْرَاتِ بِالِ

مَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ بِالِإِحْسَانِ

٢٨٢٧- حَتَّىٰ يَبِينَ لِمَنْ لَهُ عَقْلٌ مِنْ أَلِ

أُولَىٰ بِحُكْمِ الْعَقْلِ وَالْبُرْهَانِ

٢٨٢٨- وَلَا نَصَحَنَّ اللَّهُ ثُمَّ رَسُولَهُ

وَكَتَابَهُ وَشَرَائِعَ الْإِيمَانِ

٢٨٢٩- إِنْ شَاءَ رَبِّي ذَا يَكُونُ بِحَوْلِهِ

أَوْ لَمْ يَشَأْ فَالْأَمْرُ لِلرَّحْمَنِ^(١)

(١) [٢٨١٨ : ٢٨٢٩] قال العلامة محمد خليل هراس:

العدا بكسر العين الأعداء جمع عدو - والديدان الدأب والعادة، يقال جعل هذا ديدنه، يعني استمر عليه

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: (فصل في عهد المثبتين مع رب العالمين):

يعني: ما عاهدوا به الله وعاهدوه عليه من بيان الحق ومحاربة الباطل وأهله، فتوسل المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في هذا الفصل أولاً بما يكون وسيلة من صفات الله عز وجل على هذا الهدف العظيم النبيل فقال:

يَا نَاصِرَ الْإِسْلَامِ وَالسُّنَنِ النَّبِيِّ جَاءَتْ عَنِ الْمَبْعُوثِ بِالْفَرْقَانِ
وَالنِّدَاءِ مَوْجِهَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْمَبْعُوثِ بِالْفَرْقَانِ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ.

يَا مَنْ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ وَقَوْلُهُ وَلِقَاؤُهُ وَرَسُولُهُ بَيِّنَانِ
هو الله، حيث قال تبارك وتعالى ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]. يعني:
الذي قوله حق ولقاؤه حق ورسوله حق أقول ذلك ببيان وعن يقين.

اشْرَحَ لِدِينِكَ صَدْرَ كُلِّ مُؤَجِّدٍ شَرْحًا يَنَالُ بِهِ ذُرَا الْإِحْسَانِ
يعني: أسأل الله بنصرته الإسلام وبأنه هو الحق المبين أن يشرح لدينه صدر كل موحد
إلى يوم القيامة.

وَاجْعَلْهُ مُؤْتَمًّا بِوَحْيِكَ لَا بِمَا قَدْ قَالَهُ ذُو الْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ
قوله: (مؤتماً) يعني: جاعلاً وحيك إماماً له لا ما قاله ذو الإفك والبهتان من أهل البدع
والتعطيل.

وَانصُرْ بِهِ حِزْبَ الْهُدَى وَاكْبِتْ بِهِ حِزْبَ الضَّلَالِ وَشَيْعَةَ الشَّيْطَانِ

- والملا بالتسهيل أصله الملاء، وهم الجماعة، سميت بذلك لأنها تملأ العين، ولأقرين: أي لأقطعن، يقال فراه يفريه، بمعنى قطعه ومزقه - والأديم الجلد، وعبادان تشنية عباد وكان أميراً فهجاه أحد الشعراء وفر فلم يلحق به، فقال الشاعر لبلغته:

عَدَسٌ مَا لِعِبَادِ عَيْلِكَ إِمَارَةٌ وَأَمْنَةٌ وَهَذَا تَحْمِيلِينَ طَلِيقٌ

والرجم: القذف بالحجارة، والمريد بفتح الميم الشيطان، بمعنى التمرد، والثاقب النافذ، والشهبان جمع شهاب، وهو النجم الذي ترمى به الشياطين حين يحاولون استراق السمع، والمراصد جمع مرصد، وهو مكان الرصد، قال تعالى: ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [التوبة: ٥] والحصر الحبس والتضييق، والقربان ما يتقرب به من الذبائح، والزحفان جمع زحف، وهو الجيش الزاحف من وضع المصدر موضع اسم الفاعل، والوحيان الكتاب والسنة، والفطرات جمع فطرة.

انصر به بالموحد.

وَأَنْعَشَ بِهِ مَنْ قَصَدَهُ إِحْيَاؤُهُ وَأَعَصَمَهُ مِنْ كَيْدِ امْرِئٍ فَتَّانٍ

قوله: (انعش به) يعني: أحياه وقوه أي: من قصده إحياء الهدى.

وقوله: (واعصمه من كيد امرئ فتان) الكيد والمكر معناهما متقارب وهو أن يتوصل إلى الإيقاع بعدوه من غير أن يشعر به.

وَاضْرِفْ بِحَقِّكَ عَنْهُ أَهْلَ الزَّيْعِ وَالْتَّ

بِدِيلِ وَالتَّكْذِيبِ وَالطُّغْيَانِ

هذا أيضًا توسل بالحق الذي جيء من عند الله أن يضرب به عنق أهل الزيغ والتبديل؛ لأن أهل الزيغ والتبديل على باطل، وقد قال الله عز وجل: ﴿بَلْ تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فَجَعَلْتَ قَلْبِي وَاعِي الْقُرْآنِ فَوْحَقٍ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَوْلَيْتَنِي

قوله: (فوحق نعمتك التي أوليتني) الواو هنا قسم، وحق النعمة شكرها والشكر من حقوق الله عز وجل لكنه فعل العبد، فهل يجوز أن يُقسم الإنسان بفعل العبد فيقول مثلاً وحق نعمتك؟ ربما نقول: إنه يجوز على أساس أن حق النعمة وهو الشكر أمرٌ واجب يعني: بتأكد هذا الأمر الواجب لأفعلن كذا وكذا، ويحتمل أن يقال فوحق نعمتك يعني: واجب النعمة الذي أوجبه الله عز وجل ومن به هذا المنعم عليه فيكون قسمًا بفعل الله لكن هذا خلاف ظاهر لفظه رَحِمَهُ اللهُ.

فَجَعَلْتَ قَلْبِي وَاعِي الْقُرْآنِ فَوْحَقٍ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَوْلَيْتَنِي

كونه يشني على الله بأن الله أولاه النعمة واضح، لكن جعلت قلبي واعى القرآن فلا يريد المؤلف بهذا أن يفتخر بالنعمة افتخار علو وتكبر، وإنما يريد بهذا أن يتحدث بنعمة الله.

وَكُتِبَتْ فِي قَلْبِي مُتَابَعَةُ الْهُدَى فَقَرَأْتُ فِيهِ أَسْطَرَ الْإِيمَانِ

هذا أيضًا من باب التحدث بنعمة الله عز وجل.

وَنَسَلْتَنِي مِنْ بَيْتِ صَحَابِ الْهَوَى بِحَبَائِلٍ مِنْ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ

وقد سبق أن ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ كان في الأول بدعيًا حتى من الله عليه بشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

وَجَعَلْتَ شُرْبِي الْمَنْهَلَ الْعَذْبَ الَّذِي هُوَ رَأْسُ مَاءِ الْوَارِدِ الظَّمَّانِ

المنهل العذب هو الكتاب والسنة.

وَعَصَمْتَنِي مِنْ شُرْبِ سِفْلِ الْمَاءِ تَحْتِ
تَنْجَاسَةِ الْأَرَاءِ وَالْأَذْهَانِ

قوله: (سفل الماء) ما اعتنقه هؤلاء النفاة من تحكيم العقل على رب العالمين وصفاته، ودعواهم أن هذه صفة حق؛ لأن العقل دل عليها وهذه باطل؛ لأن العقل نفاها.

وَحَفِظْتَنِي مِمَّا ابْتَلَيْتَ بِهِ الْأَلَى
حَكَمُوا عَلَيْكَ بِشُرْعَةِ الْبُهْتَانِ

يقصد: النفاة وشريعة البهتان: العقل فإن العقل الفاسد لا شك أنه بهتان، والعقل الباطل لا يخالف النقل.

قوله: (الألى) يعني الأولين لا بمعنى الذين قال ابن مالك:

جَمْعُ الَّذِي الْأَلَى الَّذِينَ مُطْلَقًا
وَبَعْضُهُمْ بِالْوَاوِ رَفْعًا نَطْقًا

وقوله رحمه الله:

تَبَدُّوا كِتَابَكَ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ
وَتَمَسَّكُوا بِزُخَارِفِ الْهَدْيَانِ

هذه حالهم - والعياذ بالله - أنهم لا يرجعون إلى الكتاب والسنة في إثبات الصفات أو نفيها وإنما يرجعون إلى زخارف الهديان الذي أصّلوه.

وَأَزَيْتَنِي الْبِدْعَ الْمُضِلَّةَ كَيْفَ يَدُ
قِيهَا مُزْخَرْفَةً إِلَى الْإِنْسَانِ

هذا من نعمة الله عز وجل أن يجعل الله سبحانه وتعالى للإنسان نوراً يهتدى به فيرى الحق حقاً ويرى الباطل باطلاً، ومن سوء الطالع أن الإنسان تعمى عليه الحقائق فلا يرى الباطل باطلاً ولا الحق حقاً نسأل الله السلامة.

شَيْطَانُهُ فَيَظَلُّ يَنْقُشُهَا لَهُ
نَقَشَ الْمُشَبِّهِ صُورَةً بِدِهَانِ

المصور عندما يريد أن يرسم صورة شجرة تجده يحرص على أن تخرج هذه الصور تامة إذا نظرت إليها كأنها تنظر إلى الشجرة الأصلية وهؤلاء شياطينهم ترسم لهم الباطل رسماً دقيقاً.

فَيَظُنُّهَا الْمَغْرُورُ حَقًّا وَهِيَ فِي اللَّهِ
حَقِيقٌ مِثْلُ الْأَلِ فِي الْقِيَعَانِ

قوله: (الآل في القيعان) الآل هو السراب والسراب إذا رآه الإنسان يظنه ماءً؛ فلنفرض أنك في البرية عطشان وأمامك أرض سبخة يكون فيها السراب كأنه ماء فتجدك تشعر بنفسك أنك حييت؛ لأنك ترى الماء الكثير أمامك ولكنه إذا جتته وجدته سراباً قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَلِيقًا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا﴾ [النور: ٣٩].

لَأَجَاهِدَنَّ عِدَاكَ مَا أَبْقَيْتَنِي ولَأَجْعَلَنَّ قِتَالَهُمْ دَيْدَانِي

الجملة هذه جواب القسم لقوله (فوحق نعمتك) يعني: بما أنعمت على أفعل كذا وكذا. جزاء الله خيراً، وهذه علامة الإيثار أن يجاهد الإنسان أعداء الله وألا يكن لهم حُباً أبداً؛ لأنك إذا أحببت أعداء الله لزم من ذلك معاداة أولياء الله كما قال الشاعر:

أَتُحِبُّ أَعْدَاءَ الْحَبِيبِ وَتَدْعِي حُبًّا لَهُ مَا ذَاكَ فِي إِمْكَانِ

فلا بد من أن تُكره العداة لكل عدو لله عز وجل فإن لم تفعل فإن ولاءنا لله غير صادق: وقوله: (قتلهم ديدني) يعني: ديدني دائماً.

وَلَأَفْضَحَنَّهُمْ عَلَى رَأْسِ الْمَلَأِ وَلَا فَرِينَ أَدِيمَهُمْ بِلِسَانِي

قوله: (أفضحهم على رأس الملأ وأفرين أديمهم) يعني جلودهم (بلساني) يعني بما أبينه من الحق الذي يدحض باطلهم.

وَلَأَكْشِفَنَّ سَرَائِرًا خَفِيَتْ عَلَى ضَعْفَاءِ خَلْقِكَ مِنْهُمْ بَيِّنَانِ

وقد فعل رَحِمَهُ اللهُ، فقد أبدى من معائبهم ما لم يبده شيخه ابن تيمية. ولأتبعنهم إلى حيث انتهوا حتى يقال أبعد عبّادان

قوله: (عبادان) بلد معروف في العراق ويقال إنها بإيران، والمؤلف من أهل الشام، يقول: اتبعهم حتى يقال: أبعد عبّادان تتبعهم يعني: من وراء عبّادان أتبعهم إلى حيث انتهوا ولو وصلوني إلى الصين.

وَلَأَرْجَمَنَّهُمْ بِأَعْلَامِ الْهُدَى رَجَمَ الْمُرِيدِ بِثَاقِبِ الشُّهْبَانِ

قوله: (أرجمنهم بثاقب الشهبان، رجم المرید) المرید: يعني القاصد، والإنسان الذي يقصد الصيد تماماً في الغالب أنه يصيده.

وقد قرئت (المُرید) بفتح الميم على اعتبار المراد من البيت فهو يعني الشياطين، فالشهب ترمي مدرة الشياطين.

وَلَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ مَرَاصِدَ كَيْدِهِمْ وَلَا حَضْرَنَّهُمْ بِكُلِّ مَكَانِ

قوله: (المراصد) جمع مرصد يعني: المكان الذي يتحرى وجودهم فيه أقعدن لهم. ولأجعلنّ لحوومهم ودماءهم في يوم نصرك أعظم القربان

أي: أتقرب إليك بذبحهم كما يتقرب الناس بذبح الهدايا والقرابين، وقد ذكر رَحِمَهُ اللهُ فِي النونية أن خالد بن عبد الله القسري لما خرج بالجعد بن درهم مؤسس مقالة التعطيل أسره ثم خرج به في عيد الأضحى فخطب الناس وقال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإنني مضح بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً، ثم نزل من فوق المنبر فذبحه، هذه الأضحوية يقول عنها ابن القيم في النونية:

وَلَأَجْلِ ذَا ضَحَىٰ بِجَعْدِ خَالِدِ الْ
قَسْرِيِّ يَوْمَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ
إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلُهُ
كَلَا وَلَا مُوسَى الْكَلِيمِ الدَّانِي
شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلَّ صَاحِبِ سُنَّةٍ
لِلَّهِ دُرُكٌ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

ونحن نشكره على تضحيته بهذا الرجل ونرى أنها أقرب قربان يتقرب به الإنسان إلى الله.

وَلَأَحْمِلَنَّ عَلَيْهِمْ بَعْسَاكِرٍ
لَيْسَتْ تَفْرُ إِذَا التَّقَى الزَّحْفَانَ
لأنها قوية مريدة للقتال تماماً.

بِعَسَاكِرِ الْوَحِيِّينَ وَالْفِطْرَاتِ بِالِ
حَتَّى يَبِينَ لِمَنْ لَهُ عَقْلٌ مِنَ الْ
مَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ بِالِإِحْسَانِ
أُولَى بِحُكْمِ الْعَقْلِ وَالْبُرْهَانِ

يعني: بعد ما يبين بطلانهم للناس الأولى به بالعقل وهم أهل الحديث.

وَلَأَنْصَحَنَّ اللهُ ثُمَّ رُسُولُهُ
وَكِتَابُهُ وَشَرَائِعُ الْإِيمَانِ

لو كان البيت هكذا استقام، فقول ولأنصحن لله ليوافق لفظ الحديث: «الدين النصيحة لله»^(١)، أما على النسخ الموجودة بأيدينا ولأنصحن الله فالمعنى: لأنصحن له فيكون منصوباً بنزع الخافض.

إِنْ شَاءَ رَبِّي ذَا يَكُونُ بِحَوْلِهِ
أَوْ لَمْ يَشَأْ فَالْأَمْرُ لِلرَّحْمَنِ

وقد قرئت (إن لم يشأ) وعلى كل فالمعنيان صحيحان.

الحمد لله إن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: إن شاء ربي؛ لأن كل اقتسامه الأول لو لم يقرنه بالمشيئة لذهب هباءً؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال في سليمان عليه السلام:

«لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمْ يَحْنُثْ وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ»^(١) والإنسان إذا أقسم على شيء ينبغي له أن يقرن قسمه بالمشيئة ليسهل ذلك ولهذا قال: (إن شاء ربي ذا يكون بحوله إن لم يشأ) و(أو لم يشأ). وتكون نسخة ثانية؛ لأنه إذا شاء الله سبحانه وتعالى أن يهدي عبده فذلك بفضلته وحوله أو لم يشأ فالأمر إليه؟ الأمر له عز وجل، فنسأل الله أن يهدينا وإياكم صراطه المستقيم.



(١) رواه البخاري (٦٧٢٠)، ومسلم (١٦٥٤).



مهيد بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في شهادة أهل الإثبات على أهل

التعطيل أنه ليس في السماء إله،

ولا لله بيننا كلام، ولا في القبر رسول

أما الأوَّلُتان فقد تقدم الكلام عليهما مرارًا، وأما شهادة أهل الإثبات على الجهمية ومن تبعهم أنه ليس في القبر رسول فلأن من قول المعطلين أن روح الإنسان عرض من الأعراض القائمة به كالألوان ونحوها، وتلك مشروطة بوجوده وحياته فإذا مات زالت هذه الأعراض، فلهذا أنكر بعضهم نعيم البرزخ وعذابه وبعضهم جعله للجسم دون الروح لكونها معدومة مضمحلة. ولا يخفى بطلان هذين القولين ومخالفتها للنصوص الثابتة المتواترة من أن الروح جسم لطيف له من اللطافة والخفة والحركة السريعة ما يناسب حاله كما سيأتي إن شاء الله الكلام عليها، وأن نعيم البرزخ وعذابه على الروح أصلًا وعلى الروح مع البدن.

والقصد أن الجهمية إذا قالوا هذا الأصل الفاسد ترتب على قولهم ولزم منه بطلان رسالة الرسول بموته وأنه رسول ما دام حيًّا فإذا مات عدمت رسالته كما تعدم روحه عندهم، فلما علموا أن هذا القول مخالف للمعلوم بالضرورة من الدين قال من أراد نصر هذا القول: إن الرسول حي في قبره حياة ماثلة لحياته في الدنيا ولذلك بقي تحريم زوجاته على أمته، والشهداء ذكر الله أنهم أحياء والأنبياء بلا شك أكمل حياة منهم. واحتجوا أيضًا بأنه ﷺ رأى موسى في قبره يصلي والصلاة لا تقع إلا من حي، وبأنه ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رَوْحِي حَتَّىٰ أَرُدَّ عَلَيْهِ» وكذلك ما ورد في عرض أعمال أمته عليه يوم

الإثنين ويوم الخميس.

هذا حاصل ما احتجوا به، وهو لا يدل على مطلوبهم بوجه من الوجوه، فإنه لو كان في قبره حياة ماثلة لهذه الحياة لم يجوز أن يجس في قبره ويسجن ذلك السجن الموحش، ولو كان حيًا في قبره لكان يرشد أمته ويفتيهم ويدلهم على ما فيه صلاحهم وينهاهم عما يضرهم، ولأراحهم من الاختلافات الجارية على الدوام بين أمته، ولجاء الصحابة رضي الله عنهم يسألونه ويشكون إليه ما نزل بهم من الملمات على عاداتهم إذ كان بين أظهرهم، ولو كان حيًا لاستسقوا به إذا أجدبوا، ولم يفعلوا ذلك بغيره لا العباس ولا غيره، ولكنهم رضي الله عنهم قد عرفوه حق المعرفة وعرفوا أن الأمور المختصة به في حياته لم يكن لها أثر بعد وفاته، فكم من مشكلة أشكلت عليهم وكم ملامة نزلت بهم ولم يجيئوا إليه لذلك، فكل هذا دليل على أنهم اتفقوا على أنه كان ميتًا كما أخبر الله به في كتابه، فهل جاء بعد هذا خبر صحيح أنه بعث في قبره وأنه حي كما كان في الدنيا. وأيضًا فإن الناس لهم موتان وحياتان. قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنِي وَأُحْيَيْتَنَا آتَيْنِي﴾ [غافر: ١١].

وعلى قولهم بحياة الأنبياء في قبورهم يكون للأنبياء ثلاث موتات، فهذا مع مخالفته للكتاب فلا يقوله إلا من لا يبالي بالأقوال التي لا مستند لها. وأما قياسهم لحياة الأنبياء بحياة الشهداء فهذا من أكبر الأدلة عليهم، فإن الشهيد نص الله في كتابه على حياته في البرزخ فلم تثبت حياتهم بالقياس بل بالنص المثبت لحياتهم الناهي عن تسميتهم أمواتًا. ومع هذا فالشاهد تحل نساؤه لمن بعده ويقسم ماله ويحكم عليه بما يحكم على أموات المسلمين إلا في الصلاة والتغسيل، وكذلك جسمه بلا شك يبلى، لكن المراد بحياته أنها حياة برزخية تبتهج الروح برضا الله وكرامته وفضله، والأنبياء أكمل حالة منهم في ذلك بلا ريب.

وأما تحريم نساء النبي ﷺ على غيره فقد ذكروا لذلك عدة حكم، منها أنه نساؤه في الدنيا والآخرة لأنهن لما خيرن فاخترن الله ورسوله شكر الله لهن عملهن ولم يزل الله شكورًا، فمنع رسوله أن يتزوج عليهن وأن يستبدل غيرهن بهن، وجعلهن زوجاته في الدنيا والآخرة، فلذلك حرمن على غيره لا لأجل أنه حي كما هو في الدنيا فإن هذا لا تستقر عليه قدم عالم، ومنها أنه من المهمات المؤمنين في المحبة والتوقير والإعظام والاحترام فلا يناسب أن يتزوجهن بعده أحد. ومنها أنه يجب تقديم محبة النبي ﷺ على كل محبة



بعد محبة الله فمَنع الله من كل ذريعة تحول دون هذا المقصود ودون تكميله. ولا شك أن تزوج الرجل لزوجته الرجل من بعده من جملة الدواعي لنقصان المحبة ولغير ذلك من الحكم، ولذلك اعتدَدن بعده ولزمن الإحداد أربعة أشهر وعشراً رضي الله عنهن، وكل هذا دليل على موته.

وأما رؤيته لموسى يصلي في قبره ففي النفس منه شيء لأن البخاري ترك تخريجه في صحيحه على عمد فلولا أن عنده علة توجب تركه لم يتركه، ولذلك أعله الدارقطني بالوقف على أنس، وبين الحديث المرفوع والموقوف فرق عظيم، ولكن خرجة مسلم في صحيحه فنقله ونقله غيره من الأئمة، وعلى هذا التقدير فليس هذا مختصاً بالرسول، فقد روى ابن عباس وغيره حديثاً صحيحاً حين يأتي الملكان إلى المسلم يسألانه فتمثل له الشمس عند الغروب فيقول: دعاني أصلي العصر، فيقولان: إنك ستصلها بعد. فإذا كان هذا مع الموت الذي لم يشك فيه أحد علم أنه لا منافاة بين موت الإنسان وبين صلاته في قبره وفي برزخه، فإنه وإن كانت التكاليف قد انقطعت فإن الله يكرم أنبياءه وأوليائه بكرامات، ومن أعظم الكرامات فعل العبادات المتصلة بمعرفة ربهم ومحبتهم فإنها من أعظم اللذات والكرامات. ولهذا سأل الله ثابتُ البناني إن كان قد أعطي أحد الصلاة في قبره أن لا يزال مصلياً، فرؤي بعد وفاته يصلي في قبره.

وقد رأى ﷺ موسى ليلة المعراج في السماء السادسة كما رآه في قبره مصلياً، ولا منافاة بين الأمرين فإن للروح شأنًا غير شأن البدن، فإنها في غاية اللطافة وسرعة الحركة كما ثبتت به الآثار، ولما كانت مخالفة في أوصافها لهذا الجسم الكثيف كثر غلط الخائضين فيها لأنهم لم يشاهدوها ولا شاهدوا لها نظيراً، ولكن الأدلة ثبتت بذكر أوصافها وتنقلاتها وسرعة حركتها فيستبعد الخائضون بها أن تكون في أعلى عليين فوق السماوات السبع مقيمة هناك وتردُّ إلى قبره أسرع من لمح البصر فتردُّ السلام على المسلم عليها، وقد أظهر الله لعباده في هذه الأوقات من المخترعات وعجائب الكهرباء ما هو من أكبر الأدلة على أحوال الروح وعلى ما أخبر به الله ورسوله من أمور الغيب التي لا تدركها الحواس فإذا كان علم المخلوق وقدرته وصل إلى هذه العجائب والله هو الذي علمه وأقدره فكيف بقدرته الخلاق العليم الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون.

وأما استدلالهم برد النبي ﷺ سلام من يسلم عليه فليس خاصاً به، فإنه ثبت في السنن

مرفوعاً: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُرُّ عَلَى قَبْرِ أَخٍ لَهُ كَانَ يَعْرِفُهُ فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ». وأما الحديث الذي فيه ذكر رؤية الأنبياء في قبورهم أحياء فهو غير صحيح بل منكر، فتيين أنه ليس لهم دليل واحد على ما قالوا.

والمنكر من قولهم في هذا المقام قولهم إن الأنبياء أحياء في قبورهم حياة مماثلة للحياة الدنيوية وهم محبوسون في قبورهم والتراب قد عمهم من جميع جوانبهم، فهذا مما يعلم الله بالضرورة بطلانه. وأما الحياة الثابتة في الكتاب والسنة في حق الأنبياء فإنها حياة برزخية للروح أصلاً والبدن تابع فيها الروح يسري إليها أحياناً من نعيمها وعذابها.

وأما عرض الأعمال على النبي ﷺ يوم الإثنين والخميس فإنه قد وردت آثار تدل على عرض أعمال الناس على آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم، ولكن الذي يعرض على النبي ﷺ جميع أعمال الأمة والذي على غيره خاص بأقاربهم وأخصائهم، فليس في هذا ما يدل على الحياة المعهودة، والكلام في الأرواح كثير منتشر صنفت فيه الكتب وكثر فيه خوض الخائضين، ومن أحسن الكتب المصنفة فيه كتاب «الروح» للمؤلف فإنه أتى فيه بما يشفي ويكفي.

والذي يجب اعتقاده في شأن الروح أنها مخلوقة حادثة بعد عدمها، وأن الله خلقها للبقاء. ولهذا إذا مات العبد بقيت الروح منعمة إن كان صاحبها من السعداء أو معذبة إن كان من الأشقياء، وكذلك يجب اعتقاد جميع ما وصفت فيه الروح من الكتاب والسنة، وأنها مداخلة لهذا البدن الكثيف فإذا فارقت مات وفارق الدنيا، وإنما ليست كما ذكره أهل الكلام الباطل ليست داخل البدن ولا خارجه، فإن هذا في الحقيقة نفي لها كما قالوه في الباري كما تقدمت الإشارة إليه.



فصل

في شهادة أهل الإثبات
على أهل التعطيل أنه ليس في السماء
إله يعبد ولا بيننا كلام ولا في القبر رسول

٢٨٣٠- إنا تَحَمَّلْنَا الشَّهَادَةَ بِالَّذِي

قُلْتُمْ نُؤَدِّيهِا لَدَى الرَّحْمَنِ

٢٨٣١- مَا عِنْدَكُمْ فِي الْأَرْضِ قُرْآنٌ كَلَامًا

مُ اللهُ حَقًّا يَا أُولِي الْعُدْوَانِ

٢٨٣٢- كَلَامًا وَلَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى

رَبِّ يُطَاعُ بِوَأَجِبِ الشُّكْرَانَ

٢٨٣٣- كَلَامًا وَلَا فِي الْقَبْرِ أَيْضًا عِنْدَكُمْ

مِنْ مُرْسَلٍ وَاللهِ عِنْدَ لِسَانِ

٢٨٣٤- [هَاتِيكَ عَوْرَاتٍ ثَلَاثٌ قَدْ

مِنْكُمْ فَغَطُّوهَا بِإِلَاءِ رَوْعَانِ]

٢٨٣٥- فَالزُّوْحُ عِنْدَكُمْ مِنَ الْأَعْرَاضِ قَا

ئِمَّةٌ بِجِسْمِ الْحَيِّ كَالْأَلْوَانِ

٢٨٣٦- وَكَذَا صِفَاتُ الْحَيِّ قَائِمَةٌ بِهِ

مَشْرُوطَةٌ بِحَيَاةِ ذِي الْجُثْمَانِ

٢٨٣٧- فَإِذَا انْتَفَتِ تِلْكَ الْحَيَاةُ فَيَنْتَفِي

مَشْرُوطَهَا بِالْعَقْلِ وَالْبَرْهَانِ

٢٨٣٨- وَرِسَالَةٌ الْمَبْعُوثِ مَشْرُوطٌ بِهَا

كَصَفَاتِهِ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ

٢٨٣٩- فَإِذَا انْتَفَتِ تِلْكَ الْحَيَاةُ فَكُلُّ مَشْ

رُوطٍ بِهَا عَدَمٌ لِذِي الْأَذْهَانِ^(١)

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: إن أهل الإثبات يشهدون عند الله على أهل التعطيل بهذه الأمور الثلاثة:

الأول: أنه ليس في السماء إله يعبد.

والثاني: أنه ليس في الأرض كلام لله.

والثالث: أنه ليس في القبر رسول.

إِنَّا تَحَمَّلْنَا الشَّهَادَةَ بِالذِّي قُلْتُمْ نُؤَدِّيهِمَا لَدَى الرَّحْمَنِ

أي: نُؤَدِّيهِمَا فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِشَيْءٍ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ شَهِدَ بِهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ»^(٢) وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَظَاهِرٌ.

مَا عِنْدَكُمْ فِي الْأَرْضِ قُرْآنٌ كَلَامٌ م اللهُ حَقًّا يَا أُولِي الْعُدُونِ

وقولهم ذلك؛ لأنهم يقولون إن القرآن عبارة عن كلام الله، وآخرون منهم يقولون: إن القرآن مخلوق من مخلوقات الله.

كَلَامٌ وَلَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى رَبُّ يُطَاعُ بِوَأَجِبِ الشُّكْرَانَ

وقولهم ذلك؛ لأنهم ينكرون علو الله عز وجل ويقولون إما بالتعطيل المحض وإما بالحلول،

(١) [٢٨٣٠: ٢٨٣٩] قال العلامة محمد خليل هراس:

هذه عورات ثلاث قد كشفت عنها ولزمكم عارها فحاولوا سترها دون أن تروغوا روغان الثعالب وإلا ظلت ملصقة بكم لا يمحوها عنكم هذا التمويه والروغان.

(٢) ضعيف: رواه الترمذی (٣٥٠١)، وضعفه الألبانی فی ضعیف الجامع (٥٧٣١).

ويقولون إن الله ليس فوق العالم ولا تحت العالم ولا يمين ولا شمال ولا متصل ولا منفصل ولا مباين ولا محيد، وهذا تعطيل محض ومضمونه أن الله ليس في السماء وآخرون منهم يقولون: إن الله بذاته في كل مكان وهذا أيضاً مضمونه أن الله ليس في السماء.

كَلَّا وَلَا فِي الْقَبْرِ أَيضًا عِنْدَكُمْ
مِنْ مُرْسَلٍ وَاللَّهُ عِنْدَ لِسَانٍ
يعني: ما في أيضاً رسول في القبر.

كَلَّا وَلَا فِي الْقَبْرِ أَيضًا عِنْدَكُمْ
مِنْ مُرْسَلٍ وَاللَّهُ عِنْدَ لِسَانٍ
أي: أن الله سبحانه وتعالى عند قول كل قائل؛ فكل من شهد لله فالله تعالى عند شهادته بحاسبه عليها.

هَاتِيكَ عَوْرَاتٌ ثَلَاثٌ قَدْ بَدَتْ
مِنْكُمْ فَغَطُّوهَا بِلَا رَوْعَانَ
قوله: (هاتيك) اسم اشارة، والمشار إليه ما سبق من أنه ليس في الأرض كلام لله وليس فوق السموات إله يعبد وليس في القبر رسول.

وقوله: (فغطوها بلا روغان) يعني: إن استطعتم غطوا هذه العورات، ولكنهم لا يستطيعون، أما العورتان الأوليان أنه ليس في الأرض كلام للإله، وأنه ليس فوق السموات إله يعبد فقد عرفتم وجهها، أما الثالثة فوجهها ما ذكره رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ:

فَالرُّوحُ عِنْدَكُمْ مِنَ الْأَعْرَاضِ قَا
ئِمَّةٌ بِجِسْمِ الْحَيِّ كَالْأَلْوَانِ

أي: الروح عند هؤلاء عرض من الأعراض كالحرارة والبرودة والحركة وهذه الأشياء عرض فإذا مات الإنسان زالت، فالروح عندهم عرض من أعراض الجسم كاللون وحرارة الجسم وبرودته ورطوبته وبيوسته وما أشبه ذلك فإذا مات فأين تذهب الروح؟ تزول كزوال بقية الصفات ولهذا قال:

فَالرُّوحُ عِنْدَكُمْ مِنَ الْأَعْرَاضِ قَا
وَكَدَا صِفَاتُ الْحَيِّ قَائِمَةٌ بِهِ
ئِمَّةٌ بِجِسْمِ الْحَيِّ كَالْأَلْوَانِ
مَشْرُوطَةٌ بِحَيَاةِ ذِي الْجُثْمَانِ

قوله: (صفات الحي قائمة به لكنها مشروطة) بأي شيء؟ بحياته فلا يمكن أن يتحرك ولا يأكل ولا يشرب ولا يغضب ولا يرضى إلا إذا كان حياً، إذن لا روح فيه إلا إذا كان حياً أمّا إذا كان ميتاً فُقِدَتِ الروح تماماً كما تُفَقَدُ بقية الصفات، وهذا أحد أقوال القائلين في الروح أنها

عرض من أعراض الجسم تذهب بذهاب الجسم، فصفت الحيّ قائمة وكل الصفات مشروطة بالحياة، فالرسالة وصف، مشروطة بحياة الرسول فإذا مات زالت الرسالة؛ لأن صفات الجسم على قولهم إذا مات ماتت وراحت فإذا ن هذه الجنة التي في القبر هل هي رسول؟ لا، على قولهم فهي ليست برسول؛ لأن صفات الحيّ مشروطة بحياته والحياة من الرسول ﷺ قد فُقدت وزالت إذن: فالصفات التي لا بد فيها من الحياة زالت ولهذا قال:

فَإِذَا انْتَفَتِ تِلْكَ الْحَيَاةُ فَيَنْتَفِي مَشْرُوطُهَا بِالْعَقْلِ وَالْبِرْهَانِ

أي: إذا انتفت هذه الحياة انتفى مشروطها أي: الرسالة؛ لأن الصفات من شرطها الحياة، فإذا فقدت فقدت الصفات.

وَرِسَالَةُ الْمَبْعُوثِ مَشْرُوطٌ بِهَا كَصِفَاتِهِ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ

فَإِذَا انْتَفَتِ تِلْكَ الْحَيَاةُ فَكُلُّ مَشْرُوطٍ بِهَا عَدَمٌ لِيَذِي الْأَذْهَانَ

قوله: (ورسالة المبعوث مشروط بها) أي: من شرط كونه رسولاً أن يكون حيّاً على زعمهم، فإذا مات فقدت الرسالة.

وقوله: (لذي الأذهان) يعني: أنه ظاهر لكل ذي ذهن، لا بناءً على زعمهم أن الروح عرض تفوت بفوات الجسم والرسالة مشروطة بأن يكون ذي روح، فإذا انتفت تلك الحياة فكل مشروط بها عدم، فلا يمكن أن يرسل رسول إلا بروح، فإذا فقدت الروح فقدت الرسالة باتفاق أهل الأذهان.

إذن قولهم ليس في السماء إله يعبد؛ لأنهم ينكرون علو الله، وقولهم: ليس في الأرض كلام لله؛ لأنهم يقولون كلام الله مخلوق فهو كوجود البعير والإنسان لا فرق، وقولهم: ليس في القبر رسول؛ لأن الرسالة وصف مشروطة بالحياة، والحياة مفقودة؛ لأن الروح عندهم عرض من الأعراض يفوت بموت الجسم، فإذا فُقدت الروح التي هي شرط للرسالة فقدت الرسالة، وعلى هذا فالنبي - عليه الصلاة والسلام - في قبره ليس برسول فانتفت عنه صفة الرسالة بموته، وهذا معنى قوله ليس في القبر رسول، لكن لو قالوا: ليس في القبر حي نقول: هذا صحيح إن أرادوا الحياة الدنيا، أما إن أرادوا الحياة البرزخية فغير صحيح، ولهذا جاء المؤلف بالفصل الذي يليه في الكلام عن حياة الأنبياء في قبورهم.



فصل



في الكلام في حياة الأنبياء في قبورهم

- ٢٨٤٠- وَلَا جِلِّ هَذَا رَامَ نَاصِرُ قَوْلِكُمْ
تَرْقِيعُهُ يَا كَثْرَةَ الْخُلُقَانِ
- ٢٨٤١- قَالَ الرَّسُولُ بِقَبْرِهِ حَيٌّ كَمَا
قَدْ كَانَ فَوْقَ الْأَرْضِ وَالرُّجْمَانِ
- ٢٨٤٢- مِنْ فَوْقِهِ أَطْبَاقُ ذَاكَ الثَّرْبِ وَاللَّ
سِنَاتُ قَدْ عُرِضَتْ عَلَى الْجُدْرَانِ
- ٢٨٤٣- لَوْ كَانَ حَيًّا فِي الضَّرِيحِ حَيَاتَهُ
قَبْلَ الْمَمَاتِ بَعِيرٌ مَا فُرْقَانِ
- ٢٨٤٤- مَا كَانَ تَحْتَ الْأَرْضِ بَلٍ مِنْ فَوْقِهَا
وَاللَّهُ هَذَا سُنَّةُ الرَّحْمَنِ
- ٢٨٤٥- أْتَرَاهُ تَحْتَ الْأَرْضِ حَيًّا ثُمَّ لَا
يُفْتِيهِمْ بِشَرَائِعِ الْإِيمَانِ
- ٢٨٤٦- وَيُزْرِحُ أُمَّتَهُ مِنَ الْأَرَاءِ وَالْ
خُلْفِ الْعَظِيمِ وَسَائِرِ الْبَهْتَانِ
- ٢٨٤٧- أَمْ كَانَ حَيًّا عَاجِزًا عَنِ نَطْقِهِ
وَعَنِ الْجَوَابِ لِسَائِلِ لَهْفَانِ

٢٨٤٨- وَعَنْ الْجِرَاكِ فَمَا الْحَيَاةُ اللَّاتِ قَدْ

أُبْتُمُوهَا أَوْضَحُوا بَيِّنَانِ

٢٨٤٩- هَذَا وَلِمَ، لَا جَاءَهُ أَصْحَابُهُ

يَشْكُونَ بَأْسَ الْفَاجِرِ الْفَتَّانِ

٢٨٥٠- إِذْ كَانَ ذَلِكَ دَابُّهُمْ وَنَبِيُّهُمْ

حَيِّي يُشَاهِدُهُمْ شُهُودَ عَيَانِ

٢٨٥١- هَلْ جَاءَكُمْ أَثَرٌ بِأَنَّ صَحَابَهُ

سَأَلُوهُ فُتَيَا وَهُوَ فِي الْأَكْفَانِ

٢٨٥٢- فَأَجَابَهُمْ بِجَوَابِ حَيِّي نَاطِقِ

فَأَتُوا إِذَا بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ

٢٨٥٣- هَلَّا أَجَابَهُمْ جَوَابًا شَافِيًا

إِنْ كَانَ حَيًّا نَاطِقًا بِلِسَانِ

٢٨٥٤- هَذَا وَمَا شُدَّتْ رَكَائِبُهُ عَنِ الْ

حُجُرَاتِ لِلْقَاصِي مِنَ الْبُلْدَانِ

٢٨٥٥- مَعَ شِدَّةِ الْحِرْصِ الْعَظِيمِ لَهُ عَلَى

إِرْشَادِهِمْ بِطَرَائِقِ التَّبَيِّنَانِ

٢٨٥٦- أَثَرَاهُ يَشْهَدُ رَأْيُهُمْ وَخِلَافَهُمْ

وَيَكُونُ لِلتَّبَيِّنَانِ ذَا كِتْمَانِ

٢٨٥٧- إِنْ قُلْتُمْ سَبَقَ الْبَيِّنَانُ صَدَقْتُمْ

قَدْ كَانَ بِالتَّكْرَارِ ذَا إِحْسَانِ

٢٨٥٨- هَذَا وَكَمْ مِنْ أَمْرٍ اشْكَلُ بَعْدَهُ

- أَعْنِي عَلَى الْعُلَمَاءِ كُلِّ زَمَانٍ
 ٢٨٥٩- أَوْ مَا تَرَى الْفَارُوقَ وَدَّ بَأْنَهُ
 قَدْ كَانَ مِنْهُ الْعَهْدُ ذَا تَبْيَانٍ
 ٢٨٦٠- بِالْجَدِّ فِي مِيرَاثِهِ وَكَلَالَةٍ
 وَبِبَعْضِ أَبْوَابِ الرَّبِّ الْفَتَّانِ
 ٢٨٦١- قَدْ قَصَّرَ الْفَارُوقُ عِنْدَ فَرِيقِكُمْ
 إِذْ لَمْ يَسْأَلْهُ وَهُوَ فِي الْأَكْفَانِ
 ٢٨٦٢- أَتَرَاهُمْ يَأْتُونَ حَوْلَ ضَرِيحِهِ
 لِسُؤَالِ أُمَّهِمْ أَعَزَّ حَصَانِ
 ٢٨٦٣- وَنَبِيُّهُمْ حَيٌّ يُشَاهِدُهُمْ وَيَسْأَلُهُمْ
 وَمَعَهُمْ وَلَا يَأْتِي لَهُمْ بَيِّنَانِ
 ٢٨٦٤- أَفَكَانَ يَعْجِزُ أَنْ يُجِيبَ بِقَوْلِهِ
 إِذْ كَانَ حَيًّا دَاخِلَ الْبَيْتَانِ
 ٢٨٦٥- يَا قَوْمَنَا اسْتَحْيُوا مِنَ الْعُقَلَاءِ وَالْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ وَالرَّحْمَنِ^(١)
 ٢٨٦٦- وَاللَّهِ لَا قَدَرَ الرَّسُولِ عَرَفْتُمْ
 كَلًّا وَلَا لِلنَّفْسِ وَالْإِنْسَانِ

(١) [٢٨٦٦: ٢٨٦٤] قال العلامة محمد خليل هراس:

فلو كان بينهم عليه السلام حياً يشاهدهم ويسمعهم وهم حول ضريحه في بيت أمهم الحصان المرأة من النساء إنما كان ينبغي أن يجيبهم عما سألوا عنه بدلاً من إحالتهم على من يحتمل قولها الخطأ والصواب، أما كان عاجزاً وهو حي داخل قبره أن يسعفهم بالجواب؟ يا قوم ألا تستحيون من هذا الكلام الذي لا يقره عقل ولا يرضى عنه الله ولا رسوله.

٢٨٦٧- مَنْ كَانَ هَذَا الْقَدْرُ مَبْلَغَ عِلْمِهِ

فَلَيْسَ تَبَّرَ بِالضَّمِّ وَالْكَتْمَانِ

٢٨٦٨- وَلَقَدْ أَبَانَ اللَّهُ أَنَّ رَسُولَهُ

مَيِّتٌ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

٢٨٦٩- أَفَجَاءَ أَنَّ اللَّهَ بَاعِثُهُ لَنَا

فِي الْقَبْرِ قَبْلَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ

٢٨٧٠- أَثَلَاثُ مَوْتَاتٍ تَكُونُ لِرُسُلِهِ

وَلِغَيْرِهِمْ مِنْ خَلْقِهِ مَوْتَانِ

٢٨٧١- إِذْ عِنْدَ نَفْخِ الصُّورِ لَا يَبْقَى امْرُؤٌ

فِي الْأَرْضِ حَيًّا قَطُّ بِالْبُرْهَانِ

٢٨٧٢- أَفَهَلْ يَمُوتُ الرُّسُلُ أَمْ يَبْقَوْنَ إِذَا

مَاتَ الْوَزَى أَمْ هَلْ لَكُمْ قَوْلَانِ

٢٨٧٣- فَتَكَلَّمُوا بِالْعِلْمِ لَا الدَّعْوَى وَجِي

سُوا بِالذَّلِيلِ فَنَحْنُ ذُو أَذْهَانِ

٢٨٧٤- أَوْ لَمْ يَقُلْ مَنْ قَبْلَكُمْ لِلرَّافِعِيِّ الْ

أَصْوَاتِ حَوْلَ الْقَبْرِ بِالنُّكْرَانِ

٢٨٧٥- لَا تَرْفَعُوا الْأَصْوَاتَ حُرْمَةَ عَبْدِهِ

مَيِّتًا كَحُرْمَتِهِ لَدَى الْحَيَّوَانِ

٢٨٧٦- قَدْ كَانَ يُمَكِّنُهُمْ يَقُولُوا إِنَّهُ

حَيٌّ فَغَضُّوا الصَّوْتِ بِالْإِحْسَانِ

٢٨٧٧- لَكِنَّهُمْ بِاللَّهِ أَعْلَمُ مِنْكُمْ

وَرَسُولِهِ وَحَقَائِقِ الْإِيمَانِ

٢٨٧٨- وَلَقَدْ أَتَوْا يَوْمًا إِلَى الْعَبَّاسِ يَسْ

تَسْقُونَ مِنْ قَحْطٍ وَجَدِبِ زَمَانِ

٢٨٧٩- هَذَا وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نَبِيِّهِمْ

عَرَضَ الْجِدَارِ وَحُجْرَةَ النِّسْوَانِ

٢٨٨٠- فَنَبِيَّهُمْ حَيٌّ وَيَسْتَسْقُونَ غِي

رَ نَبِيِّهِمْ حَاشَا أَوْلِي الْإِيمَانِ^(١)

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

وَلَأَجْلِ هَذَا رَامَ نَاصِرُ قَوْلِكُمْ تَرْقِيعَهُ يَا كَثْرَةَ الْخُلُقَانِ

يعني: أن من نصر قولكم رام أن يرقعه، ولكن الترقيع لا ينفع، لأن الثوب الخلق خلق سواء رُقِع أم لم يرقع.

قَالَ الرَّسُولُ بِقَبْرِهِ حَيٌّ كَمَا قَدْ كَانَ فَوْقَ الْأَرْضِ وَالرُّجْمَانِ

سبق قبل قليل أنهم يرون أن الروح، والحياة عرض، وأنه لما مات الرسول ﷺ زالت الرسالة، فكان في القبر غير رسول، فمن ينصر قولهم بأن يقول إن الرسول ﷺ لم يموت، بل هو حي في قبره من أجل ترقيع هذا القول، ولكن لا تنفع الرقع.

وقوله: (كما كان فوق الأرض والرجمان) يعني: الحصى التي يرم بها.

(١) [٢٨٧٨ : ٢٨٨٠] قال العلامة محمد خليل هراس:

ولقد كان الصحابة من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم يستسقون بالعباس عم رسول الله ﷺ إذا نزل بهم قحط واحتبس عنهم المطر، وقد استسقى به عمر رضي الله عنه عام الرمادة وقال وهو يقدمه (اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توصلنا إليك بنبينا في حياته فتسقيننا، ونحن نتوسل إليك الآن بعم نبينا فاسقنا) فلو كان النبي ﷺ حياً في قبره كما زعمتم وليس بينهم وبينه إلا جدار القبر وحجرة زوجه عائشة رضي الله عنها، فكيف يليق بهم وهم أكمل هذه الأمة علماً وإيماناً أن يعدلوا إلى الاستسقاء بغير رسول الله ﷺ أيًا كان وهو حي بينهم يملك الدعاء ويقدر على الكلام باللسان! إن هذا إلا محض افتراء وبهتان.

مِنْ فَوْقِهِ أَطْبَاقُ ذَاكَ الثَّرْبِ بِنَاتُ قَدِ عُرِضَتْ عَلَى الْجُدْرَانِ

يعني: فيكون حياً ولو كان تحت التراب من أجل ألا يجبس عنه وصف الرسالة، قال المؤلف ردّاً عليهم:

لَوْ كَانَ حَيًّا فِي الصَّرِيحِ حَيَاتِهِ قَبْلَ الْمَمَاتِ بِغَيْرِ مَا فُرْقَانِ

مَا كَانَ تَحْتَ الْأَرْضِ بَلْ مِنْ وَاللَّهِ هَذَا سُنَّةُ الرَّحْمَنِ

يعني: لو كانت حياته في قبره كحياته في الدنيا ما كان تحت الأرض، بل كان فوقها، بل ولما دفنه أصحابه؛ لأنه لو كان حياً كحياته بالدنيا، ودفنه أصحابه لكانوا أكبر الجناة عليه أليس كذلك؟ وهذا أمر معلوم لو أمسكت شخصاً حياً يرزق يأكل ويشرب، ثم رمسته بالتراب لكان هذا أعظم الجنايات عليه.

أُتْرَاهُ تَحْتَ الْأَرْضِ حَيًّا ثُمَّ لَا يَفْتِيهِمْ بِشَرَائِعِ الْإِيمَانِ

الجواب: لا، لأنه كان حياً تحت التراب كحياته بالدنيا لكان يفتيهم إذا أشكل عليهم الأمر، ولأراح الأمة من الخلاف العظيم الثابت بينهما في العقائد والأحكام، فلما لم يفتهم ظهر بُطلان قولهم، وقد يقولون: هو مندفن، ولا يسمع، قد يقولون: هذا، فنقول: حتى وإن كان الأمر كذلك، فلا بد أن يسمع إذا استفتوه لدعاء الحاجة.

وَيُرِيحُ أُمَّتَهُ مِنَ الْآرَاءِ وَالْ خُلْفِ الْعَظِيمِ وَسَائِرِ الْبُهْتَانِ

أَمْ كَانَ حَيًّا عَاجِزًا عَنِ نُطْقِهِ وَعَنِ الْجَوَابِ لِسَائِلِ لَهْفَانِ

وَعَنِ الْجِرَاكِ فَمَا الْحَيَاةُ اللَّاتِ قَدْ أُثْبِتُوهَا أَوْضَحُوا بَيِّنَانِ

يعني: إن قلت إنني حي؛ لكن لا يستطيع أن يتكلم، ولا يستطيع أن يتحرك نقول لكم: أي نوع من الحياة هذه؟ إذن لا بد أن تكون الحياة التي في القبر حياة مفارقة للحياة الدنيا على كل حال؛ لأنه لو كان حياً لكان من أهم أوصافه الحياتية النطق، ولصار ناطقاً قادراً على الحركة، فلما لا.

هَذَا وَلِمَ لَا جَاءَهُ أَصْحَابُهُ يَشْكُونَ بِأَسْرِ الْفَاجِرِ الْفَتَّانِ

يعني: لماذا لم يجئه أصحابه إذا أصابهم بأس حرب، أو غير حرب، فيشكون إليه، ومن أعظم ما أصابهم ما حصل في أيام الحررة من القتل العظيم والنهب والسلب وانتهاك

الحرمات، ومع ذلك لم يأتوا إلى النبي ﷺ يشكون إليه، ولو كان حيًّا لأتوا إليه يشكون إليه هذا البأس.

إِذْ كَانَ ذَلِكَ دَأْبَهُمْ وَنَبِيَّهُمْ حَتَّى يُشَاهِدَهُمْ شُهُودَ عِيَانٍ

الدأب هو العادة يعني: كانت عاداتهم والنبي ﷺ حتى أن يلجئوا إلى النبي ﷺ في الأحكام والفتيا بينهم، وحين يحين البأس يرجعون إلى النبي ﷺ.

هَلْ جَاءَكُمْ أَثْرٌ بِأَنَّ صَحَابَهُ سَأَلُوهُ فُتْيَا وَهُوَ فِي الْأَكْفَانِ

فَأَجَابَهُمْ بِجَوَابٍ حَيٍّ نَاطِقٍ فَأَتُوا إِذَا بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانِ

يعني: هل جاء أثر بأن الصحابة استفتوه، وهو مدرج في أكفانه فأفتاهم؟ فقد اختلف الصحابة رضي الله عنهم أين يُدفن؟ وهل يُغسل كما يغسل الموتى؟ وهل يكفن كما يكفن الموتى؟ اختلفوا في ذلك، ومع ذلك ما رجعوا إليه يسألونه، وهو بينهم لم يدفن فكيف يكون حيًّا؟!

هَلَّا أَجَابَهُمْ جَوَابًا شَافِيًّا إِنْ كَانَ حَيًّا نَاطِقًا بِلِسَانِ

هَذَا وَمَا شُدَّتْ رَكَائِبُهُ عَنِ الْحُجْرَاتِ لِلْقَاصِي مِنَ الْبُلْدَانِ

يعني: لو كان حيًّا لشدت ركائبه من حجراته إلى أقاصي البلدان، وشارك الناس في الغزوات، والحروب.

مَعَ شِدَّةِ الْحَرِصِ الْعَظِيمِ لَهُ عَلَى إِرْشَادِهِمْ بِطَرَائِقِ التَّيْيَانِ

فلا شك أن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - شديد الحرص على إرشاد الأمة، وأنه لا يألو جهدًا في إرشادهم في كل طريق - عليه الصلاة والسلام -.

أَثْرَاهُ يَشْهَدُ رَأْيُهُمْ وَخِلَافَهُمْ وَيَكُونُ لِلتَّيْيَانِ ذَا كِتْمَانِ

الجواب: لا يمكن، وكل هذا يدل على أنه ليس حيًّا في قبره، كحياته في الدنيا، لأنه لو كان حيًّا كحياته في الدنيا لرجعوا إليه في هذه الأمور.

إِنْ قُلْتُمْ سَبَقَ الْبَيَانُ صَدَقْتُمْ قَدْ كَانَ بِالتَّكْرَارِ ذَا إِحْسَانِ

يعني: لو قالوا: لم يفعل النبي ﷺ ذلك؛ لأنه سبق أن بين البيان المبين، وترك أمته على محاجة بيضاء نقول: صدقتم إنه قد بين، وترك أمته على المحاجة البيضاء لكن ما الذي يضيره من تكرار البيان، تكرار البيان يكون زيادة إحسان للأمة، ولهذا قال: (إن قلتم سبق

(البيان) يعني: فلا حاجة إليه، يعني: لو كرر لكان زيادة خير وإحسان للأمة.

هَذَا وَكَمْ مِنْ أَمْرٍ أَشْكَلَ بَعْدَهُ أَعْنِي عَلَى الْعُلَمَاءِ كُلِّ زَمَانٍ

فما أكثر الأمور التي أشكلت على الأمة بعد الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ومن أول ما أشكل عليها بعد أن اختلفوا في غسله وتكفينه وأين يدفن؟ اختلفوا في تمثيل جيش أسامة بن زيد وهذه مسألة مهمة فجيش أسامة بن زيد كونه الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - في حياته وعقد اللواء لأسامة بن زيد وخرج الجيش إلى ظاهر المدينة ولما مرض النبي عليه الصلاة والسلام لم يسر هذا الجيش، حتى توفي - صلوات الله وسلامه عليه - ولما توفي اختلف الصحابة في إنفاذه أو لا؛ لأنه لما توفي ارتد بعض العرب، فاختلف الصحابة هل ينفذون هذا الجيش أو يبقونه يستعينون به على قتال المرتدين فمانع عمر وجماعة من الصحابة، وقالوا يبقى الجيش نستعين به ولكن أبو بكر قال: والله لا أغمد سيفاً سله النبي - عليه الصلاة والسلام - ولا أجل لواء عقده النبي ﷺ، وأقسم على ذلك فقال عمر: فعلمت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال وعلمت أنه الحق، ونفذ الجيش ومع هذا الخلاف الذي حصل للصحابة فلم يرجعوا إلى الرسول ﷺ في قبره.

أَوْ مَا تَرَى الْفَارُوقَ وَدَّ بَأْتَهُ قَدْ كَانَ مِنْهُ الْعَهْدُ ذَا تَبْيَانٍ

بِالْجَدِّ فِي مِيرَاثِهِ وَكَلَالَةٍ وَبِبَعْضِ أَبْوَابِ الرِّبَا الْفَتَّانِ

قوله: (أو ما ترى الفاروق) يعني: عمر بن الخطاب رضي الله عنه ود بأنه قد كان منه العهد أي: عهد من الرسول - عليه الصلاة والسلام - في أمور ثلاثة الجد والكلالة وشيء من أبواب الربا (الجد في ميراثه): يريد ميراثه مع الإخوة ومعلوم اختلاف الصحابة، ومن بعدهم في ميراث الجد مع الأخوة على أقوال كثيرة والصحيح أنه بمنزلة الأب وأنه يسقط الأخوة الأشقاء أو لأب، أو لأم، الثاني (والكلالة): الكلالة أشكلت على عمر رضي الله عنه لكنها في الحقيقة واضحة عند التأمل قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ [النساء: ١٢] فهم الإخوة من الأم لا يرثون مع وجود الأصول الذكور، أو الفروع مطلقاً، وقوله: في آخر سورة النساء ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُؤُا هَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ﴾ [النساء: ١٧٦] أي: ليس له ولد هذا شرط من شروط الكلالة ألا يكون له

ولد ولا والد من ﴿وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧٦] وهذا لا يتصور مع وجود الوالد فإذا الكلاله واضحه في القرآن لمن تأمل لكن عمر رضي الله عنه يريد بذلك بياناً واضحاً لا جدال فيه إطلاقاً (بعض أبواب الربا) وأبواب الربا كثيرة ورد في الحديث أنه «بُضِعُ وَسَبَعُونَ بَابًا»^(١) وأشكلت على عمر بعض هذه الأبواب رضي الله عنه فتمنى أن النبي صلى الله عليه وسلم بين ذلك ولم يرجع إليه في قبره ليفتيه؛ لأن حياته ليست كحايثنا كما يظنون.

قَدْ قَضَرَ الْفَارُوقُ عِنْدَ فَرِيقِكُمْ إِذْ لَمْ يَسْأَلْهُ وَهُوَ فِي الْأُكْفَانِ

يعني: أن اعتقادكم أنتم تقولون: أن عمر مقصر؛ لأنه ما سأل - الرسول صلى الله عليه وسلم - بعد موته؛ لأنه لو سأله لوجده حياً فأجابه .

أَتْرَاهُمْ يَأْتُونَ حَوْلَ ضَرِيحِهِ لِسُؤَالِ أُمَّتِهِمْ أَعَزَّ حِصَانِ

وَنَبِيِّهِمْ حَيًّا يُشَاهِدُهُمْ وَيَسْمَعُهُمْ وَلَا يَأْتِي لَهُمْ بَيِّنَاتٍ

يعني: أكان الصحابة يأتون إلى حجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وفيها عائشة أم المؤمنين، ويوجهوا السؤال إليها والنبي صلى الله عليه وسلم وهو يشاهدهم ويسمعهم؟ الجواب؟ لا يمكن أن يدعوا سؤال النبي إلى سؤال عائشة، هذا محال.

أَفْكَانَ يَعْجِزُ أَنْ يُجِيبَ بِقَوْلِهِ إِذْ كَانَ حَيًّا دَاخِلَ الْبُنْيَانِ

الجواب: لا يعجز؛ لأنه لو كان حياً داخل البنيان، لأجابهم، ولم تجبهم عائشة.

يَا قَوْمَنَا اسْتَحْيُوا مِنَ الْعُقَلَاءِ وَالْمَبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ وَالرَّحْمَنِ

أي: استحيوا من العقلاء ثم من الرسول - عليه الصلاة والسلام - ثم من الله من هذا الكلام الذي صدر منكم.

وَاللَّهُ لَا قَدَرَ الرَّسُولِ عَرَفْتُمْ كَلًّا وَلَا لِلنَّفْسِ وَالْإِنْسَانِ

فهم ما عرفوا قدر الرسول - عليه الصلاة والسلام - حيث زعموا أنه حي في قبره كحياته، في الدنيا، ولا عرفوا أيضاً قدرًا للنفس والإنسان؛ لأنه يجب على الإنسان أن يترفع بنفسه عن هذه السفاسف، وهذه المقولات التي يضحك منها السفهاء، بل والله ما عرفوا

(١) صحيح: انظر صحيح «الترغيب والترهيب» (١٨٥٢).

قدرًا للصحابة؛ لأنه لو كان حيًّا على زعمهم لكان الصحابة قد دفنوا نبيهم، وهو حي وإذا كانت المؤودة تسأل يوم القيامة عن من وأدها، فكيف بالرسول يدفنه الصحابة وهو حي، هذا أكبر قدح في الصحابة ~~هذه~~.

مَنْ كَانَ هَذَا الْقَدْرُ مَبْلَغَ عِلْمِهِ فَلَيْسَتْ بِالصَّمْتِ وَالْكِتْمَانِ

يعني: من كان هذا مبلغ علمه بأن الرسول حي في قبره فعليه أن يستحيي على نفسه وأن يستتر عن بيان عيبه، بالصمت والكتمان، حتى لا يفتضح أمام الناس.

وَلَقَدْ أَبَانَ اللَّهُ أَنَّ رَسُولَهُ مَيِّتٌ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

فتوجد أدلة كثيرة على أن الرسول ميت، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

أَفَجَاءَ أَنَّ اللَّهَ بَاعِثُهُ لَنَا فِي الْقَبْرِ قَبْلَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ

الجواب: لا، إذن ثبت أنه ميت، ولم يثبت أنه مبعوث الآن، والأصل بقاء ما كان على ما كان عليه.

أَثَلَاثُ مَوْتَاتٍ تَكُونُ لِرَسُولِهِ وَلِغَيْرِهِمْ مِنْ خَلْقِهِ مَوْتَانِ

لا يمكن ذلك، لكن على زعمهم تكون الموات ثلاث للنبي: فقد مات النبي قبل وجوده كما قال تعالى ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] ومات بعد وجوده في الدنيا، ثم بعث في القبر، ثم يموت يوم القيامة الموتة التي يصعق فيها الناس، ثم ينفخ في الصور مرة ثانية ﴿فَإِذَا هُمْ بِقِيَامٍ يُنظَرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

إِذْ عِنْدَ نَفْخِ الصُّورِ لَا يَبْقَى امْرُؤٌ فِي الْأَرْضِ حَيًّا قَطُّ بِالْبُرْهَانِ

وهذا صحيح، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

أَفَهَلْ يَمُوتُ الرُّسُلُ أَمْ يَبْقَوْنَ إِذَا مَاتَ الْوَرَى أَمْ هَلْ لَكُمْ قَوْلَانِ

يقول المؤلف (هل يموت الرسل أم يبقوا إذا مات الوري؟) أي: إن قلت يموت الرسل، وإن قلت بل يبقوا نقول: أين الدليل؟ أو لكم في هذا قولان، قول يقول: إنهم يبقوا، وقول

يقول: إنهم يموتون.

فَتَكَلَّمُوا بِالْعِلْمِ لَا الدَّعْوَى وَجِيهَ
أَوْ لَمْ يَقُلْ مِنْ قَبْلِكُمْ لِلرَّافِعِيِّ الـ
لَا تَرْفَعُوا الْأَصْوَاتَ حُرْمَةً عِبْدِهِ
مِثْلًا كَحُرْمَتِهِ لَدَى الْحَيَوَانِ

معنى هذه الأبيات: هذا جاء في أثر عن عمر رضي الله عنه أن قومًا من أهل الطائف جاءوا إلى مسجد النبي - عليه الصلاة والسلام - فجعلوا يتكلمون ويرفعون أصواتهم فدعاهم عمر رضي الله عنه وقال: لولا أنكم من غير هذا البلد لأوجعتكم ضربًا أترفعون أصواتكم عند قبر النبي صلى الله عليه وآله، وهذا على سبيل الاحترام والأدب.

قَدْ كَانَ يُمَكِّنُهُمْ يَقُولُوا إِنَّهُ
حَيٌّ فَعَضُّوا الصَّوْتِ بِالْإِحْسَانِ
لَكِبْنَهُمْ بِاللَّهِ أَعْلَمُ مِنْكُمْ
وَرَسُولِهِ وَحَقَائِقِ الْإِيمَانِ

قد كان يمكنهم أن يقولوا: إنه حي لكنهم غضوا الصوت، ولا يقولوا، فلماذا ترفعون أصواتكم عند قبر الرسول، فإن حرمة ميتًا كحرمة حيًا، والصحابة أعلم بالله وبرسوله وبحقائق الإيمان منا، ولم ينقل عنهم شيء مما تقولونه.

وَلَقَدْ أَتَوْا يَوْمًا إِلَى الْعَبَّاسِ يَسُ
هَذَا وَيَبِينُهُمْ وَيَبِينُ نَبِيِّهِمْ
تَسْقُونَ مِنْ قَحْطٍ وَجَدِبِ زَمَانِ
عَرَضَ الْجِدَارِ وَحُجْرَةَ النَّسْوَانِ

فالصحابة أتوا إلى العباس يستسقون، وذلك لما أصيب الناس بالقحط في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجمع الناس للاستسقاء قال الله إنا كنا نستسقى إليك بنينا فتسقيننا وإنا نستسقى إليك بعم نبينا قم يا عباس، فادعوا الله فقام العباس فدعا الله - عز وجل - فهذا الأثر يبين لهم بطلان قولهم؛ لأن الرسول ولو كان حيًا لاستسقوا به وما ذهبوا إلى العباس لأنه ليس بينهم وبين نبيهم إلا عرض الجدار وحجرة النسوان.

فَنَبِيُّهُمْ حَيٌّ وَيَسْتَسْقُونَ عَيْ
رَ نَبِيِّهِمْ حَاشَا أَوْلِيَا الْإِيمَانِ

يعني: هل يمكن هذا أن يستسقوا بأحد دون النبي صلى الله عليه وآله وهو حي، وأريد أن أبين أن حديث الاستسقاء بالعباس السابق يأخذه بعض الصوفية حجة قوية على الاستشفاع بالأولياء والصالحين ودائمًا يستدلون بهذا الدليل كيف الرد عليهم؟

الرد عليهم صحيح التوسل بدعاء الصالحين في حياتهم لا بأس به يعني: إذا وجدت رجلاً صالحاً تتوسم فيه الخير وقلت له ادع الله لنا هذا لا بأس به، أما ما يفعله الصوفية من طلب الدعاء من الأموات يدخل في باب الشركيات.

مسألة: كيف الرد على من يقول بسماع الأموات لغيرهم من الأحياء مطلقاً في القبر؟
الجواب: لا يلزم من السماع أن يكون حياً فهذا الإنسان إذا دفن وتولى أصحابه عنه يسمع قرع نعالهم والسمع مطلقاً فيه خلاف فمن العلماء من قال يسمع والأصل أنه لا يسمع إلا ما جاء به النص الصحيح مثل السلام عليه وقرع النعال.



فصل

فيما احتجوا به على حياة الرُّسل في القبور

٢٨٨١- فَإِنِ احْتَجَجْتُمْ بِالشَّهِيدِ بِأَنَّهُ

حَيٌّ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

٢٨٨٢- وَالرُّسُلُ أَكْمَلُ حَالَةٍ مِنْهُ بِلَا

شَكِّ وَهَذَا ظَاهِرُ التَّبَيَّنِ

٢٨٨٣- فَلِذَلِكَ كَانُوا بِالْحَيَاةِ أَحَقَّ مِنْ

شُهُدَائِنَا بِالْعَقْلِ وَالْبُرْهَانِ

٢٨٨٤- وَبِأَنَّ عَقْدَ نِكَاحِهِ لَمْ يَنْفَسِخْ

فَنَسَاؤُهُ فِي عِصْمَةٍ وَصِيَانِ

٢٨٨٥- وَلَا جِلِّ هَذَا لَمْ يَحِلَّ لِغَيْرِهِ

مِنْهُمْ وَاحِدَةٌ مَدَى الْأَزْمَانِ

٢٨٨٦- أَفَلَيْسَ فِي هَذَا دَلِيلٌ أَنَّهُ

حَيٌّ لِمَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ

٢٨٨٧- أَوْ لَمْ يَرِ الْمُخْتَارُ مُوسَى قَائِمًا

فِي قَبْرِهِ لِصَلَاةِ ذِي الْقُرْبَانِ

٢٨٨٨- أَفَمَيِّتٌ يَأْتِي الصَّلَاةَ وَإِنَّ ذَا

عَيْنِ الْمُحَالِ وَوَأَضِحُ الْبُطْلَانِ

٢٨٨٩- أو لم يقل إني أزد على الذي

يأتي بتسليم مع الإحسان

٢٨٩٠- أيزد ميت السلام على الذي

يأتي به هذا من البهتان

٢٨٩١- هذا وقد جاء الحديث بأنهم

أحياء في الأجداث ذا تبيان

٢٨٩٢- وبأن أعمال العباد عليه تغ

رض دائماً في جمعة يومان

٢٨٩٣- يوم الخميس ويوم الاثنين الذي

قد خص بالفضل العظيم الشان^(١)

الشرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

استدل الذين يقولون بأن الأنبياء أحياء في قبورهم بأدلة منها : أن الشهداء أحياء في قبورهم كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وأن مقام الأنبياء أعلى من مقام الشهداء بلا شك، فإذا كانوا أعلى

(١) [٢٨٨٣: ٢٨٩٣] قال العلامة محمد خليل هراس:

ولكننا نجمل الرد عليهم بأن حياة الشهداء ليست حياة في قبورهم، ولكن عند الله عز وجل، كما قال: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وبأن بقاء عقد نكاحه عليه السلام بأزواجه وحرمتهم على غيره لا يقتضي حياته بل هي خصوصية اختصه الله بها، فإن أزواجه أمهات المؤمنين، أي كأمهاتهم في الحرمة ووجوب التوقير.

وأما حديث أنس فلم يصح رفعه، بل هو موقوف، ولو صح لم يقتض حياة موسى في قبره، بل يحمل على التمثيل كما تحمل رؤيته له في الساء السادسة ومخاطبته له بقوله: «ما فرض الله عليك وعلى أمتك؟ وقوله له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف» إلخ، فإن ذلك كله من أمور الغيب التي نؤمن بها ولا نعلم كيفيتها، ولكننا نعلم يقيناً أن موسى قد مات، وعلى هذا النحو تحمل بقية الأحاديث إذا فرض صحتها، وإلا فدون ذلك خرط القناد.

مقامًا من الشهداء لصارت حياتهم في قبورهم أولى من حياة الشهداء.

فَإِنْ احْتَجَجْتُمْ بِالشَّهِيدِ بِأَنَّهُ حَيٌّ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ
وَالرُّسُلُ أَكْمَلُ حَالَةٍ مِنْهُ بِلَا سَلَكٍ وَهَذَا ظَاهِرُ التَّبَيَّنِ
فَلِذَلِكَ كَانُوا بِالْحَيَاةِ أَحَقَّ مِنْ شُهَدَائِنَا بِالْعَقْلِ وَالثَّرَهَانِ
والدليل الثاني واضح في قول المؤلف:

وَبِأَنَّ عَقْدَ نِكَاحِهِ لَمْ يَنْفَسِخْ
فَيَسَاؤُهُ فِي عِصْمَةٍ وَصِيَانِ
يعني: أن عقد نكاح الرسول ﷺ باقٍ بالنسبة لزوجاته.

وَلَأَجْلِ هَذَا لَمْ يَحِلَّ لِغَيْرِهِ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ
أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب ٥٣] وهذا دليل على: أنه حي كحياته في
الدنيا وإلا ما حرمت نساؤه على من بعده .
ولهذا قال المؤلف:

أَفَلَيْسَ فِي هَذَا دَلِيلٌ أَنَّهُ حَيٌّ لِمَنْ كَانَتْ لَهُ أَدْنَانِ
أَوْ لَمْ يَزَرَ الْمُخْتَارُ مُوسَى قَائِمًا
يقولون: إن النبي ﷺ رأى موسى قائمًا يصلي في قبره (١).
وبقية الأدلة توضحها هذه الآيات:

أَفَمَيِّتٌ يَأْتِي الصَّلَاةَ وَإِنَّ ذَا عَيْنِ الْمُحَالِ وَوَاضِحُ الْبُطْلَانِ
أَوْ لَمْ يَقُلْ إِنِّي أَرُدُّ عَلَى الَّذِي يَأْتِي بِتَسْلِيمٍ مَعَ الْإِحْسَانِ
أَيَرُدُّ مَيِّتٌ السَّلَامَ عَلَى الَّذِي يَأْتِي بِهِ مِنَ الْبُهْتَانِ
هَذَا وَقَدْ جَاءَ الْحَدِيثُ بِأَنَّهُمْ أَحْيَاءُ فِي الْأَجْدَاثِ ذَا تَبَيَّنِ
وَبِأَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ عَلَيْهِ تَعْرِضُ دَائِمًا فِي جُمُعَةٍ يَوْمَانِ
يَوْمَ الْخَمِيسِ وَيَوْمَ الْاِثْنَيْنِ قَدْ خُصَّ بِالْفَضْلِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

يقولون: وإذا كان النبي ﷺ رأى موسى قائماً يصلي في قبره فهل يمكن أن يصلي وهو غير حي؟

الجواب: لا؛ لأن الصلاة حركات وأقوال لا يُعقل أن تحدث إلا من حي ونسبتها على الميت عين المحال.

ومن أدلتهم أن الرسول أخبر بأن من سلم عليه رد عليه السلام. إذن أنه يسمع السلام عليه ويرد، فهل الميت يسمع السلام ويرد؟ إذن فهو حي كحياته في الدنيا.

ولقد وردت أحاديث تدل على أن الأنبياء أحياء في أجدانهم أي: في قبورهم. قوله: (جمعة يومان) يعني: أيام الأسبوع؛ لأنه يُعبر عن الجمعة بالأسبوع كما يُعبر عن السنة بالخريف والخريف فصل من فصول السنة لكن يعبر به عن السنة كلها؛ لأنه يعبر بالجمعة عن الأسبوع كله كما في حديث الدجال «يوم كجمعة» نعم يقول في (جمعة يومان) أي: في أسبوع تعرض الأعمال على الرسول ﷺ يوم الإثنين ويوم الخميس^(١).

ونقول: وقد اشتبه على الشارح حديثان حديث عرض الأعمال على رسول الله ﷺ ليس فيه ذكر يوم الخميس ويوم الإثنين ونصه «حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم فإذا أنا مت كانت وفاتي خيراً لكم تُعرض عليّ أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدتُ الله وإن رأيتُ شراً استغفرتُ الله لكم»^(٢) رواه ابن سعد في الطبقات عن بكر بن عبد الله مرسلًا وأورد ابن الحافظ عبد الغني المقدسي في كتابه «فضل الصلاة على النبي ﷺ» عن بكر بن عبد الله المزني مرسلًا من طريقين، ورواه البزار موصولاً عن عبد الله بن مسعود، وقال الحافظ الهيثمي رجاله رجال الصحيح، فهو حديث ثابت، وهو مراد الشارح، وحديث: «تُعرض الأعمال على الله تعالى» الذي فيه ذكر يوم الإثنين ويوم الخميس رواه مسلم في صحيحه والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «تُعرض الأعمال إلى الله في كل يوم إثنين وخميس فيغفر الله لكل عبد لا يُشرك بالله شيئاً إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه من شحناً فيقال انظروا هذين حتى يضطربا» وفي رواية «تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس».

ولا شك أن حديث عرض أعمال العباد على رسول الله قد ورد بالألفاظ لا يشك من

(١) صحيح: رواه الترمذي (٧٤٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧٦٦).

(٢) سبق تخريجه.

تأملها أنه باطل وموضوع ولم يروه أحد من أصحاب الصِّحاح بل رواه صاحب «الفرديوس» بسند فيه انقطاع وفي بعض الروايات وهي موقوفة عن أنس وإليك نص الحديث «حياتي خيرٌ لكم ومماتي خيرٌ لكم تُعرض عليّ أعمالكم فإن وجدتُ خيراً حمدتُ الله وإن وجدتُ شراً استغفرتُ لكم» .

فحياته كانت خيراً لأمته بلا نزاع يهديها إلى الرشد ويقودها إلى مواطن الفلاح، والخير ولكن كيف يكون موته خيراً لها وقد أدركت أصحابه فتنن عظام، حتى إن أشدهم شكيمة وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد خفي عليه آية من كتاب الله من هول المصاب، ولا شك في أن فقده رضي الله عنه كان أعظم ما أصيبت به هذه الأمة، ثم ما فائدة عرض الأعمال عليه وهو ليس مسئولاً عنها ولا مكلفاً بإحصائها وكتابتها ولا برفعها إلى الله فإن لذلك كله ملائكة موكلين به؟ وكيف يعقل أن يسوء الله عز وجل نبيه ويحزن قلبه وينغص عليه ما هو فيه من أنواع النعيم بعرض حصائد الناس من الشرور والمعاصي عليه؟ أما يكفي ما تحمله في حياته من أنواع المشقات وكبار التضحيات، والحديث فيه كذلك إغراء بالمعاصي ودعوة إليها فإنه إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم سيستغفر لحصاد أمته كلما عرضت عليه أعمالهم ولا شك أن استغفاره موجب للمغفرة إذن لا يضر أحداً ما يرتكبه من ذنب، وهو معارض للأحاديث الصحيحة التي تدل على أنه لا يدري بعد موته شيئاً من أحوال أمته فقد جاء في حديث الحوض أنه يرد عليه أناس من أمته الحوض وإنه يهيمُّ ليسقيهم من حوضه فتجيء ملائكة وتزودهم عن الحوض فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء أصحابي لأنه يعرفهم بسيماهم فيقال له: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فيقول: «سحقاً وبعداً لمن أحدث بعدي» ويتلو قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]

إذن مسألة أن الأعمال تعرض على الرسول صلى الله عليه وسلم في كل يوم الإثنين وخميس فإنه ورد فيه حديث فلعله انقلب على الراوي وأراد أن ينقل ما يعرض على الله يوم الإثنين والخميس .



فصل

في الجواب عما احتجوا به في هذه المسائل

٢٨٩٤- فَيَقَالُ أَصْلُ دَلِيلِكُمْ فِي ذَلِكَ حُجْجٌ

جِئْنَا عَلَيْكُمْ وَهِيَ ذَاتُ بَيَانٍ

٢٨٩٥- إِنَّ الشَّهِيدَ حَيَاتُهُ مَنْصُوصَةٌ

لَا بِالْقِيَاسِ الْقَائِمِ الْأَرْكَانِ

٢٨٩٦- هَذَا مَعَ النَّهْيِ الْمُؤَكَّدِ أَنَّنَا

نَدْعُوهُ مِثْلًا ذَاكَ فِي الْقُرْآنِ

٢٨٩٧- وَنَسَاؤُهُ حِلٌّ لَنَا مِنْ بَعْدِهِ

وَالْمَالُ مَقْسُومٌ عَلَى الشُّهُمَانِ

٢٨٩٨- هَذَا وَأَنَّ الْأَرْضَ تَأْكُلُ لَحْمَهُ

وَسِبَاعُهَا مَعَ أُمَّةِ الدِّيدَانِ

٢٨٩٩- لَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ حَيٌّ فَارِحٌ

مُسْتَبْشِرٌ بِكَرَامَةِ الرَّحْمَنِ

٢٩٠٠- فَالرُّسُلُ أَوْلَىٰ بِالْحَيَاةِ لَدَيْهِ مَعَ

مَوْتِ الْجُسُومِ وَهَذِهِ الْأَبْدَانِ

٢٩٠١- وَهِيَ الطَّرِيقَةُ فِي الشَّرَابِ وَأَكْلِهَا

فَهُوَ الْحَرَامُ عَلَيْهِ بِالْبُرْهَانِ

٢٩٠٢- وَلِبَعْضِ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ يَكُونُ ذَا

أَيْضًا وَقَدْ وَجَدُوهُ رَأْيَ عِيَانِ

٢٩٠٣- فَانظُرْ إِلَى قَلْبِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِمْ

حَرْفًا بِحَرْفِ ظَاهِرِ التَّبَيَّانِ^(١)

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ كغيره من أهل العلم إذا ذكر دليل الخصم يجب عن هذا الدليل؛ لأن الخصم لا بد له في مقابلة خصمه من أمرين: الأول: مدافعة لأدلة خصمه، والثاني: إثبات لأدلته ولذلك قال المؤلف:

فَيَقَالُ أَصْلُ دَلِيلِكُمْ فِي ذَاكَ حُجَّةٌ شُنَّا عَلَيْكُمْ وَهِيَ ذَاتُ بَيَّانٍ

يعني: أن ما احتججتم به علينا هو حجة لنا عليكم، فانقلب الدليل عليكم بعد أن جعلتموه لكم.

إِنَّ الشَّهِيدَ حَيَاتُهُ مَنْصُوصَةٌ لَا بِالْقِيَاسِ الْقَائِمِ الْأَرْكَانِ

أي: إن الدليل على أن الشهيد حي ولم يمت منصوبًا في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] فنفى الله عز وجل ظنَّ من يقول: إن الشهداء أَمْوَاتٌ، بل ونهى على أن نقول: إن هم أَمْوَاتٌ وهذا بنص القرآن، أما حياة الأنبياء عندكم فهي بالقياس وأمور الغيب ليس فيها قياس.

هَذَا مَعَ النَّهْيِ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ نَدْعُوهُ مَيْتًا ذَاكَ فِي الْقُرْآنِ

(١) [٢٩٠٢: ٢٩٠٣] قال العلامة محمد خليل هراس

على أن هذه المزية ثابتة أيضًا لبعض أتباع الأنبياء، وقد ثبت هذا بالمشاهدة فقد وجد بعضهم بعد موته زمان طويل سليمًا لم تنقص منه الأرض شيئًا ولم يسر فيه البل والتعفن، فانظر كيف انقلب هذا الدليل عليهم حرفًا بحرف، وصار الذي أرادوه حجة لهم حجة ظاهرة عليهم، وهكذا أهل الباطل دائمًا لا يأتون بدليل إلا كان فيه ما يفسد قولهم ويأتي على دعواهم من القواعد والله في خلقه شتون.

أي: مع ثبوت كونه حيًّا بالنص ثبت أيضًا ورود النهي المؤكد عن تسميته ميتًا ودليل ذلك من قوله: ﴿وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ هذا نهي ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا﴾ هذا نهي أيضًا إلا أنه أبلغ من الأول؛ لأن الأول نهي عن اللفظ والثاني نهي عن التقدير والظن.

وَنِسَاؤُهُ حَلٌّ لَنَا مِنْ بَعْدِهِ وَالْمَالُ مَقْسُومٌ عَلَى السَّهْمَانِ

أي: أن نساء الشهيد المقتول في سبيل الله حل لنا من بعده ولو كان حيًّا حياة دنيا كما تقولون لم تكن نساؤه حلًّا لنا بعد موته لم يقسم ماله ولم يحل الاعتداء عليه.

هَذَا وَأَنَّ الْأَرْضَ تَأْكُلُ لَحْمَهُ وَسَبَاعُهَا مَعَ أُمَّةِ الدِّيدَانِ

أي: أن الحي لا تأكله الأرض؛ لأنه على الأرض وليس في بطنها مأكولًا.

لَكِنَّهُ مَعَ ذَاكَ حَيٌّ فَارِخٌ مُسْتَبَشِرٌ بِكَرَامَةِ الرَّحْمَنِ

أي: أن الشهيد قد مات جسده ومع ذلك فهو فرح مستبشر بكرامة الرحمن.

كما قال الله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَاءِ آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، فهم أموات أجسامًا أحياء أرواحًا.

فَالرُّسُلُ أَوْلَى بِالْحَيَاةِ لَدَيْهِ مَعَ مَوْتِ الْجُسُومِ وَهَذِهِ الْأَبْدَانِ

أي: لما ثبت أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فعليه نقول: إن الرسل أولى بالحياة عند الله مع موت الجسوم من الشهداء.

وَهِيَ الطَّرِيقَةُ فِي التُّرَابِ وَأَكْلُهَا فَهَوَ الْحَرَامُ عَلَيْهِ بِالْبُرْهَانِ

أي: أن أجسامهم وأبدانهم - أعني الأنبياء - حرام على التراب أكلها؛ لأن الرسول ﷺ أمر بالإكثار عليه من الصلاة وأخبر عليه الصلاة والسلام أن الصلاة تُعرض عليه «قالوا - أي الصحابة - كيف تعرض عليك صلاتنا وقد أُرمت قال: إن الله قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»^(١)، ويحتمل أن التحريم هنا تحريم لغوي بمعنى المنع لا بمعنى التحريم الذي يترتب عليه التكليف؛ لأن التحريم الذي يترتب عليه التكليف بالنسبة للأرض منتفٍ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْتَ أَنْ

(١) صحيح: انظر صحيح الجامع (٢٢١٢).

يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿ [الأحزاب: ٧٢] وقال بعضهم: إنه يصح أن يوجه إليها التحريم والإيجاب وإن لم تكن مكلفة تكليفيًا تُعاقب بالمخالفة فيه بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آئِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ١١] فأثبت الله عز وجل لها طواعية وكرهية، ووجه إليها الخطاب.

وعلى كل حال المسألة في هذا لا تكاد تكون ذات أهمية جدًّا؛ لأن الجميع متفقون على أن تكليف الأرض والسموات ليس تكليفيًا يترتب عليه الثواب والعقاب؛ لأنها لن يخالفها أمر الله.

وَلِبَعْضِ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ يَكُونُ ذَا أَيْضًا وَقَدْ وَجَدُوهُ رَأْيَ عِيَانٍ

قوله: (ولبعض أتباع الرسول يكون ذا) يعنى: أن الأرض لا تأكل أجسادهم (وقد وجدوه رأى عيان) يعنى: رأوا هذا بالعيان فبعض الناس لا تأكلهم الأرض وهم ليسوا من الشهداء، وليسوا من الأنبياء لكن وهذه كرامة الله للإنسان بألا تأكله الأرض، وقد حدثني بعض الناس أنهم كانوا في هذا البلد - في عنيزة - يحفرون لسور البلد وأنهم مروا على قبر فلما انفتح القبر خرج منه رائحة مسك لا يوجد لها نظير - سبحان الله - ووجدوا شيخًا لم تأكله الأرض وقد خضبت لحيته بالحناء، وكان يابسًا كاللحم اليابس أما كفته فقد صار رمادًا فانبهروا منه وتوقفوا وجاءوا إلى الشيخ - وأظنه - عبد الله بن عبد الرحمن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لأنه كان قاضيًا في البلد يخبرونه فقال لهم: ردوا القبر على ما هو عليه وانحرفوا بالشق للسور يمينًا أو شمالًا ففعلوا وهذا شيء مما أشار إليه ابن القيم من وجد بالعيان أن من الناس من لا تأكله الأرض وهذه من كرامة الله سبحانه وتعالى للإنسان.

فَانظُرْ إِلَى قَلْبِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِمْ حَرْفًا بِحَرْفِ ظَاهِرِ التَّيَّانِ

أي: أن الدليل يقرب عليهم وصارت حياة الشهداء ليست كحياة الدنيا، والدليل على ذلك كما قلنا: إن ما لهم قُسم ونساء هم نكحت وأحلت، والديدان أكلت أجسادهم، فكيف تكون حياتهم كحياة الدنيا إذن فالذي استدللتم به وجعلتموه أصلًا - وهو حياة الشهداء - صار عليكم فلم يكونوا أحياء حياة دنيوية، كذلك حياة الأنبياء التي لن تكون حياة دنيوية لأنكم قلتم: إن حياة الأنبياء فرع عن حياة الشهداء؛ لأنه من باب قياس الأولى، ومعلوم أن المقيس فرع عن المقيس عليه، فنقول لهم: إن حياة الشهداء هي حياة موت والدليل على ذلك: نكاح نساءهم من بعدهم، واعتدادهن وتقسيم أموالهم، وأكل الأرض لأجسادهم

وكل هذا منتفٍ عنهم في الحياة الدنيا - فإذا ن يكون موت الأنبياء حقيقة كما أن موت الشهداء حقيقة وتكون حياة الأنبياء حياة برزخية وليست حياة دنيا كما أن حياة الشهداء حياة برزخية وليست حياة دنيا فانقلب الدليل عليهم الآن بما أنهم احتجوا بأن نساء الرسول صلى الله عليه وسلم حرام من بعده، وهذا يدل على أنه حي وإلا لكان نساؤه حلالاً لنا من بعده.

مسألة: ما الفرق بين ميت ومات؟

الجواب: الصحيح أنه لا فرق بينهما، وبعض العلماء قال: إن الميت هو الذي قد مات فعلاً، والميت الذي سيموت.

واستدلوا بقوله تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] أي ستموت وأما بقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وهذا هو الذي حصل له الموت فعلاً والظاهر الصحيح أنه لا فرق بينهما.

مسألة: الحيوانات غير مكلفة ومع ذلك يوم القيامة يقتص الله سبحانه وتعالى منهم لماذا؟

الجواب: هذا لبيان كمال عدل الله عز وجل فقط، ولهذا لا تعذب فيقتص لبعضها من بعض فيقال للجلحاء انطحي القرناء فتنطحها ثم يقول لمن كنَّ تراباً فلا ثواب ولا عقاب.

مسألة: نهانا الله أن نقول للشهداء أموالاً وأيضاً ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم فما الذي يترتب على ذلك؟

الجواب: الذي قتل في سبيل الله يقع عليه عدة أحكام يجب أن نطبقها عليه ألا نغسله وألا نكفنه وألا نصلي عليه وندفنه في مصرعه ولا نقول: إنه ميت بل نقول شهيداً وذلك باعتبار الدنيا وليس باعتبار الآخرة؛ لأننا لا ندري أقبلت منه أو لا فالله أعلم، ولأن الرسول ﷺ قال: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ»^(١).



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٢٩٠٤- لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ خُصَّ نِسَاؤُهُ

بِخُصِيصَةٍ عَنِ سَائِرِ النَّسْوَانِ

(١) رواه البخاري (٢٨٠٣)، ومسلم (١٨٧٦).

٢٩٠٥- خَيْرَ بَيْنَ رَسُولِهِ وَسِوَاهُ فَآخِ

تَرَنَّ الرَّسُولَ لِصِحَّةِ الْإِيمَانِ

٢٩٠٦- شَكَرَ الْإِلَهَ لَهُنَّ ذَاكَ وَرَبُّنَا

سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ ذُو شُكْرَانِ

٢٩٠٧- قَصِرَ الرَّسُولُ عَلَى أَوْلِيكَ رَحْمَةً

مِنْهُ بِهِنَّ وَشَكَرَ ذِي الْإِحْسَانِ

٢٩٠٨- وَكَذَلِكَ أَيْضًا قَصَرَهُنَّ عَلَيْهِ مَعَ

لُومٍ بِلَا شَكِّ وَلَا حُسْبَانِ

٢٩٠٩- زَوْجَاتُهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الْ

آخِرَى يَقِينًا وَاضِحَ الْبُرْهَانِ

٢٩١٠- فَلِذَا حَزَمْنَ عَلَى سِوَاهُ بَعْدَهُ

إِذْ ذَاكَ صَوْنًا عَنِ فِرَاشِ ثَانِ

٢٩١١- لَكِنَّ أَتَيْنَ بَعْدَهُ شَرْعِيَّةً

فِيهَا الْجِدَادُ وَمَلَزَمُ الْأَوْطَانِ^(١)

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فِي الْإِجَابَةِ عَلَى اسْتِدْلَالِهِمْ: بَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيٌّ فِي قَبْرِهِ وَدَلِيلُهُ أَنَّ نِسَاءَهُ حَرَامٌ عَلَى مَنْ بَعْدَهُ ثُمَّ يَقُولُ رَحِمَهُ اللهُ.

لَكِنَّ رَسُولَ اللهِ خُصَّ نِسَاءُهُ بِخَصِيصَةٍ عَنِ سَائِرِ النِّسْوَانِ

خَيْرَ بَيْنَ رَسُولِهِ وَسِوَاهُ فَآخِ تَرَنَّ الرَّسُولَ لِصِحَّةِ الْإِيمَانِ

و هَذَا بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّمُوا النَّبِيَّ قُلَّ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أَمْتَعْتَكُمْ وَأَسْرَحْتَكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨] أَي أَنَّهُمْ لَوْ اخْتَرْنَا الدُّنْيَا فَإِنَّ

(١) [تعقيب] قال العلامة محمد خليل هراس:

فأين في هذا ما يدل أو يصح أن يكون شبه دليل على حياته ﷺ في قبره.

الرسول ﷺ لن يغضب عليهن، وهذا للطف الله بالمرأة إذا اختارت الدنيا تمتع وترح سراحا جميلا ولا توبخ وقيل لهن ذلك؛ لأن المرأة ناقصة عقل ودين ربما تنخدع وتختار الدنيا على الرسول ومع ذلك لم يقابلهم الرسول بمقتضى عقلهم بل قابلهم بالحسنى فقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى أُمْتَعُكَ وَأَسْرَحُكَ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ ﴿أَمَا لَوْ زَوْجَةٌ أَحَدُنَا وَقِيلَ لَهَا ذَلِكَ قَالَتْ: أَنَا مَا أَبْغَيْكَ أَنَا أُرِيدُ غَيْرَكَ هَلْ يَقَابِلُهَا بِالْإِكْرَامِ وَالتَّمْتِيعِ وَالسَّرَاحِ الْجَمِيلِ؟ أَبَدًا بَلْ يَقَابِلُهَا بِعَكْسِ ذَلِكَ لَكِن لِكَمَالِ خَلْقِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ لَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَتَعَالَى أُمْتَعُكَ وَأَسْرَحُكَ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ وَفِي الْمَقَابِلِ قَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِنْ كُنْتَن تَرُدْتَن اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٦] يَعْنِي: فَاتْنِ مَحْسِنَاتٍ وَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمَحْسِنَاتِ مِنْكُنْ أَجْرًا عَظِيمًا وَبَدَأُ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ ذَلِكَ بِعَائِشَةَ وَهِيَ أَحَبُّ النِّسَاءِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ امْتِثَالَ أَمْرِ اللَّهِ فَقَدِمَ مَا يَرْضِي اللَّهَ عَلَى مَا تَهَوَّاهُ نَفْسُهُ مِنْ أَنَّ عَائِشَةَ أَحَبُّ النِّسَاءِ إِلَيْهِ وَكَانَ مَقْتَضَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ يَبْدَأَ بِالنِّسَاءِ الْآخِرِيَّاتِ لَكِنَهُ بَدَأَ بِعَائِشَةَ لِتَكُونَ مَقْيَاسًا وَقَالَ لَهَا لَمَّا خَيْرَهَا «مَا عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَأْمِرِي أَبُوبِكَ» يَعْنِي لَكَ الْحَقُّ أَنْ تَشَاوِرِي أَبُوبِكَ فِي هَذَا فَقَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفِي هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبِي؟ وَاللَّهِ لَا أُرِيدُ إِلَّا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ» (١) وَكَانَ هَذَا أَيْضًا جَوَابَ نِسَاءِ الْآخِرِيَّاتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ فَلَمَّا حَصَلَ مِنْهُنَّ هَذَا الْأَمْرُ شَكَرَ اللَّهُ لَهَا وَقَالَ اللَّهُ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءَ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٢] فَمَنْعَهُ اللَّهُ مِنْ نِكَاحِ نِسَاءٍ عَلَيْهِنَّ وَمَنْعَهُ أَنْ يَطْلُقَهُنَّ وَأَنْ يَتَزَوَّجَ غَيْرَهُنَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

شَكَرَ الْإِلَهَ لَهُنَّ ذَاكَ وَرَبُّنَا سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ ذُو شُكْرَانٍ

قوله: (فالله للعبد ذو شكران) الله عز وجل أعظم شكرًا منّا، «فمن تقرب إليه شبرًا تقرب إليه ذراعًا ومن تقرب إليه ذراعًا تقرب إليه باعًا ومن أتاه يمشى أتاه هرولة»، فالله سبحانه وتعالى يشكر العبد أكثر مما يشكر العبد ربه ولهذا قال ﷻ:

شَكَرَ الْإِلَهَ لَهُنَّ ذَاكَ وَرَبُّنَا سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ ذُو شُكْرَانٍ

قَصُرُ الرُّسُولِ (٢) عَلَى أَوْلَيْكَ رَحْمَةً مِنْهُ بِهِنَّ (١) وَشُكْرَ ذِي الْإِحْسَانِ

(١) رواه البخاري (٤٧٨٦)، ومسلم (١٤٧٥).

(٢) «قصر الرسول على أولئك»: أي: إنه لا يتزوج سواهن ولا يستبدل بهن.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا قَضَرُهُنَّ عَلَيْهِ مَعَهُ لَوْمٌ بِبِلَا شِكِّ وَلَا حُسْبَانٍ

قوله: (وكذلك أيضًا قَضَرُهُنَّ عَلَيْهِ معلومٌ) أي: إنهن قُصِرْنَ عليه فلا يتزوجن بعده، وهذا معلوم، لذلك قال المؤلف: (بلا شكٌ ولا حسبان) وهو معلوم من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فصار الرسول مقصورًا عليهن، وهنَّ مقصوراتٌ عليه.

زَوَجَاتُهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ يَقِينًا وَاضِحَ الْبُرْهَانِ

فهنَّ زوجاته في الدنيا، وزوجاته في الآخرة، هنيئًا لهنَّ، ولهذا لما خافت سودة بنت زمعة رضي الله عنها أن يُطَلِّقَهَا الرَّسُولَ ﷺ وَتَحْرِمَ مِنْ هَذِهِ الْخَصِيصَةِ وَهَبَتْ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ (٢)، فصار الرسول يقسيم لثمان، بدل ما كان يقسيم لتسع.

فَلِذَا حَرَمَ مِنْ عَلَيَّ سِوَاهُ بَعْدَهُ إِذْ ذَاكَ صَوْنًا عَنْ فِرَاشِ ثَانٍ

أي: أن نساءه رضي الله عنهن حرمن أن يتزوجن من بعده لثلاثا يَكُنَّ فِرَاشًا لغيره رضي الله عنه، هذه الخصيصة لا، لأنه حيٌّ، ولكن لأن الله شكر لهنَّ فخصَّهنَّ بهذه الخصيصة، ولذلك كانت زوجات الشهداء حلالًا مع أنهم أحياء، والدليل على أنهم - أي: زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام - انفصلن عنه، وحُكِمَ بموته رضي الله عنه.

لَكِنْ أَتَيْنَ بَعْدَهُ شَرِيعَةً فِيهَا الْحِدَادُ وَمَلَزَمَ الْأَوْطَانَ

قوله: (لكن أتَيْنَ بَعْدَهُ شَرِيعَةً) أي: بعد موته اعتدَدن أربعة أشهر وعشرة أيام، أما قوله: (فيها الحداد وملزم الأوطان) يعني: لزوم البيت؛ لأن المرأة المُحَادَّةَ يجب عليها أمور: أولاً: ألا تخرج من البيت إلا لضرورة، كما لو تصدَّع وخيف أن يسقط عليها، أو استعرت فيه النار، أو جاءت أمطار يُحْسَى من سُقُوطها عليها، أو ما أشبه ذلك، المهم ضرورة.

الثاني: ألا تلبس الجميل من الثياب، حتى لا تكون مُتَزَيِّنَةً، ولا يلزمها أن تلزم لوتًا واحدًا، كما يقول العوام أنه لا بدَّ أن تلبس ثوبًا أخضر، أو ثوبًا أسود، المهم ألا تلبس ثوبًا يُعَدُّ تَجْمِيلًا.

الثالث: ألا تلبس الحُلِيِّ بجميع أنواعها، في اليد، أو في الرَّجْلِ، أو في الأذن، أو في الرأس، أو في النحر بجميع أجزائه.

(١) منه: أي من الله، بهن: أي بالزوجات.

(٢) رواه البخاري (٢٥٩٤)، ومسلم (٢٤٤٥).

الرابع: ألا تتطيَّب بجميع أنواع الطَّيِّب، لا بخورًا ولا دُهْنًا، إلَّا أنَّ الشارع رَخَّصَ لها أن تتطيَّب من الأظفار، بالعود المعروف إذا طُهِّرَتْ من الحَيْضِ إزالةً للثَّنِّ الذي يكون بسبب الحَيْضِ؛ لأن هذه حاجة.

الخامس: ألا تتزيَّن بوجهها أو يديها، أو أي شيء من أجزائها، فلا تكتحل، ولا تُحمَّر الشِّفاه، ولا تتحنَّى، ولا تتخضب.

وهذه خمسة أمور يجب على المعتدة مراعاتها عند خروجها، وأما ما يزعُمه العوام من أنها لا تخرج ليلاً حتى لا تُقابل القمر وقت الإِدبار، وحُجَّتُهُمْ في ذلك: أن القمر رجل، ولا يجوز للمرأة أن تكشف عند الرجال، أما الشمس فإنها أنثى، ولهذا يجوز أن تظهر في النهار ويقول العامة أيضًا: إنه لا يجوز أن تصعد إلى السطح، أو تخرج إلى الحوش، ويقولون: لا يجوز أن تُكلِّم أحدًا، كل هذا ليس له أصل، وليس بصحيح. المهم: أن الإحداد يجب فيه هذه الأمور الخمسة التي ذكرناها.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٢٩١٢- هَذَا وَرَوَيْتُهُ الْكَلِيمَ مُصَلِّيًا

فِي قَبْرِهِ أَثَرَ عَظِيمِ الشَّانِ

٢٩١٣- فِي الْقَلْبِ مِنْهُ حُسَيْكَةٌ هَلْ قَالَهُ

فَالْحَقُّ مَا قَدْ قَالَهُ ذُو الْبُرْهَانِ

٢٩١٤- وَلِذَاكَ أَعْرَضَ فِي الصَّحِيحِ مُحَمَّدٌ

عَنْهُ عَلَى عَمْدٍ بِلَا نِسْيَانِ

٢٩١٥- وَالِدَارُ قُطْنِي الْإِمَامِ أَعْلَاهُ

بِرَوَايَةٍ مَعْلُومَةِ التَّبَيَّانِ

٢٩١٦- أَنْسَ يَقُولُ رَأَى الْكَلِيمَ مُصَلِّيًا

فِي قَبْرِهِ فَاعْجَبَ لِذَا الْفَرْقَانِ

- ٢٩١٧- فَرَوَاهُ مَوْفُوقًا عَلَيْهِ وَلَيْسَ بِأَلِ
 مَرْفُوعٍ وَأَشَوْقًا إِلَى الْعِرْفَانِ
- ٢٩١٨- بَيْنَ السِّيَاقِ إِلَى السِّيَاقِ تَفَاوُتٌ
 لَا تَطْرُقُهُ فَمَا هُمَا سَيَّانِ
- ٢٩١٩- لَكِنْ تَقَلِّدُ مُسْلِمًا وَسَوَاهُ مِمَّ
 مَن صَحَّ هَذَا عِنْدَهُ بَيَّانِ
- ٢٩٢٠- فَرَوَاتُهُ الْأَثْبَاتُ أَعْلَامُ الْهُدَى
 حُقَاطُ هَذَا الدِّينِ فِي الْأَزْمَانِ
- ٢٩٢١- لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مُخْتَصًّا بِهِ
 وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ وَذُو إِحْسَانِ
- ٢٩٢٢- فَرَوَى ابْنُ حَبَّانَ الصَّدُوقُ وَغَيْرُهُ
 خَبْرًا صَاحِحًا عِنْدَهُ ذَا شَانِ
- ٢٩٢٣- فِيهِ صَلَاةُ الْعَصْرِ فِي قَبْرِ الَّذِي
 قَدِمَاتٌ وَهُوَ مُحَقِّقُ الْإِيمَانِ
- ٢٩٢٤- فَتَمَثَّلُ الشَّمْسُ الَّذِي قَدْ كَانَ يَزِ
 عَاهَا لِأَجْلِ صَلَاةِ ذِي الْقَرْبَانِ
- ٢٩٢٥- عِنْدَ الْغُرُوبِ يَخَافُ فَوْتَ صَلَاتِهِ
 فَيَقُولُ لِلْمَلَكَيْنِ هَلْ تَدْعَانِي
- ٢٩٢٦- حَتَّى أَصْلِي الْعَصْرَ قَبْلَ فَوَاتِهَا
 قَالَا سَتَفْعَلُ ذَلِكَ بَعْدَ الْآنِ
- ٢٩٢٧- هَذَا مَعَ الْمَوْتِ الْمُحَقِّقِ لِأَنَّ الَّذِي

حُكَيْتْ لَنَا بِثُبُوتِهِ الْقَوْلَانِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

سبق أن الذين قالوا بحياة النبي ﷺ؛ بل بحياة الأنبياء في قبورهم، استدلوا بأن النبي ﷺ رأى موسى يُصَلِّي في قبره (١)، فتكلم المؤلف رَحِمَهُ اللهُ على هذا الحديث، فقال:

هَذَا وَرُؤْيُئِهِ الْكَلِيمِ مُصَلِّيًّا فِي قَبْرِهِ أَثَرٌ عَظِيمُ الشَّانِ

فِي الْقَلْبِ مِنْهُ حُسْبِيَّةٌ هَلْ قَالَه فَالْحَقُّ مَا قَدْ قَالَه ذُو الْبُرْهَانِ

قوله: (حُسْبِيَّةٌ): تصغير حَسَكَة، والحَسَكُ في الأصل نوعٌ من الشجر له شوكٌ، فالمعنى: أن القلب لا يرتاح لهذا الحديث الذي رواه مسلم من أن النبي ﷺ رأى موسى يُصَلِّي في قبره.

أما قوله: (فالحق ما قد قال ذو البرهان) يعني: فإن كان قد قاله ﷺ فهو حقٌّ، ولا عبرة بما في القلب؛ لأن الإنسان يجب أن يتقاد انقيادًا تامًّا لما جاء في كتاب الله، ولما صحَّ عن رسول الله ﷺ، وألا يتردَّد في تنفيذه إن كان حُكْمًا، ولا في قبوله إن كان خبرًا، ثم استدلَّ المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بما في قلبه عن هذا الأثر، فقال:

وَلِذَلِكَ أَعْرَضَ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ عَلَى عَمْدٍ بِإِلَاحِ نَسِيَانِ

قوله: (ولذلك أعرض في الصحيح) محمدٌ) محمد: هو محمد بن إسماعيل البخاري، والمعنى: أن هذا الحديث مما انفرد به مسلم، والبخاري أعرَضَ عنه، (وأعرَضَ عنه) أي: ليس ناسيًّا له، ولكن كأنه رَحِمَهُ اللهُ لم يكن على شرطه، فلذلك أعرَضَ عنه، فجعل المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هذا عِلَّةً في الحديث، والحقيقة أن هذا ليس بعِلَّة؛ لأن كون البخاري لم يرو الحديث ويرويه مسلم لا يدل على أن الحديث ضعيفٌ، فكم من أحاديث كثيرة أعرَضَ عنها البخاري رَحِمَهُ اللهُ، ولكنَّ غيره صحَّحها، أمَّا العلة الحقيقية للحديث ظاهرة في قول المؤلف في قوله:

وَالدَّارُ قُطْنِيَّ الْإِمَامِ أَعْلَاهُ بِرِوَايَةِ مَعْلُومَةِ التَّيَّانِ

أَنْسُ يَقُولُ رَأَى الْكَلِيمِ مُصَلِّيًّا فِي قَبْرِهِ فَاعْجَبَ لِذَا الْفَرْقَانِ



وقد أعلّه الدارقطني بالوقف؛ أن أنسا هو الذي قال: إن الرسول عليه الصلاة والسلام رأى موسى يُصلي في قبره، فيكون منتهى الحديث صحابي، وما كان منتهياً إلى الصحابي فإنه يكون موقوفاً، وعندني أن هذا ليس بعلة أيضاً؛ لأن هذا من أمور الغيب التي لا يمكن أن تُقال بالرأي، وأنس رضي الله عنه ليس ممن عُرِفوا بالأخذ عن بني إسرائيل حتى نشك فيما أخبر به من هذه الأمور.

وقد نصَّ المحققون من أهل العلم في الحديث: «أن الصحابي إذا قال قولاً ليس للرأي فيه مجال، فله حكم الرفع إلا أن يكون هذا القائل ممن عُرِف بالأخذ عن بني إسرائيل، فحينئذ لا يُحكّم لقوله بالرفع لاحتمال أنه أخذه عن بني إسرائيل».

ولهذا قال المؤلف رحمته الله (فاعجب لذا الفرقان): أي: لهذا الفرقان، فذا هنا ليست من الأسماء الخمسة؛ بل هي اسم إشارة، فالمعنى: لهذا الفرقان.

فَرَوَاهُ مَوْقُوفًا عَلَيْهِ وَلَيْسَ بِالْمَرْفُوعِ وَاشْتَوْقًا إِلَى الْعِرْفَانِ

وقوله: (واشوقاً إلى العرفان) إذا كان ابن القيم يقول: (واشوقاً إلى العرفان) فما بالنا نحن؟ اللهم اغفر لنا وله لكن واعجباً أن تفوت ابن القيم هذه المسألة؛ لأننا نقول: وإن كان موقوفاً على أنس، فإنه في حكم الرفع، أن من المعروف عند علماء الحديث أنه إذا تعارض الوقف والرفع، وكلٌّ من الواقف والرافع ثقة، فالمُتقدِّم الرافع؛ لأن معه زيادة علم، ولأن الإنسان قد يرفع الحديث إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في مجلس من المجالس، ثم يُحدِّث به من غير رفع في مجلس آخر، فيسمعه في المجلس الأول أناس، ويروونه عنه مرفوعاً، ويسمعه في المجلس الثاني أناس ويروونه عنه موقوفاً، وذلك مثل أن يروي أحد حديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» بسندٍ إلى عمر بن الخطاب، ثم رواه أحد في مجلس من المجالس بسندٍ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فالذي سمعه في المجلس الأول: سيرويه مرفوعاً، والثاني: سيرويه موقوفاً؛ وهذا يقع دائماً فإذا كان الروايين ثقة.

ومع تعارض الرفع والوقف، يُقدِّم الرافع لسببين:

السبب الأول: أن معه زيادة علم.

والسبب الثاني: أن الراوي للحديث المرفوع قد يُحدِّث به غير معزوٍّ إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في بعض المجالس، فيرويه عنه أحد دون عزوه إلى الرسول عليه الصلاة

والسلام، وهذا لا ينفي أن يكون مرفوعاً.

بَيْنَ السِّيَاقِ إِلَى السِّيَاقِ تَفَاوُتٌ لَا تَطْرَحُهُ فَمَا هُمَا سَيَّانٍ

قوله: (بين السياق إلى السياق تفاوت) يعني: بين السياق وبين السياق الآخر تفاوت، «فإلى» هنا بمعنى بين؛ يعني: بين السياق والسياق الآخر تفاوت لا تطرحه أو في رواية [تطرحه] فما هما سيان.

لَكِنْ تَقَلَّدُ مُسْلِمًا وَسِوَاهُ مِنْ مَنْ صَحَّ هَذَا عِنْدَهُ بَيَّانٍ

فَرَوَاتُهُ الْأَثْبَاتُ أَعْلَامُ الْهُدَى حُفَاطُ هَذَا الدِّينِ فِي الْأَزْمَانِ

المعنى: أن من قلّد مسلماً في هذا الحديث، وصحّحه، وأخذ به فليس بملوم. فكان المؤلف رَضِيَ اللهُ بِهِ بعد أن ألقى الشكّ على هذا الحديث رجع، ويبيّن أن من قلّد الإمام مسلم في تصحيحه فقد سلك مسلماً صحيحاً؛ لأن رواته أثبات ثقات أعلام، فلا حرج علينا أن نُقلّده، والعلة التي أشار إليها الدارقطني تبيّن لكم أنها ليست بعلة، ولكن يقول المؤلف:

لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مُخْتَصَّصًا بِهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ وَذُو إِحْسَانٍ

يعني: كون الإنسان يُصلي في القبر ليس مُختصّاً به بموسى؛ بل قد يكون لغيره.

فَرَوَى ابْنُ حِبَّانَ الصَّدُوقُ خَبَرًا صَحِيحًا عِنْدَهُ ذَا شَأْنٍ

فِيهِ صَلَاةُ الْعَصْرِ فِي قَبْرِ الَّذِي قَد مَاتَ وَهُوَ مُحَقِّقُ الْإِيمَانِ

عَاهَا لِأَجْلِ صَلَاةِ ذِي الْقُرْبَانِ فَيَقُولُ لِلْمَلَكَيْنِ هَلْ تَدْعَانِي

عِنْدَ الْغُرُوبِ يَخَافُ فَوْتِ حَتَّى أَصَلِّيَ الْعَصْرَ قَبْلَ فَوَاتِهَا

قَالَا سَتَفْعَلُ ذَلِكَ بَعْدَ الْآنِ

هذا ورد في حديث أن الميت إذا دُفن وأتاه الملكان، فإن الشمس تُمثّل له وكأنها عند الغروب، وقوله: (مُحَقِّقُ الْإِيمَانِ)، أي: المؤمن إيماناً حقيقياً، تُمثّل له الشمس عند الغروب، كأنها تريد أن تغرب، فإذا أتاه الملكان يقول: دعاني حتى أصليّ العصر قبل أن تغرب الشمس، فهذا رجل بسيط وليس رسولاً، ويريد أن يُصليّ في قبره، فيقول له الملكان اللذان يأتيانه في قبره يسألانه عن ربّه ودينه ونبيّه: إنك ستفعل «بعد الآن»؛ يعني: ستصليّ بعد السؤال فصارت الصلاة الآن في القبر حتى لغير الأنبياء.

الشاهد منه قوله: (كان يرعاها لأجل صلاة ذي القربان)؛ لأن الأولون كانوا قد يجدون مشقة في مراعاة الشمس، عند الزوال، وإذا صار ظل كل شيء مثله، وعند مغيب الشفق، وعند طلوع الفجر، لكن نحن - والله الحمد - الآن بما أنعم الله علينا صار مراعاة الأوقات سهلاً علينا.

هَذَا مَعَ الْمَوْتِ الْمُحَقَّقِ لَا حُكَيْتَ لَنَا بِثُبُوتِهِ الْقَوْلَانِ

يعني: مع أن هذا الرجل قد مات موتاً مُحَقَّقاً وهو ليس شهيداً حتى نقول: إنه حي، وليس نبياً حتى نقول: إنه حي، ومع ذلك فإنه يُصَلِّي العصر، إذن فصلاة العصر التي جاءت من موسى لا تدلُّ على أنه حي، كما زعم هؤلاء.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٢٩٢٨- هَذَا وَثَابِتُ الْبُنَائِي قَدْ دَعَا الزُّ

رَحْمَنَ دَعْوَةَ صَادِقِ الْإِيْقَانِ

٢٩٢٩- أَنْ لَا يَزَالَ مُصَلِّياً فِي قَبْرِهِ

إِنْ كَانَ أُعْطِيَ ذَاكَ مِنْ إِنْسَانِ

٢٩٣٠- لَكِنَّ رُؤْيَيْتَهُ لِمُوسَى لَيْلَةَ الْ

مِعْرَاجِ فَوْقَ جَمِيعِ ذِي الْأَكْوَانِ

٢٩٣١- يَرُويهِ أَصْحَابُ الصِّحَاحِ جَمِيعُهُمْ

وَالْقَطْعُ مُوجِبُهُ بِلَا نُكْرَانَ

٢٩٣٢- وَلِذَلِكَ ظَنَّ مُعَارِضاً لِصَلَاتِهِ

فِي قَبْرِهِ إِذْ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

٢٩٣٣- وَأَجِيبَ عَنْهُ بِأَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ

لِيَرَاهُ ثُمَّ مُشَاهِداً بِعِيَانِ

٢٩٣٤ - فَرَأَهُ ثُمَّ وَفِي الضَّرِيحِ وَلَيْسَ ذَا

بِتَنَاقُضٍ إِذْ أَمَكَّنَ الْوَقْتَانَ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ذكر أن ثابتاً البُناني رَحِمَهُ اللهُ قد دعا الرحمن دعوة «ألا يزال مُصَلِّياً»؛ لأنه رَحِمَهُ اللهُ كان كثير الصلاة، وكانت قد ملكت قلبه، وجعلها الله قُرَّةَ عينه، فسأل الله إذا مات أن يجعله مُصَلِّياً في قبره، والله أعلم هل أجاب الله دعوته أم لا؟ لكن الرجل لم يسأل شيئاً مُحالاً؛ لأنه لو كان هذا شيئاً مُحالاً لكان سؤاله الله عُذواناً؛ لأن الإنسان لا يجوز أن يسأل الله الشيء المُحال.

أَنْ لَا يَزَالَ مُصَلِّياً فِي قَبْرِهِ إِنْ كَانَ أُعْطِيَ ذَلِكَ مِنْ إِنْسَانٍ

يعني: أنه سأل الله فكان يقول: اللهم إن جعلت أحداً يُصَلِّي في قبره، فاجعلني مُصَلِّياً في قبري، والله أعلم، ثم أورد المؤلف إشكالاً على الحديث الذي رواه مسلم من أن النبي رَحِمَهُ اللهُ رأى موسى يُصَلِّي في قبره، وهو إشكال في الحقيقة قد يُقال: إنه أولى بتعليل الحديث مما ذكره المؤلف سابقاً، وذلك رُوي موقوفاً، ثم كيف يراه يُصَلِّي في قبره، ثم يراه في السماء السادسة في ليلةٍ واحدةٍ، هذا شيءٌ مُستحيلٌ كما قال المؤلف (والقطع موجه بلا نكران) يعني: أن هذا يُوجِبُ القطع.

لكن أجاب عنه ابن القيم، فقال:

وَأَجِيبَ عَنْهُ بِأَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ لِيَرَاهُ ثُمَّ مُشَاهِداً بَعِيَانٍ

يعني: أن الله أسرى بِمُحَمَّدٍ ليرى موسى، وهما متلازمان، لكن رآه في الأرض في قبره يُصَلِّي، ورآه في السماء السادسة، ولا تعارض، ولهذا قال:

فَرَأَهُ ثُمَّ وَفِي الضَّرِيحِ وَلَيْسَ ذَا بِتَنَاقُضٍ إِذْ أَمَكَّنَ الْوَقْتَانَ

الضريح يعني: القبر.

وهو لم ير موسى في آنٍ واحدٍ في القبر ورآه في السماء السادسة، لأن الليل طويل، وما دام الوقتان مختلفين فإنه يمكن أن يراه ثانياً في السماء باختلاف الوقتين.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٢٩٣٥- هَذَا وَرَدُّ نَبِينَا لِسَلامٍ مَنْ

يَأْتِي بِتَسْلِيمٍ مَعَ الْإِحْسَانِ

٢٩٣٦- مَا ذَلِكَ مُخْتَصًّا بِهِ أَيْضًا كَمَا

قَدْ قَالَهُ الْمَبْعُوثُ بِالْفُرْقَانِ

٢٩٣٧- مَنْ زَارَ قَبْرَ أَخٍ لَهُ فَاتَى بِتَسْمِ

لِيمٍ عَلَيْهِ وَهُوَ ذُو إِيمَانٍ

٢٩٣٨- رَدَّ إِلَيْهِ حَقًّا رُوحَهُ

حَتَّى يَرُدَّ عَلَيْهِ رَدًّا بَيَّانًا

٢٩٣٩- وَحَدِيثُ ذِكْرِ حَيَاتِهِمْ بِقُبُورِهِمْ

لَمَّا يَصْحُحُ وَظَاهِرُ النُّكْرَانِ

٢٩٤٠- فَاَنْظُرْ إِلَى الْإِسْنَادِ تَعْرِفْ حَالَهُ

إِنْ كُنْتَ ذَا عِلْمٍ بِهَذَا الشَّانِ^(١)

(١) [٢٩٣٥: ٢٩٤٤] قال العلامة محمد خليل هراس:

وأما احتجاج القائلين بحياته ﷺ في قبره برده السلام على من يُسلم عليه من أمته فهو إن صح حجة عليهم، فقد جاء في الحديث «ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحي فأرد عليه السلام» فقولته إلا رد الله عليّ روحي يدل على أن روحه لم تكن في بدنه، فلم يكن حينئذٍ حيًّا، ويدل أيضًا على أن رد الروح إليه إنما هو بقدر ما يرد السلام فقط على من يسلم عليه، على أن ذلك ليس مختصًّا به ﷺ، بل ورد في مُسند أحمد وغيره أنه ما من رجل يزور قبر رجل كان يعرفه في الدنيا فيُسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام، وإذا انتهى اختصاصه عليه السلام بذلك، وكان ثابتًا في حق غيره ممن هو مقطوع بموته لم يصلح حينئذٍ أن يكون دليلًا على حياته.

وأما الحديث الذي ذكر فيه حياة الأنبياء في قبورهم ولفظه «ما من نبي يموت فيقيم في قبره إلا أربعين صباحًا حتى يرد إليه روحه» فقد رواه ابن حبان عن أنس مرفوعًا وقال عنه أنه باطل، كما ذكره أبو الفرج ابن الجوزي في الموضوعات وقد أخرجه أيضًا الطبراني وأبو نعيم في الحلية، ورواه البيهقي في «كتاب حياة الأنبياء»، وروى له عدة شواهد، ولم يصح من ذلك كله شيء، ومن نظر إلى إسنادها، وكان ذا علم بأحوال الأسانيد والرجال

٢٩٤١- هَذَا وَنَحْنُ نَقُولُ هُمْ أَحْيَاءُ لَ

كِنْ عِنْدَنَا كَحَيَاةِ ذِي الْأَبْدَانِ

٢٩٤٢- وَالتُّرْبُ تَحْتَهُمْ وَفَوْقَ رُؤُوسِهِمْ

وَعَنِ الشَّمَائِلِ ثُمَّ عَنِ أَيْمَانِ

٢٩٤٣- مِثْلَ الَّذِي قَدْ قُلْتُمُوهُ مَعَاذَنَا

بِاللَّهِ مِنْ إِفْكِ وَمِنْ بُهْتَانِ

٢٩٤٤- بَلْ عِنْدَ رَبِّهِمْ تَعَالَى مِثْلَ مَا

قَدْ قَالَ فِي الشُّهَدَاءِ فِي الْقُرْآنِ

٢٩٤٥- لَكِنْ حَيَاتُهُمْ أَجَلٌ وَحَالُهُمْ

أَعْلَى وَأَكْمَلُ عِنْدِ ذِي الْإِحْسَانِ

٢٩٤٦- هَذَا وَأَمَّا عَرَضُ أَعْمَالِ الْعِبَا

دِ عَلَيْهِ فَهُوَ الْحَقُّ ذُو إِمْكَانِ

٢٩٤٧- وَأَتَى بِهِ أَثْرٌ فَإِنْ صَحَّ الْحَدِيدُ

ثُ بِهِ فَحَقُّ لَيْسَ ذَا نُكْرَانِ

٢٩٤٨- لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مُخْتَصًّا بِهِ

أَيْضًا بِأَثَارِ رُوبَيْنَ حِسَانِ

٢٩٤٩- فَعَلَى أَبِي الْإِنْسَانِ يُعْرَضُ سَعْيُهُ

وَعَلَى أَقَارِبِهِ مَعَ الْإِخْوَانِ

٢٩٥٠- إِنْ كَانَ سَعْيًا صَالِحًا فَرِحُوا بِهِ

وَاسْتَبَشَرُوا يَا لَدَّةَ الْفُرْحَانِ

٢٩٥١- أَوْ كَانَ سَعِيًّا سَيِّئًا حَزِنُوا وَقَا

لُوا رَبِّ رَاجِعُهُ إِلَى الْإِحْسَانِ

٢٩٥٢- وَلِذَا اسْتَعَاذَ مِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ رَوَى

هَذَا الْحَدِيثَ عَقِيْبَهُ بِلِسَانِ

٢٩٥٣- يَا رَبِّ إِنِّي عَائِدٌ مِنْ خِزْيَةٍ

أَخْرَى بِهَا عِنْدَ الْقَرِيبِ الدَّانِي

٢٩٥٤- ذَلِكَ الشَّهيدُ الْمُرْتَضَى ابْنُ رَوَاحَةَ أَلْ

مَخْبُوبٌ بِالْغُفْرَانِ وَالرِّضْوَانِ

٢٩٥٥- لَكِنَّ هَذَا ذُو اخْتِصَاصٍ وَالَّذِي

لِلْمُضْطَفَى مَا يَعْمَلُ الثَّقَلَانِ^(١)

٢٩٥٦- هَذِي نَهَايَاتٌ لِإِقْدَامِ الْوَرَى

فِي ذَا الْمَقَامِ الصَّنِكِ صَعْبِ الشَّانِ

٢٩٥٧- وَالْحَقُّ فِيهِ لَيْسَ تَحْمِلُهُ عُقُو

لُ بِنِي الزَّمَانِ لِغِلْظَةِ الْأَذْهَانِ

٢٩٥٨- وَلِجَهْلِهِمْ بِالرُّوحِ مَعَ أَحْكَامِهَا

وَصِفَاتِهَا لِلْإِلْفِ بِالْأَبْدَانِ

٢٩٥٩- فَارْضَ الَّذِي رَضِيَ الْإِلَهَ لَهُمْ بِهِ

(١) [تعقيب] قال العلامة محمد خليل هراس:

واعلم أن المؤلف رحمه الله قد تساهل في قبوله هذه الآثار، وكان الأولى به أن ينبه على ضعفها، وأنها لا يمكن أن تقوم بها حجة. لا سيما في هذه المسائل التي يجب الاحتياط فيها حتى لا يفتح الباب للدعوى العريضة والاختلافات الباطلة، كما فعل المتصوفة بالنسبة إلى مشايخهم المقبورين، فقد رووا عنهم بعد الموت ما لا يصدقه عقل. والسبب في ذلك طبعاً هو التساهل في قبول مثل هذه الآثار من غير روية ولا تمحيص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

أَتْرِيذُ تَنْقُضُ حِكْمَةَ الرَّحْمَنِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

هَذَا وَرَدُّ نَبِينَا التَّسْلِيمِ مَنْ يَأْتِي بِتَسْلِيمٍ مَعَ الْإِحْسَانِ

مَا ذَاكَ مُخْتَصًّا بِهِ أَيْضًا كَمَا قَدْ قَالَهُ الْمُبْعُوثُ بِالْفُرْقَانِ

يعني: كون الرسول عليه الصلاة والسلام إذا سلّم أحدٌ عليه ردَّ الله عليه روحه، فردَّ عليه السلام، يقول ابن القيم: هذا ليس مُخْتَصًّا به؛ وهذا (قد قاله المبعوث بالفرقان).

مَنْ زَارَ قَبْرَ أَخٍ لَهُ فَأَتَى بِتَسْلِيمٍ عَلَيْهِ وَهُوَ ذُو إِيْمَانٍ

رَدَّ الْإِلَهَ عَلَيْهِ حَقًّا رُوحَهُ حَتَّى يَرُدَّ عَلَيْهِ رَدًّا بَيَانٍ

فهذا الحديث أخرجه أبو داود، وقال ابن عبد البر: إن إسناده صحيح وهو: «أن الإنسان إذا وقف على قبر رجل مسلم يعرفه في الدنيا، فسلم عليه، ردَّ الله عليه روحه، فردَّ عليه السلام»، لكنَّ هذا الرد لا يقتضي أن يكون حيًّا كحياته على ظهر الأرض بل هو حيٌّ حياة برزخية لا نعلم كيفيتها، فأنت الآن في منامك حي، لكنها حياة نوم ووفاء، وفي القبر تكون حيًّا حياة برزخية وأنت ميت، فالروح لها شأنٌ عظيم في تعلقها بالبدن، لا أحد يُدرِكُه، فهذا الحديث صحيح، وإن كان بعض العلماء المتأخِّرين حمل عليه، وقال: إنه ضعيف ولا يصح، ولا شكَّ أنهم أرادوا بهذا دفع كلِّ شبهةٍ يتعلَّقُ بها البطَّالون الذين يتعلَّقون بأصحاب القبور، ويقولون: إنهم يسمعون وإننا نأتي إليهم نسألهم أن يشفعوا لنا عند الله، وما أشبه ذلك، لكنَّ هذا لا يستلزم أن نُضعِفَ الأحاديث الصحيحة التي لا ترد إلى هذا المعنى، فكون الميت تُردُّ عليه روحه ليرُدَّ السلام لا يستلزم أن تبقى روحه حتى يُحاطَبَه هذا المسلم بكل ما يريد، فالحديث إنما ورد بأنه يرُدُّ السلام فقط، فقتصر على هذا، ونقول: بعد هذا لا يمكن أن يسمع شيئاً؛ لأن الأصل فيما يُدَّعى من سماع أهل القبور الرجوع إلى النص؛ لأنه من الأمور الغيبية، فإذا كان الميت يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا من عند الدفن، لم يلزم أن يسمع ذلك إذا جاءوا إليه مرة أخرى؛ لأن الميت ميت، ولا تُثبت من أحواله إلا ما جاء به



النص، فلو جاء أحد إلى المقبرة وجعل يمشي عند القبور بنعاله؛ فهل يمكن أن نقول: إن أهل القبور يسمعون قرع نعاله، كما يسمعه من دُفِن؟

الجواب: لا، وهكذا كل الأمور الغيبية، يجب أن يُقتصر فيها على النص، فدرء مفسدة تعلق أصحاب القبور بحديث ردِّ الروح على المُسلم عليه ليرُدَّ على مَنْ سلَّم عليه، نقول فيها: إن النص إنما جاء في ردِّ السلام فقط، ولا تعلق لكم بما سوى ذلك، ولهذا جزم به ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ هُنا، ونقل عن ابن عبد البر تصحيحه ولم يتعقبه.

مَنْ زَارَ قَبْرَ أَخٍ لَهُ فَآتَى بِتَسْمٍ
لِيمٍ عَلَيْهِ وَهُوَ ذُو إِيْمَانٍ
رَدَّ إِلَيْهِ عَلَيْهِ حَقًّا زَوْحَهُ
حَتَّى يَرُدَّ عَلَيْهِ رَدًّا بَيَانٍ
وَحَدِيثُ ذِكْرِ حَيَاتِهِمْ بِقُبُورِهِمْ
لَمَّا يَصِحُّ وَظَاهِرُ التُّكْرَانِ
فَانظُرْ إِلَى الْإِسْنَادِ تَعْرِفْ حَالَهُ
إِنْ كُنْتَ ذَا عِلْمٍ بِهَذَا الشَّانِ

يعني: انظر في حديث أنهم أحياء في قبورهم، لكن ابن القيم يقول: إنه ليس بصحيح، وأنه لا يلزم من ردِّ الروح عند السلام أن تكون مُستقرَّة في البدن دائماً.

هَذَا وَنَحْنُ نَقُولُ هُمْ أَحْيَاءٌ لَـ
كِنْ عِنْدَنَا كَحَيَاةِ ذِي الْأَبْدَانِ
وَالْتُّرْبُ تَحْتَهُمْ وَفَوْقَ رُؤُوسِهِمْ
وَعَنْ السَّمَائِلِ ثُمَّ عَنْ أَيْمَانِ
مِثْلَ الَّذِي قَدْ قُلْتُمُوهُ مَعَاذَنَا
بِاللَّهِ مِنْ إِفْكِ وَمِنْ بُهْتَانِ

يعني: أننا نقول: هم أحياء، ولكن هل نقول: إنها كحياتنا؟ لا بطبيعة الحال فحياتهم حياة برزخية إلا أن هؤلاء يقولون: إنهم أحياء كحياة الدنيا، أما نحن نقول: هم أحياء، لكن ليس كحياتنا الدنيا.

بَلْ عِنْدَ رَبِّهِمْ تَعَالَى مِثْلَ مَا
قَدْ قَالَ فِي الشُّهَدَاءِ فِي الْقُرْآنِ

كل هذه ردود عليهم؛ حيث قال في أول الكلام: إنه يلزم على قولهم: إن الرسل في قبورهم ليسوا برسل؛ وذلك لأنهم قالوا: إن الحياة عرَضٌ من أعراض الجسم، ومعلوم أنه لا رسالة إلا بحياة، فإذا كانت الحياة عرَضًا تفقد بالموت لزم من ذلك فقدُ الرسالة أيضًا وعليه لا بد أن يكون الأنبياء أحياء في قبورهم، فقلنا لهم: هم أحياء نعم لكن ليست كحياة الدنيا، بل هي حياة برزخية، وعلى هذا فإنه لا يمكنكم دفع ما قلناه من إلزامكم ببطلان

الرسالة بموت الرسول؛ لأن الحياة في البرزخ غير الحياة في الدنيا.

لَكِنْ حَيَاتُهُمْ أَجَلٌ وَحَالُهُمْ أَعْلَى وَأَكْمَلُ عِنْدِ ذِي الْإِحْسَانِ

أي: إن الحياة البرزخية أعلى وأكمل من حياة الدنيا، وكذلك مقام الأنبياء في الآخرة أعلى وأكمل عند الله عز وجل، فالإنسان إذا فارقت روحه بدنه في الدنيا مات، وانتقل من الدنيا بما فيها من الكدَر والصفو، والنعيم والبخل إلى دار النعيم؛ لأن المؤمن يُفتح له باب إلى الجنة ويأتيه من رَوْحها ونعيمها، ولهذا تقول روحه عند جملة: قَدَّمُونِي قَدَّمُونِي؛ لأنها قد بُشِّرَتْ بنعيم أعلى من نعيم الدنيا بكثير، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم إذن حياة البرزخ وحياة الدنيا بينهما فرقٌ عظيم.

هَذَا وَأَمَّا عَرَضُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ دَعَايِهِ فَهُوَ الْحَقُّ ذُو إِمْكَانٍ

أي: أن عرض أعمال العباد على الرسول عليه الصلاة والسلام، (حق ذو إمكان)، فهو ممكن عقلاً، لكن يبقى النظر هل صحَّ سمعاً أم لم يصحَّ؟، ولهذا قال المؤلف: (فهو الحق ذو إمكان) يعني: ليس مستحيلاً عقلاً.

وَأَتَى بِهِ أَثَرٌ فَإِنْ صَحَّ الْحَدِيثُ سُبُّهُ فَحَقُّ لَيْسَ ذَا نُكْرَانٍ

أي: إن صحَّ الأثر فإنه حق، وليس ذا نُكران، وقول المؤلف: (إن صح)، هذا طعن علة في الحديث، وتوقف في صحته، وعليه فإن كلام الشارح خليل هراس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على نونية ابن القيم في هذا المقام فيه نظر؛ لأن ابن القيم لم يُصحِّح الحديث، بل قال: (إن صحَّ فهو ذو إمكان)، والذي يقول: إن صحَّ ليس كالذي يقول: قد صحَّ، «إن صح» لأن هذا طعنٌ وعلة في الحديث عكس «قد صح»، ولهذا قال المؤلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

وَأَتَى بِهِ أَثَرٌ فَإِنْ صَحَّ الْحَدِيثُ سُبُّهُ فَحَقُّ لَيْسَ ذَا نُكْرَانٍ

لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مُخْتَصِّماً بِهِ أَيْضاً بِأَثَارِ رُوَيْنِ حَسَانٍ

يعني: إذا صحَّ الحديث فهو ممكن، ولكنه ليس بمختص به؛ بل تُعرض الأعمال على غير الرسول ﷺ أيضاً.

فَعَلَى أَبِي الْإِنْسَانِ يُعْرَضُ سَعِيهِ وَعَلَى أَقَارِبِهِ مَعَ الْإِخْوَانِ

إِنْ كَانَ سَعِيًّا صَالِحًا فَرِحُوا بِهِ وَاسْتَبَشَرُوا يَا لَذَّةِ الْفَرْحَانِ

أَوْ كَانَ سَيِّئًا سَيِّئًا حَزَنُوا وَقَا لُوا رَبِّ رَاجِعُهُ إِلَى الْإِحْسَانِ

يشير المؤلف أن هناك آثارًا تدلُّ على أن أعمال الإنسان تُعَرَّضُ على أبيه وعلى أقاربه، فإن كانت حسنة فرحوا واستبشروا، وإن كانت سيئة حزنوا لذلك، وسألوا الله أن يرُدَّهُ إلى الأعمال الصالحة، لكن الظاهر أن هذه الأحاديث وإن كانت حسنا؛ إلا أنها لا تصح، وذلك لأن أعمال العباد التي ليس لها صلة بالميت، لا فائدة من عرضها على الميت؛ لأنها إذا كانت سيئة، يحزن ويتألم، وإنما قلنا: التي لا صلة لها بالميت احترازًا من البكاء على الميت، فإن البكاء على الميت يُعَدَّبُ به الميت، ويتألم منه، كما يتعدَّبُ المسافر بالسفر، كما صحَّ في الحديث: «إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَدَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ، وَبِمَا نِيحَ عَلَيْهِ»^(١).

أما كون الأعمال تُعَرَّضُ على الأموات في القبور، فهذا فيه نظر، والذي يظهر أن الأحاديث كلها لا تصل إلى درجة الحسن كما ظن ابن القيم رحمته الله؛ لأنه يرى أن هذه الآثار تصل إلى درجة الحسن، والظاهر خلاف ذلك.

وَلِذَا اسْتَعَاذَ مِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ هَذَا الْحَدِيثَ عَقِيْبَهُ بِلِسَانِ
يَا رَبِّ إِنِّي عَائِدٌ مِنْ خِزْيَةٍ أَخْزَى بِهَا عِنْدَ الْقَرِيبِ الدَّانِي
ذَلِكَ الشَّهِيدَ الْمُرْتَضَى ابْنَ رَوَاحَةَ مَخْبُؤُ بِالْغُفْرَانِ وَالرِّضْوَانِ

قوله: (ولذا) أي: ولأجل كون أعمال القرابة تُعَرَّضُ على أقاربهم وقوله: «استعاذ من الصحابة مَنْ روى هذا الحديث عَقِيْبَهُ»؛ يعني: أن الصحابي الذي روى - حديث عرض أعمال الإنسان على أقاربه - استعاذ بالله لما روى هذا الحديث، أن يُخْزَى عند قريبه.

والقائل هو أبو الدرداء، وفي كلام العلامة محمد الهَرَّاس في هذا الموضع بعض نظر؛ لأنه ذكر أن الذي استعاذ هو ابن رواحة، وليس كذلك، إنما استعاذ أبو الدرداء، من أن يعمل عملاً سيئاً يُخْزَى به عند عبد الله بن رواحة رحمته الله؛ لأنه كان من أقاربه، ولهذا قال المؤلف رحمته الله:

وَلِذَا اسْتَعَاذَ مِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ هَذَا الْحَدِيثَ عَقِيْبَهُ بِلِسَانِ
ف (عَقِيْبَهُ) مُتَعَلِّقَةٌ بِاسْتَعَاذَ، الَّذِي اسْتَعَاذَ هُوَ أَبُو الدَّرْدَاءِ.

(١) رواه البخاري (١٢٨٨)، ومسلم (٩٢٧).

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

ذَاكَ الشَّهِيدُ الْمُزْتَضَى ابْنُ رَوَاحَةَ
لَكِنَّ هَذَا ذُو اخْتِصَاصٍ وَالَّذِي
مَمْحَبُوهُ بِالْعُقْرَانِ وَالرِّضْوَانِ
لِلْمُضْطَفَى مَا يَعْمَلُ الثَّقَلَانِ

«ذاك الشهيد» الإشارة إلى القريب الداني.

لكن المشار إليه عَرَضُ الأَعْمَالِ عَلَى الأَمْوَاتِ وَعَرَضُ الأَعْمَالِ عَلَى الأَمْوَاتِ أَي: عَلَى غير النبي مُحْتَضٌ بِالْأَقْرَابِ إِنْ صَحَّتِ الْآثَارُ، أَمَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَعَرَضُ الأَعْمَالِ عَلَيْهِ يَكُونُ مِنْ جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ.

والخلاصة: أن أهل التعطيل استدلوا على حياة النبي ﷺ في قبره بأن الأعمال تُعَرَضُ عَلَيْهِ^(١)، والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: هَذَا الْحَدِيثُ إِنْ صَحَّ فَهُوَ مُمْكِنٌ، وَمَعَ هَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ حَيَاتِهِ مِثْلَ حَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ: وَلَيْسَ هَذَا خَاصًّا بِالرَّسُولِ، فَإِنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ تُعَرَضُ عَلَى أَقْرَابِهِمْ، ثُمَّ فَرَّقَ بَيْنَ عَرَضِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ عَلَى الْأَقْرَابِ، وَبَيْنَ عَرَضِ أَعْمَالِ الْأُمَّةِ عَلَى الرَّسُولِ: بِأَنْ عَرَضُ أَعْمَالِ الْأُمَّةِ يَكُونُ عَلَى الرَّسُولِ فَهُوَ عَامٌ، وَعَرَضُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ يَكُونُ عَلَى الْأَقْرَابِ فَهُوَ خَاصٌّ بِالْأَقْرَابِ.

هَذِي نَهَايَاتُ لِأَقْدَامِ الْوَرَى
وَالْحَقُّ فِيهِ لَيْسَ تَحْمِلُهُ عُقُو
فِي ذَا الْمَقَامِ الضَّنْكَ صَعِبِ الشَّانِ
لُ بِنِي الزَّمَانِ لِغُلْظَةِ الْأَذْهَانِ

قوله: (هذي نهايات لأقدام الوري) يعني: إن هذا ما انتهت إليه أقدام الناس في هذا المقام الضنك الصعب الدقيق.

وقوله: (والحق فيه ليس تحمله عقول بني الزمان لغلظة الأذهان) يعني: أن أذهانهم غليظة لا تتحمل الأشياء الدقيقة، والفروق الدقيقة، بين حياة الدنيا وحياة البرزخ، بين حياة البرزخ، وحياة القيامة؛ فإن بينهما فرقاً عظيماً؛ في الحياة البرزخية تعود الروح إلى البدن، لكن ليس عوداً كاملاً، ولهذا لا يتحرك البدن، ولا يتغير عن حاله، أما في حياة القيامة فإن الروح تعود إلى البدن عوداً كاملاً حقيقي، يتحرك البدن ويمشي، ويكون الناس أجساماً بأرواح.

(١) سبق تخريجه .

وَلِجَهْلِهِمْ بِالرُّوحِ مَعَ أَحْكَامِهَا وَصِفَاتِهَا لِلْإِلْفِ بِالْأَبْدَانِ

يعني: ولأن عقول بني الزمان يجهلون العلم بالروح وأحكامها، اختلفوا فيها، وفي أحكامها الروح، وتعلقتها بالبدن اختلافاً كثيراً؛ وذلك لأنهم إنما ألفتوا الأبدان وأحكامها، أما الأرواح فهم عنها بمعزل.

فَارَضَ الَّذِي رَضِيَ الْإِلَهَ لَهُمْ بِهِ أَتْرِيدُ تَنْقُضَ حِكْمَةَ الرَّحْمَنِ

يعني: معناه ارض بحالهم، وتكلم معهم على مقتضى حالهم، وقوله: (أتريد تنقض حكمة الرحمن) الجواب عنه: بالنفي فلا أحد يريد ذلك، والله - عز وجل - حكيم، يهب الفضل لمن يشاء، فمن الناس من يُعْطِيهِ من الحكمة ما تتبين له بها الأشياء، ومن الناس من يكون غليظ الطبع، متين الذهن، لا يفهم الحروف، ولا يعرفها.



* قوله رَضِيَ اللهُ:

٢٩٦٠- هَلْ فِي عُقُولِهِمْ بِأَنَّ الرُّوحَ فِي

أَعْلَى الرَّفِيقِ مُقِيمَةً بِجَنَانِ

٢٩٦١- وَتَرَدُّ أَوْقَاتِ السَّلَامِ عَلَيْهِ مِنْ

أَتْبَاعِهِ فِي سَائِرِ الْأَزْمَانِ

٢٩٦٢- وَكَذَلِكَ إِنْ زُرْتَ الْقُبُورَ مُسَلِّمًا

رُدَّتْ لَهُمْ أَرْوَاحُهُمْ لِإِلَانِ

٢٩٦٣- فَهُمْ يَرُدُّونَ السَّلَامَ عَلَيْكَ لَـ

كِنْ لَسْتَ تَسْمَعُهُ بِذِي الْأَذَانِ

٢٩٦٤- هَذَا وَأَجْوَابُ الطُّيُورِ الْخُضْرِ مَنْـ

كُنْهَا لَدَى الْجَنَّاتِ وَالرِّضْوَانِ

٢٩٦٥- مَنْ لَيْسَ يَحْمِلُ عَقْلَهُ هَذَا فَلَا

تَظْلِمُهُ وَاعْذُرُهُ عَلَى التُّكْرَانِ

٢٩٦٦- لِلرُّوحِ شَأْنٌ غَيْرُ ذِي الْأَكْوَانِ لَا

تَهْمِلُهُ شَأْنُ الرُّوحِ أَعْجَبُ شَأْنِ

٢٩٦٧- وَهُوَ الَّذِي حَارَ الْوَرَى فِيهِ فَلَمْ

يَعْرِفُهُ غَيْرُ الْفَزْدِ فِي الْأَزْمَانِ

٢٩٦٨- هَذَا وَأَمْرٌ فَوْقَ ذَا لَوْ قُلْتُهُ

بَادَرْتَ بِالْإِنْكَارِ وَالْعُدْوَانِ

٢٩٦٩- فَلِذَلِكَ أَمْسَكْتُ الْعَنَانَ وَلَوْ أَرَى

ذَلِكَ الرَّفِيقَ جَرِيثٌ فِي الْمِيدَانِ

٢٩٧٠- هَذَا وَقَوْلِي إِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ

وَحُدُوثُهَا الْمَعْلُومُ بِالْبُرْهَانِ

٢٩٧١- هَذَا وَقَوْلِي إِنَّهَا لَيْسَتْ كَمَا

قَدْ قَالَ أَهْلُ الْإِفْكَ وَالْبُهْتَانِ

٢٩٧٢- لَا دَاخِلٌ فِينَا وَلَا هِيَ خَارِجٌ

عَنَّا كَمَا قَالُوهُ فِي الدِّيَانِ

٢٩٧٣- وَاللَّهِ لَا الرَّخْمَنَ أَتْبِئْتُمْ وَلَا

أَزْوَاحَكُمْ يَا مُدَّعِي الْعِرْفَانِ

٢٩٧٤- عَطَلْتُمْ الْأَبْدَانَ مِنْ أَزْوَاجِهَا

وَالْعَرْشَ عَطَلْتُمْ مِنَ الرَّخْمَنِ^(١)

(١) [٢٩٧٠: ٢٩٧٤] قال العلامة محمد خليل هراس:

وخلاصة القول في الروح أنها مخلوقة وحادثة، وذلك ثابت بالبراهين القاطعة، وليست قديمة كما يقول الفلاسفة المارقون، وأنها كذلك قابلة للحلول في البدن والانتقال عنه وللصعود والنزول، وليست كما يقول

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بَيَّنَّ أن شأن الروح لا مدخل للعقل فيه؛ لأن شأنها أعظم من أن تُدرِكه العقول.

هَلْ فِي عُقُولِهِمْ بِأَنَّ الرُّوحَ فِي أَعْلَى الرَّفِيقِ مُقِيمَةٌ بِجَنَانٍ
وَتُرَدُّ أَوْقَاتَ السَّلَامِ عَلَيْهِ مِنْ أَتْبَاعِهِ فِي سَائِرِ الْأَزْمَانِ

يعني: أن روح النبي ﷺ في أعلى عليين، كما قال النبي - صلوات الله وسلامه عليه - عند موته: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى» (١)، ومع ذلك إذا سلم عليه أحد ردَّ الله عليه هذه الروح من أعلى عليين إلى مكانه في القبر وفي لحظة؛ لأن شأن الروح عظيم، ولا يمكن أن يُقاس بشأنها الجسيم الكثيف؛ وذلك لأن شأنها عظيم، ولا يُدرِكُه العقل إطلاقاً.

وَكَذَلِكَ إِنْ زُرْتَ الْقُبُورَ مُسَلِّمًا رُدَّتْ لَهُمْ أَرْوَاحُهُمْ لِأَنَّ

يعني: إذا مررت فقلت: السلام عليكم دار قوم مؤمنين (٢) ردَّ الله عليهم أرواحهم، فردوا عليك السلام.

فَهُمْ يَرُدُّونَ السَّلَامَ عَلَيْكَ لَ كِنْ لَسْتَ تَسْمَعُهُ بِذِي الْأَذَانِ

يعني: أنك لا تسمعهم، لكن هم يسمعونك، ولهذا تقول: السلام عليكم - بحرف الخطاب - دار قوم مؤمنين.

وزعم بعض العلماء أن الخطاب هنا يُراد به خطاب الحاضر لا الفاني، وأنه كقول عمر للحجر: «إني والله لأعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع»، فقال عليه السلام أنك بكاف الخطاب، ومعلوم أنه لا يصحُّ خطابه؛ لأنه حجر ومنه يكون خطاب هؤلاء الموتى فيقولك لهم: السلام عليكم، كخطاب عمر بقوله: إني لأعلم أنك، ولكن هذا الرأي لا يصحُّ أن يُقاس

الفلاسفة الضلال ليست بداخله فينا ولا خارجه عنا، كما قالوا ذلك في حق الرب جل شأنه، فلا هم أثبتوا ربه ولا أثبتوا أرواحهم، بل عطلوا أبدانهم عن أرواحها حين قالوا أن الروح ليست حالة في البدن، كما عطلوا العرش عن وجود الرحمن فوجه حين أنكروا استواءه عليه.

(١) رواه البخاري (٤٤٣٧)، ومسلم (٢١٩٢).

(٢) رواه مسلم (٢٤٩).

الموتى بالحجر، فالموتى أبدان لها أرواح والحجر عكس ذلك، وإذا كان الله يرُدُّ روح نبيه ﷺ إذا سلَّم عليه المُسَلَّم، فما المانع من أن يرُدَّ أرواح هؤلاء الموتى إذا سلَّم عليهم المُسَلَّم ويرُدُّوا عليه السلام؟

ولكن مع هذا نقول: أن هذا الرد ليس ردَّ تكليف؛ أي: أنه لا يُثاب عليه؛ لأن الإنسان إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث، لكن الفائدة منه للحي أي: المُسَلَّم؛ حيث يقولون له: عليك السلام.

هَذَا وَأَجْوَافُ الطُّيُورِ الْخُضْرِ مَسْدٌ كُنْهًا لَدَى الْجَنَّاتِ وَالرِّضْوَانِ

أي: أن أرواح الشهداء المؤمنين في أجواف طيور خضر، «لدى الجنات والرضوان» أي: عند الله - سبحانه وتعالى - في هذه الأجواف كرامة لها.

مَنْ لَيْسَ يَحْمِلُ عَقْلُهُ هَذَا فَلَا تَظْلِمُهُ وَاعْذُرُهُ عَلَى النُّكْرَانِ

لأن الإنسان عدو ما لا يعرفه، فإذا كانت عقول هؤلاء المنكرين لا تتحمَّل هذه المعاني، ولا يمكنها أن تجمع بين هذا وهذا، «فلا تظلمه واعذره على النُّكران»، ومراد المؤلف - رَحِمَهُ اللهُ - تهوين شأن هؤلاء والحطُّ من قدرهم؛ يعني: أنهم ليسوا أهلاً بأن يُدرِّكوا الجمع بين هذه النصوص، وإنما هم بُلْهَاء، فاعذُرهم على بِلَاهَتِهِمْ، وليس المراد: أن لهم عُذْرًا في عدم التصديق بالنصوص، فهم غير معذورين في ذلك، لكن إذا كانوا بُلْهَاء لا يستطيعون الجمع بين ما ورد، فهؤلاء معذورون لبلاهِتِهِمْ.

لِلرُّوحِ شَأْنٌ غَيْرُ ذِي الْأَكْوَانِ لَا تَهْمِلُهُ شَأْنَ الرُّوحِ أَعْجَبُ شَأْنِ

وَهُوَ الَّذِي حَارَ الْوَرَى فِيهِ فَلَمْ يَعْرِفْهُ الْفَرْدُ غَيْرُ فِي الْأَزْمَانِ

أي: أن شأن الروح يعرفه غير «الفرد في الأزمان» وهو الذي أقرَّ بما جاء به الرسول ﷺ في شأن الأرواح؛ لأنه عرفه من طريقه الصحيح، طريق الوحي؛ لأنه لا مدخل للعقول فيه.

هَذَا وَأَمْرٌ فَوْقَ دَا لَوْ قُلْتُهُ بَادَرْتُ بِالْإِنْكَارِ وَالْعُدْوَانِ

فَلِذَاكَ أَمْسَكْتُ الْعَنَانَ وَلَوْ أَرَى ذَاكَ الرَّفِيقَ جَرَيْتُ فِي الْمِيدَانِ

يعني: أن هناك شيء فوق الذي ذكرت، ولو قلته لبادروا بالإنكار؛ لأنه فوق مُستواهِمْ، ثم قال (فلذاك أمسكت العنان ولو أرى ذاك الرفيق) أي: لو أرى أحدًا يكون رفيقًا لي في

فَهُمْ مَا أَقُولُ «لَجَرَيْتُ فِي الْمِيدَانِ»، وَلَكِنَّهُ لَا يَرَى أَحَدًا يُجَارِيهِ عَلَى مَا يَفْهَمُ مِنَ النُّصُوصِ، فَلهَذَا أَمْسَكَ عَنِ الْخَوْضِ وَالْقَوْلِ؛ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّ عَقُولَ هَؤُلَاءِ لَا تَبْلُغُهُ، وَقَدْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رحمته: «إِنَّكَ لَنْ تُحَدِّثَ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عَقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فَتْنَةٌ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَتَحَمَّلْهُ عَقْلُهُ يُبَادِرُ إِلَى الْإِنْكَارِ، فَيَكُونُ فِي هَذَا فَتْنَةٌ».

هَذَا وَقَوْلِي إِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ وَحُدُوثُهَا الْمَعْلُومُ بِالْبُرْهَانِ

قوله: «أنها أم إنها؟» أنها - بالفتح - يتعين؛ لأن «أنها» خبر القول، وليست مقول القول، وإنها تُكسَرُ إذا كانت مقول القول، وهنا هي خبر؛ يعني: هذا وأقول: إنها مخلوقة. «وقولي أنها مخلوقة» أي: كونها مخلوقة هو القول الذي أقول به، وأدين الله به، (وحدوثها المعلوم بالبرهان) يعني: أن الأرواح مخلوقة حادثة؛ فالظاهر - والله أعلم - أنها تُخَلَقُ حين يريد الله - سبحانه وتعالى - نقلها في الجسد؛ لأننا لا نعلم لها حالاً قبل ذلك، كما جاء في حديث ابن مسعود أنه إذا بلغ أربعين وأربعين، وأربعين، أرسل الله إليه ملكاً، فينفخ فيه الروح ^(١) فالظاهر أن الأرواح تُخَلَقُ عند نفخ الروح في الجسد؛ لأنه قبل ذلك لا ذكر لها، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، إذن فهي حادثة مخلوقة، خلافاً لمن قال بقدمها.

هَذَا وَقَوْلِي إِنَّهَا لَيْسَتْ كَمَا قَدْ قَالَ أَهْلُ الْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ

لَا دَاخِلٌ فِينَا وَلَا هِيَ خَارِجٌ عَنَّا كَمَا قَالُوهُ فِي الدِّيَانِ

يعني: وكذلك أقول: ليست الروح، كما قال أهل الإفك والبُهتان: (لا داخل فينا، ولا هي خارج عننا، كما قالوه في الديان)، وهذا إفكهم أن الروح ليست داخل أجساماً العالم، ولا خارجها إنها كما أن الله ليس داخل العالم، ولا خارج العالم؛ ومعنى ذلك أن الروح عدم، والرحمن - حاشاه عز وجل - عدم أيضاً.

وَاللَّهُ لَا الرَّحْمَنَ أَثْبَتُّمْ وَلَا أَرْوَا حَكْمَكُمْ يَا مُدَّعِي الْعِرْفَانِ

فهم لم يثبتوا الرحمن؛ لأنهم يقولون: إن الله لا داخل العالم ولا خارجها، ولم يثبتوا أرواحهم؛ لأنهم يقولون: إنها لا داخل الجسم ولا خارجها ثم قال: (يا مُدَّعِي الْعِرْفَانِ) فما

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

أبلغ هذا التهكم بهم؟! فهذا تهكم شديد لهم، كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] هذا من باب التهكم الذي يُراد به السخرية، وهل الذي يقول: وأنا رُوحِي لا في داخل جسمي، ولا خارجه، ما هي، وأن الله لا داخل العالم، ولا خارجه؟ يكون قد عرف الله، أو عرف نفسه؟ ومع ذلك يدَّعي أنه صاحب الفلسفة، وصاحب الحكمة، وصاحب العقل، وصاحب النظر، ويُسمُّون أنفسهم: النُّظَّارَ، جمع ناظر، يعني: أنهم هم أهل النظر والمعرفة.

عَطَّلْتُمْ الْأَبْدَانَ مِنْ أَرْوَاحِهَا وَالْعَرْشَ عَطَّلْتُمْ مِنَ الرَّحْمَنِ

نسأل الله العافية، الأبدان عطَّلوها من الأرواح؛ لأنه إذا كانت روح الإنسان لا داخل ولا خارج جسده معنى هذا أن جسده ليس فيه روح، وإذا كان الرحمن لا داخل العالم ولا خارجه، معنى هذا أنه ليس هناك رحمن على العرش.





عهد بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في كسر المنجنيق الذي نَصَبَهُ أهل التعطيل
على معاقل الإيمان وحصونه جيلاً بعد جيل

وهو الذي يسميه المتكلمون «دليل التركيب» فإنهم قرروا هذا الدليل الباطل بقولهم: لو كان موصوفاً بالصفات كالحياء والعلم والقدرة وغيرها وكان مركباً، ولو كان مركباً كان محدثاً، فتعين أن تنفى عنه الصفات، وأن لا يوصف بوصف زائد على مجرد الذات. فهذا قد أخذه متأخرهم عن متقدمهم، وغيروا بذلك عقائد الخلق وموهوا على ضعفاء البصائر، ونفوا لأجله أجل الحقائق وأوضحها وأحقها بالإثبات، وتركوا لأجله ما هو معلوم من الدين بالضرورة ثابت في الكتاب والسنة.

فأكبر الأدلة على بطلان هذا الطاغوت مخالفته للأدلة اليقينية من الكتاب والسنة فمخالفة المعلوم بالضرورة باطل بلا ريب، ثم بقطع النظر عن ذلك هو في نفسه باطل يستفسر أهله عن مرادهم بالتركيب، فإن التراكيب المصطلح عليها كثيرة فيقال لهم: هل تعنون بهذا التركيب «التركيب الامتزاجي الاختلاطي» كتركب الإنسان والحيوان من عدة أعضاء ومن الأركان الأربعة؟ أم تعنون بذلك «تركيب المجاورة» كتركيب السقف على البنيان والجسر على النهر، فإن عنيتم واحداً من هذين الأمرين لم يلزم شيء منهما في إثبات صفات البارئ التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ عند أحد من العقلاء. وإن عنيتم «التركيب من الجواهر الفردة» وهي الجزء الذي لا يتجزأ، أو من الهويولي والصورة، فأكثر العقلاء لا يتصورون الجواهر الفردة فضلاً عن إثباتها، بل من تصور الأمر على ما هو عليه علم بطلان ذلك وأنه لا وجود له ولا يتركب منه موجود، ثم على التقدير الباطل الممتنع

فلا يلزم من إثبات الصفات تركبه من هذه الحالات.

وإن عنيتم أنه تركيب من الذات والصفات فما المحذور من هذا الإثبات، فسموه ما شئتم فلن يترك بتسمية المبطلين له بالأسماء المنفردة. وصورة التلازم هكذا: لو كان موصوفاً بالصفات لزم أن يكون موصوفاً بالصفات، كما يقول القائل: لو كان موجوداً لكان موجوداً، ولو كان حياً لكان حياً. فإذا اتحد اللازم والملزوم كان اللازم للحق بلا شك حقاً.

والقصد أنهم يطالبون بوجود معاني هذه التراكيب في الكتاب والسنة أو كلام أهل اللغة، ولن يجدوها، فإن هذه الأسماء من اصطلاح فلاسفة اليونان.

ثم يقال ثانياً: هب أنه كان يسمى تركيباً فليس لكم دليل على نفي هذا الذي تسمونه «التركيب» لأنه ثابت في الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وما ثبت بذلك فمحال أن يقاومه دليل آخر. وهنا شيء يسمونه «التركيب من الماهية والوجود» وهل الماهية هي الوجود أو هي غيره؟ فمتى قالوا إنها الوجود لم يتصور تركيب كما هو قول لبعض المتكلمين، ومتى قالوا: هي غيره ارتبكوا في هذا الموضوع لأن «التركيب» عندهم باطل، وكل شيء اقتضى معنى التركيب في جانب الباري فهو باطل، فلهذا منهم من أطلق الكلام نفيًا وإثباتًا، ومنهم من توقف، والتحقيق أن يقال إن وجود كل شيء هو عين ماهيته، وماهيته عين وجوده، فإذا اختلف اعتبارهما ذهنًا وعينًا وخارجًا ورسماً فكل واحد من المذكورات له اعتبار مختص به.



فصل

في كسر المنجنيق الذي نصبه أهل التعطيل
على معاقل الإيما ن وحصونه جيلاً بعد جيل

- ٢٩٧٥- لَا يَفْزِعُنْكَ قَعَاقِعٌ وَفَرَاقِعٌ
وَجَعَاجِعٌ عَرِيثٌ عَنِ الْبُرْهَانِ
- ٢٩٧٦- مَا عِنْدَهُمْ شَيْءٌ يَهُوْلُكَ غَيْرُ ذَا
كَ الْمُنْجِنِيْقِ مُقْطَعٍ وَالْأَزْكَانِ
- ٢٩٧٧- وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوْنَهُ التَّرْكِيبَ مَنْ
ضُوبًا عَلَى الْإِثْبَاتِ مُنْذُ زَمَانِ
- ٢٩٧٨- أَرَأَيْتَ هَذَا الْمُنْجِنِيْقَ فَإِنَّهُمْ
نَصَبُوْهُ تَحْتَ مَعَاقِلِ الْإِيْمَانِ
- ٢٩٧٩- بَلَغَتْ حِجَارَتُهُ الْحُضُونَ فَهَدَّتِ الشُّدَّ
شُرْفَاتٍ وَاسْتَوْلَتْ عَلَى الْجُدْرَانِ
- ٢٩٨٠- اللَّهُ كَمْ حِضْنٍ عَلَيْهِ اسْتَوْلَتْ أَلْ
كُفَّارُ مَنْ ذَا الْمُنْجِنِيْقِ الْجَانِي
- ٢٩٨١- وَاللَّهِ مَا نَصَبُوْهُ حَتَّى عَبَّرُوا
قَضْدًا عَلَى الْحِضْنِ الْعَظِيْمِ الشَّانِ
- ٢٩٨٢- وَمِنْ الْبَلِيَّةِ أَنْ قَوْمًا بَيْنَ أَهْلِ
لِ الْحِضْنِ وَاطْوَهُمْ عَلَى الْعُدْوَانِ

٢٩٨٣- وَرَمَوْا بِهِ مَعَهُمْ وَكَانَ مُصَابٌ أَهْـ

لِ الْحِضْنِ مِنْهُمْ فَوْقَ ذِي الْكُفْرَانِ

٢٩٨٤- فَتَرَكَبْتُ مِنْ كُفْرِهِمْ وَوِفاقِ مَنْ

فِي الْحِضْنِ أَنْواعٍ مِنَ الطُّغْيَانِ

٢٩٨٥- وَجَرَتْ عَلَى الْإِسْلَامِ أَعْظَمُ مِخْنَةٍ

مِنْ ذِينَ تَقْدِيرًا مِنْ الرَّحْمَنِ

٢٩٨٦- وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَ دِينَهُ الرُّ

رَحْمَنُ كَانَتْ كَسَائِرِ الْأَذْيَانِ

٢٩٨٧- لَكِنْ أَقَامَ لَهُ الْإِلَهَ بِفَضْلِهِ

يَزْكَامِنْ الْأَنْصَارِ وَالْأَغْوَانِ

٢٩٨٨- فَرَمَوْا عَلَى ذَا الْمُنْجِنِيِّ صَوَاعِقًا

وَحِجَارَةً هَدَّتْهُ لِلْأَزْكَانِ^(١)

٢٩٨٩- فَاسْأَلْهُمْ مَاذَا الَّذِي يَعْثُونَ بِالثِّ

تْرِيبِ فَالتَّرْكِيبُ سَتْ مَعَانِ

٢٩٩٠- إِحْدَى مَعَانِيهِ هُوَ التَّرْكِيبُ مِنْ

(١) [٢٩٧٥ : ٢٩٨٨] قال العلامة محمد خليل هراس:

تفسير المفردات:

القعايق: جمع قعقعة وهي صوت الطبل.

والفراقع: جمع فرقة وهي صوت السياط.

والجعاجع: جمع جعجة وهي صوت الرحا.

عريت: تجردت.

يهولك: يُفزعك.

المنجنيق: آلة توضع فيها الحجارة لترمى بها الحصون

واليزك: الشهب التي ترمى بها الشياطين.

- مُتَبَّائِنٍ كَتَرَكْتُبِ الْحَيَوَانِ
 ٢٩٩١- مِنْ هَذِهِ الْأَعْضَا كَذَا أَعْضَاؤُهُ
- قَدْ رُكِّبَتْ مِنْ أَرْبَعِ الْأَرْكَانِ
 ٢٩٩٢- أَفَلَا زِمَ ذَا لِلصِّفَاتِ لِرَبَّنَا
 وَعُلُوُّهُ مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ
- ٢٩٩٣- وَلَعَلَّ جَاهِلِكُمْ يَقُولُ مُبَاهِتًا
 ذَا لَا زِمَ الْإِتْبَاتِ بِالْبُزْهَانِ
- ٢٩٩٤- فَالْبَهْتُ عِنْدَكُمْ رَخِيصٌ سِغْرُهُ
 حَثْوًا بِلَا كَيْلٍ وَلَا مِيزَانَ
- ٢٩٩٥- هَذَا وَثَانِيهَا فَتَرْكِيْبُ الْجَوَا
 رٍ وَذَلِكَ بَيْنَ اثْنَيْنِ يَفْتَرِقَانِ
- ٢٩٩٦- كَالْجِسْرِ وَالْبَابِ الَّذِي تَرْكِيْبُهُ
 بِجَوَارِهِ لِمَحَلَّةٍ مِنْ بَانَ
- ٢٩٩٧- وَالْأَوَّلُ الْمَدْعُوُّ تَرْكِيْبُ امْتِزَا
 جٍ وَاخْتِلَاطٍ وَهُوَ ذُو تَبْيَانِ
- ٢٩٩٨- أَفَلَا زِمَ ذَا مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ
 أَيْضًا تَعَالَى اللَّهُ ذُو السُّلْطَانِ
- ٢٩٩٩- وَالثَّالِثُ التَّرْكِيبُ مِنْ مُتَمَاثِلِ
 يُدْعَى الْجَوَاهِرَ فَزِدَةَ الْأَكْوَانِ
- ٣٠٠٠- وَالرَّابِعُ الْجِسْمُ الْمُرَكَّبُ مِنْ هَيَو
 لَاءٍ وَضُورَتِهِ لِإِدِي الْيُونَانِ

- ٣٠٠١- وَالْجِسْمُ فَهَوَ مُرَكَّبٌ مِنْ ذَيْنِ عِنْدِ
 سَدِّ الْقَيْلَسُوفِ وَذَاكَ ذُو بُطْلَانَ
- ٣٠٠٢- وَمِنْ الْجَوَاهِرِ عِنْدَ أَرْبَابِ الْكَلَا
 مِ وَذَاكَ أَيْضًا وَاضِحُ الْبُطْلَانِ^(١)
- ٣٠٠٣- فَالْمُثَبِّتُونَ الْجَوْهَرَ الْقِرْدَ الَّذِي
 زَعَمُوهُ أَضَلَ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ
- ٣٠٠٤- قَالُوا بِأَنَّ الْجِسْمَ مِنْهُ مُرَكَّبٌ
 وَلَهُمْ خِلَافٌ وَهُوَ ذُو أَلْوَانِ
- ٣٠٠٥- هَلْ يُمْكِنُ التَّرْكِيبُ مِنْ جُزْأَيْنِ أَوْ
 مِنْ أَرْبَعٍ أَوْ سِتَّةٍ وَثَمَانِ
- ٣٠٠٦- أَوْ سِتِّ عَشْرَةَ قَدْ حَكَاهُ الْأَشْعَرِيُّ
 فِي لِيذِي مَقَالَاتٍ عَلَى التَّبْيَانِ
- ٣٠٠٧- أَفَلَا زِمَ دَا مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ
 وَعُلُوُّهُ سُبْحَانَ ذِي السُّبْحَانِ^(٢)

(١) [٣٠٠٢، ٣٠٠١] قال العلامة محمد خليل هراس:

وهكذا انحرف المتكلمون عن الجادة واعتمدوا في استدلالهم على وهم كاذب وربطوا به مصير العقائد الإيمانية كلها، مما جعل السلف الصالح المتمسكين بالكتاب والسنة يذمون الكلام وأهله ويرمونهم بالفسوق والابتداع والروق عن الملة، ومما جعل أعداءهم من الفلاسفة ينتصرون عليهم ويتمكنون من مقاتلتهم، فلا هم للإسلام نصرُوا ولا للفلاسفة كسروا، وهكذا يفعل الصديق الجاهل من الأذى والضرر ما لا يفعله العدو العاقل، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٢) [٣٠٠٤: ٣٠٠٧] قال العلامة محمد خليل هراس:

وهذا مذهب أرسطو الفيلسوف اليوناني وتبعه عليه الفارابي وابن سينا وغيرهما من فلاسفة المسلمين، وهو مذهب أشد بطلاناً من مذهب المتكلمين، فهل يلزم واحد من هذين النوعين من التركيب على القول بثبوت الصفات لله وعلوه على خلقه؟ سبحانه وحاشاه، فهو المنزه عن كل هذه الأنواع من التركيبات التي لا تليق بذاته المقدسة، وإنما تتصف بها المحدثات الناقصة.

- ٣٠٠٨- وَالْحَقُّ أَنَّ الْجِسْمَ لَيْسَ مُرَكَّبًا
مِنْ ذَا وَلَا هَذَا هُمَا عَدَمَانِ
- ٣٠٠٩- وَالْجَوْهَرُ الْفَرْدُ الَّذِي قَدْ أُثْبِتُو
هُ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ ذَا إِمْكَانِ
- ٣٠١٠- لَوْ كَانَ ذَلِكَ ثَابِتًا لَزِمَ الْمُحَا
لُ الْوَاضِحِ الْبُطْلَانِ وَالْبُهْتَانِ
- ٣٠١١- مِنْ أَوْجِهٍ شَتَّى وَيَعْسُرُ نَظْمُهَا
جِدًّا لِأَجْلِ ضَعْفِ الْأَوْزَانِ
- ٣٠١٢- أَتَكُونُ خَرْدَلَةٌ تُسَاوِي الطَّوْدَ فِي الْ
أَجْزَاءِ فِي شَيْءٍ مِنْ الْأَذْهَانِ
- ٣٠١٣- إِذْ كَانَ كُلُّ مِنْهُمَا أَجْزَاؤُهُ
لَا تَنْتَهِي بِالْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ
- ٣٠١٤- وَإِذَا وَضَعْتَ الْجَوْهَرِينَ وَثَالِثًا
فِي الْوَسْطِ وَهُوَ الْحَاجِزُ الْوَسْطَانِي
- ٣٠١٥- فَلْأَجْلِهِ افْتَرَقَا فَلَا يَتَلَاقِيَا
حَتَّى يَزُولَ إِذَا فَيَلْتَقِيَانِ
- ٣٠١٦- مَا مَسَّهُ إِحْدَاهُمَا مِنْهُ هُوَ الْ
مَمْسُوسُ لِلثَّانِي بِلَا فُزْقَانِ
- ٣٠١٧- هَذَا مُحَالٌ أَوْ تَقْوَلُ غَيْرِهِ
فَهُوَ انْقِسَامٌ وَاضِحٌ التَّبْيَانِ^(١)

(١) [٣٠١٦: ٣٠١٧] قال العلامة محمد خليل هراس: «وإما أن يكون ما مسه أحدهما منه غير ما مسه الآخر،

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

يقول المؤلف:

(فصل: في كسر المنجنيق الذي نصبه أهل التعطيل على معاقل الإيوان وحصونه جيلاً بعد جيل) المنجنيق: هو آلة حربية تُستعمل في القتال، تُشبه ما يُسمى الآن بالمدافع، والمراد بالمنجنيق هنا: هو التركيب الذي جعله أهل التعطيل مُستندهم، في تعطيل الصفات فقالوا: إن إثبات الصفات يستلزم التركيب، والتركيب ممتنع؛ لأنه يستلزم الحدوث من وجه، وافتقار المُركَّب إلى ما معه من المُركَّب، وإذا كان اللازم باطلاً كان الملزوم باطلاً، فلذلك لا تُثبت الصفات خوفاً من التركيب.

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

لَا يَفْزِعُكَ قَعَاقِيعٌ وَفَرَاقِعٌ وَجَعَجَاعٌ عَرِيْتُ عَنِ الْبُرْهَانِ
 (الْقَعَقَعَةُ) هو صوت الجلد اليابس وما أشبهه، و(الْفَرْقَعَةُ) هو صوت أضعف من هذا، ومنه قولهم: فرقة الأصابع، و(الجعاجع) في القول، أو إنه الصوت، ومنه قولهم: تسمع جَعَجَعَةً ولا ترى طِحْنًا، ومعنى ذلك أن: هذه الأصوات من الفراقع والقعاقع والجعاجع كلها عارية عن البرهان.

مَا عِنْدَهُمْ شَيْءٌ يَهُوْلُكَ غَيْرُ ذَاكَ الْمُنْجِنِيقِ مُقَطَّعِ الْأَفْحَازِ وَالْأَرْكَانِ
 يعني: أنه منجنيق لكنه ليس له أركان، فلا يثبت.

وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوهُ التَّرْكِيبُ مِنْذُ صُوبًا عَلَى الْإِثْبَاتِ مِنْذُ زَمَانٍ

قوله: (يدعونه) يعني: لم يُسمونه بالتركيب، هذا هو الذي عندهم، فيقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

أَرَأَيْتَ هَذَا الْمُنْجِنِيقَ فَإِنَّهُمْ نَصَبُوهُ تَحْتَ مَعَاقِلِ الْإِيمَانِ

بَلَعَتْ حِجَارَتُهُ الْحُصُونَ فَهَدَّتِ الشُّرُوفَاتِ وَاسْتَوَلَّتْ عَلَى الْجُدْرَانِ

وهذا يقتضي قبوله للانقسام، فيبطل ما زعموه من عدم هذه الجواهر الفردة للقسمة أصلاً، وهذا دليل بين على فساد هذه الخرافة التي نسجتها أوهام المتكلمين. ومن العجيب أنهم تلقوها عبر الأعصار والقرون جيلاً بعد جيل وكلهم مصر عليها محافظ على قدسيها وجلالها لأنهم يعلمون أنها إذا انهارت زال بانيهم كله من القواعد وطار كل ما بنوه عليها من خرافات وأوهام.

أي: أخبرني عن هذا المنجنيق، فإنهم نصبوه تحت معاقل الإيوان، (المعاقل) جمع معقل، وهو المكان الذي ينعقل به الإنسان ويتحصن به.
قوله: (بلغت حجارته الحصون)؛ يعني: أنه يبلغ وليس منجنيقاً سهلاً، لكنه - سيبين المؤلف رَحِمَهُ اللهُ - أن أثره ضعيف.

بَلَّغَتْ حِجَارَتُهُ الْحُصُونَ فَهَدَّتِ الشُّرُفَاتِ وَاسْتَوَلَتْ عَلَى الْجُدْرَانِ

لِللَّهِ كَمَ حِصْنٍ عَلَيْهِ اسْتَوَلَتْ أَلْ كُفَّارُ مِنْ ذَا الْمُنْجَنِيقِ الْجَانِي

يعني: أن هذا الحصن الذي نصبوه على معاقل الإيوان صار سُلماً للكفار يُنكرون به ما ثبت بالتواتر، فمثلاً أهل التخيل: أنكروا الحقائق والإيمان باليوم الآخر مُستندين بذلك إلى العلة التي أنكروا بها أهل التعطيل صفات الله؛ لأنهم يقولون: إن الإيمان باليوم الآخر لا يقبله العقل، ﴿مَنْ يُعَيِّ أَلْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، والذين أنكروا صفات الله قالوا: إن العقل لا يقبلها أيضاً، وإذا كان لا يقبلها فإننا لا نُثبتها، فصار هذا المنجنيق الذي نصبوه على معاقل الإيوان صار سُلماً للكفار يستندون إليه في كفرهم.

لِللَّهِ كَمَ حِصْنٍ عَلَيْهِ اسْتَوَلَتْ أَلْ كُفَّارُ مِنْ ذَا الْمُنْجَنِيقِ الْجَانِي

وَاللَّهُ مَا نَصَّبُوهُ حَتَّى عَبَّرُوا قَصْداً عَلَى الْحِصْنِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

يعني: أنهم لم ينصبوا هذا المنجنيق إلا ليعبروا إلى الحصن العظيم الشأن، وهو ما جاء به الرسل من أجل أن يهدموه ويقضوا عليه

وَمِنْ الْبَلِيَّةِ أَنْ قَوْمًا بَيْنَ أَهْلِ الْحِصْنِ وَاطَّوَّهُمْ عَلَى الْعُدْوَانِ

«من البلية» أن أهل الحصن الذي يرميهم هؤلاء بالمنجنيق واطَّوُّوا أهل المنجنيق على العدوان، وكأنه يُشير إلى أهل التعطيل الذين قاموا ضدَّ أهل الإثبات، ينصبون المنجنيق على أهل الإثبات والإيمان، فجاء قوم ممن يدعون أنهم مسلمون فنصبوا على أهل الإثبات نفس المنجنيق، ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

وَمِنْ الْبَلِيَّةِ أَنْ قَوْمًا بَيْنَ أَهْلِ الْحِصْنِ وَاطَّوَّهُمْ عَلَى الْعُدْوَانِ

وَرَمَوْا بِهِ مَعَهُمْ وَكَانَ مُصَابٌ أَلْ كُفَّارُ مِنْ ذَا الْمُنْجَنِيقِ الْجَانِي

يعني: الذي أصاب أهل الحصن من هؤلاء الذين واطَّوُّوا الكفار صار أشدَّ من مُصاب

الكفار؛ لأن الكافر إذا رمى أهل السنة بشيء كلُّ يردُّ قوله، وكلُّ ينفر منه، لكن إذا جاءنا إنسان من أهل الملة ينصب المنجنيق على أهل السنة صار ذلك أشد؛ لأن الذي من أهل الملة يُقبل أكثر من الإنسان الكافر.

فَتَرَكَّبْتُ مِنْ كُفْرِهِمْ وَوَفَاقِي مَنْ فِي الْحِصْنِ أَنْوَاعٍ مِنَ الطُّغْيَانِ

لأن العدو صار الآن من الداخل، ومن الخارج.

وَجَرَّتْ عَلَى الْإِسْلَامِ أَعْظَمُ مِحْنَةٍ مِنْ ذَيْنِ تَقْدِيرًا مِنَ الرَّحْمَنِ

(من ذين) المُشار إليه: من كان خارج الحصن، ومن كان داخل الحصن.

وَاللَّهُ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَ دِينَهُ الرَّحْمَنُ كَانَ كَسَائِرِ الْأَدْيَانِ

يعني: لولا أن الله تدارك دينه بمن منَّ بهم من أهل السنة الذين يُناضلون ويُدافعون لكان كسائر الأديان، التي حُرِّفت، وتلاعب بها الناس.

لَكِنْ أَقَامَ لَهُ الْإِلَهِ بِفَضْلِهِ يَزْكَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ

أقام الله سبحانه وتعالى لهذا الدين «يَزْكَاءَ»، اليَزْكَ الظاهر والله أعلم أن معناه: الجند القوي من الأنصار والأعوان - حتى يردُّوا كيد الحاقدين من داخل الحصن وخارجه.

فَرَمَوْا عَلَى ذَا الْمُنْجِنِيقِ صَوَاعِقًا وَحِجَارَةً هَدَّتْهُ لِلْأَرْكَانِ

يعني: رموا على هذا المنجنيق صواعق من فوق، وحجارة من تحت حتى هدموه وأزالوه.

فَأَسْأَلُهُمْ مَاذَا الَّذِي يَعْنُونَ بِالْتَّوَكُّبِ فَالتَّوَكُّبُ سِتُّ مَعَانٍ

يعني: أسألهم عن التركيب الممتنع الذي جعلوه وسيلة إلى إنكار صفات الله؛ لأنه - على حد زعمهم - باطل، وما استلزم الباطل فهو باطل.

والتركيب له ست معان:

إِخْدَى مَعَانِيهِ هُوَ التَّوَكُّبُ مِنْ قَدْ رُكِّبَتْ مِنْ أَرْبَعِ الْأَرْكَانِ

يعني: أن النوع الأول، أو المعنى الأول للتركيب: هو ما تركب من أشياء متباينة؛ مثل: الحيوان مُركَّب من أعضاء متباينة في حقيقتها، وفي شكلها، وفي منافذها، فاللحم غير العظم، والعظم غير الجلد، والكبد غير الكرش، والكرش غير الأمعاء، وهكذا، فهو جسم

واحد لكن مُرَكَّب من أشياء عديدة وعظيمة - لا يعلمها إلا الله عز وجل -؛ وغريبة وعجيبة، وهل نقولون: إن الجسم بهذا التركيب صار أجساماً أم هو جسم واحد؟ لا، هو جسم واحد، لكنه مُرَكَّب من أشياء متباينة.

مِنْ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ كَذَا أَعْضَاؤُهُ قَدْ رُكِّبَتْ مِنْ أَرْبَعِ الْأَرْكَانِ
يعني: أن الأعضاء أيضاً مُرَكَّبَة من أربعة أركان: يَدٌ يُمْنَى، وَيَدٌ يُسْرَى، وَرَجْلٌ يُمْنَى، وَرَجْلٌ يُسْرَى.

أَفَلَا زِمَ ذَا لِلصِّفَاتِ لِرَبْتِنَا وَعُلُوُّهُ مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانٍ
يعني: هل يلزم أن يكون الإنسان بهذا التركيب متعدداً؟ لا، إذا كان هذا لا يلزم في المخلوق، فكيف يلزم في الخالق؟ فالرب عز وجل له صفات متعددة؛ سمع، وبصر، وعلم، وقدرة، وغير ذلك من الصفات، وهذا لا يلزم منه التعدد.

وَلَعَلَّ جَاهِلِكُمْ يَقُولُ مُبَاهِتًا ذَا لَأَزِمُ الْإِثْبَاتِ بِالْبُرْهَانِ
يعني: ربما يقول الجاهل: إن هذا لازم؛ يعني: أن هذا التركيب يلزم منه التعدد، ولكن نقول له إن هذا من باب المُبَاهِتَةِ والمُكَابِرَةِ والمِراوِغَةِ، وإلا فحقيقة الأمر أنه ليس كذلك.

فَالْبُهْتُ عِنْدَكُمْ رَخِيصٌ سِعْرُهُ حَثْوًا بِلَا كَيْلٍ وَلَا مِيزَانَ
قوله: (البُهْتُ) يعني: الكذب.

وقوله: (سعره رخيص) أي: بلا شيء، ومع ذلك هو (حثوا بلا كَيْلٍ ولا ميزان)، وهذا لا شك أنه بسّ المطيَّة، أي: بسّ مطيَّة الرجل: لأن هؤلاء - والعياذ بالله - لا يهمهم أن يبهتوا، أو يكذبوا، أو يقولوا شيئاً لا يُعقل بالعقل بحجَّة أنه هو العقل.

هَذَا وَثَانِيهَا فَتَرْكِيْبُ الْجَوَا رِ وَذَاكَ بَيْنَ اثْنَيْنِ يَفْتَرِقَانِ
يعني: أن التركيب الثاني هو التركيب بين شيئين متباينين لكنهما متجاوران؛ مثل: تركيب الباب مع الجدار، هذا تركيب، و تركيب الباب مع المحمل محمل الدال عليه البرواز هذا تركيب، لكن كل واحدٍ منهما منفصل عن الثاني، ولهذا قال:

هَذَا وَثَانِيهَا فَتَرْكِيْبُ الْجَوَا رِ وَذَاكَ بَيْنَ اثْنَيْنِ يَفْتَرِقَانِ
كَالْجِسْرِ وَالْبَابِ الَّذِي تَرْكِيْبُهُ بِجَوَارِهِ لِمَحَلَّةٍ مِنْ بَانَ

يعني: الجسر والباب، الجسر تُسَمِّيهِ نحن السقف الذي على الباب، ثم يُرَكَّبُ الباب، وهذا يُسَمَّى تركيب الجوار، وتركيب الجوار بالاتفاق لا يعني أنه شيء واحد، كل يعرف أن لأن المتجاورين متباينان.

وَالأَوَّلُ الْمَدْعُوُّ تَرْكِيْبُ امْتِرَا جٍ وَاخْتِلَاطٍ وَهُوَ ذُو تَبْيَانٍ
أَفَلَارِمٌ ذَا مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ أَيضًا تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ

قوله: (والأول المدعو) أي: تركيب واحد من متباينين هو تركيب امتزاج واختلاط. لكن لا يلزم من ثبوت صفات الله أن يكون مُرَكَّبًا بالمعنى الأول أو بالثاني؛ يعني: تركيب جوار أو تركيب تباين.

قال:

وَالثَّالِثُ التَّرْكِيبُ مِنْ مُتَمَاثِلٍ لِأَهْ وَضُورَتِهِ لِذِي الْيُونَانِ

يعني أن التركيب الثالث هو التركيب في الجوهر، وهو أن يترَكَّبَ شيء مع آخر مُتَمَاثِلٍ له، وهذا وإن كان ابن القيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وشيخ الإسلام قد تكلَّمَا به منذ قرون، فقد أثبتَّه العلم الحديث الآن، وقضية علم الذرة، أو القنابل الذرية من هذا الباب؛ لأن كل شيء وإن كان مُتَمَاثِلًا فإنه يدور حول شيء، فكل شيء في الإنسان، وفي غير الإنسان، ذرَّات يدور بعضها حول بعض، وتتكوَّن هذه الأجسام، منها اللَّيِّن وهو الذي يلتصق بغيره كثيرًا، ومنها الصلب وهو الذي يكون مُنضَمًّا بقوة وبكثرة مع الآخر، ولهذا نجد فرقًا بين لين القطن والحريز، وقسوة الحديد أو الحجارة؛ وذلك لأن كل واحدة في الحديد أو الحجارة قد شدَّت إلى الأخرى بقوة بخلاف هذا الشيء اللَّيِّن، هذا الذي يُسَمُّونه بالجواهر الفرد، وهو الآن ثابت، وأساس القنابل الذرية على هذا؛ لأن النظرية فيها أن هذه المكونات لأجسام القنبلة تتمزَّق وتنفَرِّق، فيحصل التصدُّع في الجبال وفي الجدران، حتى في الإنسان نفسه.

وَالثَّالِثُ التَّرْكِيبُ مِنْ مُتَمَاثِلٍ لِأَهْ وَضُورَتِهِ لِذِي الْيُونَانِ

وَالرَّابِعُ الْجِسْمُ الْمُرَكَّبُ مِنْ هَيُو لِأَهْ وَضُورَتِهِ لِذِي الْيُونَانِ

يعني: أن التركيب الرابع هو التركيب الهَيُوْلِي والصورة، وهو التركيب العام لكل مُرَكَّبٍ؛ يعني: مثلًا: الإنسان زيد، عمرو، خالد.. إلخ، هو في جسم مُرَكَّبٍ، يُسَمُّونه المركَّب من الهَيُوْلَا والصورة، الهَيُوْلِي يعني كما نقول: الجسم والصورة، فيكون كل شيء

مُرَكَّبٌ مِنْ هَيْوَلَاهُ وَصُورَتِهِ.

وَالرَّبَاعُ الْجِسْمُ الْمُرَكَّبُ مِنْ هَيْوَلَاهُ وَصُورَتِهِ لِذِي الْيُونَانِ
وَالْجِسْمُ فَهُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ ذَيْنِ عِنْدَ الْقَيْلِسُوفِ وَذَلِكَ ذُو بَطْلَانَ

أي: أن الفلاسفة يقولون: أن الجسم مُرَكَّبٌ من الهَيُولَى والصورة، ولكن ابن القيم يقول: إنه (ذو بطلان) أي: ليس كذلك، فالجسم لا بد له من صورة، ما نقول: إن الصورة مُرَكَّبَةٌ معه، بل لكل جسم لا بد له من صورة، ولا يصحُّ أن نقول: إنه مُرَكَّبٌ من شيئين، بل هو نفسه شيء واحد، لأنه لكل شيء موجود بالفعل يكون له صورة على حسب ما يليق به، فهم يقولون: إن الجسم مُرَكَّبٌ من الهَيُولَى والصورة من أجل إنكار صفات الله وغيرها؛ لأنهم إذا جعلوا الجسم مُرَكَّبًا من شيئين صارت الصفات غير الموصوف، وهذا هو الذي جعلهم يُنكرونها صفات الله؛ لأنهم يقولون: لو أثبتَّ الله صفة لزمك تعدُّد القدماء، وأن تكون هذه الصفات قديمة، ونفس الله عز وجل قديم، فيلزم من ذلك تعدُّد القدماء.

لكن شيخ الإسلام وابن القيم أنكروا هذا، وقالوا: لا يمكن أن نقول: إن الجسم مُرَكَّبٌ من شيئين؛ بل هو شيء واحد، ولأنه لا بد لكل شيء موجود من صورة.

وَمِنَ الْجَوَاهِرِ عِنْدَ أَرْبَابِ الْكَلَامِ م وَذَلِكَ أَيْضًا وَاصِحُّ الْبَطْلَانَ

قوله: (ومن الجواهر عند أرباب الكلام) أي: أن الجسم أيضًا مُرَكَّبٌ عند أرباب الكلام وقوله: (وذاك أيضًا واضح البطلان) أي: أن الجسم عند الفلاسفة من القسم الرابع من أقسام التركيب، وعند أهل الكلام من القسم الثالث، لكن ابن القيم ذكر بطلان الأول، وبطلان الثاني، فقال:

فَالْمُثَبِّتُونَ الْجَوْهَرَ الْفَرْدَ الَّذِي زَعَمُوهُ أَضَلَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ
قَالُوا بِأَنَّ الْجِسْمَ مِنْهُ مُرَكَّبٌ وَلَهُمْ خِلَافٌ وَهُوَ ذُو أَلْوَانٍ

أي: أن هؤلاء الذين يدعون أن الجسم مُرَكَّبٌ من الجواهر الفردة، العلم الحديث يُؤيِّد قولهم في الواقع، لكن في عهد ابن تيمية وابن القيم لم يكن العلم المادي قد انتهى إلى ما انتهى عليه اليوم، فصاروا يُنكرونها هذا، ويقولون: إن الجوهر الفرد وهو الذي لا ينقسم وهذا شيء ممتنع، لأنه لا يوجد شيء إلا وهو قابل للانقسام، حتى رأس الإبرة قابل للانقسام، فإذا قلتم: إن المُرَكَّبُ كل قابل للانقسام، لزم أن تصفوا الله بأنه لا شيء، ولزم أن

تصفوا الإنسان أيضا أنه لا شيء، أو يلزمكم ثبوت الإنسان، وأدعاء أنه مركب من الجواهر الفردة. ولهذا قال المؤلف رحمه الله:

قَالُوا بِأَنَّ الْجِسْمَ مِنْهُ مُرَكَّبٌ وَلَهُمْ خِلَافٌ وَهُوَ ذُو أَلْوَانٍ
هَلْ يُمْكِنُ التَّرْكِيبُ مِنْ جُزْأَيْنِ أَوْ مِنْ أَرْبَعٍ أَوْ سِتَّةٍ وَثَمَانٍ
أَوْ سِتِّ عَشْرَةَ قَدْ حَكَاهُ الْأَشْعَرِيُّ فِي لِذِي مَقَالَاتٍ عَلَى التَّبْيَانِ

يعني: قد وقع بينهم العديد من أنواع الخلاف فيقولون: إن المركب يتركب من جزئين، أربعة أجزاء، ستة أجزاء، ثمانية أجزاء، ستة عشر جزءًا وهذه الخلاف مستقرأ في المقالات وهو كتاب «مقالات الإسلاميين» للأشعري رحمه الله، ذكر فيه هذه الأنواع من التراكيب، وفند الباطل منها.

أَفَلَا زِمَ ذَا مِنْ ثُبُوتِ صِفَاتِهِ وَعَلَوُهُ سُبْحَانَ ذِي السُّبْحَانِ

يعني: هذا التركيب الذي هو تركيب الجواهر الفردة؛ هل يلزم منه إثبات صفاته عز وجل بأنه مركب من الجواهر الفردة؟ لا يلزم، لأن جنس الخالق يخالف جنس المخلوق، ولا يمكن أن يوافق المخلوق في أي شيء من الأشياء، فإذا كان بني آدم مخلوقون من تراب، والملائكة من نور، والجن من نار، ومع ذلك فكلها أجسام لكنها اختلفت في أصلها ومادتها، فكيف تلزمونا بأن من أثبت لله صفة لزمه أن يجعل الله مركبًا من الجواهر الفردة، أو الهَيُولَى والصورة، أو ما أشبه ذلك.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْجِسْمَ لَيْسَ مُرَكَّبًا مِنْ ذَا وَلَا هَذَا هُمَا عَدَمَانِ

يعني: أن المؤلف رحمه الله يُنكر أن يكون الجسم مركبًا من الهَيُولَى والصورة، ويقول: إن كل جسم فهو مقارن لصورته، وليس مركبًا منها، وكذلك الجوهر الفرد.

وَالْجَوْهَرُ الْفَرْدُ الَّذِي قَدْ أُثْبِتُو هُ فِي الْحَقِيقَةِ لَيْسَ ذَا إِمْكَانِ
لَوْ كَانَ ذَلِكَ ثَابِتًا لَزِمَ الْمُحَا لُ لِيُوضِحَ الْبُطْلَانَ وَالْبُهْتَانَ
مِنْ أَوْجِهِ شَيْءٌ وَيَعْسُرُ نَظْمَهَا جِدًّا لِأَجْلِ صُعُوبَةِ الْأَوْزَانِ

يعني: أن إثبات الجوهر والفرد هذا مستحيل، وليس في الحقيقة ممكنًا، من أوجه متعددة، لكن اعتذر المؤلف عن سردها من (أجل صعوبة الأوزان)؛ يعني: النظم، ولكنها

مذكورة في كتب شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كَثِيرًا، وكذلك في بعض كتب ابن القيم، لكن من جملة بطلانها ما ذكره في قوله:

أَتَكُونُ خَرْدَلَةٌ تُسَاوِي الطُّودَ فِي الْ
إِذْ كَانَ كُلُّ مِنْهُمَا أَجْزَاؤُهُ
أَجْزَاءَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَذْهَانِ
لَا تَنْتَهِي بِالْعَدِّ وَالْحُسْبَانِ

وهذا ليس بممكن، لكن عندهم ممكن؛ لأنهم يقولون: إن الخردلة وهي الحبة الصغيرة تنقسم إلى أجزاء، ولا بد أن تنقسم، وإذا كانت تنقسم إلى أجزاء لا نهاية لها لزم أن تكون مساوية للجبل الطود العظيم، وهذا شيء لا يمكن، لا في شرع، ولا في حس، ولا في عقل، أن تكون الخردلة مثل الطود بناءً على أنه ما من شيء إلا وهو قابل للانقسام، فيكون هذا مساويًا لهذا؛ لأنك حتى لو قلت: قَسِّمُوا الْجَبَلَ إِلَى أَلْفٍ، وَقَسِّمُوا الْخَرْدَلَةَ إِلَى أَلْفٍ، فَسْتَجِدُّ الْوَاحِدَ مِنْ أَلْفِ جَبَلٍ أَكْثَرَ مِنَ الْخَرْدَلَةِ، ثُمَّ قَسِّمَهُ أَيْضًا إِلَى أَلْفٍ، وَقَسِّمْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى أَلْفٍ، فَسْتَجِدُّ فِي النِّهَايَةِ أَنَّ الْجَبَلَ لَا يَسَاوِي الْخَرْدَلَةَ رَغْمَ أَنَّهَا يَتَجَزَّأَنَّ.

وَإِذَا وَضَعْتَ الْجَوْهَرِينَ وَتَأَلَّأَ
فِي الْوَسْطِ وَهُوَ الْحَاجِزُ الْوَسْطَانِي
فَلْأَجْلِهِ افْتَرَقَا فَلَا يَتَلَاقِيَا
حَتَّى يَزُولَ إِذَا فِيلْتَقِيَانِ

هذا في الردِّ على المتكلمين الذين أثبتوا الجوهر والفرد، والفلاسفة الذين أثبتوا التركيب من الهَيُولَا والصورة، والعجب أن كل واحد من هؤلاء ردُّ على الآخر، فقال الفلاسفة: إن الجوهر والفرد غير ممكن، وإنما هو شيء في الخيال، ولو أننا قلنا به للزم أن تتساوى الذرة الصغيرة التي لا تنتهي لأجزائها بالجبل الكبير؛ لأن كلاً منهما ينتهي إلى لا شيء، وهذا شيء مُحَالٌ ومُكَابِرَةٌ للحس، فلذلك كفى الله المؤمنين القتال بردِّ بعض هؤلاء على بعض، المتكلمون أيضًا ردُّوا على هؤلاء بأن الهَيُولَى هي الصورة، وأنه لا يمكن وجود هَيُولَى بلا صورة، لأن الهَيُولَى ماهية الشيء، ولا بد أن يكون الهَيُولَى على صورة مُعَيَّنَةٍ، لا تنفك إحداهما عن الأخرى.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٣٠١٨- وَالْحَامِسُ التَّرْكِيبُ مِنْ ذَاتٍ مَعَ الْ

أَوْصَافِ هَذَا بِأَصْطِلَاحِ ثَانِ

٣٠١٩- سَمَّوْهُ تَرْكِيْبًا وَذَلِكَ وَضَعُهُمْ

مَا ذَاكَ فِي عُرْفٍ وَلَا قُرْآنٍ

٣٠٢٠- لَسْنَا نَقْرُ بِلَفْظَةٍ مَوْضُوعَةٍ

بِالِاضْطِّاحِ لِشَيْعَةِ الْيُونَانِ

٣٠٢١- أَوْ مَنْ تَلَقَّى عَنْهُمْ مِنْ فِرْقَةٍ

جَهْمِيَّةٍ لَيْسَتْ ذِي عِرْفَانٍ

٣٠٢٢- فِي وَضْفِهِ سُبْحَانُهُ بِصِفَاتِهِ الـ

عُلْيَا وَتَتْرُكُ مُقْتَضَى الْقُرْآنِ

٣٠٢٣- وَالْعَقْلُ وَالْفِطْرَاتُ أَيْضًا كُلُّهَا

قَبْلَ الْفَسَادِ وَمُقْتَضَى الْبُرْهَانِ

٣٠٢٤- سَمَّوْهُ مَا شِئْتُمْ فَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي الـ

أَسْمَاءِ مَا الْأَلْقَابُ ذَاتِ الشَّانِ

٣٠٢٥- هَلْ مِنْ دَلِيلٍ يَقْتَضِي إِبْطَالَ ذَا الـ

تَرْكِيْبٍ مِنْ عَقْلِ وَمِنْ فُرْقَانِ

٣٠٢٦- وَاللَّهِ لَوْ نُشِرَتْ شُيُوكُمْ لَمَّا

قَدَرُوا عَلَيْهِ لَوْ أَتَى الثَّقَلَانِ

٣٠٢٧- وَالسَّادِسُ التَّرْكِيبُ مِنْ مَا هِيَ

وَوُجُودَهَا مَا هَا هُنَا شَيْئَانِ

٣٠٢٨- إِلَّا إِذَا اخْتَلَفَ اعْتِبَارُهُمَا فَذَا

فِي الذَّهْنِ وَالشَّانِي فَبِي الْأَعْيَانِ

٣٠٢٩- فَهُنَاكَ يُعْقَلُ كَوْنُ ذَا غَيْرًا لِذِي

فَعَلَىٰ اعْتِبَارِهِمَا هُمَا غَيْرَانِ

٣٠٣٠- أَمَا إِذَا اتَّحَدَا اعْتِبَارًا كَانَ نَفْسٌ

سُ وَجُودَهَا هُوَ ذَاتُهَا لِأَثَانِي

٣٠٣١- مَنْ قَالَ شَيْئًا غَيْرَ ذَا كَانَ الَّذِي

قَدْ قَالَهُ ضَرْبًا مِنَ الْغَفْلَانِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

وَالْخَامِسُ التَّرْكِيْبُ مِنْ ذَاتٍ مَعَ الِ

سَمُوهُ تَرْكِيْبًا وَذَلِكَ وَضَعُهُمْ

قوله: (الخامس) أي النوع الخامس من التركيب وهو التركيب من الذات والأوصاف، يعني: أن الإنسان مثلاً بشر، وأوصافه: الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، وما أشبه ذلك، فهذا تركيب من الذات ومن الصفات، فسَمَّوْا هذا تركيباً، ومن ثم أنكروا صفات الله، على قولهم لأننا لو أثبتنا لله صفة لزم التركيب، ولكن ابن القيم ردَّ عليهم، فقال:

سَمُوهُ تَرْكِيْبًا وَذَلِكَ وَضَعُهُمْ

مَا ذَاكَ فِي عُزْفٍ وَلَا قُرْآنٍ

يعني أن قولهم: (إن هذا تركيب اصطلاح خارج) فليس في عُزْفٍ أهل اللغة، ولا في القرآن الكريم العربي: أن يكون الموصوف وصفته مُرَكَّبَيْنِ أبداً؛ بل الموصوف لا يمكن أن يوجد بلا صفة، بل كل موجود لا بد له من صفة، لذلك قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

لَسْنَا نَقْرُؤُ بِلَفْظَةٍ مَوْضُوعَةٍ فِي الْإِضْطِلَاحِ لِشِيعَةِ الْيُونَانِ

يعني: أن المؤلف أنكّر هذا النوع من التركيب، وقال: هذا ليس صفة؛ لأن كل ذات فهي مُلازمة للصفات، أي أن كل ذات لا بد أن يكون لها صفات، ولأنه لا يمكن أن يكون الموصوف بصفات مُرَكَّبًا من ذاته وصفاته إذ أن الصفات مُلازمة للذات، فلا وجود للذات بلا صفة أبداً. ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

لَسْنَا نَقْرُؤُ بِلَفْظَةٍ مَوْضُوعَةٍ فِي الْإِضْطِلَاحِ لِشِيعَةِ الْيُونَانِ

قوله: (اللفظة الموضوعية) هي التركيب من الذات والصفات، وأن وجود الصفات مُضافة إلى الذات يُعتبر تركيباً.

وقوله: (في الاصطلاح لشيعة اليونان) أي: من اصطلاح المتفلسفة.

أَوْ مَنْ تَلَقَّى عَنْهُمْ مِنْ فِرْقَةٍ جَهْمِيَّةٍ لَيْسَتْ بِذِي عِرْفَانٍ

هنا رَحِمَهُ اللهُ وصف الجهمية بأنهم مثل البيغوات، تُتابع بدون معرفة، فهم أخذوا عن الفلاسفة هذا المعنى، وقالوا: بتركيب، ولهذا يُنكرون صفات الله عز وجل.

مِنْ وَصْفِهِ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِهِ الـ غُلْيَا وَيَتْرُكُ مُقْتَضَى الْقُرْآنِ

وَالْعَقْلُ وَالْفِطْرَاتُ أَيْضًا كُلُّهَا قَبْلَ الْفَسَادِ وَمُقْتَضَى الْبُرْهَانِ

يقول: لسنا نُقرُّ بهذه اللفظة ونُنكر صفات الله سبحانه وتعالى، وترك مُقتضى القرآن، ومقتضى العقل، ومقتضى الفطرة قبل تغييرها وفسادها، ومقتضى البرهان، لا يمكن أن ترك هذا من أجل اصطلاح حادث مأخوذ عن اليونان، أو عمن أخذ منهم من فرقة الجهمية الجاهلة.

سَمُوهُ مَا سَمَّيْتُمْ فَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي الـ أَسْمَاءٍ بِالْأَلْقَابِ ذَاتِ الشَّانِ

يعني: سموا إثبات الصفات ما سَمَّيْتُمْ، تركيباً أو غير تركيب.

فليس الشأن في أن تُسموه شيئاً مكروهاً فيكون مكروهاً، لا؛ فلو سَمَّيْتُمْ هذا تركيباً، ونَقَرْتُمْ الناس منه، وقلْتُمْ: إن هذا يستلزم أن يكون الباري عز وجل مُركَّباً من ذاتٍ وصفاتٍ، فإن هذا لا يَلِيبُ الحق باطلاً.

هَلْ مِنْ دَلِيلٍ يَفْتَضِي إِتْطَالَ ذَا التـ تَرْكِيْبٍ مِنْ عَقْلٍ وَمِنْ فُرْقَانٍ

الجواب: لا، ليس هناك دليل (من عقل): أي: دليل عقلي، (من فرقان): من قرآن؛ أي: دليل سمعي.

يمنع هذا التركيب، ونحن إنما نقول: إنه تركيب بناءً على تسميتكم إياه، وإلا فنعلم أن الإنسان بصفاته لا يكون مُركَّباً من شيئين؛ بل هو بصفاته واحد، فلا تركيب، لكن أنتم إذا سَمَّيْتُمُوهُ تركيباً سَمُوهُ ما سَمَّيْتُمْ، لكننا سنُفَرِّدُهُ اللهُ عز وجل.

وَاللَّهُ لَوْ نُشِرَتْ شَيْوَحُكُمْ لَمَّا قَدَرُوا عَلَيْهِ لَوْ أَتَى الثَّقَلَانِ

يعني: لا يقدر شيوحكم لو نشروا أي: بُعثوا بعد موتهم على أن يأتوا بدليل على الفرقان.

المهم: أن هذا التركيب - وهو تركيب الذات مع الأوصاف - نحن: (أولاً): نمنع أن يكون تركيباً؛ لأن الموصوف لا يكون معدداً بتعدد الصفات، فكل إنسان عاقل لا يرى أن الموصوف إذا وُصف تعدد بتعدد الصفات، هل مثلاً إذا قلنا: إن زيداً سميع يكون واحداً، وإذا قلنا: وبصير صار اثنين، وإذا قلنا: عليم صار ثلاثاً؟ أبداً، لا أحد يقول بهذا.

ثانياً: لو سلمنا لكم أن هذا تركيباً؛ فهل من مانع منه؟ أبداً لا مانع؛ بل إن الكتاب والسنة والنظر دل على وجوده؛ أي: على وجود ذات موصوفة للصفات، ولا يُعدُّ هذا تركيباً، ولو سمّيته تركيباً فإنه لا يكون تركيباً.

وَالسَّادِسُ التَّرْكِيبُ مِنْ مَّاهِيَةٍ وَوُجُودِهَا مَا هَا هُنَا شَيْئَانِ

قوله: (التركيب من الماهية والوجود)، هذا أيضاً يُسمّى تركيباً عند الفلاسفة، ولكنه عند التأمل ليس بتركيب، وذلك لأن ماهية الشيء هي عن وجودها إذ لا يعقل أن تكون ماهية بلا وجود إلا في الذهن؛ لأن الماهية ليست شيء ووجودها شيء آخر لكن الذهن قد يتصور وجود ماهية بلا وجود كما يتصور اجتماع النقيضين مع أن ذلك في الخارج لا يمكن كأن يتصور إنسانية بلا إنسان، كالتي يسمونها الكليات لكن حقيقة الأمر لا يمكن أن يوجد إنسان بلا وجود أبداً، لأن الذهن قد يطلب الشيء المستحيل على أنه مهان.

فقول المؤلف رَحْمَةُ اللَّهِ: (ووجودها ماها هنا شيئان) معناه أن الماهية ووجودها لا يمكن أن يُسمّى تركيباً؛ لأنه ليس هناك فرق بين الماهية ووجود الماهية.

إِلَّا إِذَا اخْتَلَفَ اعْتِبَارُهُمَا فَذَا فِي الذَّهْنِ وَالثَّانِي فِي الأَعْيَانِ

يعني: أن الماهية هي وجود الشيء إلا إذا اختلف الاعتبار؛ بحيث يقال: إن الذهن قد يفرض وجود ماهية بلا وجود؛ كأن يفرض الذهن إنساناً لكن بلا وجود إنسانية، هذا ممكن، فيمكن أن نقول: إن الماهية الذهنية غير الماهية الخارجية، أما الماهية الخارجية فإن وجودها هو وجودها في الحقيقة، فليس هناك تركيب بينها.

فَهُنَاكَ يَعْقِلُ كَوْنُ ذَا غَيْرًا لَذَا فَعَلَى اعْتِبَارِهِمَا هُمَا غَيْرَانِ

أَمَّا إِذَا اتَّحَدَا اعْتِبَارًا كَانَ نَفْسُ وَوُجُودُهَا هُوَ ذَاتُهَا لِأَنَّ

أي: أن هذا الأمر واضح؛ لأن الأول تركيب ذات وصفات غير الوجود، لكن هنا

تركيب الذات والوجود، أي: ماهية الشيء ووجود الشيء، فنقول: لا يمكن أن توجد ماهية بلا وجود أبدًا، ولكن قد يوجد ذات بلا سمع ولا بصر، لكن شيء بلا وجود هذا شيء لا يمكن أن يوجد، إلا إذا قدرتها اعتبارًا بالذهن، وقلت: يمكن أن يتصور الإنسان ماهية بلا وجود، أما في الخارج فلا يوجد ماهية إلا بوجود، ولهذا قال: (أما إذا اتَّحدا اعتبارًا) أي: باعتبار وجود الخارج.

أَمَا إِذَا اتَّحَدَا عَيْبَارًا كَانَ نَفْسٌ وَجُودَهَا هُوَ ذَاتُهَا لَا تَانٍ
مَنْ قَالَ شَيْئًا غَيْرَ ذَا كَانَ الَّذِي قَدْ قَالَهُ ضَرْبًا مِنَ الْفَعْلَانِ
قوله: (ضربًا من الفعلان) أي: من الوصف الذي على وزن فعلان؛ مثل: البهتان.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٣٠٣٢- هَذَا وَكَمْ خَبَطِ هُنَا قَدْ زَالَ بِاِث

تَفْصِيلٍ وَهُوَ الْأَضْلُ فِي الْعِرْفَانِ

٣٠٣٣- وَابْنُ الْخَطِيبِ وَغَيْرُهُ مِنْ بَعْدِهِ

لَمْ يَهْتَدُوا لِمَوَاقِعِ الْفُرْقَانِ

٣٠٣٤- بَلْ خَبَطُوا نَقْلًا وَبَحْثًا أَوْجَبَا

شَكًّا لِكُلِّ مَلَدِدٍ حَيْرَانِ

٣٠٣٥- هَلْ ذَاتُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَجُودُهُ

أَمْ غَيْرُهُ فَهَمَّا إِذَا شَيْئَانِ

٣٠٣٦- فَيَكُونُ تَرْكِيبًا مُحَالًا ذَاكَ إِنْ

قُلْنَا بِهِ فَيَصِيرُ ذَا إِمْكَانِ

٣٠٣٧- وَإِذَا نَفَيْنَا ذَاكَ صَارَ وَجُودُهُ

كَالْمُطْلَقِ الْمَوْجُودِ فِي الْأَذْهَانِ

٣٠٣٨- وَحَكُوا أَقَاوِيلًا ثَلَاثًا ذَيْنِكَ أَلْ

قَوْلِينَ إِطْلَاقًا بِإِلَّا فُزَّانِ

٣٠٣٩- الثَّالِثُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْوَاجِبِ أَلْ

أَعْلَى وَبَيْنَ وُجُودِ ذِي الْإِمْكَانِ

٣٠٤٠- وَسَطُوا عَلَيْهَا كُلِّهَا بِالنَّقْضِ وَأَلْ

إِبْطَالِ وَالْإِشْكَالِ لِلأَذْهَانِ^(١)

٣٠٤١- حَتَّى أَتَى مِنْ أَرْضِ أَمَدٍ آخِرًا

نُورٌ كَبِيرٌ بَلْ حَقِيرُ الشَّانِ

٣٠٤٢- قَالَ الصَّوَابُ الْوَقْفُ فِي ذَا كُلِّهِ

وَالشَّكُّ فِيهِ ظَاهِرُ التَّيْبَانِ

٣٠٤٣- هَذَا قُصَارَى بَحْثِهِ وَعُلُومِهِ

أَنْ شَكُّ فِي اللَّهِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هذا تكميل لما سبق في النوع السادس من التركيب، وهو التركيب من الوجود والماهية،

(١) [٣٠٣٣: ٣٠٤٠] قال العلامة محمد خليل هراس:

وبهذا يتضح أن ما يدعيه هؤلاء من تركيب الأشخاص من الماهية والوجود في الخارج باطل، وزال بهذا التفصيل الذي قدمناه كثير مما تحبط فيه القوم في هذه المسألة والتفصيل دائماً هو الأساس الذي بُني عليه كل معرفة صحيحة، ولهذا ترى ابن الخطيب المعروف بالفخر الرازي هو وحزبه من المتفلسفين لما لم يبتدوا لمواقع الفرق بين الوجود في الذهن والوجود في الخارج أخذوا يخبطون خبط عشواء حتى الأفكار وأثاروا الشكوك حين أخذوا يتساءلون: هل ذات الباري جل وعلا عين وجوده أم غيره؟

فإن قلنا أنها غيره كان هناك شيان مُتغايران فيكون الباري مركباً منها فيكون مفتقراً إلى كل واحد منها، والمفتقر إلى غيره ممكن فيلزم أن يكون الباري ممكناً، وإن قلنا أن ذاته عين وجوده، ومعلوم أن الذات أي الماهية أمر كلي صار وجوده وجوداً مُطلقاً لا تحقق له إلا في الأذهان.



وهو رأي الفلاسفة، يقولون: إن الشيء مُرَكَّبٌ من وجوده وماهيته، ونحن نقول: إن الوجود هو الماهية، ولا يُتَصَوَّرُ انفكاك أحدهما عن الآخر إلا في الذهن، أما في الواقع والحقيقة والخارج فإنه لا يمكن أن يفترقا، قال:

هَذَا وَكَمْ خَبِطَ هُنَا قَدْ زَالَ بِالنَّهْ
تَفْصِيلٍ وَهُوَ الْأَصْلُ فِي الْعِرْفَانِ

قوله: (الْحَبَطُ) معناه: التحدُّثُ بالشيء على غير رَوِيَّةٍ؛ بل يَخْبِطُ خَبَطًا عَشْوَائِيًّا: كم من خَبَطَ قد زال بالتفصيل وهو الأصل، ولهذا نجد أن التفصيل دائما في الأقوال المضطربة يكون حلاً للنزاع.

مثال ذلك: مثلاً اختلافهم في الجسم؛ هل يُوصَفُ الله بأنه ذو جسم أو لا؟ فمنهم من أنكر ذلك، ومنهم من أثبتته، ومنهم من فصل، وكذلك الحَيْرُ، والحدِّ، وما أشبه ذلك من الكلمات المُحدَّثة التي اختلف الناس في إثباتها أو نفيها، فيأتي التفصيل فيقضي عليها، ويبيِّن الحق، فالأصل في هذه المُجملات المتشابهة أن تُحَلَّ بالتفصيل.

وَابْنُ الْخَطِيبِ وَحِزْبُهُ مِنْ بَعْدِهِ
لَمْ يَهْتَدُوا لِمَوَاقِعِ الْفُرْقَانِ

ابن الخطيب هو الرازي المُفسِّر المشهور، والمُتَكَلِّمُ الصوفي الفلسفي، وله شطحات كثيرة في التفسير وغيره، ولكن يُقال: إنه في آخر عُمُرِهِ تاب إلى الله، والله أعلم، لكن مؤلفاته معروفة مشهورة.

بَلْ خَبَطُوا نَقْلًا وَبَحْثًا أَوْجَبًا
شَكًّا لِكُلِّ مُلَدِّدٍ حَيْرَانِ

قوله: (خَبَطُوا نَقْلًا)؛ أي: فيما نقلوه عن غيرهم، وبحثا فيما ناقشوه من آراء غيرهم، ولهذا يقولون: إن الرازي من خصائص بحثه أنه يُورِدُ المُشْكِلَ على وجهٍ يُوقِعُ في الحَيْرَةِ، ولا يأتي بحلِّها، فهو كما قال بعض المغاربة فيه، يقول: إنه يعرِّضُ المُشْكِلاتِ نقداً، ولكن يكون حلُّها نسيئةً؛ يعني: معناه: يُعْطِيكَ المُشْكِلاتِ حالاً، وأما الحل فلا يُعْطِيكَ إياه، وهذا لا شك أن فيه مصلحة، وهو أنه يُسَدُّ على الخصم كل باب الإيرادات، لكنه إذا يتمثل بقوله صار فيه نقصٌ من هذه الناحية؛ لأنه يُقال للإنسان: إما أن تأتي بالْحُجَجِ، وتردَّ عليها، وإما أن تسكُتَ، أما أن تفتح باب الثغرات ثم تعجز عن سدِّ هذه الأبواب فهذا يُعْتَبَرُ نقصاً.

وقوله: «خَبَطُوا نَقْلًا وَبَحْثًا» نقلاً فيما نقلوه عن غيرهم، وبحثا فيما ناقشوه.

وقوله: (أَوْجَبًا شَكًّا) أوجبا الضمير يعود على المنقول والمبحوث.



وقوله: (شكًا لكل مُلَدِّ حيران) المُلَدِّ معناه: الذي لم تُيسَّر له الأمور؛ بل يُلَدِّدُ الله أمره، ولا يُيسَّر له أمره، والحيران معروف أي المُتَحَيِّر.

هَلْ ذَاتُ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَجُودُهُ أَمْ غَيْرُهُ فَهَمَّا إِذَا شَيْئَانِ

المعنى: أن ذات الله هي عين وجوده، أم هناك ذات ثم وجود؟

إن قلنا بالثاني صار هناك تركيب بين الذات والوجود، كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: (أم غيره فيها إذا شيئان).

فَيَكُونُ تَرْكِيبًا مُحَالًا ذَاكَ إِنْ قُلْنَا بِهِ فَيَصِيرُ ذَا إِمْكَانٍ

يعني: وإذا قلنا: إن وجوده غير ذاته لزم من هذا التركيب التعدد، أن يكون هناك وجود، وهناك ذات، وقد سبق لنا أن هذا التركيب باطل، وأن وجود كل شيء هو ذاته هذا باعتبار الأمر الخارج لا باعتبار ما يفرضه الذهن، فالذهن قد يفرض أشياء مُستَحِيلَة.

فَيَكُونُ تَرْكِيبًا مُحَالًا ذَاكَ إِنْ قُلْنَا بِهِ فَيَصِيرُ ذَا إِمْكَانٍ

يعني: إن قلنا به صار ذا إمكان مع أنه شيءٌ مُحَال.

وَإِذَا نَفَيْنَا ذَاكَ صَارَ وَجُودُهُ كَالْمُطْلَقِ الْمَوْجُودِ فِي الْأَذْهَانِ

يعني: أن ذات الله ليست هي عين وجوده، فيكون وجوده كالمطلق الموجود في الأذهان، ما له المطلق إذا قالوا: الشيء المطلق في الذهن؛ يعني: الذي لا يتقيد بصفة؛ بل هو موجود بشرط الإطلاق، ليس له صفة، ولا وجود، ولا حياة، ولا غيرها من الصفات.

فهنا الآن ذكروا قولين: هل ذاته هي عين وجوده، أو هما شيئان؟ وإذا نفينا الشئين صارت الذات موجودة مطلقاً بشرط الإطلاق، ومعنى: مطلقة يعني: غير متصفة بصفة، وهذا لا يمكن أن يوجد في الخارج أبداً، لا يوجد شيء موجود إلا وهو متصف بصفة.

وَحَكَمُوا أَقَاوِيلًا ثَلَاثًا ذَيْنِكَ أَلْ قَوْلَيْنِ إِطْلَاقًا بِلَا فُرْقَانِ

الفرقان هو ما أشار إليه المؤلف أولاً بأنه يُقال: إن كان المراد الفرض الذهني، فيمكن أن تنفك الذات عن الوجود، وأما إذا كان الحقيقة الواقعة فلا يمكن أن تنفرد الذات عن الوجود؛ إذ أن الذات هي عين وجوده.

الثَّالِثُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْوَاجِبِ أَلْ أَعْلَى وَبَيْنَ وَجُودِ ذِي الْإِمْكَانِ

يعني: يُفَرِّقُونَ بين الواجب الوجود وهو الله، وبين الممكن الوجود وهو المخلوق، فيقال: الرب ذاته عينٌ وجوده بخلاف المخلوق، فتكون الأقاويل الآن ثلاثة:

«إما النفي»؛ نفي أن يكون وجوده هو عين الذات.

«أو يكون هو عين الذات»، ويكون مُرَكَّبًا.

«أو يُفَرِّقُ بين وجود الممكن»، ووجود الواجب.

وَسَطُوا عَلَيْهَا كُلَّهَا بِالنَّقْضِ وَالْإِنْطَالِ وَالشَّكِّ لِلْإِنْسَانِ

يعني: لما ذكروا الأقاويل الثلاثة نقضوها كلها، ولم يؤتوا بدورها فبقي الإنسان مُتَحِيرًا، تُذَكَّرُ الأقاويل عنده، ولا تُنْقَضُ، ولا يُذَكَّرُ عنها بديلًا، فيكون هذا هو غاية ما يُعْطُونَ من التشكيك للإنسان.

حَتَّى أَتَى مِنْ أَرْضِ أَمَدٍ آخِرًا ثَوْرٌ كَبِيرٌ بَلَّ حَقِيرُ الشَّانِ

وهو الأُمْدِي الأَصُولِي المشهور، أتى من أرض أمْد، وقال:

قَالَ الصَّوَابُ الْوَقْفُ فِي ذَا كُلِّهِ وَالشَّكُّ فِيهِ ظَاهِرُ التَّبَيُّانِ

نتوقَّف فلا نقول: ذاته عين وجوده، ولا غيره، ولا تُفَرِّقُ بين الواجب والممكن؛ بل نتوقَّف.

قَالَ الصَّوَابُ الْوَقْفُ فِي ذَا كُلِّهِ وَالشَّكُّ فِيهِ ظَاهِرُ التَّبَيُّانِ

الشك في هذا القول ظاهر التبيان؛ لأن المتوقَّف شاك، لم يجد من هذا شيئًا على شيء.

هَذَا قُصَارَى بَحْثِهِ وَعُلُومِهِ أَنْ شَكَّ فِي اللَّهِ الْعَظِيمِ الشَّانِ

أن شكَّ: بدل من قُصَارَى؛ يعني: قُصَارَى بحثه أن شكَّ في الله العظيم الشان، فصار غاية أمره الشكُّ في الله - والعياذ بالله -، وهذا غاية ما يكون من الضلال.





مَهْد بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في أحكام التراكيب الستة

ما تقدم من شرح «التراكيب» فإنما هو اصطلاح للمتكلمين أخذوه عن فلاسفة اليونان. أما حكمها في الواقع فإن القسامين الأولين «تركيب الامتزاج» كالحیوان و«تركيب الجوار» كالسقف مع الجدار فهما التركيبان المعروفان في النطق والعين والذهن، وقد تقدم أنه لا يلزم من إثبات صفات الله على الوجه الوارد في الكتاب والسنة شيء منها عند كل أحد. والثالث والرابع «التركيب من الجواهر المنفردة» أو «من الهیولي والصورة» أكثر العقلاء لا يثبتونها ويرون أنه لا حقيقة لذلك كما تقدم، وعلى إثباتها عند من يقول به فلا يلزم ذلك في إثبات الصفات. وأما التركيب الخامس والسادس عند المصطلحين عليهما فقد تقدم أنه لا يسمى هذا تركيباً وعلى فرض تسميته ليس لهم دليل واحد على نفيه، لكن لما كانت عقيدتهم الفاسدة أدتهم إلى نفي صفات الله جعلوا يتوسلون إلى قولهم بكل شبهة تروّجه، وإذا قالوا لا مشاحة في الاصطلاح فلنا أن نسمي ذلك تركيباً، قيل: لا مشاحة في الاصطلاحات التي لا تتضمن محذوراً، وأما تمكين المبطل أن يصطلح هو وذووه اصطلاحات يتوسلون بها إلى رد الحق ونصر الباطل فهذا يشاح فيه كل المشاحة ويدفع بكل وسيلة، فإن اصطلاحهم هذا ردّوا به ما ثبت في الكتاب والسنة من صفات الله وعلوه على عرشه وتكليمه بوحیه وتكليمه من شاء من عباده ورؤية العباد له وغير ذلك مما هو ثابت في الكتاب والسنة.

والدليل العقلي والنقلي إنما قام ودل على استناد الكون جميعه إلى الرب العظيم في إيجاده وإمداده وبقائه وجميع شئونه وما يحتاج إليه، وكذلك دل على انتهاء الكون إلى الله وأن إلى ربك المنتهى في كل شيء. فالأصل الأول افتقار جميع العالم العلوي والسفلي إلى

الله في كل شيء وغناه الكامل عنها، والأصل الثاني فيه إثبات كمال أوصافه وأن له غاية الكمال الذي لا يتصوره المتصورون، ولا يعبر عن كنهه المعبرون، فإن محمداً ﷺ أعلم خلقه قال: «لَا أَحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ» وإذا سبحه يوم القيامة عندما يشفع للخلق يفتح عليه من محامد الله وثنائه وتمجيده ما لم يفتحه على أحد من الأولين والآخرين، فكل مخلوق قاهر لمخلوق آخر ثم ذلك القاهر فوقه من هو أقدر منه حتى تنتهي العزة والقدرة للواحد القهار. وكذلك كل عالم فوقه من أعلم منه، حتى ينتهي العلم إلى المحيط علمه بكل شيء.

وهكذا جميع أوصاف الكمال تنتهي كلها إلى من هو بها أحق من كل موجود وهو الذي له الكمال المطلق بكل معنى واعتبار. وليس المحذور من إثبات الصفات كما توهمته الجهمية، وإنما أكبر المحاذير وأظعها من إثبات إلهين اثنين. وأما إذا قيل إن الإله واحد متفرد في وحدانيته كثير الأسماء والصفات فهو الحق الأكبر الذي لا أحق منه ولا أعظم، وهو أكبر الأصول وهو أصل الكمال، فإن النقص يرجع إلى أمرين: إما سلب كماله وصفاته، وإما اعتقاد الشركة لله تعالى. فالذم كله راجع إلى هذين الأمرين، كما أن الحمد والمدح والثناء راجع إلى إثبات صفات الله ونعوته.

ومن تأمل هذا العالم كله، وتغلغل فكره فيما احتوى عليه من آثار القدرة والرحمة والحكمة، رآه شاهداً بلسان المقال ولسان الحال بأن الله هو الخالق وحده، المعبود وحده، الذي له كل صفة كمال ورحمة وحكمة ومدح وثناء وتعظيم، وأنه على كل شيء قدير، فعال لما يريد، له الحياة الكاملة والقيومية التامة فلا تأخذه سنة ولا نوم، قام بنفسه بما هو عليه من كمال الغنى والعظمة، وقام بجميع المخلوقات، فكل يوم هو في شأن، يدبر الأمر، يفصل الآيات.

فهذه الأصول يشهد بها الكون لله الواحد القهار، لكن الجهمية ردوا هذه الشهادات المبينة على البراهين القواطع بشبه يونانية لا تسمن ولا تغني من جوع. وإذا أردت أن تعرف حقيقة التركيب الذي يصلح به المتكلمون ويقدمونه على كل شيء فعبّر عن المعاني المقصودة الصحيحة بعبارات واضحة، خصوصاً الألفاظ القرآنية والألفاظ النبوية، فإنها مضمون لها العصمة وقد استولت على غاية البيان، فقل في هذا الذي سموه تركيباً ونفوا صفات الله لأجل هذا قل كاشفاً للمعنى: لو كان موصوفاً بصفات الكمال كان موصوفاً بصفات.



الكمال، ولو كان موصوفاً بأنه العلي الأعلى لكان علياً أعلى، ولو كان موصوفاً بالكلام لكان موصوفاً بالكلام، ونحو ذلك من العبارات البيّنة الواضحة التي تعبر عن المعنى الصحيح بعبارة صحيحة، وفيها يتحد اللازم والملزوم، فإذا عبر عنه النافي بعبارة أُخر وتدرج بها إلى نفيها ظهر أنه مكابر معاند عندما ينكشف المعنى بالعبارات المذكورة، فإذا أصر على التعبير بالعبارات البدعية فقل: إن أردت ما ذكرنا من هذا المعنى الواضح فنحن نقبل المعنى الذي دل عليه الشرع ولو عبر عنه بأي عبارة تكون.



فصل

في أحكام هذه التراكيب الستة

٣٠٤٤- فالأولانِ حَقِيقَةُ التَّرْكِيبِ لَا

تَعُدُّوهُمَا فِي اللَّفْظِ وَالْأَذْهَانِ

٣٠٤٥- وَكَذَلِكَ الْأَعْيَانُ أَيْضًا إِنَّمَا

التَّرْكِيبُ فِيهَا ذَانِكَ التَّوَعَّانِ

٣٠٤٦- وَالْأَوْسَطَانِ هُمَا اللَّذَانِ تَنَازَعَا أَلْ

عُقْلَاءَ فِي تَرْكِيبِ ذِي الْجُثْمَانِ

٣٠٤٧- وَلَهُمْ أَقَاوِيلُ ثَلَاثٌ قَدْ حَكِيَ

سَنَاهَا وَبَيَّنَّا أَتَمَّ بَيَانِ

٣٠٤٨- وَالْآخِرَانِ هُمَا اللَّذَانِ عَلَيْهِمَا

دَارَتْ رَحَى الْحَزْبِ الَّتِي تَرِيَانِ

٣٠٤٩- أَنْتُمْ جَعَلْتُمْ وَضْفَهُ سُبْحَانَهُ

بِعُلُوِّهِ مِنْ فَوْقِ ذِي الْأَكْوَانِ

٣٠٥٠- وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا الَّتِي ثُبَّتْ لَهُ

بِالنَّقْلِ وَالْمَعْقُولِ ذِي الْبُرْهَانِ

٣٠٥١- مِنْ جُمْلَةِ التَّرْكِيبِ ثُمَّ نَفَيْتُمْ

مَضْمُونَهُ مِنْ غَيْرِ مَا بُرْهَانِ

٣٠٥٢- فَجَعَلْتُمْ الْمِرْقَاةَ لِلتَّعْطِيلِ هَـ

هَذَا الاصطلاحَ وَذَا مِنَ الْعُدْوَانِ

٣٠٥٣- لَكِنْ إِذَا قِيلَ اضْطِلَّاحٌ حَدَثٌ

لَا حَجَرَ فِي هَذَا عَلَى إِنْسَانٍ

٣٠٥٤- فَتَقُولُ نَفْيَكُمْ بِهِذَا الاِضْطِلَّا

حِ صِفَاتِهِ هُوَ أَبْطَلُ الْبُطْلَانِ

٣٠٥٥- وَكَذَلِكَ نَفْيَكُمْ بِهِ لِعُلُوِّهِ

فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانٍ

٣٠٥٦- وَكَذَلِكَ نَفْيَكُمْ بِهِ لِكَلَامِهِ

بِالْوَحْيِ كَالْتُّورَةِ وَالْقُرْآنِ

٣٠٥٧- وَكَذَلِكَ نَفْيَكُمْ لِرُؤُوسِنَا لَهُ

يَوْمَ الْمَعَادِ كَمَا يُرَى الْقَمَرَانِ

٣٠٥٨- وَكَذَلِكَ نَفْيَكُمْ لِسَائِرِ مَا أَتَى

فِي النَّقْلِ مِنْ وَضْفٍ بِغَيْرِ مَعَانٍ

٣٠٥٩- كَالْوَجْهِ وَالْيَدِ وَالْأَصَابِعِ وَالَّذِي

أَبَدًا يَسُوءُكُمْ بِلَا كِتْمَانٍ

٣٠٦٠- وَبِوُدِّكُمْ لَوْلَمْ يَقُلْهُ رَبُّنَا

وَرَسُولُهُ الْمَنْبُغُوثُ بِالْبُرْهَانِ

٣٠٦١- وَبِوُدِّكُمْ وَاللَّهُ لَمَّا قَالَهُ

أَنْ لَيْسَ يَدْخُلُ مَسْمَعِ الْإِنْسَانِ^(١)

(١) [٣٠٥٣: ٣٠٦١] قال العلامة محمد خليل هراس:

فإذا كنتم قد اصطلحتم على تسمية هذا تركيباً، فسموا كيف شئتم إذ لا مشاحة في الاصطلاح، وأما أن تتخذوا من هذا الاصطلاح الحادث لكم ذريعة إلى نفي صفاته فهذا محض الباطل وعين الافتراء، وكذلك

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

يَبَيِّنُ الْمَوْلُفُ رَحِمَهُ اللهُ أَحْكَامَ هَذِهِ التَّرَاكِيِبِ السِّتَةِ.

فَالأَوَّلَانِ حَقِيقَةُ التَّرْكِيبِ لَا تَعْدُوهُمَا فِي اللَّفْظِ وَالْأَذْهَانِ

وهما: التركيب بين مُتَبَايِنَيْنِ، والتركيب بين مُتَجَاوِرَيْنِ، فهنا التركيب فيهما واضح، فالجسم مثلاً مُرَكَّبٌ من عَظْمٍ وِلْحْمٍ وَعَصَبٍ وَجِلْدٍ، وما أشبه ذلك، والباب في إطاره مُرَكَّبٌ من الباب، والإطار، وما أشبه ذلك

فَالأَوَّلَانِ حَقِيقَةُ التَّرْكِيبِ لَا تَعْدُوهُمَا فِي اللَّفْظِ وَالْأَذْهَانِ

وَكَذَلِكَ الْأَعْيَانُ أَيْضًا إِنَّمَا التَّرْكِيبُ فِيهَا ذَانِكَ النَّوْعَانِ

وَالأَوْسَطَانِ هُمَا اللَّذَانِ تَنَازَعَا أَلْ عُقْلَاءَ فِي تَرْكِيبِ ذِي الْجُثْمَانِ

ما هما؟ الرابع المُرَكَّبُ من الهَيُولَا والصورة، والثالث المُرَكَّبُ من مُثَائِلِ يُدْعَى الْجَوَاهِرُ؛ يعني: مذهب الفلاسفة، ومذهب المتكلمين، الهَيُولَى الصورة، والجواهر الفردة.

وَالأَوْسَطَانِ هُمَا اللَّذَانِ تَنَازَعَا أَلْ عُقْلَاءَ فِي تَرْكِيبِ ذِي الْجُثْمَانِ

وَلَهُمْ أَقَاوِيلٌ ثَلَاثٌ قَدْ حَكِي نَاهَا وَبَيَّنَّا أَتَمَّ بَيَانِ

وَالْآخِرَانِ هُمَا اللَّذَانِ عَلِيَهُمَا دَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ الَّتِي تَرِيَانِ

وهي التركيب من الذات والصفات، والماهية والوجود؛ لأن الماهية والوجود حقيقة لا يعدو أن يكون من باب التركيب من الذات والصفات؛ إذ أن الوجود صفة الوجود.

أَنْتُمْ جَعَلْتُمْ وَصْفَهُ سُبْحَانَهُ بَعْلُوهُ مِنْ فَوْقِ ذِي الْأَكْوَانِ

وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا الَّتِي ثَبَّتَتْ لَهُ بِالثَّقَلِ وَالْمَعْقُولِ ذِي الْبُرْهَانِ

مِنْ جُمْلَةِ التَّرْكِيبِ ثُمَّ نَفَيْتُمْ مَضْمُونَهُ مِنْ غَيْرِ مَا بُرْهَانِ

نفىكم به لعلوه بذاته فوق جميع خلقه، ونفىكم به لكلامه بالوحي المنزل على رسله، كالتوراة والقرآن وغيرهما من كتبه، ونفىكم به لرؤية المؤمنين له يوم القيامة عياناً بأبصارهم كما يرى القمران. أي الشمس والقمر. وكذلك نفىكم به لسائر ما أتى به النقل من صفات الذات التي ليست معاني، كالوجه واليد والأصبع والقدم والساق وغيرها، مما لا يستطيعون كتمان ما يعلوكم من الكآبة والحزن عند تلاوة الآيات والأحاديث المثبتة لها.

فجعلوا اتصاف الله بصفاته من باب التركيب، وقالوا: التركيب في حق البارئ ممكناً، وقد ذكرنا أولاً ما قاله ابن القيم من أننا نُثِبَتِ هذا التركيب، وإن سَمَّيْتُمُوهُ تَرْكِيْبًا، فَإِنَّا لَن نَفَرٌ مِنْهُ لِمُجَرَّدِ مَا سَمَّيْتُمُوهُ، سَمُوهُ مَا شِئْتُمْ، فَنَحْنُ نُثِبَتِ لِهَذَا، وَنُثِبَتِ لَهُ صِفَاتٌ، سَمَّيْتُمُوهُ أَنْتُمْ تَرْكِيْبًا أَمْ لَمْ تُسَمُوهُ فَهَذَا لَا يَهْمُنَا.

فَجَعَلْتُمْ الْمَرْقَاةَ لِلتَّعْطِيلِ هـ ذَا الْإِضْطِلَاحِ وَذَا مِنَ الْعُدْوَانِ

تعطيل من؟ تعطيل الرب عز وجل من صفاته (وذا من العدوان).

لَكِنْ إِذَا قِيلَ إِضْطِلَاحٌ حَادِثٌ لَا حَجَرَ فِي هَذَا عَلَى إِنْسَانٍ

فَنَقُولُ نَفِيْكُمْ بِهَذَا الْإِضْطِلَاحِ ح صِفَاتِهِ هُوَ أَبْطَلُ الْبُطْلَانِ

يعني: لو قلتُم: هذا اصطلاح حادث، قلنا: لا بأس، لكن لا ننفي بذلك صفات الله عز وجل، والله أعلم.

يعني: في مسألتنا إذا قيل: إن من التركيب: تركيب الذات والصفات، فإذا قال إنسان: لا تُنْكِرُوا عَلَيْنَا هَذَا التَّرْكِيبَ؛ لِأَنَّ هَذَا إِضْطِلَاحٌ وَلَا مُشَاحَّةَ فِي الْإِضْطِلَاحِ، وَلَا حَجَرَ عَلَى الْإِنْسَانِ فِيمَا إِضْطَلَحَ عَلَيْهِ.

فَنَقُولُ نَفِيْكُمْ بِهَذَا الْإِضْطِلَاحِ ح صِفَاتِهِ هُوَ أَبْطَلُ الْبُطْلَانِ

يعني: سلّمنا أن هذا اصطلاح حكم، ولا تُنْكِرُ عَلَيْكُمْ الْإِضْطِلَاحَ، لَكِنَّ الَّذِي تُنْكِرُهُ هُوَ نَفِيْكُمْ لِلصِّفَاتِ مِنْ أَجْلِ هَذَا الْإِضْطِلَاحِ؛ حَيْثُ تَقُولُونَ: إِنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ يَسْتَلْزِمُ التَّرْكِيبَ، وَالتَّرْكِيبَ فِي حَقِّ الْخَالِقِ مُحَالٌ، وَحَيْثُذُ يُكُونُ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ مُحَالًا.

وَكَذَلِكَ نَفِيْكُمْ بِهِ لِغُلُوِّهِ فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانٍ

يعني: فإن هذا من أبطل الاصطلاح أن تُنْكِرُوا عُلُوَّ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ دَعْوَاكُمْ أَنَّ هَذَا يَسْتَلْزِمُ التَّرْكِيبَ، فَهَذَا بَاطِلٌ.

وَكَذَلِكَ نَفِيْكُمْ بِهِ لِكِلَابِهِ بِالْوَحْيِ كَالْتَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ

أي: تُنْكِرُهُ عَلَيْكُمْ، وَنَقُولُ: إِنَّهُ بَاطِلٌ، وَإِنْ وَافَقْنَاكُمْ عَلَى تَسْمِيَّتِكُمْ هَذَا تَرْكِيْبًا.

وَكَذَلِكَ نَفِيْكُمْ لِرُؤْيَيْنَا لَهُ يَوْمَ الْمَعَادِ كَمَا يَرَى الْقَمْرَانِ

وَكَذَلِكَ نَفِيْكُمْ لِسَائِرِ مَا أَتَى فِي النَّقْلِ مِنْ وَضْفِ بَعْضِ مَعَانِ

يعني: أن الذي نُكِرَ عليكم ليس تسميتكم هذا تركيباً؛ بل إنكاركم للصفات من أجله.
 كَالْوَجْهِ وَالْيَدِ وَالْأَصَابِعِ وَالَّذِي أَبَدًا يَسُوءُكُمْ بِلَا كِتْمَانٍ
 فالوجه ثابت لله عز وجل بالقرآن والسنة وإجماع السلف، وكذلك اليد، والأصابع
 ثبتت بالسنة، وكذلك الذي يسوءكم أبداً كنزوله إلى السماء الدنيا، وما أشبه ذلك.
 وَبِوُدِّكُمْ لَوْ لَمْ يَقُلْهُ رَبُّنَا وَرَسُولُهُ الْمُبْعُوثُ بِالْبُرْهَانِ
 يعني: أنكم تودّون أن الله لم يصف نفسه بهذه الصفات، وهذا من أغرب ما يكون، أن
 يكونوا هم أشدّ غيراً من الله على نفسه، فيكروهون أن يصف الله نفسه بهذه الصفات خوفاً
 من التركيب - على زعمهم -.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٣٠٦١- وَبِوُدِّكُمْ وَاللَّهُ لَمَّا قَالَهَا

أَنْ لَيْسَ يَدْخُلُ مَسْمَعِ الْإِنْسَانِ

٣٠٦٢- قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى اسْتِنَادِ الْكَوْنِ أَجْ

مَعَهُ إِلَى خَلْقِهِ الرَّحْمَنِ

٣٠٦٣- مَا قَامَ قَطُّ عَلَى انْتِفَاءِ صِفَاتِهِ

وَعُلُوِّهِ مِنْ فَوْقِ ذِي الْأَكْوَانِ

٣٠٦٤- هُوَ وَاحِدٌ فِي وَصْفِهِ وَعُلُوِّهِ

مَا لِلْوَرَى رَبِّ سِوَاهُ ثَانِ

٣٠٦٥- فَلَايَ مَعْنَى تَجَحُّدُونَ عُلُوِّهِ

وَصِفَاتِهِ بِالْفُشْرِ وَالْهَنْدِيَانِ

٣٠٦٦- هَذَا وَمَا الْمَخْدُورُ إِلَّا أَنْ يَقَا

لَ مَعَ الْإِلَهِ لَنَا إِلَهٌ ثَانِ

٣٠٦٧- أو أن يعطل عن صفات كماله

هذان مخذوران مخظوران

٣٠٦٨- أما إذا ما قيل رب واحد

أوصافه أربت على الحسبان

٣٠٦٩- وهو القديم فلم يزل بصفاته

متوحدًا بل دائم الإحسان

٣٠٧٠- فبأي بزهان نفيتم ذا وقل

ثم ليس هذا قط في الإمكان

٣٠٧١- فلئن زعمتم أنه نقص فذا

بهت فما في ذا من النقصان

٣٠٧٢- النقص في أمرين سلب كماله

أو شركة للواحد الرحمن

٣٠٧٣- أتكون أوصاف الكمال نقيصة

في أي عقل ذلك أم قرآن؟

٣٠٧٤- إن الكمال بكثرة الأوصاف لا

في سلبها ذا واضح البزهان

٣٠٧٥- ما النقص غير السلب قط وكل نق

ص أضله سلب وهذا واضح التبيان

٣٠٧٦- فالجهل سلب العلم وهو نقيصة

والظلم سلب العدل والإحسان

٣٠٧٧- متناقض الرحمن سالب وصفه

- حَقًّا تَعَالَى اللَّهُ عَنْ نُقْصَانِ
 ٣٠٧٨- وَكَذَا الشَّاءِ عَلَيْهِ ذَكَرُ صِفَاتِهِ
 وَالْحَمْدُ وَالتَّمجِيدُ كُلُّ أَوَانِ
 ٣٠٧٩- وَلِذَلِكَ أَعْلَمُ خَلْقِهِ أَذْرَاهُمُ
 بِصِفَاتِهِ مَنْ جَاءَ بِالقُرْآنِ
 ٣٠٨٠- وَلَهُ صِفَاتٌ لَيْسَ يَخْصِيهَا سِوَا
 هُ مِنْ مَلَائِكَةٍ وَلَا إِنْسَانِ
 ٣٠٨١- وَلِذَلِكَ يَنْبِي فِي القِيَامَةِ سَاجِدًا
 لَمَّا يَرَاهُ المَضْطَفَى بِعِيَانِ
 ٣٠٨٢- بِشَاءِ حَمْدٍ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الذُّ
 دُنْيَا لِيَخْصِيهِ مَدَى الأَزْمَانِ
 ٣٠٨٣- وَتَنَاقُؤُهُ بِصِفَاتِهِ لَا بِالشُّلُ
 بِ كَمَا يَقُولُ العَادِمُ العِرْفَانِ
 ٣٠٨٤- وَالْعَقْلُ دَلٌّ عَلَى انْتِهَاءِ الكَوْنِ أَجْر
 مَعَهُ إِلَى رَبِّ عَظِيمِ الشَّانِ
 ٣٠٨٥- وَثُبُوتِ أَوْصَافِ الكَمَالِ لِذَاتِهِ
 لَا يَقْتَضِي إِنْطِالَ ذَا البِرْهَانِ
 ٣٠٨٦- وَالکَوْنُ يَشْهَدُ أَنَّ خَالِقَهُ تَعَا
 لَى ذُو الكَمَالِ وَدَائِمِ السُّلْطَانِ
 ٣٠٨٧- وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ
 فَوْقَ الوُجُودِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانِ

٣٠٨٨- وَكَذَٰكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَلْ

مَعْبُودٌ لَا شَيْءَ مِثْلَهُ مِنَ الْأَكْوَانِ^(١)

٣٠٨٩- وَكَذَٰكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ

ذُو حِكْمَةٍ فِي غَايَةِ الْإِثْقَانِ^(٢)

٣٠٩٠- وَكَذَٰكَ يَشْهَدُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ ذُو قُدْرَةٍ

حَيِّ عَلِيمٍ دَائِمٍ الْإِحْسَانِ^(٣)

٣٠٩١- وَكَذَٰكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ الْفَعَّالُ حَقًّا

قَاكُلُّ يَوْمِ رَبُّنَا فِي شَانِ

٣٠٩٢- وَكَذَٰكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ الْمُخْتَارُ فِي

أَفْعَالِهِ حَقًّا بِلَا نُكْرَانَ

٣٠٩٣- وَكَذَٰكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ الْحَيُّ الَّذِي

مَا لِلْمَمَاتِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانَ

٣٠٩٤- وَكَذَٰكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ الْقَيُّومُ قَا

مَ بِنَفْسِهِ وَمُقِيمٌ ذِي الْأَكْوَانِ

(١) [٣٠٨٨] قال العلامة محمد خليل هراس:

وكذلك تشهد الكائنات بأنه هو وحده المعبود بحق الذي لا تتبغي العبادة إلا له.

(٢) [٣٠٨٩] قال العلامة محمد خليل هراس:

ولهذا يعيب القرآن على المشركين أنهم مع إقرارهم بانفراده سبحانه بالربوبية وشئونها والخلق والرزق والملك والتدبير يعبدون معه غيره ويجعلون له أنداداً من خلقه.

(٣) [٣٠٩٠] قال العلامة محمد خليل هراس:

وتشهد له بتعام القدرة التي لا تعجز عن شيء من الممكنات، وبدوام البر والإحسان إلى خلقه، وبدوام الفعل فهو سبحانه لم يزل ولا يزال فعالاً. كما قال تعالى: ﴿فَقَالُ لِمَا يُرِيدُ﴾ وكما قال: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فما دام حياً فهو فعال إذ الفعل لازم الحياة.

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

وَبِؤَدِّكُمْ وَاللهَ لَمَّا قَالَه
أَنْ لَيْسَ يَدْخُلُ مَسْمَعِ الْإِنْسَانِ
يعني: أنكم تودُّون أولاً أن الله لم يقله ولا رسوله، ثم تودُّون ثانياً أن لا تدخل مسمع
الإنسان، ولا يسمعها الناس، ولا تبلغهم.

قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى اسْتِنَادِ الْكُونِ أَجْ
مَعِهِ إِلَى خَلْقِهِ الرَّحْمَنِ
يعني: أن الكون كله مُفْتَقِرٌ إلى الله عز وجل؛ لأنه هو الخلاق الذي خلق، وأتى بالرحمن؛
لأن الكون مُفْتَقِرٌ إلى رحمة الله عز وجل، فلولا رحمة الله ما قام هذا الكون بأجمعه.

مَا قَامَ قَطُّ عَلَى انْتِفَاءِ صِفَاتِهِ
وَعُلُوِّهِ مِنْ فَوْقِ ذِي الْأَكْوَانِ
فليس في القرآن ولا في السنة نفي صفات الله، الذي فيها هو نفي المماثلة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ
شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:
٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مریم: ٦٥]، وهذا لا يدل على انتفاء الصفات، وإنما يدل على
كماله، وأنه لكماله لا يوجد له مثل.

هُوَ وَاحِدٌ فِي وَضْفِهِ وَعُلُوِّهِ
مَا لِلْوَرَى رَبِّ سِوَاهُ ثَانٍ
فَلَأَيِّ مَعْنَى تَجَحَّدُونَ عُلوَّهُ
وَصِفَاتِهِ بِالْفُشْرِ وَالْهَدْيَانِ
فشر الكلام اللغو، والهديان الكلام الذي لا يقصده صاحبه؛ بل يأتي من كبر أو نحوه.
هَذَا وَمَا الْمَحْدُورُ إِلَّا أَنْ يَقَا
لَ مَعَ الْإِلَهِ لَنَا إِلَهٌ ثَانٍ
وهذا هو الشرك، هذا هو المحذور، أما أن يُقال: إن الله واحد مُتَّصِفٌ بالصفات اللائقة
به، فهذا ليس بمحذور، المحذور أن تجعل مع الله إلهاً آخر.

أَوْ أَنْ يَعْتَطَلَ عَنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ
هَذَانِ مَحْدُورَانِ مَحْظُورَانِ
ما هما: الشرك والتعطيل، وقوله: (محذوران) أي: يجب الحذر منهما، وقوله: (محظوران)
أي: ممنوعان شرعاً؛ بل وعقلاً أيضاً، فإن العقل قد دلَّ على أن الله سبحانه وتعالى متصف
بصفات الكمال، وأنه لا شريك له في ذلك.

أَمَّا إِذَا مَا قِيلَ رَبُّ وَاحِدٌ
أَوْصَافُهُ أُرْبِتْ عَلَى الْحُسْبَانِ

فإن هذا ليس بمنكر، إذا قيل: هو ربُّ واحد، لكن صفاته لا تُحصَى، قوله: (أرَبت) يعني: زادت (على الحُسبان أو الحُسبان) يعني: الحساب.

وَهُوَ الْقَدِيمُ فَلَمْ يَزَلْ بِصِفَاتِهِ مُتَوَجِّدًا بَلْ دَائِمَ الْإِحْسَانِ

وهو القديم وصفًا، وليس اسمًا، فإنه ليس من أسماء الله القديم؛ لأن ذلك لم يرد لا في القرآن ولا في السنة، ولكن يُوصَف بأنه قديم، والقَدَم عندهم ليس هو القَدَم في اللغة العربية، فالقَدَم في اللغة العربية: سبق الغير ولو كان حادثًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَمَرَ قَدَرْنَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، أما القديم عند الفلاسفة وعند المتكلمين، فهو الذي لم يُسَبَقْ بعدم، ومع ذلك لا تُسَمَّى الله به، وإن كان معناه صحيحًا، لكننا لا نُسَمِّي الله به؛ لأن الأسماء توقيفية، وقد ذكر أهل العلم أنه يُعني عنه الأول الذي جاءت به النصوص، وفيه دلالة صريحة على أنه لم يسبقه أحد، ولم يُقَارِنه أحد في وجوده عز وجل، وأن الأمور تؤول إليه؛ لأن الأول قد يكون مشتقًا من الأولى أيضًا، إنما قول المؤلف: (وهو القديم) من باب الوصف لا الاسم.

وَهُوَ الْقَدِيمُ فَلَمْ يَزَلْ بِصِفَاتِهِ مُتَوَجِّدًا بَلْ دَائِمَ الْإِحْسَانِ

فَبِأَيِّ بُرْهَانٍ نَقَيْتُمْ ذَا وَقُلْ شُمْ لَيْسَ هَذَا قَطُّ فِي الْإِمْكَانِ

والاستفهام هنا للنفي والتحدّي؛ يعني: أي برهان ينفي ذلك، وأنه لا يمكن أن يتصف بالصفات؟ إن كان فأتوا به.

فَلَيْنَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ نَقْصٌ فَذَا بَهْتٌ فَمَا فِي ذَا مِنَ النُّقْصَانِ

يعني: لو قلتم: نفي ثبوت الصفات له؛ لأنه يقتضي أن يكون مُرَكَّبًا من ذات وصفات، وهذا نقص.

نقول: هذا كذب وبهت، فأَيُّ نقصٍ يكون في اتصاف الله عز وجل بالصفات الكاملة، النقص في الحقيقة عيب وهو منفي عن الله، ولهذا قال:

النُّقْصُ فِي أَمْرَيْنِ سَلْبُ كِمَالِهِ أَوْ شِرْكَةُ لِلْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

هذا النقص في أمرين:

إما سلب كماله، كما زعم أهل التعطيل.

وإما الإشراك به، كما زعم أهل التمثيل؛ فإن أهل التمثيل يُشَبِّهون الله مثيل، وهذا شرك،

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، إذن فالنقص فيمن غلا في الإثبات فمثل، أو غلا في النفي فعطل.

أَتَكُونُ أَوْصَافَ الْكَمَالِ نَقِيصَةً فِي أَيِّ عَقْلِ ذَاكَ أَمْ قُرْآنٍ؟

الجواب: لا تكون، لا بدلالة العقل، ولا بدلالة السمع الذي أشار إليه المؤلف بقوله: (أم قرآن).

إِنَّ الْكَمَالَ بِكَثْرَةِ الْأَوْصَافِ لَا فِي سَلْبِهَا ذَا وَاضِحُ الْبُرْهَانِ

الكمال بكثرة الأوصاف يعني: الكاملة، كلما كثرت أوصاف الكمال كثر الكمال، وكلما قلت قل الكمال، ولذلك نجد الرجل يكون أكمل إذا كان عنده علم بالتفسير، والحديث، والعقيدة، والفقه، والحساب، وغير ذلك صار أكمل مما ليس عنده إلا علم واحد، فكلما كثرت الأوصاف صار ذلك أكمل في الموصوف.

مَا النَّقْصُ غَيْرُ السَّلْبِ قَطُّ وَكُلُّ نَقْصٍ أَصْلُهُ سَلْبٌ وَهَذَا وَاضِحٌ

النقص في الحقيقة هو السلب؛ لأن كل نقص أصله السلب؛ يعني: النفي؛ لأن النفي عدم، فإذا نقيت سلبت المنفي عنه صفة الكمال، وهذا نقص، ولهذا قال رَحِمَهُ اللهُ:

فَالْجَهْلُ سَلْبُ الْعِلْمِ وَهُوَ نَقِيصَةٌ وَالظُّلْمُ سَلْبُ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

أي: أننا إذا قلنا: أَنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ بِالْعِلْمِ لَزِمَ أَنْ يُوصَفَ بِالْجَهْلِ، وإذا قلنا: إنه لا يُوصَفُ بأنه عدل لَزِمَ أَنْ يَكُونَ ظَالِمًا، ولهذا قال رَحِمَهُ اللهُ:

مُتَنَقِّصُ الرَّحْمَنِ سَالِبٌ وَصْفِهِ حَقًّا تَعَالَى اللَّهُ عَنِ نُقْصَانِ

قوله: (مُتَنَقِّصُ) خبر مُقَدَّم، وسالِبٌ وصفه: مبتدأ مؤخر؛ يعني: سالِبٌ وصف الرحمن هو المُتَنَقِّصُ له، وليس المُثَبِّتُ لوصف الرحمن.

وَكَذَا الثَّنَاءُ عَلَيْهِ ذَكَرُ صِفَاتِهِ وَالْحَمْدُ وَالتَّمْجِيدُ كُلُّ أَوَانِ

(الثناء على الله) أي: تكرر أوصافه الحميدة، كما يدل لذلك الحديث: «إِذَا قَالَ الْإِنْسَانُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١] قال الله تعالى: حَمِدَنِي عَبْدِي، فإذا قال:

﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ [الفاتحة: ٢] قال: أثنى عليَّ عَبْدِي».

وَلِذَاكَ أَعْلَمُ خَلْقِهِ أَذْرَاهُمْ بِصِفَاتِهِ مَنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ

قوله: (أعلم خلقه أدرأهم بصفاته) وهو الذي قد (جاء بالقرآن)؛ أي: الذي جاء بذلك وهو مُحَمَّدًا ﷺ.

وَلَهُ صِفَاتٌ لَيْسَ يَخْصِيهَا سِوَا ۙ مِنْ مَلَائِكَةٍ وَلَا إِنْسَانٍ
أي: أن الله عز وجل يفتح على نبيه ﷺ: صفات لا يُخصيها أحدٌ سوى الرسول ﷺ،
وذلك في يوم القيامة؛ ولهذا قال:

وَلِذَاكَ يَنْبِي فِي الْقِيَامَةِ سَاجِدًا ۙ لَمَّا يَرَاهُ الْمُضْطَّعَى بِيَعَانٍ
أي: إذا رأى الله عز وجل يوم القيامة عند طلب الشفاعة للعباد فرغ، فأثنى عليه.
بِثَنَاءٍ حَمْدٍ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِيُخْصِيهِ مَدَى الْأَزْمَانِ
أي: أن الله يفتح عليه محامد عظيمة في ذلك الوقت، لا يُساويها شيء من المحامد، ولم يكن يعرفها في الدنيا.

وَتَنَاقُؤُهُ بِصِفَاتِهِ لَا بِالسُّلُوبِ ۙ بِكَمَا يَقُولُ الْعَادِمُ الْعَرْفَانِ
وَالْعَقْلُ دَلٌّ عَلَى انْتِهَاءِ الْكُونَ أَجْمَعِهِ إِلَى رَبِّ عَظِيمِ الشَّانِ
وهذا كالبيت الذي سبق، أن كل الكون يعود إلى الله ابتداءً وانتهاءً، كما قال تعالى:
﴿وَالِإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وَتُثْبِتُ أَوْصَافَ الْكَمَالِ لِذَاتِهِ ۙ لَا يَقْتَضِي إِبْطَالَ ذَا الْبُرْهَانِ
يعني: أن أوصاف الكمال لا تقتضي إبطال هذا البرهان، وهو أنه موصوف بالمحامد،
وكل الأشياء ترجع إليه.

وَالْكَوْنُ يَشْهَدُ أَنَّ خَالِقَهُ تَعَالَى ۙ لِي ذُو الْكَمَالِ وَدَائِمِ السُّلْطَانِ
أي: أن الكون يشهد شهادة قولية فيمن ينطق، وفعليه فيمن لا ينطق، يشهد بأن الله سبحانه
وتعالى خالقه، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَأَتْهُمُ الْأُمَمُ قَدْ كَفَرُوا فَجَاءَهُمُ الْقُرْآنُ مِنَ الْبُرْهَانِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْأَنْبَاءُ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ مِّنَ الْأَنْبَاءِ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ۙ فَوْقَ الْوُجُودِ وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانٍ
الكون يشهد أنه فوق الوجود، فالعقلاء يشهدون بذلك، أما الجمادات فلا نعلم في هذا
شيئاً يدل على ذلك، على أنها تشهد بأن الله فوق الكون، ولعل المؤلف اطلع على أشياء، أو

على أحاديث، أو على آثار تدل على هذا.

وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْـ مَعْبُودٌ لَا شَيْءَ مِنْ الْأَكْوَانِ

وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ذُو حِكْمَةٍ فِي غَايَةِ الْإِتْقَانِ

يعني: أن الكون أيضًا يشهد بلسان الحال أو بلسان المقال، فإذا تدبّر الإنسان هذه المخلوقات، وما فيها من الإبداع والنظام علم أن الذي خلقها ذو حكمة في غاية الإتقان.

وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ذُو قُدْرَةٍ حَيِّ عَلِيمٌ دَائِمٌ الْإِحْسَانِ

وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ الْفَعَّالُ حَقٌّ قَائِلٌ يَوْمَ رُبْنَا فِي شَانِ

ويشهد الكون أيضًا بأن الله فعّال؛ وذلك لأن الكون كما تُشاهده يتجدد شيئًا فشيئًا، هذا يُؤلّد وهذا يموت، وهذا يمرض وهذا يُشقى، ولا يقوم هذا إلا بالله.

وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ الْمُخْتَارُ فِي أَفْعَالِهِ حَقًّا بِلَا نُكْرَانِ

فإن الله لا مُكْرِهَ له؛ بل يفعل الشيء باختياره.

وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ الْحَيُّ الَّذِي مَا لِلْمَمَاتِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ

أتى المؤلف رَحْمَتَهُ في تفسير القيوم على المعنيين: أنه القائم بنفسه، وأنه القائم به غيره، ولهذا قال: (قام بنفسه ومقيم ذي الأكوان) أي: هو الذي أقام الأكوان وبه تقوم، وهو الذي قام بنفسه، والنتيجة: أنه لا يحتاج إلى أحد، وأن كل أحدٍ محتاج إليه.



* قوله رَحْمَتَهُ:

٣٠٩٥- وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ ذُو رَحْمَةٍ

وَإِرَادَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَحَنَانِ

٣٠٩٦- وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ

مُسْتَكَلِّمٌ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

٣٠٩٧- وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْـ

خَلَاقٌ بِإِعْثُ هَذِهِ الْأَبْدَانِ

٣٠٩٨- لَا تَجْعَلُوهُ شَاهِدًا بِالزُّورِ وَالثَّ

تَعْطِيلِ تِلْكَ شَهَادَةِ الْبُطْلَانِ^(١)

٣٠٩٩- وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْوُجُودَ رَأَيْتَهُ

إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ زُمْرَةِ الْعِمِيَانِ^(٢)

٣١٠٠- بِشَهَادَةِ الْإِثْبَاتِ حَقًّا قَائِمًا

لِلَّهِ لَا بِشَهَادَةِ النَّكْرِانِ

٣١٠١- وَكَذَلِكَ كُتِبَ لِلَّهِ شَاهِدَةٌ بِهِ

أَيْضًا فَهَذَا مُحْكَمُ الْقُرْآنِ

٣١٠٢- وَكَذَلِكَ رُسِلَ لِلَّهِ شَاهِدَةٌ بِهِ

أَيْضًا فَسَلِّ عَنْهُمْ عَلِيمَ زَمَانِ

٣١٠٣- وَكَذَلِكَ الْفِطْرُ الَّتِي مَا غُيِّرَتْ

(١) [٣٠٩٨:٣٠٩٥] قال العلامة محمد خليل هراس:

وبأنه ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل خلقه. والإرادة النافذة التي لا يعوقها عن مرادها عائق، وبأنه ذو محبة وحنان ولطف وامتنان، وبأنه متكلم سبحانه بكلام يسمعه من يشاء من خلقه فهو متكلم بالوحي والقرآن، وبأنه الخلاق العليم الذي يبعث الناس ويخرجهم من قبورهم أحياء للجزاء والحساب حسبما تقتضيه حكمته وعدالته. هكذا تشهد الموجودات لربها جل شأنه بأنه موصوف بكل صفات الكمال فويل للمُعْطَلَة الذين يشهدون على ربهم شهادة الزور، ويجعلون كونه رباً للموجودات مُقْتَضِيًا لِلتَّعْطِيلِ ونفي الصفات.

(٢) [٣١٠٠:٣٠٩٩] قال العلامة محمد خليل هراس:

فأنت إذا تأملت الوجود كله مساواته وأرضه، ونظرت فيما اشتمل عليه من عجائب الخلق وإحكام الصنع ولطيف التدبير وكيف ربط الله بين أجزائه حتى غدت منسجمة متناغمة. وصار الوجود كله كأنه جسد واحد لرأيته (إن لم تكن ممن أعمى الله أبصارهم) خير شاهد بثبوت الصفات لله تعالى. فإنه أثر لها دليل عليها إذ المفعولات دالة على الأفعال والأفعال دالة على الصفات. فإن المفعول يدل على فاعل فعله وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة.

ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على إرادة الفاعل، وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى، وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته، وما فيها من البطش والعقوبة والانتقام دال على غضبه، وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته، إلخ.

عَنْ أَضَلِّ خَلْقَتَهَا بِأَمْرِ ثَانٍ

٣١٠٤- وَكَذَا الْعُقُولُ الْمُسْتَنِيرَاتُ الَّتِي

فِيهَا مَصَابِيحُ الْهُدَى الرَّبَّانِي

٣١٠٥- أَتَرُونَ أَنَا تَارِكُو ذَا كَلِّهِ

لِشَهَادَةِ الْجَهْمِيِّ وَالْيُونَنَانِي

٣١٠٦- هَذِي الشُّهُودُ فَإِنْ طَلَبْتُمْ شَاهِدًا

مِنْ غَيْرِهَا سَيَقُومُ بَعْدَ زَمَانٍ

٣١٠٧- إِذْ يَنْجَلِي هَذَا الْعُبَارُ فَيُظْهِرُ الْ

حَقَّ الْمُبِينِ مُشَاهِدًا بَعِيَانٍ

٣١٠٨- فَإِذَا نَفَيْتُمْ ذَا وَقَلْتُمْ إِنَّهُ

مَلْزُومٌ تَرْكِيْبٍ فَمَنْ يَلْحَانِي

٣١٠٩- إِنْ قُلْتُمْ لَا عَقْلٌ وَلَا سَمْعٌ لَكُمْ

وَصَرَخْتُ فِيمَا بَيْنَكُمْ بِأَذَانٍ

٣١١٠- هَلْ يَجْعَلُ الْمَلْزُومُ عَيْنَ اللَّازِمِ الْ

مَنْفِي هَذَا بَيْنَ الْبُطْلَانِ

٣١١١- فَالْشَّيْءُ لَيْسَ لِنَفْسِهِ يَنْفَى لَدَى

عَقْلِ سَلِيمٍ يَا ذَوِي الْعِزْفَانِ^(١)

(١) [٣١٠٣: ٣١١١] قال العلامة محمد خليل هراس:

وكذلك شهدت له به الفطرة المستقيمة التي لم تفسدها العوامل الخارجية من تلقين الأبوين أو تأثير البيئة أو نحو ذلك، قال تعالى: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] وقال عليه الصلاة والسلام «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» وكذلك شهدت له به العقول المستنيرة التي انتفعت بما ألقى الله فيها من آيات الهدى ولم تتزعج بتأثير الأهواء والأوهام المزلّة.

٣١١٢- قُلْتُمْ نَفِينَا وَصَفَهُ وَعُلُوُّهُ

مِنْ خَشْيَةِ التَّرْكِيبِ وَالْإِمْكَانِ

٣١١٣- لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ مُرَكَّبًا

فَالْوُضْفُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّحِدَانِ

٣١١٤- أَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ كَانَ مُرَكَّبًا

فَالْعَرْشُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّفَقَانِ

٣١١٥- فَتَفَيْتُمُ التَّرْكِيبَ بِالتَّرْكِيبِ مَعَ

تَغْيِيرِ إِحْدَى اللَّفْظَتَيْنِ بِثَانِ

٣١١٦- بَلْ صُورَةُ الْبُرْهَانِ أَصْبَحَ شَكْلُهَا

شَكْلًا عَقِيمًا لَيْسَ ذَا بُرْهَانِ

٣١١٧- لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ كَذَاكَ مَوْ

صُوفًا وَهَذَا حَاصِلُ الْبُرْهَانِ^(١)

٣١١٨- فَإِذَا جَعَلْتُمُ لَفْظَةَ التَّرْكِيبِ بِأَلْ

مَعْنَى الصَّحِيحِ أَمَارَةَ الْبُطْلَانِ

٣١١٩- جِئْنَا إِلَى الْمَعْنَى فَخَلَّضْنَا مِنْهَا

بِهَا وَاطَّرَحْنَاهَا إِطْرَاحَ مُهَانَ

(١) [٣١١٢:٣١١٧] قال العلامة محمد خليل هراس:

فأنتم تقولون إنما نفينا الصفات ونفينا علوه على المخلوقات خوفاً من التركيب المستلزم للافتقار الذي هو أمانة الإمكان، فتركيب الدليل عندكم هكذا (لو كان موصوفاً لكان مركباً) مع أن الوصف والتركيب متحدان مفهوماً أو هكذا (لو كان فوق العرش كان مركباً) مع أن الفوق والتركيب متحدان متفقان، فيؤول دليلكم إلى نفي التركيب بالتركيب، أي إلى نفي الشيء بنفسه مع تغيير إحدى اللفظتين بأخرى، وبذلك يصح برهانكم عقياً من حيث الشكل غير فتح؛ لأن الملزوم فيه عين اللازم، فكانكم قلت: لو كان موصوفاً لكان موصوفاً. هذا حاصل برهانكم.

٣١٢٠- هِيَ لَفْظَةٌ مَقْبُوحَةٌ بِدَعِيَّةٍ

مَذْمُومَةٌ مِّنَّا بِكُلِّ لِسَانٍ

٣١٢١- وَاللَّفْظُ بِالتَّوْحِيدِ نَجَعَلَهُ مَكَا

نَ اللَّفْظِ بِالتَّرْكِيبِ فِي التَّيْيَانِ

٣١٢٢- وَاللَّفْظُ بِالتَّوْحِيدِ أَوْلَى بِالصِّفَا

تِ وَبِالْعُلُوِّ لِمَنْ لَهُ أذُنَانِ

٣١٢٣- هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ الرُّسُلِ لِأ

أَصْحَابِ جَهَنَّمَ شَيْعَةَ الْكُفْرَانِ

الشرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ ذُو رَحْمَةٍ وَإِرَادَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَحَنَانٍ

وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُتَكَلِّمٌ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

وَكَذَلِكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَلْ خَلْقُ بِإِعْثُ هَذِهِ الْأَبْدَانِ

لَا تَجْعَلُوهُ شَاهِدًا بِالزُّورِ وَالتَّ تَعْطِيلِ تِلْكَ شَهَادَةِ الْبُطْلَانِ

قوله: (لا تجعلوه شاهداً بالزور) أي: لا تجعلوا الكون، والخطاب في قوله: (لا تجعلوه)

لهؤلاء المعطلة الذين أنكروا ما شهد الكون بشوته لله.

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْوُجُودَ رَأَيْتَهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ زُمْرَةِ الْعَمِيَانِ

بِشَهَادَةِ الْإِثْبَاتِ حَقًّا قَائِمًا اللهُ لَا بِشَهَادَةِ التَّنْكَرَانِ

قوله: (إذا تأملت الوجود رأيت إن لم تكن من زمرة العميان) أي: تأمل يا أعمى، (رأيت إن)

أي: الكون، فسوف تجده يعني: قائماً بشهادة الإثبات؛ أي: إثبات الصفات لله، فمثلاً وجود

النعم التي لا تُحصى على الخلق يدل على الرحمة، ودفع النقم كذلك يدل على الرحمة، وإتقان

المخلوقات يدل على الحكمة، وتجدد الأشياء يدل على الخلق، وهلمَّ جرَّاء، فإذا تأملت الوجود

رأيت قائماً بشهادة الإثبات إلا أن تكون من العميان، فالأعمى لا يصله ضوء الشمس.

وَكَذَٰكَ كُتِبَ اللهُ شَاهِدَةً بِهِ
 أَيضًا فَهَذَا مُحْكَمُ الْقُرْآنِ
 وَكَذَٰكَ رُسُلُ اللهِ شَاهِدَةً بِهِ
 أَيضًا فَسَلْ عَنْهُمْ عَلِيمَ زَمَانِ
 أَي: أن الرسل، وكتب الله مشاهدة بالإثبات: أي: إثبات الصفات الله - عز وجل -
 وَكَذَٰلِكَ الْفِطْرُ الَّتِي مَا غُيِّرَتْ
 عَنْ أَصْلِ خَلْقَتِهَا بِأَمْرِ ثَانٍ
 وَكَذَا الْعُقُولُ الْمُسْتَتِيرَاتُ الَّتِي
 فِيهَا مَصَابِيحُ الْهُدَى الرَّبَّانِي
 فالأدلة الآن خمسة على إثبات الصفات لله:
 أولاً: الحس في قوله:

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْوُجُودَ رَأَيْتَهُ
 إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ زُمْرَةِ الْعَمِيَانِ
 بِشَهَادَةِ الْإِثْبَاتِ حَقًّا قَائِمًا
 اللهُ لَا بِشَهَادَةِ التُّكْرَانِ

الثاني: الرسل.

الثالث: الكتب.

الرابع: الفطر.

الخامس: العقول، فكلها تشهد بإثبات الصفات لله تعالى حقاً.

أَتَرُونَ أَنَّا تَارِكُو ذَا كُلِّهِ
 لِشَهَادَةِ الْجَهْمِيِّ وَالْيُونَانِيِّ
 الجواب: لا يمكن أن تُترك هذه الأدلة بالبراهين القاطعة من أجل هذه الشبهة التي
 أوردّها اليوناني، أو الجهمي.

هَذِي الشُّهُودُ فَإِنْ طَلَبْتُمْ شَاهِدًا
 مِنْ غَيْرِهَا سَيَقُومُ بَعْدَ زَمَانٍ
 هذه الشهود في الدنيا، إن طلبتم شاهداً غيرها فسيقوم بعد زمان؛ أي: يوم القيامة حين
 تشهد عليهم ألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم بما كانوا يعملون، وحين لا يتمكنون من
 التملص مما شهدت به عليهم.
 قوله رَحِمَهُ اللهُ:

إِذْ يُنْجَلِي هَذَا الْعُبَارُ فَيُظْهِرُ الْ
 حَقُّ الْبَيِّنُ مُشَاهِدًا بَعِيَانِ
 فَإِذَا نَفَيْتُمْ ذَا وَقُلْتُمْ إِنَّهُ
 مَلْزُومٌ تَرْكِيْبٍ فَمَنْ يُلْحَانِي

إِنْ قُلْتُ لَا عَقْلٌ وَلَا سَمْعٌ لَكُمْ وَصَرَخْتُ فِيمَا بَيْنَكُمْ بِأَذَانٍ
هَلْ يَجْعَلُ الْمَلْزُومُ عَيْنَ اللَّازِمِ أَلْ مَنَنْفِي هَذَا بَيْنَ الْبُطْلَانِ
فَالشَّيْءُ لَيْسَ لِنَفْسِهِ يَنْفَى لَدَى عَقْلٍ سَلِيمٍ يَا ذَوِي الْعِرْفَانِ

أي: إذا نفيتُ إثبات الصفات، وقلتم: إنه ملزوم التركيب، (فمن يلحاني) أي: من يلومني إن قلت: إنه ليس عندكم عقل، ولا سمع، و(صرختُ فيما بينكم بأذان) أي: بإعلام؛ لأنكم ليس عندكم سمع، ولا عقل.

وقوله: (هل يُجعل الملزوم عين اللازم)؟ الجواب: لا، ولكنهم هم جعلوا الملزوم عين اللازم، فقالوا: إثبات الصفات تركيب، وهو يستلزم التركيب، لكن نقول لهم كيف تقولون: تركيب يستلزم التركيب؟ وكل العقلاء يقولون: إن اللازم غير الملزوم، لكن أن تجعل اللازم هو عين الملزوم، وتقول: إثبات الصفات تركيب، وهو مستلزم للتركيب، هذا باطل.

هَلْ يَجْعَلُ الْمَلْزُومُ عَيْنَ اللَّازِمِ أَلْ مَنَنْفِي هَذَا بَيْنَ الْبُطْلَانِ
فَالشَّيْءُ لَيْسَ لِنَفْسِهِ يَنْفَى لَدَى عَقْلٍ سَلِيمٍ يَا ذَوِي الْعِرْفَانِ

يعني: أن الشيء ليس ينفي نفسه، وفي قوله: (يا ذوي العرفان) تهكم بهؤلاء الذين يدعون أنهم أصحاب المعرفة، فيقول: أين معرفتكم؟ كيف تجعلون اللازم عين الملزوم، وهذا مخالف لما عليه العقلاء كلهم؟

قُلْتُمْ نَفِينَا وَضَفَّهُ وَعَلُوهُ مِنْ حُشْيَةِ التَّرْكِيبِ وَالْإِمْكَانِ
لَوْ كَانَ مَوْضُوعًا لَكَانَ مُرَكَّبًا فَالْوَضْفُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّحِدَانِ
أَوْ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ كَانَ مُرَكَّبًا فَالْعَرْشُ وَالتَّرْكِيبُ مُتَّفَقَانِ
فَنَفَيْتُمُ التَّرْكِيبَ بِالتَّرْكِيبِ مَعَ تَغْيِيرِ إِحْدَى اللَّفْظَتَيْنِ بِشَانِ

أي: أنكم نفيتُم التركيب؛ لأنه يستلزم التركيب، فصار الدليل هو عين المدلول.

فَنَفَيْتُمُ التَّرْكِيبَ بِالتَّرْكِيبِ مَعَ تَغْيِيرِ إِحْدَى اللَّفْظَتَيْنِ بِشَانِ
بَلْ صُورَةُ الْبُرْهَانِ أَضْبَحَ شَكْلُهَا شَكْلًا عَقِيمًا لَيْسَ ذَا بُرْهَانِ

لأن المعروف في الأدلة العقلية المركبة أن يكون اللازم غير الملزوم، أما أن يكون اللازم

هو الملزوم، فتقول: إثبات الصفات تركيب، ويلزم التركيب، وشكل القضية، أو الاستدلال على هذا، شكله ليس بشيء.

لَوْ كَانَ مَوْصُوفًا لَكَانَ كَذَلِكَ مَوْصُوفًا وَهَذَا حَاصِلُ الْبُرْهَانِ
هذا حاصل دليله، لو كان متصفاً بالصفات لكان متصفاً بالصفات، ولو كان مركباً لكان مركباً.

فَإِذَا جَعَلْتُمْ لَفْظَةَ التَّرْكِيبِ بِأَنَّ سَمَعْنِي الصَّحِيحِ أَمَارَةَ الْبُطْلَانِ
جِئْنَا إِلَى الْمَعْنَى فَخَلَصْنَا مِنْهَا وَاطَّرَخْنَاهَا اطِّرَاحَ مُهَانَ
هِيَ لَفْظَةٌ مَقْبُوحَةٌ بِدَعِيَّةٍ مَذْمُومَةٌ مِنْ بَعْضِ لِسَانِ

إذا جعلتم لفظة التركيب للمعنى الصحيح أمانة البطلان جئنا إلى المعنى فخلصناه منه، فنقول: التركيب بين الموصوف، والصفة غير ممتنع، وليس هناك تركيب بين شيئين متباينين؛ لأن الصفة لازمة للموصوف، وما من موصوف إلا وله صفة، وحينئذ نخلص هذه الشبهة، ونقول: إن الصفة بالنسبة للموصوف لا تعتبر تركيباً، ولا يُعتبر تعدداً؛ لأنها من ماهيته؛ أي: من ماهية الموصوف؛ لأن وجود الشيء هو عين ماهيته.

قوله: (هي لفظة مقبوحة بدعية) الضمير يعود على التركيب.

وَاللَّفْظُ بِالتَّوْحِيدِ نَجَعَلُهُ مَكَانَ اللَّفْظِ بِالتَّرْكِيبِ فِي التَّبْيَانِ
وَاللَّفْظُ بِالتَّوْحِيدِ أَوْلَى بِالصِّفَا تِ وَبِالْعُلُوِّ لِمَنْ لَهُ أَدْنَانِ
هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ الرُّسْلِ لَا أَصْحَابِ جَهْمِ شِيعَةِ الْكُفْرَانِ

يعني: بدل ما نقول: التركيب، نقول: التوحيد، فنقول: إثبات الصفات لله تعالى ليس بتركيب، ولكنه توحيد، ولا يمكن قيام ذات بدون صفة إطلاقاً، فإذا قلنا: إن الله - سبحانه وتعالى - متصف بالصفات اللاتيقة به من غير تمثيل، فهذا توحيد، وليس بتركيب، والحاصل أن المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبطل دليلهم الذي اعتمدوا عليه، وهو أن إثبات الصفات يستلزم التركيب، والتركيب ممتنع، ويثبت أن التركيب ست أنواع، ومنه: تركيب الصفة مع موصوفها عندهم، ونحن نقول عن ذلك جوابان:

الجواب الأول: أن نمنع كونه تركيباً.

والثاني: أن نقول: هو تركيب باصطلاحكم.



مَلِكِد بِن بَدِي الفِصَل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فِصَل

في أقسام التوحيد

والفرق بين توحيد المرسلين، وتوحيد النفاة والمعتلين

أما توحيد الفلاسفة فهو إثبات وجود مطلق لا ذات له ولا اسم ولا صفة ولا فعل، ومضمون هذا إنكار وجود الله أصلاً، لأن هذا الذي نعتوه لا يمكن وجوده في الخارج، وإنما يتصوره الذهن الفاسد كما يتصور الخيالات التي لا حقيقة لها، والشرك عندهم إثبات الذات والصفات.

وكذلك توحيد الاتحادية القائلين بأن الوجود واحد، فلا ثم رب ولا مربوب وإنما الخالق عندهم عين المخلوق ولكن الحس والوهم يظن تباينهما، وإلا فالكل شيء واحد. ومحققهم لا يصل إلى تحقيق قولهم الباطل حتى يخرق الحس والعقل فضلاً عن الوهم والخيال، فحينئذ يصل إلى هذا التوحيد الذي حقيقته الكفر برب العالمين وتعطيله عن أسائه وصفاته وأفعاله، وهو قريب من توحيد الفلاسفة أو هو هو لكن التعبير اختلف، والشرك عند هؤلاء إثبات التباين بين الخالق والمخلوق، فجعلوا التوحيد شركاً والتعطيل حقاً، ولما احتج المحتج عليهم فقال: «فصوصكم» تخالف القرآن فقال: القرآن كله شرك وإنما التحقيق في كلامنا. فقاتل الله من عد هذه الطائفة من أمة محمد وهم برءاء من جميع الأنبياء، ولا أظن أحداً يعرف قولهم وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان فيستريب في أمرهم ويعرف أنهم مبينون للدين كل المبينة.

وأما توحيد الجهمية فقد تقدمت حكايته، والشرك عندهم إثبات صفات الله التي نطق بها الكتاب والسنة.

وأما توحيد الجبرية فقد تقدم أيضًا قولهم: إن العبد مجبور على أفعاله لا اختيار له فيها،
وعندهم أن الله هو الفاعل للطاعات والمعاصي.
فهذه الأنواع المذكورة مع ما اشتملت عليه من الكفر بالله والتكذيب لأنبيائه وإبطال
أمره وشرعه هي الأقوال الرائجة بين الناس المنصورة عند جماهير المتكلمين فاقرن بينها
وبين توحيد الأنبياء والمرسلين تجد الفرق العظيم.



فصل

في أقسام التوحيد ،
والفرق بين توحيد المرسلين
وتوحيد النفاة المعطلين

٣١٢٤- فَاسْمَعْ إِذَا أَنْوَاعَهُ هِيَ خَمْسَةٌ

قَدْ حُصِلَتْ أَقْسَامُهَا بَيَانِ

٣١٢٥- تَوْحِيدُ أَتْبَاعِ ابْنِ سَيِّئًا وَهُوَ مَنْ

سُوبَ لَأَرْشَطُو مِنْ الْيُونَانِ

٣١٢٦- مَا لِلْإِلَهِ لَدَيْهِمْ مَا هَيْئَةٌ

غَيْرُ الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ الْوَحْدَانِي

٣١٢٧- مَسْلُوبٌ أَوْصَافِ الْكَمَالِ جَمِيعِهَا

لَكِنْ وَجُودٌ حَسْبُ لَيْسَ بِفَانِ

٣١٢٨- مَا إِنْ لَهُ ذَاتٌ سِوَى نَفْسِ الْوُجُو

دِ الْمُطْلَقِ الْمَسْلُوبِ كُلِّ مَعَانِ

٣١٢٩- فَلِذَاكَ لَا سَمْعٌ وَلَا بَصَرٌ وَلَا

عِلْمٌ وَلَا قَوْلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

٣١٣٠- وَكَذَاكَ قَالُوا لَيْسَ ثَمَّ مَشِيئَةٌ

وَإِرَادَةٌ لِيُوجِدَ ذِي الْأَكْوَانِ

٣١٣١- بَلْ تِلْكَ لِأَزِمَةٍ لَهُ بِالذَّاتِ لَمْ

تَنْفَكْ عَنْهُ قَطُّ فِي الْأَزْمَانِ

٣١٣٢- مَا اخْتَارَ شَيْئًا قَطَّ يَفْعَلُهُ وَلَا

هَذَا لَهُ أَبَدًا بِذِي إِمْكَانٍ

٣١٣٣- وَبَنُوا عَلَى هَذَا اسْتِحَالَةَ خَزَقِ ذِي الْأ

أَفْلَاكِ يَوْمَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ

٣١٣٤- وَكَذَلِكَ قَالُوا لَيْسَ يَعْلَمُ قَطُّ شَيْءٌ

شَيْئًا مِمَّنِ الْمَوْجُودِ فِي الْأَعْيَانِ

٣١٣٥- لَا يَعْلَمُ الْأَفْلَاكُ كَمِ أَعْدَادِهَا

وَكَذَا النُّجُومُ وَذَانِكَ الْقَمَرَانِ

٣١٣٦- وَكَذَا ابْنُ آدَمَ لَيْسَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ

كَأَنَّ وَلَيْسَ يَرَاهُ رَأْيَ عِيَانِ

٣١٣٧- بَلْ لَيْسَ يَعْلَمُ حَالَهُ عِلْمًا بَتَفٍّ

صَبِيلٍ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْعِضْيَانِ

٣١٣٨- [كَأَنَّ وَلَا عِلْمَ لَهُ بِتَسَاقُطِ الْأ

أُورَاقِ أَوْ بِمَنَابِتِ الْأَغْصَانِ

٣١٣٩- عِلْمًا عَلَى التَّفْصِيلِ هَذَا عِنْدَهُمْ

عَيْنُ الْمُحَالِ وَلَا زِمُّ الْإِمْكَانِ^(١)]

(١) [٣١٣٤: ٣١٤٠] قال العلامة محمد خليل هراس:

وكذلك قالوا أن الله عز وجل لا يعلم الأشياء الموجودة في هذا العالم بأعيانها، ولا يعلم ما يطرأ عليها من أحوال وتغيرات، فهو لا يعلم أعداد الأفلاك ولا مواقع النجوم ولا منازل الشمس والقمر، ولا يسمع أصوات المصوتين ولا يرى أشخاصهم، ولا يعلم أحوال الناس على التفصيل ولا سعيهم فيما يكسبونه من طاعات أو معاصي. وكذلك لا علم له عندهم بما يتساقط من أوراق الأشجار أو بما ينبت فيها من أغصان. فعلم ذلك على التفصيل هو عندهم على الله مستحيل، وحجتهم في ذلك قائمة على التشغيب والتضليل، فإنهم قالوا كما قال أرسطو من قبل أن علمه هذه الجزئيات المتغيرة المتكررة يؤدي إلى التكرار والتغير في ذاته، لأن العلم عندهم هو حصول المعلومات في نفس العالم بوجود ظلي مُطابق للوجود

٣١٤٠- بَلْ نَفْسُ آدَمَ عِنْدَهُمْ أَمْرٌ مُحَا

لٌ لَمْ يَكُنْ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ

٣١٤١- مَا زَالَ نَوْعُ النَّاسِ مُوجُودًا وَلَا

يَفْنَى كَذَاكَ الدَّهْرُ وَالْمَلَوَانِ

٣١٤٢- هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ

مِثْلَ ابْنِ سِينَا وَالتَّصِيرِ الثَّانِي

٣١٤٣- قَالُوا وَالْجَأْنَا إِلَى ذَا خَشْيَةِ الثَّ

تَرْكِيبِ وَالتَّجْسِيمِ ذِي الْبُطْلَانِ

٣١٤٤- [وَلِذَاكَ قُلْنَا مَا لَهُ سَمْعٌ وَلَا

بَصَرٌ وَلَا عِلْمٌ فَكَيْفَ يَدَانِ

٣١٤٥- وَلِذَاكَ قُلْنَا لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ إِلٌ

لَا الْمُسْتَحِيلُ وَلَيْسَ ذَا إِمْكَانِ

٣١٤٦- جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ كِلَا الْجِسْمَيْنِ مَحْ

دُودًا يَكُونُ كِلَاهُمَا صِنْوَانِ]

٣١٤٧- فَبِذَاكَ حَقًّا صَرَخُوا فِي كُتُبِهِمْ

وَهُمُ الْفُحُولُ أَيْمَةُ الْكُفْرَانِ

٣١٤٨- لَيْسُوا مَخَانِيثَ الْوُجُودِ فَلَا إِلَى الْ

كُفْرَانِ يَنْحَازُوا وَلَا الْإِيمَانِ

الخارجي، ومعلوم أن التغير والتكثر أماراة الإمكان، وهذا يُنافي ما ثبت له من وجوب الوجود.

ولا شك أن إنكار الفلاسفة لعلم الله عز وجل بالجزئيات جحد صريح للنصوص القرآنية التي تخبر عن سعة علمه وشموله، وأن لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ولهذا كانت هذه المسألة إحدى المسائل التي كفرهم بها أبو حامد الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة) كما كفرهم كذلك بقولهم بقدوم العالم وإنكارهم لحشر الأجسام.

٣١٤٩- وَالشَّرْكَ عِنْدَهُمْ ثُبُوتُ الذَّاتِ وَالْ

أَوْصَافِ إِذْ يَبْقَى هُنَاكَ اثْنَانِ

٣١٥٠- غَيْرُ الْوُجُودِ فَصَارَ ثَمَّ ثَلَاثَةٌ

فَلِذَا نَفَيْتَنَا اثْنَيْنِ بِالْبُرْهَانِ

٣١٥١- بَقِيَ الْوُجُودُ فَلَا يُضَافُ إِلَيْهِ شَيْ

ءٌ غَيْرُهُ فَيَصِيرُ ذَا إِمْكَانٍ

الشَّرْحُ

قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ عَثِيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: (في أقسام التوحيد) والمراد: أقسام التوحيد عند البشر جميعًا، لا عند أهل الإسلام.

فَأَسْمَعُ إِذَا أَنْوَاعُهُ هِيَ خَمْسَةٌ قَدْ حُصِلَتْ أَقْسَامُهَا بَيَانِ

يعني: أنواع التوحيد، والأنواع والأقسام بمعنى واحد عند أهل العلم؛ يعني: أحيانًا يقول: خمسة أنواع، وأحيانًا يقول: خمسة أقسام، أما في الاصطلاحات الكلامية فإنهم يفرِّقون بين الأنواع وبين الأقسام، فالنوع فرد بالنسبة للجنس، والواحد فرد بالنسبة للنوع، فإذا قالوا مثلًا: حب وبرٌّ وجِنَظَةٌ مثلًا، فالأول جنس، والثاني جنس باعتبار ما تحته، ونوع باعتبار ما فوقه.

تَوْحِيدُ أَتْبَاعِ ابْنِ سِينَا وَهُوَ مَنْذُ سُبُوتِ لَأَرْشَطُو مِنْ الْيُونَانِ

مَا لِلْإِلَهِ لَدَيْهِمْ مَا هِيَ غَيْرُ الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ الْوَحْدَانِيِّ

يقولون: إن الله تعالى هو الوجود المطلق، ومعنى الوجود المطلق: أنه لا يُثَبَّتُ له صفات ولا يُنْفَى عنه صفات، فلا يُوصَفُ بنفي ولا إثبات؛ بل هو الوجود المطلق، المطلق الوجود، فلا يصح أن تقول: سميع، ولا: إنه أصم، ولا موجود ولا غير موجود، هذا هو الإله عندهم، وسيأتي أنهم فرُّوا من الإثبات أو النفي خوفًا من التركيب والتجسيم، كما سيأتي إن شاء الله في كلام المؤلف.

وقوله: (ما للإله لديهم ماهية) أي: أن الإله لديهم هو الموجود وجودًا مطلقًا لا بشرط،

لا صفة ثبوتية، ولا صفة منفية، وهذا قول لا يستطيع الإنسان أن يتصوره فضلاً عن أن يعتقد في ربه، كيف يكون رب ليس له ماهية، ولا وجود إلا وجوداً بشرط الإطلاق، أي: لا يتصف بصفة لا سلبية ولا ثبوتية؛ ولهذا قال:

مَسْلُوبٌ أَوْصَافِ الْكَمَالِ جَمِيعِهَا لَكِنْ وَجُودٌ حَسْبُ لَيْسَ بِفَانٍ

يعني: هو فقط وجود بلا أي صفة، كل أوصاف الكمال مسلوب إياها؛ بل وأوصاف النقص، لكن لا نقول: أوصاف النقص؛ لأنهم لا يُثبتون لله نقصاً، (لكن وجود حسب) نقول: هو موجود وجوداً مطلقاً (ليس بفان) يعني: أزلي.

مَا إِنْ لَهُ ذَاتٌ سِوَى نَفْسِ الْوُجُودِ الْمُطْلَقِ الْمَسْلُوبِ كُلِّ مَعَانٍ

إن هذه زائدة، والتقدير: ما له ذات سوى نفس الوجود، الوجود هل هو ذات أو معنى؟ معني، ومع ذلك يقول: الرب هو الوجود المطلق.

فَلِذَاكَ لَا سَمْعٌ وَلَا بَصَرٌ وَلَا عِلْمٌ وَلَا قَوْلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

كل هذه الصفات متنفية عن الله، لا سمع له، ولا بصر، ولا علم، ولا قول.

وَكَذَاكَ قَالُوا لَيْسَ تَمَّ مَشِيئَةٌ وَإِرَادَةٌ لِيُجُودَ ذِي الْأَكْوَانِ

هذه الأكوان الموجودة هل هي وُجِدَتْ بمشيئة الله وإرادته؟ لا، لم توجد بمشيئة الله وإرادته؛ لأنك لو قلت: إنها وُجِدَتْ بمشيئته وإرادته لأُثبت له صفة، وهو الوجود بشرط الإطلاق لا صفة له.

بَلْ تِلْكَ لِأَزْمَةٍ لَهُ بِالذَّاتِ لَمْ تَنْفَكْ عَنْهُ قَطُّ فِي الْأَزْمَانِ

يعني: هذه الأكوان لازمة له لزوم الذات، ليست منفصلة بئنه مرادة؛ بل هي كما لو قلنا في الحياة والعلم والقدرة، وما أشبهها، وهم - كما ترون - لا يرون هذا كله؛ يعني: لا يصفون الله بعلم ولا قدرة ولا سمع.

مَا اخْتَارَ شَيْئًا قَطُّ يَفْعَلُهُ وَلَا هَذَا لَهُ أَبَدًا بِذِي امْكِانِ

كل ما يحدث في الكون فهو بغير إرادة الله، وبغير مشيئته؛ لأنه لا يختار شيئاً يفعله، ليس له إرادة ولا اختيار.

وَبَنَوْا عَلَى هَذَا اسْتِحَالَةَ خُرُوقِ ذِي الْأَفْلاكِ يَوْمَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ

يقولون: إن الأفلاك لا يمكن أن تتغير؛ لأنها عظيمة، ومن يستطيع أن يُغيّرَها؟ لا أحد؛

لأنها لا تتغير إلا بإرادة ومشية، والله عندهم ليس له إرادة ولا مشية، ولهذا أنكروا أن الله يقبض السماء بيمينه ويقبض الأرض، وأنكروا أن تتغير الأفلاك، ومن ثم أنكروا بعض الكتاب المسلمين أن يكون القمر قد انشق آية للنبي ﷺ، وقالوا: إن الأفلاك لا يمكن أن تتغير، وهم لا شك ضالون مُكذِّبون لظاهر القرآن؛ يعني: الذين يقولون بعدم انشقاق القمر؛ لأن انشقاق القمر من المتواتر عن النبي عليه الصلاة والسلام (١).

وَكَذَٰكَ قَالُوا لَيْسَ يَعْلَمُ قَطُّ شَيْءٌ مَّا مِنَ الْمَوْجُودِ فِي الْأَعْيَانِ

لماذا؟ للقاعدة أنه هو الوجود المطلق، فلا يعلم شيئاً من الموجود في الأعيان.

لَا يَعْلَمُ الْأَفْلَاقَ كَمَا أَعْدَادُهَا وَكَذَا النُّجُومَ وَذَانِكَ الْقَمَرَانِ
وَكَذَا ابْنُ آدَمَ لَيْسَ يَسْمَعُ صَوْتَهُ كَلَّا وَلَيْسَ يَرَاهُ رَأْيَ عِيَانِ
بَلْ لَيْسَ يَعْلَمُ حَالَهُ عِلْمًا بَتَفٍ صَبِيلٍ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْعِضْيَانِ
كَلَّا وَلَا عِلْمَ لَهُ بِتَسَاوُطِ الْأُورَاقِ أَوْ بِمَنَابِتِ الْأَغْصَانِ
عِلْمًا عَلَى التَّفْصِيلِ هَذَا عِنْدَهُمْ عَيْنِ الْمَحَالِ وَلَا زُمْ الْإِمْكَانِ

يعني: أن الله لا يعلم كل هذا، مع أن الله يقول: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، أما هم فيقولون: لا يعلم تساقط الأوراق، ولا منابت الأغصان.

بَلْ نَفْسُ آدَمَ عِنْدَهُمْ أَمْرٌ مُحَا لٌ لَمْ يَكُنْ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ

يقول: ليس هناك آدم خلق من تراب، ثم صار بشراً؛ بل النوع الإنساني لم يزل موجوداً.

مَا زَالَ نَوْعُ النَّاسِ مَوْجُودًا وَلَا يَفْنَى كَذَٰكَ الدَّهْرُ وَالْمَلَكُوانِ

يعني: أن نوع الإنسان ما زال هكذا منذ الأزل، ولا يزال هكذا أيضاً إلى الأبد.

هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ مِثْلُ ابْنِ سِينَا وَالنَّصِيرِ الثَّانِي

ابن سينا هو رجل معروف في الطب، ولهذا يُمجِّده القوميون العرب، ويرون أنه هو العارف، ويُحيون ذكره بنسبة بعض المنشآت إليه، وهو - كما ترون - من أكفر عباد الله - والعياذ بالله -، (والنصير الثاني) الذي يُسمى: نصير الدين الطوسي، وهو في الحقيقة مُدُلُّ الدين، وليس نصيراً للدين.

قَالُوا وَأَلْجَأْنَا إِلَى ذَا خَشْيَةِ الثَّ
تَرْكِيْبِ وَالتَّجْسِيْمِ ذِي الْبَطْلَانِ

هذه شبهتهم أنهم لجأوا إلى قول هذا الإله المفروض ذهنًا، المعدوم واقعًا هو أنهم يخشون من التركيب والتجسيم.

وَلِذَلِكَ قُلْنَا مَا لَهُ سَمْعٌ وَلَا
بَصَرٌ وَلَا عِلْمٌ فَكَيْفَ يَدَانِ؟

فنفوا الصفات المعنوية، وقالوا: فكيف يدان؟ يقصدون الصفات الخبرية، فنفوا جميع الصفات لله عز وجل؛ بل حقيقة الأمر أنهم نفوا وجوده؛ لأن ما يذكرون أنه الله إنما هو موجود في الذهن فقط.

وَلِذَلِكَ قُلْنَا لَيْسَ فَوْقَ الْعَرْشِ إِلٌ
لَا الْمُسْتَجِيلُ وَلَيْسَ ذَا إِمْكَانِ

أيضًا ليس فوق العرش إله؛ لأنه هو الموجود المطلق بشرط الإطلاق كما سبق.

جِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ كِلَا الْجِسْمَيْنِ مَحْدُودًا
يَكُونُ كِلَاهُمَا صِنْوَانِ

يعني: لو قلنا: إن فوق العرش إلهًا، لكان جسمًا على جسم، وكلاهما محدود، فيكون صِنْوَانِ؛ يعني: يكونان شبيهين، وكلمة الحد بالنسبة للرب عز وجل كلمة لم ترد لا نفيًا ولا إثباتًا لا في القرآن، ولا في السنة، ولهذا كان القول فيها أن يُقال: ماذا يُعني بالحد؟ لو قال لنا قائل: هل الله محدود؟ فنقول: ماذا تعني بالحد؟

إن أردت أنه مُتحدُّ بائنٌ من خلقه فهو بهذا المعنى محدود بائن من خلقه، وإن أردت بكلمة محدود أن له حدًا ينتهي إليه، ويُحيطُ به شيءٌ من مخلوقاته، فهذا ممتنع، ولهذا ورد في كلام السلف نفي الحد وإثبات الحد، وهذا الاختلاف ينبني على التفصيل الذي ذكرنا، فمن نفى الحدَّ أراد الحدَّ الذي يحصر الخالق عز وجل، ومن أثبتَه أراد الحدَّ الذي يُبينُه عن خلقه، ويجعله بائنًا منهم.

فِذَلِكَ حَقًّا صَرَّحُوا فِي كُتُبِهِمْ
وَهُمُ الْفُحُولُ أَيْمَةُ الْكُفْرَانِ

بثت الفحولية، هم الفحول ولكن فحول شر؛ لأنهم أئمة الكفر.

لَيْسُوا مَخَانِيثَ الْوُجُودِ فَلَا إِلَى الْ
كُفْرَانِ يَنْحَازُوا وَلَا الْإِيْمَانِ

المخانيث يُريد بهم من ليسوا ذكرانا أو إناثا، وهو ما يُعرَف عند الفقهاء بالْحَثِي، وقوله: (ليسوا مخانيث الوجود) كأنه يُشير إلى ما سيأتينا من توحيد الجهمية الذين أخذوا من هذا وهذا، وصاروا مُذْبذبين، (فلا إلى الكفران ينحازوا ولا الإيْمَانِ) وهنا حذف نون ينحازوا،

وأصلها ينحازون من أجل ضرورة الشعر.

وَالشِّرْكَ عِنْدَهُمْ ثُبُوتُ الذَّاتِ وَالْ
أَوْصَافِ إِذْ يَبْقَى هُنَاكَ اثْنَانِ

يقولون: من أثبت وجود الله - وجود ذاته - فقد أشرك؛ لأن عندهم أن الله هو المطلق
الوجود، فإذا قلت: ذات ووجود، فهذا شرك؛ لأنه يكون اثنان.

غَيْرُ الوجودِ فَصَارَ ثَمَّ ثَلَاثَةٌ فَلِذَا نَفَيْنَا اثْنَيْنِ بِالْبُرْهَانِ

بَقِيَ الوجودِ فَلَا يُضَافُ إِلَيْهِ شَيْءٌ غَيْرُهُ فَيَصِيرُ ذَا إمْكَانٍ

فعندهم الآن الذات منفية، والصفات منفية، والوجود ثابت وهو الله، هو الوجود
المطلق - بشرط الإطلاق، حقيقة الأمر أننا إذا تأملنا كلامهم وجدنا أنهم لا يُثبتون لله ذاتاً
ولا صفات؛ بل هو الوجود بشرط الإطلاق، أي انف الذات، وانف الصفات، يبقى من
الوجود واحد وهو الوجود.



فصل

في النوع الثاني من أنواع
التوحيد لأهل الإلحاد



٣١٥٢- هَذَا وَثَانِيهَا فَتَوْحِيدُ ابْنِ سَبِّ

عَيْنٍ وَشِيعَتِهِ أَوْلِي الْبُهْتَانِ

٣١٥٣- كُلِّ اتِّحَادِيٍّ خَبِيثٍ عِنْدَهُ

مَوْطُوَةٌ مَعْبُودُهُ الْحَقَّانِي

٣١٥٤- تَوْحِيدُهُمْ أَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْوَجُودُ

دُ الْمَطْلُوقُ الْمَبْشُوثُ فِي الْأَعْيَانِ

٣١٥٥- هُوَ عَيْنُهَا لَا غَيْرُهَا مَا هَا هُنَا

رَبٌّ وَعَبْدٌ كَيْفَ يَفْتَرِقَانِ

٣١٥٦- لَكِنَّ وَهَمَ الْعَبْدِ ثُمَّ خِيَالَهُ

فِي ذِي الْمَظَاهِرِ دَائِمًا يَلْجَأَانِ

٣١٥٧- فَلِذَلِكَ حُكْمُهُمَا عَلَيْهِ نَافِذٌ

فَأَبْنُ الطَّبِيعَةِ ظَاهِرُ التَّقْصَانِ

٣١٥٨- فَإِذَا تَجَرَّدَ عَقْلُهُ عَنِ حِسِّهِ

وَخِيَالِهِ بَلْ ثُمَّ تَجْرِيدَانِ

٣١٥٩- تَجْرِيدُهُ عَنِ عَقْلِهِ أَيْضًا فَإِنَّ

نَ الْعَقْلَ لَا يَدْنِيهِ مِنْ ذَا الشَّانِ

٣١٦٠- بَلْ يَخْرِقُ الْحُجْبَ الْكَثِيفَةَ كُلَّهَا

وَهُمَا وَجِسًا ثُمَّ عَقْلًا وَإِنِّي

٣١٦١- فَالْوَهُمُ مِنْهُ وَجِسُهُ وَخِيَالُهُ

وَالْعِلْمُ وَالْمَعْقُولُ فِي الْأَذْهَانِ

٣١٦٢- حُجِبَ عَلَيَّ ذَا الشَّانِ فَأَخْرِقْهَا وَإِلَّ

لَا كُنْتُ مَحْجُوبًا عَنِ الْعِرْفَانِ

٣١٦٣- هَذَا وَأَكْتَفَى حِجَابَ الْحِسِّ وَالْ

مَعْقُولِ ذَانِكَ صَاحِبَا الْفَرْقَانِ

٣١٦٤- فَهَنَّاكَ صِرْتَ مُوَحِّدًا حَقًّا يَرَى

هَذَا الْوُجُودَ حَقِيقَةَ الدِّيَانِ

٣١٦٥- وَالشِّرْكَ عِنْدَهُمْ فَتَنْوِيغُ الْوُجُو

دٍ وَقَوْلُنَا إِنَّ الْوُجُودَ اثْنَانِ

٣١٦٦- [وَاحْتَجَّ يَوْمًا بِالْكِتَابِ عَلَيْهِمْ

شَخْصٌ فَقَالُوا الشِّرْكَ فِي الْقُرْآنِ

٣١٦٧- لَكِنَّمَا التَّوْحِيدُ عِنْدَ الْقَائِلِ

سَنَ بِالِاتِّحَادِ فَهُمْ أَوْلُو الْعِرْفَانِ

٣١٦٨- رَبُّ وَعَبْدٌ كَيْفَ ذَاكَ وَإِنَّمَا الْ

مَوْجُودُ فَرْدٌ مَالَهُ مِنْ ثَانٍ]

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هذا أيضًا توحيد من نوع آخر، وهو توحيد أهل وحدة الوجود الذين يقولون: إن الوجود شيء واحد، العبد هو الرب، والرب هو العبد - نسأل الله العافية -؛ يعني: ما يوجد رب وعبد بائن أحدهما عن الآخر؛ بل الكل رب، وفي نفس الوقت الكل عبد، ما

هناك شيثان.

هَذَا وَثَانِيهَا فَتَوْحِيدُ ابْنِ سَبِّ عَيْنٍ وَشِيعَتِهِ أَوْلِي الْبُهْتَانِ
كُلِّ اتِّحَادِيَّ حَيْثُ عِنْدَهُ مَوْطُوؤُهُ مَعْبُودُهُ الْحَقَّانِي

قوله: (اتحادي) يعني: يقول باتحاد الخالق والمخلوق، وأنها شيء واحد، هم يجدون أن زيذاً غير عمرو، وأن الأب غير الابن، هذا الحسُّ الواقع، لكن هم يقولون: لا، لا تستعمل الحس في الموجودات، إذا استعملت الحس أو الوهم أو الخيال أو العقل فإنك لن تصل إلى الحقيقة؛ لأن هذه الأربع كلها حُجُبٌ تحجبك عن الوصول إلى الحقيقة، فحُجِّبِ العقل، والوهم، والحس، والخيال فضلوا عن الشرع، وحيثُ يد بين لك التوحيد - نعوذ بالله -؛ يعني: صر مجنوناً حتى تكون مؤحداً.

كُلِّ اتِّحَادِيَّ حَيْثُ عِنْدَهُ مَوْطُوؤُهُ مَعْبُودُهُ الْحَقَّانِي

هو يظاً زوجته ويرى أنها ربه - نسأل الله العافية -، ويذبح شاته ويرى أنه ربه، ويركب حماره ويرى أنه ربه، ويزجر كلبه ويرى أنه ربه، وهكذا، الشيء شيء واحد، ولهذا يقول:
تَوْحِيدُهُمْ أَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْوَجُودُ دُ الْمُطْلَقِ الْمَبْثُوثُ فِي الْأَعْيَانِ

وكلمة (المبثوث في الأعيان) هي الفصل بين توحيدهم وتوحيد الفلاسفة السابق؛ لأن الفلاسفة لا يقولون: إن الرب هو المربوب، يقولون: الرب وحده لكنه هو الوجود الذي لا ذات له ولا صفات، وهؤلاء يقولون: الرب هو المربوب شيء واحد موجود، واختلاف الناس، واختلاف الأنواع من الحيوان، ومن الأشجار، ومن الجبال، ومن الأنهار اختلاف مظاهر، كما يبدو الإنسان وهو غضبان على وجهه، وهو مسرور على وجه آخر، وإلا فإن الكل شيء واحد.

هُوَ عَيْنُهَا لَا غَيْرُهَا مَا هَا هُنَا رَبٌّ وَعَبْدٌ كَيْفَ يَقْتَرِقَانِ

قوله: (عينها) أي: عين الموجودات، يقولون: إن الرب هو العبد، - عين العبد - والعبد عين الرب، ولا يمكن أن يكون هذا وهذا شيئين أبداً.

لَكِنَّ وَهُمْ الْعَبْدُ ثُمَّ خَيَالُهُ فِي ذِي الْمَظَاهِرِ دَائِمًا يَلْجَانِ

يعني: يتدخلان، الوهم ثم الخيال.

فَلِذَاكَ حُكْمُهُمَا عَلَيْهِ نَافِذٌ فَايْنُ الطَّبِيعَةِ ظَاهِرُ التَّقْضَانِ

فَإِذَا تَجَرَّدَ عِلْمُهُ عَنْ حِسِّهِ وَخَيَالِهِ بَلَّ ثُمَّ تَجَرَّيْدَانِ
تَجَرَّيْدُهُ عَنْ عَقْلِهِ أَيْضًا فَإِنَّ نَ الْعَقْلَ لَا يُدِينِيهِ مِنْ ذَا الشَّانِ

المعنى: يقول: إن الإنسان يتوهم التعدد، فأنا مثلاً - على زعمهم - بعقلي أتوهم أن زيداً غيري، ثم بعد ذلك أتخيل، ثم بالحس أدرك أن الابن غير الأب، وأن الخشب غير الحديد، ثم العقل أيضاً يدرك أن المحدث لا بد له من محدث، وأن المحدث شيء والمحدث شيء آخر، فكل هذه الأربعة: الوهم، ثم الخيال، ثم الحس، ثم العقل، كلها تُوجب التعدد، لكن هم يقولون: التعدد هذا إشراك، وإذا أردت أن تصل إلى التوحيد اكسر الحواجز هذه كلها حتى تصل إلى الحقيقة.

يقول: (فإن العقل لا يدينه من ذا الشان) أي: من هذا التوحيد، الشان؛ يعني: التوحيد؛ لأن العقل يقضي حتماً بأن المحدث غير المحدث، وأن الأعيان أنفسها متباينة، وليست شيئاً واحداً، فمحمد ليس زيداً، وزيد ليس عمراً، هم يقولون: هذه كلها شيء واحد، (العقل لا يدينه من ذا الشان)؛ لأنه معلوم يحكم بأن الأعيان متباينة متغايرة، وأن المحدث لا بد له من محدث، وهكذا.

بَلَّ يَحْرِقُ الْحُجْبَ الْكَثِيفَةَ كُلَّهَا وَهَمًّا وَحِسًّا ثُمَّ عَقْلًا وَإِنِّي

يعني: معناه: أنه يجب أن يحرق هذه الحجب التي هي: الوهم، والخيال، والحس، والعقل حتى يتبين له الحقيقة.

فَالْوَهْمُ مِنْهُ وَحِسُّهُ وَخَيَالُهُ وَالْعِلْمُ وَالْمَعْقُولُ فِي الْأَذْهَانِ

حُجْبٌ عَلَى ذَا الشَّانِ فَأَخْرِقْهَا وَإِلَّا لَا كُنْتَ مَحْجُوبًا عَنِ الْعِرْفَانِ

يعني: مزقها وكأنها لا شيء؛ يعني: لا ترجع إلى حس، ولا وهم، ولا خيال، ولا عقل حتى تدرك الحقيقة.

هَذَا وَأَكْتَفُهَا حِجَابَ الْحِسِّ وَالْ مَعْقُولَ ذَانِكَ صَاحِبَا الْفُرْقَانِ

لأن الحس لا يمكن أن يُنكر، والعقل كذلك لا يمكن أن يُنكر، لكن المدرك بالحس مُشاهد يُدرك بالعيان بعين البصر، والمدرك بالعقل يُدرك بعين البصيرة، هذان هما أكتفها؛ لأنها أقواها دلالة؛ أما الخيال والوهم فهذا سهل؛ لأن الإنسان ربما يتوهم أشياء غير معقولة، وأشياء لا يمكن أن توجد في الحس، لكن الحس هو المُشكِل، كيف يكون الحس؟

الحس يُدرك أن الشاة غير البعير، وأن الولد غير الوالد، وأن الحجر غير الحديد، هذا حس يُشاهد بالحس، والعقل كذلك يُدرك أن المصنوع غير الصانع، وأن المُحدَث غير المُحدَث، لهذا كانت دلالة الحس والعقل على امتناع ما ذهب إليه هؤلاء أمرًا واضحًا جدًّا، فصارت هي أكثرها عندهم.

فَهُنَاكَ صَارَ مُوَحِّدًا حَقًّا يَرَى هَذَا الْوُجُودَ حَقِيقَةً الدِّيَانِ

يعني: حينئذ تكون مُوَحِّدًا حقيقة، ترى أن هذا الوجود هو حقيقة الله عز وجل.

وَالشِّرْكَ عِنْدَهُمْ فَتَنْوِيحُ الْوُجُودِ وَقَوْلُنَا إِنَّ الْوُجُودَ اثْنَانِ

هذا الشرك، إذن التوحيد عندهم جعل الخالق والمخلوق واحدًا، والشرك جعلوهما اثنين.

وَاحْتَجَّ يَوْمًا بِالْكِتَابِ عَلَيْهِمْ شَخْصٌ فَقَالُوا الشِّرْكَ فِي الْقُرْآنِ

قوله: (بالكتاب): أي: القرآن، قال: القرآن يُفرِّق بين الخالق والمخلوق، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ

أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، وهناك عابد ومعبود، وهناك خالق ومخلوق، فكان جوابهم:

القرآن كله شرك، والقرآن يدعو إلى التوحيد ويأمر بقتال المشركين، ﴿وَقَاتِلُوا

الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، هم يقولون: القرآن كله

شرك - نعوذ بالله -، وأنا ما أظن شيئًا أكفر من هذا، أي كفر أعظم من هذا الكفر!!

لَكِنَّمَا التَّوْحِيدُ عِنْدَ الْقَائِلِينَ مِنَ الْإِتِّحَادِ فَهُمْ أَوْلُو الْعِرْفَانِ

رَبِّ وَعَبْدٌ كَيْفَ ذَاكَ وَإِنَّمَا الـ مَوْجُودٌ فَرْدٌ مَا لَهُ مِنْ ثَانٍ

هذه خلاصة التوحيد عند أهل الاتحاد، والفرق بينهم وبين سلفهم الفلاسفة: أن

الفلاسفة يرون أن الرب شيء والمربوب شيء آخر، لكن الرب حقيقة لا وجود له؛ لأنهم

يقولون: هو الوجود المطلق.

هؤلاء يقولون: الرب والعبد شيء واحد، فمن أثبت اثنين فقد أشرك.



فصل



في النوع الثالث من التوحيد لأهل الإلحاد

٣١٦٩- هَذَا وَثَالِثُهَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ

سَدِّ الْجَهَنَّمَ تَعْطِيلُ بِلَا إِيمَانٍ

٣١٧٠- نَفِي الصِّفَاتِ مَعَ الْعُلُوِّ كَذَاكَ نَفَى

بِي كَلَامِهِ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

٣١٧١- فَالْعَرْشُ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ بَتَّةً

لَكِنَّهُ خَلُوٌّ مِنَ الرَّحْمَنِ

٣١٧٢- مَا فَوْقَهُ رَبٌّ يُطَاعُ وَلَا عَلَيْهِ

بِهِ لِلْوَرَى مِنْ خَالِقِ رَحْمَنِ

٣١٧٣- [بَلْ حَظُّ عَرْشِ الرَّبِّ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ

مِنْهُ كَحَظِّ الْأَسْفَلِ التَّحْتَانِي]

٣١٧٤- فَهُوَ الْمُعْطَلُ عَنْ نُعُوتِ كَمَالِهِ

وَعَنِ الْكَلَامِ وَعَنْ جَمِيعِ مَعَانٍ

٣١٧٥- وَأَنْظُرْ إِلَى مَا قَدْ حَكَيْنَا عَنْهُ فِي

مَبْدَا الْقَصِيدِ حِكَايَةَ التَّيَّانِ

٣١٧٦- هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ

تَلَوَّ الْفُحُولِ مُقَدِّمِي الْبُهْتَانِ

٣١٧٧- وَالشِّرْكَ عِنْدَهُمْ فَأَثْبَاتُ الصِّفَا

تِ لِرَبَّنَا وَنَهَايَةُ الْكُفْرَانِ

٣١٧٨- إِنْ كَانَ شِرْكًَا ذَا وَكُلُّ الرُّسُلِ قَدْ

جَاءُوا بِهِ يَا خَيِّةَ الْإِنْسَانِ^(١)

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هذا النوع الثالث من أنواع التوحيد، وهو توحيد الجهمية، وتوحيد الجهمية: أفراد الذات عن الصفات، قالوا: لأن إثبات الصفات إن كانت صفات قديمة لزم تعدد القدماء، وهذا شرك، وإن أثبت صفات حادثة لزم قيام الحوادث به، والحادثة لا يقوم إلا بحدوث، لذلك نفى عنه الصفات الذاتية والفعلية؛ لأن الذاتية إذا أثبتتها فهي قديمة، فيلزم تعدد القدماء، فالله قديم، وعلمه قديم، وعزته قديمة، وحكمته قديمة، فيلزم أن يكون هناك قدماء متعددون، وهذا عندهم أعظم من شرك النصارى؛ لأن النصارى قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، وأنت إذا أثبت له الصفات القديمة جعلته واحداً من آلاف، فلذلك تمتع تعدد الصفات القديمة.

الصفات الحادثة التي هي الصفات الفعلية قالوا: إذا أثبتنا لزم قيام الحوادث به، والحوادث لا تقوم إلا بحدوث، إذن فالتوحيد أفراد الذات عن الصفات، هذا هو توحيد الجهمية.

هَذَا وَتَالِثُهَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ الْجَهْمِ تَعْطِيلٌ بِإِلَاءِ إِيْمَانِ

نَفْيِ الصِّفَاتِ مَعَ الْعُلُوِّ كَذَاكَ نَفْيِ كَلَامِهِ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

لأنهم يُنكرونها علو الله، ويُنكرونها صفاته، ويُنكرونها كلامه، ويقولون: إن هذا الكلام المسموع

(١) [٣١٧٦: ٣١٧٨] قال العلامة محمد خليل هراس:

هذا هو توحيد هؤلاء الجهمية أئمة الكفر والضلال ومؤسسي البهتان لمن جاء بعدهم وقلدهم فيه من العميان. والشرك عندهم، بل ونهاية الكفر هو ما يُضاد مذهبهم وينافيه من إثبات الصفات لله، وقد رد المؤلف عليهم بأن هذا الإثبات إن كان شركاً، ومعلوم أن جميع الرسل والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه قد جاءوا به وصرحوا في غير خفاء ولا كتمان فقد باء الناس بالخبية والحرمان حيث لم يتعلموا من معلمي الإنسانية وأساتذة العرفان والإيمان إلا ما هو ضلال وبهتان.

صوت مخلوق، خلقه الله عز وجل في الهواء فسمعه جبريل، فأخذه وألقاه إلى محمد ﷺ.
فَالْعَرْشُ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ بَتَّةً لَكِنَّهُ خَلُوٌّ مِنَ الرَّحْمَنِ
مَا فَوْقَهُ رَبٌّ يُطَاعُ وَلَا عَلَيْهِ هِ لِلْوَرَى مِنْ خَالِقِ رَحْمَنِ
لأنهم يُنكروا العلو، ومن باب أولى أن يُنكروا الاستواء.

بَلْ حَظُّ عَرْشِ الرَّبِّ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ مِنْهُ كَحَظِّ الْأَسْفَلِ التَّحْتَانِي

أسفل الأرض والعرش عند الله على حد سواء، وعلى هذا فتبطل النصوص الدالة على
الفوقية، والدالة على العندية، ﴿الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يقول: كل الناس عند الله، لا فرق بين
الأعلى والأسفل؛ لأنهم لا يرون أن الله فوق كل شيء.

فَهُوَ الْمُعْطَلُ عَنْ نُعُوتِ كَمَالِهِ وَعَنِ الْكَلَامِ وَعَنْ جَمِيعِ مَعَانِي
وَأَنْظُرْ إِلَى مَا قَدْ حَكَيْنَا عَنْهُ فِي مَبْدَأِ الْقَصِيدِ حِكَايَةَ التَّيَّانِ
هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ تَلَوُ الْفُحُولِ مُقَدِّمِي الْبُهْتَانِ

يعني: أنهم فحول لكنهم فحول بهتان وكذب.

وَالشِّرْكَ عِنْدَهُمْ فَأَيْبَاتُ الصِّفَا تِ لِرَبِّنَا وَنَهَايَةُ الْكُفْرَانِ

الشرك إيبات الصفات، فكل من أثبت لله صفة فهو عندهم مُشرك.

إِنْ كَانَ شِرْكًَا ذَا وَكُلُّ الرُّسُلِ قَدْ جَاءُوا بِهِ يَا خِيَةَ الْإِنْسَانِ

كل الرسل قد جاءوا بإيبات صفات الله، فإن كان شركاً فيا خيبة الإنسان.



فصل

في النوع الرابع من أنواعه

٣١٧٩- هَذَا وَرَابِعُهَا فَتَوْحِيدٌ لَدَى

جَنبِيَّهِمْ هُوَ غَايَةُ الْعِرْفَانِ

٣١٨٠- الْعَبْدُ مَيْتٌ مَا لَهُ فِعْلٌ وَلَا

كِنْ مَا تَرَى هُوَ فِعْلٌ ذِي السُّلْطَانِ

٣١٨١- وَاللَّهُ فَاعِلٌ فِعْلِنَا مِنْ طَاعَةٍ

وَمِنْ الْفُسُوقِ وَسَائِرِ الْعِضْيَانِ

٣١٨٢- هِيَ فِعْلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقَةٌ

لَيْسَتْ بِفِعْلٍ قَطُّ لِلْإِنْسَانِ

٣١٨٣- فَالْعَبْدُ مَيْتٌ وَهُوَ مَجْبُورٌ عَلَى

حَرَكَاتِهِ كَالْجِسْمِ فِي الْأَكْفَانِ

٣١٨٤- وَهُوَ الْمَلُومُ عَلَى فِعَالِ إِلَهِهِ

فِيهِ وَدَاخِلٌ جَا حِمِ النَّيْرَانِ

٣١٨٥- يَا وَيْحَهُ الْمَسْكِينُ مَظْلُومٌ يُرَى

فِي صُورَةِ الْعَبْدِ الظَّلْمِ الْجَانِي

٣١٨٦- لَكِنْ تَقُولُ بِأَنَّهُ هُوَ ظَالِمٌ

فِي نَفْسِهِ أَدْبَا مَعَ الرَّحْمَنِ

٣١٨٧- هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ

مِنْ كُلِّ جَبْرِيٍّ حَيْثُ جَنَّانٍ
٣١٨٨- وَالْكُلُّ عِنْدَ غُلَاتِهِمْ طَاعَاتُنَا

مَأْتَمٌّ فِي التَّحْقِيقِ مِنْ عِضْيَانٍ
٣١٨٩- وَالشِّرْكَ عِنْدَهُمْ اعْتِقَادُكَ فَاعِلًا

غَيْرَ الْإِلَهِ الْمَالِكِ الدِّيَانِ
٣١٩٠- فَانظُرْ إِلَى التَّوْحِيدِ عِنْدَ الْقَوْمِ مَا

فِيهِ مِنَ الْإِشْرَاكِ وَالْكَفْرَانِ
٣١٩١- مَا عِنْدَهُمْ وَاللَّهُ شَيْءٌ غَيْرُهُ

هَاتِيكَ كَتُبُهُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ
٣١٩٢- أَتَرَى أَبَا جَهْلٍ وَشِيعَتَهُ رَأُوا

مِنْ خَالِقِ ثَانٍ لِذِي الْأَكْوَانِ؟
٣١٩٣- أَمْ كُلُّهُمْ جَمْعًا أَقْرُوا أَنَّهُ

هُوَ وَخَدَهُ الْخَلَّاقُ لِلْإِنْسَانِ
٣١٩٤- فَإِذَا ادَّعَيْتُمْ أَنَّ هَذَا غَايَةُ التَّدْ

تَوْحِيدِ صَارَ الشِّرْكَ ذَا بَطْلَانٍ
٣١٩٥- [فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ أَقْرُوا أَنَّهُ

هُوَ وَخَدَهُ الْخَلَّاقُ لَيْسَ اثْنَانِ
٣١٩٦- إِلَّا الْمَجُوسُ فَإِنَّهُمْ قَالُوا بِأَنَّ

نَ الشَّرِّ خَالِقُهُ إِلَهٌ ثَانٍ]

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هذا هو النوع الرابع من أنواع التوحيد، وهو أفراد الله تعالى بالأفعال، أي فعل كان فالله

تعالى مُنفرد به، فمن أضاف فعلاً لغير الله فهو مُشرك، هذا هو التوحيد عند الجبرية، يقولون: إن فعل العبد هو نفس فعل الرب، فحركاتنا حركات الله، والمعصية الواقعة من الإنسان معصية واقعة من الله، الطاعة من الإنسان طاعة من الله، يُقال لهم: أليس يُقال: إن الرجل ظلم نفسه؟ يُقال: بلى يُقال، لكن هذا تأدّباً مع الله، وإلا فإن الظالم حقيقة هو الله، فانظر إلى هذا القول الخبيث.

ثم جاءت العُلاة منهم، وقالوا: إننا نخرج من هذا ونتخلّص فنقول: جميع الأفعال طاعة، فالزنا طاعة، والسرقة طاعة، وشرب الخمر طاعة، وقتل النفس طاعة؛ وذلك لأن هذه الأفعال إن خرجت عن الإرادة الشرعية فهي واقعة بالإرادة الكونية، ولهذا يقولون: كل مراد الله فهو محبوب له، والكون كله مراد، فيكون الكون كله بما فيه من طاعات ومعاصي محبوباً لله، ولهذا ليس عندهم معصية، من استكبر عن الأمر الشرعي فهو خاضع للأمر الكوني، وحينئذ لا يكون عاصياً.

هَذَا وَرَابِعُهَا فَتَوْحِيدٌ لَدَى
جَبْرِيهِمْ هُوَ غَايَةُ الْعِرْفَانِ
الْعَبْدُ مَيِّتٌ مَا لَهُ فِعْلٌ وَكَ
كَيْنَ مَا تَرَى هُوَ فِعْلُ ذِي السُّلْطَانِ

العبد ميت لا تُنسب حركته إليه، فكما أن الميت لا يتحرك، فالحي لا يتحرك، حركاته منسوبة إليه، إذا رفعت يدك إلى فمك، فهي كما لو رفع الغاسل يد الميت إلى فمه، ولا فرق. وذو السلطان هو الله عز وجل.

وَاللَّهُ فَاعِلٌ فِعْلِنَا مِنْ طَاعَةٍ
وَمِنَ الْفُسُوقِ وَسَائِرِ الْعِضْيَانِ
هِيَ فِعْلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقَةٌ
لَيْسَتْ بِفِعْلٍ قَطُّ لِلْإِنْسَانِ
فَالْعَبْدُ مَيِّتٌ وَهُوَ مَجْبُورٌ عَلَى
حَرَكَاتِهِ كَالْجِسْمِ فِي الْأَقْفَانِ

أنا أتعجب كيف يستقيم قدم إنسان على هذا القول، أن يجعل أفعالنا بمنزلة حركات الميت، هذا شيء يُنكره المعقول والمحسوس، لكن ﴿رَبَّنَا لَا تُفِخْ قُلُوبَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

وَهُوَ الْمَلُومُ عَلَى فِعَالِ إِلَهِهِ
فِيهِ وَذَاخِلُ جَا حِمِ النَّيِّرَانِ

الله يفعل، والمألوم العبد؛ لأن عندهم أن فعل الإنسان هو فعل الله حقيقة، وهذا لا شك أنه إذا تأملتَه وجدته فرعاً من قول أهل وحدة الوجود؛ لأن القائلين بوحدة الوجود يقولون: إن الإنسان هو الله، وفعله فعل الله، هؤلاء لا يقولون بذلك، لكن يقولون: فعل

العبد هو فعل الله.

وَهُوَ الْمَلُومُ عَلَى فِعَالِ إِلَهِهِ فِيهِ وَدَاخِلُ جَا حِمِ النَّيْرَانِ
إِذْنُ الْفِعْلِ فَعَلَ غَيْرَهُ، وَالْمُعَذَّبُ هُوَ.

يَا وَيْحَهُ الْمُسْكِينُ مَظْلُومٌ يُرَى فِي صُورَةِ الْعَبْدِ الظَّلُومِ الْجَانِي
لَكِنَّ نَقُولَ بِأَنَّهُ هُوَ ظَالِمٌ فِي نَفْسِهِ أَدْبًا مَعَ الرَّحْمَنِ

وَالْإِلا فِي الْحَقِيقَةِ أَنَّ الظَّالِمَ - عَلَى زَعْمِهِمْ - هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، يَفْعَلُ الْفِعْلَ وَيُنْسَبُ إِلَى
غَيْرِهِ، ثُمَّ يُعَذَّبُ غَيْرُهُ، يُدْخَلُ جَا حِمِ النَّيْرَانِ.

هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ عِنْدَ فَرِيقِهِمْ مِنْ كُلِّ جَبْرِي خَبِيثِ جَنَانِ

الجنان القلب، وسُمِّيَ به لأنه مُسْتَر، وأصل هذه المادة الجيم والنون من الاستتار،
ولذلك تَجَدَّ جميع موارِدِهَا تَحْوُمُ حَوْلَ الاستتار.

وَالْكُلُّ عِنْدَ غُلَاتِهِمْ طَاعَاتِنَا مَا تَمَّ فِي التَّحْقِيقِ مِنْ عِضْيَانِ

هذا أخْبَث، كل ما نفعله طاعة، الزنا طاعة، والنكاح بالعقد الصحيح طاعة، وقتل
النفس بغير حق طاعة، وقتل الجاني قصاصًا طاعة، كلها طاعة؛ لأن القاعدة عندهم: كل
مراد الرب محبوبٌ له، والكون كله مراده، فيكون الكون كله محبوبًا لله طاعة، ويكون أيضًا
إذا استكبر عن الأمر الشرعي فقد خضع للأمر الكوني، فهو مُطِيع.

وَالشُّرْكُ عِنْدَهُمْ اعْتِقَادُكَ فَاعِلًا غَيْرَ الْإِلَهِ الْمَالِكِ الدِّيَانِ

هذا الشرك، أن تعتقد أن هناك فاعل سوى الله، فإذا اعتقدت أن الإنسان فاعل فهذا
شرك، ولذلك قلنا: إن التوحيد عند هؤلاء: إفراد الله بالأفعال أيًا كانت.

فَانظُرْ إِلَى التَّوْحِيدِ عِنْدَ الْقَوْمِ مَا فِيهِ مِنَ الْإِشْرَاكِ وَالْكَفْرَانِ

يعني: انظر إلى ما فيه من الإشراك والكفران.

مَا عِنْدَهُمْ وَاللَّهُ شَيْءٌ غَيْرُهُ هَاتِيكَ كُتُبُهُمْ بِكُلِّ مَكَانِ

يعني: هو لم يكذب عليهم، فكتبهم موجودة، ويصريحون بذلك فيها.

أَتَرَى أَبَا جَهْلٍ وَشِيعَتَهُ رَأَوْا مِنْ خَالِقِ ثَانٍ لِذِي الْأَكْوَانِ؟

هُوَ وَحْدَهُ الْخَلَّاقُ لِلْإِنْسَانِ؟ أَمْ كُلُّهُمْ جَمْعًا أَقْرُوا أَنَّهُ

الجواب: كلهم أقرُّوا بأن الله هو الخالق، حتى أبو جهل الملعون الذي قُتل في بدر، هو يُقرُّ بأن الله وحده هو الخلاق، لكن يُقرُّ بأن فعله غير فعل الله عز وجل.

فَإِذَا ادَّعَيْتُمْ أَنَّ هَذَا غَايَةُ الشَّرِّ تَوْحِيدِ صَارَ الشَّرِّكَ ذَا بَطْلَانِ

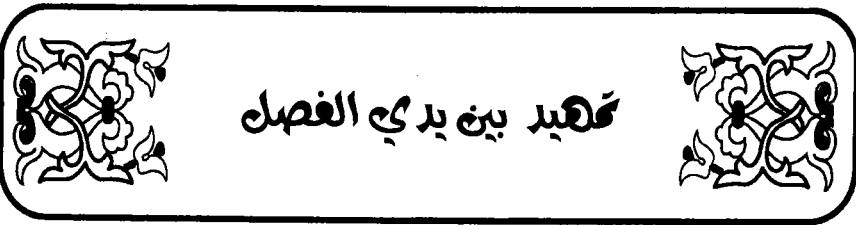
يعني: إذا ادَّعَيْتُمْ أَنَّ هَذَا غَايَةُ التَّوْحِيدِ، وَهُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ بِالْأَفْعَالِ صَارَ الشَّرِّكَ ذَا بَطْلَانِ، لَيْسَ هُنَاكَ شَرِّكَ؛ لِأَنَّ الْكُلَّ فَعَلَ اللَّهُ.

فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ أَقْرَبُوا أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الْخَلَّاقُ لَيْسَ اثْنَانِ

إِلَّا الْمَجُوسُ فَإِنَّهُمْ قَالُوا بِأَنَّ نَ الشَّرِّ خَالِقُهُ إِلَهٌ ثَانِ

المجوس يقولون: إن العالم له صانعان: نور وظلمة، فما فيه من خير فهو مخلوق من النور، وما فيه من شر فهو مخلوق من الظلمة، ومع هذا فإنهم لا يُقرُّون بأن هذين الإلهين سواء؛ بل يقولون: إن النور خير من الظلمة، ويقولون أيضًا: إن النور قديم؛ يعني: ليس بحادث، والظلمة حادثه، وبعضهم يقول: إنها قديمة، فلذلك لم يوجد أحد من الخلق يقول: إن العالم له صانعان متكافئان أبدًا.





تهذيب بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في توحيد الأنبياء والمرسلين

وهذا هو التوحيد الحقيقي الصحيح، وهو الذي لا يصدق على مساه سواه، فإنه الاعتراف بتوحد الباري بكل صفة كمال وجمال وجلال ومجد وحمد وعظمة وكبرياء، والعمل بمقتضى هذا من التعظيم الكامل لله والحب التام والخضوع له وإخلاص العمل له. فهو نوعان: علمي اعتقادي وعملي. وقدم المصنف الاعتقادي لأن التوحيد العملي يتفرع عنه ويقوى بقوته، ولأنه أكبر البراهين على توحيد الإلهية ووجوب إفراد الباري بالعبادة ولأن معظم الخلاف مع أهل الكلام الباطل في هذا النوع.

وهذا النوع مبني على أصلين عظيمين: أحدهما: تنزيه الباري وتقديسه عما لا يليق بجلاله وما ينافي كماله، وحاصل هذا النوع يعود إلى تنزيه الله عن مشاركة أحد من المخلوقين لله في شيء من صفات كماله أو في حق من حقوقه وخصائصه، وإلى حفظ صفات كماله عن أمور ثلاثة: عن تشبيهها بصفات المخلوقين، أو نفيها عن الله، أو نفي بعض معانيها. فيعلم أن له الكمال المطلق الذي لا يمكن التعبير عن عظمته وكنهه، وأن له من ذلك الكمال غاية ومنتهاه وأكملة، فهو المنزه عن الشريك والظهير والعيون والشفيع بلا إذنه، وهو الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وهو المنزه عن السنّة والنوم والموت والتعب واللغوب، وأن يغيب عن سمعه أو بصره أو علمه شيء، وهو المنزه عن كل ما ينافي كماله وعظمته وجلاله.



فصل

في بيان توحيد الأنبياء والمرسلين
ومخالفته لتوحيد الملاحدة والمعطلين

٣١٩٧- فَاسْمَعْ إِذَا تَوَحَّيْدَ رُسُلِ اللَّهِ ثُمَّ

مَ اجْعَلْهُ دَاخِلَ كِفَّةِ الْمِيزَانِ

٣١٩٨- مَعَ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ وَأَنْظُرْ أَيَّهَا

أَوْفَى لَدَى الْمِيزَانِ بِالرُّجْحَانِ

٣١٩٩- تَوَحَّيْدُهُمْ نَوْعَانِ قَوْلِي وَفِعْ

لِي كَلَّا نَوْعِيهِ ذُو بُرْهَانَ

٣٢٠٠- فَالْأَوَّلُ الْقَوْلِي ذُو نَوْعَيْنِ أَيَّ

ضًا فِي كِتَابِ اللَّهِ مَوْجُودَانِ

٣٢٠١- إِخْدَاهُمَا سَلْبٌ وَذَا نَوْعَانِ أَيَّ

ضًا فِيهِ مَذْكُورَانِ

٣٢٠٢- سَلْبُ النَّقَائِصِ وَالْغُيُوبِ جَمِيعَهَا

عَنْهُ هُمَا نَوْعَانِ مَعْقُولَانِ^(١)

(١) [٣١٩٧: ٣٢٠٢] قال العلامة محمد خليل هراس:

وهو التوحيد الذي بعث الله به جميع رسله، وأنزل لأجله كتبه، وخلق الخلق وشرع الشرائع لإقامته، وأقام الأدلة العقلية والنقلية على وجوبه وصحته، وهو كذلك التوحيد الذي آمن به ودعا إليه خيار خلق الله من الأنبياء والمرسلين الذين هم أكمل الناس عقولاً وأزكاهم نفوساً. فتوحيد الأنبياء مشتمل على الحق والصدق والمزكي للنفوس المطهر للأخلاق، وهو مؤيد بصريح العقل الموافق لصحيح النقل. أما توحيد الملاحدة والمعطلة فمشتمل على أكذب الكذب، وقائم على شبه وخيالات تدل على جهل أصحابها وفساد عقولهم، وإنما ذكر هذا النوع بعد ما سبقه، لأن الشيء يتميز

٣٢٠٣- سَلَبَ لِمُتَّصِلٍ وَمُنْفَصِلٍ هُمَا

نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ أَمَّا الثَّانِي

٣٢٠٤- سَلَبَ الشَّرِيكَ مَعَ الظَّهِيرِ مَعَ الشَّفِيهِ

عِ بَدُونِ إِذْنِ المَالِكِ الدِّيَانِ

٣٢٠٥- وَكَذَلِكَ سَلَبَ الزَّوْجَ وَالْوَالِدَ الَّذِي

نَسَبُوا إِلَيْهِ عَابِدُوا الصُّلْبَانِ

٣٢٠٦- وَكَذَلِكَ نَفَى الكُفْءَ أَيْضًا وَالْوَالِي

ي لَنَا سِوَى الرَّحْمَنِ ذِي العُفْرَانِ^(١)

٣٢٠٧- وَالْأَوَّلَ التَّنْزِيهَ لِلرَّحْمَنِ عَن

وَصَفِ العُيُوبِ وَكُلِّ ذِي نَقْصَانِ

٣٢٠٨- كَالْمَوْتِ وَالْإِغْيَاءِ وَالتَّعَبِ الَّذِي

يُنْفِي اقْتِدَارَ الخَالِقِ المَنَانِ

٣٢٠٩- وَالنُّومِ وَالسِّنَةِ النَّبِيِّ هِيَ أَضْلُهُ

وَعُزُوبِ شَيْءٍ عَنهُ فِي الأَكْوَانِ^(٢)

بضده، فمن عرف هذا التوحيد ووقف على حقيقته تبين له فساد تلك المقالات، وظهر له شناعتها وقبحها، فيتمسك به أعظم التمسك، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] وفي الأثر: «من لم يعرف الجاهلية لم يعرف الإسلام».

(١) [٣٢٠٣: ٣٢٠٦] قال العلامة محمد خليل هراس:

وأما الشفاعة عنده بإذنه فإنها ثابتة بالنصوص الكثيرة من الكتاب والسنة وذلك لأنها دالة على سعة رحمته وكمال إحسانه، فإنها من رحمته بالشافع والمشفوع له، فالشافع ينال بها الأجر والثناء من الله ومن خلقه، والمشفوع له يرحمه الله على يد من أذن له بالشفاعة، ومع هذا فلا يأذن سبحانه لأحد أن يشفع إلا فيمن رضي قوله وعمله من أهل الإخلاص والمتابعة، كما في قوله عليه الصلاة والسلام لأبي هريرة: «أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله، خالصة من قلبه».

(٢) [٣٢٠٧: ٣٢٠٩] قال العلامة محمد خليل هراس:

فسلب الموت والإغْيَاء عنه مستلزم لثبوت كمال حياته وقدرته قال تعالى: ﴿وَوَكَّلَ عَلَى النَّبِيِّ لِي لَا

٣٢١٠- وَكَذَلِكَ الْعَبَثُ الَّذِي تَنْفِيهِ حِكْ

مَتُّهُ وَحَمْدُ اللَّهِ ذِي الْإِتْقَانِ

٣٢١١- وَكَذَلِكَ تَرْكُ الْخَلْقِ إِهْمَالًا سُدَى

لَا يَبْعَثُونَ إِلَى مَعَادٍ ثَانِ

٣٢١٢- كَلًّا وَلَا أَمْرًا وَلَا نَهْيَ عَلَيْهِ

هَمٌّ مِنْ إِلَهٍ قَاهِرٍ دِيَانِ

٣٢١٣- وَكَذَلِكَ ظُلْمُ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَنِي

ي فَمَالَهُ وَالظُّلْمُ لِلْإِنْسَانِ

٣٢١٤- وَكَذَلِكَ غَفْلَتُهُ تَعَالَى وَهُوَ عَلَدٌ

لَا مَ الْغُيُوبِ فَظَاهِرُ الْبُطْلَانِ

٣٢١٥- وَكَذَلِكَ النِّسْيَانُ جَلَّ إِلَهَنَا

لَا يَغْتَرِيهِ قَطُّ مِنْ نَسْيَانِ

٣٢١٦- وَكَذَلِكَ حَاجَتُهُ إِلَى طَعْمٍ وَرِزِّ

قٍ وَهُوَ رِزَاقٌ بِلَا حُسْبَانِ

٣٢١٧- هَذَا وَثَانِي نَوْعِي السَّلْبِ الَّذِي

هُوَ أَوَّلُ الْأَنْوَاعِ فِي الْأَوْزَانِ

٣٢١٨- تَنْزِيهِهُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ لَهُ عَنِ الثَّ

تَشْبِيهِهِ وَالتَّمْثِيلِ وَالتُّكْرَانِ

يَمُوتُ ﴿ [الفرقان: ٥٨] وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨] فإنه لو اتصف بشيء من هذا النقص لكان ناقص القدرة، وكذلك سلب النوم والسنة التي هي النعاس عنه يستلزم إثبات كمال حياته وقيوميته، قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وفي الحديث الذي رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام».

٣٢١٩- لَسْنَا نُشَبِّهُ وَصْفَهُ بِصِفَاتِنَا

إِنَّ الْمَشَبِّهَ عَابِدُ الْأَوْثَانِ

٣٢٢٠- كَلَّا وَلَا نُخْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ

إِنَّ الْمُعْطَلَّ عَابِدُ الْبُهْتَانِ

٣٢٢١- مَنْ مَثَلَ اللَّهَ الْعَظِيمَ بِخَلْقِهِ

فَهُوَ التَّسْبِيبُ لِمُشْرِكٍ نَضْرَانِي

٣٢٢٢- أَوْ عَطَّلَ الرَّحْمَنَ عَنْ أَوْصَافِهِ

فَهُوَ الْكُفُورُ وَلَيْسَ ذَا إِيْمَانٍ

الشرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

ابتدأ المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بالنوع الخامس من أنواع التوحيد، وهو توحيد الأنبياء والمرسلين المخالف لتوحيد الملاحدة والمُعطلين.

فَأَسْمَعُ إِذَا تَوَجَّيْدَ رُسُلِ اللَّهِ ثُمَّ مَ اجْعَلُهُ دَاخِلَ كِفَّةِ الْمِيزَانِ

مَعَ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ وَانظُرْ أَيُّهَا أَوْفَى لَدَى الْمِيزَانِ بِالرُّجْحَانِ

فإذا وضعناها في الكفة فأىها أولى بالرجحان؟ لا شك أنه توحيد الأنبياء والمرسلين، ثم قسّم المؤلف ونوع هذا التوحيد إلى أقسام كثيرة، ولكن مع التأيي سوف تتبين.

تَوَجَّيْدُهُمْ نَوْعَانِ قَوْلِي وَفِعْ لِي كَلَّا نَوْعِيهِ ذُو بُرْهَانِ

التوحيد نوعان: القولي، والفعلية، فالقولي يكون باللسان وبالقلب، والفعلية يكون بالجوارح وبالقلب.

فالتوحيد بالقلب أن يقول القائل مثلاً: لا إله إلا الله، هذا توحيد بالقول، وبالقلب أن يُقرَّ بأن الله وحده هو الإله.

والتوحيد بالفعل ألا يُشرك أحداً في فعله، فلا يسجد لصنم، ولا لأحد من المخلوقين.

والتوحيد الفعلية بالقلب هو التوكُّل على الله، والاعتماد عليه، وما أشبه ذلك.

فَالأَوَّلُ الْقَوْلِيُّ ذُو نَوْعَيْنِ أَي - ضَا فِي كِتَابِ اللَّهِ مُوجُودَانِ
إِحْدَاهُمَا سَلْبٌ وَذَا نَوْعَانِ أَي - ضَا فِيهِ مَذْكُورَانِ

لأن ضد السلب هو الإثبات، إذا التوحيد القولي ينقسم إلى قسمين:
القسم الأول: سلبي.

والثاني: ثبوتي.

السلبي أيضاً نوعان:

سلبٌ لمتصل، وسلبٌ لمنفصل يجمعهما قوله:

سَلْبُ النَّقَائِصِ وَالْغُيُوبِ جَمِيعِهَا - عَنْهُ هُمَا نَوْعَانِ مَعْقُولَانِ
سَلْبٌ لِمُتَّصِلٍ وَمُنْفَصِلٍ هُمَا هُمَا - نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ أَمَّا الثَّانِي
سَلْبُ الشَّرِيكِ مَعَ الظَّهِيرِ مَعَ الشَّفِيرِ - عِ بَدُونِ إِذْنِ المَالِكِ الدِّيَانِ

التوحيد السلبي نوعان: سلب الشريك وهو منفصل، وسلب أوصاف الكمال عن التشبيه والتمثيل وهذا متصل، وسلب الشريك في مثل قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، مع الظهير في قوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، مع الشفيع إلا بإذنه ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣]، فنفي هذه كلها، وهذا سلبٌ لمنفصل.

وَكَذَٰكَ سَلْبُ الزَّوْجِ وَالْوَالِدِ الَّذِي نَسَبُوا إِلَيْهِ عَابِدُو الصُّلْبَانِ

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدْر رَبَّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣] فنفي الزوج ونفي الولد، ومن هم عابِدو الصُّلْبَانِ؟ النصارى، فإنهم قالوا: عيسى ابن الله.

وَكَذَٰكَ نَفْيُ الكُفْرِ أَيْضًا وَالْوَالِي ي لَنَا سِوَى الرَّحْمَنِ ذِي العُفْرَانِ

قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ونفي الولي لنا؛ مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، هذا أيضاً سلبٌ منفصل.

وَالأَوَّلُ التَّنْزِيهُ لِلرَّحْمَنِ عَنِ
كَالْمَوْتِ وَالْإِعْيَاءِ وَالتَّعَبِ الَّذِي
وَصَفِ الْعُيُوبِ وَكُلِّ ذِي نُقْصَانٍ
يَنْفِي اقْتِدَارَ الْخَالِقِ الْمَنَانِ

الأول المتصل؛ (كالموت) نفى الله عنه أن يموت، فقال: ﴿عَلَى الْآحَى الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، (والإعياء)، وقال: ﴿وَلَمْ يَعْ يَخْفَهُنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، (والتعب) ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، (الذي ينفي اقتدار الخالق المنان).

وَالنُّومُ وَالسَّنَةُ الَّتِي هِيَ أَضْلُهُ
وَعُزُوبُ شَيْءٍ عَنْهُ فِي الْأَكْوَانِ
قوله: (والنوم والسنة) قال تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والسنة أصل
النوم؛ لأنها النعاس، والنعاس هي الدرجة الأولى من النوم، وتأمل قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ﴾ يعني: أنه لن تغلبه السنة التي تغلب غيره، فإن الإنسان إذا سهر طويلاً
غلبه النوم حتى إنه يكلم الناس وهو نائم، ويصعد الدرَج وهو نائم، وينزل وهو نائم،
وهذا شيء مُشَاهَد، فالإنسان يغلبه النوم، أما الله عز وجل فإنه لا تأخذه سنة ولا نوم،
(وعزوبُ شيء عنهُ في الأكوان) قال الله تعالى: ﴿لَا يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، والعزوب بمعنى الغيبة؛ يعني: لا يغيب عنه.

وَكذَلِكَ الْعَبَثُ الَّذِي تَنْفِيهِ حِكْمُهُ وَحَمْدُ اللَّهِ ذِي الْإِثْقَانِ
قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]،
(الذي تنفيه حكمته) لأن الحكمة تُنافي العبث، وحمدُ الله وهو وصفهُ بكمال يُنافي العبث أيضًا.
وَكذَلِكَ تَرْكُ الْخَلْقِ إِهْمَالًا سُدىً لَا يَبْعَثُونَ إِلَى مَعَادٍ ثَانٍ
قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ [القيامة: ٣٦] يعني: لا يحسب.

كَأَنَّ وَلَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ عَلَيْهِمْ مِنْ إِلَهٍ قَاهِرٍ دِيَانٍ
فلا يمكن أن يُترك الناس سُدىً، لا يُؤمرون، ولا يُنهون، ولا يُبعثون، ولا يُجازون؛ لأن
هذا تاباه حكمة الله.

وَكذَلِكَ ظَلَمُ عِبَادِهِ وَهُوَ الْعَنِيُّ
يَقْمَالُهُ وَالظُّلْمُ لِلْإِنْسَانِ
قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وهذا نفى لمتصل.

وَكذَلِكَ غَفْلَتُهُ تَعَالَى وَهُوَ عَدْلٌ
لَا يُظَاهِرُ الْبُطْلَانَ

وَكَذَلِكَ النَّسِيَانُ جَلَّ إِلَهُنَا لَا يَغْتَرِيهِ قَطُّ مِنْ نَسِيَانٍ

قال الله تعالى على لسان موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ [طه: ٥٢].

وَكَذَلِكَ حَاجَتُهُ إِلَى طَعْمٍ وَرِزْقٍ وَهُوَ رَزَاقٌ بِلَا حُسْبَانٍ

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يَطْعَمُهُ ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴾ [الذاريات: ٥٧].

هَذَا وَثَانِي نَوْعِي السَّلْبِ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ الْأَنْوَاعِ فِي الْأَوْزَانِ

النوع الأول: سلب النقائق في كمالاته، ولهذا قال:

تَنْزِيهِهُ أَوْصَافِ الْكَمَالِ لَهُ عَنِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ وَالتَّكْرَارِ

يعني: أنك تُنزه صفات الله عن التمثيل والتشبيه؛ لأن التمثيل والتشبيه حقيقته النقص، فإن تشبيهه الكامل بالناقص يجعله ناقصاً.

لَسْنَا نُشَبِّهُهُ وَضَفَّهُ بِصِفَاتِنَا

كَلًّا وَلَا نُحْلِيهِ مِنْ أَوْصَافِهِ

مَنْ مَثَّلَ اللَّهَ الْعَظِيمَ بِحَلْقِهِ

النَّسِيبِ يَعْنِي: الْمُشْرِكِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْقَرِيبِ، لَكِنْ مَرَادُهُ هُنَا: الْمُشْرِكِ.

أَوْ عَطَّلَ الرَّحْمَنَ عَنْ أَوْصَافِهِ

توحيد الرسل ينقسم إلى: إثبات وسلب، والسلب ينقسم إلى: متصل ومنفصل، وينقسم

أولاً إلى: سلب التعطيل في أوصافه، وإلى سلب النقص، فهو سلب تعطيل، وسلب نقص.





تهيد بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في النوع الثاني وهو الثبوتي

وهذا النوع هو المقصود الأعظم، وما مضى وسيلة وتتميم وحفظ لهذا النوع. فإن جميع ما ينزه الله عنه فإنما ذلك لأجل ثبوت ضده. وهذا النوع مبناه على إثبات جميع صفات الله الموجودة في الكتاب والسنة والأسماء الحسنى ومعانيها على وجهها والتفقه في معرفة معانيها والتحقق بها تصديقاً ومعرفة وتعبداً لله بها. وكلما قويت هذه الأمور وقوي التوحيد في القلب حتى يكون في قلوب العارفين الربانيين أعظم من الجبال الرواسي، وأطيب وأحلى وأذ من كل اللذات.

وذلك بإثبات أنه (العليّ الأعلى) بكل وجه واعتبار: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر. فعلو الذات هو أنه مستو على عرشه، فوق جميع خلقه، مباين لهم، وهو مع هذا مطلع على أحوالهم، مشاهد لهم، مدبر لأموالهم الظاهرة والباطنة، متكلم بأحكامه القدرية وتدابيراته الكونية وبأحكامه الشرعية. وأما علو القدر فهو أن صفاته كلها صفات كمال، وله من كل وصف ونعت أكمله وغايته، وأما علو القهر فهو قهره تعالى لجميع المخلوقات، فالعالم العلوي والسفلي كلهم خاضعون لعظمته مفتقرون إليه في كل شئونهم.

ومن أسماؤه العظيمة (الأول، والآخر، والظاهر، والباطن): وقد فسرها النبي ﷺ تفسيراً كاملاً واضحاً فقال: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ» ففسر كل اسم بكل معناه، ونفى عنه كل ما يصاده، فمهما قدر المقدرين وفرض الفارضون من الأوقات السابقة المتسلسلة إلى غير نهاية فالله قبل ذلك، وكل وقت لاحق مهما قدر وفرض فالله بعد

ذلك، ولهذا لا يستحق اسم (واجب الوجود) إلا هو، فمن خصائصه أنه لا يكون إلا موجودًا كاملاً فلا يشاركه في وجوب الوجود أحد، فوجوب وجوده بنوعه الكاملة في جميع الأوقات، وهو الذي أوجد الأوقات وجميع الموجودات، وكلها مستندة في وجودها وبقائها إلى الله، فالأول والآخر يتضمنان إحاطته بجميع الأزمنة وجميع المخلوقات من كل وجه، والظاهر والباطن يقتضيان إحاطته بجميع الأمكنة وأنها تنتهي إلى الله في العلو والقرب، ولا منافاة بين الأمرين في حقه تعالى لأنه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، فهو العلي في دُنُوّه القريب في علوه.

ومن أسمائه الحسنى (الكبير، العظيم، الجليل): وهو الذي له كل عظمة وكبرياء وجلال. ومعاني العظمة نوعان: أحدهما: أنه متصف بصفات المجد والعظمة والكبرياء. والثاني: أنه يستحق أن يُعَظَّم غاية التعظيم، ويخضع العباد لجلاله وكبريائه وإخلاص المحبة والعبودية له، ومن كمال عظمته تنزيهه عن كل صفة نقص، وتقديسه عن أن يماثله أحد من خلقه.

ومن أسمائه (الجليل، الجميل): وما أحسن الجمع بينهما، فإن «الجليل» من له صفات الجلال والكبرياء والعظمة، و«الجميل» من له نعوت الحسن والإحسان، فإنه جميل في ذاته، وجمال المخلوقات بأسرها من آثار جماله، وهو الذي أعطاهم الجمال، فمعطي الجمال أحق بالجمال، وهو جميل في أسمائه لأنها كلها حسنى. وجميل في صفاته إذ كلها صفات كمال. وجميل في أفعاله فلا أحسن منه حكماً ولا وصفاً.

ومن أسمائه العظيمة (الحميد، المجيد): فالحمد كثرة الصفات والخيرات، والمجد عظمة الصفات وسعتها، فهو الحميد لكثرة صفاته الحميدة، المجيد لعظمتها وعظمة ملكه وسلطانه، فهو يقارب الجمع بين الجليل والجميل.

ومن أسمائه الحسنى (السميع، البصير): الذي يسمع جميع الأصوات باختلاف اللغات على تقنن الحاجات، فالسر عنده علانية والبعيد عنده قريب، ويرى ديبب النملة السوداء في جوف الصخور في الليالي المظلمة وجريان القوت في أعضائها وعروقها الدقيقة الضئيلة، وسريان المياه في أغصان الأشجار والنبات، ويرى خيانات الأعين، وما هو في أخفى الأمكنة.

ومن أسمائه الحسنى (العليم): الذي أحاط علمه بكل شيء، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ويعلم الواجبات والامتعات والجائزات وما في أقطار

العالم العلوي والسفلي.

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧].

وهو تعالى لم يزل ولا يزال (متكلمًا) بكلماته الكونية والشرعية.

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥].

صدقًا في الأخبار وعدلًا في أوامرها ونواهيها.

﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧].

وكلامه تعالى نوعان: نوع بلا واسطة كما كلم موسى وآدم وحواء ومحمدًا ليلة المعراج ويكلم عباده في الآخرة وفي الجنة، ونوع بواسطة أنبيائه ورسله.

ومن أسمائه (القوي، العزيز، المتين، القدير): ومعانيها متقاربة تقتضي كمال قوته وعظمته وكبريائه فلا يملك الخلق نفعه فينفعونه ولا ضره فيضرونه، وكمال اقتداره على جميع الموجودات والمعدومات، وأن جميع العالم طوع قدرته ومشيئته يتصرف فيها بما يشاء وكيف يشاء.

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٦٥].

وهي عزة الامتناع والقوة والقهر والغلبة، كلها قد كملت لله الواحد القهار من جميع الوجوه.

ومن أسمائه (الغني): بذاته عن جميع مخلوقاته، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه من الوجوه فكل المخلوقات مفتقرة إليه في إيجادها وإعدادها وإمدادها في أمور دينها ودنياها في جلب المنافع ودفع المضار، وهو الذي أغناها وأقناها، ومن كمال غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ولم يكن له كفواً أحد، ومن سعة غناه أن جميع الخيرات والعطايا والنعم في الدنيا والآخرة والنعيم المقيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قطرة من بحر غناه وجوده وكرمه، فهو الغني بذاته المستغني عن جميع مخلوقاته، المغني لعباده بما أدره عليهم من الخيرات وأنزله من البركات.

ومن أسماؤه الحسنى (الحكيم): وهو الذي يضع الأمور مواضعها اللائقة بها، وله الأحكام الشرعية والأحكام القدريّة، وله الحكمة في شرعه والحكمة في قدره، فأحكامه الشرعية هي ما جاءت به الرسل، وهي متعلّقة برضاه ومحبته ومناط أمره ونهيه، والأحكام الكونية القدريّة وهي جميع التدابير جليلها وصغيرها الواقعة في العالم العلوي والعالم السفلي، وقد يجتمع في حق المؤمن الحكمان إذا أطاع الله، وقد ينفرد الحكم القدري في وجود ما وجد من المعاصي والمباحات، ولذلك يقال: من وافق الحكم الشرعي فقد وافق رضى الله تعالى ومحبته، فإن الله يحب المؤمنين والمتقين والصابرين، ومن وافق حكمه القدري فقط فإن كان معصية فله الذم والعقوبة لمخالفته لأمر الله وتجروؤه على معاصيه، وإن كان مباحاً فلا له ولا عليه، ولكن قد يفوته من الخير ما هو بصدده فعله. والقضاء صفة الله، والله لا يوصف إلا بكل وصف جميل، والمقضيّ فعل الإنسان وصنعتة وهو ينقسم إلى محمود ومذموم ومباح فلذلك وجب التفصيل في الرضا بالقضاء، فالرضا بنفس ما يقدره ويرضاه بقطع النظر عن فعل العبد لازم. والرضا بالمقضيّ الذي هو فعل العبد فيه تفصيل بحسبه إن كان خيراً تعين الرضاء به وإن كان شراً تعين عدم الرضاء، فأحكام الرب القدريّة والشرعية وكذلك أحكام الجزاء كلها متضمن لها اسمه (الحكيم) وهو الذي له الحكم بين عباده الذي لا حاكم إلا هو بالحق والعدل والحمد.س

وأما الحكمة فهي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها اللائقة بها، وهو تعالى قد أتقن ما صنعه وأحسن ما شرعه، فالمخلوقات كلها والشرائع مشتملات على الحكم والغايات الحميدة، كما أنها في نفسها في غاية الإحكام، فمن أجل الغايات في ذلك أنه خلق الخلق وشرع الأمر ليعرف بأسماؤه وصفاته، وليعبد وحده لا شريك له، ويحمد ويشكر ويشنى عليه، ويخلص له الدين، وكذلك ليبتلي عباده أيهم أحسن عملاً، وليجازيهم بأعمالهم خيراً وشرهاً، فالحكيم هو الحاكم بين عباده في أقداره وشرائعه وجزائه وكون أحكامه في نفسها جارية على الحكم والحق في أصلها وفرعها وغاياتها وثمراتها، وتفصيل هذه الجمل كثير جداً.



فصل

في النوع الثاني من النوع الأول وهو الثبوت

٣٢٢٣- هَذَا وَمِنْ تَوْحِيدِهِمْ إِبْتِثَاتٌ أَوْ

صَافِ الْكَمَالِ لِرَبَّنَا الرَّحْمَنِ^(١)

٣٢٢٤- كَعُلُوِّهِ سُبْحَانَهُ فَوْقَ السَّمَـ

وَآتِ الْعُلَى بَلْ فَوْقَ كُلِّ مَكَانٍ

٣٢٢٥- فَهُوَ الْعَلِيُّ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ

إِذْ يَسْتَحِيلُ خِلَافَ ذَا بَيِّنَانٍ

٣٢٢٦- وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى

(١) [٣٢٢٣] قال العلامة محمد خليل هراس:

فمن توحيد الأنبياء والمرسلين أنهم يثبتون أوصاف الكمال كلها لله عز وجل لا ينفون منها شيئاً ولا يعطلون ربه عن شيء من صفات كماله، بل يؤمنون بها كلها ويتعرفون معناها ويتعبدون لله تعالى بعلمها واعتقادها، ويعملون بها تقتضيه كل صفة من الأحوال القلبية والمعارف الإلهية. فأوصاف العظمة والكبرياء والمجد والجلال تملأ قلوبهم هيبة لله وتعظيماً له وتقديساً. وأوصاف العز والقهر والقدرة والجبروت تملؤها ذلاً وانكساراً وخضوعاً بين يدي الرب جل شأنه، وخوفاً من بطشه وعذابه.

وأوصاف الرحمة والبر والجلود والكرم تملؤها أملاً واستبشاراً وطمعاً في فضله وإحسانه وجوده وامتنانه. وأوصاف العلم والخبرة والإحاطة والشهود توجب للعبد مراقبة ربه في جميع حركاته وسكناته، والاستحياء منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره، وأوصاف الجمال والقرب والود والإكرام تملأ القلوب محبة لله وشوقاً إليه. وهكذا كل من تحقق بمعاني أسائه سبحانه ووعاها بقلبه ووجدانه، فإنه يجد لها من التأثيرات المختلفة على قلبه وروحه ما يصير به كأنه في روضة من الجنة، ويحق له أن يدخل في عموم قوله عليه الصلاة والسلام: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة».

- قَدْ قَامَ بِالتَّدْبِيرِ لِلْأَكْوَانِ
 ٣٢٢٧- حَيِّ مُرِيدٌ قَادِرٌ مُتَكَلِّمٌ
 ذُو رَحْمَةٍ وَإِرَادَةٍ وَحَنَانِ
 ٣٢٢٨- هُوَ أَوَّلُ هُوَ آخِرُ هُوَ ظَاهِرٌ
 هُوَ بَاطِنٌ هِيَ أَرْبَعٌ بِوِزَانِ
 ٣٢٢٩- مَا قَبْلَهُ شَيْءٌ كَذَا مَا بَعْدَهُ
 شَيْءٌ تَعَالَى اللَّهُ ذُو السُّلْطَانِ
 ٣٢٣٠- مَا فَوْقَهُ شَيْءٌ كَذَا مَا دُونَهُ
 شَيْءٌ وَذَا تَفْسِيرُ ذِي الْبُرْهَانِ
 ٣٢٣١- فَانظُرْ إِلَى تَفْسِيرِهِ بِتَدْبِيرِ
 وَتَبْصُرِ وَتَعْقُلِ لِمَعَانِ
 ٣٢٣٢- وَانظُرْ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ أَنْوَاعٍ مَعِ
 رِفَةٍ لِخَالِقِنَا الْعَظِيمِ الشَّانِ^(١)

(١) [٣٢٢٧: ٣٢٣٢] قال العلامة محمد خليل هراس

وقد سبق أن بينا ضرورة الأخذ بهذا التفسير لهذه الأسماء الأربعة حيث إنه ورد على لسان المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، وهو أعلم الخلق بربه وبمعاني أسمائه. يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن آل سعدي غفر الله له: (فتدبر هذه المعاني الجليلة الدالة على تفرد الرب العظيم بالكمال المطلق والإحاطة المطلقة الزمانية في قوله: ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ والمكانية في: ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾).
 فالأول يدل على أن كل ما سواه حادث كائن بعد أن لم يكن. ويوجب للبعد أن يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية، إذ السبب والمسبب منه تعالى.
 والآخر يدل على أنه هو الغاية، والصمد الذي تصمد إليه المخلوقات بتأهلها ورغبتها ورهبتها وجميع مطالبها.

والظاهر يدل على عظمة صفاته واضمحلال كل شيء عند عظمته من ذوات وصفات، وعلى علوه.
 والباطن يدل على اطلاعه على السرائر والضمائر والخبايا والحقايا ودقائق الأشياء. كما يدل على قربه ودنوه، ولا يتناقى الظاهر والباطن، لأن الله ليس كمثلته شيء في كل النعوت. اهـ.



- ٣٢٣٣- وَهُوَ الْعَلِيُّ فَكُلُّ أَنْوَاعِ الْعُلُوِّ
وَلَهُ فَثَابِتَةٌ بِئْسَ لَنَا نُكْرَانِ
- ٣٢٣٤- وَهُوَ الْعَظِيمُ بِكُلِّ مَعْنَى يُوَجِبُ الثَّ
تَعْظِيمَ لَا يَخْصِيهِ مِنْ إِنْسَانِ
- ٣٢٣٥- وَهُوَ الْعَجَلِيلُ فَكُلُّ أَوْصَافِ الْعَجَلِ
لِ لَهُ مُحَقَّقَةٌ بِئْسَ لَنَا بَطْلَانِ
- ٣٢٣٦- وَهُوَ الْجَمِيلُ عَلَى الْحَقِيقَةِ كَيْفَ لَا
وَجَمَالَ سَائِرِ هَذِهِ الْأَكْوَانِ
- ٣٢٣٧- مِنْ بَعْضِ آثَارِ الْجَمِيلِ فَرُبُّهَا
أَوْلَى وَأَجْدَرُ يَا ذَوِي الْعِرْفَانِ
- ٣٢٣٨- [فَجَمَالُهُ بِالذَّاتِ وَالْأَوْصَافِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَسْمَاءِ بِالْبُرْهَانِ^(١)

(١) [٣٢٣٨، ٣٢٣٩] قال العلامة محمد خليل هراس:

أما جمال الذات فهو ما لا يمكن لمخلوق أن يعبر عن شيء منه أو يبلغ بعض كنهه وحسبك أن أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم المقيم وأفانين اللذات والسرور التي لا يقدر قدرها إذا رأوا ربهم وتمتعوا بجمالها نسوا كل ما هم فيه، واضمحل عندهم هذا النعيم وودوا لو تدوم لهم هذه الحال، ولم يكن شيء أحب إليهم من الاستغراق في شهود هذا الجمال، واكتسبوا من جماله ونوره سبحانه جمالاً إلى جمالهم، ويقفوا في شوق دائم إلى رؤيته حتى أنهم يفرحون بيوم المزيد فرحاً تكاد تطير له القلوب.

وأما جمال الأسماء فإنها كلها حسنى بل هي أحسن الأسماء وأجلها على الإطلاق فكلها دالة على كمال الحمد والمجد والجمال والجلال ليس فيها أبداً ما ليس بحسن ولا جميل، وأما جمال الصفات فإن صفاته كلها صفات كمال ومجد ونعوت ثناء وحمد، بل هي أوسع الصفات وأعمها وأكملها آثاراً وتعلقات، لا سيما صفات الرحمة والبر والكرم والجود والإحسان والإنعام.

وأما جمال الأفعال فإنها دائرة بين أفعال البر والإحسان التي يحمد عليها ويشكر، وبين أفعال العدل التي يحمد عليها لموافقتهما للحكمة والحمد فليس في أفعاله عبث ولا سفه ولا جور ولا ظلم، بل كلها خير ورحمة ورشد وهدى وعدل وحكمة، قال تعالى ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

ولأن كمال الأفعال تابع لكمال الذات والصفات، فإن الأفعال أثر الصفات، وصفاته كما قلنا أكمل

٣٢٣٩- لَا شَيْءَ يَشْبَهُ ذَاتَهُ وَصِفَاتِهِ

سُبْحَانَهُ عَنْ إِفْكِ ذِي الْبُهْتَانِ

٣٢٤٠- وَهُوَ الْمَجِيدُ صِفَاتُهُ أَوْصَافُ تَعَدُّ

ظِيمٍ فَشَأْنُ الْوُصْفِ أَعْظَمُ شَأْنِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

يقول ابن القيم رحمه الله:

هَذَا وَمِنْ تَوْحِيدِهِمْ إِثْبَاتٌ أَوْ صَافِ الْكَمَالِ لِرَبِّنَا الرَّحْمَنِ

فكل أوصاف الكمال ثابتة له، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، المثل الأعلى؛ يعني: الوصف الأكمل من كل وجه، وفي الأسماء قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ولهذا لا تجد اسماً من أسماء الله يتضمّن نقصاً بوجه من الوجوه، ولا صفة من صفات الله تتضمّن نقصاً بوجه من الوجوه.

فالثبوت إذن: إثبات أوصاف الكمال لله عز وجل، ولكن لا بد أن يُضاف إليها شيءٌ آخر: مع نفي المماثلة؛ لأن الإثبات بدون نفي المثل ليس بتوحيد، فإن التوحيد يقوم على النفي والإثبات.

إذا قلت: فلان جيد، هذا وصف له بالجُود، والجُود كمال، لكن هل هذا يستلزم التوحيد؟ لا، لأنه قد يكون هو جيد، وآخر أيضاً جيد، لكن إذا قلت: لا جيد إلا فلان، أو إنما الجيد فلان، فحينئذٍ وحدته بالجُود، فقول المؤلف: (إثبات أوصاف الكمال لربنا) يحتاج إلى إضافة وهي: مع نفي المماثلة حتى يتم التوحيد.

كَعُلُوِّهِ سُبْحَانَهُ فَوْقَ السَّمَاءِ سَوَاتِ الْعُلَىٰ بَلْ فَوْقَ كُلِّ مَكَانٍ

الصفات، فلا غرو أن تكون أفعاله أكمل الأفعال.

قال العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «وجع المؤلف بين الجليل والجميل، لأن تمام التبعيد لله هو التبعيد بهذين الاسمين الكريمين، فالتبعيد بالجليل يقتضي تعظيمه وخوفه وهيئته وإجلاله، والتبعيد باسمه الجميل يقتضي محبته والتأله له، وإن يبذل العبد له خالص المحبة وصفو الوداد، بحيث يسبح القلب في رياض معرفته وميادين جماله ويتهجج بما يحصل له من آثار جماله وكماله، فإن الله ذو الجلال والإكرام».

ومن صفات الكمال العلو، ووجه ذلك: أن العلو صفة كمال، فوجب ثبوته لله، ووجه آخر: أن ضد العلو السُّفْل، والسُّفْل نقص، والله تعالى مُنَزَّهُ عن النقص.

فَهُوَ الْعَلِيُّ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَسْتَحِيلُ خِلَافَ ذَا بَيَانَ

يستحيل ألا يكون عاليًا بذاته؛ لأننا إذا لم نقل: عالٍ بذاته لزم من ذلك؛ إما أن يكون في كل مكان، وإما أن لا يكون له مكان، وكلاهما مستحيل، ولهذا قال: (إذ يستحيل خلاف ذا) أي: خلاف علوه بذاته، ويبقى علوه بذاته ثابتًا بمقتضى العقل، وقد مرَّ علينا أنه يدلُّ عليه السمع، والعقل، والفترة، والإجماع، والسمع: كتاب وسنة، فالأدلة خمسة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفترة، كلها تدل على علو الله تعالى بذاته.

وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى قَدْ قَامَ بِالتَّوْبِيرِ لِلْأَكْوَانِ

استوى على العرش يعني: علا عليه واستقرَّ علوًّا يليق بجلاله، فإن قال قائل: هو عالٍ على كل شيء؟ قلنا: نعم، لكن الاستواء على العرش علوٌّ خاصٌّ بالعرش، أُرِيَتْ لو أن شخصًا فوق السطح على الكرسي، فهو عالٍ على السطح وعلى من تحته، لكنه مُسْتَوٍ على الكرسي خاصة، فالاستواء خاص بالعرش، كاستواء الإنسان على الكرسي فوق السطح، فهو عالٍ على السطح وعلى من تحته، لكن الاستواء خاص بالكرسي، إذاً علوه على العرش أو استواؤه على العرش علوٌّ خاص، ليس هو العلو الشامل لكل المخلوقات.

وقوله: (قد قام بالتدبير للأكوان) إشارة إلى ردِّ من قال: إن استوى بمعنى استولى، ومَلِكٌ، وقَهَرٌ، فيقول المؤلف يُشِيرُ إلى أن مُلْكَهُ وقَهْرَهُ واستيلائه على جميع الأكوان، أما الاستواء فهو خاص بالعرش.

حَيِّ مُرِيدٌ قَادِرٌ مُتَكَلِّمٌ ذُو رَحْمَةٍ وَإِرَادَةٍ وَخَنَانٍ

ابتدأ المؤلف رَحَّمَ اللهُ يَذْكُرُ الأَسْمَاءَ وَيُشْرِحُهَا.

(حَيٌّ مُرِيدٌ) وحياته عز وجل حياة كاملة لم تُسَبِّقْ بَعْدَمَ، ولا يلحقها زوال، وهي أيضًا كاملة الأوصاف، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه، فهي كاملة من ناحيتين، من ناحية الكمال الذاتي، ومن ناحية الكمال الزمني، حياة المخلوقين ناقصة من ناحية الكمال الزمني، ومن ناحية الكمال الذاتي.

وحياة المخلوقين مسبوقه بعدم وملحوقه بزوال، هذا نقص زماني، أيضًا حياة المخلوق ليست كاملة، يلحقها النقص، يُمَرِّضُ الإنسانَ، ويَجُوعُ، ويعطش، ويدخله البرد، ويؤلمه

الحر، بخلاف حياة الرب عز وجل، فهي كاملة.

(مُرِيد) يعني: له الإرادة، والمُرِيد ليس من أسماءه، ولكنه يُوصَفُ به، فيقال: مُرِيد لکن ليس من أسماء الله عز وجل؛ وذلك لأن الإرادة تنقسم، والأسماء كلها حسنى ليس فيها انقسام، أما الإرادة فتقسم: إرادة خير، وإرادة شر.

(قادر) هذا اسم من أسماء الله، ولكنه يأتي باسم مُقتدر، قدير، وما أشبه ذلك.

(مُتَكَلِّم) وصف وليس باسم؛ لأن الكلام ينقسم: خير وشر، والله عز وجل لا يتكلم إلا بالخير، ولذلك نقول: هو وصف وليس باسم.

(ذو رحمة) واضح أن هذا وصف، ذو بمعنى: صاحب.

هُوَ أَوَّلُ هُوَ آخِرٌ هُوَ ظَاهِرٌ هُوَ بَاطِنٌ هِيَ أَرْبَعٌ بَوَازِنٌ
مَا قَبْلَهُ شَيْءٌ كَذَا مَا بَعْدَهُ شَيْءٌ تَعَالَى اللَّهُ ذُو السُّلْطَانِ
مَا فَوْقَهُ شَيْءٌ كَذَا مَا دُونَهُ شَيْءٌ وَذَا تَفْسِيرُ ذِي الْبُرْهَانِ

أتى بأسماء الله عز وجل المزدوجة، (هو أول هو آخر) هذا باعتبار الزمن (هو ظاهر هو باطن) باعتبار المكان، فهو سبحانه وتعالى مُحِيطٌ بكل شيء زماناً، وبكل شيء مكاناً.

(هو أول هو آخر) الأول ضده الآخر، الظاهر ضده الباطن، وقد فسرها النبي ﷺ نفسه وهو أعلم الخلق بكلام الله عز وجل، فقال عليه الصلاة والسلام: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»^(١)، هذا هو المعنى الذي لا يمكن سواه؛ لأنه تفسير بالبرهان كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ.

فهو الأول قبل كل شيء، وكل شيء بعده، وهو الآخر بعد كل شيء، وهو الظاهر فوق كل شيء، وهو الباطن ليس دونه شيء؛ أي: أنه محيط بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، ولا يُعْجِزُهُ شيء، هذا معنى الباطن، وليس معنى الباطن: الخفي؛ لأن الخفاء يُضَادُّ الظهور، وهو سبحانه وتعالى أَيْبَنُ الأشياء، وأوضح الأشياء، كيف وفي كل شيء له آية؟ لكن معنى الباطن: أنه محيط بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، ليس دونه؛ أي: ليس دون علمه، ولا قدرته، ولا سلطانه، ولا سمعه، ولا بصره، ولا جميع صفاته، ليس

دونه شيء، يقول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

فَانظُرْ إِلَى تَفْسِيرِهِ بِتَدْبِيرٍ وَتَبْصُرٍ وَتَعْقُلٍ لِمَعَانٍ

يعني: تفسير ذي البرهان، وهو النبي ﷺ، تجد أنه أعظم التفاسير وأبينها وأوضحها.

وَإِنظُرْ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ أَنْوَاعٍ مَعْدٍ سِرْفَةٍ لِخَالِقِنَا الْعَظِيمِ الشَّانِ

كيف دلّت هذه الأسماء الأربعة على إحاطة الله بكل شيء زماناً ومكاناً؟

قوله:

وَهُوَ الْعَلِيُّ فَكُلُّ أَنْوَاعِ الْعُلُوِّ وَلَهُ فَتَابِتَةٌ بِأَلَا نُكْرَانِ

قال العلماء رحمهم الله:

علوه بالذات وبالصفات، والصفات قدرية وقهرية، فعلوه علو الذات، علو القدر، علو القهر.

علو ذات: أنه بذاته فوق كل شيء.

علو القهر: أنه قاهر لكل شيء.

علو القدر: أن قدره فوق كل قدر، لا يناله أحد في قدره.

وإن شئت فقل: إن علوه نوعان: علو الذات، وعلو الصفات، وهذا أخصر فيشمل

جميع الصفات، عالٍ بسمعه، عالٍ ببصره، عالٍ بجميع صفاته.

وَهُوَ الْعَظِيمُ بِكُلِّ مَعْنَى يَوْجِبُ التَّعْظِيمَ لَا يَخْصِيهِ مِنْ إِنْسَانٍ

وأيضاً من أسماء الله العظيم، وقد تكرّر في القرآن الكريم كثيراً، ويجمع الله بينه وبين

العلي، لما في العلو من الكمال الذاتي والوصفي، ولما في العظيم من العظمة، فكل أوصاف

التعظيم ثابتة لله عز وجل، والعظمة تكون لله وتكون لغيره، لكن العظمة لله لا يُشَبِّهُهَا

شيء، قال الله تعالى عن عرش بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وقال عن العرش:

﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]، فهذا العِظَمُ يكون لله ولغيره، لكن العظمة الخاصة بالله

عظمة الله لا يُشَابِهُهَا أي عظمة.

وَهُوَ الْجَلِيلُ فَكُلُّ أَوْصَافِ الْجَلَالِ لِي لَهُ مُحَقَّقَةٌ بِأَلَا بَطْلَانِ

الجلال بمعنى: كمال السلطان، فالجلال كله ثابت لله عز وجل، وإذا آمنت بذلك لزم أن تحشى الله وتحافه؛ لأنه جليل.

وَهُوَ الْجَمِيلُ عَلَى الْحَقِيقَةِ كَيْفَ لَا وَجَمَالَ سَائِرِ هَذِهِ الْأَكْوَانِ

وأيضاً من أسماء الله الجميل، والمؤلف ﷺ جمع بينهما؛ لأن الإيمان بجماله عز وجل يستلزم الطلب بمراضيه، والإيمان بجلاله يستلزم الهرب من معاصيه.

وقد دلّ على هذا قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»^(١).

مِنْ بَعْضِ آثَارِ الْجَمِيلِ فَرُبَّهَا أَوْلَى وَأَجْدَرُ يَا ذَوِي الْعَرْفَانِ

لأن يُقال: مُعْطِي الْكَمَالِ أَوْلَى بِالْكَمَالِ، فجمال هذه الأكوان كلها من آثار جمال الله عز وجل، فإذا كيف يُعطي الجميل من لا يكون جميلاً، فهو عز وجل جميل، ولكن جماله ليس كجمال المخلوقين؛ بل هو أعظم، شيء لا يدور بالخيال، ولا يمكن أن يُدرّكه الفكر، ولهذا تجد أنعم ما يكون لأهل الجنة أن ينظروا إلى وجه الله عز وجل، هذا يفوق النعيم الذي كانوا فيه، وهم في نعيم قال الله تعالى عنه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال في الحديث القدسي: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(٢).

فَجَمَالُهُ بِالذَّاتِ وَالْأَوْصَافِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَسْمَاءِ بِالْبُرْهَانِ

وهذا بالدليل، فهو جميل بذاته عز وجل، جميل بصفاته، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧] هذا جمال الصفات، أنها صفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، والأفعال أفعاله كلها حميدة، كلها لحكمة وغاية، وأما الأسماء فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فهو جميل في هذه الأمور الأربع: الذات، والأوصاف، والأسماء، والأفعال.

لَا شَيْءٍ يُشْبِهُ ذَاتَهُ وَصَفَاتَهُ سُبْحَانَهُ عَنِ إِفْكِ ذِي الْبُهْتَانِ

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) رواه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

وهو المجيد صفاته أوصاف تع ظِيمٌ فَشَأْنُ الْوَصْفِ أَعْظَمُ شَأْنٍ
المجيد من أسماء الله عز وجل، والمجد هو كمال السلطان والملك، ولهذا قال رسول الله
ﷺ: «إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] قال الله: «مَجْدَنِي عَبْدِي» (١)، فهو
تمام الملك والسلطان.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

- ٣٢٤١- وَهُوَ السَّمِيعُ يَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ مَا
فِي الْكُونِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلَانٍ
٣٢٤٢- وَلِكُلِّ صَوْتٍ مِنْهُ سَمْعٌ حَاضِرٌ
فَالسِّرُّ وَالْإِعْلَانُ مُسْتَوِيَانِ
٣٢٤٣- وَالسَّمْعُ مِنْهُ وَاسِعُ الْأَصْوَاتِ لَا
يُخْفَى عَلَيْهِ بَعِيدُهَا وَالْدَّانِي
٣٢٤٤- وَهُوَ الْبَصِيرُ يَرَى دَبِيبَ النَّمْلَةِ السَّ
سَوْدَاءِ تَحْتَ الصَّخْرِ وَالصَّوَّانِ
٣٢٤٥- وَيَرَى مَجَارِي الْقَوْتِ فِي أَعْضَائِهَا
وَيَرَى نِيَاطَ غُرُوقِهَا بِعِيَانِ
٣٢٤٦- وَيَرَى خِيَانَاتِ الْعُيُونِ بِلِحْظِهَا
وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبِ الْأَجْفَانِ (٢)

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

(٢) [٣٢٤٦: ٣٢٤١] قال العلامة محمد خليل هراس:

واعلم أن سمعه تعالى نوعان: أحدهما عام، وهو سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة الخفية والجلية وإحاطته التامة بها، والثاني خاص وهو سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين، فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قوله تعالى على لسان أم مريم عليها السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥] وقوله على لسان إبراهيم خليله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى

٣٢٤٧- وَهُوَ الْعَلِيمُ أَحَاطَ عِلْمًا بِالَّذِي

فِي الْكَوْنِ مِنْ سِرِّ وَمِنْ إِعْلَانِ

٣٢٤٨- وَبِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ

فَهُوَ الْمُحِيطُ وَلَيْسَ ذَا نِسْيَانِ

٣٢٤٩- وَكَذَلِكَ يَغْلَمُ مَا يَكُونُ غَدًا وَمَا

قَدْ كَانَ وَالْمَوْجُودَ فِي ذَا الْآنِ

٣٢٥٠- وَكَذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْ-

فَ يَكُونُ ذَا إِمْكَانٍ^(١)

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

أيضاً من أسماء الله تعالى: السميع، وهو متعلق بكل صوت، والبصير وهو المتعلق بكل مرئي، فالسميع للمسموعات، والبصير للمبصرات المرئيات.

وَهُوَ السَّمِيعُ يَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ سِرِّ وَمِنْ إِعْلَانِ

قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الرَّحُوفُ: ٨٠]، والسميع من

الْكَبِيرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿ [إبراهيم: ٣٩] ومنه قول المصلي: (سمع الله لمن حمده) أي استجاب له وقبل منه.

(١) [٣٢٤٩، ٣٢٥٠] قال العلامة محمد خليل هراس:

والدليل العقلي على علمه تعالى أمور:

أولها: أنه يستحيل إيجاد الأشياء مع الجهل، لأن إيجاد الأشياء بإرادته.

والإرادة تستلزم العلم بالمراد، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وثانيها: ما في المخلوقات من الإحكام والإتقان وعجيب الصنعة ودقيق الخلق، يشهد بعلم الفاعل لها لا امتناع صدور ذلك في العادة عن غير ذي علم.

وثالثها: في المخلوقات من هو عالم، والعلم صفة كمال، فلو لم يكن سبحانه عالماً لكان في مخلوقاته من هو

أكمل منه.

ورابعها: كل علم في المخلوق إنما استفاده من خالقه، وواهب الكمال أحق به، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.



إساء الله ينقسم إلى قسمين؛ يعني: ينقسم معناه إلى قسمين:

القسم الأول: بمعنى: سميع مُدْرِكٌ للمسموعات، «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» أي: استجاب الله لمن حمده، وليس المراد سَمِعَ بمعنى: أدرك قول القائل: «رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ»، ولكن المعنى: أنه استجاب.

أما السمع الذي بمعنى إدراك المسموع، فهو ينقسم إلى: عامٍّ وخاصٍّ. فالعام: ما يتعلّق بكل ما يسمع من خير وشر.

والخاص: هو المُسْتَلْزِمُ للنصرة والتأييد، ومنه قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

والعام تارة يُراد به بيان الإحاطة، وتارة يُراد به التهديد؛ مثل: قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ﴾ [المجادلة: ١] هذا يُقصد به: بيان الإحاطة، وأما ما يُقصد به بيان التهديد، فمثل قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلًا لَدَيْهِمْ يَكْفِبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، فهذا تهديد لهم، ومثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ليس المقصود بأن الله سَمِعَ فقط؛ بل المقصود بهذا تهديدهم.

إذن فالسميع يُقسّم أولاً إلى: سمع إدراك وسمع إجابة، فسمع الإجابة مثل: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

سمع الإدراك ينقسم إلى ما يُراد به الإحاطة، وما يُراد به التهديد، وما يُراد به التأييد. أما قوله: (يرى) تأتي بمعنى: الرؤية التي هي رؤية العين، وتأتي بمعنى: العلم، فمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧]، هذه بمعنى العلم؛ لأن يوم الحساب لم يأت بعد، ولكنه معلومٌ عند الله عز وجل، ومثل قوله تعالى: ﴿الرَّيِّعَلِمُ أَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] هذه رؤية للعلم ورؤية أيضًا للبصر، فهو يرى ويُشاهد هؤلاء الذي يُؤذون النبي ﷺ.

والرؤية التي بمعنى: إدراك المرئي منها عام، ومنها خاص؛ يعني: يقتضي النصر والتأييد؛ مثل: ﴿إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] المراد بذلك: الرؤية التي تقتضي النصر والتأييد.

وَالسَّمْعُ مِنْهُ وَاسِعٌ الْأَصْوَاتِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ بَعِيدُهَا وَالِدَّانِي

يعني: شاملٌ لها.

وَهُوَ الْبَصِيرُ يَرَى دَيْبَ النَّمْلَةِ السَّدِ سَوْدَاءَ تَحْتِ الصَّخْرِ وَالصَّوَّانِ

ديب النملة السوداء في الليلة الظلماء تحت الصخرة يراه عز وجل، وهذا من أخفى ما يكون، ومع ذلك فلا يغيب عنه سبحانه وتعالى.

وَيَرَى مَجَارِي الْقَوْتِ فِي أَعْضَائِهَا وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا بِعِيَانِ

وَيَرَى خِيَانَاتِ الْعُيُونِ بِلِحْظِهَا وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلَّبَ الْأَجْفَانِ

فلا يخفى عليه شيء، وهذه الأبيات أخذها المؤلف من قول الشاعر:

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبَعُوضِ جَنَاحِهَا فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلِيلِ

وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا فِي نَحْرِهَا وَالْمُخَّ فِي تَلْكَ الْعِظَامِ التُّحَلِّ

أَمَّنْ عَلَيَّ بِتَوْبَةٍ تَمَحُّو بِهَا مَا كَانَ مَتِّي فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ

قوله:

وَهُوَ الْعَلِيمُ أَحَاطَ عِلْمًا بِالَّذِي فِي الْكُؤُنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلَانِ

وَبِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ فَهُوَ الْمُحِيطُ وَلَيْسَ ذَا نِسْيَانِ

وَكَذَاكَ يَعْلَمُ مَا يَكُونُ غَدًا وَمَا قَدْ كَانَ وَالْمَوْجُودَ فِي ذَا الْآنِ

وَكَذَاكَ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ فَيَكُونُ ذَا إِمْكَانِ

يعني: أن من أسماء الله العليم، فهو سبحانه وتعالى محيط بكل شيء علماً، وعلمه لم يسبق بجهل، ولا يلحقه نسيان، قال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾

[طه: ٥٢]، لا يضل: أي لا يجهل، ولا ينسى: أي لا يغيب عنه ما ذكره، كذلك هو محيط

بكل شيء تفصيلاً، قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا

يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وعلمنا بهذه المعاني من أسماء الله يجب أن يؤثر علينا؛ فمثلاً إذا علمنا بإحاطة الله بكل

شيء علماً يستلزم منا ألا نخالف أمر الله؛ لأننا لو خالفنا أمر الله لكان يعلم بنا، وألا نقع فيما

نهى الله عنه؛ لأنه يعلمه، وأن نعلم أننا مهما كنا في أخفى مكان من الأرض فالله عالمٌ بنا،

وَأَنْ نَعْلَمَ أَيْضًا أَنَّا لَوْ نَظَرْنَا نَظْرًا مُحَرَّمًا لَا يَعْلَمُ بِهِ الْخَلْقُ، لَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ بِنَا، فَإِذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لَنَا فَائِدَةٌ مَسْلُكِيَّةٌ مِنْ مَعْرِفَةِ مَعَانِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، لَا أَنْ يَكُونَ عَلْمُنَا بِهَا مَجْرَدَ نَظَرٍ، فَإِذَا لَمْ نَتَأَثَّرْ بِمَدْلُولَاتِهَا لَمْ نَسْتَخْدِمْهَا كَثِيرَةً.





٣٢٥١- وَهُوَ الْحَمِيدُ فَكُلُّ حَمْدٍ وَقِعَ

أَوْ كَانَ مَفْرُوضًا مَدَى الْأَزْمَانِ

٣٢٥٢- مَلَأَ الْوُجُودَ جَمِيعَةً وَنَظِيرَهُ

مِنْ غَيْرِ مَا عَدِيَ وَلَا حُسْبَانَ

٣٢٥٣- هُوَ أَهْلُهُ سُبْحَانَهُ وَيَحْمَدِهِ

كُلُّ الْمَحَامِدِ وَصَفَ ذِي الْإِحْسَانِ^(١)

(١) [٣٢٥١: ٣٢٥٣] قال العلامة محمد خليل هراس:

قال الراغب: (الحمد لله تعالى الثناء عليه بالفضيلة وهو أخص من المدح وأعم من الشكر، فإن المدح يُقال فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يكون منه وفيه بالتسخر، فقد يمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يُمدح ببذل ماله وسخائه وعمله، والحمد يكون في الثاني دون الأول، والتشكر لا يُقال إلا في مقابلة نعمة، فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكرًا، وكل حمد مدح، وليس كل مدح حمدًا، ويُقال: فلان محمود إذا حمد، ومحمد إذا كثرت خصاله المحمودة، ومحمد إذا وجد محمودًا، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣] يصح أن يكون في معنى المحمود وأن يكون في معنى الحامد).

والتحقيق أن الحمد وإن كان أعم من الشكر مُتَعَلِّقًا، فإن الشكر أعم منه من جهة الآلة، فإن الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري نعمة كان أو غيرها، وأما الشكر فيكون بالقلب واليد واللسان، ويكون على النعمة خاصة. والحميد اسم من أسماؤه الحسنی، وهو فعيل بمعنى مفعول، ومعناه المستحق لجميع المحامد ما كان واقعا منها أو كان مقدر الوقوع، فجميع أفراد الحمد المحققة والمُقَدَّرَة ثابتة له سبحانه، يستحقها بما له من نعوت الكمال وصفات الجلال والجمال، ومن هنا كان الأرجح في (ال) من قولنا الحمد لله أنها لاستغراق الأفراد.

وقد ذكر المؤلف أنه اسمه (الحميد) يأتي على وجهين:

أحدهما: أن جميع المخلوقات ناطقة بحمده، فكل حمد يقع منهم في الدنيا والآخرة، بل وكل حمد لم يقع وإنما كان مفروضًا مُقَدَّرًا في آتات الزمان المتتابعة بحيث يملأ الوجود كله علويه وسفليه، بل ويملاً مثله

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

الحميد: فعيل بمعنى مفعول، وبمعنى فاعل، فهو محمود وهو حامد، وسبق لنا أن الحمد هو الوصف بالكمال، فمتى وصفت شيئاً بالكمال فقد حمدته، فإذا قلت: فلان غني حمدته، فلان شجاع حمدته؛ لأن كل وصف بالكمال فهو حمدٌ، فإذا ثنيتَه وكررتَه صار ثناءً، فالله عز وجل حميد بمعنى حامد؛ لأن يُثنى على من يستحق الثناء من الخلق، كما أثنى على رسله وأنبيائه وعباده الصالحين.

وهو حميد بمعنى محمود؛ لأنه يُثنى عليه الكونُ كله، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا إِنَّا أَسْفَرْنَا بِكَ عَلَى الْكَوْنِ كُلِّ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَلَكِنْ لَمْ نَفْقَهُوا نَسَبَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولا يشذ عن ذلك إلا الكفرة من بني آدم والجن، فإن هؤلاء لا يحمدون الله، وإلا فكل شيء يحمد الله بلسان الحال والمقال، أما الكفرة من بني آدم ومن الجن فإنهم لا يحمدون الله بلسان المقال، لكن يحمدونه بلسان الحال، لان حالهم يشهد لله تعالى بالكمال.



من غير عد ولا إحصاء فإنه سبحانه يستحقه على خلقه حيث كان هو خلقهم ورزقهم وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة دينية ودنيوية، ودفع عنهم النقم والمكاره، فليس بالعباد من نعمة إلا وهو مولياها ولا يدفع الشر عنهم سواه فيستحق منهم أن يُثنوا عليه بما هو أهله ثناء لا فتور له ولا انقطاع. والثاني: أنه يحمد على ماله من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا تنبغي إلا له، فله كما قدمنا صفات الكمال بحيث لا يجوز خلوه عن أي كمال ممكن له. وله من كل صفة غاية كمالها الذي لا ينتظر كمال بعده، فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد والثناء فكيف بجميع صفاته المقدسة. فله الحمد لذاته وله الحمد لصفاته وله الحمد لأفعاله لأنها دائرة بين أفعال الفضل والإحسان، وبين أفعال العدل والحكمة التي يستحق عليها كمال الحمد. وله الحمد على خلقه، وعلى شرعه، وعلى أحكامه القدريّة الكونية، وعلى أحكامه الشرعية التكليفية، وعلى أحكامه الجزائية في الأولى والآخرة. وتفاصيل حمده وما يحمد هو عليه سبحانه لا تحيط بها الأفكار ولا تحصيها الأقلام.

فصل

٣٢٥٤- وَهُوَ الْمُكَلِّمُ عَبْدَهُ مُوسَى بِتَكْوِينِ

لِيَمِ الْخِطَابِ وَقَبْلَهُ الْأَبْوَانِ

٣٢٥٥- كَلِمَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الْإِحْصَاءِ وَالْتَّ

عْدَادِ بَلْ عَنْ حَضْرِ ذِي الْحُسْبَانِ

٣٢٥٦- لَوْ أَنَّ أَشْجَارَ الْبِلَادِ جَمِيعَهَا أَل

أَقْلَامُ تَكْتُبُهَا بِكُلِّ بَنَانِ

٣٢٥٧- وَالْبَحْرَ تَلْقَى فِيهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ

لِكِتَابَةِ الْكَلِمَاتِ كُلِّ زَمَانِ

٣٢٥٨- نَفِدَتْ وَلَمْ تَنْفَدِ بِهَا كَلِمَاتُهُ

لَيْسَ الْكَلَامُ مِنَ الْإِلَهِ بِقَانٍ^(١)

٣٢٥٩- وَهُوَ الْقَدِيرُ فَلَيْسَ يَعْجِزُهُ إِذَا

(١) [٣٢٥٨: ٣٢٥٤] قال العلامة محمد خليل هراس:

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي ﷺ:

(واعلم أن صفة الكلام من صفاته الذاتية من حيث تعلقها بقيامها بذاته واتصافه بها، ومن صفاته الفعلية من حيث تعلقها بقدرته ومشيبته. فإذا كان من المعلوم أن الله لم يزل ولا يزال كامل القدرة نافذ المشيئة علم أنه لم يزل ولا يزال مُتَكَلِّمًا إذا شاء؛ لأن الكلام من أعظم صفات الكمال التي يستحيل نفيها عن الله تعالى وكلماته غير متناهية فلا تفتنى ولا تبديد.

ولم يقدر الله حق قدره من زعم أن كلامه مخلوق في جملة المخلوقات التي تنتهي. وقصور هذا القول كافٍ في رده). ا.هـ.

مَا رَامَ شَيْئًا قَطُّ ذُو سُلْطَانٍ

٣٢٦٠- وَهُوَ الْقَوِيُّ لَهُ الْقَوَى جَمْعًا تَعَا

لَى اللَّهُ ذُو الْأَكْوَانِ وَالسُّلْطَانِ

٣٢٦١- وَهُوَ الْعَنِي بِذَاتِهِ فَعَنَاهُ ذَا

تَبِي لَهُ كَالْجُودِ وَالْإِحْسَانِ

٣٢٦٢- وَهُوَ الْعَزِيزُ فَلَنْ يَرَامَ جَنَابُهُ

أَنْ يَرَامَ جَنَابُ ذِي السُّلْطَانِ

٣٢٦٣- وَهُوَ الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ الْعَلَّابُ لَمْ

يَغْلِبْهُ شَيْءٌ هَذِهِ صِفَتَانِ

٣٢٦٤- وَهُوَ الْعَزِيزُ بِقُوَّةٍ هِيَ وَضْفُهُ

فَالْعَزُ جَيْتِيذٌ ثَلَاثُ مَعَانٍ

٣٢٦٥- وَهِيَ الَّتِي كَمَلَتْ لَهُ سُبْحَانَهُ

مِنْ كُلِّ وَجْهِ عَادِمِ النُّقْصَانِ^(١)

(١) [٣٢٦٢: ٣٢٦٥] قال العلامة محمد خليل هراس:

وأما العزيز: فهو الموصوف بالعزة وقد ذكر المؤلف لها ثلاث معانٍ:

١ - العزة: بمعنى الامتناع على من يرومه من أعدائه فلن يصل إليه كيدهم ولن يبلغ أحد منهم ضره وأذاه، كما في الحديث القدسي (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني) وإلى هذا المعنى أشار بقوله: (فلن يُرام جنابه) أي لن يقصد أحد حماه الأقدس فيقهره أو يغلبه، والعزة بهذا المعنى من عز يعز بكسر العين في المضارع، قال الشاعر:

لنا جبل يحتله من نجيره يعز على من رامه ويطول

٢ - والثاني: العزة: بمعنى القهر والغلبة وهي من عزى يعز بضم العين في المضارع يُقال: عزه إذا غلبه، فهو سبحانه القاهر لأعدائه الغالب لهم، ولكنهم لا يقهرونه ولا يغلبونه، وهذا المعنى هو أكثر معاني العزة استعمالاً.

٣ - والثالث العزة بمعنى القوة والصلابة: من عز يعز بفتحها، ومنه قولهم: أرض عزاز للصلبة الشديدة، وهذه المعاني الثلاثة للعزة ثابتة كلها لله عز وجل على أتم وجه وأكملة وأبعده عن العدم والنقصان.

- ٣٢٦٦- وَهُوَ الْحَكِيمُ وَذَاكَ مِنْ أَوْصَافِهِ
نَوْعَانِ أَيْضًا مَا هُمَا عَدَمَانِ
- ٣٢٦٧- حُكْمٌ وَإِحْكَامٌ فَكُلٌّ مِنْهُمَا
نَوْعَانِ أَيْضًا ثَابِتَا الْبُرْهَانِ
- ٣٢٦٨- وَالْحُكْمُ شَرْعِيٌّ وَكَوْنِيٌّ وَلَا
يَتَلَازَمَانِ وَمَا هُمَا سِيَانِ
- ٣٢٦٩- بَلْ ذَاكَ يُوْجَدُ دُونَ هَذَا مُفْرَدًا
وَالْعَكْسُ أَيْضًا ثُمَّ يَجْتَمِعَانِ
- ٣٢٧٠- لَنْ يَخْلُوَ الْمَرْبُوبُ مِنْ إِحْدَاهُمَا
أَوْ مِنْهُمَا بَلْ لَيْسَ يَنْتَفِيَانِ
- ٣٢٧١- لَكِنَّمَا الشَّرْعِيُّ مَحْبُوبٌ لَهُ
أَبَدًا وَلَنْ يَخْلُوَ مِنَ الْأَكْوَانِ
- ٣٢٧٢- هُوَ أَمْرُهُ الدِّينِيُّ جَاءَتْ رُسُلُهُ
بِقِيَامِهِ فِي سَائِرِ الْأَزْمَانِ
- ٣٢٧٣- لَكِنَّمَا الْكَوْنِيُّ فَهُوَ قَضَاؤُهُ
فِي خَلْقِهِ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
- ٣٢٧٤- هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ وَعَدْلٌ ذُو رِضَى
وَالشَّأْنُ فِي الْمَقْضِيِّ كُلِّ الشَّأْنِ
- ٣٢٧٥- فَلِذَاكَ نَرِضَى بِالْقَضَاءِ وَيُسْحَطُ أَلْ
مَقْضِي حِينَ يَكُونُ بِالْعِضْيَانِ
- ٣٢٧٦- فَاللَّهُ يَرْضَى بِالْقَضَاءِ وَيُسْحَطُ أَلْ

مَقْضِي مَا الْأَمْرَانِ مُتَّحِدَانِ

٣٢٧٧- فَقَضَاؤُهُ صِفَةٌ بِهِ قَامَتْ وَمَا أَلْ

مَقْضِي إِلَّا صَنْعَةُ الْإِنْسَانِ

٣٢٧٨- وَالْكَوْنُ مَحْبُوبٌ وَمَبْغُوضٌ لَهُ

وَكِلَاهُمَا بِمَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ

٣٢٧٩- هَذَا الْبَيَانُ يَزِيلُ لُبْسًا طَالَمَا

هَلَكْتَ عَلَيْهِ النَّاسُ كُلَّ زَمَانِ

٣٢٨٠- وَيَحِلُّ مَا قَدْ عَقَّدُوا بِأُصُولِهِمْ

وَبُحُوثِهِمْ فَافْهَمَهُ فَهَمَّ بَيَانِ

٣٢٨١- مَنْ وَافَقَ الْكَوْنِيَّ وَافَقَ سُخْطَهُ

إِذْ لَمْ يُوَافِقْ طَاعَةَ الدِّيَانِ

٣٢٨٢- فَلِذَلِكَ لَا يَغْدُوهُ دَمٌّ أَوْ فَوْا

تُ الْحَمْدِ مَعَ أَجْرٍ وَمَعَ رِضْوَانِ

٣٢٨٣- وَمُوَافِقُ الدِّيْنِيَّ لَا يَغْدُوهُ أَجْرٌ

رُبَّ لَهْ عِنْدَ الصَّوَابِ اثْنَانِ^(١)

(١) [٣٢٦٦: ٣٢٨٣] قال العلامة محمد خليل هراس:

ومن أسماؤه الحسنى سبحانه (الحكيم) وهو إما فعيل بمعنى فاعل، أي: ذو الحكم، وهو القضاء على الشيء بأنه كذا أو ليس كذا، وإما فعيل بمعنى مفعول، وهو الذي يحكم الأشياء ويتقنها.

وقيل الحكيم ذو الحكمة، وهي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويُقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم، فاسمه تعالى الحكيم متضمن لوصفين كل منهما بالغ غاية الكمال ونهاية التمام، وهما الحكم والإحكام، وكل منهما أيضًا نوعان ثابتان بالبرهان ومذكوران في القرآن.

أما الحكم فهو إما شرعي تكليفي، وهو الذي يعرفه علماء الأصول بأنه (خطاب الله المتعلق بأعمال المكلفين على سبيل الاقتضاء أو الندب أو التخيير) ويقسمونه إلى واجب ومندوب ومحرم ومكروه

ومباح، فهذا الحكم هو متعلق إرادته الدينية الشرعية، ويتناول كل ما كلف الله به عباده على السنة

رسله عليهم الصلاة والسلام من أفعال وتروك، وإما حكم كوني قدرتي يتعلق بكل ما شاء الله كونه مما سبق به قدره، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وفي الحديث: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» ولا تلازم بين الحكمين الشرعي والقدري، وليس أحدهما مساوياً للآخر في مفهومه ولا في متعلقه، بل قد يوجد كل منهما بدون الآخر، كما أنها قد يوجدان معاً، فيبينها عموم وخصوص من وجه، فالحكم الكوني القدري ينفرد في مثل كفر الكافر ومعصية العاصي، فهو مراده بالإرادة الكونية دون الشرعية، والحكم الشرعي ينفرد في مثل إيمان الكافر وطاعة العاصي، فهو مراد بالإرادة الشرعية دون الكونية، ويجتمع الحكمان معاً في مثل إيمان المؤمن وطاعة المطيع، فهو مراد بالإرادتين معاً، والإرادة الكونية أعم من جهة تعلقها بما هو واقع مما لا يحبه الله ويرضاه من الكفر والمعاصي، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بما ليس بواقع مما يحبه الله ويرضاه من إيمان الكفار وطاعة العصاة.

والإرادة الشرعية أعم من جهة أنها تتعلق بكل ما يحبه الله ويرضاه واقعاً كان أو غير واقع. وأخص من جهة أنها لا تتعلق بما هو واقع من الكفر والمعاصي المرادة بالإرادة الكونية وعلى كل فلا يمكن أن يخلو المربوب عن أحد الحكمين، بل لا بد أن يوجد فيه أحدهما أو هما معاً فلا يمكن ارتفاعهما عنه، لكن الحكم الشرعي يتعلق كما قلنا بما يحبه الله ويرضاه دائماً، ولم يخل عنه الوجود في وقت من الأوقات، بل لم يزل الله أمراً ناهياً متعبداً عباده بما يشاء. فالحكم الشرعي هو أمره الديني الذي بعث به رسله وأمرهم بإقامته في جميع الأزمان.

وأما حكمه الكوني فهو قضاؤه في خلقه بالعدل والإحسان، فأفعاله كلها في خلقه دائرة بين الرحمة والفضل، وبين الحكمة والعدل، فقضاؤه سبحانه حق كله وعدلٌ كله ومُرْضِي كله، لأن قضاءه هو صفته التي قامت به، فلا يمكن أن يسخط ولا أن يلحقه الذم، وإنما الكلام في المقضي على العبد الذي هو أثر القضاء والذي هو خلق الله وصنعتة فأحياناً يكون مرضياً حين يكون طاعة وإيماناً، وأحياناً يكون مسخوطاً حين يكون كفرًا وعصياناً.

والحاصل أنه لا بد من الفرق بين القضاء الذي هو صفة الرب وبين المقضي الذي هو مخلوقه، كما يجب الفرق بين الفعل والمفعول، والخالق والمخلوق ونحو ذلك، فإن الأول صفة الرب التي لا يمكن أن يلحقها نقص أو ذم. والثاني قد يكون فيه ما يعاب أو يُذم، وهذا البيان يزول إشكال كبير طالما أورد الناس موارد الهلكة، حيث لم يهتدوا إلى الفرق بين القضاء والمقضي، حتى آل أمر كثير منهم إلى استحسان الكفر وسائر المعاصي، وزعموا أن كل ما قضاه الله فهو محبوب مرضي، وأن العاصي مُطِيعٌ لله بتنفيذ قضاائه، كالمطيع له سواء، وفي ذلك يقول شاعرهم:

أصبحت منفعلًا لما يختاره مني ففعلني كله طاعات

وكل هذا كان بسبب الخلط بين المعاني وعدم الاهتداء إلى الفرق بينها، فالأمر الشرعي والكوني عندهم سواء، والقضاء والمقضي سواء، والإرادة الكونية والشرعية سواء، والخلق والاختيار سواء، وهدى الله أهل السنة والجماعة إلى الفرق بين هذه المعاني كلها فرضوا بقضاء الله، ولكنهم سخطوا مقضيه من الكفر والمعاصي التي لا يحبها ولا يرضاها. وعلموا أن من وافق حكمه الكوني القدري إن لم يوافق حكمه

الشَّح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ الْمُكَلِّمُ عَبْدَهُ مُوسَى بِتَكْوَمِ
كَلِمَاتُهُ جَلَّتْ عَنِ الإِخْصَاءِ وَالتَّ
لَوْ أَنَّ أَشْجَارَ البِلَادِ جَمِيعَهَا أَلْ
وَالْبَحْرُ يُلْقَى فِيهِ سَبْعَةُ أْبْحُرِ
نَفَدَتْ وَلَمْ تَنْفَدْ بِهَا كَلِمَاتُهُ
لِيمِ الخِطَابِ وَقَبْلَهُ الأَبْوَانِ
تَعْدَادِ بَلْ عَنِ حَضْرِ ذِي الخُسْبَانِ
أَقْلَامُ تَكْتُبُهَا بِكُلِّ بَنَانِ
لِكِتَابَةِ الكَلِمَاتِ كُلِّ زَمَانِ
لَيْسَ الكَلَامُ مِنَ الإِلَهِ بِفَانِ

هو أيضاً المكلّم عبده موسى بتكليم الخطاب، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقبله الأبوان، قال الله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، وكذلك كلّم محمداً ﷺ حين عُرِجَ بِهِ، وكلماته - سبحانه وتعالى - لا تنتهي لها ولا حصر لها، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ أن: حرف توكيد ينصب المبتدأ، ويرفع الخبر، وما: اسمها؛ يعني: ولو أن الذي في الأرض من الشجر، أقلامٌ: خبر أن، وقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أْبْحُرِ﴾ [القمان: ٢٧] ويُقصد بهذه الأقلام وهذه الأبحر على أنها مداد في قوله تعالى: ﴿مَا نَفَدَتْ كَلِمَتُ اللهِ﴾ [القمان: ٢٧]؛ لأنه لا تنتهي لفعله، فلا تنتهي لقوله، كل شيء يُريده يقول له: كن.

وهل مراد الله تعالى له تنتهي؟ لا، وقال الله عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وَهُوَ القَدِيرُ وَلَيْسَ يَعْجِزُهُ إِذَا مَا رَامَ شَيْئًا قَطُّ ذُو سُلْطَانِ

يقول المؤلف رحمه الله: من أسماء الله القدير، والقدرة: وصف يتصف به الموصوف، وهي أن يفعل الفعل بلا عجز؛ يعني: فعل الفاعل الشيء بلا عجز، هذا هو القدرة، فضعفها العجز، وهناك القوة وهي: فعل الفاعل لفعل بلا ضعف، فالقوة يُقابلها الضعف، والقدرة يُقابلها العجز، ولهذا مثلاً: لو قيل لشخص: احمل هذا الحجر، فأراد أن يحمله فلم يستطع

الشرعي، فهو موافق لسخطه، فلا يمكن أن يخلو من استحقاق ذم أو فوات حمد أو حرمان أجر ورضوان. وأما من وافق أمره الديني الشرعي فإن أصاب في اجتهاده فله أجران، وإن أخطأ فله أجر، والله تعالى أعلم.

يقال: عاجز، ولو حمل، ولكن بمشقة يقال: ضعيف، هذا الفرق بين القدرة والقوة.
فرق آخر: أن القوة يُوصف بها المختار، وغير المختار، والقدرة لا يُوصف بها إلا
المختار، فالحديد يقال له: قوي، ولا يُقال: قادر، والإنسان يقال: قادر؛ لأنه مختار له إرادة،
فهذان فرقان بين التقدير والقوي.

ما رام: ما هذه زائدة، ولها قاعدة.

يَا طَالِبًا خُذْ فَائِدَهُ مَا بَعْدَ إِذَا زَائِدُهُ

قوله:

وَهُوَ الْقَوِيُّ لَهُ الْقُوَى جَمْعًا تَعَا لَى رَبُّ ذُو الْأَكْوَانِ وَالسُّلْطَانِ

القوة أيضًا لله جميعًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَى﴾ [الذاريات: ٥٨]، وهي
فعل الفعل بلا ضعف، فالله تعالى قوي في ذاته، قوي في سلطانه، قوي في جميع صفات
العظمة، ولهذا قال: (له القوى جمعًا) قوة الذات، وقوة السلطان، وقوة العظمة، كل ما
يتعلّق بهذه الصفات فهو قوي فيها.

وَهُوَ الْعَنِي بِذَاتِهِ فَعِنَاهُ ذَا تَبِي لَهُ كَالْجُودِ وَالْإِحْسَانِ

لا يحتاج لشيء، وغيره غني بغيره، فالإنسان ليس غنيًا بذاته؛ بل يحتاج إلى أكل وشرب
ولباس وسكن، وغير ذلك، أما الله فهو غني بذاته.

وَهُوَ الْعَزِيزُ فَلَنْ يُرَامَ جَنَابُهُ أُنَى يُرَامُ جَنَابُ ذِي السُّلْطَانِ

هو العزيز الذي لا يُرام جنابه؛ يعني: لا يُقدّر عليه، فهو عزيز لن يُرام جنابه؛ أي: لن
يُنال بسوء، وهذه عزة القدرة.

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ الْعَلَّابُ لَمْ يَغْلِبْهُ شَيْءٌ هَذِهِ صِفَتَانِ

من العزة وهي الغلبة، فهو العزيز الغالب لكل شيء، قال الشاعر الجاهلي:

أَيْنَ الْمَفْرُ وَالْإِلَهَ الطَّالِبُ وَالْأَشْرُمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْعَالِبُ؟

فالله - سبحانه - عزيزٌ غالب لكل شيء.

وَهُوَ الْعَزِيزُ بِقُوَّةِ هِيَ وَصْفُهُ فَالْعَزُ جِيئَ بِثَلَاثِ مَعَانٍ

عزة القوة، عزة القهر، وعزة الامتناع، هذه ثلاثة معانٍ لاسم العزيز.

وَهِيَ الَّتِي كَمَلَتْ لَهٗ سُبْحَانَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ عَادِمِ الثَّقْصَانِ
وَهُوَ الْحَكِيمُ وَذَٰكَ مِنْ أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ أَيْضًا مَا هُمَا عَدَمَانِ

هذه الحكمة التي دلَّ عليها اسم الله الحكيم، قال المؤلف: (وهو الحكيم) وهذا من أسماء الله سبحانه وتعالى، وقد جاء كثيرًا في القرآن الكريم مُعَرَّفًا، وَمُنْكَرًا، ومرفوعًا، ومنصوبًا، ومجرورًا، على أوجهٍ مُتَعَدِّدةٍ، يقول المؤلف: (وذاك من أوصافه نوعان) يريد بالأوصاف يعني: أن الحكيم اسم يدلُّ على وصفين، وليس معنى: أن الحكيم من أوصافه؛ لأن الحكيم من أسمائه بالاتفاق، لكن المعنى: أن الحكيم من الأوصاف التي يدلُّ عليها هذا الاسم نوعان (أيضًا ما هما عدمان) بل موجودان.

حُكْمٌ وَإِحْكَامٌ فَكُلُّ مِنْهُمَا نَوْعَانِ أَيْضًا ثَابِتَا الْبُرْهَانِ

قوله: (حُكْمٌ وَإِحْكَامٌ) حُكْمٌ على أنه مشتق من حَكَمَ، وإِحْكَامٌ على أنه مشتق من أَحَكَمَ، إذن حَكِمَ مأخوذة من حَكَمَ الثلاثي، ومن أَحَكَمَ الرباعي، فكونها مأخوذة من الثلاثي أمرٌ لا إشكال فيه؛ لأن فاعيل بمعنى: فاعل، تأتي كثيرًا من فَعَلَ، تقول: سمع من سمع، بمعنى: سامع، لكن فاعيل من أفعل قليلة، لكن هي واردة في اللغة العربية، ومنه قول الشاعر:

أَنْ الرِّيحَانَةَ تَدْعِي السَّمِيعَ يُؤرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هَجُوعَ

يعني: مُسْمِعَ، فإذن حَكِمَ بمعنى: حاكم، وبمعنى: مُحَكِّمٌ، كما نقول: سمع بمعنى سامع، وبمعنى: مُسْمِعٌ، فإذن هي من حَكَمَ ومن أَحَكَمَ، فَمِنْ حَكَمَ يعني: الحكم، وَمِنْ أَحَكَمَ يعني: الإحكام؛ إذ أن مصدر أَحَكَمَ إْحْكَامًا.

والحكم نوعان، والإحكام نوعان:

الحكم نوعان: حكم كوني، وحكم شرعي.

والإحكام نوعان: إحكام في الشيء نفسه، وإحكام في الغاية من الشيء.

وَالْحُكْمُ شَرْعِيٌّ وَكُونِيٌّ وَلَا يَتَلَازِمَانِ وَمَا هُمَا سِيَانِ

يعني: أن حكم الله كوني وشرعي، ولا يتلازمان؛ يعني: ليس من لازم الحكم الكوني أن يكون حكمًا شرعيًا، ولا من لازم الحكم الشرعي أن يكون حكمًا كونيًا، فمثلًا: الفسوق والعصيان يقع من الإنسان بالحكم الكوني لا بالحكم الشرعي؛ لأن الحكم الشرعي ينفي

ذلك، فالطاعة والعدالة ثابتة بالحكم الشرعي، لكن الحكم الكوني قد تثبت وقد لا تثبت، قد يُطيع الإنسان وقد يُعصي، وقد يعدل وقد يجور.

إذن هل يتلازم الحكم الكوني والشرعي؟ لا، قد يوجد حكم شرعي، ولكنه لا يكون حكماً كونياً، متى ذلك؟ إذا لم يقع، وقد يوجد حكم كوني وليس شرعي، وذلك إذا وقع وهو مما لا يرضاه الله.

بَلْ ذَاكَ يَوْجَدُ دُونَ هَذَا مُفْرَدًا وَالْعَكْسُ أَيْضًا ثُمَّ يَجْتَمِعَانِ

يعني: يوجد الحكم الكوني دون الشرعي، والحكم الشرعي دون الكوني، فما تقول في الرجل الفاسق؛ أي حكم صدر منه فسقه بالحكم الكوني، تزوج رجل، فهذا بالحكم الشرعي والكوني، صلاة أَرادها الله من شخص ولكن لم يُصلِّ، هذا حكم شرعي وليس كونياً، حكم الله بوجوب الصلاة على هذا الرجل، ولكن لم يُصلِّ حتى خرج الوقت، إذن لم يقع الحكم الشرعي، فإن صَلَّى في الوقت صار كونياً وشرعياً.

بَلْ ذَاكَ يَوْجَدُ دُونَ هَذَا مُفْرَدًا وَالْعَكْسُ أَيْضًا ثُمَّ يَجْتَمِعَانِ

يعني: قد يجتمعان.

لَنْ يَخْلُوَ الْمَرْبُوبُ مِنْ إِحْدَاهُمَا أَوْ مِنْهُمَا بَلْ لَيْسَ يَنْتَفِيَانِ

فصار الحكم الكوني والشرعي من حيث الاجتماع والافتراق قد يجتمعان.

مثاله: رجل تزوج فعلاً، أو رجل صَلَّى في الوقت، هذا فيه الحكم الكوني والشرعي، قد يوجد الكوني دون الشرعي؛ كالمعصية، حكم كوني وليس شرعياً، قد يوجد الشرعي دون الكوني؛ كالحكم بوجوب الصلاة، ولكنه لم يُصلِّ، هذا ثبت في حقه الحكم الشرعي - وهو وجوب الصلاة - دون الحكم الكوني، امرأة حائض لم تُصلِّ، انتفت صلاتها بالحكم الكوني والشرعي، إذن اجتمعا في حقه الاثنان.

هل يمكن أن ينتفي الحكمان الكوني والشرعي؟ لا يمكن، الإنسان لا بد أن يكون محكوماً بحكم كوني أو شرعي، ولهذا قال:

لَنْ يَخْلُوَ الْمَرْبُوبُ مِنْ إِحْدَاهُمَا أَوْ مِنْهُمَا بَلْ لَيْسَ يَنْتَفِيَانِ

لَكِنَّمَا الشَّرْعِيُّ مَحْبُوبٌ لَهُ

هُوَ أَمْرُهُ الدِّينِيُّ جَاءَتْ رُسُلُهُ

أَبَدًا وَلَنْ يَخْلُوَ مِنَ الْأَكْوَانِ بِقِيَامِهِ فِي سَائِرِ الْأَزْمَانِ

شرع المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا مِنْ حَيْثُ الْمَحَبَّةُ وَالْكَرَاهَةُ، فَقَالَ: إِنَّ الشَّرْعِيَّ مَحْبُوبٌ لَهُ، سِوَاءً كَانَ إِجْبَابًا أَوْ عَدَمًا، فَالصَّلَاةُ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ إِجْبَابِيٌّ مَحْبُوبٌ لِلَّهِ، وَتَرَكَ الزَّوْنَا حُكْمٌ شَرْعِيٌّ عَدَمِيٌّ سَلْبِيٌّ مَحْبُوبٌ لِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ، فَكُلُّ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْإِجْبَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ كُلِّهَا مَحْبُوبَةٌ إِلَى اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ، لَكِنْ هَلْ تَقَعُ أَوْ لَا تَقَعُ؟ قَدْ تَقَعُ، وَقَدْ لَا تَقَعُ، وَهَذَا قَالَ:

هُوَ أَمْرُهُ الدِّينِيَّ جَاءَتْ رُسُلُهُ بِقِيَامِهِ فِي سَائِرِ الْأَزْمَانِ

يعني: لَنْ يَخْلُو الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ مِنَ الْأَكْوَانِ أَبَدًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْلُو عَصْرٌ مِنَ الْأَعْصَارِ عَنْ آثَارِ الرِّسَالَةِ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُ لَوْ خَلَا عَصْرٌ مِنَ الْأَعْصَارِ عَنْ آثَارِ الرِّسَالَةِ لَكَانَ لِلخَلْقِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ، وَاللَّهُ عِزٌّ وَجَلٌّ قَدْ أَعْذَرَ إِلَى الخَلْقِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رِسَالًا، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾. إِذْنُ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ مَا جَاءَتْ بِهِ الرِّسَالُ.

لَكِنَّمَا الْكُونِيُّ فَهُوَ قَضَاؤُهُ فِي خَلْقِهِ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

الحكم الكوني قضاء الله تعالى في الخلق، وقضاؤه دائر بين أمرين لا ثالث لهما، هما: العدل والإحسان، والثالث الظلم، وهو مُنتَفٍ في حق الله عز وجل؛ لأن القضاء في الخلق إما عدل، وإما إحسان، وإما ظلم.

أَنْتَ تَعَامَلُ غَيْرَكَ إِمَّا بِالْعَدْلِ، أَوْ بِالْإِحْسَانِ، أَوْ بِالظُّلْمِ، لَكِنْ اللَّهُ عِزٌّ وَجَلٌّ مُنْتَفٍ فِي حَقِّهِ الظُّلْمِ، وَهَذَا قَالَ: (بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) فَقَطْ، فمُجَازَاةُ السَّيِّئِ عَلَى سَيِّئَتِهِ عَدْلٌ، وَالْمُحْسِنِ عَلَى إِحْسَانِهِ إِحْسَانٌ، أَمَّا الظُّلْمُ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعُ.

الحكم الكوني إذاً هو قضاء الله في الخلق قضاؤه الكوني في خلقه، وهو دائر بين أمرين: العدل والإحسان، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ وَعَدْلٌ ذُو رِضَى وَالشَّأْنُ فِي الْمَقْضِيِّ كُلِّ الشَّأْنِ

كله: أي الحكم الكوني، كله حق وعدل؛ لأنه دائر بين العدل والإحسان، ولكن المقضي الكوني هو الذي فيه التفصيل.

والمقضي هو الذي فيه البلاء، أما القضاء نفسه فليس فيه بلاء، فكله حق وعدل.

فَلِذَلِكَ نَرُضَى بِالْقَضَاءِ وَنَسْخَطُ أَلْ مَقْضِي حِينَ يَكُونُ بِالْعِضْيَانِ



(فلذاك يُرضى بالقضاء) قضاء من؟ قضاء الله، حتى قضاء الله بالمعاصي نرضى به، وقضاء الله بالجذب، والقحط، والمرض، والموت، والزلزلة، وكل شيء نرضى به، ولا يمكن أن نسخطه؛ لأنك لو لم ترضَ بالقضاء لم تكن رضيةً بالله ربًّا.

والمقضي هو الذي يكون محلاً للرضا والسخط، والصبر والجزع، فإذا قضي الله عز وجل على الإنسان بالصحة، والرزق، والولد، والطمأنينة فإنه سوف يرضى بالقضاء، وإذا قضي الله على الإنسان بالعكس؛ بالمرض، والفقر، وموت الأولاد، والقلق، والخوف، فهنا لا يرضى بالمقضي، لكن يرضى بالقضاء، أما المقضي فالرضا به سنة على قول جمهور العلماء، وإن كان بعض العلماء قال: يجب الرضا بالمقضي، ولكن الصحيح أنه لا يجب الرضا، أما الصبر فواجب، ولهذا نقول: إن مراتب الناس في القضاء المكروه؛ يعني: في المقضي المكروه أربعة:

سخط، وصبر، ورضا، وشكر.

يعني: إذا أصاب الإنسان مثلاً: مرض فإن له حالاً من أحوالٍ أربع؛ إما السَّخَطُ، أو الصبر، أو الرضا، أو الشكر.

السَّخَطُ مُحَرَّمٌ بمعنى: أنك تسخط على الشيء بأن تجزع، أو تُشقق الثياب، أو تلطم الخد، أو تدعو بالويل والثبور فهذا حرام، أو تصبر بأن تجبس نفسك عن الأعمال المذمومة، ولكنك كالذي جلس على جمر، قد آله، لا يستطيع أن يتحرك، هذا نقول: واجب، أو يكون لك حالٌ أعلى، وهي: أن ترضى، بمعنى: ألا تكون أحسستَ بهذا الشيء، كأنه لم يقع، تكون مطمئناً منشرح الصدر، هذه حال أعلى من الحال التي قبلها وهي الصبر؛ فهل هي واجبة أو لا؟

والصحيح: أنها ليست بواجبة، وأنها سنة، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من المحققين.

الحال الرابعة فوق هذا كله: الشكر، وهي: أن تشكر الله على هذا البلاء، وهذا أمرٌ قد يبدو للإنسان مستحيلاً؛ كيف يشكر الله على مرض، أو على فقر، أو على موت أولاده، أو على قلق وخوف؟ يشكر الله؛ لأن الأجر المترتب على هذا، وتكفير السيئات بالصبر عليه نعمة عظيمة؛ لأن دوام الحال من المحال، ولهذا يأمرنا الله عز وجل كثيراً بالصبر، اصبروا انتظروا الفرج، لا تستعجل الأمر، فإذا شعرتَ هذا الشعور، وعرفتَ أن هذا الأمر لا بد أن

يزول، وكل شيء موجود له غاية ونهاية، وشعرت أو أيقنت بأنك مأجور على هذا الفعل إذا صبرت، وسيئاتك مكفرة به؛ سواء صبرت أم لم تصبر، فحيثُ تشكر الله على هذا، وتقول: اللهم لك الحمد على ما أصبنتني به من البلاء الذي أرجو به تكفير سيئاتي، فتكون شاكرًا لله.

هذه أحوال الناس عند وجود ما يكره من المقضي، أما بالنسبة لصدوره من الله سبحانه وتعالى، فالرضا به واجب؛ لأنك إن لم ترضَ بذلك فإنك لم ترضَ بالله ربًّا، هذا بالنسبة للمصائب من الله.

بالنسبة للأفعال؛ هل نرضى بأفعال الناس؟ نقول: فيها عدة أمور:
إذا كانت معصية لا نرضى بها، ولا يجوز الرضا بها.

إذا كانت طاعة، وجب الرضا بها؛ لأنك إذا لم ترضَ بفعل العبد إذا كان طاعة، فقد كرهت حكم الله، وكرهته حكم الله لا شك أنها حرام، وقد تكون كفرًا، فيجب علينا أن نرضى بالطاعات، وبذلك نعرف الخطورة العظيمة على أولئك الذين يكرهون من الناس أن يتفوهوا بالعبادات، ويوجد من الناس من يمنعون أبناءهم وبناتهم من فعل الطاعة، يقولون مثلًا: لا تقم بالليل، لأنك تتعب نفسك وتسهر، فلا تصم الإثنين والخميس، ولا تصم الأيام البيض؛ لأن هذا فيه مشقة عليك، وهذا يشكو منه بعض الناس، فهذا خطير جدًا؛ لأن هذا مضمونه كراهة الطاعة وفيه خطورة على الإنسان، ولا شك أن الذين يفعلون مثل هذا الفعل سفهاء عقول ضعيفو دين؛ لأن الذي ينبغي من الإنسان إذا منَّ الله على أبنائه وبناته بالاستقامة أن يشكر الله، ويُسجِّعهم على ذلك؛ لأن هذا خيرٌ له «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١).

فصار عندنا الآن بالنسبة للحكم الكوني؛ هل نرضى به أو لا؟

فالجواب: باعتبار صدوره من الله نرضى به وجوبًا؛ لأنه قضاء الله، وربنا يفعل ما يشاء. وبالنسبة للمقضي، فيه تفصيل، إما مصائب والناس فيها مراتب أربع، وإما أفعال من العبد؛ فإن كان معصية حرم الرضا به، وإن كان طاعة وجب الرضا به، ولهذا قال:

فَلِذَلِكَ يُرْضَى بِالْقَضَاءِ وَتَسْحَطُ مَقْضِي حِينَ يَكُونُ بِالْعِضْيَانِ

فَاللَّهُ يَرْضَى بِالْقَضَاءِ وَيَسْخَطُ أَلْ
مَقْضِي مَا الْأَمْرَانَ مُتَّحِدَانِ
فَقَضَاؤُهُ صِفَةٌ بِهِ قَامَتْ وَمَا أَلْ
مَقْضِي إِلَّا صَنْعَةُ الرَّحْمَنِ

قضاء الله صفة قائمة به فعلينا أن نرضى به.

وقوله: (صنعة الرحمن) وفي نسخة أخرى: (الإنسان) أما على نسخة (الإنسان) يعني: ما المقضيُّ إلا فعل الإنسان، وهذا صحيح يكون المقضيُّ فعل الإنسان كما قلنا في الطاعة والمعصية. (وإلا صنعة الرحمن) صحيح أيضًا، كما قلنا في المصائب، فالمصائب من فعل الله، وكذلك الطاعات والمعاصي من فعل العبد، وهي من فعل العبد ولكنها بإرادة الله، فصارت النسختان صحيحتان على نسخة الإنسان تعني: فعل الإنسان من طاعات ومعاصي، وعلى نسخة الرحمن تعني: فعل الرحمن، وهو المصائب.

وَالْكُونُ مَحْبُوبٌ وَمَبْغُوضٌ لَهُ وَكِلَاهُمَا بِمَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ

الكون يعني: الكائن محبوبٌ لله، ومبغوضٌ له، وكلاهما بمشيئة الرحمن، إذا أراد الله تعالى أن يقع ما يُحِبُّ فهذا لا غرابة فيه، لكن إذا أراد أن يقع ما يكره ففيه غرابة؛ كيف يريد الله سبحانه وتعالى أن يقع ما يُبْغِضُهُ وهو قادر على منعه؟

فنقول: هذا الذي يُبْغِضُهُ الله مبغوضٌ إلى الله من وجه، ومحبوبٌ إليه من وجه آخر؛ فالكفر مبغوضٌ لله - لا شك -، والفساد مبغوضٌ لله، لكن يُقَدِّرُهُ الله لمصالح عظيمة تترتب عليه، فلولا الكفر ما عُرِفَ قدر الإيمان، ولولا الكفر ما قامت الدنيا ولا الآخرة؛ لأن الله خلق النار وخلق لها أقوامًا، ولولا الكفر ما قام سوق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولولا الكفر ما تقابل الفئتان في الميدان في القتال؛ الكفار والمؤمنون، إذن فالغايات من الكفر حميدة وإن كان مبغوضًا لله عز وجل.

فإذا قال قائل: المحبوب وقوعه بمشيئة الله لا إشكال فيه؛ لأن الله يحبه فأوقعه، ولكن المكروه كيف يكون بمشيئة الله؟

نقول: من هنا ضلَّ من ضلَّ وقالوا: إن المكروه لله لا يقع بمشيئته، وأن المعاصي لا تقع بمشيئة الله، وكيف يشاء الله شيئًا لا يرضاه، ولكننا نقول: بل إن الله لا يكون في ملكه ما لا يريد، فكل شيء في ملكه فهو بإرادته عز وجل، ولا يخرج عن ملكه شيء، ولكن المراد نوعان: مراد لذاته، ومراد لغيره.

فالمحبوب مرادٌ لذاته، والمبغوض لله مرادٌ لغيره؛ لأن في وقوع هذا الشيء الذي يُبْغِضُهُ

الله ويكرهه من المصالح العظيمة ما اقتضت الحكمة أن يقع من أجلها، ولولا وقوع ما يكره الله عز وجل لم يُعرَف المؤمن من الكافر، ولا المُتَّقِي من الفاسق، ولم يحصل أحدٌ للنار، ولم يُقَمَّ عَلَمُ الجهاد، ولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يعرف الإنسان قدر نعمة الله عليه بالإيمان، إلى غير ذلك من المصالح العديدة في وقوع الأشياء المكروهة لله، لكنها مرادة لغيرها؛ أي: لما يترتب عليها من المصالح، وإلا فإن الله يريد منا أن نقضي على هذه المعاصي، ولهذا أمر بحدِّ الزاني، وقطع يد السارق، ورجم الزاني المُحصَن، كل هذا قطعاً لكرهه هذا الشيء، لكن الحكمة تقتضي وجوده لما فيه من المصالح العظيمة.

هَذَا الْبَيَانُ يَزِيلُ لُبْسًا طَالَمَا هَلَكْتَ عَلَيْهِ النَّاسُ كُلَّ زَمَانٍ

يعني: هذا البيان الذي بيَّنه المؤلف رحمه الله، وهو الفرق بين القضاء والمقضي، وأن القضاء كله محبوبٌ إلى الله تعالى، وأما المقضي فممنه محبوب ومنه مبغوض، لكن المبغوض مرادٌ لغيره، والمحبوب مرادٌ لذاته.

وَيَجِلُّ مَا قَدْ عَقَّدُوا بِأُصُولِهِمْ وَبُخُوثِهِمْ فَافْهَمَهُ فَهَمَّ بَيَانٍ

يعني: هذا البيان يجلُّ ما قد عقَّدوا بأصولهم؛ يعني: ما جعلوه مُعَقَّدًا لم يعرفوا أن يتخلَّصوا منه.

مَنْ وَافَقَ الْكُونِيَّ وَافَقَ سُخْطَهُ إِنْ لَمْ يُوَافِقْ طَاعَةَ الدِّيَانِ

يعني: من وافق أمر الله الكوني فقد وافق سَخَطَ الله، إذا لم يُوافق الطاعة، وبهذا نقول: العاصي موافقٌ لمراد الله الكوني، لكنه ليس موافقاً للمراد الشرعي.

فَلِذَلِكَ لَا يَعْدُوهُ ذَمٌّ أَوْ فَوْا تِ الْحَمْدِ مَعَ أَجْرٍ وَمَعَ رِضْوَانِ

لا يعدوه؛ أي: لا يعدو من وافق الكوني ذمًّا، يعني: لا بد أن يكون مذمومًا؛ لأنه خالف الطاعة.

وقوله: (أو فوات الحمد مع أجر ومع رضوان) يعني: أو يفوته الحمد، والأجر، والرضوان؛ يعني: فهو إما أن يُذَمَّ إن كان الشيء الذي فعله مكروهاً، أو يفوته الحمد، والرضوان والأجر إذا ترك شيئاً محبوباً.

مثلاً: من زنى - نسأل الله العافية -، هذا يلحقه الذمُّ، ومن لم يُقَمَّ بالواجب، فإنه يفوته الحمد، والأجر، والرضوان، وإن كان قد يُذَمُّ من وجهٍ آخر.

وَمُؤَافِقُ الدِّينِيِّ لَا يَعْدُوهُ أَجْرٌ رَبُّ لَهٗ عِنْدَ الصَّوَابِ اثْنَانِ

ما هو الدينى؟ الشرعى، لكن الدينى هذه صفة لمحذوف تقديره: الأمر، أو الحكم الدينى، (لا يعدوه أجر) يعنى: لا بد أن ينال أجرًا بخلاف من وافق الأمر الكونى، فقد يُذمّ، وقد يفوته الحمد والأجر والرضوان، أما موافق الأمر الدينى فإنه لا يعدوه أجرًا، (بل له عند الصواب اثنان) إذا أصاب، كما قال النبى عليه الصلاة والسلام: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ أخطأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»^(١).



(١) رواه البخارى (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).



فصل



- ٣٢٨٤- وَالْحِكْمَةُ الْعُلْيَا عَلَى نَوْعَيْنِ أَيْ
— ضًا حُصْلًا بِقَوَاطِعِ الْبُرْهَانِ
٣٢٨٥- إِحْدَاهُمَا فِي خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ
نَوْعَانِ أَيْضًا لَيْسَ يَفْتَرِقَانِ
٣٢٨٦- إِحْكَامُ هَذَا الْخَلْقِ إِذْ إِيجَادُهُ
فِي غَايَةِ الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ
٣٢٨٧- وَضُدُورُهُ مِنْ أَجْلِ غَايَاتٍ لَهُ
وَلَهُ عَلَيْهَا حَمْدٌ كُلِّ لِسَانٍ
٣٢٨٨- وَالْحِكْمَةُ الْأُخْرَى فَحِكْمَةُ شَرْعِهِ
أَيْضًا وَفِيهَا ذَانِكَ الْوُضْفَانِ
٣٢٨٩- غَايَاتُهَا اللَّائِي حُمِدْنَ وَكُونُهَا
فِي غَايَةِ الْإِتْقَانِ وَالْإِحْسَانِ^(١)

(١) [٣٢٨٤: ٣٢٨٩] قال العلامة محمد خليل هراس:

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في شرحه لهذه الآيات وحكمته نوعان: أحدهما الحكمة في خلقه، فإنه خلق الخلق بالحق ومشتماً على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات، وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته، فلا يرى أحد في خلقه خللاً ولا نقصاً ولا فطوراً، فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يُقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن والانتظام والإتقان لم يقدرُوا، وأنى لهم القدرة على شيء من

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

ذكر المؤلف في هذا الفصل أن الحكمة تنقسم إلى قسمين:

حكمة الخلق، وحكمة الشرع.

والحكمة في الخلق، إما حكمة في ذات الشيء، وإما حكمة في غايته.

ذلك، وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيرًا من حكمه ويطلعوا على بعض ما فيها من الحسن والإتقان. وهذا أمر معلوم قطعًا بما يعلم من عظمته وكمال صفاته وتتبع حكمه في الخلق والأمر. وقد تحدى عباده أن ينظروا ويكرروا النظر والتأمل، هل يجدون في خلقه خللاً أو نقصاً، وأنه لا بد أن ترجع الأبصار قليلة عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته.

النوع الثاني الحكمة في شرعه وأمره، فإنه تعالى شرع الشرائع وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليعرفه العباد ويعبدوه، فأى حكم أجل من هذا؟ وأي فضل وكرم أعظم من هذا؟ فإن معرفته تعالى وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص العمل له وحده وشكره والثناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق، وأجل الفضائل لمن يمن الله عليه بها، وأكمل سعادة وسرور للقلوب والأرواح، كما أنها هي السبب الوحيد للوصول إلى السعادة الأبدية والنعيم الدائم فلو لم يكن في شرعه وأمره هذه الحكمة العظيمة التي هي أصل الخيرات وأكمل اللذات، ولأجلها خلقت الخليقة وحق الجزاء، وخلقت الجنة والنار لكانت كافية شافية.

هذا وقد اشتمل شرعه ودينه على كل خير، فأخباره تملأ القلوب علماً ويقيناً وإيماناً وعقائد صحيحة، وتستقيم بها القلوب ويزول انحرافها، وتثمر كل خلق جميل، وعمل صالح وهدى ورشد، وأوامره ونواهيه محتوية على غاية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين والدنيا، فإنه لا يأمر إلا بما مصلحته خالصة أو راجحة ولا ينهاى إلا عما مضرتة خالصة أو راجحة.

ومن حكمة الشرع الإسلامي أنه كما أنه الغاية لصلاح القلوب والأخلاق والأعمال والاستقامة على الصراط المستقيم، فهو الغاية لصلاح الدنيا، فلا تصلح أمور الدنيا صلاحاً حقيقياً إلا بالدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وهذا مُشاهد محسوس لكل عاقل، فإن أمة محمد لما كانوا قائمين بهذا الدين أصوله وفروعه وجميع ما يهدي ويُرشد إليه كانت أحوالهم في غاية الاستقامة والصلاح.

ولما انحرفوا عنه وتركوا كثيراً من هُدهاه ولم يسترشدوا بتعاليمه العالية انحرفت دنياهم كما انحرف دينهم. وكذلك انظر إلى الأمم الأخرى التي بلغت في القوة والحضارة والمدنية مبلغاً هائلاً، لكن لما كانت خالية من روح الدين ورحمته وعدله كان ضررها أعظم من نفعها، وشرها أكبر من خيرها، وعجز علماءؤها وساستها عن تلافى الشرور الناشئة عنها، ولن يقدرُوا على ذلك ما داموا على حالهم، ولهذا كان من حكمته تعالى أن ما جاء به محمد ﷺ من الدين والقرآن أكبر البراهين على صدقه وصدق ما جاء به لكونه مُحْكَمًا كاملاً لا يصلح الصلاح إلا به. أ.هـ.

فالحكمة الشرعية تنصح إذا نظرنا إلى الأحكام الشرعية نجد أنها هي نفسها في غاية الإتيان، وغاياتها محمودة، فالصلاة مثلاً على هذا الوصف، وفي هذا الوقت في غاية الإتيان والإحكام، وكون الغاية منها نيل الأجر والثواب، وما أشبه ذلك هي أيضاً حكمة، فتكون الأقسام أربعة:

حكمة في المخلوق ذاته، وحكمة في غايته، وحكمة في المشروع، وحكمة في غايته. هناك قومٌ من المبتدعة أنكروا الحكمة، وقالوا: إن الحكمة غرض، والله سبحانه وتعالى مُنزهٌ عن الأغراض، إذا قلتم: إنه فعل كذا لكذا، فمعناه: أنه فعل لغرض، والله مُنزهٌ عن الأغراض، والواجب أن تعتقد بأن الله فعل هذا الشيء، أو شرع هذا الشيء لمجرد مشيئته فقط، رجحت مثلاً على مثل بلا سبب، أو جبت هذا بلا سبب، حرمت هذا بلا سبب، ولا يجوز أن تقول: إن الله حرّم كذا لكذا، لماذا؟ قالوا: لأن هذا نقص، كون الله يفعل الشيء للشيء هذا نقص، قل: إن الله يفعل ما يشاء لمجرد المشيئة.

ولكن الحقيقة أن هذا القول باطل؛ لأنه يُبطله آياتٌ كثيرة، ونصوصٌ كثيرة، فكل شيء فيه لام التعليل فهو دالٌّ على الحكمة، وكل شيء فيه: من أجل، فهو دالٌّ على الحكمة، ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: ٣٢]، «لَا يَتَنَجَّى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ مِنْ أَجْلِ أَنْ ذَلِكَ يُجْزئُهُ»^(١)، إلى غير ذلك.

ثم نقول: أيها أكمل: من يفعل لغير مصلحة، أو من يفعل لمصلحة؟

الثاني، والأول سَفَه، فدعواهم أن هذا نقص دعوى باطلة؛ بل نقول: هذا هو الكمال، وكونه - عز وجل - يفعل شرعاً، أو خلقاً لحكمة هذا هو غاية الكمال، يقول الله - عز وجل -: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ﴾ [الدخان: ٣٨]، وقوله: ﴿أَيْحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْتُمْ خَلْقُنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والآيات في هذا كثيرة، وحتى العقل يدل على ثبوت الحكمة لله - عز وجل -.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٣٢٩٠- وَهُوَ الْحَيِّي فَلَيْسَ يَفْضَحُ عَبْدَهُ

عِنْدَ التَّجَاهُرِ مِنْهُ بِالْعِضْيَانِ

٣٢٩١- لَكِنَّهُ يَلْقِي عَلَيْهِ سِتْرَهُ

فَهُوَ السَّتِيرُ وَصَاحِبُ الْغُفْرَانِ^(١)

٣٢٩٢- وَهُوَ الْحَلِيمُ فَلَا يَعْاجِلُ عَبْدَهُ

بِعُقُوبَةٍ لِيُثَوِّبَ مِنْ عِضْيَانِ

٣٢٩٣- وَهُوَ الْعَفُوُّ فَعَفُوهُ وَسِعَ الْوَرَى

لَوْلَاهُ غَارَ الْأَرْضِ بِالسُّكَّانِ

٣٢٩٤- وَهُوَ الصَّبُورُ عَلَى أذى أَعْدَائِهِ

شَتَمُوهُ بَلْ نَسَبُوهُ لِلْبُهْتَانِ

٣٢٩٥- قَالُوا لَهُ وَلَدٌ وَلَيْسَ يَعْيدُنَا

(١) [٣٢٩٠: ٣٢٩١] قال العلامة محمد خليل هراس:

وحياؤه تعالى وصف يليق به ليس كحياة المخلوقين الذي هو تغير وانكسار يعترى الشخص عند خوف ما يُعاب أو يُذم، بل هو ترك ما ليس يتناسب مع سعة رحمته وكمال جوده وكرمه وعظيم عفوه وحلمه. فالعبد يجاهره بالمعصية مع أنه أفقر شيء إليه، وأضعفه لديه ويستعين بنعمه على معصيته، ولكن الرب سبحانه مع كمال غناه وتعام قدرته عليه يستحي من هتك ستره وفضيحته، فيستره بما يهيئه له من أسباب الستر، ثم بعد ذلك يعفو عنه ويغفر، كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إن الله عز وجل يُدني المؤمن فيضع عليه كنفه، ثم يسأله فيما بينه وبينه: ألم تفعل كذا يوم كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه وأيقن أنه قد هلك. قال له: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم».

وكذلك يستحي سبحانه من ذي الشبهة في الإسلام أن يُعذبه، ويستحي ممن يدعو ويمد إليه يديه أن يردهما خاليتين، وهو من أجل أنه حيي ستر يجب أهل الحياء والستر من عبادته، فمن ستر مسلماً ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، ويكره المجاهرة بالفسوق والإعلان بالفاحشة، وأن من أمقت الناس عنده من بات على معصية والله يستره، ثم يُصبح فيكشف ستر الله عليه. وقد توعد الذين يجنون أن تشيع الفاحشة في الدين آمنوا بأن لهم عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة، وفي الحديث: «كل أمتي مُعافي إلا المُجاهرين».

شَتْمًا وَتَكْذِيبًا مِنَ الْإِنْسَانِ

٣٢٩٦- هَذَا وَذَلِكَ بِسَمْعِهِ وَبِعِلْمِهِ

لَوْ شَاءَ عَاجَلَهُمْ بِكُلِّ هَوَانٍ

٣٢٩٧- لَكِنْ يِعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ وَهُمْ

يُؤْذِنُونَهُ بِالشُّرْكِ وَالْكَفْرِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هذه أيضاً من أسماء الله - عز وجل -:

الْحَيِّيُّ: من الحياء وليس من الحياة، وهنا حي، وحييٌّ، ومُحييٌّ، تشبته على بعض الناس، فيظنون أن المُحيي هو الحيُّ، وأن الحي هو الحييُّ، وهذا خطأ، المُحيي: الذي يخلق الحياة في غيره، والحييُّ: هو المتصف بالحياة، ولهذا الفعل من الأول: أحيي، ومن الثاني: حيي، الحييُّ: من الحياء، وليس من الإحياء، ولا من الحياة؛ بل هو من الحياء، فهو - سبحانه وتعالى - حييٌّ.

وَهُوَ الْحَيِّيُّ فَلَيْسَ يَفْضَحُ عَبْدَهُ عِنْدَ التَّجَاهُرِ مِنْهُ بِالْعُضَيَّانِ

لَكِنَّهُ يَلْقِي عَلَيْهِ سِتْرَهُ فَهُوَ السَّيْتِيرُ وَصَاحِبُ الْعُقْرَانِ

ما أكثر الذنوب التي نفعها خفية عن عباد الله؟!، ولكنها معلومة عند الله، ومع ذلك يسترنا؛ لأنه حييٌّ.

فإن قال قائل: الحييُّ عادةٌ ينجل من الأفعال التي تتعلق به.

فيقال: والحييُّ أيضاً ينجل من أفعال غيره، ولهذا تجد الإنسان الحييُّ ينجل أن يحكي ذنوب الآخرين، فكيف إذا كان له حق العقوبة، فتجده يخشى، أو يستحي أن يعاقب غيره، فلماذا كان الحييُّ صفة كمال؛ لأنه يدل على كمال ستر الله - عز وجل -، ورحمته بعبده، ولولا ذلك لافتضح الناس، ولو كان كل ما يعلمه الناس ينشره ما مشينا على الأرض، ولكن الله - عز وجل - حييٌّ كريم يستحي أن يفضح عبده بالعقوبة.

كذلك من حياته - سبحانه وتعالى -: أن الإنسان إذا رفع يديه إليه يسأله يستحي أن يردَّ

يديه صِفراً، لا بد أن ينال شيئاً بهذا الدعاء، أجر، حصول مطلوب لطلب، أن يدفع عنه من الشر ما هو أعظم، لا يمكن أن يدعو بلا فائدة.

وَهُوَ الْحَلِيمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ بِعُقُوبَةٍ لِيُثَوِّبَ مِنْ عِضْيَانِ

أيضاً هو الحليم من الحِلْم، وهو سعة النفس، وعدم التعجيل بالعقوبة، ولهذا يقول الناس للأمير إذا كان لا يُعَاجِلُ الناس بالعقوبة: حليم واسع الحِلْم، فالله - عز وجل - حليم، لا يُعَاجِلُ العبد بالعقوبة لعلّه يتوب إليه، فإذا تاب إليه مُحِيَّتِ السيئة؛ بل إن الإنسان إذا عَمِلَ عملاً صالحاً من المُكْفِرَاتِ مُحِيَّتِ السيئة، وهذا من حِلْمِ الله - عز وجل -.

وَهُوَ الْعَفُوُّ فَعَفُوهُ وَسِعَ الْوَرَى لَوْلَاهُ غَارَ الْأَرْضِ بِالسَّكَّانِ

هو العفوُّ، وهو يجب العفو، كما قال النبي ﷺ لعائشة حين سألته ماذا تقول إن وافقت ليلة القدر، قال: «قولي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ مُحِبُّ الْعَفْوِ فَاعْفُ عَنِّي»^(١)، فَمَنْ الْعَفُوُّ؟ الْعَفُوُّ هُوَ:

المتجاوز عن سيئات عباده مع القدرة على الانتقام منهم، ولهذا جمع الله بينهم في قوله: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١٤٨) **إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا** [النساء: ١٤٩]، والعفو مع القدرة هو الذي يُمدح، أما

العفو مع العجز فهو نقص، إذن العفو هو: المتجاوز عن سيئات العباد، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

وَهُوَ الصَّبُورُ عَلَى أَدَى أَعْدَائِهِ شَتْمُوهُ بَلْ نَسَبُوهُ لِلْبُهْتَانِ

الصبور: فعول من الصبر، فهو صفةٌ مُشَبَّهَةٌ، أو صيغة مبالغة، والصبر قريب من الحِلْم؛ يعني: يصبر على أعدائه، فلا يعاجلهم بالعقوبة، والصبور لم يرد بهذا اللفظ، لكنه ورد بلفظٍ آخر: «لَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَدَى سَمْعِهِ مِنَ اللَّهِ»، أصبر اسم تفضيل.

قَالُوا لَهُ وَلَدٌ وَلَيْسَ يَعِيدُنَا شَتْمًا وَتَكْذِيبًا مِنَ الْإِنْسَانِ

الشتم في قولهم: إن له ولداً؛ لأن دعوى أن له ولد يعني: وصفه بالنقص، إذ لا يحتاج للولد إلا من كان ناقصاً، لبقاء ذكره لذريته، أو لاستعانته بولده، ولهذا إذا لم يكن للإنسان ولد انقطع ذكره بموته، ولم يُذَكَرْ، فهم إذا قالوا: إن الله له ولد، فهو شتمٌ، وعبثٌ، وسبٌّ.

أما التكذيب: فهو قولهم: إنه لن يعيدنا إذا متنا، ﴿أَيُّدَا مَتْنَا وَكُنَّا ثُرَابًا وَعِظْمًا أَيْنَا

(١) صحيح: انظر صحيح الجامع (٤٤٢٣).

لَمَبْعُوثُونَ ﴿ [الواقعة: ٤٧] يُنكِرُونَ هذا، وهذا تكذيب أم تصديق؟ تكذيب؛ لأن الله أخبر بأنه سيعيد الخلائق يوم القيامة، لكن هم كذبوا، ومع ذلك فإنه صابر - عز وجل - عليهم.

هَذَا وَذَلِكَ بِسَمْعِهِ وَبِعِلْمِهِ لَوْ شَاءَ عَاجَلَهُمْ بِكُلِّ هَوَانٍ

أي: بكل عذاب يكونون به في هوان.

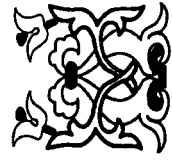
لَكِنَّ يَعْافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ وَهُمْ يُؤْذُونَهُ بِالشِّرْكِ وَالْكَفْرَانِ

وقوله: (يؤذونه) يجب أن نعلم أن الأذى غير الضرر، الضر لا أحد يضُرُّ الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وفي الحديث القدسي: «إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي»، بخلاف الأذى، فإنه ثابت، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقال تعالى في الحديث القدسي: «يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، فَيَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ»، والأذية لا تستلزم الضرر، والدليل على ذلك الواقع، فقد يتأذى الإنسان برائحة البصل، والكُرَّاث، ولكن لا يتضرر بذلك، يتأذى إذا كان عنده أحد في الصلاة قد أكل بصلاً أو كُرَّاثًا أذى عظيمًا حتى لا يكاد يتحرك، فهو يتأذى بها، ولكن لا يتضرر به، فلا يلزم من الأذية الضرر، فلذلك ثبتت الأذية في حق الله - عز وجل - ونُفي الضرر.





فصل



٣٢٩٨- وَهُوَ الرَّقِيبُ عَلَى الْخَوَاطِرِ وَاللَّوَا

حِظْ كَيْفَ بِالْأَفْعَالِ بِالْأَرْكَانِ

٣٢٩٩- وَهُوَ الْحَفِيزُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ الْكَفِيزُ

لِ كُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَانِ

٣٣٠٠- وَهُوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهِ

وَاللُّطْفُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

٣٣٠١- إِذْرَاكَ أَسْرَارِ الْأُمُورِ بِخَبْرَةٍ

وَاللُّطْفُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الْإِحْسَانِ

٣٣٠٢- فَيْرِيكَ عِزَّتَهُ وَيَبْدِي لُطْفَهُ

وَالْعَبْدُ فِي الْغَفَلَاتِ عَنِ ذَا الشَّانِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ الرَّقِيبُ عَلَى الْخَوَاطِرِ وَاللَّوَا حِظْ كَيْفَ بِالْأَفْعَالِ بِالْأَرْكَانِ

هذه ثلاثة أشياء، الله تعالى رقيبٌ عليها؛ أي: يراقبها، ويلاحظها؛ على الخواطر وهي: ما في القلوب، واللواحظ وهي: نظر الأعين، (كيف بالأفعال بالأركان) مثل: الأقوال والأفعال، فهو - سبحانه وتعالى - على كل شيء رقيب، لا يخفى عليه شيء من أي واحد من بني آدم في أي مكان؛ بل حتى من الجن، والإنس، وغيرهم.

وَهُوَ الْحَفِيزُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ الْكَفِي

لُ بِحِفْظِهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَانَ

الحفيظ من أسماء الله، وله معنيان: حفيظٌ عليهم، وحفيظٌ لهم.

حفيظٌ عليهم؛ يعني: يحفظها أمواهم، يحفظها عليهم، ويحصيها عليهم، وسيُخبرون بها

يوم القيامة، ويحاسبهم عليها.

وهو أيضًا حفيظٌ بهم؛ يعني: يحفظهم.

حفيظٌ على الأعمال، وحفيظٌ على العباد، حفيظٌ على الأعمال يُحصيها، ويُبَيِّنُها لهم يوم

القيامة، وحفيظٌ بهم؛ يعني: حفيظٌ لهم، يحفظهم من كل الأمور، وهذا يكون بنفسه جل

وعلا، أو برسله من الملائكة، كما قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ

أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، هذا حفظ الكفالة.

وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿١٠﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١١﴾ كِرَامًا كَنِينٍ﴾ [الانفطار:

١١-٩]، هذا من حفظ الإحصاء، أنه يُحصي الأعمال، ويحفظها.

وَهُوَ اللَّطِيفُ بَعْدَهُ وَلِعَبْدِهِ وَاللُّطْفُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

اللطيف بعبده يعني: أنه لطيفٌ بالعباد، يعلم الأشياء الخفية الدقيقة، ولعبده كما قال

تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠]؛ يعني: يلطف لعبده، فيقدِّر له الأمور الخفية

التي بها يتيسر أمره.

إِذْرَاكَ أَسْرَارِ الْأُمُورِ بِخَبْرَةٍ وَاللُّطْفُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الْإِحْسَانِ

هذه تتعدى بالباء، (إدراك أسرار الأمور)؛ يعني: الأشياء الخفية، وهذه نقول فيها:

لطيفٌ بالأشياء، لطيفٌ بالعباد.

هذا يتعدى باللام، لطيفٌ له؛ يعني: أنه يلطف به عند مواقع الإحسان، فيُحسِنُ إليه،

إما بجلب المحبوب، وإما بدفع المكروه.

فِيرِيكَ عِزَّتَهُ وَيَبْدِي لُطْفَهُ وَالْعَبْدُ فِي الْعُقَلَاتِ عَنْ ذَا الشَّانِ

وما أكثر ما نشاهد هذا؟! تنزل أمور جارفة مُدْمِرَةٌ، ولكن الله يلطف، تحصل حوادث في

السيارات، وغيرها، ولكن الله يلطف بالإنسان، ويجد اللطف ظاهرًا جدًّا، أحيانًا تنكفي

السيارة عدَّة مرات، ويخرج أهلها سالمون، تحترق السيارة، ويخرج صاحبها سالمًا، كما وقع

قبل أيام هنا، السيارة احترقت، وصاحبها خرج منها سالمًا.

فما أكثر الحوادث والمصائب التي تقع؟! ثم يسلم الإنسان فيها، ويقول الناس حتى عند عامة الناس يقولون: إن الله لطف به، هذا من اللطف عند مواقع الإحسان، يُحَسِّنُ إِلَيْكَ فِي الْمَوَاضِعِ الْمَكْرُوهِةِ، فَيُرِيكَ عَزَّتَهُ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْكَ، لَنْ تَعْجِزَهُ، وَلَنْ تَفُوتَهُ، ثُمَّ يُبَدِي لَطْفَهُ، يَقَعُ الْإِنْسَانُ أَحْيَاءًا فِي مَكَانٍ يَغْرُقُ فِيهِ، وَيَشَاهِدُ الْمَوْتَ، ثُمَّ يُيَسِّرُ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُنْقِذُهُ، هَذَا لَطْفُهُ، وَمَا أَكْثَرَ الْغَافِلِينَ فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ، الَّذِينَ لَا يُحْسِنُونَ بِلَطْفِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -.





فصل

- ٣٣٠٣- وَهُوَ الرَّفِيقُ يَحِبُّ أَهْلَ الرَّفْقِ بَلْ
يُعْطِيهِمْ بِالرَّفْقِ فَوْقَ أَمَانِي
- ٣٣٠٤- وَهُوَ الْقَرِيبُ وَقَرْبُهُ الْمُحْتَضُّ بِالذِّ
دَاعِي وَعَابِدِهِ عَلَى الْإِيمَانِ
- ٣٣٠٥- وَهُوَ الْمُجِيبُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُو أَجِبْ
لَهُ أَنَا الْمُجِيبُ لِكُلِّ مَنْ نَادَانِي
- ٣٣٠٦- وَهُوَ الْمُجِيبُ لِدَعْوَةِ الْمُضْطَرِّ إِذْ
يَدْعُوهُ فِي سِرِّ وَفِي إِعْلَانِ
- ٣٣٠٧- وَهُوَ الْجَوَادُ فَجُودُهُ عَمَّ الْوُجُو
دَ جَمِيعَهُ بِالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ
- ٣٣٠٨- وَهُوَ الْجَوَادُ فَلَا يُحَيِّبُ سَائِلًا
وَلَوْ أَنَّهُ مِنْ أُمَّةِ الْكُفْرَانِ
- ٣٣٠٩- وَهُوَ الْمُغِيثُ لِكُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ
وَلِذَا يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ الرَّفِيقُ يَحِبُّ أَهْلَ الرَّفْقِ بَلْ
يُعْطِيهِمْ بِالرَّفْقِ فَوْقَ أَمَانِي

هذا أيضاً من أسماء الله: الرفيق، وهو يحب أهل الرفق، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ»، والرفق هو التآني في الأمور ومعالجتها باللين، والرفقة وما أشبه ذلك، وضد الرفق العنف والشدة والصلب، يظن بعض الناس أن الرفق يُفوت المقصود، وأنه دليل على عدم الغيرة، ولكن هذا ظنٌ باطل؛ بل إن الرفق يدل على الحكمة، والترؤي، وعدم السرعة، وكما قال نبينا ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي بِالرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ»، وهذا شيءٌ مُشاهد، أن الله يُعطي بالرفق ما لا يُعطي غيره، فأنت إذا كنت رقيقاً نلتَ بذلك فائدتين عظيمتين: أولاً: محبة الله عز وجل، فإن الله يحب الرفق، وأهل الرفق.

ثانياً: أنك تنال برفقك ما لا تنال بعنفك، ولا تتعجل ولا تتسرع، فلا تأخذك الغيرة والعاطفة على عدم الرفق، تأنّ وارفق في كل أمورك، حتى بنفسك، وفي ذلك حديث النبي ﷺ حينما قال لعبد الله بن عمرو بن العاص: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا».

وَهُوَ الْقَرِيبُ وَقُرْبُهُ الْمُخْتَصُّ بِالذِّدَاعِ عِي وَعَابِدِهِ عَلَى الْإِيمَانِ

الله القريب، لكن ابن القيم رحمه الله هنا قال: إن القرب خاص، وليس بعام خاص بمن؟ قال:

وَهُوَ الْقَرِيبُ وَقُرْبُهُ الْمُخْتَصُّ بِالذِّدَاعِ عِي وَعَابِدِهِ عَلَى الْإِيمَانِ

قريبٌ من الداعين، قريبٌ من عابده، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقول النبي ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»، فالأول قُرب الداعي، والثاني قُربه من العابد، فالله قريبٌ من عابده، ومن داعيه:

قريبٌ من داعيه يستجيب له، وقريبٌ من عابده يقبل منه سبحانه وتعالى، قال النبي ﷺ حين رَفَعَ أصحابه أصواتهم بالتكبير، وأتعبوا أنفسهم وشقوا عليها، قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»، عنق الراحلة وأنت راكب عليها هو أقرب شيء إليك، لكن الله أقرب إليك من هذا، ولكن لا تظن أن هذا القرب الذي بينه الرسول عليه الصلاة والسلام يُنافي علو الله؛ لأن الله عز وجل محيطٌ بكل شيء، ولا يُبائله أحدٌ من مخلوقاته، صحيح أن الشيء إذا كان بعيداً في السماء، فإنه ليس قريباً لك أقرب من عنق الراحلة، هذا باعتبار المخلوق، لكن الله عز وجل لا يُقاس بخلقه، لا تظن أن كونه فوق

عرشه يُنَافِي كونه أقرب إلى الإنسان من عُتُق راحلته؛ بل قل: آمَنْتُ بالله بعلوه وبقربه؛ لأن الله ليس كمثله شيء في جميع النعوت، وأنت إذا تصوّرتَ ويجب أن تتصوّر أن السماوات السبع والأرضين السبع في كفه عز وجل كالخردلة في كفِّ أحدكم؛ إذا كل شيء في قبضته، وهو قريبٌ من الإنسان إذا كان يدعوه، وإذا كان يعبده.

أما القرب العام، فقد أثبتته بعض أهل العلم، وقالوا: إن قرب الله نوعان: عام لكل أحد، وخاص بالعابد والداعي، واستدلوا لقولهم هذا بقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ فَسَسُّهُ وَمَنُّ أَرْبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، لفظ الإنسان هنا عام، ونحن: الضمير يعود على الله، وأقرب إليه من حبل الوريد؛ الوريد هو العرق الغليظ الذي في رقبته.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتَ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ﴾ أي: الروح ﴿وَمَنْ أَرْبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٤-٨٥]، وهذا عام، بدليل أنه جاء بعدها التقسيم: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾، ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَعْصَابِ الْمَيْمِينَ﴾، ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَدِّبِينَ الصَّالِينَ﴾، ولكن شيخ الإسلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ردَّ هذا القول.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] قريب متحمل للضمير الذي يعود على الله، والنبى ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ»، من ربه، ولم يقل: من علم ربِّه، ولكن كما قلتُ: يجب أن نعلم أن الله لا يُقاس بخلقه، فهو فوق كل شيء، وهو قريبٌ ممن يعبده ويدعوه، ولا منافاة؛ لأن الله ليس كمثله شيء، ولأن الله محيط بكل شيء.

وهذه القاعدة؛ أعني: أن الله إذا أضاف الفعل أو الوصف إلى نفسه اختصَّ به نفسه، ذكرها ابن القيم في «مختصر الصواعق المرسلّة»، وهذا هو الواقع، ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الْأَزْدِيُّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ لأنه أضافه لنفسه، فكل شيء أضافه الله لنفسه فهو لنفسه حقيقة، ولكن لا يُنَافِي كمال صفاته، والله أعلم.

وَهُوَ الْمُجِيبُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُو أَجِبْ لَهُ أَنَا الْمُجِيبُ لِكُلِّ مَنْ نَادَانِي

قوله: (وهو المُجيب) يعني: أن الله عز وجل مُجيب.

وهذا يقوله عز وجل في بعض الأزمان، مثل: آخر الليل في الثلث الآخر، ينزل سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا، فيقول: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ، مَنْ

يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرْ لَهُ».

وَهُوَ الْمُجِيبُ لِدَعْوَةِ الْمُضْطَرِّ إِذْ يَدْعُوهُ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانٍ

كما قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، المضطر يعني: الذي أُلجأته الضرورة إلى الدعاء، وهو في كل ماضٍ عند حسبه، ففي قوله تعالى في أكل الميتة: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ [المائدة: ٣] اضطرَّ يعني: أُلجأته الضرورة إلى أكل الميتة، وهنا أُلجأته الضرورة إلى الدعاء، وظاهر النصوص أن الله يجيب دعوة المضطر ولو كان كافراً؛ لأنه سبحانه وتعالى سبقت رحمته غضبه، ولهذا أطلق المؤلف قال:

وَهُوَ الْمُجِيبُ لِدَعْوَةِ الْمُضْطَرِّ إِذْ يَدْعُوهُ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانٍ

ولهذا يجيب دعوة الكفار إذا دعوا الله مخلصين له الدين في أثناء البحر حين تأتيهم الأمواج، فيجيب دعوتهم، مع علمه أنه إذا أنجاهم إلى البرِّ أشركوا.

وَهُوَ الْجَوَادُ فَجُودُهُ عَمَّ الْوُجُودَ دَجْمِيعَهُ بِالْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ

الجواد أي: كثير العطاء، فهو سبحانه وتعالى كثير العطاء، قد عمَّ جوده الوجود كله بالفضل والإحسان، وقد ورد اسم الجواد في حديث أبي ذرِّ الغفاري، الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظَّلْمَ عَلَى نَفْسِي».

وَهُوَ الْجَوَادُ فَلَا يَخِيبُ سَائِلًا وَلَوْ أَنَّهُ مِنْ أُمَّةِ الْكُفْرَانِ

هو الجواد لا يُخيِّبُ سائلاً، ولو كان كافراً، لكن هذا في حال الاضطرار، أو فيما إذا دعا الكافر وهو مظلوم، ويُجيب دعوته وهو مضطر ولو كان كافراً.

وَهُوَ الْمُغِيثُ لِكُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ وَلِذَا يَجِبُ إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ

قوله: (المغيث) الظاهر أنه وصفٌ من أوصاف الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، والمغيث هو المُقَدِّمُ مِنَ الشَّدَّةِ، فالغيث: الإنقاذ من الشدة.

ظاهر الفرق بين الشطر الأول والثاني، أنه يُغيث المخلوقات وإن لم تدعُ، أما الثاني فهذا إذا دعا، فالله تعالى يُغيث من يحتاج إلى الغوث سواء دعا، أو لم يدع.





مهيد بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

ومن أسماؤه الحسنى (الودود): بمعنى الواؤد وبمعنى المودود، فهو المحبوب لأنبيائه ورسله وأتباعهم محبة لا يشبهها ولا يماثلها شيء من المحابِّ، كما أن محبوبهم ليس كمثل شيء في كماله، فلا يرون كمالاً لهم ولا صلاحاً ولا فلاحاً إلا بمحبة ربهم، ومحبة في قلوبهم أحلى من كل شيء وألذ من كل شيء وأقوى من كل شيء، ويقوة محبته قاموا بعبوديته الظاهرة والباطنة، وروح العبودية هي المحبة وهو الذي وضع هذه المحبة في قلوبهم فأحبوه، وكل من كانت محبته أكمل كانت عبوديته لله أقوى وأتم. يحبون ربهم لذاته، ويحبونه لما قام به من صفات الكمال ونعوت الجلال والجمال، ويحبونه لما يغذوهم به من نعمه الظاهرة والباطنة، وخصوصاً أكبر النعم وهو نعمة الإسلام الخالص والإيمان الكامل، وهو تعالى يحبهم لكمال إحسانه وسعه بره، بل حبهم الله تعالى محفوف بحيين منه لهم: حب وضعه في قلوبهم فانقادوا له طوعاً واطمأنت به قلوبهم، ثم أحبهم جزاء حبهم، وكمل لهم محبته، والفضل كله منه، والمِنَّة لله أولاً وآخراً، فمن تقرب منه شبراً تقرب الله منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه الله هرولة، كما نطق به الصادق المصدوق.

من أسماؤه الحسنى (الشكور): وهو الذي يشكر القليل من العمل الخالص النقي النافع، ويعفو عن الكثير من الزلل، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً، بل يضاعفه أضعافاً مضاعفة بغير عد ولا حساب. ومن شكره أن يجزي بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وقد يجزي الله العبد على العمل بأنواع من الثواب العاجل قبل الآجل، وليس عليه حق واجب بمقتضى أعمال العباد، وإنما هو الذي أوجب الحق على نفسه كرمًا منه وجودًا، والله لا يضيع أجر العاملين إذا أحسنوا في أعمالهم وأخلصوا لله تعالى.



فصل

٣٣١٠- وَهُوَ الْوَدُودُ يَجِبُهُمْ وَيَجِبُهُ

أَحْبَابُهُ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

٣٣١١- وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمَحَبَّةَ فِي قُلُوبِهِمْ

وَجَازَاهُمْ بِحُبِّ ثَانٍ

٣٣١٢- هَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ حَقًّا لَا مَعَا

وَضَّةً وَلَا لِتَوْقَعِ الشُّكْرَانَ

٣٣١٣- لَكِنْ يَجِبُ شُكْرُهُمْ وَشُكْرُهُمْ

لَا لِإِحْتِيَاجٍ مِنْهُ لِلشُّكْرَانَ

٣٣١٤- وَهُوَ الشُّكُورُ فَلَنْ يَضِيعَ سَعْيُهُمْ

لَكِنْ يَضَاعِفُهُ بِإِلَّا حُسْبَانَ

٣٣١٥- مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ

هُوَ أَوْجِبَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ

٣٣١٦- كَلًّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ

إِنْ كَانَ بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ

٣٣١٧- إِنْ عُدِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نَعِمُوا

فَبِقَضَائِهِ سُبْحَانَ ذِي السُّلْطَانِ^(١)

(١) [٣٣١٥ : ٣٣١٧] قال العلامة محمد خليل هراس: وفي هذه الآيات الثلاثة بيان لمذهب أهل السنة في أنه

الشَّح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ الْوَدُودُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ أَحْبَابُهُ وَالْفَضْلُ لِلْمَثَانِ

قوله: (الودود يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ أَحْبَابُهُ) كلمة فعول على كلام المؤلف بمعنى: فاعل، وبمعنى: مفعول؛ بمعنى: فاعل لقوله: يُحِبُّهُمْ فهو وادٌّ، وبمعنى: مفعول لقوله: وَيُحِبُّهُ أَحْبَابُهُ، فهو مودود، فالله عز وجل مُحِبٌّ لأحبابه، وأحبابه مُحِبُّون له، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهذا من أسمائه الودود، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤]، وهذا معناه: المُحِبُّ لأحبابه، المحبوب لهم، فهو وادٌّ ومودود.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمَحَبَّةَ فِي قُلُوبِهِمْ وَجَارَاهُمْ بِحُبِّ ثَانٍ

أي: هو الذي جعل المحبة في قلوبهم فأحبوه، وإذا أحبوه عملوا له، بطاعته، ثم جازاهم بحبِّ ثانٍ؛ هو حبه إياهم، ففَضَّلَ عليهم أولاً بإلقاء المحبة في قلوبهم له، ثم جازاهم بمحبته لهم.

هَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ حَقًّا لَا مَعَا وَضَةً وَلَا لِتَوَقُّعِ الشُّكْرَانِ

أي: أن يُحْسِنَ أولاً، وَيُحْسِنَ ثانياً، يُحْسِنُ أولاً بوضع المحبة في قلوب عباده، ثم ثانياً بمحبته لهم، وهو لا يرجو بذلك أن يُعَاوِضُوهُ، ولا يتوقَّع منهم أن يشكروه، بمعنى: أنه لا ينتظر أن يشكروه، فهو سبحانه وتعالى يحبهم وألقى في قلوبهم المحبة تفضُّلاً.

لَكِنْ يَحِبُّ شُكْرَهُمْ وَشُكْرَهُمْ لَا لِاحْتِيَاجٍ مِنْهُ لِلشُّكْرَانِ وَالْإِيمَانِ

شُكْرُ الْفَعْلِ، شُكْرُ الْفَاعِلِ؛ يعني: يحبهم من الشكر، ويجب من شكر.

أما قوله: (لا لاحتياج منه للشكران)؛ لأنه غني عن كل ما سواه.

ليس للعباد حق واجب على الله، وأنه مهما يكن من حق فهو الذي أحقه وأوجهه، ولذلك لا يضيع عنده عمل قام على الإخلاص والتابعة، فإنها الشرطان الأساسيان لقبول الأعمال، فإذا توفرا في عمل ما كان مقبولاً بمقتضى وعده سبحانه وإيجابه، واستحق صاحبه الأجر المُقَدَّر له، فهو إن عذب العباد فبعده، فإنه لا يجزي على السيئة إلا سيئةً مثلها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة، وإن أنعم وأثاب فبفضله، فله الحمد أولاً وآخراً.

وَهُوَ الشُّكُورُ فَلَنْ يُضَيِّعَ سَعِيَهُمْ لَكِنْ يَضَاعِفُهُ بِلا حُسْبَانٍ

يعني: هو الشكور أيضًا من جهة أنه لن يُضَيِّعَ سعيهم؛ بل يُضَاعِفُهُ بلا حسابن فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ

وهذه مسألة تنازع فيها الناس كثيرًا، وهي في الحقيقة - والله الحمد - واضحة؛ هل يجب على الله شيء؟

والجواب: أما إن كان ذلك بإيجاب الخلق عليه، فهذا لا يجوز، وأما إن كان ذلك بإيجابه هو على نفسه فهذا واضح، ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، أي: هو الذي كتب على نفسه الرحمة، ولسنا نحن الذين كتبنا عليه، ولا نحن الذين تُوجِبُ عليه تفضُّلاً منه، فلذلك يقول:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ

يعني: هو الذي أوجبه على نفسه، وهذا هو محل الخلاف، أو مجمع الخلاف، أن يقال: لا ننفي أن يكون على الله حق واجب، ولا نُثَبِّتُ؛ بل نُفَضِّلُ.

كَلَّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ إِنْ كَانَ بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ

يعني: أعمالهم أيضًا لا تضيع لديه، بينما أعمال العباد للعباد قد تضيع، فربما تجتهد في العمل لشخص لمساعدة، أو معونة، أو تحصيل غائب، أو ما أشبه ذلك، ويضيع عملك، أما عند الله فلن يضيع، ولكن المؤلف قيده فقال: (إن كان بالإخلاص والإحسان) أي: بالإخلاص لله والإحسان باتباع رسول الله ﷺ، وإن كان لغيرهما أو لأحدهما فهو ضائع، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»، أي: مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، فَهُوَ رَدٌّ؛ لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك.

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعْمُوا فَبِفَضْلِهِ سُبْحَانَ ذِي السُّلْطَانِ

أي: إن عذبهم الله فهو بعدله ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ما قال سيئة فقط، لئلا يظن ظان أنها سيئة تكون أكبر من سيئة العامل، بل قال: سيئة مثلها أي: لا تزيد عليها، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠] فإنه يُجْزَى سبجانه الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف،

إلى أضعاف كثيرة.

ويوجد بمقتضى التقسيم العقلي حالٌ ثلاثة، وهي: الظلم، وهذه ممتنعة على الله ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، هذه الأبيات الثلاثة أخذها المؤلف من بيتين قاهما من سبقه، قال:

ما للعباد عليه حقٌّ واجب كلا ولا عملٌ لديه ضائع
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعموا ففضله وهو الكريم الواسع

لكن كلام ابن القيم أحسن بلا شك؛ لأن ابن القيم لما قال: ما للعباد عليه حق واجب قيّد، قال: ما لهم عليه حق واجب هم الذين أوجبوه، أما حق واجب عليه أوجبه هو، فهو ثابت.



فصل

- ٣٣١٨- وَهُوَ الْعَفُورُ فَلَوْ أَتَى بِقُرَابِهَا
خطأً موحِّدُ رَبِّهِ الرَّحْمَنِ
- ٣٣١٩- لِأَتَاهُ بِالْعُفْرَانِ مِلءَ قُرَابِهَا
سُبْحَانَهُ هُوَ وَاسِعُ الْعُفْرَانِ
- ٣٣٢٠- وَكَذَلِكَ التَّوَابُ مِنْ أَوْصَافِهِ
وَالتَّوَابُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ
- ٣٣٢١- إِذَنْ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ وَقَبُولِهَا
بَعْدَ الْمَتَابِ بِمِئَةِ الْمِثَالِ

الشرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ الْعَفُورُ فَلَوْ أَتَى بِقُرَابِهَا خطأً موحِّدُ رَبِّهِ الرَّحْمَنِ

هذان اسمان من أسماء الله: العفور وهو المتجاوز عن سيئات عباده مع سترها؛ لأن المغفرة هي التجاوز عن الذنب مع الستر، فلو أتى بقُرَابِ الأرض خطايا من غير شرك فإنه يُلَاقِي ذلك بالمغفرة، كما قال ذلك في الحديث القدسي: «يا ابن آدم! لو أتيتني بقُرَابِ الأرض خطايا، ثُمَّ لَقِيتني لا تُشْرِكُ بي شيئاً، لِأَتيتكَ بِقُرَابِهَا مغفرة»، قُرَابِهَا يعني: ملئها أو ما يُقَارِبُ ملئها.

لِأَتَاهُ بِالْعُفْرَانِ مِلءَ قُرَابِهَا سُبْحَانَهُ هُوَ وَاسِعُ الْعُفْرَانِ

وهذا الاسم العظيم المُتَضَمِّنُ لهذا المعنى الجليل ينبغي للإنسان أن يُعَلِّقَ به قلبه، وأن



يُكثِرُ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ، حَتَّى يَتَحَقَّقَ لَهُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الْاسْمُ الْكَرِيمُ.

وَكَذَلِكَ التَّوَابُ مِنْ أَوْصَافِهِ وَالتَّوْبُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

وَلِيَتِ الْمَوْلَفُ قَالَ: مِنْ أَسْمَائِهِ؛ لِأَنَّ التَّوَابَ لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ

اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].

يعني: مما تَضَمَّنَ أَوْصَافَ التَّوْبَةِ، وَإِلَّا فَهُوَ اسْمٌ.

وَكَذَلِكَ التَّوَابُ مِنْ أَوْصَافِهِ وَالتَّوْبُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

إِذْ بُتُوْبَةٌ عِبْدِهِ وَقَبُولُهَا بَعْدَ الْمَتَابِ بِمِنَّةِ الْمَنَّانِ

والتوبة نوعان:

النوع الأول: الإذن بتوبة العبد؛ يعني بذلك: توفيق العبد للتوبة، والإذن في كلام

المؤلف هنا المراد به: الإذن القدرى؛ يعني: يأذن الله سبحانه وتعالى قدرًا بأن يتوب العبد

فيتوب، ثم يُمْنُ عَلَيْهِ مَرَّةً ثَانِيَةً بِقَبُولِ التَّوْبَةِ.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾

[التوبة: ١١٨] أي: تاب عليهم توبة لاحقة؛ إِذَا فَالتَّوْبَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾

يعني: أذن لهم قدرًا بالتوبة فوقفهم لها ليتوبوا إليه، فيقبل منهم التوبة، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ

الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

فتوبة الله عز وجل إِذَا تَنَقَّسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى قَسْمَيْنِ:

توبة سابقة، وتوبة لاحقة: توبة سابقة وهي توفيق العبد ليتوب، والثانية لاحقة، وذلك

بقبولها.





تَهْدِيَةٌ بَيْنَ يَدَيْ الْفَصْلِ



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

ومن أسمائه الحسنَى (الصمد): وهو الذي صمدت له المخلوقات بحاجاتها وملماتها الدقيقة والجليلة، وذلك لكمال عظمته وسعة جوده وسلطانه وعظمة صفاته.

ومن أسمائه (القهار، الجبار): وهو القوي العزيز الذي قهر المخلوقات كلها، ودانت له الموجودات بأسرها. ومن لوازم قهره أنه يقتضي أنه كامل الحياة والعلم والقدرة، والجبار بمعنى القهار، وبمعنى أنه يجبر الكسير، ويغني الفقير، ويجبر القلوب المنكسرة من أجله، ويجبر عبده المؤمن بإصلاح حاله، وهو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى المتكبر عن كل نقص وسوء ومثال.

ومن أسمائه (الحسيب): بمعنى الرقيب المحاسب لعباده المتولي جزاءهم بالعدل والفضل، وبمعنى الكافي عبده همومه وغمومه، وأخص من ذلك أنه الحسيب للمتوكلين ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. أي كافيه أمور دينه ودنياه.

وهو (الرشيد): وهو الذي أقواله رشد، وأفعاله رشد، وهو مرشد الحائرين في الطريق الحسي والضالين في الطريق المعنوي، فيرشد الخلق بما شرعه على ألسنة رسله من الهداية الكاملة، ويرشد عبده المؤمن، إذا خضع له وأخلص عمله أرشده إلى جميع مصالحه، ويسره ليسرى وجنبه العسرى.

ومن أسمائه (الحكم، العدل): الذي إليه الحكم في كل شيء، فيحكم تعالى بشرعه، ويبين لعباده جميع الطرق التي يحكم بها بين المتخاصمين، ويفصل بين المتنازعين. من الطرق العادلة الحكيمة، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويحكم فيهم بأحكام القضاء والقدر، فيجري عليهم منها ما تقتضيه حكمته، ويضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها، ويقضي بينهم يوم الجزاء والحساب، فيقضي بينهم بالحق، ويمجدهم الخلائق على حكمه حتى من قضى عليهم بالعذاب يعترفون له بالعدل وأنه لم يظلمهم مثقال ذرة.





فصل



- ٣٣٢٢- وَهُوَ الْإِلَهَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ الَّذِي
صَمَدَتْ إِلَيْهِ الْخَلْقُ بِالِإِذْعَانِ
- ٣٣٢٣- الْكَامِلُ الْأَوْصَافِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ
وَ كَمَالُهُ مَا فِيهِ مِنْ نَقْصَانٍ
- ٣٣٢٤- وَكَذَلِكَ الْقَهَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ
فَالْخَلْقُ مَقْهُورُونَ بِالسُّلْطَانِ
- ٣٣٢٥- لَوْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا عَزِيزًا قَادِرًا
مَا كَانَ مِنْ قَهْرٍ وَلَا سُلْطَانِ
- ٣٣٢٦- وَكَذَلِكَ الْجَبَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ
وَالْجَبْرُ فِي أَوْصَافِهِ قَسَمَانِ
- ٣٣٢٧- جَبْرُ الضَّعِيفِ وَكُلِّ قَلْبٍ قَدْ غَدَا
ذَا كَسْرَةٍ فَالْجَبْرُ مِنْهُ دَانِ
- ٣٣٢٨- وَالثَّانِ جَبْرُ الْقَهْرِ بِالْعِزِّ الَّذِي
لَا يَنْبَغِي لِسِوَاهُ مِنْ إِنْسَانِ
- ٣٣٢٩- [وَلَهُ مُسَمًّى ثَالِثٌ وَهُوَ الْعُلُوُّ
وُفَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إِنْسَانِ

٣٣٣٠- مِنْ قَوْلِهِمْ جَبَّارَةٌ لِلنَّخْلَةِ الْ

عُلْيَا الَّتِي فَاتَتْ لِكُلِّ بَنَانٍ^(١)

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

قال المؤلف:

وَهُوَ الْإِلَهَ السَّيِّدُ الصَّمْدُ الَّذِي صَمَدَتْ إِلَيْهِ الْخَلْقُ بِالِإِذْعَانِ

قوله: (الإله السيد الصمد)، ثلاثة أسماء، فهو الإله؛ يعني: المألوه المعبود محبةً وتعظيمًا، السيد ذو السيادة المطلقة من كل الوجوه، أمّا الصمد فسره المؤلف بمعنيين:

المعنى الأول: قال: (الذي صمَدَتْ إليه الخلق بالإذعان) كل الخلق تصمُد إلى الله في حوائجها حتى البهائم العُجم والحشرات تصمُد إلى الله سبحانه وتعالى.

ويُذكر أن سليمان بن داود خرج ذات يوم يستسقي فوجد نملةً مُستقليةً على ظهرها، ورافعةً قوائمها تقول: اللهم إنا خلقنا من خلقك، فلا تمنع عنا رزقك، فقال: ارجعوا فقد سُقِيتُم بدعوة غيركم، إذن تلجأ الخلائق حتى الحشرات إلى الله، ولهذا فسّر الصمد بمعنى: المفعول؛ يعني: المصمود إليه؛ أي: الذي تصمُد إليه الخلائق كلها في حوائجها.

المعنى الثاني: قال: (الكامل الأوصاف) يعني: الذي كُملت أوصافه عز وجل، كما قال ابن عباس: الصمد السيد الكامل في كل شيء، العليم الكامل في علمه، وعدد أشياء.

فهو إذاً الكامل في أوصافه الذي تصمُد إليه جميع مخلوقاته، فيدور الصمد على هذين المعنيين، الكمال لله عز وجل، وافتقار الخلق إليه.

وَالْكَامِلُ الْأَوْصَافِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ

وَكَذَلِكَ الْقَهَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ

وليتّه قال: من أسمائه؛ لأن القهار من أسماء الله، قال الله تعالى: ﴿لَمِنَ الْمَلَكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ

الْوَجْدُ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

(١) (٣٣٢٦: ٣٣٣٠) قال العلامة محمد خليل هراس:

وقد ذكر العلامة الشيخ السعدي رحمه الله أن له معنى رابعاً، وهو أنه المتكبر عن كل سوء ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له كفو أو ضد أو سمي أو شريك في خصائصه وحقوقه.

قال: (فالخلق مقهورون بالسلطان) كل الخلق مقهورون بسلطان الله الأعظم الذي ليس فوقه سلطان، ولا يُدانيه سلطان، فكل الخلائق مقهورة بالله عز وجل مهما عظمت قوتها، إذا شاء شيئاً قال: كن فيكون، فمثلاً عصا من شجرة ضُرب بها البحر فانفلق في لحظة، فكان كل فريق كالطود العظيم، ويغزو جيش الكعبة، حتى إذا كانوا بببءاء من الأرض خُسِفَ بهم ففَنَوْا عن آخرهم، فُجَّارهم، وسوقتهم، والمعتدون منهم كلهم يذهبون في لحظة، فكل الخلق مقهورون بسلطان الله عز وجل، هذا يكون في الدنيا والناس يشاهدون، فكيف بالآخرة؟ حيث يكون الأمر أشد وأشد وأظهر.

لَوْلَمْ يَكُنْ حَيًّا عَزِيزًا قَادِرًا مَا كَانَ مِنْ قَهْرٍ وَلَا سُلْطَانٍ

يعني: أن القهار يشمل عدة معاني هي: الحياة، والعزة، والقدرة، ولولا هذه المعاني الثلاث ما صار قهارًا، ولا صار له سلطان.

وَكَذَلِكَ الْجَبَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ وَالْجَبْرُ فِي أَوْصَافِهِ قِسْمَانِ

أي أن: الجبار من أوصافه، وليته قال: من أسماؤه.

جَبْرُ الضَّعِيفِ وَكُلُّ قَلْبٍ قَدْ عَدَا
وَالثَّانِ جَبْرُ الْقَهْرِ بِالْعِزِّ الَّذِي
ذَا كَسْرَةَ فَالْجَبْرُ مِنْهُ دَانٍ
لَا يَنْبَغِي لِسِوَاهُ مِنْ إِنْسَانٍ

هذان معنيان:

قوله: (جبر) بمعنى: جبر الكسر؛ يعني: أن الله عز وجل يجبر الضعيف، دل على هذا الحديث الشريف: «إِنَّمَا تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ بضعفائكم»، فهو يجبر الضعيف، ويجبر الكسير؛ يعني: أنه يُزيل العيب والنقص بالجبر.

والثاني: جبر القهر؛ أي: أنه يقهر الخلائق؛ لأن عنده جبروتًا وملكوتًا، فهو يجبر كل أحد مهما بلغ جبروته، ففرعون كان جبارًا متكبرًا عنيدًا أعتى عباد الله - فيما نعلم -، وجبره الله عز وجل أي: قهره بأخف شيء وهو الماء.

[وَلَهُ مُسَمًّى ثَالِثٌ وَهُوَ الْعُلُوُّ
وُفَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إِنْسَانٍ

مِنْ قَوْلِهِمْ جَبَّارَةٌ لِلنُّخْلَةِ أَلْ
عُلْيَا الَّتِي فَاتَتْ لِكُلِّ بَنَانٍ]

يعني: له معنى ثالث، وهو العلو، فجبار بمعنى: عالٍ، أخذ من قول العرب للنخلة العالية: هذه جبارة؛ يعني: عليا.

فصار الجبر له ثلاث معانٍ:

جبر القوة، وجبر الرحمة، وجبر العلو، جبر القوة يعني: يجبر كل إنسان يستكبر.

جبر الرحمة: يجبر الضعيف والمُنكسر.

جبر العلو: وهو أنه سبحانه وتعالى فوق كل شيء.

وأشار المؤلف بقوله: (من قولهم جَبَّارة) إلى الاشتقاق، والاشتقاق فن مهم جداً لطالب العلم، يعرف به طالب العلم كيف يُرجعُ الفروع إلى أصولها، وإرجاع الفروع إلى الأصول يُعينُ على فهم المعنى، ولذلك كثيراً ما يُشكِلُ المعنى، فإذا قيل للطالب: هذا فَعَلٌ من فَعَلٍ زال عنه الإشكال، فعلم الاشتقاق مهم جداً.

حتى إن بعض العلماء يقول: حتى الأسماء الجامدة التي لا تدل على معنى هي في الحقيقة مشتقة، وزعم أن كل لفظٍ يدل على معناه، حتى زعم البعض أن الأسماء الجامدة دالّة على المعنى، فالحجر غير مُشتق، لكن تتصوّره أنت إذا قيل: حجر تتصوّر منه القسوة والشدة، ولكن هذا خلاف ما كان عليه الجمهور؛ لأنه ليس مشتقاً من معنى، وكون الإنسان يتخيّل أن الحجر فيه قوة وشدة بناءً على أنه قد فهم وعرف أن الحجر صلب.



* قوله رَحِمَ اللهُ:

٣٣٣١- وَهُوَ الْحَسِيبُ حِمَايَةٌ وَكِفَايَةٌ

وَالْحَسْبُ كَافِي الْعَبْدِ كُلِّ أَوَانٍ

٣٣٣٢- وَهُوَ الرَّشِيدُ فَقَوْلُهُ وَفَعَالُهُ

رُشِدٌ وَرُبُّكَ مُرْشِدُ الْخَيْرَانِ

٣٣٣٣- وَكِلَاهُمَا حَقٌّ فَهَذَا وَضْفُهُ

وَالْفِعْلُ لِلإِزْشَادِ ذَلِكَ الثَّانِي

٣٣٣٤- وَالْعَدْلُ مِنْ أَوْصَافِهِ فِي فِعْلِهِ

وَمَقَالِهِ وَالْحُكْمُ فِي الْمِيزَانِ

٣٣٣٥- فَعَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَهْنَا

قَوْلًا وَفِعْلًا ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ الْحَسِيبُ حِمَايَةً وَكِفَايَةً وَالْحَسْبُ كَافِي الْعَبْدِ كُلِّ أَوَانٍ

(الحسيب) أي: ذو الحسب، والحسب يعني الكفاية. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] والحسيب من أوصافه فإنه تعالى حسب كل من توكل عليه.

وَهُوَ الرَّشِيدُ فَقَوْلُهُ وَفَعَالُهُ رُشِدٌ وَرَبُّكَ مُرْشِدُ الْحَيْرَانِ

قوله: (وهو الرشيد) والرشيد أيضًا من أوصافه. لكن ما معنى الرشيد؟ قال: «فقوله وفعاله رشد» - هذا المعنى الأول.

وقوله: «وربك مرشد الحيران». هذا المعنى الثاني للرشيد.

فرشيد بمعنى راشد، وبمعنى مرشد؛ يعني: يرشد غيره. أما بمعنى راشد فيقول المؤلف: فقوله وفعاله رشد والرشد إحسان التصرف، وضده: السفه. فالرب عز وجل رشيد في كل أهواله وأفعاله، والرب عز وجل مرشد الحيران. فتكون فَعِيل بمعنى مُفْعَل.

ولكن هل تأتي فَعِيل بمعنى مُفْعَل في اللغة العربية؟

نعم تأتي، مثل قول الشاعر:

أَنَّ الرَّيْحَانَةَ تَدْعِي السَّمِيعَ يُورِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعٌ

فالسميع بمعنى المسمع.

وَكَلاهُمَا حَقٌّ فَهَذَا وَصْفُهُ وَالْفِعْلُ لِلْإِرْشَادِ ذَاكَ الثَّانِي

قوله: (كلاهما) يعني: كونه راشدًا بمقاله وفعاله، وكونه مرشدًا؛ كلاهما حقٌّ، فالأول وصف كونه راشدًا.

وقوله: (والفعل للإرشاد ذاك الثاني) إفرشاده فعل، والرشد وصف.

وَالْعَدْلُ مِنْ أَوْصَافِهِ فِي فِعْلِهِ وَمَقَالِهِ وَالْحُكْمُ فِي الْمِيزَانِ

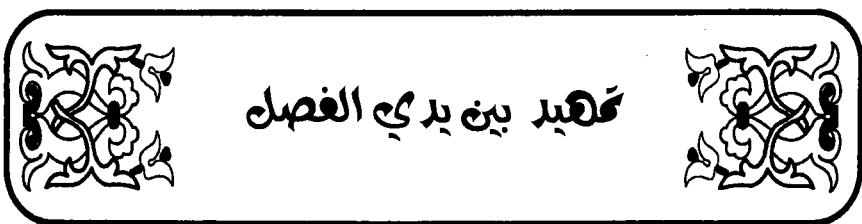
هذا أيضًا من أوصاف الله تعالى العدل، وعده بعض العلماء من أسماؤه، ولكن لا شك أن العدل وصفه في فعله وقوله وحكمه ففعله كله عدل، وقوله كله عدل، وحكمه كله عدل. وما خالف حكمه فهو جور وظلم، وإن سباه مشرّعه ما يسمونه به من ديمقراطية وغيره، فإنه لا عدل من حكم الله عز وجل، فحكم الله أعدل الأحكام، ومن زعم أن الإسلام يظلم أحدًا من الناس، أو

يُفَضَّلُ أَحَدًا عَلَى أَحَدٍ بغير موجب لهذا التفضيل فإنه إما جاهل بالإسلام، وإما مُلَبَّسٌ عَلَى النَّاسِ.
يقول:

فَعَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَهْنَا قَوْلًا وَفِعْلًا ذَاكَ فِي الْقُرْآنِ

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيئِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
فِي فِعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَحُكْمِهِ عَلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ، لَيْسَ بِزَائِعٍ وَلَا مَنْحَرَفٍ.





عهد بين يدي الفصل

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

ومن أسماؤه (القدوس، السلام): وهو المعظم المقدس عن كل عيب، السالم من كل نقص، ومن أن يكون له مثل أو كفو أو نديد أو سمي، وذلك لكماله وكمال أسماؤه الحسنی وصفاته العلی. ومن أسماؤه (الفتاح): وفتحه نوعان: فتح بأحكامه القدرية والشرعية والجزائية، وهو حكمه بين عبادته، يشرع الشرائع، ويسن لعباده الأحكام والوسائل والطرق التي يبتدون بها إلى جميع منافعهم ومصالحهم، ويحكم بين الرسل وأتباعهم وبين أعدائهم، فيكرم الرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، ويهين أعداءهم ويكون هذا أكبر دليل على أن هؤلاء على الحق وأولئك على الباطل. والنوع الثاني: فتحه لعباده الرحمة والبركة.

قال تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

ويفتح لعبده المؤمن أبواب المعارف وحلاوة الإيمان وسرور اليقين وسهولة الطاعات وتيسير القربات. اللهم افتح علينا فتوحك على العارفين.

ومن أسماؤه (الرزاق): لجميع المخلوقات، فما من موجود في العالم العلوي والعالم السفلي إلا متمتع برزقه، مغمور بكرمه، ورزقه نوعان:

أحدهما: الرزق النافع الذي لا تبعة فيه. وهو موصل للعبد إلى أعلى الغايات، وهو الذي على يد الرسول ﷺ بهدايته وإرشاده. وهو نوعان أيضًا: رزق القلوب بالعلوم النافعة والإيمان الصحيح، فإن القلوب لا تصلح ولا تفلح ولا تشبع حتى يحصل لها العلم بالحقائق النافعة والعقائد الصائبة، ثم التحقق بالأخلاق الجميلة والتتره عن الأخلاق الرذيلة، وما جاء به الرسول كفيل بالأمرين على أكل وجهه، بل لا طريق لها إلا من طريقه.

والنوع الثاني: أن يغني الله عبده بحلاله عن حرامه ويفضله عن سواه.

والأول هو المقصود الأعظم وهذا وسيلة إليه ومعين له، فإذا رزق الله العبد العلم النافع والإيمان الصحيح والرزق الحلال والقناعة بما أعطاه الله منه فقد تمت أموره واستقامت أحواله الدينية والبدنية، وهذا النوع من الرزق هو الذي مدحته النصوص النبوية واشتملت عليه الأدعية النافعة. وأما النوع الثاني وهو إيصال الباري جميع الأقوات التي تتغذى بها المخلوقات برّها وفاجرها المكلفون وغيرهم فهذا قد يكون من الحرام كما يكون من الحلال. وهذا فصل النزاع في مسألة هل الحرام يسمى رزقاً أم لا، فإن أريد النوع الأول وهو الرزاق المطلق الذي لا تبعه فيه فلا يدخل فيه الحرام فإن العبد إذا سأل ربه أن يرزقه فلا يريد به إلا الرزق النافع في الدين والبدن وهو النوع الأول، وإن أريد به مطلق الرزق وهو النوع الثاني فهو داخل فيه فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. ومثل هذا يقال في النعمة والرحمة ونحوها.





فصل



- ٣٣٣٦- هَذَا وَمِنْ أَوْصَافِهِ الْقُدُوسِ ذُو
تَنْزِيهِهِ بِالتَّعْظِيمِ لِلرَّحْمَنِ
٣٣٣٧- وَهُوَ السَّلَامُ عَلَى الْحَقِيقَةِ سَالِمٍ
مِنْ كُلِّ تَمَثِيلٍ وَمِنْ نُقْصَانِ
٣٣٣٨- وَالْبِرِّ فِي أَوْصَافِهِ سُبْحَانَهُ
هُوَ كَثْرَةُ الْخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَانِ
٣٣٣٩- صَدَرَتْ عَنِ الْبِرِّ الَّذِي هُوَ وَضْفُهُ
فَالْبِرُّ حَيْثُ ذَلِكُ نَوْعَانِ
٣٣٤٠- وَضَفٌ وَفِعْلٌ فَهُوَ بَرٌّ مُحْسِنٌ
مَوْلِي الْجَمِيلِ وَدَائِمِ الْإِحْسَانِ

(١) [٣٣٣٦: ٣٣٣٧] قال العلامة محمد خليل هراس:

هذا تفسير لاسميه الكريمين (القدوس والسلام) ومعناها متقاربان فإن القدوس مأخوذ من قدس بمعنى نزهه وأبعده عن السوء مع الإجلال والتعظيم. والسلام مأخوذ من السلامة، فهو سبحانه السالم من ماثلة أحد من خلقه، ومن النقصان، ومن كل ما يُثافي كماله، فهذا ضابط ما يُنزه عنه، ينزه عن كل نقص بوجه من الوجوه، وينزه ويعظم عن أن يكون له مثل أو شبيه أو كفو أو سمي أو نديد أو مضاد، وينزه عن نقص صفة من صفاته التي هي أكمل الصفات وأعظمها وأوسعها، ومن تمام تنزيهه عن ذلك إثبات صفات الكبرياء والعظمة له فإن التنزيه مراد لغيره ومقصود به حفظ كماله عن الظنون السيئة، كظن الجاهلية الذين يظنون به غير ما يليق بجلاله، فإذا قال العبد مُثَنِّيًا على ربه (سبحان الله) أو (تقدس الله) أو (تعالى الله) كان مُثَنِّيًا عليه بالسلامة من كل نقص وإثبات كل كمال.

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

من أسماء الله عزَّ وجلَّ «الْقُدُّوسُ»، والقُدُّوسُ معناه التنزيه والطهارة عن كل عيب ونقص.

قال الله تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ أَسْلَمَ﴾ [الحشر: ٢٣] فسَمَّى اللهُ نفسه قُدُّوسًا، وسَمَى نفسه

السلام. وبدأ بالقُدُّوس؛ لأنه تطهير، ثم السلام؛ لأنه منع من النقص في المستقبل، فالقُدُّوسُ محوُّ

للنقص الماضي إن قُدِّرَ، والسلام منع للنقص في المستقبل؛ ولهذا:

وَهُوَ السَّلَامُ عَلَى الْحَقِيقَةِ سَأَلِمَ مِنْ كُلِّ تَمَثِيلٍ وَمِنْ نُقْصَانٍ

قال الله تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ أَسْلَمَ﴾ وقال النبي ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ».



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٣٣٤١- وَكَذَلِكَ الْوَهَابُ مِنْ أَوْصَافِهِ

فَانظُرْ مَوَاهِبَهُ مَدَى الْأَزْمَانِ

٣٣٤٢- أَهْلُ السَّمَوَاتِ الْعُلَى وَالْأَرْضِ عَنْ

تِلْكَ الْمَوَاهِبِ لَيْسَ يَنْفَكَّانِ

٣٣٤٣- وَكَذَلِكَ الْفَتْاحُ مِنْ أَسْمَائِهِ

وَالْفَتْحُ فِي أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ

٣٣٤٤- فَتَحَ بِحُكْمٍ وَهُوَ شَرَعٌ إِلَهَانَا

وَالْفَتْحُ بِالْأَقْدَارِ فَتَحَ ثَانِي

٣٣٤٥- وَالرَّبُّ فَتَّاحٌ بِذَيْنِ كِلَيْهِمَا

عَدْلًا وَإِحْسَانًا مِنَ الرَّحْمَنِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هذان اسمان من أسماء الله عزَّ وجلَّ وهما: الوهاب والفتاح: (أما الوهاب) فهو كثير الهبات. وهو

صيغة مبالغة من وجه، واسم نسبة من وجه آخر.

وَكَذَلِكَ الْوَهَابُ مِنْ أَسْمَائِهِ فَانظُرْ مَوَاهِبَهُ مَدَى الْأَزْمَانِ

لو نظرنا إلى مواهبه مدى الأزمان لوجدنا أنها لا تحصى وهذا الاسم موجود في القرآن بهذا اللفظ: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، وموجود كذلك بالفعل، كما في قوله تعالى: ﴿بِهِبُّ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَبِهِبُّ لِمَنْ يَشَاءُ الذِّكْرُ﴾ [الشورى: ٤٩].

أَهْلُ السَّمَوَاتِ الْعُلَى وَالْأَرْضِ عَنْ تِلْكَ الْمَوَاهِبِ لَيْسَ يَنْفَكَّانِ

أي: لا ينفك أحد عن هبة الله لحظة، ولو انفك أحد عن هبات الله لحظة لهلك.

وَكَذَلِكَ الْفَتْاحُ مِنْ أَسْمَائِهِ وَالْفَتْحُ فِي أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦] أي هو كثير الفتح.

(والفتح نوعان: فتح شرعي، وفتح قدري.

الفتح الشرعي: هو الحكم بين عباده بالشرع، والفتح القدري هو ما قدره كوننا، فقوله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] هذا كوني.

وقوله: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] هذا شرعي، أي: احكم بيننا بالحق،

مع أنه يصح أن يكون كونياً أيضاً.

فَتْحٌ بِحُكْمٍ وَهُوَ شَرْعٌ إِلَهِنَا وَالْفَتْحُ بِالْأَقْدَارِ فَتْحٌ ثَانِي

وَالرَّبُّ فَتَّاحٌ بِذَيْنِ كِلَيْهِمَا عَدْلًا وَإِحْسَانًا مِنَ الرَّحْمَنِ

وَالْبِرُّ فِي أَوْصَافِهِ سُبْحَانَهُ هُوَ كَثْرَةُ الْخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَانِ

البر من أسماء الله ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨] والبر: هو كثرة

الخيرات وسعتها.

ومنه البر وهو ما انبسط من سطح الأرض؛ لأنه واسع منتشر.

صَدَرَتْ عَنِ الْبِرِّ الَّذِي هُوَ وَصْفُهُ فَالْبِرُّ حِينِيذٌ لَهُ نَوْعَانِ

وَصَفٌّ وَفَعْلٌ فَهُوَ بَرٌّ مُحْسِنٌ مُوَلِّي الْجَمِيلِ وَدَائِمِ الْإِحْسَانِ

البر الذي هو فعله؛ أي: أنه يبر من شاء.

والبر الذي وصفه واسمه هذا لازم له، فهناك بر وهو الإحسان - ومنه بر الوالدين - وهناك بر

على وزن فعل، وهو اسمه ووصفه. فهو وصف وفعل، ولهذا قال: (فهو برُّ) هذا باعتبار وصفه. (محسن) باعتبار فعله؛ لأن الإحسان نادر.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٣٣٤٦- وَكَذَلِكَ الرَّزَاقُ مِنْ أَسْمَائِهِ

وَ الرَّزَقُ مِنْ أَفْعَالِهِ نَوْعَانِ

٣٣٤٧- رَزَقَ عَلَى يَدِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ

نَوْعَانِ أَيضًا ذَانِ مَعْرُوفَانِ

٣٣٤٨- رَزَقَ الْقُلُوبَ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ وَالزُّ

رَزَقَ الْمُعْتَدُّ لِهَذَا الْأَبْدَانِ

٣٣٤٩- هَذَا هُوَ الرَّزَقُ الْحَلَالُ وَرَبُّنَا

رَزَاقُهُ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَانِ

٣٣٥٠- وَالثَّانِ سَوَّقَ الْقُوتِ لِلْأَعْضَاءِ فِي

تِلْكَ الْمَجَارِي سَوْقَهُ بِوِزَانِ

٣٣٥١- هَذَا يَكُونُ مِنَ الْحَلَالِ كَمَا يَكُونُ

نُ مِنَ الْحَرَامِ كِلَاهُمَا رِزْقَانِ

٣٣٥٢- وَاللَّهُ رَزَقَهُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ

رِوَالَيْسَ بِالْإِطْلَاقِ دُونَ بَيَانِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

من أسماء الله عز وجل الرزاق، قال الله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ [الذاريات: ٥٧] ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] والرزاق: اسم فاعل، وهو دالٌّ على المبالغة، وذلك لكثرة رزقه وكثرة من يرزق. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ

إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴿هُود: ٦﴾ فما أكثر الذين يرزقهم الله!

ثم إن المرزوق من عباد الله كثيرٌ أيضًا، فلو أحصيت ما يرزقك الله عز وجل إياه، ما استطعت أن تحصي له عددًا، فهو عز وجل رزاق ورزقه نوعان: رزق مادي، ورزق معنوي. الرزق المادي: ما به غذاء البدن.

الرزق المعنوي: ما به غذاء الروح، وكلاهما رزق.

وَكَذَلِكَ الرَّزَاقُ مِنْ أَسْمَائِهِ وَ الرَّزْقُ مِنْ أَعْمَالِهِ نَوْعَانِ
رِزْقٌ عَلَى يَدِ عَبْدِهِ وَرِسْوَلِهِ نَوْعَانِ أَيْضًا ذَانِ مَعْرُوفَانِ

أي: أن العلم والإيمان رزق معنوي، فهو علم يحل في القلب، وبعده إيمان وهو تصديق وقبول وإذعان. وهذا رزق، تحيا به الروح والقلوب. الثاني: الرزق المعدُّ لهذه الأبدان. هذا أيضًا نوعان:

رزق حلال لا يكون فيه تبعة، ورزق حرام يكون فيه تبعة ولكنه رزق؛ لأنه يحصل به حياة البدن، وبناء على هذا يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

هَذَا هُوَ الرِّزْقُ الْحَلَالُ وَرَبُّنَا
وَالثَّانِ سَوْقُ الْقُوْتِ لِلْأَعْضَاءِ فِي
رَزَاقِهِ وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ
تِلْكَ الْمَجَارِي سَوْقُهُ بِوَرَانِ
هَذَا يَكُونُ مِنَ الْحَلَالِ كَمَا يَكُونُ
نُ مِنَ الْحَرَامِ كِلَاهُمَا رِزْقَانِ

أي: أن يعني الرزق المادي البدني يكون حلالًا ويكون حرامًا، فما لا تبعة فيه فهو حلال، وما فيه تبعة فهو حرام.

والذي فيه التبعة أحيانًا يكون محرماً لعينه، وأحيانًا يكون محرماً لكسبه. فالدراهم المكتسبة عن طريق الربا محرمة للكسب أمّا الخمر والخنزير والميتة محرمة لعينها. ومع ذلك يسمى رزقًا؛ لأنه يكون به القوت الذي يصل إلى المجاري ويحيا به البدن.

ونحن نقول: إن الرزق الحلال هو الذي لا تبعة فيه فهل رزق الكافر حرام أو حلال؟ رزق الكافر حرام لا يحل له، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: ٩٣] ليس على من؟ ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ أي: وضدهم عليهم جناحٌ فيما طعموا. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣)
 أما من لم يؤمن فهي وإن كانت لهم في الدنيا، فليست خالصة يوم القيامة.

ولهذا نقول: إن الكافر لن يرفع لُقْمَةً إلى فمه، ولا جَرَعَةً مَاءٍ إِلَّا حَوَسِبَ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعُوقِبَ عَلَيْهَا؛ لأنه كافر. فكيف يتمتع بنعم الله ويبارزه بالكفر به؟
 هَذَا يَكُونُ مِنَ الْحَلَالِ كَمَا يَكُونُ مِنَ الْحَرَامِ كِلَاهُمَا رِزْقَانِ

ويكون هذا أيضًا باعتبار البشر، واعتبار البهائم. حتى البهائم لها رزق مادي يحيا به جسمها وبدنها. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وَاللَّهُ رَازِقُهُ بِهِذَا الْإِعْتِبَارِ وَوَلَيْسَ بِالْإِطْلَاقِ دُونَ بَيَانِ

أي: رازقه باعتبار أنه آتاه قوة يتغذى بها بدنه، لا باعتبار أن هذه القوة ليست بالتبعة. إذن فإذا علمنا أن من أسماء الله (الرزاق) فإننا لا نريد أن نعلم علمًا نظريًا فقط، ونقول: إن الله يرزق وأن رزقه أنواع.

بل إننا نريد إذا علمنا أن من أسمائه الرزاق ألا نطلب الرزق إلا منه وأن نلجأ إليه دائمًا في طلب الرزق المادي والمعنوي.

فَاللَّهُمَّ ارْزُقْنِي عِلْمًا نَافِعًا، وَعَمَلًا صَالِحًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا وَاسِعًا.

هنا فائدة: كل أسماء الله ينبغي أن نستخلص منها طريقًا للوصول إلى الله عز وجل، وليس المراد أن نفهم أن معناها كذا وكذا، وتنقسم إلى كذا وكذا.
 هذا مجرد علم نظري، لكن نريد علمًا تربويًا يتأثر به الإنسان؛ إذًا: فالفائدة ألا نطلب الرزق إلا من الله، ألا نعتد في رزقنا إلا عليه سبحانه.

كثير من الناس الآن - نسأل الله أن يرزقنا وإياكم التوكل الحقيقي - يقول: هل فتحت المالية، إذا جاء رأس الشهر، أو آخر الشهر، يكون اعتماده اعتمادًا كليًا على هذا المرتب، ولا شك أن الإنسان له الحق أن يطلب حقه، لا نقل: لا تطلب. لكن كونك تعتمد على هذا اعتمادًا كليًا وتنسى المسبب وهو الله عز وجل، لولا أن الله يَسِّرُ لك هذا الرزق ما حصل لك، فأعتمد على الله أولًا.

وهذا الرزق يكون سببًا.

ولكن ما تقول: في هِرَّةٍ أخذت الدجاجة؟ هل لك أن تنقذها من الهرة؟ أو إن أنقذتها فأنت قطعت رزقها؟

الجواب: تنقذها منها، وكذلك إن كانت لحمًا؛ لأن حرمة الأدمي أعظم من حرمة

الحيوان، وهذا مال آدمي محترم سواء كانت ما أخذته لي أو لغيري.

مسألة: هل يجوز أخذ مال الكافر؟

الجواب: لا. المعاهد لا يجوز -يعني بيني وبينه عهد- أما الحربي فيجوز.

مسألة: أيهما يُقدِّم العلم أم الإيمان؟

الجواب: لا إيمان إلا بعلم، وكيف يؤمن الإنسان على غير علم. فالأصل أن الإنسان يعلم

ثم يؤمن ثم يعمل.



فصل

٣٣٥٣- هَذَا وَمِنْ أَوْصَافِهِ الْقِيَوْمُ وَالْ

قِيَوْمٌ فِي أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ

٣٣٥٤- إِخْدَاهُمَا الْقِيَوْمُ قَامَ بِنَفْسِهِ

وَالْكَوْنُ قَامَ بِهِ هُمَا الْأَمْرَانِ

٣٣٥٥- فَالْأَوَّلُ اسْتِعْنَاؤُهُ عَنْ غَيْرِهِ

وَالْفَقْرُ مِنْ كُلِّ إِلَيْهِ الثَّانِي

٣٣٥٦- وَالْوَصْفُ بِالْقِيَوْمِ ذُو شَأْنٍ عَظِيمٍ هَكَذَا

مَوْضُوفُهُ أَيضًا عَظِيمُ الشَّانِ

٣٣٥٧- وَالْحَيُّ يَتْلُوهُ فَأَوْصَافُ الْكَمَا

لِ هُمَا لِأَفْتِي سَمَائِهَا قُطْبَانِ

٣٣٥٨- فَالْحَيُّ وَالْقِيَوْمُ لَنْ تَتَخَلَّفَ الـ

أَوْصَافُ أَضْلًا عَنْهُمَا بَيِّنَانِ^(١)

(١) [٣٣٥٦: ٣٣٥٨] قال العلامة محمد خليل هراس:

فهذا الوصف من أوصافه سبحانه ذو شأن عظيم كشأن موصوفه، إذ هو متضمن بمعناه الأول لكما غناه وعظمته، ومتضمن بمعناه الثاني لجميع صفات الكمال في الفعل، إذ لا تمام لها إلا بقيوميته.

ومن أسماؤه الحسنى كذلك (الحي) وقد ورد مقترناً باسمه القيوم في ثلاثة مواضع من القرآن:

١- في آية الكرسي من سورة البقرة قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٢- في أول سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢].

٣- في سورة طه، قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

أي: أن من أوصاف الله القيوم؛ فاسم الله القيوم دلٌّ على وصف، لذلك قال المؤلف: (القيوم في أوصافه أمران): (إحداهما: القيوم، والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ يعبر بـ (إحداهما) عن أحدهما من أجل ضيق الوزن، وإلا فإنه إذا كان المحدود مذكراً لا يقال: إحداهما، وإنما يقال: أحدهما.

إحداهما: القيوم قام بنفسه: هذا المعنى الأول.

والثاني: الكون قام به هما الأمران.

فالقيوم: هو الذي قام بنفسه، وقام به غيره، فغير الله لا يقوم إلا بالله فهو القائم على كل نفس بما كسبت، وهو قائم بنفسه.

فما معنى قائم بنفسه؟ أي: مستغن عن غيره. فنحن لا نقوم بأنفسنا، نحن مفتقرون إلى الله؛ لأننا مفتقرون إلى الأكل والشرب واللباس والسكن وغير ذلك. أما الله عز وجل فإنه قائم بنفسه. (أما الذي قام به غيره فمعناه: أن الكل مفتقر إليه، فكل شيء من المخلوقات قائم بالله، محتاج إلى الله. ولهذا قال:

فَالأَوَّلُ اسْتِعْنَاؤُهُ عَنْ غَيْرِهِ وَالْفَقْرُ مِنْ كُلِّ إِلَيْهِ الثَّانِي

الأول القائم بنفسه.

أما الفقر فمن كل الخلائق إليه؛ أي: إلى الله.

أما قوله: (الثاني) يعني: الذي قام به غيره.

ومعنى الحي الموصوف بالحياة الكاملة الأبدية التي لا يلحقها موت ولا فناء، لأنها ذاتية له سبحانه، وكما أن قيوميته مُستلزمة لسائر صفات الكمال الفعلية فكذلك مستلزمة لسائر صفات الكمال الذاتية من العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والعزة والكبرياء والعظمة ونحوها، فالحي والقيوم متضمنان لصفات الكمال وهما القطبان لأفق سائتها فلا تتخلف عنها صفة منها أصلاً، ولهذا ورد أنها اسم الله الأعظم الذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دُعِيَ به أجاب. وإنما كان هذان الاسمان العظيمان متضمنين لسائر صفات الكمال لأن الحياة تعتبر شرطاً للاتصاف بجميع الكمالات في الذات من العلم والقدرة، والإرادة والسمع والبصر والكلام إلخ، فإن غير الحي لا يتصف بهذه الصفات، فمن كملت حياته كان أكمل في كل صفة تكون الحياة شرطاً لها، وأما القيوم فلما كان أحد معانيه أنه الكثير القيام بشئون خلقه، بحيث لا يغفا عنهم لحظة، كان ذلك مستلزماً لكمال أفعاله ودوامها.

وَالْوَصْفُ بِالْقِيَوْمِ ذُو شَأْنٍ كَذَا مَوْصُوفُهُ أَيضًا عَظِيمُ الشَّانِ

قوله: (الوصف بالقيوم ذو شأن) لأنه يتبين به أن جميع الأشياء مفتقرة إليه.

قوله: (وكذاك موصوفه عظيم الشأن) لأنه يتبين به أنه مستغن عن غيره.

وَالْحَيُّ يَتْلُوهُ فَأَوْصَافُ الْكَمَّاءِ لِيَهُمَا لِأَقْبَقِ سَمَائِهَا قُطْبَانِ

(سمائها)؛ أي: لسماء الكمال يصلح، ويجوز (سمائها).

أي: سماء الأوصاف، فكلاهما صحيح، لكن الكلام على ثبوت النسخ. وفي نسخة: (سمائها).

(الحي يتلوه) أي: يتلوه تلاوة لفظية في نظم المؤلف، وأما في القرآن: فإن القيوم هو الذي يتلو

الحي؛ لأن الحي وصف لازم، وأما القيوم فهو وصف لازم متعدي فباعتراب معناه: أن الله قائم بنفسه، لازم. وقام به غيره؛ متعدي.

فَالْحَيُّ وَالْقِيَوْمُ لَنْ تَتَخَلَّفَ أَلْ أَوْصَافُ أَضْلًا عَنْهُمَا بَيَانِ

ولهذا ورد في الحديث: «أنها - أي: الحي والقيوم - اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ،

وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ»^(١).



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٣٣٥٩ - هُوَ قَابِضٌ هُوَ بَاسِطٌ هُوَ خَافِضٌ

هُوَ رَافِعٌ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

٣٣٦٠ - وَهُوَ الْمُعِزُّ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ وَذَا

عِزِّ حَقِيقَتِي بِإِلَابُطْلَانِ

٣٣٦١ - وَهُوَ الْمُدِلُّ لِمَنْ يَشَاءُ بِذِلَّةِ الدُّ

دَارِيْنَ ذُلَّ شَقًّا وَذُلَّ هَوَانِ

٣٣٦٢ - هُوَ مَانِعٌ مُعْطٍ فَهَذَا فَضْلُهُ

وَالْمَنْعُ عَيْنُ الْعَدْلِ لِلْمُتَّانِ

(١) حسن: انظر صحيح الجامع (٩٨٠).

٣٣٦٣- يَعْطِي بِرَحْمَتِهِ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ

عُ بِحِكْمَتِهِ وَاللَّهُ ذُو سُـلْطَانٍ^(١)

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

هذا أيضًا من أوصافه أو أسماؤه: القابض الباسط.

القبض ضد البسط، والبسط: التوسعة، قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]؛ أي: يضيِّق.

قوله: (هو خافض هو رافع) خافض للأشياء رافع لها.

وقوله: (بالعدل والميزان) يعني: لا يخفض إلا من يستحق الخفض، ولا يرفع إلا من يستحق

الرفع قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]

وَهُوَ الْمُعِزُّ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ وَذَا عِزِّ حَقِيقِي بِأَبْطُلَانٍ

قوله: (المعز لأهل طاعته)، قد بين الله من هم أهل العز، فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ

وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]— هؤلاء هم الذين يستحقون العزة، أما الله عز وجل فعزه ذات لازم

لحياته، وأما الرسول والمؤمنون فعندهم ليس ذاتياً؛ لأنه من الله، متعلق بمشيئة وحكمته.

وَهُوَ الْمُدِلُّ لِمَنْ يَشَاءُ بِذِلَّةِ الدُّنْيَا دَارَيْنِ ذُلٌّ شَقًّا وَذُلٌّ هَوَانٍ

الذُّلُّ ضد العِزِّ، فهو معزٌّ مذلٌّ، والذل لمن ليس بمؤمن، ولكن قد يُعِزُّ الذليل - أو من يستحق

الذل - لحكمة.

(١) [تعقيب] قال العلامة محمد خليل هراس:

قال العلامة السعدي رحمه الله:

«وهذه الأمور كلها تبع لعدله وحكمته وحمده، فإن له الحكمة في خفض من يخفضه ويذله ويجرمه، ولا حجة لأحد على الله، كما له الفضل المحض على من رفعه وأعطاه وبسط له الخيرات، فعلى العبد أن يعترف بحكمة الله، كما عليه أن يعترف بفضله ويشكره بلسانه وجنانه وأركانه.

وكما أنه هو المنفرد بهذه الأمور وكلها جارية تحت أقداره، فإن الله جعل لرفعه وعطائه وإكرامه أسباباً، ولضد ذلك أسباباً، من قام بها ترتبت عليها مسبباتها، وكلٌ ميسر لما خُلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة.

وهذا يوجب للعبد القيام بتوحيد الله والاعتماد على ربه في حصول ما يجب ويجتهد في فعل الأسباب النافعة، فإنها محل حكمة الله» اهـ.

(قال: وما منع معط) ونحن نقول في أدبار الصلوات كما ورد في السنة: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ»^(١) فالله مانع معطٍ، فهذا فضله -يعني العطاء-، (والمنع عين العدل للمنان) فهو لا يمنع أحدًا حقًا له، وإنما يمنع فضله، والله يؤتي فضله من يشاء. ولهذا لما احتج بعض المعتزلة على رجلٍ من أهل السنة، قال: أرأيت إن منعني الهدى، وقضى عليّ بالردى؛ أحسن إليّ أم أساء؟!)

هو يريد أن يلزم السني بالقول بأن الله تعالى لا يقدر المعصية؛ لأنه يقول: إن قدر عليك معصية فقد أساء إليك فقال السني: إن منعني ما هو لي فقد أساء، وإن منعني ما هو فضله فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

والجواب: منعه فضله، فالله ذو السلطان، يعطي منه من يشاء، ويتفضل على من يشاء. ومع ذلك فهو لا يمنع إلا من يستحق المنع.

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] لم يمنعهم الهدى إلا حين زاغوا والعياذ بالله، وقدموا ضلالهم على هداه؛ أضلهم الله. وإلا ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]؛ فكل إنسان يعلم الله فيه خيرًا يُسْمِعُهُ، كما جاء في الحديث الصحيح أيضا عما يفسر الآية: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٢).

هُوَ مَانِعٌ مُعْطٍ فَهَذَا فَضْلُهُ
يُعْطِي بِرَحْمَتِهِ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَاءُ
وَالْمَنْعُ عَيْنُ الْعَدْلِ لِلْمَنَّانِ
بِحِكْمَةِ وَاللَّهُ ذُو سُلْطَانِ
يعني: لا يمنع ظلمًا، بل بحكمة.

وقوله: (يعطي برحمته) فإذا أعطاك فهو من رحمته عليك أن تشكر له سبحانه وتعالى.

القابض الباسط هذه من أوصافه؛ لأنها جاءت في: «حديث التسعير»، قال: «إِنَّ اللَّهَ الْقَابِضُ»؛ فهي من أسماء الله.



(١) رواه البخاري (٨٠٨)، ومسلم (٥٩٣).

(٢) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).



فصل

- ٣٣٦٤- وَالنُّورُ مِنْ أَسْمَائِهِ أَيْضًا وَمِنْ
أَوْصَافِهِ سُبْحَانَ ذِي الْبُرْهَانِ
- ٣٣٦٥- قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ كَلَامًا قَدْ حَكَأَ
هُ الدَّارِمِيُّ عَنْهُ بِإِلَّا نُكْرَانَ
- ٣٣٦٦- مَا عِنْدَهُ لَيْلٌ يَكُونُ وَلَا نَهَاءُ
رُ قُلْتُ تَحْتَ الْفُلْكِ يُوْجَدُ ذَانِ
- ٣٣٦٧- نُورُ السَّمَوَاتِ الْعُلَى مِنْ نُورِهِ
وَالْأَرْضُ كَيْفَ النُّجْمِ وَالْقَمَرَانِ
- ٣٣٦٨- مِنْ نُورِ وَجْهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ
وَكَذَا حَكَأَهُ الْحَافِظُ الطَّبْرَانِيُّ
- ٣٣٦٩- فِيهِ اسْتِنَارَ الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ مَعًا
سَبْعَ الطَّبَاقِ وَسَائِرِ الْأَكْوَانِ
- ٣٣٧٠- وَكِتَابُهُ نُورٌ كَذَلِكَ شَرَعُهُ
نُورٌ كَذَا الْمُنْبَعُوثُ بِالْفُرْقَانِ
- ٣٣٧١- وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِ الْفَتَى
نُورٌ عَلَى نُورٍ مَعَ الْقُرْآنِ
- ٣٣٧٢- وَحِجَابُهُ نُورٌ فَلَوْ كَشَفَ الْحِجَابَ
بِ الْأَخْرَقِ الشُّبُهَاتِ لِلْأَكْوَانِ

٣٣٧٣- وَإِذَا أَتَى لِلْفَضْلِ يُشْرِقُ نُورُهُ

فِي الْأَرْضِ يَوْمَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ

٣٣٧٤- وَكَذَلِكَ دَارُ الرَّبِّ جَنَّاتُ الْعَالِي

نُورٌ تَلَا لَأَلَا لَيْسَ ذَا بَطْلَانِ

٣٣٧٥- وَالنُّورُ ذُو نَوْعَيْنِ مَخْلُوقٌ وَوَض-

فٌ مَا هُمَا وَاللَّهُ مُتَّحِدَانِ

٣٣٧٦- وَكَذَلِكَ الْمَخْلُوقُ ذُو نَوْعَيْنِ مَخ-

سُوسٌ وَمَعْقُولٌ هُمَا شَيْئَانِ

٣٣٧٧- اخْذَرْ تَزَلَّ فَتَحْتَ رِجْلِكَ هُوَّةٌ

كَمْ قَدْ هَوَى فِيهَا عَلَى الْأَزْمَانِ

٣٣٧٨- مِنْ عَابِدٍ بِالْجَهْلِ زَلَّتْ رِجْلُهُ

فَهَوَى إِلَى قَعْرِ الْحَضِيضِ الدَّانِي

٣٣٧٩- لَأَحْتَلُهُ أَنْوَارُ آثَارِ الْعِبَا

دَةِ ظَنَّنَهَا الْأَنْوَارَ لِلرَّحْمَنِ

٣٣٨٠- وَكَذَا الْحُلُولِيُّ الَّذِي هُوَ خِذْنُهُ

مِنْ هَاهُنَا حَقًّا هُمَا أَخْوَانِ

٣٣٨١- وَيَقَابِلُ الرَّجُلَيْنِ ذُو التَّغْطِيلِ وَال-

حُجْبِ الْكَثِيفَةِ مَا هُمَا سَيَانِ

٣٣٨٢- ذَا فِي كَثَافَةِ طَبْعِهِ وَظِلَامِهِ

وَيُظْلَمَةُ التَّغْطِيلِ هَذَا الثَّانِي

٣٣٨٣- وَالنُّورُ مَحْجُوبٌ فَلَا هَذَا وَلَا

هَذَا لَهُ مِنْ ظُلْمَةٍ يَرِيَانِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

وَالنُّورُ مِنْ أَسْمَائِهِ أَيْضًا وَمِنْ أَوْصَافِهِ سُبْحَانَ ذِي الْبُرْهَانِ

النور من أسماء الله، هكذا أطلق المؤلف رَحِمَهُ اللهُ، والله أعلم أنه جاء في النص: أن النور من أسماء الله، وإنما جاء: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] مضافًا، وفرق بين هذا وهذا، ولكنه جاء في حديث أبي موسى قال، لما سئل: هل رأيت ربك؟ قال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»^(١).

فيكون الرب عز وجل نورًا، وأما أنه من أسمائه على الإطلاق بدون إضافة فلا نعلم.

قوله: (النور من أسمائه أيضًا ومن أوصافه). فهو النور، ووصفه النور، (سبحان ذي البرهان)؛

أي: تنزيهاً له عز وجل، (ذي البرهان) أي: ذي الآية القاطعة الجليلة الواضحة.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ كَلَامًا قَدْ حَكَاهُ الدَّارِمِيُّ عَنْهُ بِلَا تُكْرَانِ

مَا عِنْدَهُ لَيْلٌ يَكُونُ وَلَا نَهَارٌ . رُ قُلْتُ تَحْتَ الْفُلْكِ يَوْجُدُ ذَانِ

يقول ابن مسعود: (إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار).

وبين ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ السبب في ذلك حيث قال: (قلت تحت الفلك يوجد ذان).

ما هما؟ الليل والنهار يوجدان تحت الفلك؛ أما السموات فليس فيها ليل ونهار.

فالليل والنهار مكوران على الأرض، قال الله تعالى: ﴿يَكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ﴾ [الأعراف: ٥٤] ونحن

نعلم جميعاً أن النهار من ضوء الشمس، وأن الليل من فقد هذا الضوء، والشمس تحت السماء، ليست في السماء إنما تحتها، ولذلك قال المؤلف: قلت تحت الفلك يوجد ذان.

والظاهر أن الصواب: (الْفُلْكَ)؛ لأنها مأخوذة من (الْفُلْكَ) لا من (الْفُلْكَ) الذي هو السفينة.

مَا عِنْدَهُ لَيْلٌ يَكُونُ وَلَا نَهَارٌ . رُ قُلْتُ تَحْتَ الْفُلْكِ يَوْجُدُ ذَانِ

نُورُ السَّمَوَاتِ الْعُلَا مِنْ نُورِهِ وَالْأَرْضُ كَيْفَ النَّجْمِ وَالْقَمَرَانِ

يعني: من باب أولى - نور السموات والأرض من نور الله، ولكن ليس من نوره الذي هو وصف؛

لأن نوره الذي هو وصفه لازمٌ لذاته عز وجل؛ لكنه من نوره الذي هو فعله ومخلوقه، فالله هو الذي

خلق هذا النور؛ نور السموات والأرض، وليس نور السموات والأرض الذي هو وصفه.

نُورُ السَّمَوَاتِ الْعُلَا مِنْ نُورِهِ وَالْأَرْضُ كَيْفَ النَّجْمِ وَالْقَمَرَانِ
مِنْ نُورٍ وَجْهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَكَذَا حَكَاهُ الْحَافِظُ الطَّبْرَانِي

إذن حكاة الدارمي والطبراني، ولكن لاحظ أن هذا النور المنفصل عن ذاته نور مخلوق، ليس هو نور الله الذي هو نور ذاته، بل نوره الذي خلقه عز وجل، لكن لما كان نورًا خلق النور أي: لما كان نورًا ووصفه النور خلق النور.

فَبِهِ اسْتَنَارَ الْعَرْشُ وَالْكَرْسِيُّ مَعَ سَبْعِ الطَّبَاقِ وَسَائِرِ الْأَكْوَانِ
معنى (وسائر الأكوان) أي: مع سائر الأكوان.

وَكَتَابُهُ نُورٌ كَذَلِكَ شَرَعُهُ نُورٌ كَذَا الْمُبْعُوثُ بِالْفَرْقَانِ

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] ولكنه ليس نورًا حسيًا، بل هو نور معنوي، من ملاً الله قلبه بهذا القرآن استنار، وصار كما قال الله تعالى: ﴿كَيْشْكُوفَةٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ الْمَصْبَاحُ فِي نِجَاجَةِ الرَّجَاةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دَرِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥] هذا أعلى ما يكون مثلاً لضرب النور المشكاة، ما هي المشكاة؟ هي الكوة في الجدار.

ومعنى كلام المؤلف أنه يقول: إن كتاب الله نور، سماه الله نورًا في قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] فكتابه نور، وكذلك شرع الله نور؛ لأنه يستتير به العبد في سيره إلى الله عز وجل، (كذلك المبعوث بالفرقان) وهو الرسول ﷺ المبعوث بالفرقان، فمحمد ﷺ نور؛ لأنه يضيء للناس حياتهم المعنوية قال الله تعالى في العلماء: ﴿أَوْمَنْ كَانَ مِيثَاقَ حَيْثِيْنَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فالنبي عليه الصلاة والسلام نور، وكتاب الله نور، وشريعته نور، ولكن هذا النور من النور المعنوي، لأن النور ينقسم إلى قسمين: نور حسي، ونور معنوي.

فالنور الحسي: كنور الشمس والقمر وما أشبهها.

والنور المعنوي: هو نور القرآن والشريعة والنبي ﷺ.

وقوله: (كذا المبعوث بالفرقان):

(قلت): إن نور النبي ﷺ نور معنوي، وليس نورًا حسيًا، وما روي من أنه ﷺ يضيء ما حوله،



وأنه يمشي في الشمس وليس له ظل؛ لأن نوره يطمس الظل الذي حصل، فهذا كذب لا صحة له، فالنبي عليه الصلاة والسلام نوره نورًا معنويًا.

وَحِجَابُهُ نُورٌ فَلَوْ كُشِفَ الْحِجَابُ
بُ لَأَحْرَقَ الشُّبْحَاتُ لِلْأَكْوَانِ

قوله: (وحجابه نور): حجاب من؟ حجاب الله عز وجل، حجاب عظيم، نور يحول بينه وبين المخلوقات.

ولو كشف الله هذا الحجاب لأحرت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وبصره ينتهي إلى كل شيء؛ وعلى هذا فلو كشف الله الحجاب الذي هو النور عن وجهه؛ لأحرت سبحات الوجه كل شيء من شدة النور، والسبحات هي: البهاء والعظمة والنور.

وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِ الْفَتَى
نُورٌ عَلَى نُورٍ مَعَ الْقُرْآنِ

أيضًا من النور ما يجعله الله تعالى في قلب العبد وهو نور معنوي مخلوق يجعله الله تعالى في قلب الإنسان، فإذا انضاف إلى ذلك نور القرآن صار نورًا على نور، وهذا النور القلبي يكشف للإنسان من العلوم والمكاشفات ما لا يحصل لغيره، حتى إنه ليستنبط من الدليل الواحد عدة مسائل وأحكام لا يستنبطها غيره من عدة أدلة. وهذا بما يليق به الله في قلبه من النور.

ومن ذلك ما جرى لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في موافقته للنبي صلى الله عليه وسلم في عدة مسائل، بل في موافقته لله. وكذلك ما جرى لأبي بكر رضي الله عنه في أحلك المواطن التي جرت للرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك في صلح الحديبية، فإن صلح الحديبية- كما هو معروف لأكثركم- حصل فيه شيء من الضغط على المسلمين، ولم يتحمل بعضهم هذا، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أن الإيمان راسخ في قلبه قام يجادل النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أجابه بجواب كان جواب أبي بكر مثله تمامًا؛ لأن عمر رأى نفسه لم يقنع الرسول عليه الصلاة والسلام فذهب إلى أبي بكر لعله يساعده على إقناع الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فكان جواب أبي بكر كجواب النبي صلى الله عليه وسلم تمامًا. فهذا من النور الذي يضعه الله في قلب المؤمن؛ ولهذا كان من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام حين يخرج إلى الصلاة أن يقول: (واجعلني نورًا) ^(١) يعني اجعلني أنا نورًا أي: نورًا يهتدي بي الناس.

وَإِذَا آتَى لِلْفَضْلِ يَشْرِقُ نُورُهُ
فِي الْأَرْضِ يَوْمَ قِيَامَةِ الْأَبْدَانِ

ودليل هذا قوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر: ٦٩]

وَكَذَلِكَ دَارُ الرَّبِّ جَنَّاتُ الْعُلَا نُورٌ تَلَأَلَا لَيْسَ ذَا بُطْلَانِ

الجنة - جعلني وإياكم من أهلها - نور يتلأأ، ما فيها ظلمة إطلاقاً قال تعالى: ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٣] وليس فيها شمس، ولكنها نور يتلأأ، وهذا النور من النور الذي يخلقه الله عز وجل.

وَالنُّورُ ذُو نَوْعَيْنِ مَخْلُوقٌ وَوَضَّ فَمَا هُمَا وَاللهُ مُتَّحِدَانِ

إذن النور نوعان: نوع مخلوق بائن عن الله منفصل، ونوع وصف الله عز وجل، وليسا سواء، خلافاً لما يدعيه أهل التصوف حين يظنون أن الأنوار التي تحدث لهم في قلوبهم، أو يشاهدونها في الكون، يظنون أنها نور الله عز وجل؛ ولهذا أقسم المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُمَا غير متحدان.

وَكَذَلِكَ الْمَخْلُوقُ ذُو نَوْعَيْنِ مَحْسُوسٌ وَمَعْقُولٌ هُمَا شَيْئَانِ

وكذلك المخلوق يعني: النور المخلوق.

فصار النور - أولاً - ينقسم إلى قسمين، ما هما؟ وصف الله، ومخلوق له. والمخلوق ينقسم إلى نوعين: محسوس ومعقول.

والمعقول عبرنا عنه قبل قليل بالمعنوي، وهذه أقسام النور. مخلوق وغير مخلوق.

أَحْذَرُ تَزَلُّ فَتَحَتْ رِجْلِكَ هُوَّةٌ كَمْ قَدْ هَوَى فِيهَا عَلَى الْأَزْمَانِ

قوله: (احذر تزل)؛ يعني: احذر أن تزل، (فتحت رجلك هوة)؛ الهوة: المكان المنخفض، والإنسان إذا زلت رجله وتحتته هوة سقط وهلك.

مِنْ عَابِدٍ بِالْجَهْلِ زَلَّتْ رِجْلُهُ فَهَوَى إِلَى قَعْرِ الْحَضِيضِ الدَّانِي

الحضيض أي: العميق الداني.

لَا حَتَّ لَهُ أَنْوَارُ آثَارِ الْعِبَادِ دَعَا ظَنَّهُهَا الْأَنْوَارَ لِلرَّحْمَنِ

فَأَتَى بِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَبَلِيَّةٍ مَا شِئَتْ مِنْ شَطْحٍ وَمِنْ هَذَا يَنْ

هذا يعود إلى الصوفية، فالصوفية عندهم نوع عبادة، لكن عندهم ضلال عظيم، تلوح لهم الأنوار في القلب فيظنون ذلك نور الرب، ويدعون أن الرب حلَّ فيهم -والعياذ بالله-، أو تلوح لهم الأنوار من الخارج فتشرح الصدور فيظنون ذلك نور الرب ويدعون أنه حل في هذا المكان؛ لأنكم تعلمون أن



الإنسان إذا ضاق صدره: صار النور عنده ظلمه، وإذا اتسع صدره انشرح صدره ورأى كل شيء نورًا. هؤلاء -والعياذ بالله- المتصوفة زين لهم الشيطان أعمالهم؛ فكان يورد على قلوبهم من الأنوار الشيطانية لا الرحمانية ما يجعلهم يظنون أن هذا هو نور الرب فيحولون النور المخلوق إلى نور الوصف؛ نور الخالق عز وجل، فيظنون أنه هو نور الله.

وقول المؤلف:

لَا حَتَّ لَهٗ أَنْوَارُ آثَارِ الْعِبَا دَةَ ظَنَّنَهَا الْأَنْوَارَ لِلرَّحْمَنِ

هذا يُحْمَدُ عَلَى صُوفِي جَاهِلٍ، وَأَمَّا الصُّوفِي الْعَالِمُ فَإِنَّهُ مَهْمَا عَمِلَ مِنَ الْعَمَلِ الْمَخَالِفِ لِلسَّنَةِ فَلَيْسَ بِعِبَادَةٍ، لَكِنَّ الْجَاهِلَ رَبِّهَا يَتَعَبَّدُ بِالشَّيْءِ يَظُنُّهُ شَرْعًا وَحَقًّا، فَيَثَابَ عَلَى نِيَّتِهِ، أَمَّا الْمُعَانِدُ فَلَا.

هؤلاء هم الصوفية الذين لهم فناء صوفي بدعي، وهو فناء يفنون به عن شهود ما سوى الله عز وجل، حتى إن الإنسان يفنى بالله - كما يزعم - عن ذكر الله، فيقول: لا إله إلا الله، وهو لا يدري؛ لأن قلبه منشغل بمشاهدة المذكور.

فهو يعبد الله - ولكنه ساء - لأنه غاب قلبه بالمعبود، وهذا يسمونه الفناء الصوفي، وهو فناء مبتدع وضلال، ولم يكن عليه الصحابة رضي الله عنهم، ولا التابعون لهم بإحسان، وليس من شريعة النبي صلى الله عليه وسلم، لكنه من إيرادات ترد على قلوبهم فيظنونها حقًا، ويغيب الواحد كالسكران، حتى إن بعضهم يخبط بيديه ورجليه كأنه مجنون، ويأخذون عصيًا، أو أسواطًا يخبطون بها الأرض، وأعظمهم وأقربهم من يتطاير الغبار من ضربه، ولهذا يسمون هذا النوع من الذكر: الغبراء - لأنها تغبر - وأنتم تعرفون الإنسان إذا انفعل يضرب بقوة، فهم لشدة انفعالهم يضربون بقوة، فإذا قيل لأحدهم لا إله إلا الله مد الله يخبط بهذه العصا على الأرض - كأنهم مجانين.

وبعضهم ربها يصعق، أو ربها يموت. وهذا لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة وهم أكمل منهم إيمانًا، لكن الشياطين تزين ذلك لهم.

من جملة هذا أنهم يظنون أن النور الذي يكون في القلب هو نور الله؛ فيجعلون الصفة الإلهية الذاتية حالة في المخلوقات تعود بالله.

وَكَذَا الْحُلُولِيِّ الَّذِي هُوَ خِدْنُهُ مِنْ هَا هُنَا حَقًّا هُمَا أَحْوَانِ

من الحلولي؟ الذي يقول: إن الله حال في كل شيء؛ يعني: أهل وحدة الوجود، خدن لهذا.

والخدن: هو الصاحب الخاص، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُخَذِّبْ أَخْدَانِ﴾ [المائدة: ٥] فالصاحب

الخاص خدن لهذا الصوفي، فالآن حقيقة قولهم: أن الله حالٌ في هذا الكون.

وَيَقَابِلُ الرَّجْلَيْنِ ذُو التَّعْطِيلِ وَالْحُجْبِ الْكَثِيفَةِ مَا هُمَا سِيَانِ

يقابل الرجلين أصحاب التعطيل الذين ينكرون أن يكون لله سبحانه وتعالى صفة.

فهم محبوبون عن هذه الصفات العظيمة لله بالحجب؛ حجب التعطيل والبدع.

ذَا فِي كَثَافَةِ طَبْعِهِ وَظَلَامِهِ وَيُظْلَمَةُ التَّعْطِيلِ هَذَا الثَّانِي

يعني: كلاهما في ظلمة فالأول الذي هو الصوفي والحلوي عنده كثافة طبع، والآخر عنده ظلمة

التعطيل أي: تعطيل الخالق عز وجل عن أوصافه.

وَالنُّورُ مَحْجُوبٌ فَلَا هَذَا وَلَا هَذَا لَهُ مِنْ ظُلْمَةٍ يَرِيَانِ

النور محجوب عن الصنفين جميعًا، فلا هذا ولا هذا من الظلمة يرى.

قوله: (من ظلمة): (من) هنا للتعليل، يعني: فلا هذا ولا هذا يرى من أجل الظلمة التي

أحاطت بهما.

مسألة: هؤلاء المتصوفة الذي يفعلون هذه الأفعال وهم على جهل، هل حينما يصعقون ويموت

بعضهم، يكون لهم أجر على هذا الفعل أم لا؟

الجواب: إذا كان قد بلغه الحجة بأن هذا العمل بدعة وضلالة فإنه ليس له أجر، أما إذا كان

جاهلاً فأمره إلى الله هو مسلم؛ لأنهم الآن - في الدنيا - ينتسبون إلى الإسلام فهم مسلمون، أما في

الآخرة فأمرهم إلى الله، فما أدري هل يسلم من الوزر أم لا.

مسألة: ما معنى السُّبْحَاتِ؟

الجواب: البهاء والعظمة.

قال: (لأحرق السُّبْحَاتِ)؛ والأصل: (لأحرقت) بالتاء. لكن كل مجموع سوى جمع المؤنث

والمذكر السالم يجوز فيه التذكير والتأنيث.

قال ابن مالك:

والتَّاءُ مَعَ جَمْعِ سُورِ السَّالِمِ مِنْ مُذَكَّرٍ كالتَّاءِ مَعَ إِخْدَى اللَّيْنِ

يعني: (لينة) مؤنث وهو مجازي، يجوز فيها التذكير والتأنيث.

كذلك سائر الجموع إلا جمع المذكر السالم.

والصحيح: وإلا جمع المؤنث السالم، فإن جمع المذكر السالم يجب فيه التذكير، وجمع المؤنث السالم

يجب فيه التأنيث، وما عدا ذلك يجوز فيه الوجهين.

مسألة: ما معنى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]؟

الجواب: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: منورهما، أو هو فيها نور. ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ - يعني: هو الله نفسه فيها نور؛ لأنه في السماء.

ولا يمنع أن يقال فيها نور السماوات والأرض وهو في السماوات، كما قال الله تعالى في القمر: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] وهو في السماء الدنيا وليس في السماوات الأخرى.

المهم أن لها معنيين:

المعنى الأول: أنه هو نفسه النور فيها.

والثاني: أنه منورهما.





تَهْدِيدٌ بَيْنَ يَدَيْ الْفَصْلِ



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

ومن أسماؤه الحسنى (المقدم، والمؤخر، المعطي، المانع، الضار، النافع، الخافض، الرافع): من أسماؤه الحسنى ما يؤتى به مفردًا ويؤتى به مقرونًا مع غيره وهو أكثر الأسماء الحسنى، فيدل ذلك على أن الله كمالًا من أفراد كل من الاسمين فأكثر وكمالًا من اجتماعها أو اجتماعها.

ومن أسماؤه ما لا يؤتى به إلا مع مقابله الاسم الآخر لأن الكمال الحقيقي تمامه وكماله من اجتماعها، وذلك مثل هذه الأسماء، وهي متعلقة بأفعالها الصادرة عن إرادته النافذة وقدرته الكاملة وحكمته الشاملة، فهو تعالى المقدم في الزمان والمكان والأوصاف الحسية، والمقدم في الفضائل والأوصاف المعنوية، والمؤخر لمن يشاء في ذلك، المعطي من شاء من القوة والقوى الحسية والعقل والمعارف والكمالات المتنوعة، المانع لمن شاء ممن لا يستحق ذلك، وهو تعالى النافع لمن شاء من عباده بالمنافع الدينية والدنيوية، الضار لمن فعل الأسباب التي توجب ذلك، وكل هذا تبع لحكمته وسنته الكونية وللأسباب التي جعلها موصلة إلى مسبباتها.

فإن الله تعالى جعل مقاصد للخلق وأمورًا محبوبة في الدين والدنيا، وجعل له أسبابًا وطرقًا، وأمر بسلوكها ويسرها لعباده غاية التيسير، فمن سلكها أوصلته إلى المقصود النافع، ومن تركها أو ترك بعضها أو فوت كمالها أو أتاها على وجه ناقص ففاته الكمال المطلوب فلا يلومن إلا نفسه، وليس له حجة على الله، فإن الله أعطاه السمع والبصر والفؤاد والقوة والقدرة وهده النجدين وبين له الأسباب والمسببات ولم يمنعه طريقًا يوصل إلى خير ديني ولا دنيوي، فتخلفه عن هذه الأمور يوجب أن يكون هو المعلوم عليها المذموم على تركها.

واعلم أن صفات الأفعال التي منها هذه الأسماء كلها متعلقة وصادرة عن هذه الصفات الثلاث: القدرة الكاملة، والمشيئة النافذة، والحكمة الشاملة التامة. وهي كلها قائمة بالله، والله متصف بها، وآثارها ومقتضياتها جميع ما يصدر عنها في الكون كله من التقديم والتأخير والنفذ



والضر والعطاء والحرمان والخفض والرفع، لا فرق بين محسوسها ومعقولها، ولا بين دينيها ودنيويها. فهذا معنى كونها أوصاف أفعال لا كما ظنه أهل الكلام الباطل أن الفعل هو عين المفعول، وأنه لم يقل بالله منها وصف، فهذا مخالف للعقل والنقل، وقول متناقض في نفسه، فإن الآثار تدل على المؤثر كما أن الوصف يدل على الأثر، فهما شيئان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، دل الكتاب والسنة والعقل على ذلك، فمن فرق بينهما فأثبت المفعول ونفى الفعل فقله غير معقول ولا منقول.

واعلم أن الأفعال الاختيارية للباري نوعان: نوع متعلق بذاته المقدسة كاستواء على العرش والنزول كل ليلة إلى سماء الدنيا والمجيء والإتيان ونحوها، ونوع متعلق بالمخلوقات كالخلق والرزق والعطاء والمنع وأنواع التدابير الكونية والشرعية والله أعلم.





فصل

- ٣٣٨٥- وَهُوَ الْمُقَدِّمُ وَالْمُؤَخِّرُ ذَانِكَ الضَّ
صِفَتَانِ لِلْأَفْعَالِ تَابِعَتَانِ
٣٣٨٦- وَهُمَا صِفَاتُ الذَّاتِ أَيْضًا إِذْ هُمَا
بِالذَّاتِ لَا بِالْغَيْرِ قَائِمَتَانِ
٣٣٨٧- وَلِذَلِكَ قَدْ غَلِطَ الْمُقَسِّمُ حِينَ ظَنَّ
نَ صِفَاتِهِ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ
٣٣٨٨- إِنْ لَمْ يَرِدْ هَذَا وَلَكِنْ قَدْ أَرَا
دَ قِيَامَهُمَا بِالْفِعْلِ ذِي الْإِمْكَانِ
٣٣٨٩- وَالْفِعْلُ وَالْمَفْعُولُ شَيْءٌ وَاحِدٌ
عِنْدَ الْمُقَسِّمِ مَا هُمَا شَيْئَانِ
٣٣٩٠- فَلِذَلِكَ وَصَفُ الْفِعْلِ لَيْسَ لَدَيْهِ إِلَّا
لَا نِسْبَةَ عَدَمِيَّةً بَيْنَهُمَا
٣٣٩١- فَجَمِيعُ أَسْمَاءِ الْفِعَالِ لَدَيْهِ لَيْسَ
سَتْ قَطُّ ثَابِتَةً ذَوَاتِ مَعَانِ
٣٣٩٢- مَوْجُودَةٌ لَكِنْ أُمُورٌ كُلُّهَا
نَسَبَتْ تُرَى عَدَمِيَّةَ الْوُجُودَانِ

٣٣٩٣- هَذَا هُوَ التَّعْطِيلُ لِلْأَفْعَالِ كَالثَّ

تَعْطِيلٍ لِلْأَوْصَافِ بِالْمِيزَانِ^(١)

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

من أسماء الله: المَقْدَمُ والمُؤَخَّرُ، أو من أوصافه: المَقْدَمُ والمُؤَخَّرُ، فهو قد سماه النبي عليه الصلاة والسلام فقال: «أَنْتَ الْمَقْدَمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ»^(٢).

التقديم والتأخير صفتان ثابتتان لله عز وجل متعلقتان بأفعاله كالمحيي والمميت، فهما صفتان من صفات الله أي: الإحياء والإماتة، متعلقات بأفعاله، فهما من صفات الأفعال من وجه، و من صفات الذات من وجه.

فمن وجه قيامها بالله هما من صفات الذات، ومن وجه تعلقها بالمخلوق الحادث هما من صفات الأفعال.

ولهذا قال:

وَهُمَا صِفَاتُ الذَّاتِ أَيْضًا إِذْ هُمَا بِالذَّاتِ لَا بِالْغَيْرِ قَائِمَتَانِ

فهما صفات ذات وصفات أفعال.

(١) [٣٣٨٨: ٣٣٩٣] قال العلامة محمد خليل هراس:

وهذا قول باطل مخالف كما قدمنا لما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، بل والعقل أيضًا الذي يقضي بأن تكون الأفعال قائمة بمن فعلها، ويكون متصفاً بها من قائلها أو عملها، إذ لا يتصور في العقل مفعول من غير فعل، ولا مخلوق من غير خالق، كما لا يتصور أحد اسماً مشتقاً ولا يكون دالاً على صفة في المحل المسمى به.

والذي أوقعهم في هذا الغلط الشنيع أن صفات الأفعال عندهم لا تكون إلا حادثة لتعلقها بالمفعولات الحادثة، فيستحيل عندهم قيامها بذاته تعالى، لأن قيام الحوادث به مستلزم لحدوثه، فارتكبوا بهذه الأكذوبة أعظم جنائية على الدين، حيث نفوا كل الصفات الفعلية التي جاء بها الكتاب والسنة من الاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا وتكليمه لبعض عباده في بعض الأزمنة، ووجه ورضاه وغضبه ومقتة الخ، كما نفوا أفعاله التي يوجد بها شيئاً بعد شيء تبعاً لحكمته، وأقواله التي يتكلم بها شيئاً بعد شيء كذلك، ولا شك أن هذا التعطيل لأفعاله هو كتعطيل الجهمية والمعتزلة لصفات ذاته بلا فرق أصلاً، فإذا كان هذا التعطيل لصفاته الذاتية باطلاً بإقرار هؤلاء أنفسهم، فيجب أن يكون التعطيل لصفاته الفعلية باطلاً كذلك.

(٢) رواه البخاري (١٠٦٩)، ومسلم (٧٦٩).

واعلم أن التقديم والتأخير نوعان: حسيان، ومعنويان.

أما الحسيان: فكثير جداً، يُقدِّم الله ولادة هذا قبل هذا، وموت هذا قبل هذا، ومرض هذا قبل هذا، وهو كثير.

كل أفعال الله فيها تقديم وتأخير.

وأما المعنى: فمثل قول الرسول عليه الصلاة والسلام حين رأى رجلاً متأخرين في المسجد: «لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخِّرُهُمُ اللَّهُ، وَرَبُّ شَخْصٍ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ فِي الصَّلَاةِ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ مُؤَخَّرٌ». فهو متقدم حساً لكن متأخر، معنى إذن فالتقديم والتأخير نوعان: حسي، ومعنوي. وهما من صفات الأفعال باعتبار تعلقها بالمخلوق، ومن صفات الذات باعتبار تعلقها بالخالق.

وَلِذَاكَ قَدْ غَلِطَ الْمُقَسِّمُ حِينَ ظَنَّ أَنَّ صِفَاتِهِ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ

(المقسِّم) يريد بذلك: الأشاعرة، حيث قسموا الصفات إلى نوعين: صفات ذات، وتسمى عندهم صفات المعاني، وهي السبع التي أثبتوها، وزعموا أن العقل دل عليها، وهي:

الحياة، والكلام، والسمع، والبصر، والإرادة، والقدرة، والعلم.

هذه الصفات المعنوية عندهم قائمة بالله عز وجل أي: بذات الله.

أما صفات الأفعال فيقولون: غير قائمة بالله سواء كانت متعدية أو لازمة.

لماذا صفات الأفعال عندهم ليست قائمة بالله؟ قالوا: لأن الأفعال حادثة، والحوادث لا تقوم إلا بحادث فوجب نفيها عنه؛ ولهذا أنكروا نزول الله إلى السماء الدنيا؛ لأنه فعل، والفعل عندهم حادث، والحادث لا يقوم إلا بالحادث، فأنكروه.

كذلك أيضاً الأفعال المتعدية للغير أنكروها، خلقه ورزقه وإحياءه وإماتته.. كل هذه عند الأشاعرة منكورة، يعني ينكرون أن تقوم بالله، فالإحياء عندهم ليست صفة متعلقة بالذات، ولا يمكن أن تكون متعلقة بالذات؛ لأنها حادثة هذا يُحيا اليوم مثلاً، وثان يُيات اليوم؛ فهي صفات حادثة لا يمكن أن تكون متعلقة بذات الخالق عز وجل، إذ لو كانت متعلقة به لكان -على زعمهم- حادثاً. وهذا محال؛ إذن عند الأشاعرة الصفات معنوية وفعلية.

المعنوية: يثبتونها، والفعلية: ينكرونها لأنها حادثة، والحادث لا يقوم إلا بحادث؛ إذن لا تنسب إلى الله نسبة ذات.

قيل لهم: هناك صفات أفعال متعلقة بذات الله، مثل النزول، والاستواء على العرش، والمجيء يوم القيامة.

قالوا: هذه لا نثبتها، فلا نثبت الاستواء على العرش، ولا النزول إلى السماء الدنيا، ولا الإتيان يوم القيامة.

المؤلف رد عليهم قال:

وَلِذَلِكَ قَدْ غَلِطَ الْمُقَسِّمُ حِينَ ظَنَّ نَ صِفَاتِهِ نَوْعَانِ مُخْتَلِفَانِ

قوله: (نوعان) ما إعرابها؟ هذه على لغة من يلزم المثني الألف مطلقاً.

فيه لغة للعرب يقولون: إن المثني بالألف دائماً، فما أولى الذين يلحنون بهذه اللغة؟ كلما لحت وجعلت المثني بالألف وهو منصوب؛ تقول له: الاعتذار بأن هذه لغة.

نقول: ليس لك حق أن تذهب إلى لغة غير مشهورة، أو غير لغة قريش.

لكن ألزمته قافية القصيدة أن يأتي بالألف؛ فقال: (نوعان مختلفان).

إِنْ لَمْ يَرِدْ هَذَا وَلَكِنْ قَدْ أَرَأَا دَ قِيَامَهَا بِالْفِعْلِ ذِي الْإِمْكَانِ

وَالْفِعْلُ وَالْمَفْعُولُ شَيْءٌ وَاحِدٌ عِنْدَ الْمُقَسِّمِ مَا هُمَا شَيْئَانِ

يعني: أنه قال: إن الصفات نوعان: معنوية، وفعلية. ومع هذا لم يصف الله حقاً بالصفات الفعلية. بل قال: إن الفعل والمفعول شيء واحد، ففعل الله هو مفعوله؛ إحياءه نُسب إليه وهو في الحقيقة المحيي، ورزقه نسب إليه وهو في الحقيقة المرزوق، وهلم جراً.

فَلِذَلِكَ وَضَفَ الْفِعْلُ لَيْسَ لَدَيْهِ لَا نِسْبَةَ عَدَمِيَّةً بَيَّانِ

يعني: أنه أضيف إلى الله على سبيل النسبة والإضافة، لا على سبيل الحقيقة، وإلا فالفعل والمفعول شيء واحد.

مسألة: خلق السموات؛ هل اتصف الله بصفة هي الخلق عندهم؟

الجواب: لا، ولكنه فعل مفعول هو السموات. والفعل عندهم هو عين المفعول.

فَجَمِيعُ أَسْمَاءِ الْفِعَالِ لَدَيْهِ لَيْ سَتَتْ قَطُّ ثَابِتَةً ذَوَاتٍ مَعَانِ

مَوْجُودَةٌ لَكِنْ أُمُورٌ كُلُّهَا نَسَبَتْ تُرَى عَدَمِيَّةَ الْوَجْدَانِ

يعني: إذا قيل لهم: هذا غير ممكن، المفعولات موجودة، قالوا: إنها أضيفت إلى الله على سبيل النسبة والإضافة، وليست حقيقة هي فعل الله، بل هي المفعول.

وحينئذ يلزمهم أن يقولوا بوجود مفعول بدون فعل، وهذه مكابرة.

فهل يوجد فاعل بلا فعل؟ لا يوجد.



فولا فعل بلا فاعل، ولا مفعول بلا فاعل أبداً، لكنهم مكابرون.

هَذَا هُوَ التَّعْطِيلُ لِلْأَفْعَالِ كَالثَّ

تَعْطِيلِ لِلْأَوْصَافِ بِالْمِيزَانِ

يعني: تعطيل الأشاعرة لصفات الأفعال، كتعطيل المعتزلة للأوصاف مطلقاً.

هؤلاء معطلة الأفعال، والمعتزلة معطلة الأوصاف، فإن مذهب المعتزلة إثبات الأسماء دون

الصفات.

ومعلوم أن مذهبهم أيضاً باطل. يقولون: إن الله سميع ولا سمع، بصير ولا بصر، عليم ولا

علم، حي ولا حياة، وهلم جراً.

ينكرون أن يكون لله صفة؛ إما لأن الصفة لا تقوم إلا بجسم والأجسام متباعدة، وإما لأننا لو

أثبتنا صفة قديمة لزم تعدد القدماء. وهذا مستحيل على زعمهم.

مقصود المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: أن التعطيل للأفعال كالتعطيل للأوصاف سواء بسواء.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٣٣٩٤- فَالْحَقُّ أَنَّ الْوُصْفَ لَيْسَ بِمَوْرِدِ الثَّ

تَقْسِيمِ هَذَا مُتَقَضِي الْبُرْهَانِ

٣٣٩٥- بَلْ مَوْرِدُ التَّقْسِيمِ مَا قَدْ قَامَ بِالذِّ

ذَاتِ التِّي لِلْوَاحِدِ الرَّحْمَنِ

٣٣٩٦- فَهَمَّا إِذَا نَوَّعَانَ أَوْصَافٍ وَأَفْ

عَالَ فَهَذَا قِسْمَةُ التِّيَانِ

٣٣٩٧- فَالْوُصْفُ بِالْأَفْعَالِ يَسْتَدْعِي قِيَا

مِ الْفِعْلِ بِالْمَوْضُوفِ بِالْبُرْهَانِ

٣٣٩٨- كَالْوُصْفِ بِالْمَعْنَى سِوَى الْأَفْعَالِ

إِنَّ بَيْنَ ذَيْنِكَ قَطٌّ مِنْ فُرْقَانٍ^(١)

(١) [٣٣٩٤: ٣٣٩٨] قال العلامة محمد خليل هراس: يعني أن هؤلاء النافين لصفات الأفعال ممن اعتبروها نسباً وإضافات لا تقوم بالذات، جعلوا مورد التقسيم هو الوصف، فقالوا إن الوصف إما وصف معنى

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

يقول: أليس مورد التقسيم ما ذهب إليه هذا المعطل للأفعال حيث يقول: إن الله موصوف بأفعال لكنها لا تتعلق بذاته، وموصوف بصفات متعلقة بذاته.

هذا ليس بصحيح، بل مورد التقسيم ما قاله المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: إن الأفعال نوعان: قائم بذات الله، وقائم بغيره. يعني: متعدي إلى الغير، ولازم.

فالاستواء على العرش لا يتعدى إلى الغير، والنزول إلى السماء الدنيا لا يتعدى إلى الغير. أما الخلق فيتعدى إلى الغير؛ فالخلق لا بد فيه من مخلوق، أما النزول فلا بد فيه من نازل فقط؛ إذن يقول ابن القيم: ليس مورد التقسيم أن هذا وصف وهذا فعل، والوصف ثابت أو غير ثابت، بل مورد التقسيم: أن الأفعال نوعان: لازم ومتعدي. يعني: ما لا يتجاوز الذات، وما يتجاوزها إلى غيره.

مسألة: بالنسبة للتقديم والتأخير المعنوي، أما يرجع التقديم والتأخير المعنوي إلى الحسي؟
الجواب: لا، نحن نتكلم عن التقديم والتأخير في الجملة، يقدم الإنسان على غيره في المعنى بالعلم والإيمان والعمل الصالح وغيره، ويُقدَّم أيضًا بالجاه والشرف والسؤدد.

مسألة: نور الجنة؛ قال بعض أهل العلم: إنه في الجنة يكون كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.
الجواب: هكذا قالوا، لكن في هذا نظر، بل الأمر أعظم من ذلك، لكن يمكن أن يحمل كلامهم على أنه ضرب لذلك مثلاً فقد يقول قائل: إذا لم يكن هناك شمس فمن أين النور؟ فقال: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ليس فيه شمس ومع ذلك ففيه نور، يعني: يحمل على هذا.

مسألة: ورد في أشجار الجنة أن لها ظلًّا؟!

الجواب: نعم. هذا يحتمل معنيين:

المعنى الأول: أنه لو كان هناك أشعة فإن ظلها يكون هكذا.

قائم بالذات، وإما وصف فعل لا يقوم بها، وذلك ليتأتى لهم على هذا التقسيم اعتبار بعض الصفات قائماً بالذات، وبعضها غير قائم بها.

ولكن الحق أن مورد القسمة هو نفس ما يقوم بالذات، فيقال إن ما يقوم بالذات ويكون وصفاً لها، إما أن يكون صفة معنى لازم للذات، وإما أن يكون صفة فعل، والوصف بالفعل يستدعي قيام الفعل بالموصوف، كالوصف بالمعنى سواء بسواء، فإذا كان وصفه سبحانه بأنه عليم قد يُرجى إلخ يقتضي قيام العلم والقدر والحياة به، وكذلك وصفه بأنه خالق أو رازق أو مقدم أو مؤخر يقتضي قيام هذه الأفعال من الخلق والرزق والتقديم والتأخير ونحوها به، وهذا ما لا ينبغي أن يشك فيه عاقل، فإن إطلاق المشتق على شيء يؤذن بثبوت مأخذ الاشتقاق به.

والمعنى الثاني: أن النور - وإن لم يكن هناك نورٌ مجسم مستقل - يكون هناك ظل. الآن لو كان هذا الباب مفتوحاً ثم مر به إنسان يكون له ظل أم لا؟ يكون له ظل مع أنه ليس فيه شمس ولا قمر.

مسألة: ما المقصود بـ(لو كشف الحجاب)؟

الجواب: الحجاب هو النور، الله سبحانه وتعالى قد انحجب عن العباد بحجاب عظيم من نور وهو نورٌ مخلوق لله.

مسألة: كيف يحيط هذا النور بالله؟

الجواب: هذه مشكلة، نحن قلنا لكم ونقول ثم نقول: مسائل الغيب لا يمكن أن نقول فيها: كيف؟ ليس فيها إلا التصديق والتسليم.

أما (كيف؟) فهذا ليس إلينا. امنع لسانك عن شيئين: كيف؟ ولما؟

أما بـ(ما) فهذا لا بأس به، إذا قيل لك: اعمل.

تقول: ما أعمل؟ ولا تقول: لما أعمل؟ ولا تقول: كيف أعمل؟

لأن هذا هو حقيقة التسليم، كذلك الأمور الخيرية، وهذا النور العظيم الذي خلقه الله عز وجل يحتجب به عن العباد لا نعلم كيفيته!

فإذا كانت الجنة وهي منازلنا إن شاء الله لا نعلم كيفيتها، كما قال الله تعالى: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(١) وهو معدٌّ لنا إن شاء الله، فكيف نقول في نور خلقه الله عز وجل يحتجب به عن عباده؛ إن هذا شيءٌ فوق تصورنا.

مسألة: هل يصح أن نقول: إنه لو كشف الحجاب عن قلوبنا وأعيننا؟

الجواب: لا، الرسول يقول: «لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ»^(٢).

مسألة: بالنسبة لنا، لو كشف الحجاب الذي في قلوبنا؟

الجواب: ما علاقة الحجاب الذي في قلوبنا بنور الله؟ لا علاقة والمعنى: هذه حجبٌ عظيمة، حجب الله بها الأنوار علينا، حالت بين الرب عز وجل وبين المخلوقات؛ لأنه لو كشف هذه الحجب لاحترقت المخلوقات.

إذا كان الله عز وجل قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ رُبُّهُ لِّلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] انظر! هذا مثل ﴿فَلَمَّا بَلَغَ رُبُّهُ لِّلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] وموسى عليه السلام عجز عن أن

(١) رواه البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) رواه مسلم (١٧٩).

يملك نفسه حتى غشي عيه، والجبل دُكَّ وهذا شيء عظيم.

مسألة: هذا النور حجب الله عن المخلوقات، أو حجب المخلوقات عن الله؟

الجواب: قد حجب الله عن المخلوقات، أما الله عز وجل فلا يخفى عليه شيء، أي: لا يحجب خلقه شيء.

وقوله: (الحق أن الوصف ليس بمورد التقسيم هذا مقتضى البرهان) إنما مورد التقسيم ما قد قام بالذات أو لم يقم.

فالعلة أو التقسيم هو أن الصفات قسمان: صفات قائمة بذات الله لا تتجاوزه، وهي نوعان: معنوية وفعلية، فالعلم والقدرة والسمع والبصر؛ هذه معنوية.

والنزول والاستواء على العرش والإتيان؛ هذه فعلية، فهذا مورد التقسيم.

فَالْوُصْفُ بِالْأَفْعَالِ يَسْتَدْعِي قِيَا مَ الْفِعْلِ بِالْمَوْصُوفِ بِالْبُرْهَانِ
يعني: إذا قيل: فلانٌ فاعل.

ولنمثل ب: ضارب نقول: زيدٌ ضاربٌ عمرًا.

فهنا: ضارب مشتق من الضرب، يستدعي أن زيدًا موصوف بالضرب باعتبار صدوره منه، وعمرًا موصوف به باعتبار وقوعه عليه. هم ينكرون المعنى الأول، يقولون: إن الله لا يقوم به وصف باعتباره صادرًا منه، وإنما يقوم به وصف باعتباره واقعًا على غيره، لا باعتباره صادرًا منه. ولهذا قالوا: فعل الله هو عين مفعوله، وليس هناك فعل صادر من الله، بل هناك مفعولٌ صادرٌ منه.

ورد عليهم ابن القيم، فقال: كيف يمكن أن يكون فعل بدون فاعل؟

ومن هو الموصوف؟ الفاعل.

والوصف بالأفعال؛ يعني: إذا وصف موصوف بفعل؛ فإنه يستدعي قيام الفعل به؛ أي: بالموصوف.

كَالْوُصْفِ بِالْمَعْنَى سِوَى الْأَفْعَالِ إِنَّ بَيْنَ ذَيْنِكَ قَطٌّ مِنْ فُرْقَانِ

يعني: كالوصف بالمعنى الذي ليس بفعل، مثل: الحياة والعلم والقدرة.



* قوله رَحِمَهُ اللهُ:

٣٣٩٩- وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُمْ رَدُّوا عَلَى

مَنْ أَثْبَتَ الْأَسْمَاءَ دُونَ مَعَانَ

٣٤٠٠- قَامَتْ بِمَنْ هِيَ وَضَفَّهُ هَذَا مُحَا

لٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ لِيذِي الْأَذْهَانِ

٣٤٠١- وَأَتَوْا إِلَى الْأَوْصَافِ بِاسْمِ الْعَقْلِ قَا

لُوا لَمْ تَقُمْ بِالْوَاحِدِ الدِّيَانِ

٣٤٠٢- فَانظُرْ إِلَيْهِمْ أَبْطَلُوا الْأَضْلَ الَّذِي

رَدُّوا بِهِ أَقْـ وَاللَّهُمَّ بِـ وَزَانَ

٣٤٠٣- إِنْ كَانَ هَذَا مُمَكِّنًا فَكَذَلِكَ قَو

لُ خُصُومِكُمْ أَيضًا فَذُو إِمْكَانِ

٣٤٠٤- وَالْوَصْفُ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ كَو

نِيٍّ وَدِينِيٍّ هُمَا نَوْعَانِ

٣٤٠٥- وَكِلَاهُمَا أَمْرٌ حَقِيقِيٌّ وَنَسْ

بِيٍّ وَلَا يَخْفَى عَلَى أَوْلِي الْأَذْهَانِ

٣٤٠٦- وَاللَّهُ قَدَّرَ ذَلِكَ أَجْمَعَهُ بِإِخـ

ـ كَامٍ وَإِنْقَانٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ

الشَّحْ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

يقول: من العجائب أن هؤلاء الأشعرية الذين قالوا: يمكن أن يقوم الفعل بغيره، وهو منسوبٌ إليه أنهم ردوا على من أثبت الأسماء دون الصفات التي قامت به سبحانه. وهؤلاء هم المعتزلة. يقول: أنتم شتتتم على المعتزلة، وقلتم كيف تقوم أسماء دلت على صفات ولا موصوف، هذا مستحيل.

قوله: (من العجائب أنهم) يعني: الذين عطلوا صفات الأفعال، وقالوا: إن الفعل هو عين المفعول، وإضافته إلى الله عز وجل نسبية، وليست حقيقية، هؤلاء ردوا على من أثبت الأسماء دون المعاني وهم المعتزلة الذين أثبتوا لله الأسماء دون المعاني، فقالوا: إن الله سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، وقالوا: إن هذه الأسماء أسماء جامدة، كحجر وبقر وجل وشاة، وما أشبهها، لا تدل على معنى.

قَامَتْ بِمَنْ هِيَ وَصْفُهُ هَذَا مُحَا لَ غَيْرُ مَعْقُولٍ لِذِي الْأَذْهَانِ

(قامت) يعني: الصفة الفعلية، على من أثبت الأسماء دون معانٍ (قامت بمن هي وصفه)؛ يعني: دون معانٍ قامت بمن هي وصفه فقوله: (قامت بمن هي وصفه): هذه الجملة صفة لقوله: (معاني)؛ أي: دون معانٍ قامت بمن هي وصفه.

وقوله: (هذا محالٌ غير معقول لذي الأذهان): من الذين يقولون: هذا محالٌ؟ الأشاعرة، فيقولون: محالٌ أن تكون الأسماء دون معانٍ قامت بمن هي وصفه، هذا محالٌ غير معقول لذي الأذهان. وَأَتَوْا إِلَى الْأَوْصَافِ بِاسْمِ الْعَقْلِ لَوْ لَمْ تَقُمْ بِالْوَاحِدِ الدِّيَانِ

هؤلاء الأشاعرة، قالوا: إن صفات الفعل لم تقم بالله، فهو خالق لكن بدون خلق. والمراد بالخلق: نفس المخلوق، كما سبق أنهم يرون أن الفعل عين المفعول. يقول: (وأتوا إلى الأوصاف باسم الفعل) يريد بذلك الصفات الفعلية، اسم الفعل. قالوا: الضمير يعود على الأشاعرة.

فَانظُرْ إِلَيْهِمْ أَبْطَلُوا الْأَصْلَ الَّذِي رَدُّوا بِهِ أَقْوَالَ هُمْ بِـوِزَانِ

هم قالوا للمعتزلة: لا يمكن أن توجد أسماء بدون معانٍ قامت بمن هي وصفه. ثم قالوا: يمكن أن توجد أفعال لم تقم بمن هي وصفه؛ فيكون الفعل عين المفعول. يعني: إن كان ما قلتهم من أنه موصوف بصفات أفعال غير قائمة به؛ فقول خصومكم: أنه متصف بأوصاف لم تقم به، هو أيضا ذو إمكان.

انتهى المؤلف رَحِمَهُ اللهُ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى مَنَاقِشَةِ مَذْهَبِ الْمُعْتَزَلَةِ وَمَذْهَبِ الْأَشَاعِرَةِ. ثم رجع إلى معنى المقدم والمؤخر، فقال:

وَالْوَصْفُ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ كَوْنِيٌّ وَدِينِيٌّ هُمَا نَوْعَانِ

التقديم يكون كونياً مثل سبق الليل النهار، وسبق الحوادث بعضها لبعض. وشرعيٌّ أو دينيٌّ مثل: تقديم العلماء وأهل الإيمان على من سواهم، تقديم المهاجرين على الأنصار، وهكذا.

إذن المقدم والمؤخر متعلقٌ بالأمر الكونية وبالأمر الشرعية الدينية. وَكِلَاهُمَا أَمْرٌ حَقِيقِيٌّ وَنَسْبِيٌّ وَلَا يَخْفَى عَلَى الْأَذْهَانِ

(كلاهما أمرٌ حقيقي)؛ يعني: أن بعض الشيء مقدم على بعض.



(ونسبي) بمعنى: أن المؤخر عن شيء قد يكون سابقاً على غيره.

مثل: واحد، اثنين، ثلاثة؛ اثنين مؤخر عن الواحد، ولكن مقدم على الثلاثة. هذا معنى قوله: حقيقي ونسبي.

و(حقيقي ونسبي) وذلك لأن الأحداث تتوالى وتترى، فكل شيء يحدث يكون قبله شيء وبعده شيء.

وَاللَّهِ قَدَّرَ ذَلِكَ أَجْمَعَهُ بِأَحْسَنِ كَامٍ وَإِتْقَانٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

خلاصة هذا الفصل: الكلام على المقدم والمؤخر.

مسألة: قوله: (وأنتوا إلى الأوصاف باسم الفعل). الأشاعرة ينكرون أسما لأن العقل لا يدل

عليها، فلماذا لا نقول: باسم العقل بدلا من اسم الفعل؟

الجواب: لأنهم كل الصفات غير السبعة ينكرونها؛ لأن العقل لا يدل عليها، ولا نقول: باسم

العقل؛ لأنه يتكلم عن صفات الأفعال، فصفات المعاني يقولون: إنها قائمة بالله، صفات الأفعال غير قائمة بالله.





فصل



- ٣٤٠٧- هَذَا وَمِنْ أَسْمَائِهِ مَا لَيْسَ يَفُ
— رَدُّ بَلِّ يُقَالُ إِذَا أَتَى بِقِرَانِ
٣٤٠٨- وَهِيَ الَّتِي تُدْعَى بِمُزْدَوَجَاتِهَا
إِفْرَادُهَا خَطَرٌ عَلَى الْإِنْسَانِ
٣٤٠٩- إِذْ ذَاكَ مُوْهُمُ نَوْعِ نَقِصٍ جَلَّ رَبُّ
بُ الْعَرْشِ عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ نَقْصَانِ
٣٤١٠- كَالْمَانِعِ الْمُعْطِي وَكَالضَّارِ الَّذِي
هُوَ نَافِعٌ وَكَمَالُهُ الْأَمْرَانِ
٣٤١١- وَنَظِيرُ هَذَا الْقَابِضُ الْمَقْرُونُ بِاسْمِ
الْبَاسِطِ اللَّفْظَانِ مُقْتَرِنَانِ
٣٤١٢- وَكَذَا الْمُعِزُّ مَعَ الْمُذِلِّ وَخَافِضُ
مَعَ رَافِعِ لَفْظَانِ مُزْدَوَجَانِ
٣٤١٣- وَحَدِيثُ إِفْرَادِ اسْمٍ مُنْتَقِمٍ فَمَوْ
قُوفٌ كَمَا قَدْ قَالَ ذُو الْعِرْفَانِ
٣٤١٤- مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ غَيْرَ مُقِيمٍ
بِالْمُجْرِمِينَ وَجَاءَ بِذُو نَوْعَانِ^(١)

(١) [٣٤٠٧: ٣٤١٤] قال العلامة محمد خليل هراس:

سبق أن قلنا أن هذه الأسماء المزدوجة المتقابلة لا يجوز أن يفرد أحدها عن قرينه، فإنها إذا أفردت أوهمت

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

من أسماء الله ما تكون أسماء مزدوجة؛ يعني: لا تقال إلا مقرونة بغيرها؛ لأنها إذا أفردت أوهمت معنى ناقصًا.

هَذَا وَمِنْ أَسْمَائِهِ مَا لَيْسَ يَفُ
وَهِيَ الَّتِي تُدْعَى بِمُزْدَوْجَاتِهَا

رَدُّ بَلْ يَقَالُ إِذَا أَتَى بِقِرَانِ
إِفْرَادُهَا خَطَرٌ عَلَى الْإِنْسَانِ

وإنما كان خطرًا على الإنسان؛ لأنه يوهم نقصًا.

إِذْ ذَلِكَ مُوهِمٌ نَوْعِ نَقْصِ جَلِّ رَبِّ
كَالْمَانِعِ الْمُعْطِيِّ وَكَالضَّارِّ الَّذِي

بُ الْعَرْشِ عَنْ عَيْبٍ وَعَنْ نُقْصَانِ
هُوَ نَافِعٌ وَكَمَالُهُ الْأَمْرَانِ

من أسماء الله على كلام المؤلف: المانع المعطي.

لا يمكن أن تفرد المانع وحدها؛ لأنك إذا أفردت (المانع) وحدها فإن ذلك يوهم نقصًا؛ لأن المانع يُخل وشح، والله عز وجل منزّه عن ذلك، فإذا قرنت المانع بالمعطي، حصل من الجمع بينهما معنى غير الحاصل بإفراء كل منهما؛ وهو تمام التصرف، إنه لكمال تصرفه وسلطانه كان مانعًا معطيًا، ولكن لو أفردت المعطي وحده فالظاهر: أنه لا مانع منه؛ لأن المعطي وحده لا يوهم نقصًا. الذي يوهم هو أن تفرد المانع.

كَالْمَانِعِ الْمُعْطِيِّ وَكَالضَّارِّ الَّذِي
هُوَ نَافِعٌ وَكَمَالُهُ الْأَمْرَانِ

الضار النافع: هذا أيضًا من الأشياء المزدوجة التي لا يقال واحدًا مفردًا عن الآخر.

فلو قلت الضار فقط؛ لأوهم نقصًا، وهو أن الرب عز وجل موصوف بالضرر على الإطلاق، ولكن لو قلت: الضار النافع؛ صار معنى ذلك: أنه الكامل التصرف والسلطان، فهو يضر وينفع.

نقصًا في حقه تعالى عن كل عيب ونقص، بل الكمال في ذكرهما جميعًا، فيقال: يا مُعْطِي يَا مَانِعَ، يَا ضَارَّ يَا نَافِعَ، يَا مُقَدِّمَ يَا مُؤَخَّرَ، يَا مُعْزِيَا مُدِّلَ، يَا خَافِضَ يَا رَافِعَ الخ.

وأما إفراء اسمه (المنتقم) عن قرينه وهو (العفو) فلم يرد إلا في حديث موقوف، ولم يُستعمل في القرآن إلا على نوعين: إما أن يكون مُقَدِّمًا بِالْمَجْرَمِينَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الرَّومِ: ﴿فَأَنْقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ [الروم: ٤٧] وكقوله في سورة الم تنزيل السجدة: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢] وإما أن يكون مضافًا إِلَى ذُو كَقَوْلِهِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤] وكقوله في سورة المائدة: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥].

أما لو قلت: النافع وحده؛ فالظاهر أنه لا بأس به؛ لأن العلة منتفية.

وَنَظِيرُهُ هَذَا الْقَابِضُ الْمَقْرُونُ بِاسْمِ الْبَاسِطِ اللَّفْظَانِ مُقْتَرِنَانِ

(القباض الباسط) لا نقل القباض وحدها، بل قل: القباض الباسط؛ حتى يكون اجتماعها دالاً على كمال تصرفه عز وجل.

لكن لو قلت الباسط وحده؛ فالظاهر: الجواز، وذلك لأنه كمال.

وَكَذَا الْمُعِزُّ مَعَ الْمُذِلِّ وَخَافِضُ مَعَ رَافِعِ لَفْظَانِ مُزْدَوَجَانِ

أيضاً من أوصاف الله أنه المُعِزُّ المُذِلُّ ولا بد من اقتران الاسمين، فلا نقل: المذل فقط، بل اقرنه بالمعز؛ حتى يفيد كمال سلطان الله تعالى وتصرفه في عباده.

لكن لو قلت: المعز؛ فالظاهر أنه لا مانع؛ لأنه لا يوهم نقصاً. وكذلك أيضاً:

(خافض ورافع): نقول: الخافض الرافع، ولا تقول الخافض فقط؛ لأن ذلك يوهم نقصاً، لكن

لو قلت: الرافع، فلا بأس؛ لأن هذا كمال.

وَحَدِيثُ إِفْرَادِ اسْمِ مُنْتَقِمٍ فَمَوْ قُوفٌ كَمَا قَدْ قَالَ ذُو الْعِرْفَانِ

(المنتقم) جاء من أسماء الله، أو مما يُعَدُّ من أسماء الله (المنتقم)، ولكن لا يصح، فهذا موقوف على الصحابة، لكن لو قلت: العفو المنتقم؛ صار من الأسماء المزدوجة؛ لأن العفو يقابل الانتقام.

(ما الذي جاء في المنتقم؟)

مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ غَيْرَ مُقَيَّدٍ بِالْمُجْرِمِينَ وَجَاءَ بِذُو نَوْعَانِ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]؛ فقيّد والمقيد ليس كالمطلق؛ لأن المطلق يفيد اتصاف الله بالصفة على الإطلاق، بخلاف المقيد.

(نوعان) لماذا جاءت بالألف؟

(نوعان) هذه مرفوعة بالألف؛ لأن معنى: (وجاء بذو هما نوعان)؛: أنهما نوعان؛ نوعٌ مقيدٌ بالمجرمين، ونوعٌ مقيد بذو. فقوله: (نوعان) خبر لمبتدأ محذوف، وليست (ذو) مضافة إلى (نوعان)، بل (ذو) منقطعة.

(وجاء بذو) مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]؛

ف(نوعان) هذه خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير، هما نوعان إذا: أفادنا المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أَنْ (المنتقم) لم تأت مفردة إلا في حديث موقوف، والموقوف ليس بحجة، لكن جاءت في القرآن مقيدة بالمجرمين في قوله: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ أو مضافة بذو ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

مسألة: بالنسبة للمقدم والمؤخر. هذا الذي ذكره المؤلف هل هو للحصر؟
الجواب: لا وإنما للتنزيه.

مسألة: أخذنا القاعدة: أن أسماء الله الحسنى كلها بالغة الحسن، والمانع والضار ليست بالغة الحسن؟

الجواب: لا. فالمانع والضار هي حسن من جهة كمال السلطان؛ ولهذا قلت أنفا: إن المقصود ما يحصل بمجموع الصفتين. وهو كمال السلطان والتصرف في العباد. فالمانع المعطي، هذه مزدوجتان، يجب أن تقال الواحدة مع الأخرى. فلا يظهر الكمال إلا باقتران أحدهما بالأخرى.
لكن إذا قلنا: المانع المعطي، وصار المقصود بيان كمال سلطان الله عز وجل وتصرفه في الكون، ظهر المعنى. فالافتران احتراز من الجانب الثاني؛ فالمثل -مثلا، المانع، الخافض، القابض؛ هذه لا تفرد، أما المتضمنة للمعنى الكامل فتفرد ولا بأس.





تفہید بین یدِی الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

أسماء الله كلها حسنى، وكلها تدل على الكمال المطلق والحمد المطلق، وكلها مشتقة من أوصافها، فالوصف فيها لا ينافي العلمية، والعلمية لا تنافي الوصف ودلالاتها ثلاثة أنواع: دلالة مطابقة إذا فسرنا الاسم بجميع مدلوله ودلالة تضمن إذا فسرناه ببعض مدلوله. ودلالة التزام إذا استدللنا به على غيره من الأسماء التي يتوقف هذه الاسم عليها. فمثلاً (الرحمن) دلالاته على الرحمة والذات دلالة مطابقة. وعلى أحدهما دلالة تضمن لأنها داخلية في الضمن، ودلالاته على الأسماء التي لا توجد الرحمة إلا بثبوتها كالحياة والعلم والإرادة والقدرة ونحوها دلالة التزام، وهذه الأخيرة تحتاج إلى قوة فكر وتأمل، ويتفاوت فيها أهل العلم، فالطريق إلى معرفتها أنك إذا فهمت اللفظ وما يدل عليه من المعنى وفهمته فهماً جيداً ففكر فيما يتوقف عليه ولا يتم بدونه، وهذه القاعدة تنفعك في جميع النصوص الشرعية فدالاتها الثلاث كلها حجة لأنها معصومة محكمة.





فصل



- ٣٤١٥- وَدَلَالَةُ الْأَسْمَاءِ أَنْوَاعٌ ثَلَاثَةٌ كُلُّهَا مَعْلُومَةٌ بَيِّنَاتٌ
- ٣٤١٦- دَلَّتْ مُطَابَقَةٌ كَذَلِكَ تَضْمُنًا وَكَذَا التِّرَاثُ مَا وَاضِحَ الْبُرْهَانِ
- ٣٤١٧- أَمَّا مُطَابَقَةُ الدَّلَالَةِ فَهِيَ أَنْ نِ الْإِسْمِ يَفْهَمُ مِنْهُ مَفْهُومَانِ
- ٣٤١٨- ذَاتُ الْإِلَهِ وَذَلِكَ الْوَصْفُ الَّذِي يَشْتَقُّ مِنْهُ الْإِسْمُ بِالْمِيمِزَانِ
- ٣٤١٩- لَكِنْ دَلَالَتُهُ عَلَى إِحْدَاهُمَا بِتَضْمُنٍ فَافْهَمْتُهُ فَهَمَّ بَيِّنَاتٌ
- ٣٤٢٠- وَكَذَا دَلَالَتُهُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي مَا اشْتَقَّ مِنْهَا فَالتِّرَاثُ دَانِ
- ٣٤٢١- وَإِذَا أَرَدْتَ لِذَا مِثَالًا بَيْنًا فَمِثَالُ ذَلِكَ لَفْظَةُ الرَّحْمَنِ
- ٣٤٢٢- ذَاتُ الْإِلَهِ وَرَحْمَةٌ مَذْلُولُهَا فَهَمَّا لِهَذَا اللَّفْظِ مَذْلُولَانِ
- ٣٤٢٣- إِحْدَاهُمَا بَعْضٌ لِذَا الْمُؤْضُوعِ فَهِيَ
- ي تَضْمُنُ دَا وَاضِحُ التَّبْيَانِ

٣٤٢٤- لَكِنَّ وَصَفَ الْحَيِّ لِأَرْزَمِ ذَلِكَ أَلْ

— مَعْنَى لُزُومِ الْعِلْمِ لِلرَّحْمَنِ

٣٤٢٥- فَلِذَا دِلَالَتُهُ عَلَيْهِ بِالتَّزَا

مِ بَيِّنٍ وَالْحَقُّ ذُو بَيِّنَانِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

وَدِلَالَةُ الْأَسْمَاءِ أَنْوَاعٌ ثَلَاثٌ كُلُّهَا مَعْلُومَةٌ بَيِّنَانِ

دلالة الأسماء: يريد دلالة أسماء الله، ولكن هذا الحكم ثابت في جميع دلالات الكلمات والألفاظ،

تجمعها ثلاثة:

دَلَّتْ مُطَابَقَةً كَذَاكَ تَضُمُّنًا وَكَذَا التَّرَامًا وَأَضِخَ الْبُرْهَانَ

يعني: أن الدلالات ثلاث؛ دلالة المطابقة، ودلالة التضمن، ودلالة الالتزام.

فدلالة المطابقة: هي دلالة الاسم على جميع معناه.

والتضمن: دلالة الاسم على بعض معناه.

والالتزام: دلالته على أمرٍ خارج لا يدل عليه اشتقاقه، لكنه لازم.

أما مطابقة الدلالة: فهي أن الاسم يفهم منه مفهومان:

ذات الإله: وأنه اسم من أسماء الله.

ذَاتُ الْإِلَهِ وَذَلِكَ التَّوَصُّفُ الَّذِي يَشْتَقُّ مِنْهُ الْإِسْمُ بِالْمِيزَانِ

وأفاد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: أن أسماء الله مشتقة؛ لقوله: (الذي يشتق منه هذا الاسم بالميزان). وهو

كذلك؛ فإن أسماء الله تعالى مشتقة من معانٍ يتضمنها الاسم، ولا يستثنى من ذلك الشيء، خلافاً لمن

قال من أهل العلم: إن لفظ (الله) غير مشتق، بل إنه مشتق وأم المشتقات في الحقيقة.

فهو مشتق من (الألوهية).

إذن: دلالة الاسم على الذات والوصف جميعاً يسمى دلالة مطابقة.

لَكِنَّ دِلَالَتُهُ عَلَى إِحْدَاهُمَا بِتَضْمُنٍ فَأَفْهَمُهُ فَهَمَّ بَيَانِ

(على إحداهما) أي: الذات، أو الوصف؛ يعني: دلالته على الذات وحدها بقطع النظر عن الوصف، أو على الوصف وحده بقطع النظر عن الذات وهذا يسمى دلالة تضمن.

ووجه التسمية في الأول مطابقة هو أن اللفظ طابق معناه تمامًا.

ووجه الثاني تضمن أن اللفظ متضمن لهذا المعنى، وزائد عليه.

وَكَدًّا دِلَالَتُهُ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي مَا اشْتَقُّ مِنْهَا فَالْتِرَامَ دَانَ

أي: دلالته على الصفة التي لم يُشتق منها، هذا التزام.

وقوله: داني يعني: أن الالتزام يكون قريبًا، ويكون بعيدًا، ويكون وسطًا.

والمؤلف يرى أن الدلالة المؤكدة المتينة هي الالتزام الداني القريب، أما البعيد الذي لا يفهم من اللفظ إلا بكلفة فهذا ينازع في دلالة اللفظ عليه.

المهم: أن دلالة الالتزام هي: أن يدل اللفظ على صفة لم يشتق منها، ولكنها لازمة للمعنى المشتق منه؛ ولهذا سميناها دلالة التزام.

وَإِذَا أَرَدْتَ لِدَا مِثَالًا بَيْنًا فَمِثَالُ ذَلِكَ لَفْظَةُ الرَّحْمَنِ

يعني: إذا أردت أن تضرب مثلاً، فمثال ذلك لفظة الرحمن.

ذَاتُ الْإِلَهِ وَرَحْمَةٌ مَدْلُولُهَا فَهَمَّا لِهُذَا اللَّفْظِ مَدْلُولَانِ

(الرحمن) دلت على ذات وهو (الله)، وعلى صفة وهي (الرحمة). دلالتها عليها جميعًا: مطابقة.

على الرحمة وحدها: تضمن، وعلى الذات وحدها وهو الله عز وجل؟

إِحْدَاهُمَا بَعْضٌ لِدَا الْمَوْضُوعِ فَهِيَ تَضْمُنُ ذَا وَاضِحُ التَّبْيَانِ

إحدى الدالتين بعض لهذا المدلول، ودلالة البعض تسمى دلالة تضمن.

لَكِنَّ وَصْفَ الْحَيِّ لِأَرْزَمِ ذَلِكَ أَلْ مَعْنَى لُرُومِ الْعِلْمِ لِلرَّحْمَنِ

فَلِدَا دِلَالَتُهُ عَلَيْهِ بِالْتِرَامِ بَيْنِ وَالْحَقُّ ذُو تَبْيَانِ

(الرحمن) لا بد أن يكون حيًّا؛ يعني: كونه رحمانًا يستلزم أن يكون حيًّا؛ لأن الميت لا

يرحم، ما به صفة رحمة إذن: إذا قلت: الرحمن؛ دلت على ذات موصوفة بالرحمة، وعلى

رحمة اتصفت بها تلك الذات، وعلى حياة تلك الذات.

إذن دلالتها على الذات وحدها: تضمن، وعلى الرحمة وحدها: تضمن وعليها معًا مطابقة.

وعلى الحياة: بالالتزام، من لازم الرحيم: أن يكون حيًّا.

أيضا: العلم من لازم الرحمة؛ يعني: لا يمكن رحمة بلا علم، إذ أن الرحمة: إيصال الرحمة إلى المرحوم، وهذا لا بد أن يكون عن علم.

فدلالة الرحمن على العلم والحياة دلالة التزام؛ لأن من لازم الرحمة أن من يتصف لا بد أن يكون عالماً وحيًّا.

(الخلاق): نطبقها على القاعدة، فنقول: تدل على ذات الله عز وجل وعلى صفة الخلق، بدلالة المطابقة. وتدل على ذات الله وحدها دلالة تضمن، وعلى صفة الخلق وحدها دلالة تضمن، وتدل على علم الله وقدرته دلالة التزام. قال الله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

يعني: أعلمناكم بأننا خلقنا السماوات والأرض؛ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً؛ لأنه لولا العلم والقدرة ما خلق.

إذن دلالة الخلاق على العلم والقدرة: دلالة التزام؛ لأن (علم) و(قدر): لم تشتق من الخلق.

ولهذا دلالة الالتزام بعيدة عن الاشتقاق أي: ليست اشتقاقاً من اللفظة التي دلت عليها.

إذا قلنا: هذا بيت أو هذه دار. فكلمة دار تدل على البيت وما فيه دلالة مطابقة؛ يعني: تشمل ما يسمونه بالحوش، والغرف، والحجر، والصالة، والمجلس؛ على الجميع بالمطابقة، وتدل على المجلس وحده بالتضمن، وتدل على بان لها بالالتزام؛ لأنه لا بد لهذا البيت من بان.

أما دلالة المطابقة ودلالة التضمن فلا أحد يعجز عنها.

فكل إنسان يدرك أنك إذا قلت: هو السميع؛ أن السميع هو الذات المتصفة بالسمع.

لكن دلالة الالتزام هي التي يختلف فيها العلماء كثيراً؛ لأنها: مبنية على الفهم الصحيح.

والناس في الأفهام يختلفون ويتفاوتون، قد يعرف الإنسان من هذا الدليل عدة مسائل من لازم الدليل.

ويأتي إنسان آخر بليد لا يفهم هذه اللوازم.

فاللوازم يختلف الناس فيها كثيراً؛ ولهذا ربما نجد شخصاً يستنبط من دليل واحد مسائل متعددة

كثيرة، وآخر لا يستطيع أن يستنبط إلا مسألة واحدة أو مسألتين، كل هذا بسبب الفهم، والالتزام الذي يلزم من النص والذي يتفرع عليه.

إذن فكل أسماء الله دالة على أمرين هما:

الذات والصفة التي اشتق منها الاسم، كل الأسماء دالة على هذين الأمرين؛ على الذات، وعلى الصفة التي اشتقت منها الاسم.

أما الالتزام؛ فقد يكون الالتزام متعددًا؛ كالرحمن كما قال المؤلف دل على الحياة والعلم، وقد يكون واحدًا، وقد لا يكون منه أحد شيئًا، فالالتزام ليس واضح لكل أحد، ويختلف الناس فيه اختلافًا كثيرًا، عند المعتزلة: الأسماء لا تدل إلا على الذات فقط، ولا تدل على الصفات؛ لأنهم لا يقولون بأن الله تعالى موصوف بأي اسم، وعلى هذا فقد كسروا إحدى جناحي الدلالة: وهي دلالة التضمن.

يعني: هذه الصفة، ولا شك أن المشتق يدل على ذات وعلى صفة اتصفت بها هذه الذات واشتق منها هذا الاسم.

ومن هنا نعرف أنه ليس من أسماء الله ما هو جامد وذلك من قوله: (ذات الإله وذلك الوصف الذي يشتق منه الاسم).

كل اسم من أسماء الله فهو متضمن للدلالة على الذات وعلى الصفة، فليس شيء من أسماء الله يكون جامدًا أبدًا.

مسألة: دلالة الالتزام هل تكون في كلام المخلوقين؟

الجواب: أي نعم تكون في كلام المخلوقين.

ولكن هل يلزم القائل بهذا اللزام ويُجعل قولاً له؟

(الصحيح: لا. إنه لا يلزم؛ يعني: لا يكون قولاً له وإن كان لازم كلامه، وذلك لأن هذا

القائل الذي لزم من قوله كذا، قد لا يلتزم بهذا اللزام هذا من جهة.

ومن جهة أخرى قد يكون حين الكلام غائبًا عنه، وقد يلتزم بهذا اللزام، ثم يرجع عن قوله.

ولهذا ما يلزم به الجهمية وغيرهم من المعاني الفاسدة المترتبة على أقوالهم، إذا لم يلتزموا فإننا

نقول: هي لازمٌ لكم، لكن قد يلتزمون بها ثم يرجعون عن قولهم، وقد لا يلتزمون بها ويمكن أن

تكون لازم قولهم، ويقول: أنا أقول بكذا، ولكن لا أقول بهذا اللزام، ومن جهة ثالثة أن يكون قد

ذهل عن هذا الثالث وغفل عنه حين قال هذا القول، ولو أنه ذُكر به لرجع، أي: بهذا اللزام الفاسد

لرجع، وهذا أظنه مرّ علينا، هل لازم القول قول أم لا؟

فنقول: أما لازم قول الله ورسوله فهو قول وحق، وأما لازم قول غيرهما فليس بقول للملزم.

مسألة في تلبس العالم على العامة: قد يلبس عالم على بعض العامة بآثار باطلة أو مذاهب فاسدة، وقد يكون هذا العالم قاه، وقد يكون عند العامة ليس أن هذا العالم قاه؟

الجواب: هذا لا يتصف بأنه عالم فكل إنسان يلبس وله كلمة عند العامة، يستطيع أن يلبس، ولهذا تعتبر زلته أعظم زلة، لا سيما العالم الذي يكون عند العامة قوله له وزن.

مسألة: إذن لا نستطيع أن نلزم أحدًا بقول إذا كان هذا اللازم ليس بقوله؟

الجواب: إذا لم يلتزمه ما نلزمه، لكن إذا لم يلتزمه واللزوم واضح يكون مكابرًا.

هؤلاء الذين يقولون أن الله سبحانه وتعالى ليس له من لازم و ذلك أن يكون موصوفًا بأعظم النقص فهو عندهم ذات ليس لها صفات، ماذا نقول؟ هم قد لا يلتزمون بها، فقد يرون أن نفي الصفات كمال.

مسألة: لازم كلام الله ورسوله؛ قلنا: إنه قول، وقد اختلف فيه العلماء فكيف نجعله قولاً؟

الجواب: لا. حتى لو اختلفوا فالاختلاف ضعيف؛ ولهذا ما زال العلماء يستنبطون من كلام الله ورسوله أحكامًا كثيرة، وكلها تكون باللائم.

مسألة: وصف الحي يكون لازم الأسماء؟

الجواب: نعم، كل الأسماء لا تكون إلحِيّ، كل الصفات التي اتصف الله بها لا تكون إلحِيّ. فالأسماء كلها دالة على الحياة.

فكلها دالة على دلالة الالتزام لكن قد تكون واضحة وقد تكون غير واضحة.





تمهيد بين يدي الفصل



قال العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

فصل

في بيان حقيقة الإلحاد في أسماء رب العالمين وذكر أقسام الملحدين

وهذا الفصل في نفي الإلحاد في أسماء الله وصفاته من تمام إثبات صفات الكمال وتفرد الرب بنعوت العظمة والجلال، فعلى العبد المؤمن أن يحققها علمًا وتعبدًا لله بها ونفيًا للإلحاد فيها. وحقيقة الإلحاد فيها هو الميل بها عن الاستقامة إما بإثبات المشاركة فيها لأحد من الخلق، كإلحاد المشركين الذين اشتقوا لألهتهم من صفات الله ما لا يصح إلا لله، كتسميتهم اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان وكل مشرك تعلق بمخلوق اشتق لمعبوده من خصائص الربوبية والإلهية ما برر له عبادته، وأعظم الخلق إلحادًا طائفة الاتحادية الذين من قولهم إن الرب عين المربوب، فكل اسم ممدوح أو مذوموم يطلق على الله عندهم، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا. وإما نفي صفات الله وإثبات أسماء لا حقيقة لها كما فعل الجهمية ومن تفرع عنهم، وإما بجحدها وإنكارها رأسًا إنكارًا لوجود الله كما فعل زنادقة الفلاسفة فهؤلاء الملحدون قد انحرفوا عن الصراط المستقيم ويممو طرق الجحيم.



فصل

في حقيقة بيان الإلحاد
في أسماء رب العالمين
وذكر انقسام الملحدين

٣٤٢٦- أَشْمَاؤُهُ أَوْصَافٌ مَدْحٌ كُلُّهَا

مُشْتَقَّةٌ قَدْ حُمِلَتْ لِمَعَانٍ

٣٤٢٧- إِيَّاكَ وَالْإِلْحَادَ فِيهَا إِنَّهُ

كُفِّرَ مَعَ آذِ اللَّهِ مِنْ كُفْرَانٍ

٣٤٢٨- وَحَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ فِيهَا الْمَيْلُ بِالْ

إِشْرَاكِ وَالتَّعْطِيلِ وَالتَّنْكِيرَانِ

٣٤٢٩- فَالْمُلْحِدُونَ إِذَا ثَلَاثُ طَوَائِفٍ

فَعَلَّيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

٣٤٣٠- الْمُشْرِكُونَ لِأَنَّهُمْ سَمَّوْا بِهَا

أَوْثَانَهُمْ قَالُوا إِلَهَةٌ ثَانٍ

٣٤٣١- هُمْ شَبَّهُوا الْمُخْلُوقَ بِالْخَلْقِ عَكَ

سَ مُشَبَّهِ الْخَلْقِ بِالْإِنْسَانِ^(١)

(١) [٣٤٢٦: ٣٤٣١] قال العلامة محمد خليل هراس:

يعني أن أسماء سبحانه كلها دالة على أوصاف الكمال التي يمدح بها ويثنى عليه بها، وليست أعلامًا خالية من المعاني، كما يزعم ذلك ابن حزم فإنها لو كانت كذلك لم تكن حُسنَى، بل هي أعلام وأوصاف معًا، وإذا كان الاسم محتملاً للمدح وغيره، كالمريد والصانع والفاعل ونحوها لم يدخل بمطلقه في أسماء الله عز وجل، بل لا بد أن يفيد بها يجعله متمحصًا للمدح والثناء، إذ صفاته سبحانه كلها صفات كمال محض، فهو موصوف بأكمل الصفات، وله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمل وأتمه.

٣٤٣٢- وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْإِتِّحَادِ فَإِنَّهُمْ

إِخْوَانُهُمْ مِنْ أَقْرَبِ الْإِخْوَانِ

٣٤٣٣- أَعْطُوا الْوُجُودَ جَمِيعَهُ أَسْمَاءَهُ

إِذْ كَانَ عَيْنَ اللَّهِ ذِي السُّلْطَانِ

٣٤٣٤- وَالْمُشْرِكُونَ أَقْلُ شِرْكًَا مِنْهُمْ

هُمُ خَصَّضُوا ذَا الْإِسْمِ بِالْأَوْثَانِ

٣٤٣٥- وَلِذَلِكَ كَانُوا أَهْلَ شِرْكِ عِنْدَهُمْ

لَوْ عَمَّمُوا مَا كَانَ مِنْ كُفْرَانِ

الشَّرْحُ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

فصل في حقيقة الإلحاد في أسماء رب العالمين، وذكر أسماء الملحدين.

(الإلحاد): مصدر ألحد يلحد، وهو مأخوذ من الميل، ومنه: اللحد في القبر؛ لأنه مائل

إلى جانب منه.

فالإلحاد في أسماء الله: الميل بها عما يجب، هذا هو المعنى العام للإلحاد.

ويشمل كل ما سيذكر.

والواجب في أسائه الحسنى وصفاته العليا أن تثبت على ما جاء به الكتاب والسنة على الوجه اللائق

بجلال الله وعظمته، فلا ينفي منها اسم، ولا ينفي من معانيها صفة ولا تشبه بصفات المخلوقين، فإن

ذلك كله إلحاد في أسائه سبحانه وهو كفر يعوذ بالله منه، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا

الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والملحدون في أسائه سبحانه ثلاث طوائف عليهم غضب الله ومقته.

الأولى من يجعل لله شريكاً في أسائه فيسمى بها بعض المخلوقات، وذلك كتسمية المشركين آلهتهم اللات

من الإله والعزى من العزيز ومناة من المنان.

والثانية من يمثل صفاته سبحانه بصفات المخلوقين فيعتقد أن علمه كعلمهم وقدرته كقدرتهم، وحياته

كحياتهم... إلخ.

والثالثة من ينفي معاني أسائه الحسنى، أو ينفي الأسماء والمعاني جميعاً كما يفعل الجهمية ومن تبعهم من

كل معطل جاحد لصفات الله كلها أو بعضها.

أَسْمَاؤُهُ أَوْصَافٌ مَدْحٌ كُلُّهَا مُشْتَقَّةٌ قَدْ حُمِلَتْ لِمَعَانٍ
إِيَّاكَ وَالْإِلْحَادَ فِيهَا إِنَّهُ كُفِرَ مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ كُفْرَانٍ

قوله: (إياك) يسميها النحويون: مفعولاً لفعل محذوف، على سبيل التحذير، وأصله: أحذرك. هذا الأصل.

لكن حُذِفَ الفعل، ولما حُذِفَ الفعل لزم انفصال الضمير، لأن الضمير المتصل لا يمكن أن يبقى متصلاً بدون عامل، فلما انفصل الضمير بعد حذف الفعل صار بهذا اللفظ: (إياك). (وأما الواو:) فهي العاطفة، لكنها تفيد معنى المعية، يعني: إياك أن تجامع الإلحاد.

إذن أسماء الله عز وجل كلها أوصاف مدح، وأن الله سبحانه وتعالى توعد الملحدين فيها، فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وهذا أمر للتهديد. فقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١]؛ يعني: سأفتك به، وكذلك: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ يعني: اتركوهم لي فأنا أعاقبهم، ولهذا قال: ﴿سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وَحَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ فِيهَا الْمَيْلُ بِالْإِشْرَاكِ وَالْتَعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ

قوله: (حقيقة الإلحاد): أي: الميل بها عما يجب، فالإلحاد مأخوذ من اللحد، وأصله: الحُد الميت في قبر لأنه مائل إلى جانب القبلة كما هو معروف، وقد بين المؤلف أن الميل يكون في ثلاثة أشياء: هي: الإشراك، أو التعطيل، أو النكران.

(أما الإشراك فيها) إما بالتمثيل، أو باستعارة أسمائه للأصنام، أو ما أشبه ذلك. (والتعطيل) بأن يعطّل ما دلّت عليه من الصفات.

(والنكران) أن ينكرها، ويقول: ليس لله أسماء كما هو مذهب الغلاة من الجهمية ونحوهم.

فَالْمُلْحِدُونَ إِذَا ثَلَاثُ طَوَائِفٍ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ الرَّحْمَنِ

قوله: (ثلاث طوائف:)؛ صحيح. لكن لماذا نونها وصرفها وهي مما يمتنع من الصرف؟ ذلك للضرورة؛ كما قال ابن مالك:

وَلَا ضَطْرَادٍ أَوْ تَنَاسُبٍ صَرْفٍ ذُو مَنَعَ وَالْمَضْرُوفُ قَدْ لَا يَنْصَرِفُ

قوله: ثلاث طوائف يحمل على الضرورة.

وقوله: (عليهم غضب من الرحمن): عليهمو غضب؛ لأنهم علموا الحق ولم يتبعوه، وكل من علم الحق ولم يتبعه فهو من أصحاب الغضب؛ وكل من جهل الحق فهو من أصحاب الضلال.

المُشْرِكُونَ لِأَنَّهُمْ سَمَّوْا بِهَا أَوْثَانَهُمْ قَالُوا إِلَهَ ثَانِ
المشركون ملحدون؛ لأنهم سمو أوثانهم بأسماء الله؛ كاللات: من الإله، والعزى: من العزيز، ومناة: من المنان؛ فهذا إلحاد

هُمُ شَبَّهُوا الْمَخْلُوقَ بِالْخَالِقِ سَسَّ مُشَبِّهِ الْخَالِقِ بِالْإِنْسَانِ

قوله: (شبهوا المخلوق بالخالق) لأنهم شبهوا هذه الأصنام بالله، عكس من يشبه الخالق بالمخلوق، فيقول مثلاً: لله يد كيدي، ووجه كوجهي، وعين كعيني، وما أشبه ذلك إذن: هؤلاء مشبهة، لكن اختلف وجه التشبيه؛ فالمشركون شبهوا المخلوق بالخالق، وهؤلاء شبهوا الخالق بالمخلوق.

وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْإِتِّحَادِ فَإِنَّهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ أَقْرَبِ الْإِخْوَانِ

يعني: أن أهل الإتحاد الذين يقولون بوحدة الوجود؛ أي: أن الخالق والمخلوق شيء واحد إخوان هؤلاء المشركين.

أَعْطُوا الْوُجُودَ جَمِيعَهُ أَسْمَاءَهُ إِذْ كَانَ عَيْنَ اللَّهِ ذِي السُّلْطَانِ

أهل الوحدة -أتعوذ بالله منهم- جعلوا أسماء الله للوجود كله؛ لأن الوجود عندهم هو عين الموجد، فالخلق عين الخالق، فإذا كان الخلق عين الخالق كانت أسماء الخالق أسماء للخلق. ولهذا قال:

وَالْمُشْرِكُونَ أَقْلُ شِرْكَاءِ مِنْهُمْ هُمْ خَصَّصُوا ذَا الْإِسْمِ بِالْأَوْثَانِ

فالمشركون. إذا ملحدون؛ لأنهم سمو بعض المخلوقات بأسماء الله. والاتحاديون أشد شركاء؛ لأنهم سمو جميع الوجود بأسماء الله. ووجه ذلك: أنهم جعلوا المخلوق عين الخالق، فإذا كان المخلوق عين الخالق، صارت أسماء الخالق أسماء للمخلوق.

وَلِذَلِكَ كَانُوا أَهْلَ شِرْكِ عِنْدَهُمْ لَوْ عَمَّمُوا مَا كَانَ مِنْ كُفْرَانِ

سبحان الله! المشركون أهل شرك عند أهل الاتحاد، وأهل الاتحاد أهل توحيد. لماذا؛ لأن المشركين أشركوا؛ لأنهم خصوا الله. ففرعون كافر؛ لأنه خصص، لما قال: أنا ربكم، أمّا لو قال:



الكون كله ربكم؛ لكان موحدًا، والمشركون قالوا: اللات ومناة والعزى آلهة، فلو قالوا: كل الموجودات آلهة؛ لصاروا موحدين ولم يكونوا مشركين. أعوذ بالله.
الذي يُخصّص الألوهية بشخص، أو بطائفة، أو ما أشبه ذلك هذا مشرك عند أهل الاتحاد، والذي يقول: كل الكون آلهة؛ هذا موحد.



* قوله رحمه الله:

- ٣٤٣٦- وَالْمَلْحَدُ الثَّانِي فَذُو التَّعْطِيلِ إِذْ
يُنْفِي حَقَائِقَهَا بِإِلَّا بُرْهَانِ
٣٤٣٧- مَا تَمَّ غَيْرُ الْإِسْمِ أَوْلُهُ بِمَا
يُنْفِي الْحَقِيقَةَ نَفِي ذِي الْبُطْلَانِ
٣٤٣٨- فَالْقَصْدُ دَفْعُ النَّصْرِ عَنْ مَعْنَى الْحَقِيقَةِ
سَقَّةٍ فَاجْتَهَدَ فِيهِ بِلُطْفِ بَيَانِ
٣٤٣٩- عَطِلَ وَحَرَفَ ثُمَّ أَوْلَ وَأَنْفَهَا
وَأَقْدَفَ بِتَجْسِيمِ وَبِالْكَفْرَانِ
٣٤٤٠- لِلْمُشَبَّهَاتِ حَقَائِقَ الْأَسْمَاءِ وَالْأَوْصَافِ
بِالْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ
٣٤٤١- فَإِذَا هُمْ اِحْتَجُّوا عَلَيْكَ بِهَا فَقُلْ لَهُمْ
هَذَا مَجَازٌ وَهُوَ وَضِعٌ ثَانٍ
٣٤٤٢- فَإِذَا غُلِبَتْ عَلَى الْمَجَازِ فَقُلْ لَهُمْ
لَا يَسْتَفَادُ حَقِيقَةَ الْإِيقَانِ
٣٤٤٣- أَنْى وَتِلْكَ أَدِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ
عُزِّلَتْ عَنِ الْإِيقَانِ مُنْذُ زَمَانِ

٣٤٤٤- فإذا تظافرت الأدلة كثرة

وعُلبت عن تقرير ذا بيان

٣٤٤٥- فعليك حينئذ بقانون وضع

نأه ليدفع أدلة القزان

٣٤٤٦- ولكل نص ليس يقبل أن يؤو

ول بالمجاز ولا بمعنى ثان

٣٤٤٧- قل عارض المنقول معقول وما ال

أمران عند العقل يتفقان

٣٤٤٨- ماثم إلا واحد من أربع

متفابلات كلها بوزان

٣٤٤٩- إعمال دين وعكسه أو تلغي ال

معقول ما هذا بذي إمكان

٣٤٥٠- العقل أضل الثقل وهو أبوه إن

تبطله يبطل فزعه التحناني

٣٤٥١- فتعين الإعمال للمعقول وال

إلغاء للمنقول بالبزهان

٣٤٥٢- إعماله يفضي إلى الغائه

فأهجزه هجر التزك والتسيان

٣٤٥٣- والله لم نكذب عليهم إننا

وهم لدى الرحمن محتصمان

٣٤٥٤- وهنالك يجزى الملحدون ومن نفى

إلحاد يجزى ثم بالغفران

٣٤٥٥- فَاصْبِرْ قَلِيلًا إِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ

يَا مُثَبِّتَ الْأَوْصَافِ لِلرَّحْمَنِ

٣٤٥٦- فَلَسَوْفَ تَجْنِي أَجْرَ صَبْرِكَ حِينَ يَجُ

سِنِي الْغَيْرِ وَزَرَ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانَ

٣٤٥٧- فَاللَّهُ سَائِلُنَا وَسَائِلُهُمْ عَنِ الْ

إِثْبَاتِ وَالتَّعْطِيلِ بَعْدَ زَمَانٍ

٣٤٥٨- فَأَعِدْ حِينَئِذٍ جَوَابًا كَافِيًا

عِنْدَ السُّؤَالِ يَكُونُ ذَا تَبْيَانٍ^(١)

الشَّحْ

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

القسم الثاني من الملحدين يقول عنه المؤلف:

وَالْمُلْحِدُ الثَّانِي فَذُو التَّعْطِيلِ إِذْ يَنْفِي حَقَائِقَهَا بِأَبْرَاهَانَ

أي: أن المعطل ملحد؛ لأنه مال بالألفاظ عما يجب لها عن حقائقها؛ لأنه ينفي الحقائق، فمثلاً يقول: (استوى على العرش)؛ يعني: استولى. هذا تعطيل للاستواء الحقيقي وإلحاد في دلالة النصوص.

مَا تَمَّ غَيْرُ الْإِسْمِ أَوْلَهُ بِمَا يَنْفِي الْحَقِيقَةَ نَفْيِ ذِي بَطْلَانٍ

قوله: «ما تم غير الاسم» يعني: ما فيه إلا الاسم فقط فأوله بكل ما ينفي الحقيقة، واختر ما شئت من المعاني.

(١) [٣٤٥٨: ٣٤٥٣] قال العلامة محمد خليل هراس:

ويذكر المصنف أن الفريقين من أهل الإثبات والتعطيل سيختصمان يوم القيامة بين يدي الملك الجليل، وهناك يلقي الملحدون المعطلون جزاء هذا الإلحاد والتعطيل وأما المثبتة للصفات النافون عنها تشغيب أهل التعطيل والإلحاد فسيجزئهم ربهم بمغفرة لذنوبهم، فما عليك أيها المثبت للصفات إلا أن تعصم بالصبر، فإنها هي ساعة تعيشها في هذه الدنيا، ثم ينقضي العمر حتى إذا لقيت ربك وفاك أجر صبرك مغفرة منه ورضواناً، على حين يجيء غيرك من أهل الزور والبهتان جزاء ما قدموا لأنفسهم من إثم وعدوان. واعلم أن الله سائلك عن إثباتك، كما هو سائلهم عن تعطيلهم، فأعد لذلك السؤال جواباً كافياً يكون ذا وضوح وتبيان تنجو به من النيران وتنال به المغفرة والرضوان.

المهم ألا تحمله على الحقيقة، وهذا من أظلم الظلم؛ إذ ينفون الحقيقة التي هي ظاهر اللفظ، ويقولون: أثبت ما شئت من المعاني الأخرى.

هذا لا شك أنه ظلم، وجور، وإلحاد.

فَالْقَصْدُ دَفْعُ النَّصِّ عَنْ مَعْنَى

قَةٍ فَاجْتِهَدُ فِيهِ بِلَفْظِ بَيَانِ

بئس القصد هذا؛ يعني: أن مقصودهم بسلوك هذه الطريق دفع النص عن معناه الحقيقي. (فاجتهد فيه بلفظ بيان) اجتهد فيه؛ أي: في دفع النص عن معناه الحقيقي بكل لفظ يكون

ذا بيان وسحر.

عَطَّلَ وَحَرَّفَ ثُمَّ أَوَّلَ وَانْفَهَا

وَاقْدَفَ بِتَجْسِيمِ وَبِالْكَفْرَانِ

(عطل) يعني: عطل الله عز وجل من صفاته.

(وحرّف) حرف النص عن معناه الحقيقي.

(وأوّل) ائت له بمعنى مؤول خلاف الظاهر.

(وانفها) أي: انف الحقيقة.

لِلْمُشْتَبِهَاتِ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَالْ

أَوْصَافِ بِالْأَخْبَارِ وَالْقُرْآنِ

(اقدف) يعني: ارم والمعنى: ارم بالتجسيم والكفر للمشتبهات حقائق الأوصاف التي أثبتوها

بالأخبار والقرآن. فجنوا على النصوص أو على مثبت النصوص فقالوا: للمشتبهات إنهم مجسمة،

وقالوا: إنهم مثلة، وقالوا: إنهم كفار، ورموهم بكل سب وشتم؛ لأنهم أثبتوا الحقائق. بأي شيء؛

بالأخبار الثابتة عن الرسول ﷺ والقرآن.

فَإِذَا هُمْ اِحْتَجُّوا عَلَيْكَ فَقُلْ لَهُمْ

هَذَا مَجَازٌ وَهُوَ وَضِعٌ ثَانٍ

يعني: إذا احتجوا عليك بظاهر اللفظ، وقالوا: هذا ظاهر اللفظ، استوى، يعني: علا على

العرش. فقل: هذا مجاز، والمجاز كما عرفه أهل البلاغة: استعمال اللفظ بوضع ثانٍ: أي في غير ما

وضع له أولاً، لعلاقة بقرينة تمنع من المعنى الحقيقي.

مثلاً: (أسد) وضع أولاً للحيوان المفترس، ثم وضع ثانيًا للرجل الشجاع.

فَإِذَا غَلِبَتْ عَلَى الْمَجَازِ فَقُلْ لَهُمْ

لَا يَسْتَفَادُ حَقِيقَةَ الْإِيقَانِ

وقوله: (فإذا غلبت عن المجاز) يعني: بحيث تعذرت القرينة الدالة على المجاز.

وقوله: (فقل لهم لا يستفاد حقيقة الإيقان) يعني: أن هذا اللفظ لا يفيد الحقيقة اليقينية. لماذا؟ قال:

أَنْى وَتَلْكَ أَدْلَةٌ لَفْظِيَّةٌ عَزَلْتُ عَنِ الْإِيقَانِ مُنْذُ زَمَانٍ

يقولون: إن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين؛ إما من حيث الثبوت، وإما من حيث الدلالة. ولهذا أخذوا بالقانون الفاسد الباطل أن: (الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين؛ إما من حيث الثبوت، وإما من حيث الدلالة).

إما من حيث الثبوت؛ يعني: يكون الذين نقلوها أفراداً؛ ولهذا عندهم لا يقبل خبر الأحاد في إثبات العقائد؛ لأن العقائد يطلب فيها اليقين، وخبر الأحاد لا يفيد اليقين؛ إذن خبر الأحاد ظني - على زعمهم - إذن لا تقبله، يقولون: هذا خبر آحاد ما قبله وذلك إذا عجزوا عن إثبات المجاز. فإذا كان الخبر ثابتاً يقيناً كالقرآن الكريم والمتواتر من السنة؛ فقل لهم: هو ظني الدلالة؛ يعني: أن دلالة على المعنى ليست يقينية؛ إذ ما من لفظ إلا ويحتمل معنى؛ إما بعيداً، وإما قريباً. أي معنى غير ظاهر.

لا أقول هذا مقررّاً أعدتهم، وإلا فإننا لا نسلم لهم هذا كله، فنقول: أما ما ادعيتم أن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين إما في الثبوت أو في الدلالة فهذا كذب، بل هي تفيد اليقين في الثبوت، وتفيد اليقين في الدلالة، فإن الألفاظ دلالتها على معناها تكون قطعية في بعض الأحيان، ما تحتمل معنى آخر؛ ولهذا قال أهل الأصول: إن النص يكون صريحاً ويكون ظاهراً؛ يعني: يكون صريحاً لا يحتمل إلا معنى واحداً، وهذا دلالة يقينية، وإما دلالة ظاهره تحتمل معاني أخرى باطنة.

فزعكم: أن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين؛ لأنها إما ظنية في ثبوتها، أو ظنية في دلالتها؛ هذا كذب ويا سبحان الله العظيم! أنتم لو جاء أحدٌ من أئمتكم وتكلم بكلام، أو أَلَفَ كتاباً، أَلَسْتُمْ تقولون: إن دلالة اللفظ على المعنى الذي أراده هذا الكاتب أو هذا المؤلف يقينية؟

سيقولون: بلى يقينية ويجادلون، وإذا أحدٌ حَرَفَ كلامه، قال: هذا خلاف ظاهر كلام سيدنا، لا يمكن، فكيف بكلام الله رب العالمين، وكلام رسوله ﷺ الأمين.

ولهذا يقولون: (أنى وتلك أدلة لفظية) من حيث الثبوت ومن حيث الدلالة، (عزلت عن الإيقان).

فَإِذَا تَضَافَرَتِ الْأَدْلَةُ كَثْرَةً وَعُغِبَتْ عَنْ تَقْرِيرِ ذَا بَيَانٍ

يعني: إذا كان لا يمكن دعوى الظنية لا في ثبوتها ولا في دلالتها، فماذا نقول؟ قال:



فَعَلَيْكَ حَيْثُ دَبَقَانُونَ وَضَعْنَا لِدَفْعِ أَدْلَةِ الْقُرْآنِ
وَلِكُلِّ نَصِّ لَيْسَ يَقْبَلُ أَنْ يَرُودَ وَلَا بِالْمَجَازِ وَلَا بِمَعْنَى ثَانِي

يعني: إذا لم يمكنك الطعن في الدلالة، أو في المدلول؛ أي: الطعن في المدلول من حيث ثبوته، والطعن في الدلالة من حيث النصيَّة، فعليك بالقانون الذي وضعناه، لدفع أدلة القرآن. يعني: لندفع به أدلة القرآن، وندفع به أيضًا كل نص لا يقبل التأويل بالمجاز

قوله: (ولا بمعنى ثاني) ما هذا القانون؟

قُلْ عَارِضُ الْمُنْقُولِ مَعْقُولٌ وَمَا أَمْرَانِ عِنْدَ الْعَقْلِ يَتَفَقَّانِ

قوله: (المنقول) مفعول مقدم. والـ(معقول) فاعل مؤخر، قل عارض المنقول معقول؛ يعني: عارض الأدلة النقلية أدلة عقلية.

وقوله: (ما الأمران عند الغفل يتفقان) بل بينهما اختلاف، ثم ذكر المؤلف الأحوال الأربعة، قال:

مَا تَمَّ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ أَرْبَعٍ مُتَقَابِلَاتٍ كُلُّهَا بِوِزَانٍ
إِعْمَالٌ ذَيْنَ وَعَكْسُهُ أَوْ تُلْغِي أَلْ مَعْقُولٌ مَا هَذَا بِذِي إِمْكَانٍ

يعني: إما أن نعمل الأمرين جميعًا، وما هما؟ الدليل العقلي والدليل النقل، أو عكسه إهماها جميعًا، فلا نأخذ بدليل عقلي ولا بدليل نقل، أو نلغي المعقول، ونأخذ بالدليل النقل، ونلغي الدليل العقلي.

قوله: (ما هذا بذِي إمكان)؛ يعني: ما يمكن أن نلغي المعقول؛ إذن: نلغي المنقول؛ فإذا لم يتعارضوا أعملناهما جميعًا، وإذا تعارضا: إما أن نعملهما جميعًا، أو نهملهما جميعًا، أو نعمل المعقول وندع المنقول أو نعمل المنقول وندع المعقول. وهذه أربع حالات.

أمَّا إعمال المنقول وإهمال المعقول؛ تجدهم يقولون: إن هذا غير ممكن.

الْعَقْلُ أَضْلُ النَّقْلِ وَهُوَ أَبُوهُ إِنَّ تَبْطُلُهُ يَبْطُلُ فَرْعُهُ التَّحْتَانِي
فَتَعَيْنَ الإِعْمَالِ لِلْمَعْقُولِ وَالْ إِنْغَاءِ لِلْمُنْقُولِ بِالْبُزْهَانِ

يقول: العلة أننا لا نلغي المعقول، بل نلغي المنقول؛ لأن العقل أصل النقل.

وقوله: (وهو ابوه إن بطله يبطل الفرع) أي: إن أبطلت العقل الذي هو أصل النقل بطل الفرع

وهكذا يدعون.

إذا كان الأمر هكذا: (فتعين الإعمال للمعقول والإلغاء للمنقول بالبرهان) ولكن نجيب على هذا (أولاً) بأن إعمال العقل في باب السمعيات مخالف للعقل، ووجه ذلك: أن الأمور السمعية تعتمد على مجرد الخبر، والخبر في الأمور الغيبية التي ليس فيها نظير يجب فيه: التلقي من الخبر المحض، والذي لا مجال للعقل فيه. فإذا أعملنا العقل في مخبر ذلك الخبر كان ذلك مخالفاً للعقل؛ لأن هذا خبر محض لا يدخله القياس حتى نقول: إننا لا نعمل العقل فيه، فالعقل إذن في هذا هو تحكيم النقل؛ لأن هذا خبر محض عن شيء غائب لا نظير له، فمقتضى العقل الصريح: أن نُحَكِّمَ النقل فقط.

ثانياً: نجد أن هذا الكلام متناقض؛ لأن أصحاب العقول الذين يرون أنهم يحكمون العقل متناقضين، فأحياناً تجد أحدهم يقول: هذا العقل يمنع هذه الصفة.

والثاني يقول: العقل يوجبها.

والثالث يقول: العقل يجوزها.

بل إن الواحد من هؤلاء المتكلمين يتناقض في نفسه فتجده يؤلف كتاباً يثبت فيه ما يثبت من الصفات ويقول: إن العقل يدل عليهما، ثم يؤلف كتاباً آخر ينقضه.

ثالثاً: أن الرجوع إلى العقل يستلزم القول على الله بلا علم نفيًا وإثباتًا، فتجد الذي يحكم عقله في باب الصفات يقول: هذه الصفة ممنوعة؛ لأن العقل يمنعها، فينفي عن الله ما أثبتته الله لنفسه، ويكون هذا قولاً على الله بلا علم، أو يثبت صفة لم يثبتها الله لنفسه، فيكون قائلًا على الله بلا علم.

رابعاً: أن الرجوع إلى العقل في باب الصفات مخالف لما كان عليه النبي ﷺ فهو بدعة، وقد قال النبي ﷺ: «كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»^(١). فتبين الآن أنهم مخطئون.

خامساً: دعواهم أن العقل أصل النقل في هذا الباب فهذا خطأ وليس بصحيح، بل الأصل في هذا الباب: النقل، والعقل تابع له، فهذا هو الأصل في باب صفات الله.

فقولهم: أن الأصل هو العقل خطأ؛ لأن صفات الله تعتمد على النقل المحض والخبر المحض ولا مجال فيها للعقل.

إِعْمَالُهُ يَفْضِي إِلَى الْغَائِثِ فَاهْجُرْهُ هَجَرَ التُّرْكِ وَالنِّسْيَانِ

أي: أن إعمال النقل وتقديمه على العقل يفضي إلى إهماله، وإلغائه، فاهجره.

قوله: (إلى الغائه) أي: إلى إلغاء العقل. يعني: لو أننا أعملنا النقل عند التعارض مع العقل؛ لزم

من إعمال النقل إلغاء العقل؛ لذا فيقول:
(فاهجره هجر الترك والنسيان).

وقوله: (اهجر) أي النقل؛ فيكون معنى (اهجره هجر الترك والنسيان)، أي اتركه وتناسه كأنه لم يكن، والعياذ بالله.

وأنا أعجب لهؤلاء القوم الذين يقولون: إنا ندفع العقل، ولكن هل يرضى أحدٌ منهم أن يصفه بصفات ليست فيه، أو ينكر من صفاته ما هو فيه؟ لا بطبيعة حالهم، إذ لو أتى إنسان يصف هذا العاقل -الذي يدعي أنه عاقل- بما ليس فيه، أو ينكر الصفات التي هي فيه والتي يتصف بها، لتراه ما يرضى بذلك فإذا كان لا يرضى بذلك فكيف يرضى بهذا لرب العالمين أي: فكيف يصف الله بما لم يصف به نفسه، أو ينكر ما وصف الله به نفسه؟

هذه جرأة عظيمة، حيث أنك إذا كنت لا ترضاها لنفسك، فكيف ترضى بهذا لربك، ولكن والعياذ بالله نحن نقول بصريح القول: إنهم ليسوا عقلاء ولكنهم أهل أهواء. وقد قال جلا جلاله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠] وهذه حقيقة حالهم أنهم ذوو أهواء فما موقفنا نحن وقد من الله علينا والله الحمد بعقيدة سليمة؟ موقفنا يدور على أمرين: أولاً: الثبات على ما نحن عليه، لأننا على حق. والثاني: تفنيد ما هم عليه، لأنهم على باطل، وحينئذ لا بد أن نعرف من أدلتهم ما نستطيع أن نرميهم به، لأن رمي الإنسان بسهمه الذي صنعه بيده خيرٌ من رميه بسهم آخر جديد. وأظن أن الجدل يعرف أن كل واحد من هؤلاء معطلة ينكر على الآخر، سبحانه الله ما يكون هذا القانون الذي أنكر به على الآخر قانوناً للرد عليه هو، وقد سبق في كلام ابن القيم قريباً مثل هذه المسألة في تعطيل الله تعالى عن وصف الأفعال، وتفنيدهم على المعتزلة في إثبات الأسماء بدون أوصاف. وقلنا: إن القانون الذي ردوا به على المعتزلة هو قانون يردون به على أنفسهم.

وَاللَّهِ لَمْ نَكْذِبْ عَلَيْهِمْ إِنَّنَا وَهُمْ لَدَى الرَّحْمَنِ مُخْتَصِمَانِ

وقد أقسم ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عَلَى أَنَّهُ مَا كَذَبَ عَلَى هَؤُلَاءِ، لَأَنَّهُمْ يَتَوَاصُونَ بِهَا ذَكَرْنَا، لَأَنَّ الْمَسْأَلَةَ مجازي فإن لم يمكن فإن هذه أدلة ظنية لا تفيد اليقين فإن لم يمكن كذلك: فقدم فهات القانون الذي وضعناه وهو تقديم العقل على النقل إذا فالمراتب ثلاث.

مسألة: ألا يمكن الرد عليهم بأنه لو كان العقل دليلاً فما الحاجة إذن لإرسال الرسل؟

الجواب: بلى، لو كان العقل دليلاً فلا حاجة إذن لإرسال الرسل إذ أن العقل يلغي النقل إذا تعارض معه.

وَهُنَاكَ يَجْزَى الْمُلْحِدُونَ وَمَنْ
إِلْحَادَ يَجْزَى ثُمَّ بِالْغُفْرَانِ
فكأنه يقول: فاصبر قليلاً يا مثبت الأوصاف للرحمن إنما هي ساعة.

فَلَسَوْفَ تَجْنِي أَجْرَ صَبْرِكَ حِينَ
خَبِي الْعَيْبُ وَزُرَّ الْإِثْمُ وَالْعُدْوَانِ
فَاللَّهُ سَائِلُنَا وَسَائِلُهُمْ عَنِ الْ
إِثْبَاتِ وَالْتَّعْطِيلِ بَعْدَ زَمَانِ
فَأَعِدَّ حِينَئِذٍ جَوَابًا كَافِيًا
عِنْدَ السُّؤَالِ يَكُونُ ذَا تَبْيَانِ

يعني: ما جواب هؤلاء إذا قال الله لهم يوم القيامة لقد قلت في كتابي: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ
أَسْتَوَى﴾ [طه: ٥] وقلتم أنتم: لا استواء ولكن استيلاء؟
وكذا قلتم حين قلت: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] قلتم: لا يدان، ولكنها نعمتان، أو قدرتان،
أو ما أشبه ذلك.

إذا قلت: لقد قلت في كتابي: ﴿تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وقلتم: لا عين. فما جوابهم على هذا.
نسأل الله العافية.

فليس لهم جواب رغم أنهم قد أوتوا جدلاً في الدنيا، لكن لا يمكن أن يؤتوا جدلاً في الآخرة،
ثم إن جدلهم في الدنيا أيضاً لا يفيد، إنما يلتبس على العميان، أما ذوو البصائر فإن جدلهم هذا لا
يفيدهم، بل هو خزيٌّ لهم والعياذ بالله، كما حصل - والله الحمد - من أئمة الهدى في الرد على هؤلاء
المعطلة من الجهمية والمعتزلة وغيرهم.

فالحاصل: أن ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أوصانا - جزاه الله خيراً - بوصية نافعة، ليست في نصوص
الصفات فقط، بل حتى في الأمور العملية.

فَأَعِدَّ حِينَئِذٍ جَوَابًا كَافِيًا
عِنْدَ السُّؤَالِ يَكُونُ ذَا تَبْيَانِ

قال الله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾
[الزُّخْرُفُ: ٤٤].

أي: أنت وقومك تسألون عما ورد في القرآن هل قمتم بحقه؟ هل بلغتموه الأمام؟ هل
جاهدتم به الكافرين؟ إلى آخره.

فالحقيقة أن الأمر شديد والمسئولية شديدة، ولا تحتاج إلا إلى العزيمة الصادقة، والاستعانة بالله عز وجل.



* قوله رَحِمَهُ:

٣٤٥٩- هَذَا وَثَالِثُهُمْ فَنَافِيهَا وَنَا

فِي مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ بِالْبُهْتَانِ

٣٤٦٠- ذَا جَا حِدُ الرَّحْمَنِ رَأْسًا لَمْ يَقْرَ

رَ بِخَالِيقِ أَبَدًا وَلَا رَحْمَنِ

٣٤٦١- هَذَا هُوَ الْإِلْحَادُ فَاحْذَرُهُ لَعَلَّ

لَ اللَّهُ أَنْ يَنْجِيكَ مِنْ نِيرَانِ

٣٤٦٢- وَتَفُوزَ بِالرُّلْفَى لَدَيْهِ وَجَنَّةِ الْ

مَأْوَى مَعَ الْعُقْرَانِ وَالرِّضْوَانِ

٣٤٦٣- لَا تُوحِشَنَّكَ غُرَبَةٌ بَيْنَ الْوَرَى

فَالنَّاسُ كَالْأَمْوَاتِ فِي الْحُسْبَانِ

٣٤٦٤- أَوْ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ الْ

غُرَبَاءُ حَقًّا عِنْدَ كُلِّ زَمَانِ

٣٤٦٥- قُلْ لِي مَتَى سَلِمَ الرَّسُولُ وَصَحْبُهُ

وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ عَلَى الْإِحْسَانِ

٣٤٦٦- مِنْ جَاهِلٍ وَمُعَانِدٍ وَمُنَافِقٍ

وَمُحَارِبٍ بِالْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ

٣٤٦٧- وَتَظُنُّ أَنَّكَ وَارِثٌ لَهُمْ وَمَا

ذُقْتَ الْأَذَى فِي نُضْرَةِ الرَّحْمَنِ

٣٤٦٨- كَلًّا وَلَا جَاهَدْتَ حَقَّ جِهَادِهِ

فِي اللَّهِ لَا يَبِيدُ وَلَا يَبْلِسَانِ

٣٤٦٩- مَتَّكَ وَاللَّهُ الْمُحَالُ النَّفْسُ فَاسِدٌ

تَتَحَدَّثُ سِوَى ذَا الرَّأْيِ وَالْحُسْبَانِ

٣٤٧٠- لَوْ كُنْتَ وَارِثُهُ لِأَذَاكَ الْأَلَى

وَرِثُوا عِدَاهُ بِسَائِرِ الْأَلْوَانِ^(١)

الشَّرح

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

قوله: (وثالثهم) أي: ثالث الملحدين.

وقوله: (فما فيها ولا فيما تدل عليه بالبهتان) أي: أن هذا الثالث من الملحدين نفى الصفات وآياتها وما تدل عليه.

ذَا جَا حِدَ الرَّحْمَنِ رَأْسًا لَمْ يَقْرَ رَ بَخَالِقٍ أَبَدًا وَلَا رَحْمَنِ

قوله: (لم يقرَّ بخالق أبدًا) هذا هو الذي يسمى ملحدًا في عُرف الناس اليوم؛ فإذا قيل: فلان ملحد - عند الناس اليوم - فالفهوم عندهم أنه مُنكِرٌ لله، مع أن الملحد أعم من المنكر لله عز وجل. لأن المنكر لله واحدٌ من الملحدين، فالإنكار نوع من أنواع الإلحاد لله عز وجل.

هَذَا هُوَ الْإِلْحَادُ فَاحْذَرَهُ لَعَلَّ لَ اللَّهُ أَنْ يَنْجِيكَ مِنْ نِيرَانِ

وَتَفُوزَ بِالرُّلْفَى لَدَيْهِ وَجَنَّةِ الْ مَأْوَى مَعَ الْعُقْرَانِ وَالرِّضْوَانِ

(١) [٣٤٦٥: ٣٤٧٠] قال العلامة محمد خليل هراس:

ثم يُسائل إخوانه من أهل السنة الذين يضيقون ذرعًا بما يلقون من أذى أعدائهم فيقول: متى سلم الرسول ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان من أهل الجهل والعناد والنفاق حتى تطمعوا أنتم في السلامة منهم، وكيف تطمعون أن تكونوا وراثًا لهم دون أن تذوقوا ما ذاقوه من الأذى في نصرة الرحمن وأن تجاهدوا في سبيله حق الجهاد باليد واللسان، فهذه أمانى كواذب تخدعكم بها أنفسكم، فاستحدثوا لكم رأيًا غير هذا، واعلموا أن هذه الوراثة الكريمة لهؤلاء الأخيار لا تكون إلا لمن وطن النفس على احتمال كل ما يلقاه من أذى هؤلاء المجرمين الأشرار.

قوله: (وتفوز بالزلفى وجنة المأوى) أي: إذا سلّمت من الإلحاد في أسماء الله وآياته حصل لك الفوز بالزلفى وجنة المأوى .

لَا تُوحِشُكَ غُرْبَةُ بَيْنِ الْوَرَى فَالْنَّاسُ كَالْأَمْوَاتِ فِي الْحُسْبَانِ

قوله: (لا توحشك غربة بين الورى)؛ أي: لا تتوحش إذا كنت غريباً بين الناس، فإذا كان الناس فساقاً وكنت مطيعاً فأنت غريب، وإذا كان الناس معطلة وأنت مثبت كنت غريباً، فلا تستوحش من هذا؛ لأن أمامك أنساً لا وحشة بعده، لكن إذا أنست مع الناس في مخالفة الشرع فهذا أنس بعده وحشة طويلة، والوحشة الموجودة الآن بين الغرباء ستزول، وما هي إلا ساعة كما قال رَحِمَهُ اللهُ، فاصبر إنها هي ساعة ثم تنقضي. وهذه وصية منه رَحِمَهُ اللهُ وجزاه الله عنا خيراً.

لكن الشأن كل الشأن في الأنس بعد هذه الوحشة؛ ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: (فالناس كالأموات في الحسبان)، فيكون معنى البيت: الناس أموات في أثواب أحياء، أو أن الناس أموات؛ يعني: حسابهم حساب موتى، لأنهم موتى قلوب لا يفهمون ولا يعوون.

أَوْ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَهْلَ السَّنَةِ أَلْ غُرْبَاءُ حَقًّا عِنْدَ كُلِّ زَمَانٍ

قوله: (الغرباء حقاً عند كل زمان) أي: أن أهل السنة غرباء غربة حقيقية في كل زمان.

قُلْ لِي مَتَى سَلِمَ الرَّسُولُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ عَلَى الْإِحْسَانِ

قوله: (متى سلّم) أي: هل سلم الرسول وأصحابه والتابعون لهم من هذا، ولا شك أن الجواب: أنهم ما سلموا.

مِنْ جَاهِلٍ وَمُعَانِدٍ وَمُنَافِقٍ وَمُحَارِبٍ بِالْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ

هذه أربعة أصناف:

الأول: جاهل لا يعلم، فهو أمّي يؤذي أهل الحق ويرد قولهم.

والثاني: معاند عنده شيء من الحق، أو العلم، ولكنه متعصب معاند له.

والثالث: منافق وهو أشرهم، لأنه.

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً وَيَرَوُّعُ مِنْكَ كَمَا يَرَوُّعُ الثَّعْلَبُ

وعندما يلقاك يحلف أنه بك واثق، فإذا توارى عنك فإذا هو كالعقرب؛ لأنه المنافق وهو

البلاء، فإذا كلمته قال: هذا هو الحق، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن



هدانا الله. لكن ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

والرابع: المحارب هذا أيضًا من البلاء، والمحارب، هو من عرّض رقبتَه للسيف من أجل أن يقيم ما هو عليه من الباطل ولم يبالٍ من يحارب.

فالسؤال الآن: هل سلم الرسول والصحابة من هذه الأصناف الأربعة؟

الجواب: لا، لم يسلموا.

وَتَظُنُّ أَنَّكَ وَارِثٌ لَهُمْ وَمَا دُفَّتِ الْأَذَىٰ فِي نُصْرَةِ الرَّحْمَنِ

أي: هل تظن أنك وارث الرسول عليه الصلاة والسلام ولم تذق الذي ذاق؟

فإن كنت تظن ذلك فقد خاب ظنك؛ لأن الإرث يقتضي تلقي كل شيء مما تركه الموروث من الدعوة، والعمل، والصبر على الأذى، وإرخاص الدنيا كلها من أجل تحقيق لهذه الدعوة. وهذا الإرث، فهل تظن أنك وارث لهم وما ذقت الأذى في نصرة الرحمن، إن كان ظنك هكذا فقد خاب ظنك.

كَلَّا وَلَا جَاهِدْتَ حَقَّ جِهَادِهِ فِي اللَّهِ لَا يَبِيدُ وَلَا يَلْسَانِ

قوله: (لا يبد) أي: لا جاهدت بيد. فهل بعد هذا تريد أن تكون وارثًا للرسول ﷺ؟

لا إن كنت تريد هذا، أو تظن أنك وارثه فقد خاب ظنك.

مَتَّكَ وَاللَّهُ الْمُحَالُ التَّفُؤْسُ فَاسِدٌ سَتَحَدِثُ سِوَىٰ ذَا الرَّأْيِ

وهذا كما قال ﷺ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ»^(١).

فأنت إذا كانت تمنيك نفسك أن تصل إلى درجة النبيين، وأن تكون وارث النبيين، وأنت لم تقم بما قام به النبيون من الدعوة والصبر على الأذى فيها فإن نفسك تمنيك المحال وتمنيك شيئًا مستحيلًا، وأنت إذا نظرت إلى الذين قاموا بالدعوة إلى الله وجدتهم أشد الناس أذية، - أي: يؤذون أكثر من غيرهم -.

والأمثلة كثيرة على ذلك منها: الإمام أحمد، إمام أهل السنة يُجر بالبغلة في السوق، ويضرب بالسياط حتى يُغمى عليه، وهو صابر، على كلمته ثابت عليها.

وكذا شيخ الإسلام يطاف به على العربة في السوق ويزج في السجن، ويمنع عنه الورق والمداد،

(١) ضعيف: رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وضعفه الألباني رحمه الله تعالى في ضعيف الجامع (٤٣٠٥).

ويمنع عنه حتى الكتابة في الجدران؛ لأنه ﷻ لما منعوا عنه المداد والورق جعل يكتب على الجدران فمنعوا ذلك عنه، وبالتالي منعوا زواره فلم يأت به أحد، ولم يحضره عند وفاته إلا أخوه عبد الرحمن. فمثل هؤلاء الأئمة وغيرهم من الأئمة أودوا في الله عز وجل.

وإذا تأملت التاريخ وجدت أن كل من كان أقوم لله كان أشد أذية من أعداء الله، وهذا شيء مُسَلَّم به؛ لأن الله قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١] فليزيم أن يجعل لكل تابع نبي عدوًّا من المجرمين؛ لأن أعداء الرسل ليسوا يعادون الرسل لأشخاصهم فقد كان محمد صلوات الله وسلامه عليه قبل الرسالة الصادق الأمين عند قريش، معظم مُبَجَّل، ولما جاء بالرسالة صار الكاذب الخائن الشاعر، الكاهن الساحر.

إذن المجرمون لا يعادون الرسل لأشخاصهم وإنما لما جاءوا به من الحق؛ فهذا الحق إذا بقي وقام به من يقوم من الناس صار المجرمون أعداءً له إرثًا بإرث، ولهذا قال ﷻ: (فاستحدث سوى ذا الرأي والحسبان).

قوله: (سوى ذا الرأي) (ذا) هنا اسم إشارة بمعنى: هذا، وليست بمعنى صاحب. أي: سوى هذا الرأي والحسبان.

لَوْ كُنْتَ وَارِثَهُ لَأَذَاكَ الْأَلَى وَرِثُوا عِدَاءَهُ بِسَائِرِ الْأَلْوَانِ

أي: لو كنت وارثه حقيقة، وقائم بما قام به لأزال هذا أعداءه الذين كانوا يؤذونه. والمراد هنا جنسهم، وليس المراد أشخاصهم؛ لأنهم ماتوا، لذا فالمراد جنسهم.

انتهى - بفضله الله - المجلد الثالث

وبليبه - إن شاء الله - المجلد الرابع

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	فصل في ذكر فرق لهم آخر وبيان بطلانه.....
١١	تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله).....
١٣	فصل في بيان مخالفة طريقهم لطريق أهل الاستقامة عقلاً ونقلاً.....
٢٢	تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله).....
	فصل في بيان كذبهم ورميهم أهل الحق بأنهم أشباه الخوارج، وبيان
٢٤	شبههم المحقق بالخوارج.....
٥١	تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله).....
	فصل في تلقيبهم أهل السنة بالحشوية وبيان من هو أولى بالوصف
٥٣	المدموم من هذا اللقب من الطائفتين.....
٦٠	تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله).....
	فصل في بيان عدوانهم في تلقيب أهل القرآن والحديث بالمجسمة
٦١	وبيان أنهم أولى بكل لقب خبيث.....
٧١	تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله).....
	فصل في بيان مورد أهل التعطيل وأنهم تعوّضوا بالقلوط عن مورد
٧٢	السلسيل.....
٧٧	تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله).....
	فصل في بيان هدمهم لقواعد الإسلام والإيمان بعزلهم نصوص السنة

- ٧٩ والقرآن
- ١٠٦ تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله)
- فصله** في إبطال قول الملحدين إن الاستدلال بكلام الله ورسوله لا يفيد العلم واليقين.....
- ١٠٨ يفيد العلم واليقين.....
- ١٤١ **فصله** في تنزيه أهل الحديث والشريعة عن الألقاب القبيحة الشنيعة...
- ١٤٦ تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله)
- فصله** في نكتة بديعة تبين ميراث الملقين والملقّين من المشركين والموحدين.....
- ١٤٧ والموحدين.....
- ١٥٥ تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله)
- فصله** في بيان اقتضاء التجهم والجبر والإرجاء للخروج عن جميع ديانات الأنبياء.....
- ١٥٧ ديانات الأنبياء.....
- ١٧٠ تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله)
- فصله** في جواب الرب تبارك وتعالى يوم القيامة إذا سأل المعطل والمشبه عن قول كل واحد منهما.....
- ١٧١ والمشبه عن قول كل واحد منهما.....
- ١٧٦ **فصله**.....
- ١٨١ تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله)
- فصله** في تحميل أهل الإثبات للمعطلين شهادة تؤدى عند ربّ العالمين.....
- ١٨٤ العالمين.....
- ٢٠٣ تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله)
- فصله** في عهود المثبتين مع رب العالمين.....
- ٢٠٤ عهود المثبتين مع رب العالمين.....
- ٢١٣ تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله)
- فصله** في شهادة أهل الإثبات على أهل التعطيل أنه ليس في السماء إله يعبد ولا بيننا كلام ولا في القبر رسول.....
- ٢١٧ يعبد ولا بيننا كلام ولا في القبر رسول.....
- ٢٢١ **فصله** في الكلام في حياة الأنبياء في قبورهم.....
- ٢٢١ في الكلام في حياة الأنبياء في قبورهم.....

- ٢٣٣ فصله فيما احتجوا به على حياة الرُّسل في القبور.....
- ٢٣٨ فصله في الجواب عمَّا احتجوا به في هذه المسألة.....
- ٢٦٧ تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله).....
- فصله في كسر المنجنيق الذي نصبه أهل التَّعطيل على معاقل الإيمان
و حصونه جيلاً بعد جيل.....
- ٢٦٩ تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله).....
- ٢٩١ فصله في أحكام هذه التراكيب الستة.....
- ٢٩٤ تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله).....
- ٣١٤ فصله في أقسام التوحيد، والفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد النفاة
المعطلين.....
- ٣١٦ فصله في النَّوعِ الثَّانِي من أنواعِ التَّوْحِيدِ لِأَهْلِ الإِخْتِادِ.....
- ٣٢٤ فصله في النوع الثالث من التوحيد لأهل الإختاد.....
- ٣٢٩ فصله في النوع الرَّابِعِ مِنْ أَنْوَاعِهِ.....
- ٣٣٢ تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله).....
- ٣٣٧ فصله في بيان توحيد الأنبياء والمرسلين ومخالفته لتوحيد الملاحدة
والمعطلين.....
- ٣٣٨ تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله).....
- ٣٤٥ فصله في النَّوعِ الثَّانِي من النوع الأول وهو الثُّبُوتُ.....
- ٣٤٩ فصله.....
- ٣٦٢ فصله.....
- ٣٦٤ فصله.....
- ٣٧٩ فصله.....
- ٣٨٦ فصله.....
- ٣٨٩ فصله.....
- ٣٩٣ تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله).....

٣٩٤	فصل
٣٩٨	فصل
٤٠٠	تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله)
٤٠١	فصل
٤٠٧	تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله)
٤٠٩	فصل
٤١٦	فصل
٤٢١	فصل
٤٣٠	تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله)
٤٣٢	فصل
٤٤٣	فصل
٤٤٧	تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله)
٤٤٨	فصل
٤٥٤	تمهيد بين يدي الفصل (كلام السعدي رحمه الله)
		فصل في حقيقة بيان الإلحاد في أسماء رب العالمين وذكر انقسام
٤٥٥	الملحدين.
٤٧٣	الفهرس

تحت الطبع:

التفسير الثمين

للعلامة ابن عثيمين

كتاب حوى:

- فرائد الفوائد
- حلُّ مشكلات المسائل
- تفسير القرآن بالقرآن
- تفسير القرآن بالسنة
- تفسير القرآن بكلام الصحابة

شَرْحُ صَحِيحِ الْجَمَاهِرِ

شَرْحُهُ وَأَمْلَاهُ : فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ

مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعَشِيمِيِّ

رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

سُخْفَةٌ مَضْبُوطَةٌ النَّصُوصِ مُحَرَّجَةٌ الْأَحَادِيثِ .

سُخْفَةٌ مَنْقُوحَةٌ - مُصَحَّحَةٌ

بِهَا : تَعْلِيقَاتٌ وَأَسْتِدْرَاكَاتٌ وَتَعْقِبَاتٌ لِلْعَلَامَةِ ابْنِ عَشِيمٍ

عَلَى كَلَامِ الْحَافِظِ ابْنِ حَجْرٍ فِي فَتْحِ الْبَارِي

رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى

وَبِحَبَاشِيَّتِهِ

تَعْلِيقَاتُ الْعَلَامَةِ ابْنِ بَنِي رَحِمَهُ اللَّهُ

وَفَوَائِدُ جَدِيدِيَّةٍ لِلْعَلَامَةِ الْأَلْبَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ

ذَكَرَ أَرْقَامَ أَطْرَافِ كُلِّ أَحَادِيثِ الْبَارِي فِي السِّيَاقِ وَاللَّاحِقِ عَلَيْهِ

الْإِشَارَةُ إِلَى مَعْلَقَاتِ الْبَارِي وَتَبَيَانِ وَصْلِهَا .

تَرْقِيمُ الْكُتُبِ وَالْأَبْوَابِ وَالْأَحَادِيثِ وَفَقَالَ التَّرْقِيمِ مُحَمَّدُ فَوَازُ عَبْدُ الْبَاقِي .

اعْتَنَى بِهِ الْقَسَمُ الْعَالَمِيُّ بِالْأَلْبَانِيِّ

الجامع الأكابر

في أخلاق الأنجبار

تأليف

جمال الدين القاسمي

المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ

رحمه الله تعالى

اعتنى به

قسم التحقيق بالدار

الدُّرَرُ البُهَيَّةُ فِي بَيَانِهَا

أَمَلْنَا هِيَ الشَّرْعِيَّةُ

مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

مُرْتَبَةً عَلَى الْأَبْوَابِ الْفَقْهِيَّةِ

جمعا ورتبا من اقوال شيخ العارفة

محمد بن صالح العثيمين

رحمة الله تعالى

جمعا ورتبا

قسم التحقيق بالدار